العيد عيدان

عاشر

وألفي

والذكرى ذكريات !

مولود قاسم
وزير التعليم الأصلي
والشؤون الدينية

تحتفل الجزائر هذه الأيام بالعيد العاشر لاسترجاع حريتها واستقلالها ، واستعادة مكانتها بين الدول والأمم.

ويصادف هذا العيد الوطني الكبير الذكرى الألفية لتأسيس مدينة الجزائر، وكذلك مليانة والمدية ، هذه المدن الأثيلة التي كان لها دورها المجيد في تاريخنا العريق ، منذ أن أسسها حسب ابن

خلدون ، بلكين بن زيرى (1) ، الذى يقول عنه أحد المؤرخين الجزائريين المعاصرين (2) : « انه وحده استطاع أن يحقق تدريجيا وحدة الشمال الإفريقى على نحو لم يوفق اليه حكام المغرب العربى قبله » .

وذكرى ثالثة يشملها هذا العدد بمقالتين ، هى تحية مجهود بعض علمائنا الأعلام فى العصر الحديث ، الذين قضوا حياتهم كلها ، وبعضهم ضحوا بها ، فى الإصلاح والكفاح ، واحياء تاريخ هذا البلد الأمين ، الغاضب عند الضرورة ، الثائر المجاهد ، المنتصر دائما فى النهاية !

فمشاركة فى الاحتفال بهذين العيدين ، واحياء لهذه الذكريات، وتذكيرا لأنفسنا وللأجيال الصاعدة بشهداء كفاحنا التحريرى فى مختلف مراحله ، وعلى مر العصور ، واشادة ببناة هذه البلاد وحماتها ، تقدم وزارة التعليم الأصلى والشؤون الدينية هذا العدد الخاص مساهمة متواضعة منها ، ستردفها قريبا ، أى بعد أيام ، بالعودة الى هذه المواضيع ، ذات الأهمية القصوى ، فى الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامى بشمولية وتفصيل .

---

1) البعض يكتبه بلغين ، بحرف الغين ، والاغلب أنه بالكاف كما يكتبه ابن خلدون .
2) عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر العام، ج 1 ص 324 .

أصول النشأة لمدينة الجزائر

عبد القادر حليمي

المدينة ظاهرة جغرافية لانها تشغل حيزا من سطح الارض ، وتتأثر بالطبقة السفلى من الغلاف الغازى ، كما ان المدينة حادثة تاريخية لها بداية ، وقد تكون لها نهاية ، وكذلك المدينة مركب اجتماعى وحضارى لانها مستعمرة بشرية كان ليد الانسان دخل فى نشأتها وتطورها او ذبولها فى بعض الاحيان ، ولا يمكن ان تدرس نشأة المدينة الا بالتعرض لهذه العناصر الثلاثة المتكاملة وهى الضوابط الجغرافية والتاريخية والبشرية .

وترجع نشأة مدينة الجزائر الى فترة ظهـــور الفينيقيين فى حوض البحر الابيض المتوسط الذين خرجوا من فينيقية باحثين عن المعادن والبضائـــع ومنشئين للمستعمرات التجارية على الشـــواطىء الجنوبية للبحر الابيض المتوسط ، وحيث استقـر بهم التجوال أسسوا مدنا كثيرة اختلفت فى تمثيلها للاهداف التى أسست لها ، فمنها المراكز التجارية ومنها المدن العمرانية ، ومنها العواصم السياسية . واختلفت هذه المدن العتيقة بشمال افريقية وبجزر البحر الابيض المتوسط فى مدى ثباتها أمام الاحداث التاريخية ، فكانت منها العظيمة الذائعة الصيت ، مثل قرطاجنة بتونس ، وسيراقوسة بصقليـــة اللتين استمرتا فى دورهما الحضارى مدة طويلة من الزمن . ومنها المدن المتواضعة التى كانت عبارة عن مراكز تجارية بسيطة اضمحلت وزالت بزوال الهدف التى أسست من أجلـه ، مثل رسيقينا أى تامنفوست حاليا ، ومنها المدن القيمة التى تناوبتها فترات الازدهار والركود حسب القيمة الاستراتيجية التى أضفاها عليها التاريخ السياسى للبلاد ، مثـل مدينة الجـزائر .

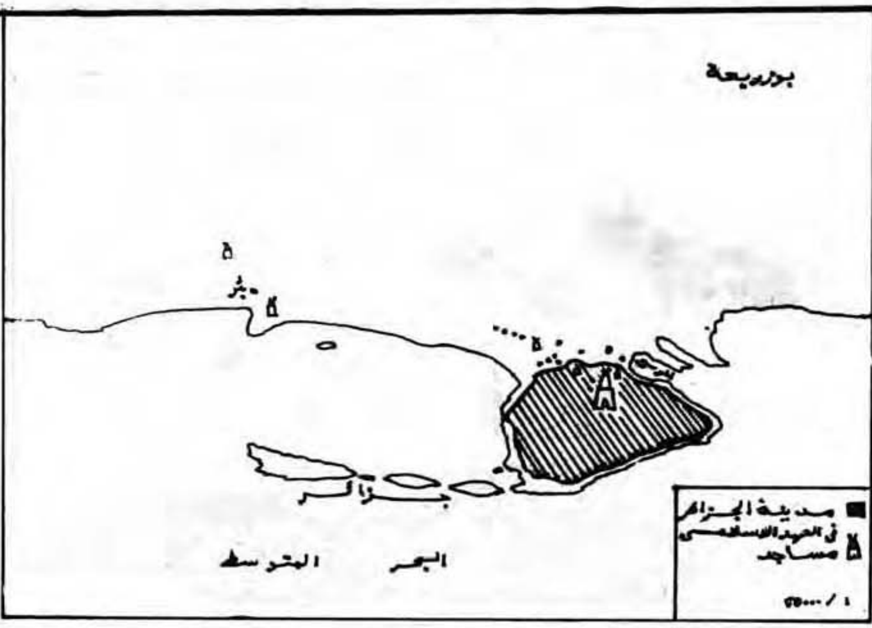


مدينة الجزائر القديمة
فى مطلع العهد التركى

ومن أهم ما يلاحظ على هذه المدن الفينيقيـة العتيقة ، خارج فينيقية ، انها كانت مطبوعة حضاريا بطابع شرقى واضح ، ذلك ان الوافدين ، الـذين كان لهم الفضل الاول فى نشأة المدن العتيقة عـلى شواطىء الحوض الغربى للبحر الابيض المتـوسط، لم يغفلوا عن طبع مدنهم فى شمال افريقية بالطابع التقليدى المنقول من الشواطىء الشرقية لنفـس البحر ، حيث نقلوا اليها عاداتهم ، وتقاليـدهم ، ومعاملاتهم ، وحتى معتقداتهم وقصصهم ، وأساطيرهم التى تدور حول نشأة هذه المدن ، مما يـؤدى بالباحث فى بعض الاحيان الى أخذ الحقائق التاريخية وتصفيتها أو تنخيلها بتحفظ وحذر . ومن ناحيـة أخرى فان هذا التاريخ الحضارى العمرانى رغـم ما يحمله فى أحد جوانبه من تصورات خيـالية ، وأساطير بالية ، وقصص زاعمة ، يساهم الى حـد كبير فى احياء التراث القديم ، وجعله المادة المتكلمة عن الماضى البعيد ، وبذلك يمكن الرجوع بالآثار الى أصـل النشأة .

وفى البحث عن أصول نشأة مدينة الجزائر لابد ان نعتمد على هذه الآثار ، مهما كانت قيمتهـا وقيمها دون أن نهمل العرض ، فالتحليل ، ثـم التعليل ، ثم الاخذ بالواقع أو بالاقرب للصواب .

وأول ما يعترضنا فى البحث عن الاصول الاولى لنشأة مدينة الجزائر هو الضبط بالارقام الـتى لا تقبل جدالا أو شكا لتاريخ تأسيسها الاول ، أو



للسنة التى وضعت فيها أول لبنة لبناء المدينة ، ذلك لشدة قدم تاريخها ولان الفترة التى أسست فيها مدينة الجزائر لاول مرة كانت فترة لا تساعد على الضبط بالارقام المدققة . يضاف الى ذلك أن البانى لاول منزل ، ما كان يفكر انه سيكون له شأن عظيم ، بل كثيرا ما سطرت الاقدار ما لم يتوقعه الانسان ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان الابحاث الاثرية حول أول لبنة لمدينة الجزائر مازالت جارية الى يومنا هذا . على أن المدينة لم تكن شيئا مذكورا قبل ظهور الفينيقيين فى عرض البحر الابيض المتوسط ، أى قبل نهاية الالف الثانى قبل الميلاد، وانها كانت موجودة فى الالف الاول لما قبل الميلاد، لكن بقى أن نحدد السنة من فترة الالف الاول لما قبل الميلاد اذ هى فترة طويلة وتشمل ألف سنة كاملة . وهنا تتشعب الآراء ويزداد الاختلاف اذ من الباحثين من يرد أصل النشأة الى القرن الخامس قبل الميلاد ، ومنهم من يذهب الى القرن السادس ، ومنهم من يكتفى بالقرن الاول . والمرجح أن مدينة الجزائر أسست لاول مرة فى القرن السادس قبل الميلاد كما سيظهر لنا من هذا البحث .

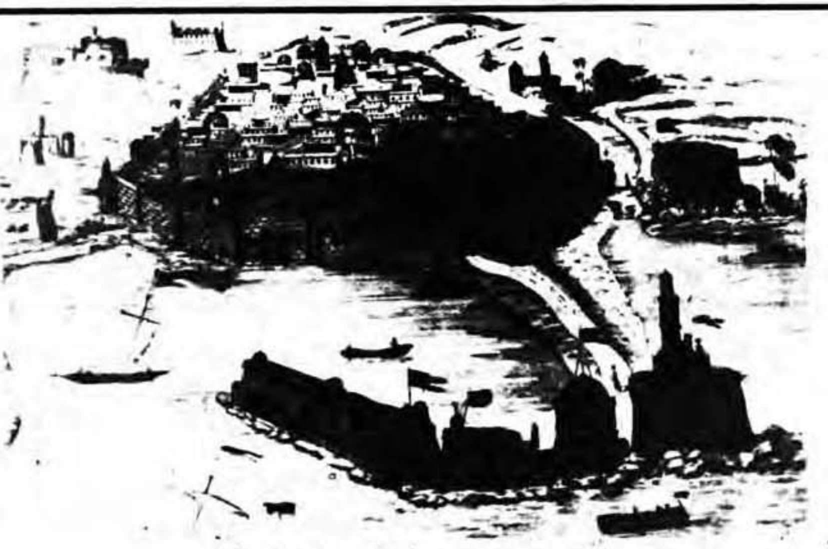
والسؤال الذى مازال يثير اهتمام الاثريين هو : من الجماعة التى كان لها الفضل الاول فى نشأة مدينة الجزائر ؟ هل السكان القدماء من شمال افريقية ؟ أم اليونانيون ؟ أم الفينيقيون ؟

فالذين يردون أصل النشأة الى السكان القدماء من شمال افريقيا أى البربر يعتمدون فى حكمهم على الروايات التاريخية والقصص المنقولة دون دراسة للآثار ، ومنهم مورقان فى كتابه تاريخ



جزر قديمة اشتق منها اسم مدينة الجزائر

الجزائر الذى يزعم « أن أغلب المؤرخين يذكرون أن مدينة الجزائر أسسها يوبا الثانى ، وهو ملك من البربر كان يحكم بلاد الجزائر فى مطلع عهد الاستعمار الرومانى . الذى أطلق عليها اسم ايول أو يوليوس قيصر . تخليدا لذكرى سيده الامبراطور الرومانى يوليوس قيصر الذى عاش فيما بين 101 و 44 ق م . وان العرب الذين دخلوا هذا الاقليم فى القرن السابع للميلاد غيروا المعالم الرومانية ، وأسماء المدن . ومن بينها اسم مدينة ايول التى أطلقوا عليها اسم الجزائر . نظرا لما كان أمام هذه المدينة الاهلية البربرية من جزر فى البحر . ثم نزلت بها قبيلة بنى مزغنة ، فيما بعد . فاضيف اليها حينذاك جزائر بنى مزغنة » . وهذه الرواية لمورقان لا تخلو من الشك أو قل . ولا حرج . انها بعيدة عن الصواب ، اذ المرجع والمعروف لدى المؤرخين ان مدينة ايول هى مدينة شرشال ، وليست مدينة الجزائر . وان اسم جزائر بنى مزغنة لم يرد الا فى كتب الرحالة العرب . أمثال محمد بن حوقل . وأبى عبد الله البكرى . وكانوا يقصدون بها مدينة الجزائر الحالية . التى يعود أصل نشأتها الى فترة أقدم مما ذكرها مورقان . اذ يوبا الثانى تولى الحكم فى هذا الاقليم فيما بين سنة 25 و 23 ميلادية . وكانت مدينة الجزائر موجودة قبل ذلك للادلة الاثرية والتاريخية . اذ كانت مستعمرة رومانية مزدهرة لها مشيختها الخاصة وادارتها المعروفة قبل يوبا الثانى ، وربما قام هذا الملك البربرى أو الاهلى بتجديد المدينة . ورفع البعض من معالمها وبذلك اختلط على مورقان أصل النشأة بتجديدها .



صورة لمدينة الجزائر فى العهد التركى ويتجلى فى الصورة الجزر التى أوصلها خير الدين بباب الجزيرة

ومن أنصار فكرة : مدينة الجزائر بناها الاهالى القدماء ، نجد أيضا فانتيردى بارادى الذى يذكـــر « ان مدينة الجزائر حديثة النشأة بناها المور ، (ويقصد بهم الاهالى أو البربر) بعد أن هـــدموا مدينة تامنفوست فى احدى ثوراتهم ضد الرومان ، واستعملوا صخور المدينة المهدمة فى بناء مدينة الجزائر الحديثة التى لا توجد بها آثار عتيقة »... ويتجلى ضعف فكرة فانتيردى بارادى فى قوله ان مدينة الجزائر ليس بها آثار عتيقة والواقع أن مدينة الجزائر بها آثار للاول ولم ينتبه لها فانتير ، وربما هذا يرجع الى قصر المدة التى قضاها فى مدينـــة الجزائر فيما بين 1788 ـ 1790 م وهو من رجـــال السلك الديبلوماسى الذين لم تسمح لهم الظـــروف بالبحث عن هذه الآثار ، أو ان هذه الآثار لم تـكن منتشرة بالدرجة التى تجلب الانتباه ، ثم ان فانتير يذكر ان الجزائر بنيت فى العهد الرومانى وهـذا يتناقض مع الابحاث الاثرية التى دلت على أن مدينة الجزائر هى أقدم من الاحتلال الرومانى .

اما صولين المؤرخ الرومانى والنحوى اللتينى الذى كان يعيش فى القرن الثالث للميلاد فيـذكر أن مدينة الجزائر يونانية الاصل بدليل اسمهـــا العتيق ايكوسيوم ، وهى كلمة مزجية يونانية مركبة من ايكوسى ومعناها باليونانية عشرون ، ذلـك ان الذين أسسوها كانوا عشرين نفرا من اليونانيين . أما قصة تأسيسهم للمدينة فيرويها صولين فى : « ان هؤلاء العشرين كانوا من ركاب البحـــر ، ومصاحبين لهرقل اليونانى الجبار ابن الاله جيبيتر فى احدى رحلاته البحرية لتحقيق عجائبه الكثيرة ،

منها الفصل بين جبال كالبى ، وجبال ابيك (أى بين جبال سيرانيفاد بشبه جزيرة ايبيريا وجبال الريف بالمغرب الاقصى) ، وعند ما وصل هرقل وأصحابه العشرون الى الموضع الذى تقوم عليه مدينة الجزائر الحالية توقفوا للاستراحة ، فاعجبتهم المنطقة ، ومل أصحاب هرقل العشرون من طول الطريق ، فمالوا الى الراحة والاستقرار ، فانفصلوا عنه ، ولبثوا فى المكان . أما هرقل فتابع رحلته البحرية الى أن بلغ البرزخ الذى كان يفصل بين شبه جزيرة ايبيريا والمغرب الاقصى ، فشقه ، وبذلك حقق احدى معجزاته السبعة ، وأوصل بين البحرين (البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلسى) بمضيق ، ظل يحمل اسم عمود هرقل مدة طويلة من الزمن ، وهو ما يعرف بمضيق جبل طارق حاليا فى كل اللغات ، نسبة الى طارق بن زياد فاتح بلاد الاندلس سنة 711 أثناء الفتوحات الاسلامية . أما العشرون نفرا من اليونانيين الذين انفصلوا عن هرقل فقد نزلوا البر ، وأسسوا مدينة العشرين ، حتى لا يستأثر بها أحدهم دون الآخر ، وأحاطوها بسور ظل قائما مدة طويلة من الزمن الى عهد الاحتلال الرومانى للجزائر ، حينذاك غير الرومان اسم مدينة الجزائر من ايكوسى اليونانية الى ايكوسيوم الرومانية التى منحها الامبراطور الرومانى فيسبا سيان حقوق الاحياء اللاتينية فى النصف الثانى من القرن الاول للميلاد .

ونلاحظ منهذه الاسطورة للنحوى الرومانى انها لاتختلف كثيرا علىأساطير القدماء التى كانوا ينسجونها حول تأسيس المدن وربطها بقصة من القصص الميثولوجية

ولا تلبث هذه القصص كثيرا بل سرعان ما تسقط غبارا أمام الحقائق العلمية أو الاثرية ، اذ ليست بمدينة الجزائر آثار يونانية، ولا ما يدل على وجودها ولم يتحدث عنها المؤرخون اليونانيون ، ثم ان هذا الاقليم لم يخضع للنفوذ اليونانى بل كان خاضعا للنفوذ الفينيقى فى القديم ، وان أهم ما يستفاد من قصة صولين ان مدينة الجزائر أقدم من الاحتلال الرومانى لشمال افريقية ، وانها ظهرت فى الفترة الاولى لازدهار حضارة حوض البحر الابيض المتوسط ، وهى فترة كان لليونانيين أغلب مستعمرات الشواطىء الشمالية من بحر ايجى الى بلاد الغال ، وللفينيقيين أغلب مستعمرات الشواطىء الجنوبية للبحر الابيض المتوسط . وبهذا يمكن اضافة قصة صولين فى بناء مدينة الجزائر الى القصص التى تحاك حول بناء مدينة روما وأثينا وقرطاجنة ...

ولم يغفل بعض الرحالة العرب فى التعرض الى أصل نشأة مدينة الجزائر ، منهم أبو عبيد الله البكرى الاندلسى (توفى سنة 487 هـ) الذى ذكر فى كتابه المسالك والممالك ما يلى : « جزائر بنى مزغنى هى مدينة جليلة ، قديمة البنيان ، فيها آثار للاول وازاج محكمة تدل على انها كانت دار مملكة لسالف الامم ، وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء ، فيها صور للحيوان بأحكم عمل وأبدع صناعة لم يغيرها تقادم الزمن ، ولا تعاقب القرون ، ولها أسواق ومسجد جامع ، وكانت بمدينة بنى مزغنى كنيسة عظيمة بقى منها جدار مدور من الشرق الى الغرب ،

وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص كثير النقوش والصور . ومرساها مأمون له عين عذبة يقصد اليها أهل السفن من أهل افريقية والاندلس وغيرهما . وهو مرسى مأمون ، مشتى بين جزيرة سطفلة من الشرق الى الغرب وبين البر » . ومن حديث البكرى هذا يظهر أن مدينة الجزائر عريقة فى القدم . وان آثارها كثيرة حتى يظن انها كانت عاصمة للبلاد فى وقت من الاوقات . وان عظمة كنيستها التى حولت الى مسجد تدل على مدى قيمتها التاريخية ، وانه كان لها شأن عظيم فى العهد الرومانى حيث كانت تتركز بها الديانة المسيحية وتقوم بها المدرسة الوهبية . لكن البكرى لم يتعرض الى الذين أنشؤوها لاول مرة .

— 2 —

ويظهر لنا ، كما ذهب اليه الكثير من الكتاب ، ان مدينة الجزائر فينيقية الاصل للادلة الجغرافية والتاريخية والاثرية :

1 ـ الادلة الجغرافية :

ان انتقاء الموقع الجغرافى يدل على انه انتقاء فينيقى ، ذلك ان الفينيقيين هم الذين كانوا يحتلون هذه الشواطىء ، وقد تعودوا على انشاء المحطات التجارية على الضفاف الجنوبية للبحر الابيض المتوسط مثل قرطاجنة وعتيقة بشواطىء تونس وروزيكاد ـ سكيكدة حاليا ـ وهيبون ـ عنابة حاليا ـ بشواطىء الجزائر . وروزادير ـ مليلة حاليا ـ وتانجس ـ طانجة حاليا ـ بشواطىء المغرب ومحطات أخرى يطول ذكرها على هذا الساحل الافريقى . وكانت هذه المحطات تساعدهم على



احد الاثرياء فى مدينة الجزائر القديمة

استراحة فى أسفارهم البحرية . ورحلاتهم التجارية للبحث عن ذهب السودان ، وفضة اسبانيا،وبضائع واصداف البربر . وفى هذه المحطات كان التجار الفينيقيون يتزودون بما يحتاجونه فى أسفارهم من مياه عذبة ومواد غذائية زيادة عن تبادل تجارى مع سكان الاقليم . ومما يلاحظ على هذه المحطات ، التى أسس البعض منها فى مطلع الالف الاولى لما قبل الميلاد ، وربما كانت منها مدينة الجزائر ، انها كانت تقع فى اماكن معينة ومقصودة للغاية ، حيث تقع على مسافات تتلاءم والمسافة التى تقطعها السفينة الفينيقية فى اليوم الواحد مثل 25 الى 45 كيلو مترا بين المحطة والتى تليها . وزيادة عن اعتبار

المسافة كان الفينيقيون ينتقون لتأسيس مراكزهم التجارية . المواضع التى تساعدهم طبيعيا على ارساء سفنهم ، مثل الجزر ، والرؤوس ، أو الخلجان أو مصبات الاودية ، والاماكن التى تتوفر فيها المياه العذبة ، ويوجد بجانبها الظهير الغنى مثل سهل متيجة . واعتمادا على هذه المعطيات الجغرافية المتوفرة فى اقليم الجزائر يبدو أن مدينة الجزائر ترجع فى أصول نشأتها الى الفينيقيين ، حيث أنها تقع على نقطة الوسط للمسافة البحرية الفاصلة بين تامنفوست وهى ، مما لاشك فيه ، محطة فينيقية وبين تيبازة وهى محطة فينيقية أيضا باتفاق الاثريين . يفصل بين المدينتين أى تيبازة وتامنفوست نحو الثمانين كيلومترا ، وهى مسافة طويلة لاتقطعها السفينة فى اليوم الواحد . لذلك اختار الفينيقيون موضعا مسطحا . يقع بين المحطتين السابقتين . تتوفر فيه الشروط الطبيعية لتأسيس محطة تجارية ملائمة تماما لارساء مراكبهم البحرية ، وهو موضع توجد به أربع جزر فى شكل حرف ألف ممدودة ، وجزيرات عدة يمكن التنقل عليها بسهولة الى البر ، تحمى السفن من حركات الامواج . والميناء يلائم الرسو ، كما ان الموقع يساعد على الدفاع ، والاتصال بالداخل وبالسهل المتيجى . وتتوفر به المياه العذبة التى كانت تفور من احدى جزيرات الميناء القديمة . ثم ازيلت هذه الجزيرة بما فيها من عيون عذبة فى مطلع عهد الاتراك لاستصلاح الميناء وتوسيعها .

— 3 —

2 ـ الادلة الاثرية :

لقد أجريت أبحاث كثيرة عن آثار مدينة الجزائر القديمة التى بنيت على أساسها المدينة الجديدة . وهى أبحاث أثرية نشطت فى فترة الاحتلال الفرنسى بحكم التخصص العلمى والتطور الحضارى فى هذه الفترة ، والذين قاموا بهذه الابحاث الاثرية هم من الفرنسيين مثل كانتينو وليش وصنطاس وجزال ، وخرج هؤلاء الباحثون بنتائج تؤكد أن مدينة الجزائر بنيت فى العهد الفينيقى وان بها آثارا فينيقية ، ومن هذه الآثار التماثيل و **الاضرحة** . **والاوانى الفخارية** و **النقود** ، فقد عثر على تمثال فى نهج القصر القديم يتكون من صخرة واحدة نقش عليها ما يرمز للعالم العلوى والآلهة القرطاجنية ، كالاله بعل الذى كان يعبده الفينيقيون . ويتقربون اليه فوق الروابى أو الاماكن العالية ظنا منهم أن هذه المواقع قريبة من العالم العلوى حيث تقيم الارواح الطيبة . وهذا الاله يشبه الى حد بعيد الاله المصرى القديم آمون الذى كان له معبد فى الكرنك على وادى النيل ، ولا شك أن المصريين القدماء والفنيقيين كانت لهم اتصالات قوية واحتكاكات حضارية أثرت حتى على معتقداتهم الدينية .

ولقد اكتشف الاثريون أيضا فى مدينة الجزائر ضريحا صخريا سنة 1848 فى حديقة سيدى عبد الرحمن ، وهو قبر فينيقى الاصل ، طوله 2,39م وعمقه 0,82 م . وجدت به تميمة مصرية الصنع نقشت عليها صورة للاله المصرى انوبيس له جسم انسان ورأس ذئب كان يعتقد انه اله الموتى . والتميمة من طين ، ارتفاعها نحو الست سنتميترات . كما وجد بالقبر قطع أخرى من الزجاج

الاخضر والاحمر والاصفر كان يتحلى بها صاحب الرفاة ، وآنية من طين ، ارتفاعها 17 سم وقطرها 12 سم . ولاشك أن هذه الآثار فينيقية الاصل لما يغلب عليها من الطابع الشرقى ، وكما تؤكده عادات الفينيقيين الذين تعودوا على دفن الميت مع حليه وتمائمه وادواته المنزلية التى كان يستعملها فى حياته الدنيا . وقد عثر أيضا سنة 1952 على بئر اثرية فى حى باب البحرية ـ باب الجزيرة ـ اثناء اعادة بناء ما خربته الحرب العالمية الثانية بشارع أول نوفمبر حاليا ، وعثر على هذه البئر العمال وهم يحفرون أساس البنايات الجديدة ، وكان عمقها يزيد 14،50 م وجدت فيها أوانى فخارية ترجع الى عصور تاريخية مختلفة وأقوام متعددة تداولت النفوذ فى هذه المنطقة ، وبالطبع فان أقدمها هى الواقعة فى أسفل الطبقات ، وترجع الى الآثار الفينيقية فوقها الآثار الرومانية تليها الآثار العربية كما عثر الاثريون أيضا سنة 1940 فى حى باب الجزيرة على قطع نقدية فينيقية ، وهى عبارة عن 158 قطعة نقدية معدنية ، جلها من الرصاص واقلها من البرونز ، صكت فيما بين القرن الثانى والاول قبل الميلاد ، تحمل فى احدى جوانبها صورة لامرأة على راسها تاج ، وأمامها رمز النصر ، وربما كانت هذه الصورة للآلهة المصرية ايزيس زوجة اوزريس وأم حورس ، لانها تشبهها الى حد بعيد ، وعلى الوجه الثانى من النقود نقشت صورة لرجل واقف على قاعدة صخرية ، ومتوج بتاج له ثلاث أسنة تشبه الاشعة ، وتوحى الى هيئة الاله الفينيقى بعل ، يكسوه قميص، ويتدلى من كتفه الايسر خوج من جلد الحيوانات ، وقد كتب على هذا الوجه العبارة التالية : ايكوسيم IKosim وبذلك عثر لاول مرة فى الابحاث الاثرية على الاسم القديم للمدينة ، وهو اسم فينيقى حرفه الرومان فيما بعد الى ايكوسيوم حتى يتماشى ولغتهم اللتينية . وقد تصدى المختصون فى اللغات السامية للبحث عن اصل ومعنى الكلمة المنقوشة فى تلك النقود ، وذكروا انها بونية الاصل ـ أى فينيقية ـ وتتالف من كلمتين هما : ـ I ـ ومعناها بالبونية : جزيرة ، و Kosim ومعناها الشوك وقيل الطيور التى تعيش فى الاطلال مثل البوم وهذا التحليل يذكرنا بالجزر الاربعة القديمة التى ظلت مدة طويلة منفصلة عن بعضها امام مدينة الجزائر وكانت تسمى فى عهد الرحالة العرب بجزر سطفلة ، وتقع أمام باب الجزيرة الى أن أوصلها الاتراك باليابس وامتدت اليها المبانى التى رفعت فوقها فاصبحت جزءا من الرصيف .

— 4 —

كما يذكرنا هذا التحليل ايضا بالطيور البحرية التى كانت تعيش فى اطلالها ، ويرى البعض ان كلمة كوس معناها دجاج البحر ، وعلى هذا يكون معنى الكلمة الفينيقية ايكوسيم : جزيرة دجاج البحر ، وهو الاقرب الى الصواب حيث يكثر دجاج البحر فى الشواطىء الجزائرية حتى الوقت الحالى ، وسميت عليها موانى كثيرة مثل مرسى الدجاج بالقرب من أرزيو ومرسى الدجاج أيضا على الشاطىء الغربى من مدينة الدلس ، وهى موانى لازالت تقصدها طيور البحر ، وبالخصوص الطيور المعروفة بدجاج البحر التى تطوف فى عرض البحر ثم تأوى للمبيت أو

للاستراحة على الحافة الشمالية للبنايات البحرية حاليا فى ميناء الجزائر .

وخلاصة هذا العرض ان المتتبع للآثار الفينيقية على نطاق واسع فى شواطىء شمال افريقية يظهر له ان الفينيقيين بدأوا فى تأسيس مراكزهم التجارية من الشرق الى الغرب بادئين بقرطاجنة ومنتهيـــين بالمدن العتيقـــة على شواطىء المغـرب الاقصى ، وبذلك فان المدن أو المراكز التجارية الفينيقيـــة الواقعة على الشواطىء الشرقية أقدم من المراكـــز الشاطئية الغربية . وان التركز على هذه الشواطىء سلك مرحلتـين ، أولهما مرحلة الاستكشافـــات للمواضع والمواقع الملائمة للتركز ابتداء من أواخر الالف ألثانى لما قبل الميلاد ، والمرحلة الثـانية بناء المراكز التجارية ثم المدن الصغيرة فى النصف الاول من الالف الاخير لما قبل الميلاد . ولما كانت مدينة قرطاجنة واقعة فى شرق المغرب العـــــربى وبنيت سنة 814 ق م كما دلت عليها الآثار . فان مدينة الجزائر الواقعة الى الغرب منها بحوالى ثمانمائة كيلومتر فلا بد أن تكون قد أسست فيما بعد . ولقد دلت الابحاث الاثرية التى أجراها صنطاس بعـــد الحرب العالمية الثانية فى مدينة تيبازة الواقعة على بعد حوالى الخمسين كيلومتر الى الغرب من مدينـــة الجزائر ان أقدم آثار فينيقية بتيبازة لا تتعـــدى القرن السادس قبل الميلاد،ويظهر من ذلك أن مدينة ايكوسيم الفينيقية أسست فى هذه الفترة أى حوالى القرن السادس قبل الميلاد فى حجر حى القصبة أو فى حى باب الجزيرة . وبالتالى يعد هذا الحى أقدم أحياء المدينة على الاطلاق واول نقطة اختـــــارها الفينيقيون لبناء مركزهم التجارى اى مدينة الجزائر العتيقـــــة .

ويظهر ان مدينة الجزائر عمرت فى الفترة الاولى لنشأتها بعناصر فينيقية مهاجرة وعناصر اهليـــة افريقية . وان كان الاساس الجنسى للفريقين واحدا، وجمعت بين العنصرين حرفة التجارة ، وتبـــادل البضائع المختلفة . لذلك كانت تزدهر المدينـــة وتنمو بازدهار التجارة وتركد بركودها . ولم تكن مدينة تامنفوست ولا مدينة ايول بالمدن الفينيقية الكبرى التى يمكنها أن تؤثر على عمران مدينـــة الجزائر . بل ان هذه المدن المجاورة كانت متممة لبعضها . بحيث تعتبر اساسا تاريخيا لما يمكـن أن نسميه بالجزائر الكبرى ، ولم يكن للمهاجـرين الفينيقيين أطماع استعمارية غير المسالمة والحياة التجارية مع البربر . لذلك لا يحدثنا التاريخ عـن قلاقل اجتماعية لسكان مدينة الجزائر فى الفتـرة الاولى من النشأة . بل وطيلة العهد الفينيقى بهـا . ولم تظهر الحياة الطبقية وامتياز بعض الجماعـات عن الاخرى . وعدم الامتزاج بالسكان الاصليـين ، فى مدينة الجزائر . الا فى عهد الاستعمار الرومانى، عند ما هاجرت الجاليات الرومانية الى المدينـة ، وكانت تحيى فى المستعمرات حياة ارستقراطية . تختلف تماما عن حياة السكان الاصليين . ولـــم يتركز الرومان فى المدن فقط . بل حصنوها بأسوار قوية حتى كانوا فى مأمن موقت من غضب وثـورات طبقة السكان الاصليين الذين كانوا معتبرين عبيدا فى عهد الرومان ، ثم رفع الرومان داخل هذه المدن الابراج والقصور التى زينوها بالرخام والتماثيـل ونظموا بها العيون والصهاريج واتخذوا من المدن المحصنة مراكز لادارة البـــلاد .

ولما دخل العرب المسلمون الى شمال افريقية

غيروا الكثير من المعالم الاجتماعية المتناقضة والقوانين الانسانية . فألغوا الاسوار التى تفصل بين الحاكم والمحكوم وبنوا الاسوار التى تقيهم من خطر العصبية المسيحية وهذا شيء استمد من طبيعته الاسلام . وأطلقوا على مدينة ايكوسيوم جزائر بنى مزغنة نسبة الى قبيلة أهلية كانت تسكنها . ثم اشتدت الهجرات العربية الى شمال افريقيا فى القرن الحادى عشر للميلاد ، فعمروا النجود والسهول ثم المدن . التى أخذوا يطبعونها بالطابع العربى الاصيل ونقلوا اليها دينهم الجديد وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم . وربطوها ببقية المدن العربية فى المشرق العربى تارة . وفى المغرب العربى تارة . وبذلك ازدهرت جزائر بنى مزغنة ازدهار المدن العربية ثم أخذت تنحدر نحو الاضمحلال أثناء الاختلافات الاسلامية فى شمال افريقية وفى بلاد الاندلس ، وانتهزت قبيلة الثعالبة من المهاجرين العرب هذه الفرصة للانتقال من السهل المتيجى الى مدينة الجزائر وكونت دويلة كانت تمتد من الدلس شرقا الى مدينة شرشال غربا . مركزها مدينة الجزائر وحينذاك وطد الثعالبة علاقاتهم بالاروبيين . وكانت القرصنة فى هذه الفترة التاريخية تسير جنبا الى جنب مع القرصنة بالنسبة لاغلب الدول الاروبية الواقعة على شاطىء البحر المتوسط . وعدت مدينة الجزائر سنة 1300 من بين أهم أسواق النخاسة التى كان القسيس رايموند البيرت يقصدها لشراء المسيحيين ثم تحريرهم . وأثرت قبيلة الثعالبة ومدينة الجزائر من هذه التجارة حينا من الدهر وتكونت فيها طبقة من الاثرياء كان بيدها مقاليد الحكم .

— 5 —

وفى نفس الفترة بدأت تؤم مدينة الجزائر جماعات من المهاجرين الاندلسيين الذين جاءوا الى شمال افريقية بعد ضعف ، وسقوط دويلاتهم فى شبه جزيرة ايبيريا . وانقسامهم الى أحزاب وشيع ضعفت أمام العصبية المسيحية . التى أخذت تستولى شيئا فشيئا على دويلات ملوك الطوائف وتدفع بالمسلمين الى شمال افريقية . واشتدت هجرة الاندلسيين بعد سقوط مدينة غرناطة سنة 1492 م ثم بعد قرار 1609 الاسبانى الذى ينص على أن كل مسلم أو من كان مسلما بأى شكل من الاشكال وفى أى عهد من العهود يجب أن يغادر اسبانيا فى الحين ، والا كان مصيره الاعدام . وتركز البعض منهم فى مدينة الجزائر . وكانت لهجرتهم أثرها الواضح على عمران المدينة . حيث زادوا من عدد سكانها . ونقلوا اليها على أكتافهم ما وصلوا اليه من تطور حضارى فى العمارة والتنظيم العمرانى بصفة عامة ، من شبه جزيرة ايبيريا . ومن الهجرات التى جاءت الى مدينة الجزائر فى العصور الوسطى نلاحظ هجرة اليهود أيضا التى نتجت عن العصبية الدينية المسيحية . وكان لها أثر على سياسة واقتصاد المدينة فى عهد الاتراك بالخصوص . ثم كانت هجرات العناصر التركية بعد ان قضى عروج على مملكة الثعالبة سنة 1516 م . والى العنصر التركى يضاف عنصر اللفيف الاجنبى الذى تكاثر بمدينة الجزائر فى عهد الاتراك . ونقصد باللفيف الاجنبى . أولئك العبيد المسيحيين الذين جمعوا على طريق القرصنة ، وهى حرفة ضرب فيها الاتراك بسهم الاسد . حيث جمعوا من الاسبان والايطاليين والانجليز والبرتغاليين

والالمان وغيرهم من الدول الاروبية المسيحية اعدادا كبيرا من البشر بلغت نسبتهم في بعض الفترات التاريخية الى 30٪ من مجموع سكان المدينة وقد حولهم الاتراك الى عبيد . وما كانوا يطلقون سراحهم الا بعد الفداء من ذويهم أو من المؤسسات الدينية المسيحية التى انشأتها بعض الكنائس الاروبية لهذا الغرض مثل جمعية لازاريت التى أسسها فانسان دي بول سنة 1633 وكان الاب ليفاشي من أشهر رجالها الذى قذفه الاتراك بالمدفع سنة 1683 بسبب خبثه وجوسسته الدنيئة على عورات سكان مدينة الجزائر . وكان من مهام هذه الجمعيات الدينية المسيحية جمع النقود من أروبا للفداء ، واقامة الصلوات وتنظيم الحملات الصليبية ، وبناء المراكز الصحية للاسارى المسيحيين ، وتثبيت الايمان في قلوبهم،وكثيرا ما كان الاسارى المسيحيون في الجزائر يعتنقون الاسلام طواعية وبالتالى كان يمكنهم ان يرتقوا الى مناصب الاتراك . وربما أصبح منهم داى البلاد ، والامثلة على ذلك كثيرة . نذكر منها الباشا علج علي (1568 ـ 1587) الذى أخذ من سواحل كالابريا بايطاليا وعمره 18 سنة . فاعتنق الاسلام بالجزائر ثم أخذ يرتقي في مناصب الدولة الى أن حاز مرتبة بيرلرباى سنة 1568 . ومثال أيضا على رمضان باشا فهو ساردى الاصل . وحسين قبطان بندقى الاصل . وجعفر داى مجرى الاصل ، وحسين فينزيانو بندقى الاصل ... ومعنى هذا أن سكان مدينة الجزائر كانوا خليطا في العهد التركي الذى ذاب فيه العنصر العربى كما ذاب في بقية السلطنة العثمانية . وفقد قيمته الاجتماعية . وانزلقت شخصيته .

ولقد مرت مدينة الجزائر في تاريخها العمراني بمراحل عدة شأنها في ذلك شان المدن العتيقة ، فقد مرت بمرحلة الولادة التى كان فيها المنزل الواحد يمثل نواة المدينة ثم بدأت تتجمع منازل أخرى من غير نظام حول المسكن الاول . ثم جاءت مرحلة الطفولة التى تميزت بظهور شوارع تربط بين المنازل التى ليس لها تخصص وظيفي . فالدكان في أسفل المنزل وصاحبه يسكن في نفس الطابق أو فوقه كما ان صاحب الحركة كالحداد مثلا كان يباشر حرفته حيث يسكن،ومعنى هذا ان منازل مدينة الجزائر في مرحلة الطفولة كانت تجمع بين عدة وظائف فتمثل الماوى وهى في نفس الوقت ورشة للعمل . ثم جاءت مرحلة الشباب وهى الفترة التى ازدهرت فيها حضارة البحر الابيض المتوسط وزاد النفوذ الفينيقى في شمال افريقية ، وفيها أخذت الاحياء السكنية تتميز عن الاحياء التجارية . وأخذ الساكن بالمدينة يقطع مسافة بين محل سكناه ومحل عمله . ثم كانت مرحلة النضج التى تتفق وما بعد القرن الاول للميلاد وتستمر الى اواسط القرن الرابع للميلاد . لتدخل مرحلة الشيخوخة . فيها نالها التخريب واثرت عليها ثورات الاهالى ضد الجور الرومانى ، وظلت على هذه الحالة الى أن دخلها العرب المسلمون . لكن مدينة الجزائر لم تستعد شبابها الى أن أعاد تجديدها بلكين سنة 960 م ثم في القرن 16 للميلاد بعد أن دخلها الاتراك واتخذوها عاصمة للبلاد . حينئذ عادت من أمهات مدن شواطىء حوض البحر الابيض المتوسط وسيدة البلاد الجزائرية . وظلت محافظة على مركزها الى يومنا هذا .

بلقين بن زيري

د . رشيد بورويبة

ذكر ابن خلدون ان بلقين بن زيرى « اختط بامر ابيه وفي عهده مدينة الجزائر المنسوبة لبني مزغنة بساحل البحر ومدينة مليانة بالعدوة الشرقية من شلف ومدينة لمدية » .

فبودنا ونحن نحتفل بالذكرى الالفية لتأسيس الجزائر ان نخصص مقالنا هذا لمشيدها .

كان بلقين بن زيرى من قبيلة صنهاجة . وصنهاجة على قول ابن خلدون من ولد صنهاج . وصنهاج هذا عند النسابة البربر من بطون البرانس وعند نسابة العرب من نسل حمير مؤسس الدولة الحميرية في اليمن .

وكانت قبيلة صنهاجة من اوفر قبائل المغرب حتى – على قول ابن خلدون – زعم كثير من الناس انها الثلث من امم البربر وحسب بعض النسابة بلغ عدد بطونها سبعين من اعظمها تلكاتة بطن آل

زيرى وآل حماد ولمتونة ومسوفة من بطون المرابطين فكانت تلكاتة تسكن بالمسيلة وحمزة (البويرة الحالية) والجزائر ومليانة ولمدية .

وكان بلقين بن زيرى من عائلة كبيرة قوية لعبت دورا عظيما فى المغرب . ومن افراد هذه العائلة الذين اشتهروا قبل بلقين نذكر المثنى بن مسور ومناد بن منقوش وزيرى بن مناد .

1) المثنى بن مسور :

ذكر النويرى ان المثنى بن مسور الحميرى فر من اليمن بعد ما فتحه الحبشة سنة 525 م ورحل الى الشحر ، جنوبى جزيرة العرب . حيث تلقى بكاهن من عائلة حمير كهن له ان أبناءه يؤسسون دولة فى المغرب وأوصاه بالسفر الى هذا القطر . فسمع المثنى قول الناصح ورحل الى المغرب واستقر به .

2) مناد بن منقوش :

كان مناد ، على قول النويرى كثير المال والولد وكان يحسن الضيافة للمسافرين . فبنى مسجدا ليبيتوا فيه وكلما رأى غريبا ضيفه ثم عند ذهابه زوده بالعيش والملابس والمال . ثم يقص النويرى علينا الاسطورة الآتية : «فاتفق أن يوما من الايام رأى مناد غريبا فى المسجد فضيفه . فبعد ما فرغ الضيف من الاكل أخذ يتأمل عظم كتف الكبش الذى كان ذبحه مناد على شرفه ويلقى نظره على مناد متعجبا . فقال له مناد : لماذا تنظر الى ؟ فقال : هل لك زوجة حامل ؟ فقال نعم . فقال هل لك ابناء معها ؟ فقال لا ، ولكنني عندى أبناء مع زوجاتى الأخر . فقال أحضرهم بين يدى . فاحضرهم ، فاخذ الضيف يتأمل كل واحد منهم ثم قال لمناد : اعتن بزوجتك الحامل لانها تلد لك ابنا يملك المغرب وأبناءه بعده . فاعتنى مناد بزوجته كل الاعتناء وبعد مدة ولدت له طفلا سماه زيرى » .

3) زيرى بن مناد :

ا ـ طفولته :

يذكر النويرى أن زيرى كان أجمل أبناء مناد الذين كانوا مشهورين بجمالهم حتى كان الناس يضربون المثل بهم ويضيف الى ذلك أن زيرى كان قوى البنية حتى كان يظهر فى عمره عشرين سنة وهو فى العاشرة من سنه ، وكان أصحابه يطيعونه ويسمونه السلطان .

ب ـ محاربته لزناتة وتاسيس مدينة اشير :

فكبر زيرى وجمع جيشا غزا به زناتة . فغارت منه البطون الصنهاجية الاخرى وحاربته فتغلب عليها ثم غزا قبائل زناتة مرة ثانية ، فكثر عدد أتباعه ، فضاقت بهم أرضهم وطلبوا منه ان يؤسس لهم مدينة كبيرة يسكنونها . فسار بهم الى موضع أشير فرأى ما فيه من العيون فاستحسنه وبنى فيه مدينة اشير التى مازالت آثارها قرب عين يوسف فى ولاية تيترى وسكنها مع أصحابه . واعانه الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله فى تشييد اشير وبعث له مهندسا ماهرا وكما كبيرا من الحديد ومن المواد اللازمة للبناء . فما نسى زيرى خير الخليفة الفاطمى واصبح من أحلافه المخلصين فاظهر وفاءه واخلاصه اثناء ثورة أبى يزيد وغزو مدينة فاس .



المغرب في عهد بلقين بن زيرى

ج ـ ثورة ابى يـزيد :

ان أبا يزيد مخلد بن كداد الملقب بصاحب الحمار كان من قبيلة بنى افرن وهى من أعظم بطون زناتة ، فكانت تملك المغرب الاوسط من تلمسان الى جبل عمور . فكان أبو يزيد نكارى المذهب ، فثـار على الفاطميين سنة 942/332 وفى مدة ستة أشهر فتح باجة وتونس والقيروان وسوسة وحاصر المهدية عاصمة العبيديين . فطلب الخليفة القائم مساعفـة زيرى بن مناد . فلبى زيرى نداء القائم وبلغـــه خمسمائة عبد ومائة حمل من القمح . هذا ما اضطر أبا زيد الى رفع الحصار عن المهدية سنة 945/334 وكذلك عند ما حاصر المنصور بن القائم أبا يزيد بقصر كيانة الواقع فى المكان الذى تتأسس فيـه قلعة بنى حماد ، سار زيرى فى جيش عظيم وساهم فى قتال أبى يزيد وقتله سنة 946/336 .

د ـ غزو مدينـة فاس :

وفى عهد الخليفة الفاطمى المعز بن المنصـــور شارك زيرى فى غزو المغرب الاقصى مع جوهـــر الكاتب قائد الجيش الفاطمى . فسار الجيـــش الفاطمى الزيرى لمحاربة قبائل زناتة التى كـانت خلعت طاعة المعز وخضعت للخليفة الاموى . فتوجه الجيش نحو تاهرت ثم نحو فاس . فحاصرها بدون نتيجة . فتوجه نحو سجلماسة وفتحها ثم رجع الى فاس وفتحها بفضل شجاعة زيرى وجسارته كما يذكره ابن الاثير فى السطور الآتية : « فقام زيرى ابن مناد فاختار من قومه رجالا لهم شجاعة وأمرهم أن يأخذوا السلاليم وقصدوا البلد ، فصعـدوا الى السور الادنى فى السلاليم وأهل فاس آمنون . فلما صعدوا على السور قتلوا من عليه ونزلوا الى السور الثانى وفتحوا الابواب وأشعلوا المشاعل وضربوا

الطبول . وكانت الامارة بين زيرى وجوهر فلما سمعها جوهر ركب فى العساكر فدخل فاسا » .

وبعد هذا الانتصار أهدى الخليفة الفاطمى المعز مدينة تاهرت لزيرى بن مناد وأذن هذا الاخير لابنه بلقين بتاسيس الجزائر ومليانة ولمدية .

هـ ـ انتصار بلقين على قبيلة مغراوة :

ان الخليفة الاموى الاندلسى الحكم الثانى الذى تولى الامر سنة 350/961 واصل سياسة أبيه فى المغرب وهى الاعتماد على القبائل الزناتية ولاسيما قبيلة مغراوة لتركيز سيطرته على المغرب الاوسط. فأمام هذا الخطر العظيم أمر زيرى ابنه بلقين بقتال زناتة . فجمع بلقين جيشا عديدا وبفضل اعلام تاله من أحد أتباع محمد بن الخير قائد قبيلة مغراوة التى كانت استولت على جل المغرب الاوسط ، فهجم بلقين فجأة على أعدائه بناحية تلمسان وانتصر عليهم انتصارا تاما .

و ـ محاربة زيرى لبنى حمدون وقتله :

كان جعفر بن على بن حمدون صاحب المسيلة وحليفا للخليفة الفاطمى مثل زيرى بن مناد . فغار جعفر من زيرى ولم يعنه فى محاربته لزناتة بل ما أخذ أى تدبير لازالة دسائس أتباع الخليفة الاموى بالمسيلة . فحاول الخليفة الفاطمى أن يصلح بين حليفيه فاستدعاهما . فحضرا بين يديه ولكن المقابلة انتهت بدون نتيجة . وبعد مدة استدعى المعز جعفرا وحده ، فلم يلب استدعاءه . فأرسل له المعز رسولا . فخاف جعفر وغادر عاصمته وسار الى بلد زناتة . فسروا به وعينوه قائدا على جيوشهم . فعند ما سمع زيرى بخيانة جعفر جمع جيشا لقتاله . ولكن انتصر جعفر على الجيش الصنهاجى وسقط زيرى من فرسه فقتل .

هذه هى الظروف التى مات فيها زيرى بن مناد وبعد وفاته خلفه ابنه بلقين . قد رأينا أن بلقين بدأ يلعب دورا فى شؤون المغرب فى حياة ابيه : فكان أسس ثلاث مدن ، الجزائر . ومليانة . ولمدية . وانتصر على قبيلة مغراوة . فلندرس الآن تاريخه بعد ما خلف اباه على رأس قبيلة صنهاجة فنقسم دراستنا الى ثلاث نقاط رئيسية : بلقين قبل تعيينه كخليفة للفاطميين على المغرب وتولية بلقين وأخيرا بلقين بعد توليته .

1 ـ بلقين قبل تعيينه كخليفة للفاطميين على المغرب :

كان بلقين بأشير لما سمع بقتل أبيه . فلم يلبث أن يأخذ بثاره فجمع جيشا عظيما . فامده المعز بالاموال والجنود . فخرج من أشير فى آخر سنة 360 أو أوائل سنة 361 الموافقين لسنة 971 م ، فحارب زناتة بباغاية والمسيلة وبسكرة وطاردهم من المغرب الاوسط واتبعهم فى المغرب الاقصى . ووصل الى سجلماسة حيث ألقى القبض على الخير ابن محمد وقتله كما قتل عددا كبيرا من جنوده ثم رجع الى المغرب الاوسط . فسر الخليفة الفاطمى بانتصار بلقين وزاد فى اقطاعه المسيلة وأعمال بنى حمدون .

وفى محرم سنة 361 ـ نوفمبر 971 استدعى المعز بلقين وأمره بأن يزيل الحرب ويرفق على زناتة

ويطلق سراح نسائهم وأولادهم الاسرى . وقبل سيره الى افريقية اختار بلقين بين عبيده عمالا على تاهرت وأشير والمسيلة وبسكرة وطبنة وباغاية ومجانة . وعند ما وصل الى المنصورية استقبله المعز بأبهة فى ايوانه والبسه خلعته وقلده سيفه واهدى له أربعين حزمة من الملابس الفاخرة واربعين فرسا عليها سروج نفيسة ، ومن جهته أهدى بلقين للمعز ألفي جمل كان غنمها أثناء محاربته لزناتة .

2 ـ تولية بلقين كخليفة للفاطميين :

وعند ما ذهب المعز الى مصر خلف بلقين فى المغرب وحول هذا التعيين لنا أساطير موجودة فى كتاب الخطط للمقريزى وفى رحلة التيجانى وفى البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى المراكشى فقال المقريزى :

« ولما عزم المعز على المسير الى مصر أجال فكره فيمن يخلفه فى بلاد المغرب فوقع اختياره على جعفر بن على الامير فاستدعاه وأسر اليه انه يريد استخلافه بالمغرب فقال : تترك معى أحد أولادك واخوانك يجلس فى القصر وأنا ادير ، ولا تسالنى عن شىء من الاموال لان ما أجبيه يكون بازاء ما أنفقه من الاموال . واذا أردت أمرا فعلته من غير أن أنتظر ورود أمرك فيه لبعد ما بين مصر والمغرب ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره الى . فغضب المعز وقال : يا جعفر عزلتنى من ملكى . وأردت أن تجعل لى فيه شريكا فى أمرى واستبددت بالاعمال والاموال دونى . قم فقد أخطأت حظك . وما أصبت رشدك . فخرج عنه . ثم انه استدعى يوسف بن زيرى الصنهاجى وقال له تاهب لخلافة المغرب . فاكبر ذلك وقال : يا مولانا أنت وآباؤك الائمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما صفا لكم المغرب . فكيف يصفو لى وأنا صنهاجى بربرى ؟ قتلتنى يامولانا بغير سيف ولا رمح . فمازال به المعز حتى أجاب بشريطة أن المعز يولى القضاء والخراج لمن يراه ويختاره . ويجعل الحيز لمن يثق به ويجعله قائما بين ايدى هؤلاء ، فمن استعصى عليهم يأمره به حتى يعمل به ما يجب ويكون الامر لهم ويصير كالخاصم بين أولئك . فأحب المعز ما قال وشكره . فلما انصرف قال أبو طالب ابن القائم بأمر الله للمعز يامولانا وتثق بهذا القول من يوسف وانه يقوم بوفاء ما ذكر . فقال المعز يا عمنا كم بين قول يوسف وقول جعفر ؟ فاعلم يا عم ان الامر الذى طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير اليه يوسف . واذا تطاولت المدة سينفرد بالامر ، ولكن هذا أولا أحسن وأجود عند ذوى العقل وهو نهاية ما يفعله » .

وقال التيجانى فى رحلته :

« قال يسام : لما تغلب بنو عبيد الناجمون بافريقية على مصر فخلص لهم صميمها وتم لهم ملكها ونعيمها وأراد معد بن اسماعيل بن محمد بن عبيد الله الملقب بالمعز لدين الله اقتعاد صهوتها واثبات قدمه على ذروتها . دعا زيرى بن مناد وهو يومئذ من صنهاجة بمكان السنام من الغارب وبمنزلة الوجدان من نفس الطالب وكان له عشرة من الولد آساد شرى وأقمار سرى . فقال : ادع لى بنيك فقد

علمت رايي فيهم وفيك ، وكان أصغرهم سنـــا واهونهم عليه شانا يوسف بن زيرى ، فدعا ولده ما عداه والمعز ما يريد سواه ، وكانت عند المعـز - زعموا - أثارة من الحدثان قد علم بها مصـائر احواله ، واهل الغناء من أعيان رجاله ، وكانت عنده للخليفة على افريقية اذا صار اليه ملك مصر علامة يانس بها انس الكبير بذكر شبابه ، ويعرفها عرفان العاشق بديار احبابه ، فنظر في وجوه بنى زيـرى فانكره ، حين تفقد تلك العلامة فلم يرها ، فقال لزيرى : هل غادرت من بنيك احدا ؟ فلست أرى لمن هاهنا منهم أيدا ولا يدا ، فقال الا غلام وطفق يصغر شانه والمقدار قد عناه واعانه ، ويطـوى أخباره والاختيار يدير عليه مداره ، فقال المعـز لا أراك حتى أراه ، فلست أريد سواه ، فلما رآه عرفه وفوض اليه من حينه واستخلفه فاستولى من وقته على الامور » .

وأما رواية ابن عذارى فتشابه رواية التيجانى.

هذه هي الاساطير التى وصلت الينا عن تولية بلقين ، فلنذكر الآن ما يقوله المؤرخون عن هذا الحدث المهـــم .

فوقعت تولية بلقين يوم الاربعاء 20 من شهـر ذى الحجة 360/2 أكتوبر 972 بسردانية ، وهـى قرية قرب القيروان ، فحضر بلقين بين يدى المعز فالبسه المعز خلعة الخلافة واهدى له أكسيـــة فاخرة وفرسان عليها عدد نفيسة وولاه على افريقية والمغـرب ما عدا جزيـرة صقلية ومدينة طرابلس الغرب واجدابية وسرت وامره في الجيش وجعـل خاتمه فى يده وسماه يوسف وكناه أبا الفتـــوح ولقبه سيف الدولة . وجعل المعز على جبايـــة أموال افريقية زيادة الله بن القديم وعلى الخراج عبد الجبار الخراسانى وحسين بن خلف المرصدى وأمرهم بان يطيعوا بلقين فاقام المعز اربعة اشهر بسردانية ثم رحل عنها ومعه يوسف بلقين فوصل الى سفاقص وفى نواحى هذه المدينة ، على حد قول ابن خلدون ، ودع الخليفة الفاطمى ورجـع الى القيروان ، وعلى قول بعض المؤرخين ودع المعـز فى نواحى قابس ، وعند وصوله الى القيروان لقى بلقين استقبالا حارا من طرف أهل المدينة ونزل قصر المعز بالمنصورية حيث أقام أربعة أشهـر عين أثناءها الولاة وجباة الاموال .

3 - بلقين بعد توليته كخليفة للفاطميين :

ان أهم الاحداث وقعت فى هذه الفترة من حياة بلقين هى : ثورة أهل قابس ، وغزو المغرب الاوسط وتعيين عبد الله الكاتب كوالى افريقية ، وثورة خلف ابن خير ، ووفاة الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، وغزو المغرب الاقصى .

ا) ثورة اهل قابس :

فى أول دولة بلقين ثار الاباضيون فى ناحيـــة قابس ونهبوا أرباض المدينة وأحرقوها وحاصروها ولكن لم يفتحوها لان الجيش الذى سيره بلقـــين هزمهم هزيمة شنعـــاء .

ب) غزو المغرب الاوسط :

فى شعبان 362/ماى 973 خرج بلقين الى المغرب الاوسط فى جيش عظيم من كتامة وصنهاجة ، فمر بمدينة باغاية وعين عاملا للمدينة وأوصاه باللطفة

بسكاتها ثم واصل طريقه نحو المغرب وبينما هو سائر فى طريقه سمع بأن أهل باغاية ثاروا على عامله وقاتلوه وهزموه ، فسير بلقين جيشا ليقضى على ثورتهم فلم يقدر عليهم فأرسل قائد الجيش الى بلقين يعرفه الحال . فتأهب بلقين للسير الى باغاية وبينما هو فى التجهيز أتاه خبر ثورة أهل تاهرت على عامله . فرحل اليها وفتحها عنفا ثم تاهب للسير الى باغاية وبينما هو فى التجهيز أتاه خبر نزول زناتة بتلمسان . فرحل اليها وحاصرها مدة ثم طلب أهلها الامان منه فعفا عنهم الا أنه على قول ابن الاثير نقلهم الى مدينة أشير .

ج) تعيين عبد الله الكاتب كوالى القيروان :

أثناء رحلة بلقين الى المغرب الاوسط توفى عامل القيروان والمنصورية جعفر بن تمرت فى جمادى الثانية 363/مارس 974 ، فكتب زيادة الله ابن القديم المسؤول على الجباية وطلب من بلقين تعيين عامل آخر يساعده فى تسيير الامور . فعين بلقين عبد الله محمد الكاتب التميمى بن الامير الاغلبى محمد الذى كان هرب من القيروان عند وصول الفاطميين . فكان عبد الله كاتبا فى ديوان الانشاء . فرفض اقتراح بلقين بقوة عدة مرات وما قبل هذه الوظيفة الا بعد ما استدعاه بلقين وهدده بالقتل ان استمر فى رفضه . فرجع عبد الله الى القيروان فاستقبله زيادة الله استقبالا وديا واتفق الرجلان مدة ثم تنازعا ودار القتال بينهما وانتهى بانتصار عبد الله الكاتب الذى سجن خصمه ثم قتله . ولم يتدخل بلكين فى هذا النزاع خوفا أن يتهمه المعز بخلع موظف كان سماه قبل مسيره الى مصر الا انه أعان عبد الله الكاتب سرا.

د) ثورة خلف بن خير وخضوع اهل باغاية:

وبعد قتل زيادة الله ثار خلف بن خير أحد مناصريه على بلقين وتحصن فى قلعة من قلع بلاده مع أتباعه . فهجم بلقين على قلعة خلف وفتحها بعد حصار استغرق أربعة أيام ، فقتل بلقين عددا لا يحصى من الثوار ولكن خلف تمكن من الفرار الى بلاد كتامة . فهدد بلقين بالقتل من يدافع عنه أو يأويه . فالقى القبض عليه فقتل . ثم أرسل بلقين عشرة رجال من مدينة القيروان الى أهل باغاية يطلبون منهم أن يخضعوا لبلقين فقبلوا ، فأخرجهم بلقين من المدينة وخربها وما ترك الا ربضها .

هـ) وفاة الخليفة الفاطمى المعز لدين الله :

وفى شهر ربيع الثانى من سنة 365/نوفمبر 974 توفى المعز لدين الله وخلفه ابنه العزيز بالله فبعث بلقين هدايا الى الخليفة ومن جهته بعث العزيز بدنانير مضروبة باسمه وأقر بلقين على ولاية افريقية وأضاف اليه مدن طرابلس واحدابية

و) غزو المغرب الاقصى :

على قول ابن عذارى كان رحيل بلقين من افريقية الى المغرب يوم الاربعا. لخمس بقين من شعبان 27/368 مارس 979 وكان فى جيش يشتمل على ستة آلاف فارس ففتح بلقين مدينة فاس بدون صعوبة وأقام بها مدة ثم توجه نحو سجلماسة حيث كانت زناتة اجتمعت . فتغلب عليهم . فقتل أمير مغراوة ابن خزر وملك سلجماسة وبلاد

الهبط كلها وطرد من مدنها عمال بنى امية . ثم رحل الى سبتة فى طلب من لجأ اليها من زناتة ، فاستغاثت زناتة بالمنصور ابن أبى عامر حاجب الخليفة الاموى الحكم فخرج بعساكره الى الجزيرة الخضراء وجمع جيشا عظيما وأمر عليه جعفر بن حمدون صاحب المسيلة سابقا . وامده بمائة حمل من المال . فعبر الجيش البحر ووصل الى سبتة . واما بلقين فكان سيره صعبا لانه وجد فى طريقه غابات مشتبكة الاشجار . فمضى بنفسه حتى أشرف على سبتة من جبل مطل عليها . فلما رأى معسكر زناتة ـ المراكب المشحونة بالعدد تعبر الزقاق بدون انقطاع ـ فاستيقن أنه لن يقدر على فتح سبتة وقال : « هذه أفعى فغرت الينا فاها » وذهب الى مدينة البصرة وأميلة وحارب قبيلة برغواطة وانتصر عليها وتوجه نحو سجلماسة التى تولتها زناتة من جديد ، وبعد فتح سجلماسة سار بلقين نحو الشمال فاعتل فى الطريق بالقولنج وقيل خرج فى يده بثرة فمات منها .

هكذا توفى ابن زيرى مؤسس الدولة الزيرية التى تولت الامر فى افريقية الى منتصف القرن السادس الهجرى . الثانى عشر الميلادى . وأب حماد مؤسس الدولة الحمادية التى ملكت المغرب الاوسط حوالى قرن ونصف . فكان بلقين قائدا عظيما . قضى حياته فى الحروب فى سبيل توحيد المغرب من طرابلس الى المغرب الاقصى . وبجانب هذه الفضائل العسكرية ، أظهر بلقين فضائل ادارية واستراتيجية وسياسية عظيمة لانه رأى حسن موقع المدن الثلاثة التى أسسها : الجزائر ومليانة ولمدية .

مَدينة الجزائر في كتاب أنجليزي قديم

د . ابو القاسم سَعد الله

من الكتب القديمة عن الجزائر كتاب ضخم بالانكليزية طبع فى لندن سنة 1731 ، وعنوانه « الكامل فى تاريخ الجزائر » تاليف السيد جوزيف مورقان . ويقع فى اكثر من 700 صفحة من الحجم الكبير . وهو فى مجلدين : مجلد فى تاريخ شمال افريقية عامة (بربارية (BARBARY)) من اقدم العصور الى بداية القرن السادس عشر ، والمجلد الثانى وهو فى تاريخ الجزائر خاصة ، من بداية العهد العثمانى حتى زمن طبع الكتاب (1731) ويحتوى على جزئين : الاول من قدوم العثمانيين حتى تولى الحاج باشا (1545) والثانى منه الى بداية القرن الثامن عشر . وليس هذا اول كتاب بالانكليزية عن الجزائر ، ولكنى لا اعرف انه ترجم كاملا او ملخصا الى الفرنسية ، فما بالك بالعربية .

ومؤلف هذا الكتاب عاش سنــوات طويلة فى الجزائر ، وتولى فيها بعض المهام فى قنصلية بلاده عندنا فى عهد القنصل البريطانى العــام ، السيــد روبير كول R. COLE الذى أقام فى مدينة الجزائر أكثر من أربعين سنة . وكان على اطلاع بأحوال البلاد عامة فى ذلك الحين ، فقد كان يحسن ، كما يظهــر من الكتاب ، اللغة العربية ويعرف التقاليد الاسلامية وكان كثير التجوال فى مختلف أجزاء الجزائر يريد التعرف على أهلهــا وتقاليدهــم ، وقد ذكر أنه زار الجزيرة المواجهة لمدينة الجزائر عدة مرات ، كما زار قسنطينة وغيرها وكان يتصل بالمرابطين ويستمع الى أقوالهم ويتعرف على علاقاتهم بالشعب . ولــه كتاب عن الاسلام : أشار الى الجزء الثانى منــه فى الكتاب الذى نتناوله (ص 487) وسماه « **التعــريف بالاســلام** » MOHAMETISM EXPLAINED ، وانتقــد دى تاسى الذى كتب أيضا عن الجزائر بأنه لا يعرف عادات المسلمين (239) . وقد نشر عملا آخــر عن الجزائر فى لندن سنة 1680 . وكثيرا ما كان يصحح نطق وأخطاء المؤرخين الآخرين عند ما يتعرض الى أسماء القبائل والاشخاص المحليين . ورغم اننــا عدنا الى بعض المظان التى تحتوى على تراجم الانكليز فاننا لم نستطع أن نعرف عن حياته أكثر من هــذا القدر ، فلم نعرف مثلا متى ولد أو توفى . وكــل ما نستطيع الجــزم به الآن هو انــه قد عــاش فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادى .

وهناك عدة أسباب دفعته الى الكتابة عن الجزائر، أولها وجود لذة شخصية فى كتابة تاريخ بلاد وشعب قضى بينهم كثيرا من سنوات حياته . ويتضح من هذا انه كان يكتب عن تجربة ذاتية ، وانه كان يكتب نوعا من الذكريات والانطباعات . وسنرى أن هــذا غير صحيح . وثانيها اقتناعه بانه فى استطاعته أن يكتب تاريخا عن الجزائر أكثر وضوحا وأوســع دائرة من أى تاريخ آخر كتب عن نفس الموضوع . فهو يعرف البلاد عن كثب ويعرف حياة المسلمــين عامة ، ويريد أن تكون بلاده على علاقات طيبــة مع هذه الجزائر القوية ذات الاسطول العظيم والسمعة الواسعة والامكانيات الكبيرة ، وهو رأى نجــده فى ثنايا الكتاب وسنتعرض اليه . وثالثها ، كثــرة الاخطاء الفاحشة السائدة فى بلاده عمن يسمونهــم «بالبرابرة» وعن أهمية الجالية التركية فى «بربارية» (شمال افريقية) ، وبالاخص عن قراصنة الجــزائر واسطولها . وهو لذلك يريد أن يصحح الاخطاء وأن يساهم فى ازالة العراقيل وسوء التفاهم القائم بين مواطنيه وسكان شمال افريقية .

ومصادر مورقان كثيرة متنوعة . حقا انه اعتمــد كثيرا على بعض المؤلفين الاسبانيين مثل ف .ديقو هايدو ، ولويس مرمول ، ولكنه كان دائما يحتفظ لنفسه بالرأى النهائى . كذلك اعتمد على لوجى دى تاسى الذى كان ممثل ملك انكلترا للشؤون البحرية فى هولانده . وأخذ عن الكاتب الدينى الاسبــانى الدكتور بيرنادور الدريتى صاحب « اسبانيا وافريقية فى القــديم» ولم يأخــذ كثيــرا عن ليون الافريقى (الحسن الوزانى) لان مرمول استعار منه كثيرا ولان وجه بربارية قد تغير منذ عصره . وأخذ مورقان أيضا عن مؤلفــين آخــرين أمثــال ب . دان ، قرامــى GRAMAYE ودافيتى DAVITY ودابــر

DAPPER وهكليت HAKLYYT وكان ينقل أيضا عن ابن الرقيق القيرواني وغيره من كتاب المغرب الوسيط . ولكنه كان يأخذ بطريقة غير مباشرة . وقد رجع أيضا الى بعض الموسوعات التاريخية واللغوية . ولم يخل الكتاب من الاستفادة من كتب القدماء أمثال مؤلفات العهد الروماني (سالوست وسترابو ، الخ) .

ولكن مورقان كان كثير النقد لمصادره . وكان يشعر أن الاروبيين الذين سبقوه بالتاليف كانوا مدفوعين بروح الجهل والحقد الديني والاحكام المسبقة . لذلك انتقد يدو ، رغم انه يعترف له بالفضل وقد اسماه مرشده فى عمله . فقال ان كتابه يقوم على فكرة ثلاثية هى الاسر والشهداء والمرابطين (أسر المسيحيين من طرف الجزائريين وموتهم شهداء فى أيدى المسلمين ودور رجال الدين المسلمين فى الجهاد) . وهى فكرة حسب رأيه ، تافهة ، واتهمه بضيق الافق والمحاباة الدينية والكتابة لهدف موجه . كذلك انتقد مرمول واتهمه بعدم التجرد من الهوى الدينى وبكثرة الاخطاء ولاسيما عند ما يتحدث عن السكان والبلاد . وانتقد ليون الافريقى بأنه ، رغم أن كتابه قد طبع سنة 1525 وترجم الى عدة لغات (منها الانكليزية سنة 1600) فانه قد تجاوزه الزمن ، ومن جهة أخرى قال عنه أن شهرته قد جعلت الناس يعتقدون خطأ أنه المصدر الاساسى الوحيد عن تاريخ بربارية . واتهم لوجى دى تاسى بأنه كان يجهل أحول وعادات المسلمين . وقال عن الجميع بأن لهم أفكارا مسبقة خاطئة عن الاتراك والمسلمين ، وانهم يستعملون ضد الجزائريين خاصة والمسلمين عامة عبارات جارحة قاسية متأثرين فى ذلك بأقوال ودعايات الكهنة الاسبان المغرضين الذين كانوا يشيعون آلاف الحكايات الخرافية لكى يحصلوا على المساعدات المالية والسياسية لتخليص الاسرى المسيحيين من أيدى المسلمين .

وحاول مورقان أن يصحح هذه الصورة الخاطئة عن الجزائر . فقال انه كان فى امكانه أن يأخذ عن تلك المصادر ويكتب تاليفا كالآخرين . ولكنه شعر أن له أشياء كثيرة خاصة يريد أن يقولها . ولذلك عزم على تاليف كتاب يحمل شخصيته وآراءه ويقدم تاريخ الجزائر ، شاملا كاملا ، الى مواطنيه والى الاروبيين عامة لكى يعرفوا الحقيقة . وقد استجاب لرغبة بعض أصدقائه فكتب قسما مدخليا للكتاب تناول فيه التاريخ العام لبربارية (شمال افريقية) منذ القديم حتى بداية القرن السادس عشر . وقد افتتح كتابه بمحاولة تصحيح الصورة التى رسمها رجال الدين فى أروبا عن الجزائر ، فقال فى المقدمة ان الجزائر مشهورة بحكومتها القوية ، وانها قد وقفت أكثر من قرنين ضد هجومات كثيرة وانه ليس هناك اليوم ما يجعلها فى خطر من تلك الهجومات ، وقال انه من حق الجزائريين أن يكونوا شعبا بحريا قويا ، أليس كل قادة أروبا ينشدون صداقتهم ويتوددون اليهم ؟ « فهم شعب يعقد السلام ويعلن الحرب مثل الامم الاخرى ، وهم دائما فى وضع يفرض على غيرهم احترامهم وتقديرهم » (ص 4) .

وعاب مورقان على من يقول ان الجزائريين عبارة عن عصابة من القراصنة الجبناء تكفى ست سفن

لتخريب مدينتهم عليهم . وقال ان أمثال هـؤلاء لا يعرفون أن ارمادة (اسطول) فيليب الثاني الاسباني ضد بريطانيا (سنة 1588) لم تكن شيئا يـذكر بالمقارنة الى ارمادة شارل الخامس التي تحطمت امام مدينة الجزائر سنة 1541 أو الى الاساطيـل الاخرى ، الاسبانية والانكليزية التي تحطمت أمام هذه المدينة التي لا تقهر . وقد ضرب مثالا عـلى ذلك بتغلب الجزائريين على الاسبان في مستغانـم حينما أسروا منهم 12,000 من أصل 16,000 مـن بينهم ابن حاكم وهران الاسباني ، وحملوهم الى مدينة الجزائر . وضـرب مثلا آخـر على قوة الجزائريـين باخراجهم الاسبان من وهران سنة 1708 بعـد أن ظلوا بها قرنا وبعد أن كانت محروسة بحوالي عشر قلاع ، وبحامية قويـة .

وقد قسم المدخل (أو المجلد الاول) الى ستـة اقسام ، نوجز عناوينها فيما يلي :

القسم الاول : عن أصل سكان البلاد (شمال افريقية)

القسم الثاني : عن قرطاجنة وامبراطوريتها

القسم الثالث : عن الاقاليم الرومانيـة في شمال افريقية الى الهجوم الوندالي

القسم الرابع : تاريخ بربارية من الونـدال الى الفتح الاسلامي

القسم الخامس : شهادات عن استبداد وظلم الرومان وشرور المسيحيين الافريقيين الـتي أدت الى سقوط تلك الاقاليم

القسم السادس : تاريخ بربارية الى القـرن السادس عشر ، عند ما أصبحت الجـزائر تحت النفوذ التركي .

ويحتوي هذا المدخل على 207 صفحات ، وتظهر فيه أيضا شخصية المؤلف بنقده للمصادر ودراسته لتاريخ الاسلام ومعرفته لتقاليد السكان .

ويأتي بعد ذلك المجلد الثاني ، وهو خـاص بالجزائر ، وعنوانه : « **الكامل في تاريخ الجـزائر والاقاليم التابعة لها منذ استيلاء الاتراك عليها** » . ويقع في جزءين كما سبق أن أشرنا . الجزء الاول يضم ستة فصول نوجزها فيما يلي :

الفصل الاول : الجزائر في القديم ، أسماؤها والثورات التي وقعت فيها وأوضاعها العامة.

الفصل الثاني : معلومات عن القرصان الشهير عروج باربروسة قبل استيلائه على الجزائر .

الفصل الثالث : تاريخ عروج باربروسة الى وفاته ، وكيف وقعت الجزائر في يد الاتراك.

الفصل الرابع : خير الدين باشا ، والى الجزائر الاول باسم السلطان العثماني .

الفصل الخامس : حسن آغا ، خليفة خير الدين بـاشا .

الفصل السادس : عهد الحاج باشا (يـدعى كذلك واسمه الحاج بشر – أو بشير – بن عطيلة – أو عطاء الله) .

وهو جزء صغير الحجم اذا قيس بالجزء اللاحق أو حتى المدخل ، اذ تبلغ صفحاته حوالي 59 (ص 211 – 252) .

أما الجزء الثاني فضخم وفيه تفاصيل أكثر ، وهو يبتدىء بالفصل السابع :

الفصل السابع : حسن باشا بن خير الدين (العهد الاول)

الفصل الثامن : صالح رايس ، أول عربي يحكم الجزائر

الفصل التاسع : الباشوات : حسن قورصو و تاكارلي ، و يوسف ، والقائد يحيى .

الفصل العاشر : الباشوات : حسن بن خير الدين (العهد الثاني) وحسن آغا ، ومحمد خوجة ، واحمد ، والقائد يحيى (العهد الثاني)

الفصل الحادى عشر : حسن باشا بن خير الدين (العهد الثالث) الجزائريون وحصار مالطة .

الفصل الثاني عشر : محمد باشا بن صالح رايس ، علي باشا الفرطاس .

الفصل الثالث عشر : عرب أحمد ، ورمضان باشا .

الفصل الرابع عشر : حسن باشا (العهد الاول) وجعفر آغا .

الفصل الخامس عشر : حسن باشا (العهد الثاني) ، مامي باشا الارناووطي .

الفصل السادس عشر : أحمد باشا ، خضر باشا (العهد الاول) .

الفصل السابع عشر : شعبان باشا ومصطفى باشا (العهد الاول) وخضر باشا (العهدالثاني)

الفصل الثامن عشر : عن القراصنة الجزائريين وقوتهم البحرية .

الفصل التاسع عشر : عن شؤونهم البحرية الى فشل حملة السير روبير مانسيل الانكليزية

الفصل العشرون : مقتطفات من يوميات الحملة الانكليزية الفاشلة ضد الجزائر بقيادة السير روبير ما نسيل .

وينتهي الكتاب بملحق طويل (12 صفحة) يضم معاهدة الصلح والتجارة التى أبرمت بين الجزائر وانكليترا سنة 1682 وجددت سنوات 1686 ، 1700 ، 1703 ، 1716 . وبملحق آخر في نفس الموضوع بين انكليترا وتونس من جهة وانكليترا وطرابلس من جهة أخرى . ويحتوى هذا الجزء على حوالى 340 صفحة . ولا يكتفي مورقان بذكر أسماء الباشوات ولكنه يتحدث عن أعمالهم خلال ولايتهم ومنشآتهم وعلاقاتهم الخارجية وصلاتهم بالسكان وبالوجق العثماني ، كما يتتبعهم فى مختلف مراحل حياتهم حتى بعد أن يتركوا الحكم ولا يهمل جانب السكان أثناء حديثه عن الولاة غير أن كتابه يظل كتابا سياسيا بالدرجة الاولى .

وهناك حادثتان هامتان ذكرهما مورقان تتعلقان بالتاريخ البحرى للجزائريين : **اولاهما** حادثة غريبة تستحق الوقوف والدرس والبرهان وهي أن الجزائريين كانوا مزارعين فى امريكا ، لهم أملاك زراعية ضخمة ولهم خدم من الزنوج يعملون فى مزارعهم (ص 517) وهو يستغرب من ذلك ، رغم انه كثيرا ما سمع عنه لان الجزائريين لم يكونوا يملكون عندئذ السفن

القادرة على قطع المحيط . **والحادثة الثانية** أقل غرابة لانها ليست جديدة فى حد ذاتها ولكن المؤلف قد أعطاها كثيرا من الاهتمام وتتبع صاحبها بتفصيل خاص ، وهى دخول مراد رايس المحيط لاول مرة ووصوله الى جزر الكنارى سنة 1585 . يتحدث مورقان عن ذلك فيقول : انه أول جزائرى دخل المحيط وأغار على هذه الجزر وان رحلته قد استغرقت أكثر من أربعة أشهر . وانه غنم غنائم ضخمة وأسر فيها أكثر من 300 اسبانى بما فيهم زوجة حاكم تلك الجزر . وان الجزائريين قد احتفلوا احتفالا عظيما بعودة مراد رايس سالما غانما وانهم كانوا يلقبونه « بالكبير » لانه أول من دخل منهم المحيط هذا فى القرن السادس عشر . أما اليوم ، (زمن المؤلف) فان دخول الجزائريين المحيط أصبح أمرا عاديا (ص 589) ولا نظن أن مورقان أول من أشار الى هذه القصة . فقد يكون ناقلا لها عن هايدو. ولكنه يرويها بشىء من العطف والاعجاب ببطلها خلافا للمؤلفين الآخرين الذين أعماهم التعصب الدينى ، كما يقول . عن رؤية الحقيقة .

وتحتل مدينة الجزائر . كما يلاحظ المرء من الفصول . جزءا ضئيلا من هذا الكتاب الضخم . ولكن المؤلف يتحدث عنها حديثا جديرا بالوقوف عنده . ويبدأ بذكر الاقوال الشائعة عنها عندئذ لدى مواطنيه الانكليز خاصة والاوروبيين عامة . فهى عندهم مدينة الرعب ، وملاذ قطاع الطرق وطلاب الغنائم الذين لا يكتفون بارهاب جيرانهم . بل هم الاعداء الالداء للمسيحيين وتجارتهم . انها حسب رأى البعض « عش العفاريت » ولكن المؤلف . الذى أخذ على عاتقه تصحيح الاخطاء الشائعة عن الجزائريين بحكم تجربته الطويلة معهم . يجيب هؤلاء بأنه من حق الجزائر أن تدعى القدم والشرف معا ، ومن حقها أن تحتل مكانة بارزة بين أنبل مدن العالم . أليست على انقاض (قيصرية) الرومانية ؟

ان هناك عدة آراء حول أصل مدينة الجزائر ، فبعضهم يدعى انها مبنية على انقاض قيصرية الرومانية . وبعضهم يدعى أن قيصرية هذه تقع فى مكان آخر من الساحل غير مكان مدينة الجزائر الحالى . بل ان آخرين يذهبون . جهلا منهم حسب رأى المؤلف . الى أن قيصرية مدينة داخلية . ناسين انها كانت ساحلية غير أن الناظر المدقق فى موقع وشكل مدينة الجزائر الحالية يذهب الى ما ذهب اليه مورمول أن قيصرية القديمة تقع غرب مدينة الجزائر الآن وان اسمها الافريقى هو (تاكدامت) . وانها هى كل ما بقى من تلك المدينة الشهيرة التى اختارها الملك يوبا الثانى لتكون عاصمته رغم اتساع أطراف مملكته . وان الملك يوبا الثانى هو الذى أعاد بناءها ونبلها وأطلق عليها اسم ولى نعمته ، يوليس قيصر . أما ابن الرقيق فيؤكد أن اسمها القديم هو قيصرة (أو قيسرة ؟) ولكن المؤلف الانكليزى يقول انه لم يسمع بأن أحدا غير ابن الرقيق قد أخذ بهذا الرأى . وعلى أية حال فان آثار تلك المدينة (تاكدامت) تشهد على عظمتها . ويبلغ محيطها حوالى اثنى عشر ميلا .

ولكن ليس هناك ما يشير بالتأكيد الى أن مدينة الجزائر الحديثة قائمة على انقاض قيصرية العتيقة التى كانت ذات يوم مقرا لملك عظيم . وعاصمة

لاقاليمه الواسعة ، والتى كانت خلال قرون مستعمرة رومانية تمثل رأس اقليم شاسع مزدهر . والواقع ان فى مدينة الجزائر الحالية (زمن المؤلف) بعض الآثار القديمة ، ولكنها ليست بشيء هام اذا ماقورنت بآثار المدن القديمة الاخرى فى العالم . واذا كانت مدينة قيصرية قائمة فيما هو الآن مدينة الجزائر ، فكيف نفعل مع كاتب آخر ، يعتبر عمدة فى آرائه ، وهو سترابو STRABO الذى يؤكد ان الملك يوبا الثانى قد أعاد بناء مدينة يول VOL واطلق عليها اسم قيصرية ؟ ويؤكد استرابو كذلك انه كان أمام قيصرية جزيرة صغيرة . وقد لاحظ المؤلف ان مدينة الجزائر الحالية تقع أمامها هذه الجزيرة الصغيرة ، بينما لا يوجد مثلها أمام تاكدامت أو امام أى مكان آخر على الساحل تحدث عنه الجغرافيون .

ورغم شهرة مدينة الجزائر وعظمتها اليوم (القرن I8) عند الاروبيين ، فانه من الغريب حقا أن لا يعثر فيها الباحث على أى رسوم خطية أو تمثال ، أو حتى آثار باقية من قوس نصر ، أو شيء يشبهه . ذلك ان المؤلف كان كثير الاهتمام بهذا الموضوع والبحث عنه ولكنه لم يستطع خلال اقامته الطويلة بمدينة الجزائر أن يرى أو يسمع عن وجود آثار قديمة عثر عليها أثناء وضع أسس البنايات أو حفر الآبار، أو نحو ذلك من أعمال التنقيب . وقد استنتج من ذلك أن ما وقع لقيصرية القديمة لم يكن مجرد تخريب جزئى ، ولكنه كان تخريبا كاملا مع حقد شديد ! ويبدو أن مدينة الجزائر القديمة قد عانت من ظلم الحكام الطغاة مما أدى الى تخريبها وافراغها من سكانها وسلبها من ماضيها العظيم.ولكن مظهرها اليوم وهو مظهر حديث ، لا يدل على انها قد ظلت فارغة من السكان فترة طويلة . وعلى كل حال فان اعترافنا بشرف وقيمة الآثار القديمة التى كانت تحتويها يجعل من الظلم والاجحاف أن ننازع مدينة الجزائر اليوم (القرن I8) هذه العظمة الموروثة . ذلك اننى (المؤلف) أرى أن نحارب العدو بكرم ، وأن نعمل على هدى المثل القائل «اعط الشيطان حقه ! » ومادامت المصادر تثبت أن قيصرية قد بنيت على انقاض يول القديمة ، فان ذلك يكفى دليلا على شرف وقيمة وعظمة مدينة الجزائر الحالية.

أما اسم مدينة الجزائر فى التواريخ الافريقية (الاسلامية) فهو مزغنة . وهو الاسم الشائع اليوم لدى السكان . ولكنهم يستعملونه بشيء من المضض لانهم يعرفون انهم ينطقون اسما أقل أهمية من اسمها القديم (قيصرية) . وكل من ليون الافريقى ومرمول استعمل اسم مزغنة لمدينة الجزائر.ولكنهما لم يتفقا على شكل كتابته . وقد قلدهم الكتاب الآخرون . ويؤكد الافريقيون (المسلمون) ، ان المدينة كانت أصلا لبنى مزغنة (يكتبها مورقان هكذا : MUZGUNNA مزقنة ــ بضم الميم والقاف المعقوفة) ، وهم شعب ليبى قديم ، ولايعرف من اى قبيلة هم . وقد أنشأوا المدينة (لا يذكر تاريخ الانشاء) وسكنوها قبل أن يأتى الرومان هناك بعهد طويل وأطلق عليها العرب اسم جزيرة (هكذا بالمفرد) بنى مزغنة . أما اسمها الحالى فهو الجزيرة (بالمفرد أيضا) . وهو اسم محرف حتى عند الذين يعطونها هذا الاسم ، فالعرب (البدو) واهل الحضر يسمونها (تزير) ، والترك غيروا المفرد

العربى الى جمع . فهم يسمونها (الجزائر) . ولكن الافريقيين (أهل المغرب الاقصى) قلبوا الجيم الخفيفة (ج J) الى جيم ثقيلة (ج G) على عادتهم فى ذلك فهم ينطقونها جزائر GEZEIR وللاروبيين أسماء مختلفة يطلقونها على مدينة الجزائر ، فهى عندهم الجى ALGER والجيرى ALGIERI وأرجير ARGIER والاسبان خصيصا يطلقون عليها اسم ارخيل ARGEL (وأحيانا ARJEL) ، ولكن الانكليز والهولانديين فقط هم الذين يطلقون عليها اسم الجيرز ALGIERS .

ومن جهة أخرى يطلق الترك عبارةمغربلى (مغربى) على السكان الواقعين غرب الحدود المصرية ، وعبارة جزايرلى (جزائرى) على سكان الجزائر . بينما ينسب المغاربة الى الجزائر هكذا : جزيرى GEZEIRI. أما بقية الحضر والعرب الافريقيين فيقولون تزيرى TZEIRI أو زيرى ZEIRI وهو نفس الاسم الذى أطلق على أسرة بنى زيرى (الدولة الزيرية) . وقد اغامر (المؤلف) فأقول انه يبدو لى أن اسم المدينة المحرف اليوم قد استعير من اسم هذه الاسرة . بدل أن يكون مأخوذا من اسم الصخرة (الجزيرة) المواجهة لها ، بل من الممكن أن يكون الاسم الشائع اليوم (القرن 18) محرفا عن (قيصرية) . أما الذين يزعمون أنها سميت (الجزائر) لانها تقع تقريبا فى مواجهة (جزر الباليار) ، فاننى (المؤلف) ارى أن رايهم سخيفا ولا أساس له على الاطلاق .

وبعد هذا الحديث الطويل عن أصل اسم مدينة الجزائر ومشتقاته يتحدث المؤلف عن بعض الثورات والاضطرابات التى شهدتها المدينة منذ القديم حتى القرن السادس عشر . فقد ذكر أن الثائر فيرموس ، وهو من السكان الاصليين ، قد خرب قيصرية (215) . واستعرض الامراء والحكام الذين يسميهم «طغاة» والذين تداولوا على حكم الجزائر كالوندال والفاطميين والمرابطين والموحدين الخ . وتعجب كيف يخربون المدن بعد أن أوقعها السيف تحت سطيرتهم . ولكن المؤلف آكد انه لم يعثر على مصدر يقول بأن مدينة الجزائر ، منذ قيصرية ، قد خلت من سكانها فترة طويلة . غير انه يرى انها منذ العهد الرومانى ، لم تزدهر كعاصمة لاية مملكة أو حتى لاقليم كبير . وما غامر به من ان اسمها قد يكون مشتقا من اسم الزيريين مؤسسى بجاية ومن أنها ربما كانت عاصمة لهم ، هو مجرد تخمين قائم على التشابه فى الاسم وليس له مصادر على ذلك (ص 172) . وقد استنتج من ذلك أن مدينة الجزائر كانت مسرحا لعدة ثورات واضطرابات منذ العهد الرومانى حتى ثورة (هكذا يسميها) القرصان عروج باربروسة سنة 1516 (ص 216) .

ثم صور مورقان الصراع الثلاثى على مدينة الجزائر فى بداية القرن السادس عشر . فهؤلاء الجزائريون الذين يريدون الحفاظ على سيادتهم واستقلالهم فى مدينتهم بعد أن استولى الاسبان على بجاية وطردوا ملكها الذى كانت له السيادة على مدينة الجزائر ولم يتوانوا (الجزائريون) من أجل ذلك الهدف فى دعوة الشيخ سليم بن التومى (هكذا يذكره) زعيم قبيلة التاتيج TATIJE (هكذا ايضا) فى متيجة ليكون سيدا عليهم ، وعند ما قبل

استقبلوه فى فرح وغبطة وقرروا قطع الجزية التى فرضها عليهم الاسبان منذ 1509 . ومن جهة أخرى هناك الاسبان الذين ذهب بهم الطموح كل مذهب وقادهم الحقد الدينى الى طرد المسلمين من بلادهم ، ثم احتلوا المدن والمراكز الساحلية فى بربارية ، بما فى ذلك بجاية ووهران والصخور (الجزر) التى كانت أمام مدينة الجزائر . وفرضوا على أهل هذه المدينة جزية ثقيلة . وأقاموا أمامها حصنا قويا يحميه مائتا جندى ، فكانت فى الحقيقة محاصرة لا يدخلها الداخل أو يخرج منها الخارج الا برضى الاسبان . وأخيرا هناك القراصنة الاتراك بقيادة الاخوان باربروسة يجوبون غرب البحر الابيض . وقد استطاعوا أن يثبتوا أقدامهم فى جزيرة جربة وفى مدينة جيجل وغيرهما . وان يكسبوا عدة جولات ضد الاسبان . وبذلك جعلوا أنفسهم قوة ثالثة يلتجىء اليها المغلوبون والضعفاء . ولم يتردد سليم بن التومى ان يستنجد باسم سكان مدينة الجزائر ، بهؤلاء المسلمين الاتراك الذين جعلوا همهم ملاحقة الكفار الاسبان . فانجدوه وتعاون الطرفان ضد العدو المشترك ، ولكن الاتراك جعلوا من مدينة الجزائر مركزا لنشاطهم وعاصمة لأقاليمهم وتخلصوا من كل وقف ضد هذا التيار . واستمر الامر كذلك الى زمن المؤلف .

وشكل مدينة الجزائر اليوم (زمن المؤلف) هو بالتقريب شكلها فى بداية القرن السادس عشر . فأسوارها ظلت كما كانت . ولكن أضيفت اليها تحصينات جديدة . غير ان ضواحيها القديمة الكثيرة قد اختفت الآن . وكان ملوك تلمسان هم الذين بنوا قصبة مدينة الجزائر لكى يقيم فيها ولاتهم وعند ما أصبح سليم بن التومى زعيم المدينة جعل قصره فى هذه القصبة ولكنه لم يمتع طويلا بزعامته . وتقع المدينة فى خليج واسع وقد بنى جزء منها على أرض منبسطة تنتهى بالبحر عند سفح الجبل . أما الجزء الآخر فمبنى على منحدر يبتدىء حيث ينتهى الاول ويمتد على 21 درجة و 20 دقيقة طولا . و 36 درجة ، و 30 دقيقة عرضا . وهذا طبقا لآخر المعلومات لان بعض المؤرخين والجغرافيين يختلفون فى درجة أو أكثر أو أقل (ص 220) .

ويسير مورقان على منهجه الذى رسمه لنفسه فيذكر لنا أهم الاعمال التى قام بها كل باشا فى مدينة الجزائر . فهذا حسن باشا بن خير الدين بنى سنة 1550 قلعة عظيمة فى المكان الذى نصب فيه شارل الخامس (1541) خيمته . وبنى ما يشبه المستشفى لمداواة الجرحى والمرضى من الجيش. كما بنى حماما عاما فخما على غرار ما فعل والده فى مدينة اسطانبول (ص 368) . كما ترك فى المدينة زوجته الجزائرية وابنها ، وترك لهما عددا كبيرا من الارقاء والثروات (ص 475) . وهذا مثلا عرب أحمد باشا الذى بنى برجا وأصلح من شأن سور باب عزون . وأقام عينا جارية تجتمع فيها العيون القريبة كما بنى برج الفنار على الجزيرة (الحصن) التى كانت خارج المدينة وأنشأ عينا أخرى كبيرة أمام باب الواد . وكان يقف على هذه الاعمال بنفسه . وهكذا . الى أن يأتى المؤلف على ذكر الباشوات الذين أشرنا اليهم فى الفصول . وبذلك أصبحت مدينة الجزائر لا تطاول ثروة وشهرة وعظمة . ويؤكد

مورقان (نقلا عن هايدو) انها قد أصبحت مطمح أنظار المشارقة الذين كانوا يقصدونها لثروتها وجمالها الطبيعي ، كما كانت أمريكا بثروتها وجمالها تحمل الاسبان على قطع المحيطات (ص 354) .

ولعله من الواضح ان هذا الكتاب ، بما فيه من معلومات سياسية واقتصادية ، وبما يحتويه من آراء غير متعصبة نحو البلاد وسكانها ، خلافا لما جرت به العادة عندئذ ، جدير بالترجمة كاملا رغم ضخامة حجمه وصعوبة لغته . وعسى ان يوفقنا الله الى ذلك . أما الآن فحسبنا هذه المعلومات عن محتواه العام وعن رأى المؤلف فى مدينة الجزائر بالذات .

اكتفينا بعرض آراء المؤلف دون التعليق عليها ، لان التعليق عليها يجعلنا فى الواقع نعيد كتابة تاريخ الفترة كلها .

الحياة الاجتماعية فى مدينة الجزائر إبان الاحتلال

د. ابو العيد دودو

من الملاحظ ان الباحثين الجزائريين قد بـداوا يهتمون بدراسة ماضى الجزائر ، الا ان اهتمامهم لم يتعد – للاسف – الناحية السياسية . فـاذا استثنينا بعض الاشارات العابرة ، فاننا لا نكـاد نعثر على كتاب يقدم لنا صورة عن المجتمع الجزائرى فى عصوره المختلفة . ومن ثم بقيت جوانب أخرى من حياة الجزائر لاتزال تنتظر من يكشف عنهـا ويعنى بدراستها دراسة تفصيلية . فليس فى الامكان معرفة مجتمع ما دون معرفة تاريخه . فتاريخ المجتمع هو الذى يبين لنا مقدار نموه وتطوره خلال المراحل التى مر بها ، كما يوضح لنا مدى استجابته لانماط الحياة التى خبرها نتيجة احتكاكه بالغير واطلاعـه على نظمه وتقاليده وثقافته .

والقيام بمثل هذه الدراسة يتطلب الاطلاع على ما كتبه الرحالون الاجانب عن المجتمع الجزائرى ، وجمع مادتها وتصنيفها . ثم تحليل نفسية هذا المجتمع على أسس علمية متينة للوصول الى نتائج تتعلق بالمرحلة التى وصل اليها . وقلة المراجع العربية ، أو بالاحرى انعدامها التام ، يبرر الاهتمام بما انطبع فى نفوس هؤلاء الاجانب عن الجزائر فى فترات تاريخية . طويلة أو قصيرة ، فحرصوا على تسجيله ليطلع عليه مواطنوهم فى حينه . وتستفيد نحن منه فى المراحل التالية ، خاصة وانه لم يعد هناك ما يحول بيننا وبينه . ففى وسع مؤسساتنا أن تقوم بتصوير مختلف الكتب ، التى تتحدث عن ماضى الجزائر ، ووضعها تحت تصرف الباحثين والدارسين ليأخذ كل منهم ما يقع فى دائرة تخصصه .

وكاتب هذه السطور ليس باحثا اجتماعيا ولا مؤرخا . ولذلك يكتفى بتقديم الصورة التالية عن المجتمع الجزائرى وحياة أفراده ، وتوصيلها الى المتخصصين توصيلا أمينا . اعتمادا على ما كتبه « موريتس فاغنر » . الرحالة الالمانى الذى عاش فى الجزائر حوالى سنتين (1836 ـ 1838) . انضم خلالها الى أعضاء البعثة العلمية الفرنسية ، وشارك فى بعض الحملات . منها حملة قسنطينة . وزار مناطق مختلفة من البلاد الجزائرية . منها المناطق التى لم تكن قد وطئتها آنذاك أقدام فرنسية . حيث أتيح له أن يزور ولاية معسكر تحت حماية خليفة الامير عبد القادر . وقد تحدث عن هذا كله وغيره فى كتابه « رحلات فى ولاية الجزائر » الذى أصدره عام 1841 . فقدم لنا فيه الصورة التالية عن الحياة الاجتماعية فى الجزائر .

القضاء :

بعد أن يتحدث «فاغنر» عن المحكمة العسكرية الفرنسية . ينتقل الى الحديث عن المحكمة الشرعية الاسلامية التى كانت تقع فى أحد شوارع باب الواد الجانبية . ويصفها بأنها لم تكن تقل مكانة ومنزلة عن المحاكم الفرنسية . ثم يذكر أن القاضى المالكى يمثل الجانب الدنيوى بالنسبة للمسلمين فى حين أن المفتى الحنفى يمثل الجانب الدينى . ويقول ان هذا المنصب كان يتقلده أيام زيارته للجزائر واقامته بها الشيخ سيدى أحمد بن جعدون ، وهو رجل يبدو عليه الوقار . ويزيد من رفعة قدره ما يرتدى من ثياب فاخرة .

والقاضى المالكى يعقد جلسته فى قاعة بسيطة ، تغطى أرضها الزرابى ، ويتميز عن غيره من الحاضرين بعمامته الكبيرة ، التى تحتوى على ثنايا كثيرة . غير أنه لا يختص بهذه العمامة . اذ يشاركه فيها رجال الدين من أئمة وعلماء وقراء ومرابطين بالاضافة الى معاونيه من الكتاب والمحررين . ويتخذ القاضى مكانه فوق مقعد عال عند نهاية مائدة بيضوية الشكل . وأمامه نسخة من القرآن مذهبة الجلد ، وعن يمينه وشماله كتابه الذين يقومون بتسجيل محاضر الجلسات ، ويتولون اعداد الوثائق الخاصة بعقود البيع وغيرها من الملفات الرسمية . ويتوجهون بالنصيحة الى القاضى فى المسائل التى تشكل عليه ويوجد من هؤلاء فى الجزائر حوالى اثنى عشر كاتبا . يقومون بعملهم بالتناوب فى أيام معينة . ولأغلبهم



الزى الجزائرى فى العاصمة

لحى كبيرة ، وملامح لينة حينا ، ومرعبة حينا آخر ، حسب ما يوجد فى طبائعهم ومظاهرهم من فروق (ج I ص 62) .

وحين يدخل الشاوش أو خادم المحكمة المتخاصمين ليمثلا أمام القاضى ، يقفان فى النهاية الاخرى من المائدة . اما اذا كانا من النساء ، فانه لا يسمح لهن بالدخول الى قاعة المحكمة ، وانما يتحدثن الى القاضى من وراء قضبان ناقذة الفناء . وكثيرا ما تكون هذه المرافعات شيقة حتى بالنسبة لاولئك الذين لهم المام قليل باللغة العربية أولا معرفة لهم بها على الاطلاق ، خاصة حين يكون النساء طرفا فى النزاع . ان براعتهن فى الحديث ، والحركات التى تصدر عنهن فى أثناء ذلك ، وهدوء القاضى الذى يترك المتخاصمين يتراشقان بالكلمات دون أن يبدى حركة تدل على سأم أو ملل ، كل هذا يكون مشهدا لا مثيل له . وليس هناك حادث يمكن أن يخرج القاضى عن هدوئه ، فهو يستمع الى الاصوات المتراشقة مطرقا وفى هدوء تام . ويلقى على أحد المتخاصمين بين الحين والآخر سؤالا ، ويستنطق الشهود ان وجدوا ، ثم يصدر حكمه فى

القضية بكل رزانة ووقار . فيقبل حكمه دون أن يبدى أحد الطرفين رغبته فى استئناف الحكم . وينحنى الخصوم لتقبيل يده قبل الحكم وبعده . وينفذ الحكم عادة فى الحين وفى المكان نفسه .

ويعاقب المذنبون فى الغالب بالضرب على الارجل وهم يفضلون الفلقة على السجن وقد حاولت الحكومة الفرنسية أن تبطل هذا النوع من العقاب ، الا انها لم تلق أى تأييد من طرف الاهالى . مما حملها على أن تتخلى عن محاولتها . فالاهالى لا ينظرون فيه الا الى الالم الجسمى ، لان المذنب تبقى كرامته محفوظة بعد أن ينال العقاب الذى يستحقه . وكان هذا النوع من العقاب مستعملا فى أيام الداى أيضا ضد أى موظف ، ولو كان وزيرا . فاذا ارتكب هذا الوزير ذنبا ، فانه ينال عقابه بالفلقة ، ثم يعود الى أهله واحبابه ليجد مشاعرهم نحوه كما تركها . فهذا العقاب لا يلصق به أى عار . أما دخول السجن فان الجزائرى كان يخافه كل الخوف ، لانه يبعده عن أسرته من جهة ، ويحول بينه وبين واجباته الاخرى من جهة ثانية ، وبالتالى فانه لم يتعود مثل هذا العقاب . وأقسى العقوبات بالنسبة له هى الغرامة المالية . ذلك أن حرصه على جمع المال لا يسمح له بدفع أية غرامة مهما كان مبلغها . فهناك من الجزئريين من يفضل أن تؤخذ قطعة من لحمه على أن يدفع شيئا من ماله . ومن أجل هذا رفضت الاصلاحات التى اقترحها السيد «لورانس» فى هذا المجال ، بشدة ، بحيث أن مشروعه لم ينل صوتا واحدا . فقررت الحكومة الفرنسية الابقاء على قوانين الاهالى القديمة (ص 62 ـ 6) .

الاســـــواق :

وتوجد فى الجزائر بعض الاسواق ، يعرض فيها الغرباء بضائعهم ، وهى لا تشبه تلك الاســـواق الضخمة ، التى كانت موجودة قديما فى بغداد أو فى طهران ، والتى تحدث عنها المؤرخون العرب . ان أسواق الجزائر لا يمكن أن تقارن حتى بأسواق ازمير أو القسطنطينية ، مع أن هذه ليست لها أيضا تلك الفخامة التى عرفتها الاسواق القديمة والتى تمثلت فى المنتوجات الشرقية الرائعة ، أسواق الجزائر فقيرة بجانب تلك الاسواق ، وهى عبارة عن دور تشبه الدور العربية ، مع فارق واحد ، وهو أن جانبى الفناء يحتويان على حجرات ، الواحدة منها منفصلة عن الاخرى ، ولكل سوق طابقان أو ثلاثة وغرف كثيرة . والعادة المتبعة منذ القديم هى أن الاجنبى أو الجزائرى أو اليهودى يكترى فى السوق محلا أو عدة محلات بمجرد حصوله على رخصة بذلك ، ويعرض فى أبوابها بضاعته . ولم يكن يعدم من يزور محله ، الا ان زواره كانوا يكتفون بتقليب البضائع ، وقلما يشترون شيئا منها . فالتجارة لم تكن فى يوم ما بالجزائر مربحة، فكان الثراء فيها نادرا مثل ندرة الحكم بالاعدام تقريبا ، وذلك لقلة المبيـــع .

وكانت للجزائر أسواق تحتوى على أكثر من أربعين محلا ، الا أن القسم الاكبر منها ، بل أجملها وأجدرها بالاعتبار ، قد هدم ، وقامت فى مكانها محلات ودكاكين يملكها تجار أروبيون . أما دكاكين التجار من الاهالى ، التى تقع خارج هذه الاسواق ، فانها صغيرة وتافهة ، فليس فيها تنوع فى البضائع ،

ولا تلفت انظار المارة اليها الا بشكلها الغريب . هذه الدكاكين عبارة عن ثقوب مربعة . تغلق في الليل بباب خشبي مهترىء . ولا تستثنى منها الا الدكاكين الموجودة فى شارع الديوان . لان بضائعها متنوعة ومنظمة بصورة تدل على ذوق أصحابها . وهم في الغالب من الكراغلة . وبضائعها على العموم من الصناعات المطرزة بالذهب ، مثل الخفاف والمحافظ وأدوات الزينة الخاصة بالاسلحة وغيرها . وهى مصنوعة في الغالب من القطيفة الخضراء والحمراء. ويغطيها طلاء ذهبى كثيف . تبهر العين بفخامتها أكثر مما تبهرها بجمالها .

أما بقية البضائع فتتكون فى أغلب الاحيان من الروائح والعطور المستخرجة من الورد والياسمين، ومن المصنوعات القطنية المحلية . التى تدل على ما بذل فى نسجها من جهد . وهى كمصنوعات يدوية لا تضاهى طبعا المنسوجات الاروبية الآلية لا فى جمالها ولا فى أسعارها . وكثير من الاشياء المصنوعة من خيوط الصبر . مثل أكياس الصيد ، وزكائب السيدات . وأحذية الاطفال وغيرها . تهم الانسان لغرابة المادة التى صنعت منها . وأصحاب هذه الدكاكين من الكراغلة والحضر أثرياء فى أغلب الاحيان ، ويقومون بشراء هذه المصنوعات من الطرازين ومن بعض الحضريات . وتجد بضائعهم هذه أسواقا رائجة فى اوربا . فلم يحدث أبدا ان سافر عسكرى فرنسى الى بلاده دون أن يأخذ لاصدقائه ومعارفه أشياء كثيرة من الصناعات الاهلية التى تروق العين بروعة أشكالها والوانها (ص67ـ68)

المقاهى :

وينصح فاغنر المسافرين بزيارة المقاهى العربية . التى يزيد عددها فى القسم الاعلى من المدينة فقط عن الستين . ويذكر أنه كان يقضى كل أمسية فى واحدة منها دون أن يندم على الوقت الذى قضاه فيها أبدا . ويعتبر المقاهى من الاماكن التى تتيح للاجنبى أن يتعرف على الشعب ، ويتعلم لغته . بل لا يوجد مكان يتعلم فيه التعابير الشعبية مثلما يتم ذلك فى المقاهى . ويشير الى أن الاهالى لا يتحدثون كثيرا فيها . الا أن الحضر أكثر استعدادا للحديث منهم فى أى مكان آخر . وأى وقت آخر من أوقات النهار . ومن هنا يستطيع الانسان أن يدرس ملامح رواد المقاهى ، وهم جالسون فوق الارض . فيرى الحضرى الهادى. جالسا قرب التركى فى لباسه الفخم . ويليه زنجى أسود كالقار . يرتدى نفس اللباس . وبعد عربى من البادية ، طويل القامة . جميل المظهر . وقد لوحت الشمس بشرته . يغطى عضلاته الفولاذية بردا. طويل أبيض ، وفوق رأسه عمامة . يلتف بها حبل من شعر الجمل . وغير بعيد منه قبائلى بقامته القصيرة ونظراته الثاقبة . ثم مزابى من الصحراء . وبسكرى من بلاد الجريد . وبينهم فرنسى بلباسه العسكرى ، أو بأحدث طراز ظهر فى عاصمة بلاده . وتقع أجمل مقهى عربية فى شارع البحرية . وبها قاعة مقسمة الى مقصورات . تستند على أعمدة . وتتسع لعدد كبير من الزوار . ويضيف فاغنر انه شاهد مقهى من هذا النوع فى أواخر سنة 1836 ، ولكنها أضيق . وكانت تقع فى شارع لالاهم . وقد أصبحت كلتاهما أثرا بعد عين . فقد اشتراهما الاروبيون وأقاموا فى مكانهما بنايات

على الطراز الفرنسي . وافقروا في مقابل ذلك من ملامح أصالتها الشرقية . فليس هناك اليوم مقهى واحدة تشبه المقاهي القديمة .

ان مقاهي اليوم مظلمة ومستطيلة الشكل . ولا تحتوى على عرصة واحدة ، وبها صفين من المقاعد الحجرية . تغطيها حصائر من سعف النخيل ، ويجلس فوقها الرواد على الطريقة الشرقية . ويقع المطبخ في مؤخرة القبو في منخفض ، وتقدم القهوة في فناجين صغيرة مصنوعة من الخزف فوق صحون من الصفيح ، ويوضع فيها مسحوق السكر، وهي قوية الطعم الى حد ما ، ولكنها لذيذة . وتكاد رواسب البن تملأ نصف الفنجان . ويقدم للمرء معها غليون أحمر ذو قصبة طويلة ، وتبغ من النوع الممتاز ، وثمن ذلك كله سنتيم واحد . ولا يتصور المرء أن هناك متعة أقل ثمنا من هذه .

ويجلس صاحب المقهى عند المدخل في وقار ، دون أن يهتم بمحله الكبير ، ويستقبل الزائر الاوروبي قائلا «مساء الخير ياسيدي» وأخاه في الدين «وعليكم السلام» ثم ينادي في اتجاه القبو «جب قهوة – جب سبسي» والطباخ من السود عادة. أما الندل فهم من أبناء الحضر ، ووجوههم شديدة البياض موردة . وفوق رؤوسهم الحليقة قلانس حمر . وألبستهم في المقاهي التي يكثر فيها الرواد نظيفة وفاخرة في بعض الاحيان ، ولا تتجاوز أعمارهم السادسة عشرة . وقد تركت الاعمال اليدوية آثارها على ملامح البعض منهم (ص 68 – 70)

ولا تخلو المقاهي الكبيرة من الموسيقى في أي يوم من أيام الاسبوع . ومكان الجوقة في العادة قرب المطبخ . مما يجعل أعضاءها ينظرون الى القدور التي يتصاعد منها البخار ويستمدون منها الحماس . وتتكون الآلات التي يستعملها الفنانون الجزائريون من الرباب والنايات والقيثارات المختلفة والطر ، غير أن هذا الاخير يستعمل في الحفلات التي تقام في الهواء الطلق أكثر مما يستعمل في المقاهي . وتخلو هذه كذلك من الطنبور والموسيقى الصاخبة الخاصة بالاعراس وحفلات شهر رمضان . فرواد المقاهي يفضلون الاستماع الى الموسيقى الرتيبة الهادئة التي تدغدغ حواسهم . وتناسب الاحلام التي يستسلمون اليها في لذة . وينفرون من الانغام القوية التي تذكرهم بقعقعات السلاح وبطولات الاجداد (ص 70)

ويقع أكثر المقاهي العربية روادا في شارع الديوان قرب الكنيسة الكاثوليكية . ويتردد عليها كثير من الاوروبيين . فالقهوة فيها ممتازة ، والمجلس شيق . والجوقة كبيرة . وقائد الفرقة عربي عجوز ، وهو عازف بارع على الربابة . يشد الانظار اليه بغرابة تمثيله الصامت ، واهتزازات رأسه . وحركاته الرزينة الرتيبة . وكان في الماضي أحد أعضاء الفرقة الخاصة بالداي الاخير . ويمارس العزف في الاعراس الجزائرية منذ ستين سنة . ولذلك فهو يتمتع باحترام كبير لدى جميع الإسر الجزائرية التي تفتح له أبوابها باستمرار . فيسمعها أنغامه اللطيفة في كل الظروف والاحوال . يعزف في حفلات الختان ، ويمدهم بالانغام الراقصة في الاعراس ، معتصرا من ربابته ألحانا حزينة بهيجة في الوقت نفسه .

ويعثر المرء بين الحين والآخر فى مقهى شارع الديوان على عدد من الفتيات الخليعات أيضا ، وهن يرقصن على نغمات الموسيقى أو يغنين . أما صاحب المقهى فهو أخو ابراهيم شاوش ، جلاد الداى ، ويتمتع مثله بمكانة مرموقة عند الحضر ، وله شخصية قوية مثل أخيه الجلاد ، وذو ثروة كبيرة . والحفلات التى تقام فى مقاهى القسم الاعلى من المدينة أكثر أصالة وصخبا خاصة ما يقع منها قرب القصبة فهناك يقع المقهى اليونانية التى يحاول صاحبها ، ويدعى «سبيزيوطه» اغراء جمهوره بأحقر الوسائل فترى الاهالى ، وكثيرا ما يختلط بهم الاوروبيون ، يضجون فيها ويصرخون مع الموسيقى الصاخبة ، دون فارق دينى أو عنصرى ، ويمتزج ذلك كله بأصوات السكارى من النساء الخليعات اللواتى يتبادلن الاحاديث القذرة مع عدد من رواد المقهى (ص 70 – 72) .

التقاليد الدينية :

يتحدث «فاغنر» فى فصل تال عن بعض التقاليد المتبعة فى شهر رمضان وأيام العيد الصغير ، فيقول ان الاعلان عن بدء شهر الصيام يتم باطلاق مائة طلقة وطلقة من مدفع كبير أقيم فى الميناء ، وليست هذه الطلقات احسانا من جانب الحكومة الفرنسية ، ذلك أن السلطات المدنية تحتم على المسلمين دفع خمسة فرنكات لكل طلقة فى مقابل هذه التحية . وبعد هذه الطلقات توقد مصابيح كثيرة فوق منارات المساجد ، تضىء الهلال الذى يتوج رؤوسها . ويقف المؤذن بثيابه الجميلة وسط أضواء المصابيح ، ويرفع العلم الابيض ثم يدعو المؤمنين الى الصلاة .

وليس هناك مسلم راشد لا يسرع الى تلبية نداء المؤذن . فلا الشيخوخة ولا الثروة تحول بينه وبين المضى الى بيت الله . وكانت المساجد ، وعددها أيام اقامة فاغنر بالجزائر تسعة وثلاثين ، دائما مكتضة بالمصلين . ويذكر الرحالة الالمانى أن صوت المؤذن كثيرا ما أغراه بالذهاب الى المسجد والمشاركة فى صلاة الجماعة على طريقته الخاصة . فالمسلمون لا يمنعون أحدا من الدخول الى مساجدهم ، الا أن على الزوار أن يخلعوا أحذيتهم حفاظا على طهارة المكان . وفى أيام رمضان تضاء عدة مصابيح بالجامع الكبير (ص 75 – 76) .

ويصف فاغنر الطريقة التى تتم بها اقامة الصلاة، ويؤم الناس فيها شيخ الاسلام . ثم يعلق على ذلك قائلا انه لمنظر جدير بالاعتبار أن ترى المسلم الفخور المعتز بنفسه ينحنى أمام ربه بخشوع العبد المذنب المرتعد . فالمصلون يصطفون خلف الامام دون أن يقيموا وزنا للمكانة أو الاصل والنسب ، فلكل ناحية فى الجزائر ممثلوها . والمسلمون يلفون مسبحة حول أيديهم فى أثناء الصلاة ، وقد أخذ عنهم المسيحيون ، كما هو معروف ، استعمال المسبحة . وتصنع المسبحة من ثمار الوقل الخاشع، وترى بأيدى الائمة والمرابطين وشيوخ البدو . وهناك عدد من أولياء هذه البلاد الجزائرية المشهورين ومنهم الامير عبد القادر . لا يكادون يتركون المسبحة من أيديهم (ص 77 – 78)

احتفالات رمضان :

ويحرص المسلمون ، فيما يذكره فاغنر ، على سماع الموسيقى طيلة شهر الصيام . ومشاهدة

الرقصات والعروض المسرحية والهزليات المتنوعة، التى تذكر بأعياد الكرنفال فى أوربا ، مما يجعل المرء يتساءل عما اذا لم تكن فى أصلها عادة اسلامية انتقلت الى المسيحيين كما انتقل غيرها من التقاليد ويتشدد الجزائريون فى المحافظة على الصيام ، حسب ما أشار اليه العالم الطبيعى الالماني ، ويستشهد على ذلك بالمثال التالى : «استخدمت أحد الجزائريين لأستعين به خلال بعض الرحلات التى قمت بها فى داخل البلاد ، فوقعت لنا حادثة مؤلمة ، أضعنا فيها كل ما كان معنا من مؤونة ، فقضينا أربعا وعشرين ساعة فى المناطق الشرقية من سهل متيجة بدون طعام ، ووصلنا الى مدينة الجزائر مع الفجر ، فدفعت لمستخدمى البسكرى أجرته وأسرعت لتناول فطورى ، وبعد حوالى ساعة وجدته جالسا فى الميناء ، فسألته ما اذا كان قد تناول طعامه ، ولكنه أشار برأسه قائلا : «الله أمر بالصوم» وقضى يومه كله هكذا حتى المساء ، مع أن الجوع كان قد انهكه وظهرت آثاره فى ملامح وجهه النحيفة ، وما كان ليتناول شيئا ولو قدم له نظير ذلك ما قدم ، وما أن سمع طلقة المدفع حتى أخرج الخبز من قلنسوته وراح يلتهمه بجشع كالمجنون» (ص 79) .

وطعام الصائمين فى الليل ـ الكسكسى بالزبيب ـ أو مع اللحم المقلى . وبعد أن يمتلئوا منه ينصرفون الى مشاهدة العروض الهزلية فى المقاهى العربية الكبيرة ، وتشارك فيها شخصيات من العباد والحيوانات ، وتحتوى على حركات واشارات مثيرة ، ومناظر فاحشة ، وسخرية مقذعة ، الى درجة أنه ليس من اللائق الحديث عنها ووصفها ها هنا .

وهناك محل آخر يحظى بعدد كبير من الزوار فى ليالى رمضان ، وهو المسرح الشعبى أو القرقوز ، ويقع فى أقذر زاوية بمدينة الجزائر ، فهو عبارة عن قبو مظلم ، يحتشد فيه عدد من الاهالى ، ويجلسون فوق الارض وأنظارهم متجهة الى الشاشة حيث تظهر الاشكال السوداء الناطقة ، التى تشبه خيال الظل الصينى فى اوربا ، على قطعة من الورق مشبعة بالزيت . ومن بين الشخصيات الناطقة شخصية القرقوز ، ويمتاز بضخامة جسمه ومنظره المضحك ، وسخريته المقذعة ، وما يحدث فى مسرح القرقوز يشبه الى حد كبير ما يحدث فى مسرح العرائس الالمانى أو فى مسرح جنوب أوربا . فالشخصيات تتصارع وتتضارب من البداية الى النهاية، وقرقوز هو البطل ، وهو بدوى صرف ، يوزع أكثر الضربات ويتلقى مثلها . والحوار بالعربية تارة ، وبالفرنسية تارة أخرى ، لان مدير المسرح ترجمان ، ولم ير مانعا من استعمال بعض التعابير الفرنسية ، واتاحة الفرصة للجنود الفرنسيين للمشاركة فى التمثيل ، ولا عمل للاشكال التى تمثل هؤلاء الجنود الا العراك مع القرقوز . وهذا كله حتى لا يشعر المشاهدون من الاروبيين بالملل . ويحرص مدير المسرح أيضا على أن تتخلل مشاهد العراك والنزال مناظر ساخرة ، الا أن هذه المناظر تبدو شنيعة وغير طبيعية ، بحيث أن كل انسان لا ينتمى الى طبقة الادنياء ، يغض نظره دون تلك المناظر الفظيعة . والحقيقة ان الحضر لايجدون مكانا أحسن من هذا ، يتعلم فيه أطفالهم ضروب

السفالة وانواع الآثام . فهل يعجب الانسان بعد هذا أن يرى هذا الشعب غارقا فى الفساد والجبن والذلة والعبودية ، أو كان شبابه يمتص أحط أنواع السموم التى تقضى على طاقاته وحريته الفكرية . وتبدو الحكومة الفرنسية متسامحة فى مثل هذه الفضائح ، فلم تحاول حتى الآن اغلاق تلك الاماكن التى تنشر الفساد والانحلال . بالعكس ان أوضاعها قد تحسنت منذ دخول الفرنسيين ، اذ انها لم تعد تدفع الضرائب التى كانت تدفعها الى الداى ، ومن هنا فان عددها يزداد بسرعة ، وتهتم فرنسا بتزويدها بجيش من الفتيات يفوق عددهن عدد المصريين بثلاثة أضعاف . (ص 80 — 81)

احتفالات العيد :

وبعد احتفالات رمضان يحتفل المسلمون بالعيد الصغير ، وهو عيد البهجة والمغفرة . يستسلم فيه المؤمن الى مسراته حتى فى اوقات النهار . فيستيقظ الناس فى الصباح على انغام الموسيقى الصاخبة ، التى يعزفها السود . وهم يرتدون أجمل الثياب ، وبأيديهم الطنابير والصفائح الحديدية . وموسيقاهم ذات ايقاع جامح ، وتصاحبها حركات الفنانين السود وتمثيلهم الصامت واهتزازاتهم ، بحيث يبدو كل شىء فيهم يتحرك : الرأس والفم والاذن والعين والقدم والاصابع . وهذا فى الوقت الذى يتهادى فيه الجسم ويؤدى حركاته على حدة . ومظهر هؤلاء الزنوج غريب يستعصى على الوصف . ولا يستطيع الانسان أن ينظر اليهم دون أن يضحك . وتراهم يلتفون بالاجنبى ، طالبين منه ثمنا لهذه التسلية التى قدموها له . ويضجون بآلاتهم حوله . ويصعرون وجوههم بصورة رهيبة . فيضطر لشراء نفسه واخراجها من دائرتهم السوداء بعدد من القطع النحاسية . وهذه الموسيقى الزنجية من العادات القديمة المتبعة فى الاعياد ، وكانوا هؤلاء أنفسهم يوقظون الداى من نومه صبيحة العيد . ويعزفون موسيقاهم فى قصر القصبة مثلما يفعلون ذلك فى الاماكن الاخرى . ويتلقون عليها الهدايا . ولا يزالون يفعلون هذا اليوم أمام بيوت الاغنياء من الحضر والكراغلة .

ويرتدى الناس فى أيام العيد الثلاثة أجمل ما لديهم من ألبسة . وخاصة الاطفال الذين يلبسون فى هذه الايام الثياب المطرزة بالذهب والفضة ، والسراويل المصنوعة من الصوف أو القطن . مما يجعل منظرهم فى منتهى الروعة . والنساء والفتيات محجبات الا أن عددهن فى الشوارع والميادين لا يقل عن عدد الرجال وهن يكتفين بالنظر والتسلية وبينما يعانق الرجال فى الشوارع معارفهم . يرش الاطفال الاوروبيين بماء الورد تحية لهم . وفى باب الواد ميدان فسيح ، يقوم فيه تركى عجوز بادارة عجلة كبيرة . وفوقها عدد من الاطفال يمرحون ويضحكون . أما أبناء الاغنياء فيجلسون فى عربات يقودها الزنوج أو البسكريون . وهؤلاء الاطفال يفضلون الركوب فى العربات الفرنسية . فهى تسلية مجهولة بالنسبة لهم . وبما ان الجزائر لم تعرف الطرق الممهدة قبل سنة 1870 ، فان أصحاب العربات الفرنسية يكسبون فى ايام العيد مبالغ كبيرة . فعرباتهم محملة بالاطفال الصغار على الدوام. وثمن مسافة 200 خطوة . تقطعها العربة بسرعة .

هو سنتيم واحد . ويبدو أن التحولات السياسية وسيادة شعب غريب لم تنقص من أفراح هذا الشعب الا أن هذه الافراح والمسرات قد فقدت الكثير من صخبها وأصالتها (ص 82 ـ 83)

الحفـلات العـائلية :

والحفلات العائلية من ذلك النوع الصاخب أيضا فعند ما يرغب الشاب فى الزواج يبدأ فى تلقـط اخبار الجميلات ، ويتزوج ، ان كان من أبنـاء الاثرياء ، فى سنه الثامنة عشرة ، وان كان من أبناء الفقراء ، فى الظروف التى تسمح له باعالة امرأة . فاذا سمع حديثا عن فتاة جميلة ، ورغب مصاهـرة اهلها ، فانه يبحث عن خاطبة ، لها علاقة باسرتها ، ويتخذها وسيلة وواسطة لبلوغ ما يريد ، فيقدم لها الهدايا ويعدها باكثر من ذلك ، اذا هى زودتـه بمعلومات صادقة . وحين يكون الشاب غنيا أو ذا سمعة طيبة ، فانها تسرع فى الحال الى والدى الفتاة وتبوح لهما بالسر الذى عهد به اليها ذلك الشاب. فاذا ارتضياه صهرا ، فانهما حينئذ يقدمان لهـا بعض الهدايا لكى ينطلق لسانها فى الحديث عـن جمال ابنتهما أمام الخطيب . وعند ما يتم الاتفاق بين الوالدين تبدأ الاستعدادات للزواج ، بعـد قراءة الفاتحة وتحديد يوم الزفاف (ص 88 ـ 89)

ويذكر فاغنر انه حضر عرسين فى مدينة الجزائر، وان الزفاف يتم على الصورة التالية : بعد أن ينتهى الرجال من أقرباء العريس من جلستهم مع المفتى ، يذهبون بعد مغيب الشمس بالموسيقى والمصابيح الى دار العروس ، ويأتون بها ، وهى فى أحلى زينة ، ولكنها محجبة كالعادة ، الى بيت العريس ، هذا اذا لم تكن من أبناء الطبقات الراقية ، اما اذا كـانت منها فانها تحمل فوق بغل وفى محمل يشبه القفص يخفيها عن أنظار الرجال ، وحين تصل الى بيـت زوجها تدخل فى غرفة مضاءة ، فتأكل مع النساء وترقص وتمرح . ويجتمع الرجال فى الفنـاء ، ليستمعوا الى أنغام الموسيقى والزغاريد المتكررة .

ومنزل العريس محاط عادة بحشد من النـاس من المدعوين وغير المدعوين ، ومن هؤلاء من يدخل الفناء ، فيصعب اخراجه بعد ذلك . ويجلس الرجال فوق الارض يدخنون أو يشربون القهوة ، ثم توضع قصعة كبيرة من «الكسكس» فى الوسط ، والبخار يتصاعد منها ، فيلتف الضيوف حولها ويطعمـون منها بملاعق خشبية . واذا أراد الجزائرى أن يكرم ضيفه فانه يقدم له «الكسكسى» بالزبيب أو العنب، وتتوسط القصعة قطعة من الزبدة ، والاثريـاء يقدمون فى أعراسهم «الكسكسى» باللحم ، لحـم الدجاج المقلى عادة . وبعد ذلك يقدم خروف مشوى، يقسم أمام المدعوين ويوزع عليهم ، ثم تقـدم الفواكه المختلفة من بطيخ أو تمر أو برتقال ، ويوجد البرتقال بالجزائر طوال السنة تقريبا . وبالتـالى تقدم القهوة حتى الصباح ، فيشرب المدعوون وهم يتمتعون بمشاهدة الفنانين والموسيقيين ويستمعون الى أنغام آلاتهم وغنائهم .

ويقود الفرقة الفنية موسيقار الداى ، وهو العجوز على الخيارى ، بهدوء ووقار ، ويقوم بالدور الاول فى الحفلة ، فيحدث الحاضرين طورا ، ويغنى طورا آخر ، ويروى لهم قصص الحب . أما الراقصـات فهن من بنات الشارع ، وغالبا ما يرتدين ثيـابا

فاخرة . ولهن حظ من الجمال بالنسبة للاهالى على الاقل . ورقصهن هؤلاء البغايا رتيب لا جمال فيه أصلا . فهن يلوحن فى الهواء برداء كبير شفاف أو منديل ويحركنه حركات متنوعة دون أن يتركن مكانهن . واجسادهن تهتز بشكل مثير ، كل شىء فيهن يرتعد : الرأس والصدر والايدى والارجل . والظاهر أن الحضر يجدون لذة كبيرة فى مشاهدة مثل هذه الحركات الخليعة ، مع انها خالية من الفن تماما . بل انها تثير الاشمئزاز . والرقص مهنة رابحة ، فبعد كل رقصة تقترب الراقصة من المشاهد الجالس ، وتحنى رأسها فوقه . واللياقة تحتم عليه أن يلصق بماء الورد أو بلعابه قطعة نقدية فوق وجهها بالقطع تحرك رأسها فتتساقط فى منديلها . وقد أكد لى أحد الجزائريين أنها تتقاسم ذلك مع صاحب العرس . وهو ما يشبه ضريبة العرس بالنسبة للمدعوين .

ويتسلى الجنس اللطيف فى الطابق الاعلى على الطريقة نفسها ، وكثيرا ما تسمع زغرداتهم وهذه الزغردة تسمع فى الاعراس وفى حفلات الختان وفى أيام الحرب . وفى النهاية تقدم لكل من العريس والعروس بعض التعليمات المتعلقة بحياتهما الزوجية . وبعد دخولهما هذه الحياة ترتفع من جديد الزغاريد وأصوات الموسيقى الصاخبة . (ص 84 – 88)

وحفلات الختان شبيهة بحفلات الزواج . ويختن الطفل فى الرابعة من عمره من طرف رجل يعرف باسم « البشار » ، ويتلقى من الاغنياء ثمانية « بوجو » على الاغلب . أما الفقراء فلا مال لديهم . ولذلك فهو يختن أطفالهم مجانا . ويحرص الحضر على اقامة احتفالات كبيرة بهذه المناسبة .

ثرفانتس

قمة الأدب الإسباني

كان أسيرًا في مدينة الجزائر

د. الطاهر احمد مكي

التاريخ يعيد نفسه ، ولا أدعى الى اليقظة ، واكثر تبصرة فى حياة الشعوب ، من نظرة الى الوراء ، نرد اليها نتائج الحاضر الذى نعيشه ، والمستقبل الذى نتطور اليه · وتفسير ما يقع اليوم ، فى ضوء أحداث الامس ، شىء مقرر فى مناهج البحث التاريخى ، منذ ان كتب ابن خلدون مقدمته ، الى الدراسة المستفيضة التى قام بها المؤرخ الانجليزى ارنولد توينبى عن الحضارة الانسانية عبر التاريخ ·

والحوادث الجسام قد تؤدي الى لقاء متعاون مثمر أو الى مواجهة حادة عنيدة ، وبيدنا دائما ـ اذا وعينا وقائع تاريخنا ـ ان نجنب انفسنا مواطن الزلل ، وان ندفع بها فى طريق الخير ، وان نجرد قوى الشر التى تواجهنا من أمضى اسلحتها ، وهو جهلنا بانفسنا ، ومعرفتها بنقاط الضعف فينا ، فيسهل عليها تطويقنا ، وافراغ ثوراتنا العظيمة من محتواها ٠

وثمة حقيقة مقررة ، ان هذا الجانب من البحر الابيض المتوسط ، سمه العالم العربى ، أو العالم الاسلامى ، أو جنوب البحر المتوسط ، أو ما شئت من اسماء ، فلن يغير ذلك من الحقيقة شيئا ، كان هدفا مستمرا ، لعدوان متصل من اوروبا ، أو الجانب الشمالى ، على امتداد كل العصور ، عدوان رده العالم الاسلامى بقوة ما كان متحدا ، وامسك بزمام المبادرة ، فكان الجانب الذى يخشى ٠ وتقهقر واستعمر ما توزعت منه الكلمة ، وتنازع الاخوة ، ودب بين شعوبه الشقاق ٠

مع نهاية القرن الحادى عشر الميلادى تحركت اوروبا لغزو العالم الاسلامى فى الجانب الشرقى منه ، تحت راية الصليب وباسمه ، القت بثقلها كله على سورية ، أعنى الشام وفلسطين ولبنان ،وضمت جيوشها ايطاليين وفرنسيين والمانا وانجليزا ، وآخرين من كل انحاء اوروبا ، ووجدت فى البابا أوجانيوس الثالث ، وجلس على عرش الفاتيكان من ١١٤٥ الى ١١٥٣ ، مبشرا ملهبا للمشاعر ، وداعية بليغا ومتحمسا للقتال ضد المسلمين ٠ وتمكن الصليبيون بدءا ، وكان هذا اسمهم الذى اختاروه لانفسهم وعرفوا به ، من احتلال انطاكية ، وعكا ، والقدس فى فلسطين ، وان يبسطوا سلطانهم على شمال سورية ، وان يبقوا فى طرابلس الشام مائة عام ٠ فلما جاء صلاح الدين فاحكم السياسة ، وأحسن القيادة ، ثأر للمسلمين ، وانتصر على الصليبيين فى معركة حطين ، وأجلاهم عن كل ما استولوا عليه ٠ وكان صلاح الدين رمزا طيبا للحضارة الاسلامية فى كلا جانبيها ، ان حربا وان سلما ، فاعلن أن بيت المقدس ، وهو فى حوزة المسلمين ، مفتوح على مصراعيه ، لكل حاج أعزل من السلاح ، جاءه متعبدا لله ، وليس متعصبا يبيت على غدر وعدوان ٠

وبعد انتهاء الحروب الصليبية فى المشرق بما يقرب من قرنين ونصف من الزمان ، واجه الغرب الاسلامى زحفا صليبيا آخر من نوع جديد ٠ بدأ أولا فى الاندلس ، فكانت الجيوش التى تأهبت لاقتحام غرناطة ، عاصمة الاندلس الاسلامى ، تتكون من جنود قدموا من كل اوربا الكاثوليكية ، ايطاليين وفرنسيين ، والمانا وانجليزا وبرتغاليين ،وأشتاتا مغامرة من بقية دولها ، ومن ورائهم البابا ، يجمع الكلمة ، ويمنح القداسة ، ويعد المقاتلين بالجنة ، فلما كتب لجمعهم المنظم ، المتحمس ، المتوحد ،الغلبة على المسلمين المختلفين على انفسهم ، جلس الكاردينال خمينيت ثيسنروس JIMENET CISNEROS ، وكان الدولة ، فهو عراف الملكة ، تجلس بين يديه لتعترف له بخطاياها وذنوبها وهفواتها وزلاتها ، فيمنحها الغفران ان شاء ، وهو مستشارها ، وكبير وزرائها ، وهو رئيس الكنيسة الكاثوليكية ، ومطران طليطلة ، والقائم على شئون محاكم التفتيش المختصة بملاحقة المسلمين ، جلس نشوان بالنصر ، يخطط لحملة صليبية جديدة ، تجتاح شمال افريقية كله ، وتجعل منه مستعمرة ، يحكمها البابا ، ويكون الرجل الاول فيها قداسة الكاردينال ٠ وهكذا اندفع البرتغاليون والاسبان والايطاليون فى هجوم متواصل على المغرب،والجزائر وتونس ، وليبيا ، وليثير الحمية فى قلوب جنده ،



صحبهم فى هجومهم على مدينة وهران عام ١٥٠٨ ، وهى احداث بالغة الخطورة ، لم تدرس بعد علّى نحو علمى ، لتستخرج منها الاسباب والنتائج ، وقد احسن الاستاذ توفيق المدنى صنعا ، حين خطا الخطوة الاولى ، فجمع وثائقها واحداثها فى كتابه القيم « حرب الثلاثمائة سنة مع الاسبان » .

ولقد قاوم المغرب فى عنف هذا الزحف الصليبى، وتميزت الجزائر من بين دوله بانها تجاوزت مرحلة الدفاع الى الهجوم ، وكان البحر الابيض المتوسط ساحة لقائها مع كل دول اوروبا العادية ، تعتدى باسم الكاثوليكية ، وتقاتل تحت راية الصليب ، ويجمعها من وراء ذلك كله ، رغبة عارمة فىالتسلط على هذا الجانب من الارض ، وانتهاب خيراته .

كانت حربا باسلحة العصر ، ويستخدمها كلا الفريقين ، الهجوم على سفن العدو واسرها ، وابدى البحارة الجزائريون شجاعة وحذقا وجسارة منقطعة النظير،ولكن اروبا فى غزوها الحديث الذى استهدف مع خيراتنا عقولنا وثقافتنا ، اقامت دون تاريخنا الحقيقى حواجز مانعة ، والقت عليه استارا صفيقة. ولم تمكنا من العودة اليه او فهمه ، وسار فى طريقها بعض من علمتهم من ابنائنا ، غفلة أو جهلا أو استنفاعا ، فشوهتالاحداث لكي يخجل منها ابناؤها وحتى كبارنا ، واصبحت هذه المعارك البحرية ، تدرس على نحو مختلف تماما على جانبى البحر الابيض المتوسط . يدرسها الطلاب فى فرنسا أو ايطاليا أو اسبانيا ، امجادا حربية يزهون بها . ويدرسونها لابنائنا « قرصنة » بحرية ، فيها اعتداء على التجارة ، وحرية الملاحة ، وانها خروج على القانون ، كانما الحروب فى اى عصر تعترف بشىء من هذا . وتمثل المسرحية بنفس فصولها الآن ، مع اختلاف الممثلين ، امام أعيننا ، يغدر الاسرائيليون بالفدائيين ، ويقتلون الآمنين ، ويدمرون قرى بأسرها ، فيحسبون لهم ذلك فى عداد الشجاعة والذكاء وحسن التخطيط ، وانها الحرب ! . وينجح الفدائيون الفلسطينيون فى عملية لهم ، فترميهم أوروبا ، ومعها أمريكا فى هذه المرة ، بالوحشية والهمجية والانتحار !

فى واحدة من هذه الحروب الضارية ، والتى شغلت امتداد القرن السادس عشر كله ، خرجت سفينة جزائرية ، الى عرض البحر الابيضالمتوسط ، والتقطت سفينة للعدو ، وبعد معركة قصيرة انتصر فيها البحارة الجزائريون استولوا على السفينة ، واسروا من فيها من الجنود ، واقتيدوا الى الجزائر وكان بين هؤلاء الجنود الاسرى شاب اسبانى لما

يتعد الثامنة والعشرين من عمره ، تبدو عليه مخايل الذكاء والفطنة ، والنظرة المتأملة ، وسوف يقدر له ، فيما بعد ، أن يدخل التاريخ من أوسع الابواب ، اديبا عملاقا ، فى مستوى قامة المتنبى ، وشكسبير ، وجوته ، وأبى العلاء ، وفيكتور هيجو ، ودانتى ، وجوركي ، وآخرين كثيرين ، استعصوا على النسيان ، واحتلوا من ذاكرة الانسانية مكانا خالدا كان ذلك الشاب هو : ميجيل ثرفانتس سافدرا MIGUEL CERVANTIS SAAVIDRA ، ولنبدأ معه رحلتنا من أولها ·

فى يوم مجهول من شهر سبتمبر ، أو أوائل اكتوبر ١٥٤٧ فى قرية يغلب على الظن انها قلعة هنارس ، بين مدريد ووادى الحجارة ، فى واد لم يشهر — اذ ذاك — بأكثر من انه كان الحدود الفاصلة بين المملكتين الاسلامية والمسيحية ، قبل ان يتقلص ظل دولة المسلمين ، تتعاوره الجيوش فى تقدمها أو تقهقرها ، ولد ميجيل ثرفانتس ، فى أسرة جاء ترتيبه فيها الرابع بين اخوته ، ابنا لطبيب متجول ، استقر فى المدينة جراحا ·

وكتابة تاريخه لا تخلو من صعوبة ، لان بعض جوانب حياته واضح موثق ، ليس موضع خلاف ، وجوانب أخرى منها تقع فى دائرة الظلام ، والخلاف حولها كبير للغاية · وأولى هذه المشاكل التاريخ الدقيق لمولده ، فهو مجهول لم يرد فى أية مدونة أو وثيقة ، فاعتمد بعضهم على المالوف الشائع من العادات ، وهى ان بعض المقاطعات كانت تطلق على الطفل الوليد ، اسم القديس الذى ينسب اليه ، ولكل يوم فى الكنيسة الكاثوليكية قديس ، ومن ثم فهو ولد فى يوم ٢٩ من شهر سبتمبر ، لانه يوم القديس ميجيل ، وبخاصة أن الاسم لا يرد فى أى من نسبه العائلى المعروف ، ويعود الى القرن الحادى عشر الميلادى ، غير ان هناك من يرفض هذا الرأى ، لان من الثابت فى وثائق كنيسة المدينة ، ان الطفل عمد فى يوم ٩ من اكتوبر ،وجرت العادة بالا يتاخر تعميد الاطفال عن اليوم الثالث لمولدهم ، وهي تقاليد دينية كانت تراعى بدقة ، وفى مدينة القلعة بخاصة ، فقد كانت مركزا هاما ، من مراكز رجال الدين ، وفيها أقامت الكنيسة جامعتها عام ١٤٩٨ ، اى بعد زوال دولة المسلمين رسميا فى الاندلس بست سنوات · وبعد أن دخل التاريخ ، وطوقت شهرته الآفاق ، بدأت أكثر من قرية ومن مدينة تزعمه ابنا لها ، ولكن ثرفانتس نفسه ، سوف يؤكد فيما بعد ، وبخط يده ، أنه من مواليد مدينة القلعة ، وبنشر هذه الوثيقة سقطت بقية الادعاءات ·

وكما يحدث لمعظم العباقرة فى العالم ، لا نعرف لثرفانتس طفولة واضحة ، وليس لدينا اية صورة دقيقة عن دراسته المبكرة ، وكل ما نعرف عنه ، ان نبوغه تفجر مبكرا ، وان اهتمامه بما حوله كان كبيرا ، وان اقباله على الدرس كان ملحوظا ، وبلغ نهمه بالقراءة انه كان يلتقط الاوراق المكتوبة الممزقة المهملة ، التى تعبث بها الرياح فى شوارع القرية ، وقد أغرم منذ صباه بالمسرح الضاحك ، او الساخر ، وبكتابه وممثليه على ايامه ، وانه احب الشعر وتذوقه ، ومال اليه ، وبدأ يشدو به منذ اللحظة التى استطاع فيها ان يعبر عن مشاعره وأحاسيسه · غير انه وقد تجاوز مرحلة القراءة والكتابة ، مل متابعة الدراسة ، فقد كانت كلها بيد الرهبان ، وتدور حول موضوعات دينية او لاتينية ، عقيمة ومجدبة ، متعصبة ومقفلة فى وجه أى تيار انسانى ، وفوق أية محاولة تستهدف مناقشتها واخضاعها لمنطق العقل·

وجاءه الانقاذ وهو فى السادسة عشرة من عمره، فقد بارح أبوه المدينة فى عام ١٥٦٢ ، أو العام

التالى له ، ليقيم مع أسرته فى مدينة اشـــبيلية ، عاصمة الاندلس على ايام المرابطين والموحدين ،ولها تقاليد عريقة ـ وما تزال ـ فى عالم الادب والطرب والفن ، وقد اتخذ منها سراة القوم الفاتحين ملاذا ومقاما ، ووراءهم جاء « الجزويت » فاقاموا مدرسة ارقى نسبيا ، يختلف اليها ابناء العلية ، ومن المؤكد ان ثرفانتس تردد على هذه المدرســة ، وتلقى فيها دروسا فى اللغة اللاتينية ، واعجب بطريقة اساتذتها فى التربية ، واثنى عليهم فيما بعد ، فى قصــته « حوار الكلاب » !

وطبعا هناك من استكثر على ثرفانتس ان يكون عبقريا دون ان يدخل الجامعة ، وكما بدات القرى تتنازع بنوته ، اخذت الجامعات بدورها ، او رجالها على نحو ادق ، تزعمه واحدا من طلابها . قال رجال الدين الكاثوليك انهم وجدوا اسمه بين قوائم الطلاب فى جامعتهم بسلمنقة ، ولكنهم لم يقدموا هــذه الوثائق ، ولم يدللوا على رأيهم ، ولم تثبته رواية أخرى . وقال آخرون ، اذا كــان لابد أن نجعــل منــه خريجا فى جامعة ، فاولى بهذا جامعة المدينة التى أمضى فيها صباه وجانبا من فتوته ، وهي مدينــة القلعة ، ولكن اسمه لا يظهر فى سجلاتها ، وحفظت لنا كاملة ، ولم يشر هو الى شىء من هذا . وفى غمرة الحماسة نسب اليه بعضهم انه كان طالبا فى جامعــــة مدريد ، دون أن يعرف ان مدريد فى تلك الايام ، كانت بقايا قرية عربية متواضــعة ، ليست عاصمة ، وليس فيها جامعة . وهناك من يرى انــه اتم دراسته العالية فى جامعة اشـــبيلية فى عامى ١٥٦٤ ـ ١٥٦٥ ، حيث كانت عائلته تقيم هنــاك ، ولكن المرجح انه حاول ان يقترب من هذه الجامعة فعلا ، ولكنه وجد الدراســـة فيها جافة متخلفة ، متعصبة مظلمة ، على نحو ما وجد على يد رجـــال الدين فى جامعة القلعة ، فقنع بما يتعلم فى مدرسة الجـــزويت . لكنه استمتع حقا فى هذه المدينـــة بمشاهدة تمثيليات لوبى رويدا LOPE RUEDA

الهزلية الساخرة الشهيرة ، ولوبى هـــذا يعتبر مؤسس المسرح الاسبانى الحديث وأبا له .

خلال ذلك كان ثرفانتس يقرض الشعر لنفســه ، او ينشده لاصحابه ، ثم واتته الفرصة ليظهر مواهبه شاعرا على مستوى الدولة ، ففى عام ١٥٦٩ توفيت الملكة ايزابل ، زوجة فيليب الثانى ملك اسبانيا ، فرثاها بقصيدة شعرية ، غير انها لم تفتح له الطريق الى البلاط ، فقد كان الملك مشغولا بالتجارة ،وتكديس الذهب ، وملاحقة بقايا المســلمين فى الاندلس ، ومحاربة دعاة الاصلاح عبر امبراطوريته الواســعة فى أوروبا وأمريكا ، غير أنها لفتت انظار كاردينــال ايطالى جاء الى اسبانيا ليقدم العزاء للملك فى وفاة زوجته ، وكان الكاردينال مغرما بالآداب والفنون ، ويبسط رعايته على الفنــانين والادباء ، وفى نفس الوقت كان ثرفانتس فقيرا ضائعا مهملا ، حريصــا على الهروب من اسبانيا فى أسرع وقت . ولم يذكر لنا التاريخ سببا واضحا للحرص الشديد على هذه الهجرة ، فقيل انه اصطدم مع رجال البلاط الملــكى الى حد المبارزة ، وانه جرح أحدهم فى معركة ، وان القضاء كان يطلبه ، ويعللها بعضـــهم بخيبة الامل الكبيرة التى هزت أعماقه ، فقد كان يأمل أن تكون القصيدة بداية اقتحامه لعالم الادباء ، وان يصــبح معها موضع رعاية القصر ، واجلال رجال البلاط ، وقيل انها ذات جوانب عاطفية ، وان فشله فى حب ملك عليه شغاف قلبه ، دفعه الى اليأس والقنــوط ، وقد يكون فيها شىء من ذلك كله .

وأيا ما كان الامر فقـــد ذهب للقاء الكاردينال ، وعرض عليه ان يكون فى خدمته ، وان يصحبه معــه

الى ايطاليا ، فقبل رجل الدين الايطالى ، وهكذا رحل ثرفانتس فى نهاية عام ١٥٦٨ ، وقبل ان يغادر وطنه زار بلنسية ، مهد الاسر العربية العريقة فى الاندلس الاسلامى ، ثم عرج على مدينة برشلونة اكبر ثغر اسبانى على البحر الابيض المتوسط ، ورأى جنوب فرنسا ، وعبر جبال الالب ، وشهد مدينة ميلانو فى ايطاليا ، قبل ان يستقر به المقام أخيرا فى روما . غير انه مل العمل فى خدمة الكاردينال ، فلم يبق امامه من طريق للعيش ، وحيدا فى بلد غريب ، الا ان يعمل جنديا اجيرا ، وهكذا نلقاه فى عام ١٥٦٩ يعمل فى فرقةيقودها قائد اسبانى من وادى الحجارة مدينة تجاور مسقط رأسه ، فعطف عليه ، ورق لحاله ، وبصحبته زار بقية مدن ايطاليا ، وتجول فى انحائها ، ولا نعرف فى البدء تحت أية راية كان يقاتل ، فقد كان فى ايطاليا ثلاثة جيوش مختلفة ، لها هدف واحد : الانقضاض على العالم الاسلامى فى الضفة الاخرى من البحر المتوسط ، كان ثمة الجيش الاسبانى ، والجيش الايطالى ، والجيش البابوى ، غير ان المؤكد انه بعد ذلك بعام ، أى فى سنة ١٥٧٠، انضم الى قوات البابابيو الخامس ، بقيادة الجنرال البابوى ماركو انتونيو كولونا . ولقد اكسبه طوافه بايطاليا جنديا ، معلومات وافرة ، وتجارب متنوعة ، وسعة إفق ، واقترابا من ذخائر ايطاليا الفنية لوحاتها الرائعة في الكنائس وتماثيلها الباهرة فى الميادين ، وتعرف على آدابها القديمة والوسيطة ، وابداع عصر النهضة ، وعايش طبيعتها الفاتنة ، ووعى ذلك جيدا ، وساعدته عليه حافظة قوية ، وتمثله مستفيدا ، واعانه عليه ذكاء فطرى ، ولعله فى تلك الفترة بالذات بدأ يتهيأ داخليا ونفسيا لاعماله العظيمة ، التى سوف يدفع بها واحدة وراء الاخرى ، حتى يلقى الله .

ثم انضم الى أسطول الرابطة البابوية المرابط فى البحر الابيض وكان يتكون من قوات ايطالية ، واسبانية ، وثالثة تتبع الفاتيكان ، بقيادة دون خوان أخى الملك فيليب الثانى ، ويتالف من ٣٠٠ سفينة ، على ظهرها قرابة ٣٠ الف جندى ، وفى ٧ اكتوبر عام ١٥٧١ ، التقى اسطول الرابطة بالاسطول التركى ، فى مضيق ليبانت « LE PANTE »

وشارك ثرفانتس فى المعركة رغم انه كان مريضا بالحمى ، وجرح أثناء القتال ، وأرسل الى مستشفى مسينا فى ايطاليا للعلاج ، وأمر القائد برفع راتبه ، وفى العام التالى شارك فى الحملة على تونس ، فلما فشلت الحملة عاد الى ايطاليا ، وظل هناك حوالى عامين ، ومع راتب قليل ، وحياة عسكرية جافة ، عاوده السأم من جديد ، فقرر ان يجرب حظه من جديد فى اسبانيا ، فتقدم بطلب عام ١٥٧٥ يطلب السماح له بالعودة ، فسمح له قائد الاسطول ، واعطاه رسالة لاخيه الملك ، يوصى به خيراً ، ويطلب وضعه قائدا على رأس فرقة ، لانه « يستحق الكثير لشجاعته التى جربناها ، ولذكائه الخارق ، ومواقفه النبيلة .

فى ٢٠ من سبتمبر عام ١٥٧٥ ، أبحر ثرفانتس من ميناء نابلى فى ايطاليا ، رفقة أخيه رودر يجو RODRIGO ، وكان مثله يعمل فى ايطاليا جنديا أجيرا ، على ظهر السفينة « سول » ، ومعها سفينتان أخريتان فى طريقهما الى العودة أيضا ، وبينما هم فى الطريق التقوا ببعض السفن الجزائرية تمخر عباب البحر الابيض المتوسط ، بقيادة الارناؤط مامى فدارت بينهما معركة عنيفة ، امام شاطىء مرسيليا ، انتهت بهزيمة السفينة الاسبانية ، وأسر بحارتها والجنود الذين عليها ، وكان بينهم ثرفانتس وأخوه رودريجو ، فى ٢٦ سبتمبر ، ونقل الاسرى الى مدينة الجزائر ، ليصبحوا فى قبضة حاكم المدينة .

كانت الرسـائل التى يحملها ثرفانتس الى الملك فيليب الثانى شؤما عليه ، فقد ظن الداى أن بين يديه شخصية خطيرة ، ذات مكانة مرموقة ، تنتمى الى قمة المجتمع الاســـبانى ، ويمكن ان يلعب بها فى الحرب الدائرة بين البلدين ، ان يطلب مقابل الافراج عنه فدية عالية ، أو ان يقايضه بجمع كبيــر من الاسرى المسلمين ، او ان يستخدمه فى الضغط على الحكومة الاسبانية للتخفيف من مآسى الاندلسيين المسلمين . « ان الوثائق التى حملها ثرفانتس لكي تكون طريقه الى حياة افضل فى اسبانيا ، اصبحت سببا لتمتد به حياة اقسى فى الجزائر » ! . وسيق ثرفانتس الى السجن ، مع بقية الاسرى ، ليلتقى فيه بأسوى آخرين من مـواطنيه ، او ينتمـون الى دول اوروبية أخرى . واستمر فى السجن خمسة أعوام كاملة ، ووعت ذاكرته كل السيئات التى يتعرض لها الاسرى والسجناء ، هنا فى الجزائر ، أو هناك فى وطنه ، وفكر فى أخيه قبل ان يفكر فى نفسه ، وأهمه ما يمكن ان يكون عليه حاله ، ولكنه رغم ذلك ، ظل مثلا عاليا للفضيلة والتماسك ، والفطنة والثبات ، وخصص وقته وجهده لمساعدة رفاقه ، وأحس منـذ اللحظة التى وقع فيها أسيرا ، أن مسـتقبلا حافلا بالمتاعب والمآسى ينتظره ، غير ان الحياة الجديدة جعلته يعيد النظر فى افكاره ، فلم يعد يحصر نفسه في مشاكل وطنه ، وانما تجاوزه ليفكر فى الانسانية ككل ، وجزع للقلق الذى يسـيطر على العالم ، وللتعاسة التى تساق اليها الشعوب ، وبدا أثر ذلك واضحا فى كل ما كتب فيما بعد .

وبعد اشهر قليلة من سجنه حاول ان يهرب للمرة الاولى ، رفقة عدد من الاسرى الاسبان ، فى يـوم محدد ، واتفقوا مع واحد من السكان أن يصحبهم الى وهران ، مقابل مبلغ من المال ، غير انه تخلى عنهم بعد اليوم الاول ، فعادوا الى سـجنهم فى الجزائر مرة أخرى مكرهين ، وعوقبوا على محاولتهم هذه عقابا شديدا ، وافلت ثرفانتس بحياته ، لاجابته اللماحة ، وحسن تصرفه من جانب ، ولان الفـدية المتوقعة له ، كانت كبيرة من جانب آخر .

وبعد عام فى الاسر ، افرج عن عدد من السجناء الاسبان مقابل فدية دفعت لهم ، فحمل واحـد منهم رسائل منه لوالده ، لكي يبذل الجهد مضـاعفا فى افتكاكه من الاسر ، غير ان الفدية كانت اكبر من ثروة والده ، ولقـد رهن الاب كل ممتلكاته ، وممتلكات بناته ، ولكن المبلغ الذى جمع كان يكفى لافتداء اخيه فحسب ، وكانت الفدية بمقدار قيمة الاسير ، ولقـد أطلق سراح أخيه فعلا ، فحمله ثرفانتس رسائل لنائب الملك فى جزيرة ميورقة MALLORCA ، وفى بلنسية ، لكي يأمر بارسال سفينة يستطيع أن يهرب فيها الاسرى الاسبان ، واعطيت هذه الرسـائل لفرسان القديس يوحنا ، وكانوا الطرف الكاثوليكى المواجه للبحرية الجزائرية ، ولعدد من المسؤولين الاسبان ، وأخيرا ، فى ٢٨ سبتمبر ١٥٧٧ ، ظهرت امام شواطىء الجزائر سفينة اسـبانية ، يقودها القبطان فيانا VIANA ، وكان أسيرا فى الجزائر مع ثرفانتس ، ثم أفرج عنه مع بقيـة من دفعت لهم الفدية ، ولكن حراس الشواطىء انتبهوا لها ، فولت هاربة الى عرض البحر ، ولكن البحـرية الجزائرية لحقتها ، وأمسكت بها ، ووقع الذين فيها أسرى من جديد .

كانت الخطة التى وضعها ثرفانتس تقضى بـأن يلجأ الاسبان الذين سوف يهربون فى السـفينة الاسبانية المنتظرة الى كهف فى حديقة القائد حسن باشا ، وكانت على مقربة من البحر ، وخارج مدينة الجزائر بثلاثة أميال ، وفعلا خرج اليه خمسة عشر أسيرا ، واختبأوا داخله ، دون أن يعرف بذلك أحد

غير الجنـــــايني ، واصله اندلسي من مدينة ملية MELILLA ، وثق حنينه الى وطنه صلته بهؤلاء القادمين منه ، فكان يعطف عليهم ، ويمدهم بين حين وآخر بالمزيد من الطعام • وفي ٢٠ ســـبتمبر بارح ثرفانتس صحبة رفاقه مدينة الجزائر ، ليختبيء في كهف الحديقة استعدادا للهروب ، لكن الجنايني لم يرد لعطفه أن يبلغ مرتبة الخيانة ، فابلغ حسن باشا بالامـــر ، ودله على المكان الذى اختبأ فيه هؤلاء الاسرى ، وقد سر الباى بالخبر ، وانتظر اللحظة التى يفاجئهم فيها ، فقـــد كانت القوانين تجعل من الاسرى ملكا له اذا حاولوا الفرار • ثم أصدر أوامره للقائد المكلف بحراسة الاسرى أن يذهب الى الكهف، على رأس فرقة من الرجالة والفرسان ، وان يصحبوا معهم الجنايني دليلا ، وتمت المفاجأة في سهولة ، وتقدم ثرفانتس فتحمل المســـؤولية عن الجميع ، واعترف بانه المسؤول عن الهروب ، وانه الـذى أعد الخطة ، فسيق الى مقابلة حسن باشـــا فاعاد القول أمامه ، فاستمع اليه الباى فى أناة وصـبر ، وأعجب بشجاعته ونبله ، وأمر بأن ينقل الى سـجن حمام الملك ، قريبا من باب عزون • ولقد ظن الجميع أن ثرفانتس سيدفع حياته ثمن هذه المغامرة ، ولكن الباى اكتفى بأن يجعل منه تحت تصرفه الشخصي • ولكن الداي مامي لم ينظر بعين الرضا الى تصـرف الباى ، لان ثرفانتس أسيره ، وهو سيده ، فدفع له حسن باشا ٥٠٠ دوكادو DUCADO من الذهب، مقابل أن يتخلى له عن هذا الاسير الممتاز •

وفى هذه الفترة كان ماتيو بسكوال MATEO PASCUAL ، رجل أعمال قطلونى ، يتردد كثيرا على الجزائر ، فلقى ثرفانتس ، وحمله هـذا رسالة الى الملك فيليب الثـــانى ، ما زالت محفوظة حتى يومنا هذا ، يرجوه فيها أن يبدأ فى غزو الجزائر من جديد ، وان يحرر الاسرى الاسبانيين ، غير ان الملك فيليب لم يعر رسالته اهتماما ، فقد كان آخر ما يفكر فيه مصير حفنة من الاسرى الاسبان • وازاء صمت الملك واعراضه فكر ثرفانتس فى الهـــرب للمرة الثالثة ، فكتب رسالة الى دون مرتين قرطبـة DON MARTIN DE CORDOBA قائد الحصن الاسبانى فى مدينة وهران ، يطلب منه ان يرســـل اليه بعض الجواسيس ليستطيع ان يهرب فى رفقتهم، ولكن حامل الرسالة فوجيء بمن يقبض عليه ، فلم تبلغ الرسالة غايتها ، وحكم على حاملها بالجلد ، وحكم على ثرفانتس نفسه بمائتى جلدة ، وهى عقوبة لم تتم ، لان عددا كبيرا من أعيان الجزائر تدخلوا لصالح ثرفانتس ، وأوقفوا التنفيذ •

ولم تتوقف محاولات الشاب الاسبانى للافلات من براثن الاسر ، ففى سبتمبر من عام ١٥٧٩ توثقت عرى الصداقة بينه وبين أندلسى غرناطى ، اكره على التكثلك ، فهرب من اسبانيا ، وما ان وطيء الجزائر حتى عاد الى اسلامه ، واتخذ لنفســـه اسم عبد الرحمن ، فعطف على مواطنيه الاســـرى ، وان اختلفوا معه دينا ، وان لقى من شركائهم فى الدين كل ضروب الاذى والاضـــطهاد ، وتوسط بين ثرفانتس وبين تاجرين من البندقية كانا يترددان على مدينة الجزائر ، ويدعى أحدهما اونوفر اكسارك ONOFRE EXARQUE ، ويدعى الآخـــر بلتسار دى طريس BALTASAR DE TORRES ، ويقومان ببعض الصفقات التجارية ، ودفع لهمـا بمبلـــغ ١٥٠٠ دوبلا DOBLA من الذهب ، ليقوما بشراء « فرطاقة » مسلحة باسمه ، يستطيع أن يقودها ، ويبحر بها الى اسبانيا ، ومعه ثرفانتس وبقية الاسرى الآخرين من مواطنيه ، وقد اشـترى التاجران البندقيان السفينة فعلا ، وقبل يومين من تحقيق رغبة عبد الرحمن وثرفانتس ، تسرب الخبـر

الى اندلسى آخر ، من الموريسكوس ، وكان من قبل فى اسبانيا اهيا رجل دين ، يدعى خوان بلانكو دى باث JUAN BLANCO DE PAT ، ثم هرب الى الجزائر وعاد الى الاسلام ، فقد اسر اليه بالامر اندلسى ثالث له مثل ظروفه تماما ، لكي يبلغ الامر الى حسن باشا الباى · وعند ما اكتشفت الخطة عمهم الرعب جميعا ، بما فيهم ثرفانتس نفسه ، خاف التاجران على حياتهماوعلى حريتهما ، وعرضا على ثرفانتس أن يدفعا له الفدية لكي يتفادى الجميع عواقب المؤامرة ، ولجأ ثرفانتس خوفا الى بيت اسبانى مثله ، ثم عاد واسترد شجاعته ، محاولا أن يدفع الضرر عن الجميع ، فتوجه الى الباى سريعا ، ليقول له : « على عاتقى وحدى تقع المسؤولية ، حتى ولو كان جزاؤها الموت » · غير أن حسن باشا أخذ بشجاعته من جانب ، ومن جانت آخر خشى ان أمر بقتله ان يذهب ومعه من الاسرار ما يمكن أن يفيد الدولة فى صراعها مع الاسبان ·

وبينما هذه الاشياء تجرى فىالجزائر كانت والدة ثرفانتس واخته تطوفان بالجمعيات الدينية فى مدريد ، من أجل العمل على افتداء ابنها ، وأخيرا وصل الى الجزائر الراهبان خوان خيل JUAN GIL وأنتونيو دلا بيا ANTONIO DE LA BELLA فى ٢٩ مايو ١٥٨٠ ، وقابلا حسن باشا ، وتحدثا اليه فى افتداء ثرفانتس ، فطلب منهما الف اسكودو ESCUDO ذهبا ، لانه دفع الى مامى الدالى ٥٠٠ فى مقابل أن يصير امره اليه · ولم يكن الراهبان يملكان هذا القدر من الذهب ، فبدا لهما ان تحريره ان لم يكنمستحيلا فهو شىء شبيه به ، غير ان الحظ لعب دوره فى هذه المرة الى جانب ثرفانتس ، فقد استدعى حسن باشا الى القسطنطينية من قبل الخليفة العثمانى ، وقبل أن يرحل بقليل ، فى ١٩ سبتمبر ١٥٨٠ ، تراجع عن القدر الذى حدده ، وقبل أن يقبض ٥٠٠ اسكودو منالذهب ، نفس المبلغ الذى دفعه هو من قبل ، بما طلبفعلا ، وخرج ثرفانتس فى نفس اليوم من السجن ·

لقد اسهمت أمه واخته بجانب من الفدية ، دفعتا كل ما قدرتا عليه وما تملكان ، وهو ٣٠٠ دوكادو DE CADO ، وساهم صديق للاسرة بدفع ٥٠ ، وتعطف خلدم لها فدفع مثل هذا المبلغ ، ودفعت احدى الجمعيات الدينية المسيحية ٥٠ اخرى · وقام الراهبان بجمع الصدقات من تجار الجزائر فتحصلا على ٢٢٠ ، وكان من المالوف الشائع ان يجىء هؤلاء الراهبان الى المدينة ، وان يطوفوا بمتاجرها ، يطلبون العون من التجار المسلمين لمواجهة هذه الحالات ، فيدفع لهم التجار بعض الاموال عن رضى وطيبة نفس ، فهؤلاء الاسرى تعساء يستحقون انسانيا ان يعاونوا ، لون من التعاطف الجميل لم يعرفه العالم الغربى الا منذ قرن ، حين انشئت الجمعيات الدولية لتضطلع بمثل هذه المهمات ·

لم يكن ثرفانتس خلال الاسر خاملا انطوى على نفسه يندب سوء حظه ، وانما حاول أن يعمل ، وأن يستغل مواهبه ، وكان ذلك أمرا مباحا للاسرى ، فاستطاع ان يكسب ، وان يرفع من مستوى معيشته، وان يعاون رفاقه فى الاسر ، فكان يعطى بعض الدروس فى اللغات ، والرياضيات ، وبعض العلوم الاخرى ، لعدد كبير من الاندلسيين المسلمين الهاربين من قسوة محاكم التفتيش فى اسبانيا ، وكانت مدينة الجزائر تموج بالالوف منهم ، يعملون فى مختلفالحرف والمهن ،ويقومون بنشاط اجتماعى ممتاز · كما كان يتسلى فى خلوته ، ووحدته ، بنظم الشعر او كتابة القصة ، ويظن انه كتب بعض مسرحياته القصيرة خلال اقامته فى الجزائر ، وبصفة خاصة مسرحيات : المعركة البحرية

LA BATALLA NAVAL ، ومعاملة الجزائر

EL TRATO DE ARGEL والتركية العظيمة

LA GRAN TURQUESA والسلطانة العظيمة

LA GRAN SULTANA ولا يستبعد

كذلك ، ان تكون تلك الليالى المظلمة القاتمة ، العارية من كل أمل ، قد أوحت اليه بالخطوط الاولى لروايته الخالدة « دون كيخوته » ، وان سجن الجزائر ، فى باب عزون ، على مقربة من قصر الباى ، شهد مولد تلك الدرة الفريدة فى الادب العالمى ٠

لقد رحل ثرفانتس من الجزائر ، فى نهاية عـام ١٥٨٠ ، بعد أن أمضى فيها خمس سنوات أسيرا ، وكان لايام اسره اثر بالغ فىأدبه ، واحتفظ لها دائما بذكريات ملهمة ، فى كل ما تبقى له من حيـــاته ، وتناثرت اشاراته اليها فى كل ما كتب من روايات أو قصص او مسرحيات ٠ ولا يعـــرف على التأكيد التاريخ الذى أبحر فيه الىأسبانيا ، ولا فى أى ميناء هبط ، من الممكن ان يكون قد سافر الى برشلونة ، أو بلنسية ، او داينة ، ووصل الى وطنه ليواجه ظروفا لا تقل قسوة عنظروف الاسر ،وكان عليه ان يناضل فى ضراوة من أجل حياة افضل ، لقد انتهى الفصل الاول من مسرحية حياته فى مدينة الجزائر ، وكان داميا وآسرا ومثيرا ، وبدأ الفصل الثانى منها فى أسبانيا ، وسيكون أكثر دموية وأسرا واثارة ، ولكن هذه قصة أخرى !

الدكتور الطاهر أحمد مكى

مدينــة الجـزائر من خلال النصوص

العــربية
والأجنـبية

اختارها وأعدها وعلق عليها
مولاي بلحميسي

وصــف مدينــة الجـزائــر لابن حــوقــل (1)

وجزائر بنى مزغنان مدينة عليهـــا سور فى نحر البحر وفيها ابـــواق كثيرة ولها عيون عل البحر طيبـــــة وشربهم منها ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر كبيرة واكثـــر اموالهم المواشى من البقر والغنــم سائمة فى الجبال ـ ولهم من العسل ما يجهز عنهم والسمن والتين ما يقع به وبغيره من هذه الاسبابالجاهز الى القيروان وغيرها ـ ولهم جزيرة تحاذيها فى البحر اذا نزل بهم عدو لجاوا اليها فكانوا بها فى منعة وامن ممن يحذرونه ويخافونه .

(كتــاب المســالك والممــالك والمفاوز والمهــالك)

---

1) ابن حوقل ـ أبو القاسم محمد ـ صاحب كتاب «المسالك والممالك والمفاوز والمهالك» أو كتــاب «صورة الارض» ، دخل الجزائر أيام زيرى بن منــاد سنة 337 هـ ، وتوفى ابن حوقــــل بعد 367 هـ ـ 977 م .

قال المقدسي (1)

اما افريقية فقصبتها القيروان ومن مدنها جزيرة بني زغناية (2).. وجزيرة بني زغناية على ساحل البحر مسورة يعبر منها الى الاندلس ولهم عيون ... « احسن التقاسيم »

1) المقدسي – شمس الدين أبو عبد الله محمد – من رجال القرن 4 هـ – 10 م ، توفي بعد 378 هـ 988 م ، وله كتاب مشهور في الجغرافية سماه : « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم »

2) الصواب : جزيرة بني مزغنة

وصف مدينة الجزائر للبكري1

مدينة جزائر بني مزغني . . مدينة جليلة قديمة البنيان فيها آثار للاول وازاج محكمة تدل على انها كانت مملكة لسالف الامم وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفاء فيها صور الحيوان باحكم عمل وابدع صناعة لم يغيرها تقادم الزمان ولا تعاقب القرون ولها اسواق ومسجد جامع . وكانت بمدينة بني مزغني كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدير من الشرق الى الغرب وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مقصص كثير النقوش والصور . ومرساها مامون له عين عذبة يقصد اليه اهل السفن من افريقية والاندلس وغيرها .

كتاب المغرب

1ء البكري – أبو عبيد الله – من أشهر جغرافي القرن الخامس الهجري وله كتاب : «المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب» وهو جزء من كتاب المسالك والممالك – طبعة دي سلان باريس 1965 ل

وصف مدينة الجزائر للادريسي1

مدينة الجزائر على ضفة البحر . وشرب اهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبار . وهي عامرة آهلة . وتجارتها مربحة . واسواقها قائمة وصناعاتها نافقة . ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر وزراعاتهم الحنطة والشعير واكثر اموالهم المواشي من البقر والغنم . ويتخذون النحل كثيرا فلذلك العسل والسمن في بلدهم كثير وربما يتجهز بهما الى سائر البلاد والاقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم . واهلها قبائل ولهم حرمة مانعة .

الادريسي

1) الادريسي – أبو عبد الله محمد ابن محمد – المعروف بالشريف الادريسي ، ولد بسبتة حوالي 1100 وله كتاب مشهور وهو نزهة المشتاق في اختراق الآفاق .

وتوفي حوالي 1180 م .

مدينة جزائر بني مزغنة

« . . مدينة على ضفة البحر والبحر يضرب في سورها وهي قديمة البناء ازلية فيها آثار عجيبة تدل على انها كانت دار مملكة لسابق الامم وفيها دار ملعب قد فرش صحنه بحجارة ملفقة مثل الفسيفساء فيها صور الخيل والحيوان باحكم صناعة وابدع عمل ويتصل بجزائر بني مزغنة فحص كبير يسمى فحص متيجة وهو فحص عظيم كثير الخصب والقرى والعمائر تشقه الانهار وهو نحو مرحلتين مثلها قد احدقت به جبال مثل الاكليل وفي آخر هذا الفحص جبل عليه الطريق وهو وعر المجاز يسمى حلق واجر ويسميه اهل البلاد «باب المغرب» ، وليس يدخل الى بلاد الغرب الا منها .

وكانت بمدينة بني مزغنة كنيسة عظيمة فيها عجائب من البنيان بقى اليوم منه جدار هو قبلة الشريعة في العيدين وهو كثير النقوش والصور ومرساها مامون وفيه عين عذبة يقصد اليها اصحاب السفن وعلى هذا الولاء الانفاق كثير . .

من كتاب الاستبصار ص 22 – 23 (1)

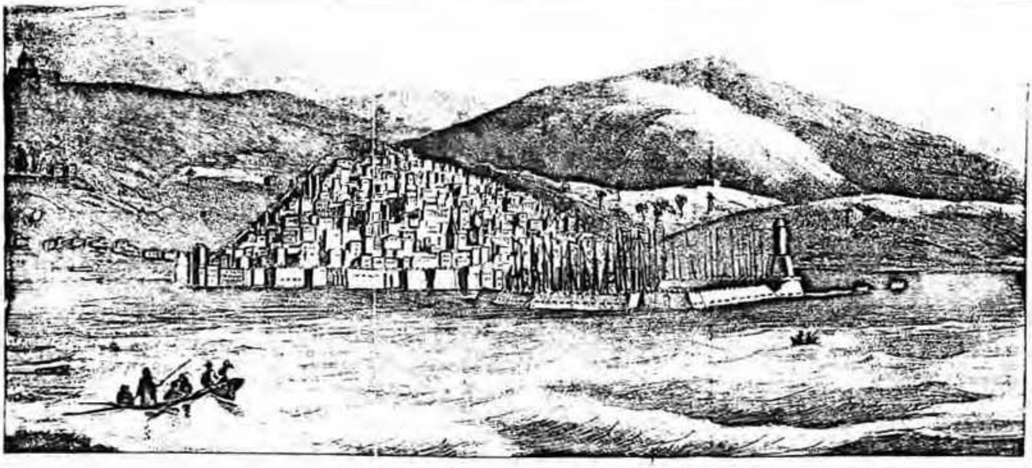
1) كتاب الاستبصار لمؤلف مجهول غالب الظن أنه عاش في القرن 6 هـ – 12 م ، وقد اعتنى بنشر الكتاب المستشرق كريمير سنة 1852 ، ونقله الى الفرنسية فانيون سنة 1900

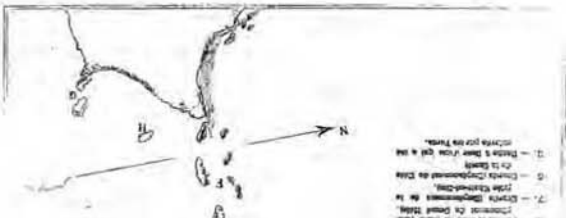
وصف مدينة الجزائر للعبدري1

وهي مدينة تستوقف بحسنها ناظر الناظر ، ويقف على جمالها خاطر الخاطر قد حازت مزيتي البر والبحر، وفضيلتي السهل والوعر . لها منظر معجب انيق ، وسور معجز وثيق ، وابواب محكمة العمل ، يسرح الطرف فيها حتى يمل ، ولكنها قد اقفرت من المعنى المطلوب ، كما اقفر من اهله ملحوب(2)فلم يبق بها من هو من اهل العلم محسوب ، ولا شخص الى فن من فنون المعارف منسوب وقد دخلتها سائلا عن عالم يكشف كربة، او اديب يونس غربة فكأني اسال عن الابلق العقوق (3) او احاول تحصيل بيض الانوق . .

العبدري : الرحلة المغربية

1) العبدري – محمد بن محمد بن علي – القرشي المغربي من رجال القرن





السابع هـ ــ الثالث عشر م ، حج فصنف رحلة مسجوعة الى المشـــرق بدأها من أقصى جنوب المغرب مــارا بتلمسان ومليانة والجزائر . . وذلك سنة 1289 م ــ 688 هـ

2) ملحـوب : اسم مكـان ورد فى قصيدة لعبيد بن الابرص

3) العقوق : قيل بيض العقـــاب فى الجبل الشاهق المنيع ، وقيـــل الابلق هو الذكر والعقوق هو الحامـل وهذا مستحيل ــ يضرب المثـــل فيما لا سبيل اليه

4) يميل العبدرى الى النقـــد وفى كلامه مبالغة ــ لان مراحله كانـــت مستعجلة فانه يجهل الوضع الحقيقى ، وعابر السبيل المسرع يمـــر مـــر السحاب ولا يسمح له بالاطلاع

قال الشيخ البلوى 1 وقد ورد على الجزائر مع رفقائه :

. . فرايت محيا صبيحا ، وترتيبا مليحا ، ومسجدا عتيقا ، وبناء أنيقا واناسا قد سلكوا الى الحسن والاحسان طريقا ، من مدينة قد احاط بهـــا البحر احاطة السوار بالزند . .

تاج المفرق بتحلية علماء المشرق

---

1) البلوى ــ أبو البقاء خالد بن عيسى ــ من فضلاء الاندلس وعلمـــاء القرن 8 هـ ــ 14 م ، حج فصنف فى رحلته « تاج المفرق » . قال المقرى : رحلة كثيرة الفوائـد

قال عبد الرحمن الجامعى (1) :

« . . . واما مدينة الجزائر فاول بلد لقيت بها مثل من فارقته من ادبــاء بلدى ، وبها تذكرت بعض ما كـــان منية خلدى لاجتماعى فيهـا بالاديـب الماهر الدال وجوده على صحة القول بوجود الجوهر الفرد فى سائر الجواهر اديب العلماء وعالم الادباء محـــيى طريقة لسان الدين الخطيب . . ابى عبد الله محمد بن محمـد المعروف بابن على . .

فهي ـ الجزائر ـ والحمد لله دار الجوهر الفرد في الادب وعلم العقل والنقل وتنبت العلماء والصالحين كما تنبت السماء البقل . . وهذه المدينة لا تخلو من قراء نجباء وعلماء ادباء واعلام خطباء مساجدهم بالتدريس معمورة ومكاتب اطفالهم بالقراءة مشحونة ومشهورة وقد ذكرت ما فيه غنيمة من علمائها الاخيار وكلهم متحلون باحسن الصفات متضلعون بعلم النحو والفقه والحديث واحياء ليلة المولد النبوي مثل ما في القديم والحديث . . وقد كان بهذه الحاضرة نحو مائة مكتب ملآى بالاولاد حيث ان المحل الذي لا يسع التلاميذ يجعلون فيه سدة يصعدون اليها الدرج يتعلمون القراءة والكتابة ويحفظون القرآن العظيم وحفاظه كانوا كثيرين . .

ـ من رحلة الجامعي ـ

1) هو أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله الفاسي الشهير بالجامعي ، أديب وكاتب ، ولد بفاس سنة 1087 هـ ونشأ بها في طلب العلم فحصل على علوم شتى ، ثم قدم مدينة تونس وتعاطى للتدريس بالجامع الاعظم ـ الزيتونة ـ » صاحب قريحة جيدة في نظم الشعر البليغ لا يضاهى فريد عصره فيه في زماننا هذا ، له مهارة في جميع الفنون . . وله تاليف لطيف في فتح قلعة وهران بالغرب » (من كتاب الذيل لكتاب بشائر أهل الايمان) لحسين خوجة ص 167

وصف مدينة الجزائر

» . . وانه لما من علي المولى الكريم ذو الفضل السابغ العظيم ، بدخول مدينة الجزائر ، ذات الجمال الباهر ، وحلول مغانيها النواضر ، التي غص ببهجتها كل عدو كافر، فلذلك يتربصون بها الدوائر ، في الموارد والمصادر ، ويرسلون عليها صواعق لم تعهد في الزمن الغابر ، أبراني من عليل ووجدي ، ما عاينته من روائها (1) المسجدي ، وبحرها اللازوردي ، اذ هي كما قيل :

بلد اعارته الحمامة طوقها

وكساه حلة ريشه الطاووس (2)

ما شئت من حدائق ، كالنمارق ، وقصور نوع المحاسن عليها مقصور ، والذي اعارها ذلك المرىء الجميل ، واصارها فضية الصباح عسجدية الاصيل ، والحقها بهجة واشراقا ، والبسها نضرة وايراقا ، وابداها للعيون آنق من جيرون (3) ، غرر اعلام ينجلي بهم الظلام وشموس ائمة تنفرج بهم كل غمة ، وتفتخر بهم احبار هذه الامة ، من رجال كالجبال،واحبار كالاقمار ، طلعوا في بروج سعودها بدورا ، البسوها رواء ونورا فاهتديت بانوارهم السنية ، الى قطف ما راق من انوارهم الجنية ، ورتعت في رياض آدابهم فتمتعت ، ونهلت من حياض علومهم حتى تضلعت ، وكرعت في انهار بلاغتهم حتى رويت ، وهصرت من افنان براعتهم ما هويت ، ونسيت ببشرهم وتانيسهم وما اقتبسته من المعارف في تدريسهم ، ما عانيته من رهج القفار وقايسته في لجج البحار»

ابن زاكور : (4) نشر ازاهير البستان ص 3 ـ 4

1) الرواء : المنظر الحسن

2) ينسب هذا البيت للشاعر الاندلسي ابن اللباقة (المتوفي سنة 505 هـ ـ 1113 م) في وصفه جزيرة مايورقة الى أن يقول :

فكانها الانهار فيه مدامة

وكان ساحات الديار كؤوس

3) جيرون : قيل هو جيرون بن سعد ابن عاد نزل بدمشق فبناها فسميت المدينة جيرون وقيل هو اسم أحد أبوابها فقط وقيل هو اسم لأرم ذات العماد

4) ابن زاكور ـ أبو عبد الله محمد ابن بلقاسم بن محمد بن عبد الواحد . . ـ الفاسي ، رحالة وأديب مغربي ، ولد بفاس وتعلم بها في منتصف القرن 17 م ، ثم ارتحل الى تطوان وأخذ عن علمائها ، وفي سنة 1683 قدم الى الجزائر وأخذ عن الشيخ محمد بن سعيد قدورة ـ توفي 1687 ـ فاجازه في رجب 1094 هـ ـ جوان ـ جوليت 1684 ـ وتوفي ابن زاكور سنة 1120هـ

ـ والرحلة تسمى » نشر ازاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان ونشرها مسجوع

طبعت بالجزائر سنة 1902 ـ 1319

مدينة الجزائر في أواخر القرن السادس عشر م :

الجزائر . . عامرة كثيرة الاسواق بعيدتها كثيرة الجند حصينة ، لها ابواب ثلاثة (1) وفيها المسجد الجامع واسع امامه مالكي المذهب وفيها ثلاثة خطب احدها للترك امامهم حنفي المذهب ، ومرساها عامر بالسفن ، ورياسها موصوفون بالشجاعة وقوة الجاش ونفوذ البصيرة في البحر ، يقهرون النصارى في بلادهم ، فهم افضل من رياس القسطنطينية بكثير

واعظم هيئة واكثر رعبا فى قلــوب العدو ، فبلادهم لذلك افضل من جميع بلاد افريقية واعمر تجارا وفضــلا وانفذ اسواقا واوجد سلعة ومتاعـا حتى انهم يسمونها «اصطنبول الصغرى» وطلبة العلم فيها لا باس بهم الا ان حب الدنيا وايثار العاجلة والافتتـان بها غلب عليهم كثيرا . والكتب فيهـا اوجد من غيرها من بلاد افريقيــة . وتوجد فيها كتب الاندلس كثــيرا ، وفى هذه المدينة قبر الولى الصـالح ابى زيد سيدى عبد الرحمن الثعالبى (2) وقبر الوالى ابى العباس سيـدى احمد بن عبد الله الجزائرى (3) وقبر الولى الصالح ابى النور ، وكذا يقال له عند اهل البلاد ، وهو الذى قبره فى راس الجبل وكل هؤلاء خــارج باب الوادى وفيها غيرهم من الصالحين زرناهم وتبركنا بهم والحمد لله (4) .

ولقد سافرت السفينتان اللتــان جئنا فيها (1) راجعتين من الجـزائر الى اصطنبول باموال كثيرة وجباية البلد وهدايا للسلطـان والـوزير والقبطان وغيرهم واموال التجار وذخائر الجنـد وغير ذلك وسافر فيهما كثير المسلمين وقاضى البلد المعرج بماله ونسائـه واولاده والتجار والحجاج وغيرهـم . فبعد ان انفصلوا عن البلد بليلــة قام فيها العلوج ، مماليك رايسها ، مع من فيها من نصارى القذف ونصارى الهدية ، فقتلوا الرئيسين ومن حاربهم من المسلمين فرمى بعض المسلمـين انفسهم الى البحر فنجا بعضهم بالسباحة وغرق بعضهم . وذهب النصــارى بالسفينتين الى بلادهم بما فيهــا من الاموال والنساء والصبيان . .

فذكر لنا بعض من له خبرة بامور الباشا والى البلد ان الذى ذهب لـه فى السفينتين الف الف مثقال وذكـر آخر انه ثمانية عشر قنطارا ذهبا سوى الجــوهر والملف وسـاير السلـع والنصارى والفرش ، فوقع ماتم عظيم فى كل دار من ديار الجزائر حزنا على ما وقع للمسلمين من المصيبــة فى الانفس والاموال . . ثم بعد ايام ورد الرايس ارناوط مامى (5) وكان غاليا فى «صارا» فى مراسى بلاد النصـارى بثماني سفن واخذ ثمانية عشر نصرانيا من نصارى السفينتين ذهبوا فى مركب صغير لبلادهم ومعهم ثمانية عشر الف مثقال فذكروا انهم لما وصلوا بـلاد النصارى التسموا ما ذهبوا بــــه فاتاهم الف مثقال لكل انسان بعـد ان رفعوا عشرين الف مثقال صدقـة للكنيسة ، وذكروا لنا انهم عــزموا على هذا الغدر والفتك قبل وصولنـا الجزائر و... معهم . . وكان السبب فى ذلك فيما ذكر ان تشاوروا بينهم فقال ذو رايهـم : السفينتــان الآن فارغتان ليس فيها الا الانفس اخروهما حتى ترجعا من الجزائر موسوقة بالاموال والذخائر فكان الامر كذلك . . ورياس اصطنبول معهم الغرة والغفلة وما وقع قط مثل هذا الواقع لرياس الجزائر .

) التمقروتى (6(: النفحة المسكيـة ص 139 ـ 141)

1» والصحيح انه كان للمدينــة خمسة أبواب باب عزون ـ بــاب الجديد ـ باب الوادى ـ باب البحر ـ باب الجزيرة

2) أبوزيد عبد الرحمن بن محمـد ابن مخلوف 778 ـ 1387/845 ـ 1471 (راجع حياته فى باب التراجم)

3) أبوالعباس سيدى أحمد بــن عبد الله الجزائرى توفى 874 / 1469 ودفن فى مقبرة باب الوادى ـ ولــه منظومة فى التوحيد سماها الجزائرية

4) اقام التمقروتى أكثر من شهرين فى الجزائر 8 ذى القعدة الى 17 محرم الموافق 28 أوت الى 5 نوفمبر 1589 وهو فى طريق العودة الى اصطنبــول وذلك بعد أن مر ببتــزرت وعنـابة وبجاية

5) قبطان بحر وكان من خدام قاراعلى

6) هو أبوالحسن على بن محمــد اديب وسفير السلطان السعدى مولاى أحمد المنصور الذهبى أرسل فى مهمة لدى السلطـان العثمــانى باصطنبول فصنف رحلة سماها « النفحة المسكية فى السفارة التركية » وذلك ما بــين 1589 و 1591

وتوفى التمقـرتنى سنـة 1003 ـ 1594 م

قال الجامعي فى مدح مدينة الجزائر (1)

بلاد براس الغرب تاج مكلل   و خلخال سوق الشرق غير ضوامر
بدت بمنصات الزمان كانها   عروس تجلت فى اعالى المنابر
وقد قلدت من بحرها بموشح   وصيغت لها الامواج خلخال حاسر
ولاح بها باب الجزيرة مثلما   تبسم ثغر فى وجوه البشائر
كان مجاز البحر معصم غادة   تحل سوارا و اكتسى بجواهر
و لله ابراج بشاطىء بحرها   تحاكى النجوم الزهر فى عين خازر
كان الرياض الخضر محدقة بها   ذوائب اصداغ الوجوه النواظر
غصون و انهار و تلك لهذه   تحن فتحنو لاستلام الغزائر
فتبدو وقد حاك النسيم برودها   نصال رماح فى زرود مشاجر
و لله ما ضمته من كل منظر   حلاوته ، ما مر ، تلقى بخاطر
فدعنى من غرناطة و ربوعها   و شنيل فالحسن انتهى للجزائر
فما تفضل الحمراء بيضاء غادة   مقرطقة بالبدر ذات غدائر
و من لربوع بالجمال وقد غدت   كخط زبور فى قديم الدفاتر
و عدى ربوع حاطها باحاطة   مؤلفة من ستره خير ساتر

1) تقدمت الاشارة اليه فى باب الرحلات

الشعر الملحون : قال الشيخ بن مسايب (1)

زر مولى ساكة نوصيك   قم كى تنحل البيبان   ادخل مزغنه يا صاح
طر من ثم لبوفريك   للجزائر داخل فرحان   عندهم تمتع و ارتاح
اعمل الدرك عل جنحيك   زر سيدى عبد الرحمان   تنسقى من كيسان الراح
تبات بلد الجير نزاها   بركته ينفعنا بها   من خمور الود اسقها
بت زاهى واصبح مسرور   ليلة الجمعه اطلع للشيخ
بين ما ومناره وقصور   نرسلك واذا كنت صريخ
خد وعده سيدى منصور   تورخ منازلها توريخ
قبل الا تدخل هيها   واعرف الدار ارجع ليها

1) من شعراء القرن الثامن عشر بتلمسان

تاسيس الجزائر ومليانه والمدية

واختط (زيرى) مدينة « اشير » للتحصن بها سفح الجبل المسمى تيطرى لهذا العهد ، حيث مواطن حصين ، وحصنها بامر المنصور ، وكانت من اعظم مدن المغرب .

واتسعت بعد ذلك خطتها واستبحر عمرانها ، ورحل اليها العلماء والتجار من القاصية . وحين نازل ابو اسماعيل المنصور ابا يزيد لقلعة كتامة جاءه زيرى فى قومه ومن انظم اليه من حشود البربر ، وعظمت نكايته فى العدو ، وكان الفتح وصحبه المنصور الى ان انصرف من المغرب ووصله بصلات سنية . وعقد له عل قومه واذن له فى اتخاذ القصور والمنازل والحمامات بدون اشير . وعقدت له عل تاهرت واعمالها .

ثم اختط ابنه بلكين (1) ، بامره، وعل عهده ، مدينة الجزائر المنسوبة لبنى مزغنة بساحل البحر ومدينة مليانة بالعدوة الشرقية من شلف ومدينة لمدونة (2) (وهم من بطون صنهاجة) وهذه المدن لهذا العهد من اعظم مدن المغرب الاوسط .

ابن خلدون «3» : كتاب العبر ج 6 ص 313 ــ 314 ط بيروت

---

1) بلكين بن زير بن مناد من أشهر أمراء صنهاجة فى خدمة الفاطميين ، قضى حياته كلها فى محاربة زناتة بالمغرب الاوسط حتى اقصاهم عن البلاد واستولى عل المسيلة والزاب كما استولى عل فاس وسجلماسة وهزم برغواتة حتى وفاه الاجل وهو فى طريق العودة 373 ــ 984

2) لعل ابن خلدون يقصد بالاختطاط التوسيع والتعديل حتى أصبحت من الامصار لان المدن الثلاث كانت موجودة وآهلة قبل بلكين

3) أبوزيد عبد الرحمن بن محمد ابن محمد بن خلدون ولى الدين ولد بتونس فى رمضان 732 ــ ماى 1332 وتوفى بالقاهرة فى رمضان 808 ــ مارس 1406

والجدير بالذكر انه اقام ما بين 776 و 780 / 1375 ــ 1378 بقلعة بنى سلامة وتاغزوت بقرب مدينة فرندة ــ ولاية تيارت) لتاليف المقدمة والنسخة الاولى من كتاب العبر

ذكرى ملوك صنهاجة بافريقية المغرب

وان كان هؤلاء المذكورين مندرجين فى دول الشيعة وملتزمين طاعتهم ولكنهم استبدوا وقد خفتت الدولة العبيدية فكانوا ملوكا جحاجح

وكان ابتداء امرهم ان معدا الملقب بالمعز لدين الله اباتميم جبار بيت الشيعة وفحل من دون اوليهم لما ازمع الرحيل الى المشرق وحرص عل استبقاء ما حازه من ملك المغرب بافريقية وما اليها الى احواز تلمسان الى صقلية ليكون له ردا ولملكه بالمشرق عدلا .

وكانت بين ملوك زناتة فى قديم الزمان وحديثه وبين امراء صنهاجة جيرانهم بالحدود المسيلية من مليانة والجزائر والحدود التاهرتية فما وراءها حروب عظيمة واضرار متصلة وحسائف ظاهرة وكامنة .

وكانت الرياسة فى صنهاجة الى زيرى بن مناد وكان زيرى اول من ظهر منهم بالمغرب الاوسط وهو الذى بنى مدينة اشير واليه تنسب وبنى ابنه بلكين بامره مليانة ومدينة الجزائر والمدية .

لسان الدين بن الخطيب : كتاب اعمال الاعلام ص 61 ــ 63 ، ط الدار البيضاء 1964

التحاق الجزائر بالمملكة العثمانية

فرضى اهل المدينة وصوبوا رأيه فى ذلك . فامرهم ان يكتبوا عل لسانهم كتابا الى حضرة السلطان يخبرونه بصرف طاعتهم اليه وانهم من جملة من تنفذ احكامه ويقع فيهم نقضه وابرامه ويكتب هو ايضا مثل هذا الكتاب ، فرضى اهل المدينة بذلك وكتبوا كتابا كما امرهم وكتب ايضا آخر . وعين اربعة اجفان برسم السفر الى حضرة السلطان وقدم عليهم رجلا من خواص اصحابه اسمه الحاج حسين ووجه صحبتهم هدية عظيمة من جملتها اربعة رؤساء من رؤساء النصارى العظام .

فوصلت الاجفان الى حضرة السلطان سليم . فلما ارسوا بمرسى القسطنطينية العظمى وقابلوا قصر السلطان رموا عل حسب ما جرت به العادة مدافع كثيرة ونزلوا بتلك الهدية الى الوزير الاعظم . فاعلم السلطان بقدومهم واوصل اليه الهدية التى قدموا بها فقبلها السلطان وامر بانزالهم واجراء النفقة عليهم ثم انهم لما ارادوا الرجوع وجه صحبتهم سنجقا الى الجزائر بقبول ما كتبوا اليه وانهم ممن تشملهم عنايته وتحرسهم رعايته . وقد كان القونص المستقر بالقسطنطينية من قبل البنادقة اعطاهم الذى يسميه اهل البحر الباسبوط يتضمن حمايتهم من كل ما يلقونه من اجفان العدو الحربية فحملوه معهم وسافروا راجعين الى الجزائر .

فلما كانوا فى اثناء السفر لقيهم ثمانية اجفان البنادقة فاورهم الكتاب الذى اعطاهم القونصى فقبلوه منهم فى الظاهر وكان ذلك منهم مكرا وخيانة وقالوا لهم لا بد لنا من الذهاب معكم الى ناحية انظول خشية عليكم من بعض الاجفان الحربية فيستولى عليكم فنعاقب نحن بكم ، فاغتر بذلك المسلمون وذهبوا معهم الى ناحية انظول هجموا عليهم وصدموهم صدمة واحدة ولم تكن للمسلمين بهم طاقة ففرقوا ثلاثة اجفان للمسلمين ولم ينج منهم الا ثلاثة انفس . واما الجفن الرابع الذى فيه مقدم الجيش فانه عطب على الساحل وخرج الكفار فى اثرهم فقتلوا كثيرا من المسلمين وفر الباقون بين ايديهم . اما مقدم الجيش فانه دخل انظول وكان بقربها كما ذكرناه ولقى قاضى المدينة واخبره بما جرى على اجفان المسلمين وكيف مكر بهم كفار البنادقة فكتب القاضى بذلك كتابا الى حضرة السلطان يعلمه بما جرى على اجفان الجزائر وعين لحامل الكتاب مركبا بما يحتاج اليه من آلة السفر وسافر فيه مقدم اجفان الجزائر فلما وصلوا الى الحضرة دخلوا الى الوزير الاعظم ووصلوا اليه كتاب قاضى انظول فلما قرا الكتاب استغاظ من ذلك استغاظا شديدا وبعث الى قونص البنادقة يتهدده ويعلمه ان اجفان اهل الجزائر ان وصل خبرها الى السلطان قبل ان تردوها يقع عليكم بلاء عظيم من قبله . فامتثلوا امر الوزير وردوا لهم جملة ما ضاع لهم من الأجفان والاسباب وغيرها . فرجع مقدم الجيش الى مدينة انظول فوجد بها ثلاثة رجال الذين نجوا من الاجفان التى استولى عليها العدو فذهب الجميع الى جزيرة بقرب انظول فوجدوا بها الاجفان التى غرقها لهم العدو فركبوا فيها ورجعوا الى الجزائر،فلما دخلوها ووقفوا بين يدى خير الدين واوصلوا اليه امر السلطان والسنجق الذى وجهه صحبتهم واعلموه انه قبل طاعة اهل الجزائر واذن لهم فى صرف الخطبة والسكة اليه كما تضمنه الكتاب الذى وجهه معهم ، ففرح بذلك خير الدين فرحا شديدا وسر به سرورا عظيما الا انه حصل له بعض الحزن على ما وقع لاجفانه من النكبة التى حصلت لهم من عدو الدين

واستقر خير الدين اميرا من قبل السلطان الاعظم سليم خان وصرف دعوتها اليه وامر بذكره على منابرها وضرب السكة عليه .

(من غزوات عروج وخير الدين)

ذكر اخبار الفرنسيين بعد استيلائهم على الجزائر

اول ما ابتدا به قائد الجنود الفرنسوية فى الجزائر ، ان رتب مجلسا ، من رؤساء الجنود ، لضبط خزائنها من الاموال والجواهر والمهمات الحربية والذخائر فتحصل من ضبطها ــ على ما قيل ــ من الذهب والفضة ، وقيمة الجواهر : ثمانية واربعون مليونا وستمائة الف وثمانون الف وخمسمائة وسبعة وعشرون فرنكا . . وهى الصوف والحنطة والشعير وغيرها ، ما يبلغ قيمته ثلاثة ملايين من الفرنكات ومن المدافع والبنادق والبارود والرصاص والقنابل وغيرها من آلات الحرب ، مع ثمن الاملاك الاميرية داخل البلد وخارجها ما قيمته خمسون مليونا من الفرنك.

ثم حمل الباشا ، مع اهله واتباعه الى « الكورية » ثم الى الاسكندرية . ولما وصلها ، احتفل به محمد على باشا ، واطلعه على المهمات الحربية وغيرها ، وصنع له مادبة حضرها الاعيان ، واكابر البلد . وفى اثناء الطعام ، اثنى حسين باشا على الخديوى ، ومدح اعماله وهمته ، فى اعمار مصر وترقيتها ، فاجابه الخديوى بقوله : ياحضرة الباشا .. ان جميع ما رايته واستحسنته كان منشؤه من اكل الفول وكان ذلك منه تذكارا له ، فيما سلف من الجواب ، عند قراءة الكتاب . . فتمغص حسين باشا ، وتوجه لمحله متالما . وبعد ايام قليلة ، توفى سنة اربع وخمسين ومائتين والف هجرية (1245) .

ولما كثر الهرج بين الانكشارية ، والجيش الجزائرى ، جمعهم القائد العمومى . وحمل اكثرهم الى نواحى ازمير . ورخص للاغنياء منهم ، فى الاقامة بالجزائر ، ريثما يبيعون عقاراتهم وامتعتهم . وبعد فراغهم من اشغالهم ، حملهم الى جهات مختلفة ودون الدواوين ، وجند من اهل المدينة جندا بلديا ، وبنى قواعد حكومتهم فى الجزائر ، على اظهار الهيبة ، ومراعات امور الشريعة الاسلامية ، واحترام المساجد وتعظيم العلماء ، وحرية العوائد وتلطف ما شاء فى امالة القلوب اليهم . وبذل الاموال ترغيبا ، حتى يلين اليهم القوى ، ويدخل فى طاعتهم الابى وظن ان سياسته هذه كافية فى الاستيلاء على سائر المغرب الاوسط . ولم يعلم ان دون ما اراد ، خرط القتاد . وقد ظهر لهم بعد حين ، ان فى عين اليقين حروبا ، يشيب لها الوليد ويضعف لها القوى الشديد . الى ان نالوا غاية مرغوبهم وذلك تقدير العزيز العليم .

تحفة الزائر تاليف الامير محمد ابن عبد القادر الجزائرى ص 137ــ138

هذا تاريخ قدوم لبلادور الى الجزائر

وسبب قدومه انه عمر مركبا من مراكبه واوسقه بالمال والسلعة وبعثه الى وهران فاخذه رايس من رؤساء الجزائر واسمه كجك على ودخل به الى الجزائر بعد ما وقع الحرب بينهما فوجد فيه رئيسا عظيما مع جملة الرؤساء ودخل فى شهرة عظيمة ثم ان كجك على احضر هذا الرايس الى حسن اغه خليفة خير الدين وقبل يده وكشف عن راسه وبقى داهشا من الهيبة فساله حسن اغه عن اخبار بلاد النصارى فقال له الرايس ان سفينة تركتها تريد القدوم الى بجاية فعند ذلك امر حسن اغه ان تجهز له اغربة فتجهزوا فى اسرع وقت فساروا الى طلبها الى نواحى بجاية وكمنوا فى موضع يقال له العش والمقار وكان من جملة رؤساء الجزائر كجك على المتقدم الذكر فطلعت لهم تلك السفينة ذاهبة الى بجاية فقربوا منها وشرعوا فى قتالها وكانت هذه السفينة فى غاية الاستعداد للقتال فلم تزل مع اجفان المسلمين فى اخذ ورد الى ان وقعت فيها النار فالتهبت فى اطراف السفينة فعجز الكفار عن اطفائها فالقوا انفسهم فى الماء فالتقطهم المسلمون من البحر واطفوا النار فعند ذلك رجع الروسا الى الجزائر وهم فارحون بهذا الجفن ودخل الجزائر فى شهرة كبيرة وفرح به حسن اغه غاية الفرح وامرهم بانزال ما فيها من الغنيمة فانزلوا الكفار واحضروا بين يديه ومعهم ريسهم وكانوا فى حال طلوعهم الى دار الامارة تصفف لهم النسا والصبيان واهل البلد ليتفرجوا فلما وصلوا بهم الى حسن اغه امر بهم الى السجن المعد لذلك فلما سمع بهم صاحب اسبانية بما تم على هذين الجفنين وكان اهل طاعته قد ضجوا اليه بالشكوة مما يفعلون اهل الجزاير بهم خصوصا اهل السواحل منهم بحيث انهم قالوا للطاغية اما ان تكفينا امر الجزائر والا نعطوا الطاعة لما حبها فشرع فى الحركة الى الجزائر واطلق الندا فى ساير الطاره بذلك فانحاشت اليه جيوشه افواجا افواجا وزخرت اليه جيوشه وعساكره امواجا امواجا فوصل خبر عمرته الى حسن اغه خليفة خير الدين فصدق بذلك ولم يكذب . . .

ادار وجهه الى تحصين المدينة والاستعداد لمقابلة العدو فبنا اسوار المدينة واصلح ما انهدم منها ونصب عليها المدافع وعلى ساير الابراج وعين اربعمائة اسير من الكفار لهذا البنا ثم انه بعث الى شيخ المدينة وامره ان يرفع اليه حساب رجال كل حومة من الجزاير ففعل ذلك شيخ المدينة ومع ذالك فاخبار العمارة تتوارد فى كل وقت على اهل الجزاير فامر حسن اغه بقطع اشجار البساتين كلها خوفا من النصارى ان يستتروا بها عند القتال واول مما بدا هو فى بستانه فلم يترك فيه شجرة فبينما هو فى يوم من الايام جالس فى دار الامارة اذ دخل عليه حارس البحر الذى يقال له صاحب الناظور واخبره بان عمارة النصارى قد اتت وهى عمارة كبيرة اخذت وجه الماء كله وسترته وشرعت فى عدها فلم اقدر فتشوش نظرى من ذلك لكثرتها فعند ذالك عين حسن اغه جملة من الخيل فصعدوا الى جبل ابى زريعة لياتوا بتحقيق العمارة فرجعوا اليه وكل واحد منهم يقول لم اقدر على احصاء ما رايت العدد كثير لا يصل اليه الادراك فعند ذالك امر حسن اغه سيدى سعيد الشريف وكان هو شيخ المدينة ان يوجه رجالا من اهل البلد الى الابراج والاسوار برسم حراستها فى مقاتلة العدو منها فنهض شيخ المدينة المذكور وعين الرجال للابراج والاسوار ونصبوا رايات الاسلام عليها ووزع حسن اغه على ابواب المدينة بطوائف من العسكر فعين لباب عزون رجلا من اعيان العسكر واسمه الحاج مامى وكان مذكورا فى الشجاعة فقام بما عين له واما حسن اغه فاقام فى حصن من حصون الجزاير تصل مدافعه الى العدو برا وبحرا ومعه جماعة من العسكر وطبوله تصعد اصواتها الى الجو والويته المنصورة تخفق على راسه وجعل على ابواب الوادى (هذا الحصن) مدفعا عظيما يدهش الانسان عند صيحته وتزهق النفس من دفعته وجعل من هذه الحصن الى القصبة قايدا ومعه طايفة من العسكر واسمه القايد حسن وعين لحراسة باب الوادى رجلا اسمه القايد يوسف ومعه جماعة من العسكر وعين معه ثلاثة من القياد اسم احدهم سافر

وجمله فى برج من الابراج وقايد اخر اسمه اصلان عينه لقاع السور والقايد الثالث اسمه رمضان فاقامه قريبا منه فى بعض النواحي واما كجك عل وحيدر فانه اقامهما فى باب الجزيرة ومعهما قبطان السفن واسمه خضر وجملة من روساء البحر واما اهل الجزائر من العسكر والاندلس والبلدية فانهم داروا باسوار المدينة بالمكاحل والسيوف والرماح والنشاب واما عمارة النصارى وكان ظهور العمارة يوم الاربعاء فى آخر الشهر من جمادى الثانية بقى منه ثلاثة ايام سنة ثمانية واربعين وتسعمائة 27 جمادى الثانية سنة 948 وفى يوم الخميس وقت العصر رست فى جون تمانتفوس الموال للجزاير فيقال انهم لما رسا وسقط بعض من رايتهم فى البحر والمسلمون ينظرون اليهم فحصل لهم تفاؤل وعلموا انهم منصورون عليهم وكان نزول العدو ال البر يوم الاحد قبل الزوال بشىء قليل فنزل سلطان اسبانيه ودارت عليه عساكره ويقال ان عدتهم تسعون الفا فارادوا المسلمون ان يمنعوهم من النزول ال البر فرمت عليهم السفون بالمدافع من البحر فاوسع لهم المسلمون المجال حتى تمكنوا من النزول وبات العدو ليلة الاثنين بقرب البلد فى موضع يقال له الحامة وكان زعيم من زعماء الترك يقال له الحاج باشا فعزم ان يضرب عل العدو ليلا فتفتح له ابواب المدينة واخذ الراية فى يده وخرج معه جماعة وافرة من المسلمين وكان خروجه من المدينة لما بقى الربع الاخير من الليل فلم يشعر العدو فى منزله الى نزل فيه وكان الفصل شاتيا لانهم وصلوا فى شهر اكتوبر فى ايام قاسم كون الا والسلمين قد خلطوهم ورموا عليهم بالمكاحل دفعة واحدة ورشقوهم بالسهام فحصلت فيهم ضجة عظيمة فانتبه مالكهم مرعوبا من نومه وصاح برجاله وخواص وزرائه وقال اهؤلاء الذين اخبرتموني عنهم انهم لا يقومون بحربنا انظروا ما عملوا فينا هذه الليلة ثم ان المسلمين رجعوا ال البلد بعد ما قتلوا منهم خلقا كثيرا فلما كان يوم الاثنين تحركت النصارى ال المدينة ومعهم الطاغية حتى قربوا الاسوار وهم يزعمون فى انفرتهم والويتهم منصوبة عليهم فخيل لاهل الجزاير انهم نمل اسود قد ملا الفضاء وكان فيهم من الفرسان اربعة آلاف فارس فشرع فى قتالهم من الاسوار بالمدافع وبنادق الرصاص والسهام وكان فى ذالك اليوم تقدمت رجال من الاتراك ال القتال وظهرت منهم شجاعة عظيمة منهم رجل اسمه الحاج باشه وآخر اسمه الحاج مامى وآخر يقال له خضر وآخر يقال له الحاج بكير فقاتلوا قتالا شديدا ال الليل فرجعوا ال راس تفوره ونزلوا امحالهم فاخذت تلك الوعود كلها وشرعوا فى قتال المدينة وصبت عليهم مدافع المسلمين وخاب رجاوهم من المدينة فصمدوا الويتهم منشورة ال الكدية المعروفة بكدية الصابون وشرعوا فى قتال المدينة منها هذا واهل الجزاير يرمون عل العدو بالمدافع من كل ناحية باصوات الصواعق وربما وصلوا الرمى عل اجفانهم التى فى البحر هذا ما وقع لهم من الحرب فى يوم الاثنين وهو اليوم الاول الذى تحركوا فيه ال الجزاير فلما كان يوم الثلاثة ارسل الله تعال فى آخر الليل عاصفا فقطعت حبال اجفانهم ونشروا صواريهم خوفا من الهلاك وتم هذا الريح فى الزيادة فتشوش الجنرال من ذالك واسمه اندريه وكذالك من كان معه فى الاجفان وسالت هذه الريح العظيمة التى ارسلها الله عليهم جملة من اجفانهم ال البر فعطبت عل المطاحن وخرجوا منهم اسارى المسلمون ومالت عرب الجزاير عل اهل الاجفان فاستاصلوهم قتلا فماتوا فلما راى الطاغية ما حصل لاجفانه من الغرق والعطب انكسرت شوكته واخمدت ناره وظهرت عليه مخايل الذل وخرج اهل المدينة صبيحة يوم الثلاثة باجتهاد وعزم قوى وعلموا ان الله تعال نصرهم عل اعدائه ، فخالطوهم وقاتلهم فى تلك الاوعار فاتى وجوه العسكر ال الطاغية وقالوا له ايها الملك قم بنفسك ال الحرب فان المحلة عل اشراف الاخذ فعند ذلك خرج الطاغية والتفت عليه عساكره واخذوا فى القتال فتقهقر المسلمون عنهم نازلين ال راس تفوره وجدوا الكفار فى قتالهم وتكالبوا عليهم فتقهقروا ايضا ال موضع يقال له ملعب الكورة ثم ال قنطرة الافران فلما راوا الكفار ذالك منهم تراكمت جيوشهم عليهم كالبحر الزاخر وصاحوا عليهم من كل ناحية وطالبوهم من كل دانية فتقهقر المسلمون ال ناحية سيدى ابى التقى فعند ذالك صرخ المسلمون فى وجه الكفار وحملوا عليهم وضربوهم بالحجارة والنشاب وكان ذالك اليوم يسيل فيه

المطر كالواه القرب فراجع المسلمون حمايتهم وحملوا على الكفار من كل ناحية فردوهم على اعقابهم الى المحلة ورجع المسلمون الى المدينة ولما كان صباح يوم الاربعة ظهر الكفار انهم لا طمع لهم بالجزاير وان الغنيمة ان ينجوا بانفسهم فقربت اجفانه الى البر ونزل الجنرال اندريه منها حزين فوصل الى الطاغية فى محلته واعطاه حق المبايعة وقال له ايها الملك الم احذرك عن السفر الى الجزاير فانظر عاقبة الامر الذى كنت حذرتك عنه والآن قم اطلب النجاة لنفسك فان جل اجفاننا عطبوا على السواحل فكيف يكون رجوع هذا العسكر الى بلادنا فها انا ايها الملك اذهب الى تمانتفوس انتظرك هنالك فبادر انت ومن معك من العسكر بالرحيل لتركب فى الاجفان الباقية وتخلص الى بلادك فعند ذالك رجع الطاغية عن الجزائر ونزل على وادى الحراش وكان قد اجهدهم الجوع فاكلوا اربعماية من الخيل وباتوا تلك الليلة والمطر يتراكم عليهم والاعراب والقبايل يضربون فيهم بالمكاحل والاحجار ويلتقطون فى السعى فلما كان يوم الخميس نظر الطاغية الى الوادى فرءاه حاملا فهالته رويته فاستشار رجاله كيف يحتلوا على القطع الى الناحية الاخرى فعقدوا صوارى سفنهم المنعطبة على الساحل وقطعوا عليهم فلما قطعوا الى الناحية الاخرى هجمت عليهم فرسان العرب ايضا وصاحوا عليهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا ولم يزل الطاغية وفرسان العرب تطاعنهم الى ان وصلوا الى تمانتفوس واقام فيها اياما الى ان خمد هيجان البحر فركب فيما بقى من الاجفان وسافر الى بلاده وهو لايصدق النجاة بنفسه وخلف كثيرا من الاغربة والاجفان الرقاق وكثيرا من الاجفان العظام والعشريات والفرقطات ومدافع عظام وخلف كثيرا من الرجال والنساء والصبيان التى اتى بها فانه لم يذهب واحد منهم وعدتها الفان وثلاثماية واما خيله لم يذهب منها واحد سوى الذى مات فى الحرب والذى اكلوه وحاصل ما خلفه لاهل الجزاير مال لا يحصى .

كمل تاريخ النبلادور حين اتى الجزاير فى المرة الاولى وكتبته من مجلد فيه تواريخ بخط عجمى) .

ـ مخطوط المحكمة ـ

قال ابن زاكور الفاسى يمدح الشيخ عمر بن محمد المانجلاتى (1) بالجزائر عام 1094 هـ :

حى على الانس ان طيف الهموم سرى
وسل نفسك وانهج نهج من صبرا
ولا تصغ لدواعى البث ان صدحت
ان دواعيه تستجلب الضررا
واذكر معاهد قد راقت نضارتها
فان فى ذكرها انسا ومعتبرا
لله منها اصيلان جنيت بها
فى روضة اللهو من نخل المنى ثمرا
اذ الاحبة يعدو عن وصالهم
بعد يؤجج فى احشائنا سقرا
حيث وانتلفنا ولا واش ينم بما
نلنا عدا الاعطرين الورد والزهرا
ولا رقيب على الافواح يحسدنا
دان خلا النيرين الشمس والقمرا
وزهونا بتلاقينا والفتنا
اغرى بنا الاعجمين الطير والوترا
فصاح ذلك على افنان دوحته
حى على الانس ان طيف الهموم سرى
وبث ذا ببنان اللذ يحركه
خذ ما صفالك وانبذ كل ما كدرا
والبحر مثل مذاب التبر حاك به
كف النسيم دروعا حسبتها سحرا
والورق تسقط فى امواجه دررا
كما سقطت على بحر العلا عمرا

* * *

جبر الجزائر و الدنيا برمتها
من عالم العلم حتى ذاع واستنشرا
بدر الجلال ومصباح الكمال ومقيا
س الجمال الذى كل الورى بهرا
شيخ احاط بانواع المديح فما
ابقى لمن بعده شيئا ولا وذرا
ان تنم اهل العلا الى محاسنه
تجد جميعهم من بحره نهرا
ذو همة شغفت بالمجد عالية
حتم بها احد النسرين فانكدرا
الى شمائل ازرت بالنسيم ضحى
وخلق كالخلوق قد هفا سحرا
من يبلغ الاهل انى بعد بينهم
جالست بدر هدى بالشمس معتجرا
وقد ظفرت بما قد كنت آمله
لما قضت منيتى من نوره وطرا
حتى لقد خلت آمالى قوائل لى :
فدلك ابن زاكور هذا البحر فالتصرا
من ذا يطاولنى والمجد صالحنى
والبدر البسنى والعلم لى سفرا
قد كنت قدما ارى خطب النوى ضررا
فاليوم حين اكتسبت المجد لا ضررا
ما احسن البين اذ كانت اساءته
تفضى الى مثل مصباح الدجا (عمرا)
بقية السلف الماضى ونخبته
لكن محاسنه ازرت بمن تبرا
قاضى القضاة الذى لا شىء يعدله
فى عدله الذى شافى الناس واشتهرا
بحر العلوم التى قد غاص منهلها
منذ زمان وسيل الجهل فيه جرى
بدر الجزائر صان الله بهجته
عن ان يرى بخسوف البدر مستترا
وبحرها العذب لا زالت جداوله
تروى العالمين البدو والحضرا

المنتخب من شعر ابن زاكور ـ تاليف عبد الله كنون ، الحسين العراشنتى (المغرب) 1341

---

1) عالم فقيه واستاذ ماهر توفى سنة 1104/1693 .

ترجمة عبد الرحمن الثعالبي :

نسبـه :

هو ابوزيد عبد الرحمن بن محمد ابن مخلوف بن طلحة بن عمر ، بن توفل بن عامر بن منصور بن محمد بن سباع بن مكي بن ثعلب بن موسى بن سعيد بن مفضل بن عبد البر بن قيس بن هلال بن عامر بن حسن بن محمد بن جعفر بن ابي طالب .

مولده ونشاته :

ولد الثعالبي سنة 785 هـ 1384 م بواد «يسر» على بعد 86 كلم بالجنوب الشرقي من عاصمة الجزائر . ونشا – هناك بين احضان ابويه – نشاة علم وصلاح واخلاق مرضية ، وقد تلقى مبادىء قراءته وتعلمه بالجزائر العاصمة وضواحيها . وقد كان حاضرا يوم غزا الاسبان – تدلس – »في دولة بني عبد الواد ، واخوتهم من بني مرين ، ودخلها بعسكره ضحوة يوم الاثنين 12 من ذي الحجة سنة 800هـ 1398 م وكان عمره حوالي خمسة عشرة سنة .

رحلته لطلب العلم :

نزح الثعالبي من مسقط راسه صحبة والده محمد بن مخلوف في اواخر القرن الثامن الهجري واواخر القرن الرابع عشر الميلادي ، طالبا المزيد من العلوم والعرفان باحثا عن مظانها في مناكب الارض وقصد المغرب الاقصى ، حيث اجتمع ببعض علمائه الفطاحل واخذ عنهم ما تيسر له اخذه ، وقد سمع وروى هناك عن عالم الدنيا محمد بن احمد بن مرزوق العجيسي التلمساني ، المعروف بالحفيد . وكان الثعالبي – اذ ذاك – يناهز البلوغ ثم يمم شطر بجاية فدخلها – صحبة والده ايضا – سنة 802 هـ – 1399 م ، فمكثا بها زهاء سنة ، ثم توفي والده ودفن هناك .

وعلى اثر وفاة الوالد عاد الى الجزائر قصد الزيارة لاقاربه ثم رجع الى بجاية – ايضا – حيث قضى ما يقرب من سبع سنوات تلقى خلالها دروسا شتى في مختلف الفنون عن زمرة من فطاحل العلماء . وفي سنة 809 هـ – 1406 م – انتقل الى تونس حيث مكث حوالي ثمان سنوات انتفع خلالها بمعظم علمائها واجازوه فيما هو اهل ان يجاز فيه . وفي سنة 817 – 1414 م توجه الى مصر ، حيث استقبل استقبالا كريما وقد اقيمت له زاوية هناك ، وما تزال تلك الزاوية وقفا محبسا على الثعالبي الى يومنا هذا ومن هناك توجه صوب الحرمين الشريفين حيث ادى فريضة الحج ، واغتنم الفرصة ، فاخذ عن بعض علماء الحجاز واجازوه في فنون شتى . ثم عاد الى مصر ، وفي سنة 819 هـ – 1416 م رجع الى تونس فوجد بعض شيوخه قد توفي ، ومكث هناك حوالي سنة ملازما خلالها حلقات جامع الزيتونة ، وفي اواخر سنة 820 هـ – 1417 م عاد ادراجه الى بلده المحبوب بعد ما غاب عنه حوالي عشرين سنة قضاها في اكتناز المعارف واغتراف العلوم ، انى كانت وحيث بانت .

وهكذا استقر بمدينة الجزائر ، حيث راح يشتغل بعبادة ربه وبث العلوم الشريفة بين ابناء ملته ، وتحبير المؤلفات المفيدة ، والمصنفات العديدة في شتى الفنون الى ان ناداه اجله المحتوم صبيحة يوم الجمعة 23 من شهر رمضان المعظم سنة 875 هـ – 15 مارس 1479 م – بعد ان قضى تسعين خريفا كانت كلها طوعا لمرضاة الله ، ووقفا على مصالح العباد .

ثم نقلت جثته الكريمة من منزله الى مكان يقع على ربوة خارج « باب الواد » يعرف آنذاك – بـ « جبانة الطلبة » ودفن هناك ، ومنذ ذلك الحين اصبح ضريحه مزارا يتبرك به ولم يزل الزائرون يقصدونه ذكرانا واناثا يوميا طوال السنة الى وقت غير معلوم .

وقد رثاه تلميذه المخلص الاديب ، الشيخ احمد بن عبد الله الجزائري، ثم الزواوي بقصيدة من بحر الطويل فقال في مطلعها :

لقد بان اهل العلم عنا وافرت	منازلهم انا الى الله نرجع
كما بان عنا شهمنا العالم الذي	سناه بانوار الحقيقة يسطع
ابوزيد المشهور بالعلم والتقى	له الفضل فينا والمقام المرتفع

مؤلفاته :

يعد الثعالبي اخصب انتاجا من علماء قطره ومتصوفيه . وذلك راجع – فيما نظن – الى اعتزاله عن سواد الناس ، وملازمته لمهنة التدريس في شتى الفنون المتداولة بين علماء ذلك العصر . وقد نيفت مؤلفاته على التسعين ، اكثرها مازال مخطوطة ، وجلها يوجد بارض السودان نذكر منها ما يلي :

1 ـ الجواهر الحسان ، في تفسير القرآن .

2 ـ تحفة الاخوان ، في اعراب اى القرآن .

3 ـ الذهب الابريز ، في غريب القرآن العزيز .

4 ـ العلوم الفاخرة ، في النظر في امور الآخرة .

5 ـ كتاب المراقي .

6 ـ روضة الانوار ، ونزهة الاخيار .

7 ـ رياض الصالحين .

8 ـ الانوار ، في معجزات المختار .

9 ـ الجامع الفرعي .

10 ـ شرح مختصر خليل بن اسحاق المالكي .

11 ـ شرح على ابن هارون .

12 ـ شرح على غرار ابن عرفة .

13 ـ شرح عيون مسائل المدونة .

14 ـ جامع الامهات ، في احكام العبادات .

15 ـ الجامع الكبير .

16 ـ ارشاد السالك .

17 ـ الاربعون حديثا في الوعظ والرقائق .

18 ـ الدر الفائق .

19 ـ شرح المختار من الجوامع في محاذات الدرر اللوامع .

20 ـ الفهرسة .

21 ـ مختصر الفهرسة .

22 ـ الرحلة .

23 ـ جامع الفوائد .

24 ـ كتاب النصائح

25 ـ العقد النفيس .

16 ـ كتاب الارشاد ، في صالح العباد .

27 ـ جامع الخيرات .

28 ـ التقاط الدرر .

29 ـ المختار من الجوامع .

30 ـ جامع الهمم ، في اخبار الامم .

31 ـ نور الانوار ، ومصباح الظلام .

32 ـ الانوار المضيئة ، في الجمع بين الشريعة والحقيقة .

33 ـ كتاب النصائح . وغير ذلك.

الامام ابو عبد الله بن محمد بلخروبي (1)

الفقيه الصالح ابو عبد الله محمد ابن علي الخروبي الطرابلسي نزيل الجزائر ودفينها تصين للوفادة على مراكش سنة 961 وفي المرآة ان ابا عبد الله الخروبي قدم المغرب الاوسط والمغرب الاقصى مرتين في سبيل السفارة بين ملوك المغرب الاقصى واخذ هو عن الشيخ زروق رحمه الله وفي قدمة الخروبي هذه الى مراكش انكر على الشيخ ابي عمرو القسطلي دفين رياض العروس من مراكش حلق شعر التائب الذي يريد الدخول في طريق القوم وقال انه بدعة فقالوا ان الشيخ الجزولي كان يفعله فقال لهم لعله باذن والاذن له لا يعمكم فان الاذن للنبي يعم اتباعه والاذن للولي لا يعم اتباعه وانكر عليه مسائل كثيرة وبعث اليه رسالة اقذع له فيها وقد وقفت عليها ، رحم الله الجميع بمنه . وتوفي الخروبي هذا سنة 963 ودفن خارج الجزائر والله اعلم.

وفي «الجذوة» انه من اهل الحديث والفقه والتصوف والف على الخواصهم جع في فن التصوف والاذكار والاوراد كتبا منها : شرح الحكم لابن عطاء الله ، ورسالة رد فيها على ابي عمر القسطلي المراكشي ، وحدثني بعض الجزائريين انه راى تفسيرا له على القرآن العظيم بجزائر مزغنة وغير ذلك وكان جماعا للكتب وكان خطيبا بالجزائر وكان له وجاهة عند امراء بني عثمان استعملوه في السفارة بينهم وبين ابي عبد الله المهدي الشريف الحسني فورد المغرب ودخل مدينة فاس عاينت اجازته لشيخنا ابي عبد الله الحضري الوزوالي لما دخلها مؤرخا لها سنة تسع وخمسين وتسعمائة ـ 959 ـ وذهب الى مراكش وخلف خزانة من كتب العلم اخذ عن ابي عبد الله محمد ابن عبد الله الزيتوني وعن ابي العباس احمد بن احمد زروق وعن ابي حفص عمر العطاوي الراشدي عن عبد الجليل ابن محمد الراشدي وابي عبد الله ابن مرزوق وابن زكرياء المغراوي وابي زيد عبد الرحمن الثعالبي رضي الله عنهم واخذ ايضا الخروبي عن عمر بن زيان المديوني عن ابي عبد الله بن يوسف السنوسي عن ابي اسحاق ابراهيم التازي صاحب وهران عن محمد بن واضح الشبي اجاز لي عنه شخنا ابو عبد الله محمد ابن يوسف الترغي وابو عبد الله محمد بن احمد الحضري وعاينت اجازته الشيخين معا توفي بالجزائر بالوباء الذي كان بعد الستين وتسعمائة

لان الوباء كان فى مدينة فاس عام خمسة وستين وانظر هل سبق مـن الجزائر او من مدينة فاس .

« ابو العباس احمد الناصرى . كتاب «الاستقصاء لاخبار دول المغـرب الاقـصى»)

I) ولد بكراكش (على 4 كم غربى طرابلس الغرب) وذلك حوالى سنـة 880 هـ/1475 وتتلمذ لابيه عـلى الخروبى وللشيخ حاج قاسم وللشيخ الصوفى احمـد زروق البرنـوسى الفاسى الذى علم ببجاية . ثم قـدم الخروبى الى الجزائر حوالى 916/1510 فعين للتدريس والافتاء بالجامع الكبير وكانت له علاقات متينة مع علمـاء العاصمة آنـذاك مثل الشيخ سيـدى احمد بن يوسف كما كانت علاقاتـه باتراك الجـزائر طيبة فارسله حسـن باشا بن خير الدين فى مهمة الى المغرب الاقصى لـدى السلطان السعـدى مولاى محمد الشيخ لابرام معاهـدة الهدنة وتسطير الحدود .

الا ان الشيخ الخروبى ـ عنـد وصوله الى المغرب أهمـل الوفـادة وافتى فى حلق الشارب مما أحـدث صراعا قلميـا بينـه وبـين انصار الشيخ القسطـل .

وتوفى الخـروبى بالجزائر حـوالى 963/1556 ولا يعرف قبره وتـرك آثارا منها : كفاية المريد قاسـه الناس لشهرته ـ بكتب الغزالى زمنها كتاب «عيون النفس» .

فى علمـاء الجزائر :

. . ومنهم الامام العلامة المفـتى ابوعبد الله سيدى محمد بن الامام الاكبر ذى الفضـائل المشهـورة ابى عثمان سيدى سعيد بن ابراهيم (I) عرف بقدورة . اتم الله نوره ، شيخ الفقه والحديث ، تفرع من شجـرة علم ، وتدرع برود وقـار وحلـم ، فمحله من الجزائر محل السواد من الناظر ، انتهت اليه خطابتها وفتياها، وجعلت فى يديه آخرتها ودنيـاها ، فاليه يهرع عند اشتباه النـوازل ، ويفزع عند اشتداد الزلازل ، وعليه يعتمد فى رواية الآثار ، وتصحيـح اسانيد الاخبار ، الى فصاحة والسن، جرى بهما فى ميدان الابداع طلـق الرسن ، وحلاوة وطـلاوة ، الان بهما قلب كل ذى قساوة ، وعبارة عليهـا رونق ونضارة ، ولسان خلوب ، يقود عصابـات القلوب ، هذا مع انـه لم يرتضع اخلاف الادب ، ولم يصطبح بسلافة المـزرى بالضرب . امـالو التبس بمور ذلك المور ، والتبـس من نور ذلك الفور ، فلا يمتـرى فى انه يطاول أهل المشرق والمغرب، ويصير نظيره كمنقاء مغرب وامامـة والده ابى عثمان ، هى التى ارقتـه على غيره من الاعيان ، واولته المراتب الخطيرة ، والفضـائل الشهيرة .

سعـى معشر كى يلحقوه فبرزت
به غـرر مشهـورة و عـلائم

سمعت من امـلائه فى مجلسـه الخطير ، جملة وافية من الجامـع الصغير ، وابوابا من صحيح البخارى يحمد مواردها المدلج والسارى،سماع دراية ، وتحقيق رواية ، فرايت مـن ظرفه ولطفه ما سحر وبهـر ، وتنزهت من فهمه وحفظه فى جنة ونهر ، ولما ازف رحيل ، طلبت منه ان يجيزنى بما ينفع غليـل . .

(ابن زاكور (2) نشر ازاهير البستان ص 26 الى 29)

I) تونسى الاصل جزائرى المولد والمنشأ . درس على الشيخ محمـد ابن أبى قاسم بن اسماعيل المطمـاطى وعلى الشيخ أبى عثمان سعيد المقرى بتلمسان ثم عاد الى الجزائر وعلـم بالجامع الاعظم الى أن توفى 1066 هـ ـ 1656 م .

2) سبقت ترجمتـه فى بـاب الرحلات .

ابنـا عـلى

1 ـ محمد بن على 1128هـ1716م

محمد بن على بن محمد المهـدى ، الشهير بابن على : فقيه ـ فاضـل ـ نشا بمدينة الجزائر واخذ عـن مشائخها . وهو والد محمد العـربى السابقة ترجمته . مات بالجـزائر العاصمة له « مجمع الانهر شـرح ملتقى الابحر » فى الفقه الحنفى .

محمد العربى بن على 1164 هـ 1751 م

محمد العربى بن محمد بن عـلى ابن محمد المهدى الشهير بابن على، ابو عبد الله . شاعر ـ اديب ، نشا بالجزائر العاصمة . اثنى عليه عبد الرحمن الفاسى فى رحلتـه ووصفه « باديب العلماء وعالم الادباء» وهو ابن محمد بن على صاحب «مجمع الانهر» السابقة ترجمته . له « ديوان شعر » يشتمل على قصائد بليغة فى المدائح النبوية .

عـادل نويهص : معجم اعـلام الجزائر ص 161 ـ 168 .

اصل اللفظ الفرنسى تعجيم للفظ الجزائر .

نقلت – او بالاحرى – حرفت الشعوب الاروبية الاسم العربى « الجزائر » بطرق شتى عند ما اتصلت بسكان العاصمة . وقد يكون من المفيد ان نبحث ما هو اصل الصيغة التى تبناها الفرنسيس وهل هى حقيقة خاصة بهم كما قد يظن ذلك بسهولة؟ومعلوم ان عاصمتنا الافريقية سماها الاسبان «Argel» والايطاليون «Algieri» والانكليز والهولانديون «Algiers» والالمان «Algier» اذا اقتصرنا على هذه الشعوب ، وقد اتصل سكان الشمال منهم بالمصر الاسلامى بعد شعوب البحر الابيض المتوسط ، فقد تاجر هؤلاء فعلا مع مدينة الجزائر منذ القرن الثانى عشر بواسطة ملاحى اسبانيا وسكان بيزة وجنوة . ومما يظن قبل اجراء اى تحقيق ان الاسماء التى عجم بها الاسبان ، والفرنسيس ، والايطاليون اسم الجزائر وتبنوها منذ زمن طويل قد فرضت على سكان الشمال الذين لاءموا بينها وبين طرق النطق الخاصة بهم . اما ما يخص السكان المجاورين للبحر الابيض المتوسط فمن الطبيعى ان ان يبحث عن اقدم نقولهم فى الوثائق الصادرة من تجارتهم يعنى فى الخرائط التى رسمت بواسطة البوصلة والتى تدعى «Portulans».

واقدم وثائق خرائطية معروفة عليها تعجيم اروبى لاسم «الجزائر» هى خريطة تنتمى الى القرن الثالث عشر حفظت فى جنوة وهى اطلس لماركسورو اولوكسوروس وخريطة المكتبة الوطنية المعزوة الى بيزة والتى يتراوح تاريخها بين عام 1275 و 1300 ، ففى هاتين الخريطتين تسميتان مختلفتان : سميت الجزائر فى الاول Alguer وفى الثانية Algezira ومن الواضح ان الصيغة الاخيرة هى مجرد تقليد للاسم العربى الذى يعنى الجزيرة والذى ينبغى ان ينطق به على الطريقة الايطالية (Aldjezira). والبكرى الذى يذكر مع هذا الاسم جزائر بنى مزغنة والذى يستعمل الجمع (الجزائر) يضيف مباشرة بعد ذلك « الجزيرة تدعى سطوفلا » (Stofla). ولا شك ان الملاحين تعودوا ان يعتبروا مجموعة الجزر الصغيرة فى جملتها ولم تكن تعنيهم الا بصفتها ملجا طبيعيا تتحطم عليه امواج الشاطىء . هكذا يفسر لفظ خريطة بيزة اما صيغة Alguer فيظهر منها انها تنتمى الى كاتالونيا اما فى القرن الرابع عشر فقد واصل الايطاليون دعوة الجزائر باسماء تقترب من اسم Djezira. فاطلس جنوة المعزو الى بيتيروفسكونتى Pietro Vescontie 1318

يطلق على موقع الجزائر اسم Zizera الذى نجده ايضا فى اطلس بينلى (Pinelli) (القرن الرابع عشر) . وفى خريطة جنوة المنسوبة الى جيوفانى دى كارينيانو (1320) ، ونقرا على خريطة الاخوة بيزيقانى (1367) Ziziera وعلى الخريطة البندقية لالبوتينو دافيرقا (1409) يقرا Zirara.

وواضح ان كل هذه الصيغ متشابهة . اما على الخرائط التى من اصل كاتالونى اوميورقى فالالفاظ تقترب بالعكس من الصيغة المذكورة من قبل : Alguer.

وقد كتب Angeline Dulcert على خريطته سنة 1339 : Aurger ولكن يخبرنا هو نفسه كتابة انها رسمت فى ميورقة ولكن الصيغة التى تحملها وثائق هذا المصدر بصفة عامة هى Aldjère وهى اختزال لاسم Aldjezira.

واللفظ : Alger هو الموجود على الخريطة الكاتالونية المشهورة المدعوة خريطة شارل الخامس (1375) التى صنعها يهودى من ميورقة اسمه Abraham Gresques وكان ينتمى الى اسرة احترفت صنع الخرائط . وان طائفة من وثائق القرن الخامس عشر تستخدم هذا اللفظ ، منها خريطة Mécia de Viladeste (1413) التى صنعها يهودى ميورقى ايضا ، ومنها خريطة Gabriel Vallasecchca (1439) من نفس الاصل ، كتب اللفظ Alger على خريطة متحف برلين (النصف الاول من القرن الخامس عشر) المنتمية الى كاتالونيا على حسب ما يظهر كما هو مكتوب على خريطة Andreas Benincasa Gratiosus (1435) وعلى خريطة Jayme Bertran الكاتالونية 1482 وعلى خريطة Juan de la Cosa (نهاية القرن الخامس عشر) وعلى خريطتين اخريين من نفس المصدر احداهما محفوظة فى نابول والاخرى فى مودان واللفظ Alger كتب ايضا على خريطة محفوظة فى المكتبة الوطنية

والتى يظن M. de la Roncière انهارسمت بين 1488 و 1492 تحت ادارة كريستوف كولومب وخريطة Martin Behaïm من نفس المصدر عليها للفظ Algir صيغة مؤلمنة للفظ الجزائر ، والحاصل ان اللفظ Alger ظهر من جديد عل خريطة رسمها Sebastien Cabot وكان ربانا اول لشارلكان فى النصف الاول من القرن السادس عشر وليس بغريب ان تكون هذه الاخيرة وخريطة كولومبين اوحت بهما فى هذا الصدد وثائق من اصل اسبانى .

وينتج بوضوح من استعراض كل هذه النصوص ان اللفظ Alger (Aldjère) كان استعماله جاريا فى القرن الخامس عشر بين جغرافى كاتالونيا وبصفة محققة بين الملاحين . فصناع الخرائط من يهود ميورقة او المتهودين منهم – عل حسب ما يظهر – هم الذين ساهموا فى نشر هذا اللفظ واذاعته وفى اثباته .

وهكذا استدرجنا الى الظن ان صيغة Alger انتقلت منهم الى الفرنسيس الذين غيروا النطق به فقط تغيرا خفيفا .

الم تكن مدينتا Narbonne و Montpellier فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر عل اتصال مستمر مع الموانىء الكاتالونية فى البر والجزر . وطبيعى ان يسبقنا الى هذا الامر الكاتالونيون الذين اتصلوا بمسلمى الاندلس اتصالا مباشرا اكثر .

وقد تغلبت الصيغة القشتالية Argel عل الصيغة الكاتالونية فى القرن السادس عشر عند ما تحققت الوحدة الاسبانية ولنلاحظ زيادة عل ما مر ان صيغة Argel تعادل من الناحية الصوتية صيغة Alger بفضل التبادل الكثير الوقوع بين الراء واللام .

اما ما يخص الصيغة الايطالية التى استخدمت Algieri عقب الصيغ Zizara - Ziziera Zizera فهى توجد عل سبيل التقريب فى خريطة Guglielmo Soleri التى رسمها حوالى 1380 ميورقى متهود وسمى نفسه – كما هو شاهد – باسم ايطالى نصرانى وظلين اسمه الاصل فللفظ Algier الذى نقرؤه عل هذه الوثيقة والذى يجب بدون ما ريب ان ينطق به نطقا ايطاليا Algier هو يطابق مطابقة مجردة للفظ الكاتالونى Adjère.

ويوجد للفظ Algieri عل خريطة ايطالية يرجع تاريخها الى القرن الخامس عشر فى مكتبة الفاتيكان . كما توجد عل خريطة Maglia Becchi من نفس العصر

وفى الختام ينتج من فحص اقدم الوثائق الخرائطية ان الطرق المختلفة لتعجيم لفظ الجزائر تقررت وثبتت – عل حسب ما يظهر – فى القرن السادس عشر فقط لدى شتى الشعوب الاوروبية ، وقد كان للجغرافيين وصناع الخرائط خاصة الاثر الفعال حقا فى تبنى الصيغة النموذجية التى يظهر ان الصيغ الاخرى – وخصوصاالصيغةالفرنسية – اشتقت منها . رونى لسبس .

موقع مدينة الجزائر – 1 –

هل كان لقرية بنى مزغنة البربرية الصغيرة التى صارت فى القرن السادس عشر عاصمة قراصنة الجزائر حق يجعلها – بحكم موقعها الجغرافى – تستحق حظا مثل حظها ؟

1 – وان تاريخ اصل مملكة الشمال الافريقى لا يكشف لنا عن اى فكرة ولا عن اى تدبير يعتمد عل اعتبارات من هذا النوع والقرصان عروج لم يات الى الجزائر من تلقاء نفسه ، بل جاء بدعوة من قبل سكان المدينة ، وقد استقر الخوة خير الدين فيها نهائيا لانه وجد فيها ملاذا كان قد استعمله قراصنة من قبل ، ولانه كان يامل ان يتخذ منها مرفا .

وعند النظرة الاولى لا يلحظ فى شكل هذا الجانب من المغرب ولا فى تركيبه ما يكون بلاد الجزائر المعاصرة ، فليس ثم اتجاه واحد من اتجاهات المسالك الطبيعية هذه التى توجه الناس نحو مكان ممتاز يصلح مبدا للمرور وملتقى طرق له . او تستطيع ان تحدوهم الى ان يتخذوا من ذلك موقع عاصمة قد قيل كل شىء عن عدم وجود مركز جغرافى فى بلاد البربر بوجه عام . وفى المغرب الاوسط بصفة خاصة وعن المصاعب التى يعترض بها اتجاه التضاريس الموازية للشاطىء للتوغل العميق من الشمال الى الجنوب. وعن الانعزال النسبى للسهولوالاودية

2 – هل يجب ان نقتصر عل هذه النتيجة ونستسلم للغوف من حتمية جغرافية جد دقيقة وجد واهية ؟

1) الموقع الجغرافى 36 درجة و 47 دقيقة و16 ثانية فى خط العرض الشمال ، ٥ درجة و 44 دقيقة وثانية واحدة فى خط الطول الشرقى

وعندما تكون القضية قضية عاصمة يكون للانسان - حسب ما يظهر - الحق فى الخروج من الاطار الشديد الضيق المتكون من ارباضها المباشرة وفى احتضان طائفة من البلاد هى هنا المغرب الاوسط القطر الجزائرى الطبيعى الذى يحده من الشمال الى الجنوب البحر والصحراء ومن الغرب الى الشرق ملوية ووادى شرف او تحده تخوم مجاورة. ولكن هذه المجموعة تنقسم الى شطرين غربى وشرقى يتعاقبان فى المنطقة التلية تحت خط الزوال لمدينة الجزائر تقريبا.

يرى فوتيى (E. F. Gautier) - ليدقق ويبرز خطا من خطوط الصورة - عند اتصال شطرى بلاد الجزائر - امتداد خط قمة كبير حتى البحر يشخصه الهوقار ومدينة الاغواط والمدية حسب اتجاه صحراوى يقطعه عند ممر القنصاص الاتجاه الشرقى الغربى للبحر الابيض المتوسط . ومن الصعب ان ننكر امكان وجود مدن وعواصم مهيمنة هنا . ويذكر التاريخ منها ثلاثا منها ذات اهمية متفاوتة .

القيصرية ومدينة الجزائر المعاصرة فى مكان صالح للهيمنة . ويشير اليه التاريخ والجغرافية .

3 - ولكن اذا كان حظ مدينة الجزائر اطول فى الزمن من حظ العواصم الاخرى فذلك بفضل وجود دولة قوية قوة كافية لضمان احتلال عسكرى متين استطاع عمل المهندس ان يحطم - فى كنفه - الاطار الشديق الضيق الذى يظهر من الطبيعة انها حصرته فيه ، وبهذا الشرط فقط استطاع موقعها - الذى تلتقى فيه اقسام الجزائر الثلاثة الغربى والشرقى والصحراوى المقفر - ان يحظى بكل قيمته حظوة حقيقية .

وتنوع الاشكال هذا - الممتد على مساحات ضيقة نسبيا من حيث تضاريس الاراضى ومناخاتها ومواردها الطبيعة - الذى هو ميزة من الميزات الاساسية لبلاد الجزائر استطاع أن يساعد مساعدة كاملة تنمية عاصمتها . وفعلا لما ازيلت الحواجز الفاصلة بين جميع هذه الاجزاء وجدت مدينة الجزائر نفسها موضوعة وضعا كاملا يمكنها - علاوة على المحصولات الفلاحية فى الساحل ومتيجة - من ان تصرف وتنقل غلال وادى شلف والسهول العالية فى المدية وبرواقية وبويرة وسور الغزلان واخشاب وفلين غابات بلاد القبائل واصواف المنطقة الصحراوية وركاز مليانة وروينة

لنوجه نظرنا الآن نحو الخارج نحو البحر :

فمن المؤكد ان مؤسسى الجزائر كانوا ينظرون الى هذه الناحية . واستطاعت ظروف تاريخية ان تخول لموقع مدينة الجزائر معنى جديدا ، وزادت طائفة من التطورات فى قيمته باقامة مرفا كبير مقام مرسى حقير .

الجزائر واقعة تقريبا فى منتصف الطريق الكائن بين الراس الطيب ومضيق جبل طارق بين مدخل البحر الابيض المتوسط الشرقى ومدخله الغربى .

لنلاحظ ايضا احداثاثانوية اخرى . خط الزوال لمدينة الجزائر يقطع جزيرة ميورقة احدى جزر البليار التى لا تبعد عنها الا بمسافة 300 كم ،تقريبا ، وثم خط يجمع بين راس الناو Le Cap de la Nao) وراس كاكسين ويبرز ابرازا لا باس به تخوم هذا الجزء من البحر الابيض المتوسط الغربى حيث يتقابل الشاطئان الاسبانى والافريقى ويتزايد التقارب بينهما من الشرق الى الغرب .

وموقع مدينة الجزائر هذا بالقياس الى شبه الجزيرة الايبيرية والى الجزر التى تمد فى طولها كان له مفعول معروف معرفة جيدة على تعمير المدينة بهجرة اليهود وسكان الاندلس المسلمين اولا وهجرة الاسبان اليها من ايكانت او من بور ماهون .

اما ما يخص الموقع الاوسط الذى بين قناة صقلية ومضيق جبل طارق فاذا كان له اهمية ما فمن الناحية العسكرية قبل كل شىء ، ومن المحقق ان اسطولا تكون مدينة الجزائر ميناء قيد له يكون فى وضع جيد ليحرس ويقطع الطرق الاكثر مباشرة من جبل طارق نحو البحر الابيض المتوسط الشرقى ومن اسبانيا الجنوبية نحو ايطاليا الجنوبية او جزيرة صقلية . ونحن انفسنا لم نكد نستقر فى مدينة الجزائر حتى خامرت ادمغة العسكريين ورجال البحرية والمهندسين منا فكرة انشاء مرفا الريقى على غرار تولون .

ولا يلاحظ - من ناحية اخرى - ماذا كان يستطيع موقع مدينة الجزائر فى البحر الابيض المتوسط الغربى ان يخوله لها من فوائد اقتصادية من غير تنمية ما وراء البلاد الجزائرية .

وان حادثا اعطى لمدينة الجزائر معنى جديدا هو حفر برزخ السويس الذى تم انجازه سنة 1869 والذى جعل طريق الهند فى البحر الابيض المتوسط، وجعل من مدينة الجزائر مرفا توفرت فيه احسن الشروط لرسو السفن والتزود من الوقود .

وهكذا تلاءمت تلاؤما مرضيا الظروف والملابسات التاريخية والجغرافية لانشاء مدينة الجزائر وتبرير هيمنتها على تراب الجزائر .

ر. لسيس « مدينة الجزائر » باريس 1930 : ص 29 - 37

مدينة الجزائر

تاريخها
وحياتها
الثقافية

• رابح بونار

تمهيـــد :

تعترض كل دارس للتاريخ ظاهرة غريبة وطريفة وهى ظاهرة التشابه بين نشاة المدينة وتايخ تطورها وعمرها الزمنى ، وبين نشأة الانسان وحيـــاته واجتيازها بمراحل زمنية طبيعية محددة فى سجل الوجـــود .

وقد نجد هذا التشابه حتى فيما يتصل ببعض الخصائص النفسية من سعادة وشقاء ، وازدهـار وانكماش ، وقوة وضعف ، وهذا ما نلاحظه عنـــد دراستنا لبعض المدن التى برزت عل مسرح الحياة السياسية والاجتماعية بالقطر الجزائرى ثم تراجـــع امرها ، وانحسر مدها ، او انقرضت من الوجـــود تاسست فى منتصف القرن الثانى الهجرى,واستبحر عمرانها ، وخدمها السعد حينا ثم اعترتها الشيخوخة والانقراض فى منتصف القرن السابع الهجرى .

وكذلك مدينة طبنة التى مثلت دورا كبيرا فى عهد الولاة ثم تلاشى امرها بعد القرن الخامس الهجرى وكذلك مدينة « قلعة بنى حماد » التى تركز فيها مجد بنى حماد فى القرنين الخامس والسادس ثم أسدل الزمن عليها ستار العفا. والاندثار .

وعلى العكس من ذلك فقد كانت هناك مدن ثانوية فى العصر الاسلامى لم يكن لها ما تستحقه من عمران وازدهار حضارى ، ثم لم تلبث ان بزغ فجر سعادتها ، واشرقت شمس حضارتها وعمرانها، وخدمها السعد فى جميع مجالاتها الحيوية .

وهذا ما ينطبق على كثير من مدننا التاريخية التى كان لها جلال وصيت فى القديم ، ثم ازدادت جلالا ورقيا فى مسيرتها الزمنية الطويلة ، ونجد فى طليعة هذه المدن « الجزائر » العاصمة ، ثم تليها مدن تاريخية اخرى كوهران وقسنطينة وعنابة وتلمسان والمدية ومليانة وبسكرة وبجاية وغيرها .

وقد اخترنا فى هذه الكلمة ان نتناول مدينة الجزائر العامرة بالدرس والتحليل ، وان نتناولها من جانبها التاريخى والسياسى ، ومن جانبها العمرانى والمعمارى واخيرا نتناولها من جانبها العلمى والثقافى .

(1)

روعة وجمال :

ان «الجزائر» عروس البحر الابيض المتوسط بحق ، وهى منارة جلاله ، ومسرح آنسه وملتقى حضاراته .

واذا قدر لزائرها أن يصعد الى جبل بوزريعة الذى يحتضنها كما تحتضن الام الرؤوم ولدها ، ويلقى بصره الفاحص على مبانيها وعماراتها بدت له المدينة فى شكل مثلث هندسى بديع تنحدر مبانيها من أعلى القصبة الى أن تنبسط على حافة البحر الذى يداعبها بأمواجه فى كل آونة ، وبدت له منارات مساجدها مرتفعة وضاءة ترسل بأشعتها الوهاجة ، وبنغمات مؤذنيها المدوية الى الآفاق فتخلب الالباب ، وتحسر العيون وتطرب الآذان .

واذا نظر اليها من الحراش خيل اليه أنه يرى نسرا طويل الجناحين يتحفز ليطير بعد أن كان جاثما بسفح جبل بوزريعة ، وقد استطال جناحاه حتى غطيا ما بين حى «سانت أوجين» وحى «سلام باى»

واذا رآها ليلا من بعيد فان مشاعره تستغرقها نشوة من الاعجاب والاجلال ، وان تفكيره تستهويه عظمتها وجلالتها التاريخى ، ومعالم حضارتها .

تاسيسها وتاريخها :

ان تاريخ المدينة يمثل مرحلتين منفصلتين فهناك تاريخ تاسيسها القديم الذى يعود الى العهد الفينيقى ، والى ما بعد تاسيس «قرطاجنة» سنة 814 ق م (1) حيث انتشر الفينيقيون بسواحل المغرب كله وأسسوا مراسيه ، ومنها مرسى الجزائر «ايكسيم» ، وهناك تاريخ حديث لها فى العهد الاسلامى وهو الذى أسبغ عليها طابعها الخاص ، وأبقى على معالم حضارتها التاريخية ، ويبتدىء ذلك بتاريخ تأسيسها الثانى على يد بلكين بن زيرى — سنة 339 هـ = 950 م وقد مر عليها منذ تأسيسها الى الآن 1053 سنة .

---

1) دائرة المعارف الاسلامية ج 6 ص 407 — نور الدين عبد القادر صفحات من تاريخ الجزائر ص 14 — 15

ومن عوامل الاحتفاء بها أن تقام لها ذكرى مرور عشرة قرون ونصف ، وان ينوه ببعض معالمها التاريخية التى ماتزال تحتفظ بطابع العهد الزيرى الحمادى الذى أسست فيه كالجامع العتيق الذى يعود الى فترة التأسيس .

نظرة تاريخية :

ان الجزائر لا يعرف عنها شيء كثير فى العهد الفينيقى وانما يعرف عنها انها أسست فى هذه الفترة بعد تأسيس قرطاجنة سنة 814 ق م .

وأطلق عليها الفينيقيون اسم «ايكسم» ثم جاء الرومان ، وأطلقوا اسم ايكوزيوم أى مدينة العشرين لان الخرافة التاريخية تقول : ان هرقل الليبى قد مر بها مع أصحابه وكان عددهم عشرين فسميت المدينة باسمهم العددى ، وهناك من ذهب الى أن اسم المدينة هو «ايكسم» استنادا الى العملة التى عثر عليها فى حفريات سنة 1940 ، ومعنى هذا الاسم انها جزيرة الشوك أو جزيرة الطير ، وهذا الاطلاق أقرب الى الصواب (2) .

فى العهد الرومانى :

(146 ق م ــ 429 م) وتقدمت مدينة الجزائر وكانت لها فى القرن الاول مشيخة تحكمها كما كانت فيها كنيسة ، وأسقفة ، وبقيت آثار هذه الكنيسة الى القرن الخامس على ما ذكره البكرى ، ولما ثار الوطنى فيرموس على الرومان بالقبائل الكبرى احتل مدينة الجزائر سنة 373 م وبعد انهزامه أمامهم عادت المدينة الى حكم الرومان .

وشارك أسقفها فيكتور فى المجمع الذى انعقد بقرطاجنة بأمر من الملك الوندالى هنريك عام 484 م ، ثم تضاءل أمرها فى العهد البيزنطى .

فى العهد الاسلامى :

ولما ظهرت الدعوة الاسلامية بمكة والمدينة واستقر أمر المسلمين فكر الخليفة الثالث فى فتح شمال افريقيا ، وبعث جيشا بقيادة عبد الله بن سعد ابن أبى سرح ، وفتح افريقية ، ثم عاد الى المشرق وترددت الجيوش الاسلامية بعد ذلك على شمال افريقية حتى فتحت أراضيه كلها ، ويرجح أن الجزائر فتحت ما بين سنتى 88 ــ 95 هـ على عهد ولاية موسى بن نصير ، وحينما فتحها المسلمون لم يجدوا بها الا أطلالا ماثلة لما مر عليها من فتن وخراب فى العهدين الوندالى والبيزنطى ، وأهمل المسلمون الاوائل أمرها لعزوفهم عن سكنى المدن الساحلية .

فى العهدين الفاطمى والزيرى ــ الحمادى :

ولما قامت الدولة الفاطمية أواخر القرن الثالث الهجرى (296 هـ) وهى دولة معمارية أخذ التفكير فى تأسيس المدن أو تجديدها يزداد ويقوى ، وكان عاملهم على الجهة الغربية وهو زيرى بن مناد متأثرا بهذا الاتجاه المعمارى فأسس مدينة أشير فى أوائل القرن الرابع الهجرى .

ثم أذن لولده وولى عهده بلكين بن زيرى أن يؤسس المدن الثلاث : الجزائر والمدية ومليانة . وأسس «الجزائر» سنة 339 هـ كما أسس المدينتين

2) صفحات من تاريخ الجزائر لنور الدين عبد القادر ص 14 ــ 15

الاحريين حوالى هذا التاريخ .

وبعد تأسيس مدينة الجزائر نسبت الى قبيلة بربرية كانت تنزل بجوارها وهى قبيلة مزغنة الصنهاجية فقيل فى الجزائر جزائر بنى مزغنة .

وحكم الحماديون بعد ذلك مدينة الجزائر - حينما استقلوا بالجهة الغربية لامارة بنى زيرى - ودامت تحت حكمهم حتى سقطت دولتهم سنة 547 هـ .

وصارت الجزائر فى هذا العهد مدينة تجارية هامة وعاد مرساها مرفأ بحريا ممتازا ، وكان أسطول الحماديين يتردد عليه كثيرا ويؤثره على غيره من المراسى .

ويذكر أبو راس : ان يحيى بن عبد العزيز الحمادى قد استقبل الحسن الزيرى لما تغلب النورمان على عاصمة المهدية بتونس ولجأ اليه ، فأنزله مدينة الجزائر مع أخيه القائد واليها ، ولما هاجم عبد المومن مملكة الحماديين نازل الجزائر أولا واحتلها . ونقل الحسن الزيرى منها الى المغرب، ثم زحف منها الى بجاية واحتلها أيضا سنة 547 هـ

فى العهد الموحدى :

(547 - 626 هـ) عادت الجزائر فى هذا العهد مدينة تابعة لولاية بجاية ، ونعمت بالرخاء والازدهار الاقتصادى حتى اندلعت ثورة بنى غانية سنة 581 هـ فتعرضت المدينة لاحتلالهم المتكرر حوالى سنة 623 هـ وما بعدها .

فى العهدين : الحفصى والزيانى (626 - 922 هـ) :

ولما تقلص نفوذ الموحدين عن المغرب المتوسط انتهز أبو زكريا، الحفصى الفرصة حوالى سنة 626 هـ واحتل مدينة الجزائر كما احتل بجاية ، وصارت المدينة تابعة له وللحكم الحفصى بتونس وبجاية حينا ، ثم انتهز سكانها الفرصة فاستقلوا بحكم مدينتهم من عام 662 هـ الى عام 676 هـ .

وظهرت بها امارة صنهاجية ، وهى امارة مليكش التى مر بها العبدرى ، وهجا أميرها حوالى سنة 688 ثم عادت المدينة الى حكم الحفصيين ، واعترفت بالتبعية السياسية لهم ، ولكنها لم تلبث أن تنكرت لهم تحت زعامة ابن علان أميرها ، واستقل هذا بأمرها مدة 14 سنة .

وكانت الدولة الزيانية قد استفحل نفوذها تحت حكم ابى حمو الاول (707 - 718 هـ) فنازلها بجيوشه واحتلها ، والحقها بحكم تلمسان سنة 712 هـ ودامت تابعة لبنى زيان الى أن سقطت دولتهم على يدى ابى الحسن المرينى سنة 737 هـ ثم صارت تابعة له وللمرينين بعده

وبعد قيام دولة أبى حمو الثانى سنة 760 هـ استرد هذا الامير «الجزائر» وحاول سالم التومى أن يتمرد عليه ، وان يستقل بالمدينة فكاده واعتقله ثم قتله واستراح من تلونه .

مدينة الجزائر تتحول الى جمهورية ارستوقراطية :

وظلت مدينة «الجزائر» تابعة للزيانيين مرة وللحفصيين أخرى الى ان استقلت بأمرها أواخر القرن التاسع الهجرى وعادت أشبه ما تكون بجمهورية اريستوقراطية يديرها مجلس مؤلف من أعيان المدينة تحت حماية الثعالبة ، وكان العالم الجليل الشيخ عبد الرحمن الثعالبى أحد رجال حكمها وشوراها .

وبعد وفاه الشيخ عبد الرحمن سنة 875 هـ عاشت المدينة تحت نفوذ الثعالبة ، وتولى حكمها شيخهم سالم التومى ، وتعرضت المدينة فى أوائل القرن العاشر لهجومات الاسبان مما اضطر سالم التومى الى الاستنجاد بالتركيين المجاهدين : عروج وخير الدين ، وكانا قد استقرا بمدينة جيجل واستدعاهما للقدوم الى الجزائر لمحاربة الاسبان ومدافعتهم عن المدينة ، وبذلك تبدأ المدينة مرحلة جديدة هامة من حياتها .

وصف المدينة من خلال ماكتبه عنها الرحالون :

يذكر ابن حوقل فى القرن الرابع أن المدينة كانت مسورة ، وكان بها أسواق كثيرة ، ومزارع متعددة ، ومواش متعددة وكانت تنتج السمن والعسل بوفرة .

ويذكر البكرى فى القرن الخامس ان المدينة كان بها آثار قديمة ومنها بقايا كنيسة عتيقة كانت فيها .

ويذكر الادريسى فى منتصف القرن السادس ان التجارة فى المدينة كانت رابحة ، وان صناعاتها كانت مزدهرة كما ان انتاج العسل والسمن فيها كثيرا يتزود به منها الى البلدان .

ولاحظ صاحب الاستبصار فى القرن السادس ما لاحظه الادريسى قبله .

وتحدث أبو الفداء عن ازدهار تجارتها وتقدم اقتصادها فى القرن الثامن الهجرى (3) .

فى العهد التركى (922 ـ 1245 هـ) :

وهو عهد طويل يستغرق نحو 323 سنة ، وفيه عادت المدينة عاصمة للقطر الجزائرى كله ، يرسل منها الباشوات والدايات أوامرهم الى ولايات القطر كله ، وكانت تضم ادارات الحكومة ، وأجهزة السلطة المركزية ، واتسع حجم المدينة فى هذا العهد ، واستبحر عمرانها ، وبلغ عددها أحيانا 150 الف نسمة ، وصار شكلها أشبه ما يكون بمثلث هندسى (4) وكانت الجهة العليا منها مشحونة بالسكان من عامة الشعب .

أما الجهة السفلى المواجهة للبحر منها فقد كانت مركز سكنى الباشا أو الداى ، ورؤساء البحر وأصحاب الثروة ، وقناصل الدول الاجنبية .

وكان يحيط بالمدينة سور ينحدر من القصبة الى البحرما بين باب الواد حيث موقع ثانوية الامير عبد القادر الآن ، وما بين المسرح البلدى الذى يحاذى باب عزون (5) ، وكانت عناصر سكانها تتألف من بربر صنهاجة كبنى مزغنة أهلها الاصليين ، ومن العرب الثعالبة وغيرهم ، ومن الاتراك الذين جاء بهم عروج وخير الدين أو من الوافدين عليها بعد ذلك ، ومن مولديهم بعد' تزوجهم بالاهليات .

وكان فيها الى جانب هؤلاء السكان طوائف من الزنوج واليهود والمسيحيين .

3) أبو الفداء اسماعيل : تقويم البلدان ص 125 ـ صفحات فى تاريخ الجزائر ص 127

4) صفحات فى تاريخ الجزائر ص 127

5) المصدر السابق ص 127

6) المصدر السابق ص 138

حكـامها الاتـــراك :

لما تعرضت المدينة أوائل القرن العاشر لهجومات الاسبان الذين احتلوا مدينة وهران ومرساها اضطر شيخها سالم التومي الى دفع أتاوة لهم . ورأى بعد حين أن النجاة من غزوهم لا يتأتى الا بالاستعانـــة بالاخوين التركيين عروج وخير الدين . واستقدمهما سالم التومي واهل المدينة وجاء الاخوان اليهـــا سنة 922 هـ . وبدءا معا حياة كفاح وجهـاد مـرير . وحاربا الاسبان بمعونة الجيش الوطني في مواقـع مختلفة . واستشهد عروج في مدافعتهم بتلمسان . وبقي خير الدين أميرا على الجزائر ثم الحق امارته بالدولة العثمانية وبذلك دخلت المدينة في طـــور جـــديد . واكتسبت طابع قوة حربية ، وصيتـــا حربيا وسياسيا واسعـا بحـوض البحر الابيـض المتوسط .وتعاقب على الحكم فيها خلفاء خير الدين كحسن آغا (1533 ـ 1544 م) الذى صد حملة بحرية كبيرة زحف بها الاسبان الى المدينة ليحتلوهـــا . واندحروا أمام أسوارها . وقوة دفاعها (7) وأصبحت المدينة بعد هذا الانتصار ـ كما يقول محمـــد ابن رقية « تختال في حليها وحللها من رخـــاء الاسعار ، وأمـان الاقطار . وشـاع انتصارها في مشارق الارض ومغاربها » وكان اسطولها القـــوى يمخر عباب البحر الابيض المتوسط .

وقد نبغ في البحرية من القادة المشاهير عـــلى بتشيني وقلج على . والرايس حميدو . وغيرهم .

وقد اشتهر من داياتها السياسيين الحازمين :

1) خير الدين باشا

2) حسن آغـا (1544 ـ 1573 م)

3) حسن باشا بن خير الدين (1544 ـ 1568 م)

4) قلج على (1568 ـ 1571 م) وكان قائدا حربيا بحريا كبيرا .

واشتهر من داياتها :

ـ على بتشيني الذى اسس مسجـده الشهير بنهج باب الواد

ـ رمضان آغا الذى شرع في تأسيس جامـــع الحواتين أو الجامع الجديد (1660 ـ 1661 م)

ـ محمد بكتـاش باشـا (1707 ـ 1710 م) الذى اشتهر بتشجيعه للحركة العلمية وبفتحـــه لمدينة وهران الفتح الاول

ـ محمد عثمان باشا (1766 ـ 1791 م) وهـــو أعظم دايات الجزائر . وقد صد حملات عديدة للاسبان على مدينة الجزائر ، واستطـاع أن يفتح مدينة وهران على يد واليه على المقاطعة الوهرانية محمد باى الكبـير

ـ وآخر هؤلاء الدايات هو حسين باشا (1818 ـ 1830 م) . وقد وقع احتلال الفرنسيين للمدينة على عهده في 5 جوليت سنة 1830 م .

وخضعت المـدينة بعد ذلك لاحتـلال مرير دام من سنة 1830 الى سنة 1962 م .

المدينة تحت الاحتلال الفرنسى :

حكم الفرنسيون المدينة حكما عسكريا ثـــم

7) صفحات في تاريخ مدينة الجزائر ص 55 ـ توفيق المدني : محمد عثمان باشا ص 29 ـ محمد بن رقية التلمساني : الزهـرة النيرة ، نشر سليم بابا عمرو ص 19

حوزه الى حكم مدنى بعد حين وحاول الثائر المقرانى أن يسترد المدينة من يد الفرنسيين فى ثورته سنة 1871 م ولكنه لم ينجح فى ذلك لاسباب مختلفة (8)

ثم ظهرت فيها ضروب من المقاومات السياسية الشعبية كحركة الامير خالد عقب الحرب العالمية الاولى . ونشاط حزب الشعب منذ سنة 1936 م . وجهود جمعية العلماء منذ سنة 1931 م وحركة أحباب البيان والحرية التى خلفت حركة النواب . وكان مركز هذه الحركات التحررية هو مدينة الجزائر .

كما كانت نواة جبهة التحرير الوطنى الاولى لتنظيم الثورة المباركة التى اندلعت فى غرة نوفمبر سنة 1954 م ـ منبعثة منها ، وشهدت المدينة بعد ذلك معارك عنيفة ضارية . وضروبا من الفداء والاستبسال فى القصبة وبلكور وباب الواد وغيرها من أحيائها المختلفة . الى أن جاد الله بالاستقلال المنشود سنة 1962 م وتحققت أمانى الشعب بعد ضروب من التضحية والجهاد التى دامت نحو ثمانى سنوات . وبعد أن ضحى الشعب فيها بمليون ونصف مليون شهيد .

المدينة فى عهد الاستقلال :

وشهدت المدينة قيام الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ، واستأنفت حياة جديدة كلها عزة وكرامة ورقى . وازدهرت تجارتها واستبحر عمرانها . وكثر سكانها حتى بلغ عددهم الآن مايربو على مليون ونصف مليون .

وهى الآن تسير بخطى فسيحة فى نشاطها المعمارى وتزهو باشتمالها على الادارات المركزية للحكومة وعلى المؤسسات الثقافية العالية لمختلف الدراسات العلمية وعلى المتاجر الواسعة والمعامل المتعددة والمؤسسات الرحبة كما تزهو بكثرة أحيائها واتساع رقعتها التى تكاد تبتلع ما جاورها من الضواحى لتحيلها الى أجزاء فرعية منها .

(2)

الحركة المعمارية فى المدينة :

تبتدىء الحركة المعمارية فى الجزائر بتاريخ تأسيس المدينة على يد بلكين بن زيرى سنة 339هـ ولكن آثار هذا العهد الزيرى والحمادى لم يبق منها الا الجامع الكبير الذى يعود تاريخ تأسيسه الى سنة 490 هـ ـ 1097 م . وكذلك جامع سيدى رمضان الذى يعود تاريخ تأسيسه الى هذا العهد . وكلاهما يمثل الفن المعمارى البسيط ولكنه رغم بساطته يتسم بالروعة والابداع .

أما فى العصر التركى فقد لبست المدينة حلة معمارية قشيبة بمساجدها الزاهرة ، ومآذنها العالية وحصونها العاتية ، وقصورها الخلابة .

وقد لاحظ جورج مارسى : ان أول ما يلفت انتباه المسافر عند ما يحل بأرض الجزائر هو الوجود التركى الذى يتجلى فيما تركوه من آثار معمارية زاهية (9) . والفن المعمارى للجزائر على عهد الاتراك يمتاز بالنقش والزخرفة وضروب الابداع الفنى . وتمثل المساجد والزوايا والمعابد جزءا كبيرا من هذا الفن المعمارى . وقد بلغ عددها فى

8) توفيق المدنى : كتاب الجزائر ص 53 ـ محمد الميلى وعبد الله شريط : الجزائر فى مرآة التاريخ ص 207
9) وزارة الاخبار : المساجد فى الجزائر 1970 م ص 45

العصر التركي حسب ما جاء في وثيقة عثرنا عليها بقسم الوثائق تحت رقم 350 نحو 98 مسجدا وزاوية

ويذكر هايدي انه كان بالجزائر عقب الاحتلال الفرنسي 13 مسجدا كبيرا ، و 109 مسجدا صغيرا و 32 معبدا ، و 12 زاوية (10) ، وقد اندثر جل هذه المساجد والزوايا بعد مدة قليلة من الاحتلال الفرنسي تحت ستار توسيع الطرقات وتنظيمها وتحت ستار أسباب أخرى لا مبرر لها .

ويبدو الفن المعماري في المساجد الباقية كما في الجامع الجديد الذي بنى سنة 1070 هـ ـ 1660م وهو يمتاز بمنارته التي كان يبلغ ارتفاعها 29,5 م ثم صار ارتفاعها بعد الردم 25 م ، وبالزخرفة البديعة التي تعلوها ، كما يمتاز بمحرابه المزخرف بضروب النقش الجميل ، ويمتاز أيضا بمنبره المصنوع في ايطاليا ، والحافل بضروب الاناقة والجمال .

وجامع القائد صفر وهو يعود تاريخ تأسيسها الاول الى سنة 940 هـ وأعيد بناؤه سنة 1242 هـ .

وجامع كيتشاوة الذي أسس سنة 1209 هـ ـ 1794 م وهو يشتمل على آيات الفن المعماري البديع.

وجامع علي بتشيني وقد أسس حوالي سنة 1031 هـ ـ 1622 م وهو يشتمل على شواهد الفن المعماري الرائع وصحنه المربع الكبير وهو يمثل روعة فنية لا نظير لها ، ويزيده جمالا قببه المثمنة الاضلاع والمرتكزة على دعائم غليظة وما تشتمل عليه من آيات الفن المعماري التي تسحر الابصار ، وتخلب الالباب (11) .

(3)

حياة « الجزائر » الثقافية :

حياة المدينة العلمية والثقافية منذ تأسيسها على يد بلكين الى الآن هي حياة خصبة متعددة الجوانب متنوعة الموضوعات ، ونحن في هذه الكلمة نحاول أن نلقي أضواء خاطفة على لمحات من هذه الحياة الثقافة لان التوسع فيها يستوجب تاليف كتاب خاص بها ، وقد نبغ في هذه المدينة في مختلف عصورها أعلام في الفقه والآداب والدراسات الدينية والتصوف والكلام والطب ، على أن الواقع يدعونا الى أن نؤكد أن جل من نبغ فيها كان من الفقهاء والمتصوفة أو من الادباء الكتاب والشعراء .

وكانت مراكز التعليم خلال هذه الفترة هي المساجد التي كانت تؤدي دورا تعليميا من جهة ، ودورا تعبديا من جهة أخرى ، وكانت الزوايا تقوم بهذا الدور أيضا ، والى جانبها نجد الكتاب القرآني ويدعى في الجزائر بالمسيد « تصغير المسجد » وهو عبارة عن مدرسة ابتدائية يتعلم فيها التلاميذ القراءة والكتابة ويحفظون القرآن الكريم وقراءاته المروية أما نبغاء هذه المدينة فاننا سنذكرهم حسب ترتيبهم الزمني ونذكر كلمة موجزة عن كل واحد منهم .

1 ـ أبو محمد بن أحمد بن فرج الجزائري المتوفى سنة 368 هـ وكان راوية للحديث (12) .

10) المصدر السابق ص 46

11) المصدر السابق ص 50

12) ياقوت معجم البلدان مج 2 ص 132

ونبغ فيها في القرنين السادس والسابع :

2 ـ عبد الرحمن بن السطاح المتوفى سنة 629 هـ ببجاية وكان أديبا فقيها (13) .

3 ـ وعبد الله بن حجاج بن يوسف الجـزائرى وكان نحويا فقيها روى عن الجزولى وغيره وتـوفى ببجاية سنة 640 هـ (14) .

4 ـ وأبو محمد عبد المنعم الجزائرى وأخذ عن ابن منداس الجزائرى ، واشتهر بالشعر والترسل الديوانى وتوفى سنة 680 هـ (15) .

5 ـ وأبو عبد الله محمد بن العطار الجزائـرى شاعر المدائح النبوية (16) ، ومن شعره قوله :

اهـدت لنا طيب الروائـح يثـرب
فهبـوبهـا عنـد النسيـم يطـرب
رقت فـرق من الصبـابة و الأسى
قلب بنـيران البعـاد يعـذب
شـوقا الى أسـنى نـبى حبـه
كنـز النجـاة فنعـم هذا المطلـب

6 ـ ومحمد بن منداس المتوفى سنة 643 هـ وكان أديبا لغويا ومحـدثا .

7 ـ ومحمد بن أحمد الاريسى المعروف بالجزائرى وكان كاتبا بارعا شاعرا ، ومن شعره قوله :

ادرهـا فقـد هبت نسيمـة داريـن
ونـم بسـر الروض نشر الرياحين

وقوله من قصيدة أخرى :

لعلـك بعـد الهجـر تسمـح يا بدر
بوصل فقد أودى بمهجتى الهجر (17)

ونبغ فيها بالقرن الثامن :

8 ـ محمد بن حسن اليحصبى البرونى الذى حاز رياسة الفقـه فى القرن الثامن بمدينة الجـزائر ، وانتقل بدعوى من أبى حمو الثانى الى تلمسان ، ومات بها فى أواخر القرن الثامن الهجرى .

ونبغ فى القرن التاسع أعلام فى آلفقه والتصوف والكلام ، من أشهرهـم :

9 ـ عبد الرحمن الثعالبى صاحب المؤلفـات الكثيرة الذى ولد سنة 785 هـ والمتوفى سنة 875 هـ وقد اشتهر بمؤلفاته الجليلة فى التفسير والوعظ والفقه والتراجم والتصوف ونحوها (18)

10 ـ وشيخه ابوجمعة وكان مشهورا بعلمـه وتقـواه (19) .

11 ـ وأحمد بن عبد الله الجـزائرى الزواوى ، وكان فقيها متكلما ، وأديبا شاعرا ، وقد اشتهـر بلاميته فى التوحيد ، وكان صديقا للثعالبى ، وقد رثاه بعد وفاته بقصيدة مطلعها :

لقد جزعت نفـسى لفقـد أحبتى
وحق لها من مثـل ذلك تجـزع

13) الحفناوى : تعريف الخلف ج 2 ص 198 ـ الغبرينى : عنوان الدراية ص 156
14) المصدر السابق ج 2 ص 232 ـ عنوان الدراية 145
15) المصدر السابق ج 2 ص 247 ـ عنوان الدراية 145
16) المقرى نفح الطيب ج 10 ص 327
17) عنوان الدراية ص 202 ـ 211
18) تعريف الخلف ج 1 ص 63
19) صفحات من تاريخ الجزائر ص 240 ـ تعريف الخلف ج 2 ص 470

وتوفى سنة 884 هـ (20) .

في العصـــر التـــركي :

ونبغ في هذا العصر كثير من العلماء والادبـــاء في قرونه الثلاثة ، ومن أشهر من نبغ فيه :

12 ـ سيدى محمد الشريف الزهار دفين الجزائر المتوفى سنة 948 هـ وكان تلميذا لسيدى أحمـــد ابن يوسف المليانى الصوفى الكبير (21) .

13 ـ والشيخ محمد بن على الخروبى الطرابلسى نزيل الجزائر ودفينها وكان محدثا فقيها صوفيـا وتولى السفارة عن باشا الجزائر الى المغرب وتوفى سنة 963 هـ وله كتب فى التصوف (22) .

14 ـ والشيخ أبوالحسن على بن عبد الله الانصارى السلجلماسى الذى استقر بمدينة الجزائر وتـولى التدريس بمساجدها وتخرج عليه طلبة كثيرون ، منهم سعيد قدورة ، وترك مؤلفات متعددة وتوفـى سنة 1057 هـ .

15 ـ وأبو عثمان سعيد قدورة الذى أخـذ عـن شيوخ الجزائر وتلمسان وتولى الفتوى والتـدريس بالجامع الاعظم وتوفى سنة 1066 هـ ودفن بزاوية الشيخ أحمد بن عبد الله الجزائرى الصوفى ، وله شرح على متن السلم للاخضرى ، وشرح على عقيـدة السنوسى ، وتوفى سنة 1080 هـ (23) .

16 ـ وأبو مهدى عيسى الثعالبى الجزائرى الذى ترجم له المحبى وأثنى عليه كثيرا والشيخ البابـلى كان يقول فيه ما وصل الينا من المغرب أحفظ من المقرى ولا أذكى منك . وتوفى سنة 1080 هـ (24) .

17 ـ والشيخ محمد بن على وكان عالما جليلا ، وتوفى سنة 1093 هـ .

18 ـ والعلامة يحيى الشاوى الذى نشأ بالجزائر وأخذ بها عن سعيد قدورة وعلى بن عبد الواحـــد الانصارى السجلماسى ومحمد بن محمـد بهلــول الزواوى السعدى وأجازه شيوخه وارتحل الى مصر سنة 1074 هـ واستجاز علماءها وأجازوه وظهـــر عليهم بحفظه . وله من المؤلفات فى بيان ما للبخارى من التصحيح وحواش على التسهيل والالفية لابن مالك وتوفى على ظهر البحر سنة 1096 هـ ونقل الى مصر ودفن بها (25) .

19 ـ والشيخ محمد بن عبد المومن وكان فقيها قاضيا للمالكية وتوفى بمدينة الجزائر سنة 1101هـ

20 ـ وأبو عبد الله بن الشيخ سعيد قدورة وكان عالما فقيها تولى الافتاء بالجامع الاعظم وتوفى سنة 1104 هـ .

21 ـ والشيخ عبد الرزاق بن حميدوش الجزائرى وعاش فى القرن الثانى عشر واشتهر بكتابه الطبى « كشف الرموز والاعشاب » .

22 ـ وعمر بن محمد المانجلاتى وكان فقيهـــا أصوليا أخذ عنه ابن زاكور وأثنى عليه كثـــيرا ، وختم عليه جمع الجوامع سنة 1044 هـ (26)

20) تعريف الخلف ج 1 ص 23
22) تعريف الخلف ج 2 ص 483
24) الكتاني : فهرس الفهارس والاثبات ج 2 ص 190
16) تعريف الخلف ج 2 ص 295

21) تعريف الخلف ج 2 ص 469
23) تعريف الخلف ج 2 ص 282
25) فهرس الفهارس والاثبات ج 2 ص 446

23 . ــ ومحمد بن سيدى ابن على الاديب الشاعر المفتى وكان شاعراً كبيرا واماما فقيها وكان صديقا لابن عمار الذى روى له كثيرا من شعره . وساجله فى كثير من قصائده (27)

24 ــ والعلامة أحمد بن عمار الجزائرى العالم الاديب الرحالة وكان من نوابغ عصره . رحل الى المشرق فى أوائل سنة 1166 هـ واشتهر برحلته التى بقى منها نبذة قليلة . وتوفى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى (28)

25 ــ وعلى بن محمد الجزائرى المتوفى سنة 1185 هـ وكان يعرف بابن الترجمان ، وانتقل الى المشرق . وجال فى أنحائه ثم استقر أخيرا بالآستانة وشارك مع الجيش العثمانى وأسر ومات بالتراب الروسى (29) .

26 ــ وأحمد الغزال الجزائرى وكان تلميذا للعالم الاديب أحمد بن عمار وقد مدح شيخه بقصيدة جاء فيها :

فاكرم بـه من ماجـد وابن ماجـد
وأنعـم بـه من سيـد وابن سيـد
له خضعـت اربـاب علـم لعـزه
فكيف وفيهـم قـام اعظـم مرشـد

وأجابه تلميذه ابن الشاهد بقوله :

عسى أن يلـم الشمـل بعـد تبـدد
عشيـة هذا اليـوم او ضحوة الغد (30)

27 ــ ومحمد بن الشاهد الجزائرى وكان أديبا شاعرا (31) وقد ترك قصائد كثيرة فى المدائح النبوية . ومن شعره فى ذلك قوله :

محمـد سر الوجـود ★ وسر الاكوان
امام أصحاب السجود ★ فما له ثـان
محمد خـير الـورى ★ نبينـا الاواه
محمد بدر سرى ★ سبحانه من أنشاه
ومثله ليس يـرى ★ أثنى عليـه الله

28 ــ ومحمد بن رجب الجزائرى . وقد اشتهر بكتابه فى الطب ومدافعة الوباء الوافد عام 1200 ، وجاء فى أول كتابه هذا :

«الحمد لله وحده . . لما جاء الطاعون فى شعبان سنة 1200 هـ ببلدنا الجزائر اشتغلت بمطالعة كتب عديدة فى الطب منها القانون لابن سينا ، والتذكرة للانطاكى . وألفت هذا الكتاب . وسميته « بالدر المصون . فى تدبير الوباء والطاعون » وادرك الشيخ العهد الاستعمارى ومات فى القرن التاسع عشر الميلادى (32) .

29 ــ وسيدى محمد بن عبد الرحمن الازهرى الزواوى دفين الجزائر وقد توفى بالجزائر أو ببلاد القبائل سنة 1208 ودفن بمقبرة الحامة التى سميت باسمه . وهو ناشر الطريقة الرحمانية بالجزائر وبلاد السودان (33) .

فى عهـد الاحتـلال الفرنسى :

27) المصدر السابق ج 2 ص 406
28) تعريف الخلف ج 2 ص 83 ــ 87
29) المصدر السابق ج 2 ص 215
30) المصدر السابق ج 2 ص 215
31) المصدر السابق ج 2 ص 215
32) تعريف الخلف ج 2 ص 427
33) تعريف الخلف ج 2 ص 450

على الرغم من مضايقة الفرنسيين للحركة العلمية ودراسات اللغة العربية والدراسات الاسلامية والتفنن في سبل القضاء عليها فان السند العلمي لم ينقطع وان الدراسات الفقهية واللغوية قد واصلت نشاطها الفعال ، وتحدت العراقيل التي كانت تعترضها ، وكانت المساجد والزوايا هي المراكز الثقافية في هذا العصر ، وغزت اللغة العربية المدارس الرسمية الثلاث للحكومة ، واستقرت أقدامها في المدارس الحرة التي أنشأها الوطنيون بعد الحرب العالمية الاولى ونبغ في هذه الفترة جماعة من أعلام الفقه والادب والتاريخ في هذه المدينة ومن هؤلاء الاعلام في القرن التاسع عشر :

30 – حمودة المقايسي الجزائري المتوفى سنة 1245 هـ (34)

31 – والامام الجليل الكبابطي المتوفى بالاسكندرية بعد الاحتلال بقليل .

32 – والامام حميدة العمالي مفتي المالكية بالجزائر المتوفى سنة 1293 هـ وكان مدرسا ممتازا بالجامع الاعظم وتخرج عليه كثير من شيوخ ذلك العصر ، وقد ترك مؤلفات منها كتاب في القضاء ، درس فيه خصائص القضاء وحلية القاضي وشروطه (35) .

44 – والشيخ القزادري وكان تلميذا للعمالي ، واماما بالجامع الاعظم ، ومدرسا بالمدرسة الثعالبية

34 – وحسن بن بريهمات وكان عالما جليلا ، أديبا فاضلا نافس شيخه حميدة العمالي فيالدراسات الدينية والفقهية وقد نبغ في الادب والشعر ، ويذكر الحفناوي أنه كانت له يد طولى في الآداب العربية والعلوم الدينية . وله قصيدة في مدح أقوم المسالك في أحوال الممالك لخير الدين باشا التونسي سنة 1284 هـ وقد ترك هذا الكتاب عقب صدوره صدى عميقا في نفوس المثقفين بالمغرب كله لطرافة موضوعه في ذلك العصر ، ولتعرضه للمباحث السياسية والاجتماعية بأسلوب عصري فلسفي ، ومن قصيدته في مدح الكتاب ومؤلفه قوله :

لله درك خير الدين من علم
أبدى منار الهدى للناس في القتن
نهجت نهجا قويما قل سالكه
الى السياسة كي ينجو من الفتن
حق على ملة الاسلام شكركم
ورعي تاليفكم بالقلب والأذن
عليك مني سلام الله ما طلعت
شمس وما غرد القمري في فنن

ونبغ في القرن العشرين أعلام كثيرون في الفقه والدراسات العلمية والادبية من أشهرهم :

35 – مصطفى بن الخوجة الذي ولد بالعاصمة سنة 1865 ودرس بها على شيوخ عصره كالمفتي علي بن الحفاف ، والشيخ سعيد بن زكري ، ومارس الصحافة بجريدة المبشر من سنة 1886 م الى سنة 1901 م ثم عين مدرسا بجامع سفير سنة 1895م وأقرأ فيه التفسير والفقه وتوفي سنة 1915 م وكان المترجم متضلعا في العلوم اللغوية والفقهية وترك من المؤلفات الجليلة رسالة الاكتراث في حقوق الاناث ، وهي رسالة غريبة في موضوعها ، وبادرة حسنة في التآليف الاجتماعية ، وكتابه اقامة

34) المصدر السابق 140

35) المصدر السابق ج 2 ص 149 – 150

البراهين العظام . على نفى التعصب فى الاسلام .

36 ـ والشيخ محمد سعيد بن زكـرى الزواوى الذى استقر بالعاصمة ودرس بالجـامع الاعظـم ، وتولى امامة جامع سيدى رمضان والافتاء المالـكى وتوفى سنة 1914 وله من المؤلفات رسالة أوضـح الدلائـل .

37 ـ والحفناوى أبو القاسـم الذى انتقـل الى الجزائر وشارك فى تحرير الجريدة الرسمية وتوفى عام 1940 وقد اشتهر بكتابه الجليل : تعـريف الخلف برجال السلف .

38 ـ والدكتور محمد بن أبى شنب المتـوفى بالجزائر سنة 1929 م وكان متخصصا فى الدراسات اللغوية والادبية ، وهو أول جزائرى نال شهـادة الدكتوراه فى اللغة العربية من الجامعة الجـزائرية واشتهر بدراساته الاستشراقية وبأبحاثه الكثيرة باللغـة العربيـة والفـرنسية وبمؤلفـاته الكثيرة ومنشوراته المتعـددة .

39 ـ ومن أعلام الجزائر الذين وضعوا أسـس النهضة الحديثة فى المجالين العلمى والادبى . وفى مجال الفكر الاصلاحى الحديث العـلامة الجليل . والاديب العبقرى الموهوب والخطيب المصقع،والكاتب المترسل المبدع ، جاحظ عصره . وزمخشـرى زمانه . وحافظ وقته الشيخ محمد البشير الابراهيمى دفين مقبرة سيدى محمد بالحامة . ويعد الشيـخ البشير قائدا عبقريا فى الاصلاح الدينى مع صديقه الامام عبد الحميد بن باديس . ومفكرا مجـددا ، وناقدا موجها فى الدراسات النقـدية والشعرية . ومحاضرا ممتازا . ولا يمكن لاى باحث أن يـفى حق الشيخ وفضله على النهضة الحديثة فى صفحات قليلة او كلمات عابرة يكتبها عنه . وقد توفى الشيخ بعد جهاد مرير . وجهود بناءة متواصلة فى رئاسته لجمعية العلماء وادارته لعشرات مدارسها الحرة ـ فى شهر ماى سنة 1965 م وترك مؤلفات متعـددة ومن أشهرها عيون البصائر الذى طبع منذ سنوات.

40 ـ والشيخ الطيب العقبى،وقد التحق بالعاصمة وقام فيها بنشاط فعال فى مجال الاصلاح الديـنى والاجتماعى وكان له تأثير كبير على التمكين لهـذه الحركة الدينية كما كان له فضل مشكور عـلى النهوض بالصحافة الوطنية وتوفى قبل الاستقـلال بقليـل .

41 ـ والشيخ العربى التبسى الذى التحـق بالعاصمة بعد ادارته لمعهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة . وتولى رئاسة جمعية العلماء بعد الشيخ البشير الابراهيمى ، وأشرف على تسيير الحركـة التعليمية بالمدارس الحرة . وأقام بالجزائر بعـد اندلاع الثورة التحريرية وجاهد فيها جهاد الابطال حتى اختطفه المظليون من جيش الاحتلال ونقلـوه الى معتقل مجهول وقتلوه شهيدا رحمه الله سنـة 1958 م .

هكذا كانت مدينة الجزائر طيلـة هذه القـرون التى مرت بها فى العهد الاسلامى تزخر بنشـاط سياسى فعال . وبحركة عمرانية ومعمارية متواصلة وبحركة علمية مبدعة وتضم تحت كنفها طائفة من الافذاذ فى الفنون العلمية المتنوعة كانت تعتز بهم فى مسيرتها الزمنية المتواصلة . وتباهى بعبقرياتهم غيرها من مدن القطر الجزائرى .

كما كانت تعتز بزعامتها السياسية التى تسلمت مقالدها منذ العصر التركى فى أول القرن العاشر الهجرى الى الآن . وهى لهذه الامجاد كلها تستحـق أن تقام لها ذكريات ، وأن تشرف بالتنويه والاكبار وان يخص تاريخها الحافل بالدرس والتحليـل والتعليق ليستوحى منه أبناؤها امجاد عـزهـم وكرامتهـم وأصـالتهم .

غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر

1541 م 948 هـ

• بين المصادر الاسلامية

• والمصادر الغربية

مولاي بلحميسي

سلوا شرلكان كم رأى من جنودنا
فليس له الاهم من زواجر
فجهز اسطولا وجيشا عرمرما
ولكنه قد آب اوبة خاسر

محمد السعيد الزاهرى

(شعراء الجزائر ج I ص 74 لمحمد الهادى السنوسى)

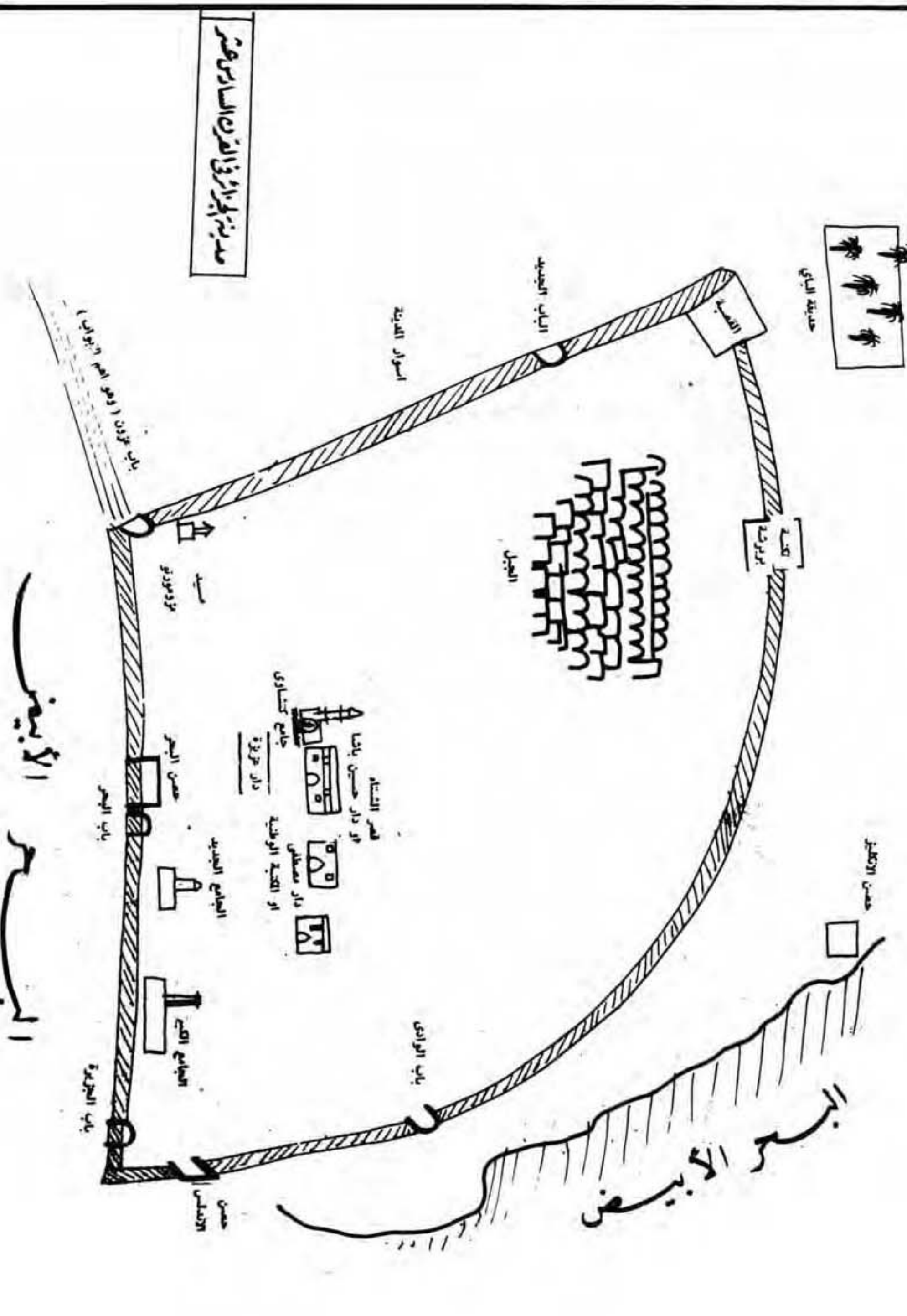
اغار الامبراطور شارلكان (I) صاحب اسبانيا على مدينة الجزائر (2) فى شهر أكتوبر 1541 الموافق لجمادى الثانية من سنة 948 هـ . وذلك فى ايام السلطان العثمانى سليمان الاول (3) .

---

1) شارل الخامس – تولى الحكم بعد الملك فرديناند الذى توفى سنة 1516 ، واصبح شارل هذا بعد 1519 على راس اكبر امبراطوريه فى العالم . فقضى عهده فى محاربة اعدائه الى سنة 1556 ، ثم تخلى عن المسؤولية العظمى فى 16 جانفى 1556 فاعتزل فى معبد يوست YUSLE وبقى به الى ان توفى فى 21 سبتمبر 1558 وخلفه ابنه فيليب الثانى

2) هى الغارة الاسبانية الثالثة فى القرن السادس عشر – وكانت الاولى فى عهد عروج سنة 922 هـ – 1516 م ، وقد قادها دياقودى فارا (DIEGO DE VARA) الا انه انهزم وعاد الى بلاده . وكانت الثانية – فى عهد خير الدين – سنة 924 هـ – 1518 م وقد قادها هوقو دى مونكاد (HUGO DE MONCADE) وفيها انهزم النصارى ايضا

3) من اشهر سلاطين العثمانيين – امتد حكمه من 1520 الى 1566



مدينة الباي
القصبة
الباب الجديد
أسوار المدينة
الجبل
جامع كتشاوي
دار عزيزة
حصن البحر
باب البحر
الجامع الجديد
الجامع الكبير
باب الجزيرة
باب الوادي
البحر الأبيض

وكان على راس حكومة الجزائر ـ آنذاك ـ حسن آغا (4) خليفة خير الدين بعد ما عين هذا الاخير قبطان باشا والتحق بالقسطنطينية .

ولم يعط لهذا الحادث الخطير حقه من البحث فبقيت جوانب عديدة لهاته الغارة غامضة وظهر في الروايات المختلفة تباين وتباعد حتى عند من شاهدوا أو ساهموا في الحملة .

ولم يتخذ مؤرخو شارل الخامس موقفا مشرفا نزيها . فقد أطالوا الحديث في غارة أمبراطورهم على تونس سنة 1535 م . فوصفوا ومدحوا وأطنبوا لان العملية كللت بالنجاح (5) واهملوا الحديث في شأن غارة (1541) الفاشلة او اكتفوا بالاشارة ، فكان تآمر السكوت ، على هذه الحوادث التاريخية (6) ولو زعم هيدوا (HAEDO) أن أخبار شارلكان والجزائر معروفة عند العام والخاص (7) .

أما المصادر الاسلامية فهي ـ مع الاسف ـ قليلة ملخصة يعوز بعضها التدقيق والتفصيل واكثرها البحث التاريخي وتحليل الاسباب والعلل وذكر النتائج . وينقص جميعها تقريبا الاعتدال في الاحصاء والاعداد وضبط التواريخ (8) .

فأصبحت المقارنة بين جميع الوثائق والمصادر والاخبار ضرورية لما للموضوع من اهمية .

وسنحاول في هذه المقالة أن نتعرض للدوافع على هاته الغارة الفاشلة ثم للاستعدادات من الطرفين ثم لتحرك الاسطول الاسباني وكيف كانت مدينة الجزائر قبيل المعركة ثم لمراحل القتال وانسحاب الغزاة وأخيرا ندرس نتائج الحملة في الداخل والخارج .

الباعث على الغـارة :

ان الاسباب التي دفعت صاحب اسبانيا الى المغامرة عديدة الا أن كل مؤرخ وقف عند ما ظهر له رئيسيا منها .

---

4) اصله من سارادانيا ، وقع في قبضة قراصين الجزائر وهو صغير فنشا في حاشية خير الدين وبقي في خدمته فلاحظ فيه خير الدين خصالا حميده فقربه الى ان عينه خليفة له وتوفي في السادسة والخمسين من العمر . واختلف في تاريخ وفاته فقال هيدو (HAEDO) كان ذلك في اواخر سبتمبر 1543 ، وقال ديفولكس (DEVOULX) بل توفي في نوفمبر 1545

5) من بين الكتاب الغربيين الذين ارخوا الغارة على تونس :

M. DINAUX : Charles Quint, Relations de la conquête de Tunis. (Archi ves du Nord de la France... Vol. IV).
E. GACHET : Documents inédits relatifs à la conquête de Tunis par l'Empereur Charles Quint en 1535 (Bruxelles 1844)
A. MOREL FATIO : — Historiographie de Charles Quint - Paris 1913. — Etudes sur l'Espagne - Paris 1925 (4 V.)

6) دوقرامون ـ هنري ـ

H. DE GRAMMONT : Revue critique d'histoire et de littérature, 1890, p. 343.

ونذكر بعض الكتب الغربية تناولت الموضوع بالبحث

Docteur VON GUSTAV TURBA : Uber den Zug Kaiser Karls V, gegen Algier. (Wien 1890).
SANDER RANG et F. DENIS : Expédition de Charles-Quint contre Alger. (dans le 2e volume).

7) هيـدو (HAEDO) Histoire des rois d'Alger, traduction de Grammont, page 63.

8) مخطوط المحكمة : نقل من التركية الى العربية ـ وهو بقلم احد المعاصرين لا نعرف اسمه توجد منه نسختان ـ مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1100 ، ونسخة في ذيل الغزوات . ـ غزوات عروج وخير الدين لمؤلف مجهول ـ وهو اقدم مخطوط لدينا بالعربية في تاريخ دخول الاتراك الى المغرب الاوسط . ـ تحفة الكبار في اسفار البحار ـ لحاجي خليفة ، والكتاب بالتركية وهو في المعارك البحرية التي شارك فيها العثمانيون . ـ الزهرة النيرة فيما جرى في الجزائر حين اغارت عليها جنود الكفرة ـ لمحمد بن عبد الرحمن التلمساني الجدري (من رجال الثالث عشر هـ الثامن عشر م)

I ـ فهل السبب هو القضاء على نشاط المسلمين في البحر الابيض ؟ لقد شاهدت الجزائر نشاطا لا مثيل له بعد سقوط « البنيون » وطرد الحامية الاسبانية منه سنة 1529 ، فاكتسبت قوة بحرية فاقت قوى الدول المحيطة بالبحر الابيض وأصبحت مأوى لاسطول معزز مدرب وقاعدة لخير الدين وأتباعه أولئك الرياس الذين زرعوا الرعب والفزع في قلوب النصارى (9) .

وكانت العاصمة تراقب جميع الطرق الكبرى لهذا البحر (10) فغزا الجزائريون سواحل اسبانيا وايطاليا وجزر الحوض الغربي واستولوا على غلات البلاد وخربوا مدنا ساحلية انتقاما من النصارى ومعاملتهم للمسلمين في الاندلس أو في أثناء سفرهم على متن البحر .

وسلطوا أقسى الضربات على جزر « الباليار » حتى ضاق أهلها « وضجوا الى ملكهم بالشكوى مما يفعل أهل الجزائر بهم » (11) .

ولم ينفع شارل الخامس استيلاؤه على تونس سنة 1535 أو بناؤه حصن حلق الوادي (LA GOULETTE) فالطريق بين اصطنبول والجزائر لم يقطع وجرأة خير الدين لم تقمع وكل ما حصل بعد حوادث تونس أن أصبح نفوذ الجزائر في تزايد (12) .

وخرج خير الدين متوجها الى حضرة السلطان في صيف 1535 فمر على سواحل الباليار مرة أخرى ونهب مدينة ماهون (12 مكرر) (MAHON) بجزيرة مينوركاوسبى

ثم جدد أعماله هاته بسواحل نابولي (NAPLES) وسواحل كالابر (CALABRE).

وكان حاكم الجزائر الجديد ـ حسن آغا ـ قد « أنشأ احدى وثلاثين غليوطة بعد ذهاب خير الدين فاشتدت بذلك وطأته على أهل اسبانيا فاحتوى على كثير من أجفانه وعاث في أطراف سواحلهم وفعل بهم ما كان يفعله خير الدين » (13) .

وعمر الامبراطور ـ ذات يوم ـ « مركبا من مراكبه وأوسقه بالمال والسلعة وبعثه الى وهران (14) فأخذه رايس من رياس الجزائر واسمه كجك علي ودخل به الى الجزائر بعد ما وقع الحرب بينهما فوجد فيه رئيسا عظيما من جملة الرؤساء . . . ثم قال (الرئيس الافرنجي) ان سفينة تريد القدوم الى بجاية فعند ذلك أمر حسن آغا أن تجهز له أغربة

9) فيوقيتيون بليستروس D. VILLEGAIGNON : Relation de l'expédition de Charles-Quint... éd. de Grammont, 1874, p. 55.

بليشتروس : A, BALLESTEROS : Historia de Espana, Vol. VI. p. 121.

10) بروديل BRAUDEL : La Méditerranée au temps de Philippe II.

11) مخطوط المحكمة

12) روف P. RUFF : La domination espagnole à Oran... (p. 68).

12 مكرر) كان الخبر قد جرى في المملكة الاسبانية ان خير الدين قتل سنة 1535 عند ما اغار شارلكان على تونس وبينما الناس يحتفلون ويرقصون ابتهاجا بهذا الخبر اذ ظهر خير الدين بماهون (بمينوركا)

13) غزوات . . ص 115 ـ الزهرة . . ص 15 ـ طبعة المجلة ـ

14) وهران احتلها الاسبان 1509

فتجهزوا فى أسرع وقت فساروا الى طلبها الى نواحى بجاية وكمنوا فى موضع يقال له «العش» و «المنقار» (15) . . ورجع الرؤساء الى الجزائر وهم فرحـــون بالغنيمـــة » (16)

وتعددت غارات المسلمين على اسبانيا وايطاليـــا وجزر البحر الابيض حتى اصبح شارلكان يصعـــب عليه السفر من برشلون الى نابلى . . .

2 ـ هل سبب الغارة هو من مخطط اسبانيا لاجل السيطرة على البحر الابيض ؟

كانت ممالك شارل الخامس واسعة الاطراف ضمت جنوب ايطاليا وشمالها ، وصقلية والبليـــار وأروبا الوسطى وجزءا من شمالها فاصبحت فرانسا محاصرة والمغرب مهددا لاسيما بعـــد احتلال ســـواحله (17) واتسعت المملكة العثمانية غربا فضمت اليها المغرب الاوسط سنة 1518 فاشتد الصراع بين الاســـــلام الممثل فى الاتراك والمسيحية الممثلة فى اسبانيـــــا فعظم شأن البحر الابيض .

وكان الوضع فى سنة 1541 سانحا للامبراطور فلم يبق للاتراك آنذاك فى المغرب الا قاعدة واحـــدة هى مدينة الجزائر التى تنطلق منها الضربات القاسية . فكان الهدف من هجوم 1541 طرد الاتراك من آخـــر قاعدة فى أيديهم . فاذا كتب النصر للامبراطور صفا له الجو فى الحوض الغربى من البحر وسهل عليه أيضا خنق فرنسا حليفة الدولة العثمانية (18) .

3 ـ هل كانت الغارة لفائدة النمسا والمانيا ؟

رأى بعض المؤرخين الغربيين أن الهدف من الحملة على الجزائر هو غير ما ذكرنا . وقال ان شارل الخامس عند ما قرر احتلال عاصمة المغـــرب الاوسط راعى الوضع السياسى فى أروبا حيث يشتد الضغـــط التركى يوما بعد يوم (18مكرر) فاذا نشبت حرب فى المغرب تحتم على السلطان سليمان القانونى أن يوجه قوته الى جبهة القتال الجديدة فيخف الخطر العثمانى أو يزول ولو لوقت على النمسا والمانيا (19) .

4 ـ أم هل أراد شارلكان أن ينتقم للمسيحيـــــة وللامبراطورية ؟

وزعم بعضهم ان صاحب اسبانيا تأهب لضـــرب الجزائر انتقاما بعد ما استولى سليمان على المجـــر وعلى جزيرة رودس (RHODES) 1522 . وبعد ما حاصر فيانا 1529 وكورفور 1537 وبعد انتصارات خير الدين فى جـــزر الارخبيل وانهـــزام دوريـــا ببريفيـــزا (PREVEZA) 1538 (20) وكـــاستيل نـــوفـــو (CASTEL NOVO) 1539 . وكان عدد قتلى النصارى 4000

---

15) لعله راس كربلين (CORBELIN) بقرب ازفون

16) مخطوط المحكمة

17) استولى الاسبان على المرسى الكبير سنة 1505 وعلى وهران سنة1509 وعلى بجاية وطرابلس الغرب 1510 ـ وعلى الصخـــرة الوسطى بالجزائر العاصمة 1510 ـ وعلى جربة 1520 ـ وعلى تونس 1535

18) رافـــونى E RAVENET : Un épisode de l'Expédition de 1541 contre Alger. Revue Africaine 3e/4e trim. 1931.

18 مكرر) دوقرامون DE GRAMMONT : Relation de l'Expédition de Charles Quint contre Alger - p. 87.

19) هوبالا P. HUBAC : Les Barbaresques, p. 136.

20) هوبالا : نفس المرجع

وكان الامبراطور قام لمناصرة أخيه فريدريك الثانى « فبلغه الكثير من أخبار خير الدين فاستحى أن يعود الى بلاده بدون قتال المسلمين فقرر عندئذ مهاجمة الجزائر » (21) .

5 – أم هل سبب الغارة راجع الى فشل المفاوضات (المزعومة) بين خير الدين والامبراطور ؟

بينما لم تذكر المصادر الاسلامية قط وقوع هذه المفاوضات ، زعمت بعض المصادر الغربية أنه أجريت مفاوضات ومراسلات بين خير الدين وشارل الخامس (22) ويقال ان هذا الاخير – بعد ما يئس من القضاء على الجزائر ونشاطها – لجأ الى الرشوة والى تشجيع الخيانة وتحريك طموح خير الدين . ويقال انه اقترح على حاكم الجزائر السابق أن يكون له مملكة الجزائر والقواعد الاسبانية آنذاك مثل بجاية وعنابة وتونس (23) على شرط أن يدخل بربروشة فى خدمة صاحب اسبانيا وان يجعل الاسطول العثمانى تحت تصرفه .

وكان شارلكان – عند ما اتصل مبعوثوه بخير الدين – يحلم بالقضاء على القوة العثمانية فى البحر الابيض وبضمان سلامة سواحل ممالكه . كما كان يرجو أن تؤدى الخيانة الى قطع كل صلة بين السلطان سليمان وبين مساعده فيسهل فيما بعد على الامبراطور القضاء على « حليفه » بربروشة .

وزعموا أن المفاوضات السرية بدأت فى سبتمبر 1538 واستمرت الى 1540 بالقسطنطينية . وكان يمثل الامبراطور ، المدعو روميرو (ROMERO) والقبطان فيرقارا (VERGARA) الا أن خير الدين الوفى المخلص كان يطلع سليمان القانونى على كل ما يجرى بينه وبين مفوضى الاسبانى (24) .

وطالت المحادثة وآلت بالفشل . ويرجع بعض المؤرخين الغربيين هذا الفشل الى الدور الذى لعبه فرنسى يدعى رينكو (RINCON) أفشى السر . والى عدم ثقة خير الدين بالامبراطور (25) .

وفات أصحاب الافتراضات انه يستحيل على خير الدين الخيانة والغدر . فابنه وبنته يعيشان بالقسطنطينية فلا بد أن يكون يخشى على حياتهما من سخط السلطان وكذلك أصحاب خير الدين الذين يعول عليهم.فانهم أرباب عائلات تعيش أيضا بعاصمة العثمانيين وكل يفكر فى مصير ذويه قبل أن تسوله

21) حاجى خليفة : تحفة الكبار

22) لم يذكر مؤرخ شارلكان – وهو سندفيل (SANDOVAL) وجود هذه المفاوضات ، وان اول من تحدث عنها هو لافوينتى (LA FUENTE) فى كتابه – تاريخ اسبانيا ج 12

23) مرسيي : تاريخ افريقية الشمالية ج 3 ص 50 E. MERCIER : Histoire de l'Afrique septentrionale, t. III, p. 50.

وروف RUFF : Domination espagnole à Oran - 1900. (Sous de gouvernement du Comte d'Alcaudete 1534-1558) p. 69-89

24) المجلة الافريقية – مارس 1871 – E. WATBLED et MONNEREAU : Négociations entre Charles Quint et Kheirdine 1538-1540 - (R.A. mars 1871).

ودى قرامون : DE GRAMMONT : Relation de l'expédition de Charles Quint contre Alger, p. 87

25) مرسيي : تاريخ E. MERCIER : Histoire de l'Afrique septentrionale, t. III, p. 50.

نفسه ! وزد على هذا كله فان خير الدين عرف بقوة الايمان وصحة الاسلام يتحاشى النقص ، ويترفع عما يضيم . وجهاده لا ينكر وانتصاراته لا تحصى واقتضى منه الدها، السياسى أن يعد ويسوف وان يتظاهر بالقبول (26) ربحا للوقت وبحثا عن نوايا الخصم . وقد فطن المفاوض روميرو (ROMERO) الى الواقع وكاتب دوريا سنة 1540 يقول متأسفا «ان خير الدين أقوى ايمانا من محمد » .

6 ـ وهل كانت بين حسن آغا ووالى وهران المحتلة مفاوضات ؟

لم تذكر المصادر الاسلامية شيئا عن هذه المفاوضات بين خليفة خير الدين ووالى وهران الكونت دالكونيتيى (LE COMTE D'ALCAUDETE) (27) وادعى بعض الغربيين (28) ان المفاوضات كانت ترمى الى تسليم الجزائر الى الامبراطور وان حسن آغا كان موافقا على ذلك وان السفير الاسبانى يدعى (DON LORENZO MANUEL) وانها كادت تنجح لولا موقف القايد محمد (29) واحتجاجات الجماهير مما جعل حاكم الجزائر يخشى على نفسه . وتجاهلت هذه المصادر الدها، السياسى الذى عرف به الاتراك .

وان زعما مثل هذا ينافى كل ما ذكرته المصادر الاسلامية حتى بعض المؤلفين الاسبانيين فى شخصية حسن آغا الذى « كان رجلا عاقلا حازما سديد الرأى جيد التدبير وكان له حظ فى العلم والصلاح كريم النفس سخيا بالمال باذلا للمعروف . . ولذلك تفرس فيه خير الدين فجعله نائبا عنه » (30) وهو «خادم خير الدين . . صار يقوم بوصيته فى أهل الجزائر غاية ما يمكن ويشتغل بالجهاد على العدو ولا يفتر عنه لا ليلا ولا نهارا . . . » (31) .

وإسهب هيدو ـ خلافا لعادته فى الحديث عن حكام الجزائر ـ فى وصف شجاعة حسن آغا وتجاوبه ومقدرته وحزمه وقيادته للجيش وتنظيمه للمقاومة وضربه للعدو (32) مما يحطم تهمة الخيانة تحطيما.

وفى الواقع فان العناد الذى اظهره الامبراطور فى شن هذه الغارة سيبقى من غرائب الامور ولهذا مع كل الاحتمالات التى قدمت فانه يصعب علينا أن نعرف الدافع الحقيقى لهذه الحملة . . (33) .

---

26) المجلة الافريقية مارس 1871 — R A. mars 1871.
ودوقرامون — DE GRAMMONT : Relation de l'expédition de Charles Quint contre Alger - p. 86.

27) من سادة اسبانيا ـ حكم وهران من 1534 الى 1558 ، وقتل بمستغانم اثناء غارته الثالثة على هذه المدينة

28) المجلة الافريقية 1865 — BERBRUGGER : Les négociations... (R.A. sept. 1865).
دوقرامون — DE GRAMMONT : Relation de l'expédition de Charles Quint contre Alger - p. 86.

29) يهودى الاصل ـ قدم من مالقة وكان من الاعلاج بالجزائر

30) غزوات . . ص 115

31) الزهرة النيرة ص 14 ـ نشر مجلة تاريخ المغرب عدد 3 ـ

32) هيدو ـ تاريخ ملوك الجزائر (ترجمة دى قرامون) ص 63 و 64 — Haëdo : Histoire ...
وهيدو هذا من رجال الكنيسة ـ ومن أصل اسبانى ـ اسر بالجزائر من 1578 الى 1581

33) سندار رانق وف ، دونيس اللذان نقلا الغزوات الى الفرنسية — SANDER-RANG et F. DENIS : Fondation de la Régence d'Alger, t. II, p. 348.

الاستعـــدادات

من الجانب الاسباني :

فكر شارل الخامس في الغارة على الجزائر غـداة احتلاله لتونس 1535 . (34) فبدأ الاستعـداد ودام أكثر من خمس سنوات . فأرسل الى المغرب عيونا وخبراء ليطلعوه على اليق الوسائل حتى يحقق مـا قرر . وأخفى النبأ «مكيدة منه وهي عادة باقيـــة عنهم» (35)

ودخلت الاستعدادات مرحلتها الاخيرة في أواخر 1540 وقد طلب الامبراطور اعانة مالية في سنة 1539 من البابا . فوافق هذا وكاتب في الموضوع كردنال طليطلة ورئيس اساقفة اشبيلية وأسقف قرطبة (36) ثم « أطلق الطاغية النداء في سائر اعماله واقطـاره فانحاشت اليه جيوشه أفواجا أفواجا وزخرت اليه جيوشه وعساكره أمواجا أمواجا » (37) كما بعث الى صاحب الجنويز يأمره بتجهيز ما عنده من الاجفان واعدادها للسفر (38) .

وجمع الامبراطور بمرسى « ماهون » (بجزيـــرة مينوركا) أكبر أسطول شق البحر الابيض ، يتألف من مراكب للنقل واخرى للحرب . الا أن المؤرخين اختلفوا في عددها وانواعها وفي حمولتها .

فقال حاجي خليفة في تحفة الكبار : اسطـــول يتألف من مائة مركب وقال صاحب الغزوات « وكان عدد ما فيها (اسطول اسبانيا واسطول الجنويز) من الاجفان أربعمائة وقيل اربعمائة وخمســين جفنا » (39) بينما يقول هيدو (HAEDO) « كان الاسطـول مؤلفا من أكثر من خمسمائة مركبا » (40) ولم يذكر الغربيون عددا أقل مما ذكره المسلمون (41) .

وعلى كل حال فان ما هيأه شارل الخامس كان من أكبر التجمعات البحرية المقاتلة في القرن السادس عشر وكان الاسطول مخيفا مريعا كما سنذكره .

وكان يقود «الارمادة» الامبراطور نفسه وقد لقبه المسلمون في كتبهم بالبلادور والطاغية وملـــك النصارى وملك الاسبان وصاحب اسبانيا . وكـــان يصحبه أكبر قواد ممالكه وضباطها مثل أندرى دوريا

34) ذكرت المجلة الافريقية ـ لسنة 1876 ـ تقريرا موجودا بدار وثائق سيمانكاس (ARCHIVES DE SIMANCAS) لا يعرف مقرره ويبرز فيه صاحبه هذه الاستعدادات

35) الغزوات ص 115 ـ الزهرة النيرة ص 15 ـ مجلة تاريـــخ المغرب عدد 3 ـ

36) المجلة الافريقية 1871

37) مخطوط المحكمة

38) الزهرة النيرة ص 15

39) غزوات ص 116

40) هيدو : تاريخ ملوك الجزائر ص 63 .

41) يقول المؤرخ الاسباني بالاستروس « 150 مركبا لنقل الجيوش و100 لنقل الامتعة »
A. BALLESTEROS : Historia de Espana, t. VI, p. 121.

ويقول دوقرامون : 516 سفينة من بينها 16 للنقل .
DE GRAMMONT : Relation de l'expédition de Charles Quint contre Alger de Villegaignon - Note page 92.

(42) (ANDRE DORIA) وكورتيس (43) (CORTES) والكونت دالكوديتى (44) (LE COMTE D'ALCAUDETE) و قونزاق (45) (GONZAGUE) وبرنار دينو ذى ماندوزا (46) (BERNARDINO DE MANDEZA) والماركى ديل فاستو (47) (MARQUIS DEL VASTO) والبحرى الشهير منكادا (48) (HUGO DE MONCADA) وجاء هؤلاء على رأس جنود محنكين مدربين قدموا من بلدان مختلفة فيهم ألمان وفيهم ايطاليون وفيهم اسبانيون وحتى فرسان مالطة (49) . وتبرعت الدول المسيحية بالنفوس والنفائس .

واختلفت المصادر فى عدد الغزاة . فذكرت المصادر الاسلامية عددا يظهر ضخما وقدمت المصادر الاسبانية خاصة والغربية عامة عددا يظهر قليلا بالنسبة للاستعدادات وللاسطول وللمشروع الامبراطور (50) .

وكان للخيالة وللمشاة وللرماة وللاختصاصين أمتعتهم وأسلحتهم .

من الجانب الجزائرى :

اطلع الجزائريون على نوايا شارل الخامس الذى كان يهددهم منذ أن احتل تونس 1535 فاستعدوا كل الاستعداد لرد الهجوم الاسبانى الثالث على العاصمة. « ووصل خبر عمرته على حسن آغا خليفة خير الدين فصدق بذلك ولم يكذب وأدار وجهه الى تحصين المدينة والاستعداد لمقابلة العدو . . . » (51) .

واستعان حاكم الجزائر بجماعة من زعمائها لرد الغزاة . من بينهم سيدى سعيد الشريف «شيخ المدينة» والحاج مامى وكان «رجلا من أعيان العسكر مذكورا فى الشجاعة » . والقائد رمضان والقائد يوسف والقائد أرسلان والحاج باشا « زعيم من زعماء الترك » والقائد صفر (52) .

---

42) اصله من جنوا وهو اكبر اميرال بعد خير الدين فى القرن السادس عشر ، ولد سنة 1466 وتوفى سنة 1560

43) مغامر كان متعطشا لجمع المال ، هو الذى فتح المكسيك بين 1519 و 1521

44) (1498 ـ 1558) . من سادة اسبانيا وضباطها الكبار ـ عين واليا على وهران ايام الاحتلال الاسبانى ـ وتدخل مرار فى شؤون بنى زيان تلمسان وحاول احتلال مستغانم فقتل اثناء حملته الثالثة سنة 1558

45) خليفة ملك صقلية ـ عينه شارل الخامس قائدا عاما للجيوش اثناء الحملة

46) والى حلق الوادى بتونس آنذاك .

47) والى ميلانو بايطاليا .

48) صاحب الغارة الاسبانية الثانية على الجزائر سنة 1518 .

49) يقول المؤرخ الاسبانى بلاستيروس : كان عدد الاسبانيين المحترفين 6000 وعدد الالمان 6000 وعدد الايطاليين 5000
A. BALLESTEROS : Historia de Espana, t. VI, p. 121.

50) الغزوات ص 116 : «50.000» رجل ـ مخطوط المحكمة : 90.000 رجل من بينهم 4.500 من الخيالة ـ مرسيى ج 3 ص 51 24.000 رجل و 12.000 ملاح
E. MERCIER : Histoire de l'Afrique septentrionale, t. III. p. 51.
رافونى ـ المجلة الافريقية 1939 : 22.000 رجل
E. RAVENET : R.A. (1939).
سندير رانق وف دويس
SANDER-RANG et F. DENIS :
ـ 23.900 رجل و 12.330 بحرى ـ

51) مخطوط المحكمة

52) هو صفر بن على اعتنق الاسلام ايام خير الدين ولعب دورا سياسيا فى الجزائر ، ثم بنى مسجدا سنة 941 هـ ـ 1534 م ، كان يوجد بنهج كليبير (KLEBER) سابقا . ناظر دفولكس (DEVOULX) ص 240

أما عدد العساكر فكان قليلا . وكانت الجوسسة الاسبانية قدرته ـ قبل الغارة ـ بنحو 800 تركي و 8000 أندلسي قدموا من بلنسية وغرناطة و 1400 من الاعلاج و 200 من الاعراب . والسبب في ذلك ان معظم الجيوش كان مرابطا ـ آنذاك ـ بغرب الجزائر (53) ، ويؤكد هيدو (HAEDO) هذا القول : « لم يبق تحت أمر حسن آغا الا 3000 رجل من أتراك وأندلسيين وأعراب » (54) .

اقلاع اسطول الاسبان

وعند ما تم لهم الاستعداد أقلع الاسطول في 15 أو 16 أكتوبر 1541 . وذكرت بعض المصادر الاسلامية ان الامبراطور أبحر من قرطاجنة (CARTHEGENE) قاصدا وهران وهناك انظمت اليه قوى أخرى (55) وزعم بعض المؤرخين الافرنج انه انطلق من ماهون (بجزيرة مينوركا) والتحقت به قوى أخرى قرب الجزائر (56) .

وكانت أخبار العمارة تتوارد في كل حين وفي كل وقت على الجزائريين . وكان صاحب «الناظور» ـ حارس البحر ـ مكلفا بمراقبة قدوم العدو .

وظهرت العمارة في مياه الجزائر يوم الاربعاء 27 جمادى الثانية : 19 أكتوبر . وفي الغد وصل الاسطول الى جون تمانتفوس (CAP MATIFOU) (57) وبقي العدو يوم الجمعة 21 أكتوبر : 29 جمادى الثانية يترقب الفرص . .

وتاثر الجزائريون لذلك المنظر المخيف ، وخيل لهم ان العمارة ـ حين بدت ـ جبل يسير في البحر وحين أرست جبل استقر هنالك ، وحصلت بذلك صيحة في سكان المدينة لانه لم يسبق لهم عهد لمثل هذا الاسطول . وكان صاحب مخطوط المحكمة شاهد عيان لقدوم «الارمدا» فقال «عمارة أخذت وجه الماء كله وسترته وشرعت في عددها فلم أقدر فتشوش نظري من ذلك لكثرتها . . . » وعين حسن آغا جملة من الخيل . . فصعدوا الى جبل أبي زريعة ليأتوا بتحقيق العمارة فرجعوا اليه وكل واحد منهم يقول لم أقدر على احصاء ما رأيت . . . العدد كثير لا يصل اليه الادراك » (58) .

قبيل المعركة

لعب حسن آغا دورا رئيسيا في تنظيم المقاومة واتخاذ التدابير فاستدعى «أهل المدينة ونصب ديوانا عظيما جمع فيه علماء البلد وصلحاءهم ومشايخهم وجعل يسكنهم ويطيب نفوسهم ويهون عليهم أمر هذه العمارة وهو مع هذا يستشيرهم وينظر ما يتفقون

(53) دي قرامون ص 89 — DE GRAMMONT : Relation de l'expédition de Charles Quint contre A lger - p. 89.

(54) هيدو : تاريخ ملوك الجزائر ص 63 ، والمجلة الافريقية 1880 ص 228

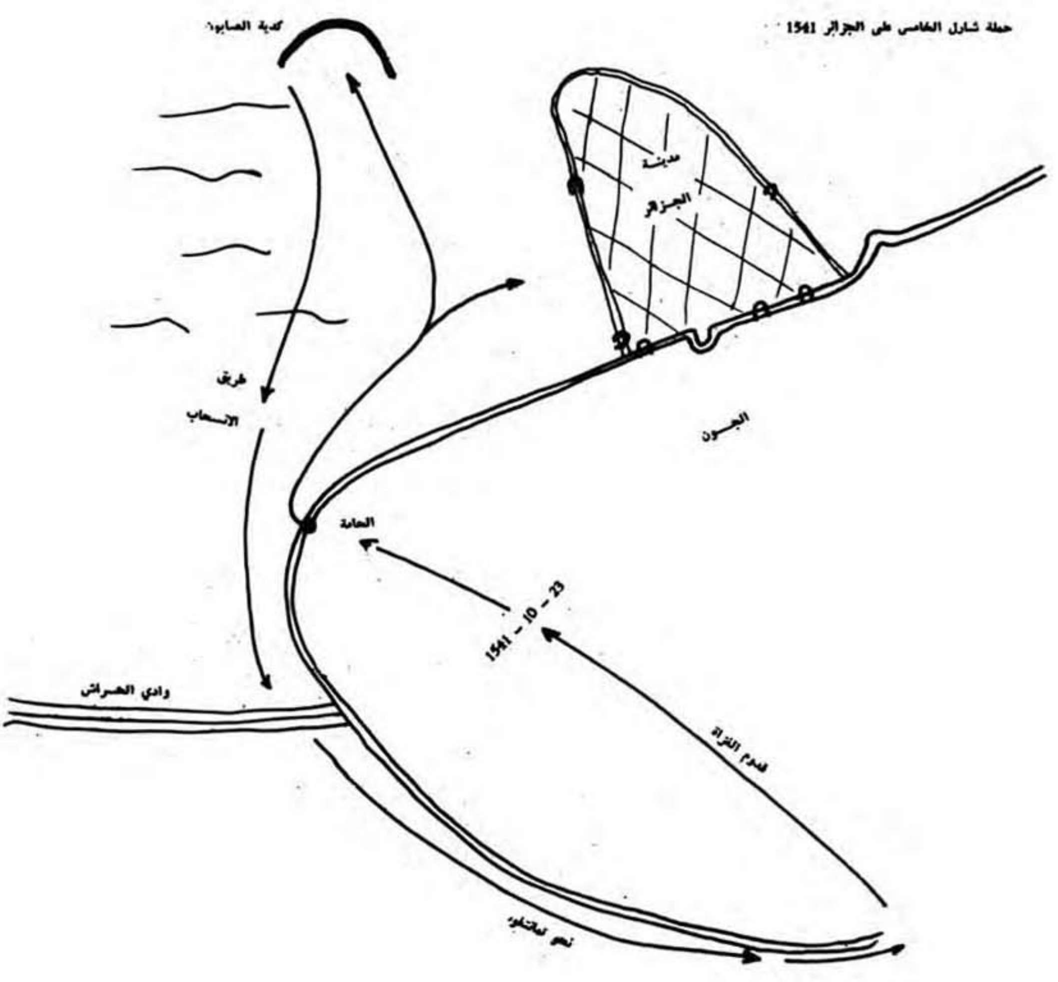
(55) مخطوط المحكمة

(56) P. AGUADO-BLEYE : Historia de Espana, t. II, pp. 454-455.
A. BALLESTEROS : Historia de Espana, t. VI, p. 121.
E. MERCIER : Histoire de l'Afrique septentrionale, t. III, p. 51.

(57) مخطوط المحكمة ـ غزوات ص 116 ـ الزهرة ص 15 ـ

(58) مخطوط المحكمة

غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر



عليه . . » (59)

ثم نهض لتعزيز المدينة وتحصين المراكز الاساسية «فاصلح ما انهدم منها ونصب عليه المدافع وعلى سائر الابراج . . وعين أربعمائة أسير من الكفار لهذا البناء ثم انه بعث الى شيخ المدينة وأمره أن يرفع اليه حساب رجال كل حومة من الجزائر . ثم أمر بقطع اشجار البساتين كلها خوفا من النصارى أن يستتروا بها عند القتال . . ثم فتح خزائن السلاح ووزعه فى أهل المدينة مع ما يحتاجون اليه من البارود والرصاص . . » (60)

وبعد أن تم التنظيم ، خاطب السكان وشجعهم وحثهم على الصمود والكفاح بينما كان يشرف — فى نفس الوقت — على عمليات المقاومة . (61)

«ثم امر حسن آغا سيدى سعيد الشريف . . أن يوجه رجالا من أهل البلد الى الابراج والاسوار برسم حراستها فى مقاتلة العدو منها . . ثم نصبوا رايات الاسلام عليها ووزع حسن آغة رجاله على أبواب المدينة بطوائف من العسكر فعين لباب عزون الحاج مامى .. وأقام حسن آغا فى حصن من حصون الجزائر تصل مدافعه الى العدو برا وبحرا ومعه جماعة من العسكر ، وجعل على باب الوادى مدفعا عظيما يدهش الانسان عند صيحته وتزهق النفس من دفعته . . كما عين لحراسة باب الوادى القائد يوسف وعين معه ثلاثة من القياد وهم سافر وأرسلان ورمضان(62) وأما كجك على وحيدر فعينا على باب الجزيرة . ومعهما قبطان السفن وجماعة من رياس البحر .

وشارك فى الدفاع عن الجزائر جميع سكانها من بلدية ، وأندلسيين ، وبرانية فقد داروا على أسوار المدينة بالمكاحل والسيوف والرماح والنشاب ينتظرون الاوامر .

وفى يوم الاحد 23 أكتوبر : 2 رجب ، نزل العدو بالمكان المعروف بالحامة (63)

وتقدم المسلمون لمنع العدد من النزول الى البر فرماهم النصارى بالمدافع من البحر فابعدوهم ثم نزلوا من أجفانهم كما أنزلوا سلاحهم وتركوا الزاد والذخائر فى المراكب وكانوا يعتقدون أن الاستيلاء على المدينة قضية ساعات . وبعد النزول صنعوا مترسا هائلا وقضوا به نهارهم وليلة الاثنين (64) . اما مكاتبة شارل الخامس لحسن آغا فقد نقلتها المصادر الغربية وأثبتتها المصادر الاسلامية ، فبعث الامبراطور الى حاكم الجزائر « أيها الرجل أنت خديم من خدام بربرشة وانا ملك صبانيا وجميع بلاد النصارى تحت طاعتى فكيف تحدث نفسك بمقابلتى أما تعرف الى ابستوليت على مدينة تونس وازعجت منها بربرشة » فامر حسن آغا بجواب صارم يقول « يا كلب النصرانية كيف حدثتك نفسك انك ملك الملوك فى مقام السلاطين العظام الذين دنت لهم الدنيا وهل أنت الا كلب من كلاب النصارى أضعف ما فى بلاد البربرية من القلاع لاتقدر على أخذها»(65)

---

59) الزهرة ص 15

60) مخطوط المحكمة — غزوات ص 117

61) الا ان ابن ابى دينار القيروانى زعم — معتمدا على السيد الشريف بركات — ان : حسن آغة اراد ان يهرب فمنعه شيخ شريف والى امر الله — المؤنس فى اخبار افريقية وتونس ط 1268 هـ ص 151 كما ادعى المؤرخ الاسبانى مرمول (MARMOL) — ويقول انه شارك فى الغارة هاته — ان حسن آغا مال لحظة الى الخيانة وتسليم المدينة ثم عدل عن ذلك بعد ما حلوه القائد محمد — : وصف افريقية ، جزان ط غرناطة 1573

62) مخطوط المحكمة

63) حيث توجد اليوم حديقة الجيوانات (JARDIN D'ESSAI) وكان هناك مكان يزوره المسلمون ويعرف فيما بعد — بقبر المجاهدين — لعله قبر اولئك الذين سقطوا برصاص العدو اثناء الغارة

64) مخطوط المحكمة

65) غزوات 117 — 118

المعـــركة

وعندئذ عزم الحاج باشا ـ من زعماء التـــرك بالجزائر ـ (66) على أن يضرب العدو ليلا (67) . ففتحت أبواب المدينة وخرج الحاج باشا على رأس جماعة وافرة من المسلمين قد انقضوا عليهـــم يرمونهم ويرشقونهم حتى حصلت فى المخيم دهشة عظيمة .

ونجحت العملية وعاد المواطنون الى المدينة . وأخذ من بقى فى البحر من النصارى فى قصف الجزائريين حتى يكف هؤلاء من مهاجمة الصليبيين (68) وعـــد العدو قتلاه فوجدها «اكثر من ثلاثة آلاف» (69) ولما كان يوم الاثنين ـ 24 أكتوبر ـ تقدم النصارى نحو المدينة حتى «خيل لأهلها انهم نمل أسود قد مـلأ الفضاء» (70) وكان فى طليعة الغزاة ، الاسبانيون تحت قيادة فرناد دى قونزاق (FERNAND DE GONZAGUE) ثم جاء بعدهم الالمان يتقدمهم الامبراطور وتلتهـــم عساكر مالطة وصقلية وعدد من اسبانى عنابة (71) وأخيرا فرسان مالطة وأغلبيتهم من الفرنسيين .

واقترب العدو من المدينة فأمر صاحب اسبانيا بنصب المدافع ثم بقصف المحاصرين فرد المسلمون من أعالى الاسوار على أعدائهم بالمدافع وبنـــادق الرصاص والسهام واشتد القتال زمانا طويلا (72) ثم رجع العدو الى «رأس تافورة» بقرب باب عـــزون واستأنف القصف وبادر المسلمون بالرد «فشعـر الامبراطور بخيبة الرجاء فى احتلال المدينة» . ثم ان جماعة من العرب هجمت على الجناح الايسر مـــن جيش العدو فقرر الامبراطور الاستيلاء على المرتفعات المشرفة على العاصمة . فعين لهذه العملية فريقا من الصقليين فصعدوا الى «كدية الصابون» ونزل بهـــا امبراطـورهم واتخـذها قاعدة له (73) وتضـاعفت المقاومة ووجه الجزائريون رميهم الى أجفان العـــدو الراسية بالجون كما وجهوا مدافعهم الى قواعـــده البرية الى أن خيم الليل على ميدان المعارك .

---

66) عين الحاج باشا واليا على الجزائر وذلك فى الفترة التى تخلى فيها حسن آغا عن الحكم الى ان عين حسن بن خير الدين ـ انظر مقالة ديفولكس فى المجلة الافريقية لسنة 1864 ـ الا ان الغزوات تنسب هذا الخروج ليلا لحسن آغا

67) وهى ليلة 24 اكتوبر اى ليلة 3 رجب

68) غزوات ص 119 ـ 120

69) الزهرة ـ الغزوات ـ الا ان المصادر الغربية تكتفى بالاشارة الى هذا الخروج الليل

70) مخطوط المحكمة :

71) كان خير الدين ـ بعد هزيمته بتونس 1535 التحق بعنابة حيث كان يوجد جزء من اسطوله . الا ان شارل الخامس امر قائده دى مندجـار (DE MONDEJAR) باحتلال عنابة .فاستولى على المدينة فى آب من نفس السنة بعد مقاومة شديدة من طرف الاهالى وقبل انسحاب القائد الاسبانى نهبت اموال المسلمين ودمرت المنـــازل والمساجد وبقيت حامية بالقصبة مدة طويلة

72) مخطوط المحكمة

73) اطلق الغربيون على هذا المكان اسم (FORT L'EMPEREUR) حصن الامبراطور ـ وتظن العامة ان صاحب اسبانية هو الذى بناه ـ وفاتها ان شارل الخامس لم يقم بالمكان الا ليلة واحدة ـ جاء فى الغزوات : «برج مولاى الحسن فى زماننا» والصحيح ان الحســـن ـ هل هو حسن قرصو ؟ هو الذى اختطه ـ ويقول هيدو (HAEDO) ان الحسن بن خير الدين بنى حصنا معززا بهذا المكان ثم قام حسين فينيزيانو بتوسيعه وتجميله وذلك بين 1579 و 1580 انظر هيـدو
Histoire des rois d'Alger, p. 177 et Topographie d'Alger.

وفي يوم الثلاثاء 25 أكتوبر : 4 رجب «هاجت الريح وساقت السحاب أمثال الجبال وأمطرت السماء مطرا كالطوفان وهال البحر واشتدت أمواجه وكثر اضطرابه بما لم يعهد مثله . . » (74) فقطعت احبال السفن وساقت عددا منها الى البر فكسرتها أو عطبتها ـ وكان يوجد في بعضها أسرى مسلمون «من ترك وعرب بعضهم من أهل الجزائر وبعضهم من أهل تونس» وكان عددهم نحو الف وأربعمائة فخلصتهم هذه الزوبعة من عذابهم كما وقع كثير من البحريين النصارى في قبضة عرب النواحي «فاستأصلوهم قتلا» (75) . فتشوش «الجنرال اندرى دوريا» ويئس المغيرون و «خيل لهم ان القيامة قد قامت من كثرة الرياح والامطار والصواعق والرعود فلم يقدروا على الرمي بمدفع واحد ولا بمكحلة» (76)

ورأى أهل المدينة ـ في هذه الزوبعة اعانة من الله على أعدائهم فتفاءلوا وخرجوا في ذلك اليوم يصحبهم الحزم فجدوا في القتال واجتهدوا كما خرج شارل الخامس في وسط جموعه واشتعلت الحرب براس تافورة «ودافع النصارى عن أنفسهم دفاعا قويا» وعاد المسلمون الى مكان يسمى «ملعب الكورة» ومنه الى مكان آخر يقال له قنطرة الافران (77) حتى وصلوا الى مكان بناحية سيدى أبي التقى (78) وعندئذ كر المسلمون على العدو وحملوا عليه وضربوا صفوفه ورموا أطرافه بينما كان المطر «يسيل كأفواه القرب» فتفرق الجمعان وعاد العدو الى محلته والمسلمون الى المدينة .

وقتل في هاته المعركة ـ أزيد من أربعة آلاف واستشهد من المؤمنين مائتان» (79) وارتفع عدد الجرحى من بينهم البرنس دى سلمون (PRINCE DE SALMONE) وسافينياك (SAVIGNAC) قائد فرسان مالطة .

وفي صباح الاربعاء 26 أكتوبر ـ 5 رجب تيقن العدو أنه لن يستطيع دخول المدينة ولا اخضاعها وفقد كل أمل وادرك «أن الغنيمة أن ينجو . . » (80)

---

74) غزوات 119 ـ وقال صاحب مخطوط المحكمة : ـ كان الفصل شاتيا لانهم وصلوا في شهر اكتوبر في ايام « قاسم كون » وقاسم كون هذا يوافق 26 اكتوبر (St DEMETRIUS) وهو الزمن الذى ينتهى فيه الغزو البحرى فيعود الاسطول الى الموانى ويبقى بها شهورا الى الربيع حتى بهذا البحر ـ وفي 23 افريل (St GEORGES) يستانف الغزو البحرى
انظر هيدو : تاريخ ملوك الجزائر ص 63
R. BASSET : Documents musulmans sur le siège d'Alger, p. 28.

75) غزوات ص 120 ـ وتحفة الكبار ـ ودى قرامون في التعليق على كتاب (VILLEGAIGNON) 101

76) غزوات ص 120

77) مكان كان يوجد قبل الدراسة في القرن التاسع عشر ـ خارج باب عزون وبنهج قسنطينة ـ قرب ثكنة الجمارك اليوم ـ

78) مسجد كان يوجد خارج باب عزون في ملتقى نهج قسنطينة وساحة الجمهورية ـ انظر : دوفلوكس ص 204

79) غزوات ص 120 ـ ويقول دى قرامون : قتل من فرسان مالطة قرب النصف ـ (38 من 100) ويضيف فيقول : ان خسائر المسلمين كانت فادحة
Relations de l'expédition de Charles Quint... p. 99.

وقال هيدو وهو اسباني ـ مترهب ـ متعصب على المسلمين مانصه :
Hasan aga monta à cheval... força les chevaliers de Malte à reculer, les poursuivit jusqu'à un demi-mille du rempart, en tua plus de 150 et mit l'ennemi en un tel désordre que les Ducs d'Abbé et de Sessa furent contraints de se porter en personne au secours des chevaliers ainsi que l'Empereur lui-même qui dut descendre bien vite de la montagne sur laquelle il était campé si grand était le désartre causé par la bravoure de Hasan...

(Histoire des rois d'Alger, trad. DE GRAMMONT, p. 63).

80) مخطوط المحكمة

انسحـــاب العـــدو

1 ـ من الجزائر الى تمانتفوس :

أمر صاحب اسبانيا بالانسحاب . والتحق أندرى دوريا بتامنتفوس ليهيء هناك مجيء الامبراطور (81) وفي يوم الاربعاء 26 أكتوبر ــ 5 رجب ، زحف جيش الغزاة . فكان الايطاليون في الجناح الايسر والمان في الجناح الايمن وكان الجرحى والمرضى فيالوسط وفي الاخير الاسبان . وكلما اشتد سيل الامطـــار صعب السير في الوحل . ونزل العدو بوادى خنيس (LE RUISSEAU) حيث قضى ليلته . وفي الغـــد ــ يوم الخميس ــ التحق بوادى الحراش ــ وقـــد أجهده الجوع والبرد ورمى العرب الذين حالوا بينه وبين كل زاد .

واضطر الغــزاة الى أكل أربعمائة من الخيــل . وتراكم عليهم المطر وباتوا بالمكان ، وفي الغد 28 أكتوبر ــ 7 رجب . عقدوا صوارى سفنهم المعطــوبة على الساحل فاستطاعوا عبور الحراش «وقد كـــان حاملا» ، ثم أوقفتهم مياه الحميز زمانا ولم يصلـــوا الى تمانتفوس الا يوم السبت 29 أكتوبر ــ 8 رجب (82) وقضى الامبراطور وجيوشه يومي الاحد والاثنين بين الاستراحة وعقد مجالس الحرب منتظرا هــدوء العاصفة وهيجــان البحر .

2 ـ مغـــادرة تمانتفـوس :

أقلع أسطول الغزاة يوم الثلاثاء أول نوفمبـــر 11 رجب ، وقيل يوم الخميس لكن الى أين ؟

تذكر بعض المصادر الاسـلامية انه سافـر الى بلاده وتنهي بذلك حديثها عن هذه المغامرة (83) ، لكن صاحب تحفة الكفار ينبه الى أن زوبعة دفعت ما بقي من الاسطول الى بجاية (التي لازالت آنـذاك قاعدة اسبانية) .

أما المصادر الغربية فانها تصـرح بأن صاحب الغارة قصد عمدا بجاية للبحث عن الزاد وقد فعلت بهم المجاعة فعلها (84) . ويضيف هيدو أن ابـن القاضي صاحب كوكو وعد الاسبان بزاد يبعثـــه لهم الى بجاية . .

ووصل الاسبان الى بجاية يوم الجمعة 4 نوفمبر 14 رجب ، فوجدوها محاصرة تقاسي هي أيضـــا قساوة القحط وقنعـوا بأكل الكـلاب والقطـــط والاعشاب . وتكالب الجنود على الجالية اليهوديـة هناك واستولوا على أموالها ثم شردوا أفرادهـــا وجردوهم من جميع ما كانوا يملكون كما أحرقـــوا كتبهم المقدسة (85) .

وبعد أيام أبحر الامبراطور من جديد . ولـقي دوريا قبل مغادرة بجاية صعوبات عديدة في جمـع شرذمة الغزاة (86) .

81) مخطوط المحكمة ـ دى قرامون : تعليق على كتاب (VILLEGAIGNON) ص 104

82) دى قرامون : تعليق على كتاب (VILLEGAIGNON) 104

83) مخطوط المحكمة ـ غزوات ص 121

84) بلاستيروس A. BALLESTEROS : Historia de Espana, t. VI, p. 121.

85) كاهية اليهود في شمال افريقية Ab. CAHEN : Les Juifs dans l'Afrique septentrionale, R.N.M.S.A.C. - 1867, pp. 167-168.

ووصل الاسطول الى ميوركة ومنها الى صقلية ، بقيادة قونزاف (GONZAGUE) والآخر الى قرطاجنة حيث نزل الامبراطور فى الثانى من شهر ديسمبر 1541 .

اسباب الهزيمة

1 ـ فى نظر الغربيين :

حاول أكثر من واحد (87) الوصول الى أسباب الكارثة ـ وذهب الناس فى هاته المسالة مذاهب ولعل ابرز ما ذكروه راجع الى :

1 ـ عناد الامبراطور الذى أبى الا أن يغير على الجزائر ولم يبال بتحفظات خبير مثل أندرى دوريا ولا بنصائح الملك فرناد . وكل منهما قد حذره من فصل الهجوم .

2 ـ ضعف القيادة والاخطاء المرتكبة فى العمليات البرية والبحرية .

3 ـ عدم التبصر وعدم المقدرة فى عمليات الارسا. وقد أبدى المؤرخون الغربيون عجبهم وحيرتهم أمام التدابير التى اتخذها الامبراطور كابقاء مدفعية الحصار فى السفن وكذلك الزاد والذخائر « ظنا منه أنه لا يحول بينه وبين ما فى السفن حائل» .

4 ـ خطا أندرى دوريا ـ مع أنه أعرف الناس بالبحر الابيض ـ عند ما جمع المآت من المراكب والسفن بقرب سواحل لا يوجد فيها ماوى صالح ومن جهة اخرى فان الرياح الشمالية الشرقية تضاعف خطرها .

5 ـ كان شارل الخامس متيقنا انه يدخل الجزائر لا محالة وبدون مشقة ولهذا كان يامل فى أن الاسطول يدخل بعد قليل الى مرسى المدينة ليصبح فى مامن .

6 ـ كما كان شارل الخامس متاكدا من «خيانة» حسن آغا فلم يعط اهمية للتدابير وللعمليات الجدية اللائقة .

7 ـ كان الامبراطور قد وصل يوم الخميس 20 آكتوبر ولم يشرع فى العمليات ضد الجزائر الا يوم الاحد 23 . فكانت الايام الثلاثة ـ فى نظر بعض المؤرخين ـ ضياع فرص للنصارى وفرصة استعداد للمسلمين .

8 ـ الزوبعة التى هيجت البحر بعد نزول الغزاة الى البر ، فان الغربيين كادوا يجمعون على أن العواصف والامطار هى السبب الرئيسى لفشل الامبراطور . . ولولاها لكانت النتيجة كما توهموا

2 ـ فى نظر المسلمين :

حلت الهزيمة فى حزب الكفرة لان الله تعالى «عكس آماله «صاحب اسبانيا» ونكس احواله ولم يظفر من أهل الجزائر الا بهذا الهلاك الذى يشاهده» ولان الله سبحانه وتعالى «أرسل عليهم (النصارى) ريحا عاصفا . . . وهيا لاهل الجزائر النصر» (88) ولانه نصرهم على أعدائه» (89) .

---

86) P. AGUADO-BLEYE : Manuel de Historia de Espana, t. II, pp. 454-455.

87) انظر دى قرامون ـ تعليق على كتاب فيلبجريون DE GRAMMONT : Relation de l'expédition de Charles Quint contre Alger - pp. 84-85.

88) الزهرة النيرة ص 18

89) مخطوط المحكمة

ثم ان هناك سببا آخر وهو عناد الامبراطــور المغرور . قال صاحب مخطوط المحكمة « ونـزل الجنرال اندرية منها حزين (!) فوصل الى الطاغية في محلته وأعطاه حق المبايعة وقال له أيها الملك الم أحذرك عن السفر الى الجزائر فانظر عاقبـة الامر الذى كنت حذرتك منه الآن قم اطلب النجاة لنفسك . . » .

واخيرا أبرز المؤرخون المسلمون جانبا ثانيا لانتصار الجزائريين على عدوهم هو الجهاد في سبيل الله ذلك الجهاد الذى يظهر في شجاعة حسن آغا وفي خطابه للناس والذى يظهر في صمود المسلمين واتحادهم أمام أعداء الاسلام – والذى يجعل الفئة القليلة تغلب الفئة الكثـيرة – .

نتـائج هـذه الغـارة

كانت لحملة 1541 نتائج عديدة وأصداء بعيدة لفتت أنظار المؤرخين المسلمين والإفرنج (90) .

1 – فاما الخسائر المادية فكانت جسيمة ، فقد وقع عدد كبير من الاسرى في يد المسلمين كما حصل حؤلاء على المآت من الخيل وكمية من ذخائر الحرب والاشياء النفيسة (91) ويعترف دي قرامون « بأن الخسائر كانت فادحة : 16 غليوطة كبيرة و 140 جفنا ومدفعية ثقيلة وآلات الحصار والزاد والخيام الخ . . حتى أصبح ما غنمه المسلمون يضـرب به المثل » .

وان كورتيس (F. CORTES) فاتح المكسيك – شاهد النفائس التى أتى بها من هنالك – يبتلعها البحر . وان صهر الامبراطور فقد أكثر من مائـة الف دوكة (93) .

واما المراكب فان جلها قد عطب على الســواحل وكان عدد ما غرق من الاجفان المعدة للحرب ولحمل الزاد مائة وثلاثون (94) وترك العدو عددا مــن الاغربة والاجفان الرقاق والاجفان العظام والعشريات والفرقطات (95) . «وما وصل اللعين الى بلاده الا باثنى عشرغرابا وكان عدد السفن عند قدومـه سبعمائة وخمسين جفنا والعسكر سبعين الفا» (96)

وذكر بوراس النصرى نفس الاعداد فى كتابـه عجائب الاسفـــار .

الا ان بعض الغربيين استصغروا هاته الخسائر وقللوا من شانها وذكروا ان الاسبان لم يفقـدوا أكثر من 14 غليوطة و 100 مركب صغير (97) .

وأرسل دون النزو دى قرطبة (DON ALONZO DE

---

90) انظر : GOMARA : Cronica de los Barbarojas. VILLEGAIGNON : Relation de l'expédition de Charles Quint.

91) هيدو – المجلة الافريقية سنة 1880 ص 230

92) دى قرامون : تعليق على كتاب VILLEGAIGNON ص 101 – 102

93) شارييع Charrière : Négociation de la France dans le Levant, t. I, p. 522.

94) غزوات ص 121 – 122

95) مخطوط المحكمة

96) الزهرة النيرة ص 16

97) انظر : P. AGUADO-BLEYE : Historia de Espana, pp. 454-455.

CORDOBAI كتابا بتاريخ 25 ديسمبر 1541 الى أبيه والى وهران آنذاك ـ وقد كان هذا فى اجـــازة باسبانيا ـ يخبره ان «الانباء الوثيقة الواردة من مدينة الجزائر تفيد ان الاتراك عوموا أربعة أجفان صحيحة وجفنا معطوبا قليلا . كما أخرجوا مـن الماء ستين مدفعا أربعة ذات المعيار الصغـــير والباقية ذات المعيار الكبير (98) . واختلف فى عدد القتلى . فسكتت مصادر الافرنج عن هاته النقطة أو قدمت أعدادا تافهة (99) واشتطت المصـــادر الاسلامية حتى ذكرت بعضها «ان عدة القتـــلى بسيوف المسلمين ـ فى هذا اليوم ـ اثنا عشر ألفا . . ويقال ان فرائس الكفرة وفرائس خيلهم ملأت ما بين الجزائر والدلس شرقا وشرشـــال

غربا » (100) .

وجاء الغزاة بأربعة آلاف من الخيل فلم يعودوا الى بلادهم بفرس واحد «فقد مات بعضها برمـــاح المسلمين والبعض أكله النصارى وقتلوا بعضهـا بأيديهم لضيق سفنهم » (101)

واستولى الجزائريون على مال لا يحصى وعـــلى كثير «من الرجال والنساء والصبيان التى أتى بها وعدتهم الفان » (102) كما غنموا ما بين مائة ومائتين من المدافع وحملوها وزينوا بها الحصون الحربية وسائر أسوار المدينة .

2 ـ وكانت النتائج السياسية فى الجـــزائر وخارجها لا تقل عن الاولى من حيث الاهمية فقـــد عظم شأن حسن آغا فوجه السلطان «بخلعة سنية وأمر كريم يتضمن نيابته بالجزائر من قبـــل السلطان وانه من جملة وزرائه» (103)

وانتصرت الجـــزائر للمرة الثـالثـة «وبقيت كالعروس تختال فى حليها وحللها من رخـــاء الاسعار وأمان الاقطار» وأصبحت من بين الـدول التى لها سمعة ومنزلة .

واتسعت رقعة نفوذ الاتراك داخل البلاد . فكان أبو محمد الزيانى صاحب تلمسان يميل للاتـراك حينا وللاسبان أحيانا لاسيما بعد 1535 عند مـا استولى هؤلاء على تونس . فانتصار الجزائر أجبره على اعادة النظر فى سياسته (104) فبايع أتـــراك العاصمة ولم تمض الا مدة قصيرة حتى زالت دولة بنى زيان ـ 1551 ـ ودخلت تلمسان تحت نفـوذ الجزائر .

98) المجلة الافريقية ـ سبتمبر 1865

99) يقول دى قرامون فى تعليقه على كتاب (VILLEGAIGNON) ص 103 : ان خسائر الاسبانيين كانت ضئيلة جدا ـ الا انه فى صفحة 105 يقول : بلغ عدد الضحايا النصارى ما بين 15،000 و 18،000

100) غزوات ص 121

101) غزوات ص 121 ـ ودى قرامون : تعليق ص 103

102) مخطوط المحكمة

103) غزوات ص 121 ـ 122

104) هيدو (HAEDO) ـ المجلة الافريقية 1880 ص 272

ثم التفت حسن آغا الى الجهات الشرقية ، وهب لاخضاع ابن القاضي صاحب «كوكو» الذى طالما عارض الاتراك وتحداهم وقيل انه عامل الاسبان ومد لهم يد المساعدة .

فنهض حسن آغا فى الربيع من سنة 1542 وتوغل فى بلاد القبائل على رأس 6000 رجل مستخدما 12 مدفعا ، فخضع صاحب كوكو والتزم بدفع غرامة سنوية وقدم ابنه احمد رهينة فى يد حسن آغا (105) .

وشاعت أخبار ما وقع لشارل الخامس واخترقت الآفاق واهتزت لها النفوس فى «مشارق الارض ومغاربها» لانها كانت أعظم كارثة سياسية عرفها الامبراطور . فأصبحت انتصارات الاتراك تتعدد فى المغرب بعد 1541 ، فانسحب الاسبان قهرا من طرابلس ـ 1552 ومرسى افريقية بتونس 1553 ومن بجاية ـ 1555 ـ وحوصروا فى وهران مرارا بعد ـ 1556 ـ وأخرجوا من تونس ـ 1570 ـ نهائيا

وفشل مخطط الاسبان الرامى الى احتلال سواحل هذا المغرب بصفة عامة واحتلال مدينة الجزائر بصفة خاصة (106) والرامى كذلك الى خنق فرنسا اذا ما صار الحوض الغربى من البحر الابيض اسبانيا تماما . وقد كاد الحوض هذا يكون لشارل الخامس وحده بعد ما أصبحت موانى ايطاليا واسبانيا ومالطة وسردانية ومناء وهران والمرسى الكبير ومليلة فى يـده .

ونزلت أنباء الهزيمة نزول الصاعقة على أوروبا ـ وتطورت الاحداث هنالك بسرعة .

فلم يبق حليف للامبراطور سوى هنرى الثالث ملك انكليترا ، وانظم الى ملك فرنسا الدوق دى كلاف (LE DUC DU CLEVES) وملك الدانمارك وملك اسكاندنافيا .

وكان فرح الفرنسيين يكاد يساوى فرح الجزائريين لان سقوط الجزائر كان يؤدى ـ لا محالة ـ الى سقوط فرنسا . وبادر ملكها فرنسوا الاول لابرام معاهدات مع السلطان العثمانى (107) .

3 ـ وكانت لهاته الغارة أيضا نتائج معنوية داخل القطر وخارجه .

ففى الجزائر أقيمت الافراح وتواصلت الاحتفالات بمناسبة هذا النصر المبين الذى كتبه الله للمرة الثالثة فى ظرف ثلاثين سنة .

وكان أكثر الناس اغتباطا وفرحا هم يهود العاصمة لما كانوا يضمرونه من حقد وعداوة للاسبان الذين أذاقوهم كل أنواع العذاب والاضطهاد يوم كانوا بأوروبا ، وقد وجد اليهود هنا من أمن واستقرار ونشاط ما جعلهم يخشون انتصار الاسبان على الجزائر .

105) هيدو (HAEDO) ص 230

106) انظر : P. MASSON : Histoire des établissements du commerce français dans l'Afrique barbaresque (1560-1793).

107) راجع : P. AGUADO-BLEYE : Manuel de Historie de Espana, t. II, pp. 454-455.

وبمجرد انسحاب شارل الخامس اطمأنت قلوبهم وصاروا يصومون اليوم الثالث من شهر ششوان ويحتفلون – في الرابع منه – بيورم الاول – (108) وكانوا ينشدون القصائد من نظم رباني العاصمة مثل مشيش وابراهيم بن يعقوب تواه ، وابراهيم ابن سليمان صرفتي . وهي قصائد في مدح الجزائريين وفي تمجيد كفاحهم وبطولتهم وفي هزيمة الاعداء كلما تجاسروا على غزو العاصمة .

وبقي اليهود – الى القرن التاسع عشر يحتفلون كل عام بذكرى 1541 (109) . وفي الخارج « بقي رعب المسلمين في قلوب أهل أروبا مدة طويلة ».

ولم يفكر شارل الخامس قط في حملة أخرى على الجزائر ، وطغى شبح خير الدين وحسن آغا على العامة والخاصة حتى أصبح النـــاس اذا رأوا جفنا عن بعد نسبوه الى خير الدين فيتصـــاعد الصراخ ويكثر العويل ويفر السكان من ديارهـــم ومن حقولهم ومتاجرهم .

واذا حطمت الزوابع مركبا توهم الناس أن خير الدين بربروشة هو الذي أثار البحر وهيجـــه وأغراه على اغراق سفنهم . وبلغ الخوف من قـادة الجزائر أقصى درجة حتى أصبح أهل اسبانيـــا وايطاليا اذا ما حدثت جريمة أو سرقة أو وقـــع فساد أو تخريب أو مرض أو وباء أو قحط قالـوا خير الدين وأصحابه هم السبب في ذلك !

وكانوا في عويلهم يرتلون :

بربوشة بربوشة ، انت صاحب كل شر ، ماكان الم أو عمل مؤذ وجهنمي ، الا والسبب فيه هذا القرصـــان الذي لا نظير له في العالم ! (110)

وساهمت حوادث 1541 في نسج اساطـــير انتشرت في العامة بسرعة فنسب البعض هزيمة المغيرين الى كرامة ولي دادا (111) وزعموا انه لما دهش السكان الاهالي وخافوا – أول الامر – من تقدم الطاغية وفكر الكثير في الفرار أو الاستسلام قام هذا الشيخ المتصوف وأخذ يجول في شوارع المدينة يشجع الناس على الثبات والصمود ثم نزل الى المرسى ودخل في البحر حتى الصدر وضرب بعصاه فقامت الزوبعة المشهورة وحطمت الاسطول الاسباني .

ورأى آخرون أن الدور الرئيسي كان لسيـــدي بو القدور (112) ، فقيل انه كان قد نزل الى المرسى

---

108) انظر :
E. EISENBETH : Les Juifs en Algérie et en Tunie à l'époque turque (1516-1830). Revue Africaine 1952 - ou tiré à part, p. 170.

109) مرسيى E. MERCIER : Histoire de l'Afrique septentrionale, t. III, p. 55 et suivt.

110) بريـــار A.P. PRIEUR : Les Barberousses... p. 194.

111) ولي دادا : من اصل تركي – وهو متصوف توفي سنة 961 هـ – 1554 م ودفن – اول الامر بمسجد يعرف في الماضي بمسجد ولي دادا كان بنهج الديوان وفي ايام الاحتلال الفرنسي نقلت رفاتـه الى جوار سيدي عبد الرحمن الثعالبي – سنة 1864 لانهم احتاجوا الى المسجد وضموه الى بناء – دير الرحبة –
انظر : DEVOULX : Les édifices religieux de l'ancien Alger - 1870.

112) كان له مسجد بنهج كليبير سابقا

فهاجت الامواج وتلاطمت وكان اذ ذاك بالمرسى مركب مشحون بقدور من طين فأخذ يكسر الواحد بعد الاخرى وكلما تكسرت قدر تحطم مركب من مراكب الغزاة النصارى (113)

وزعمت جماعة ثالثة ان الفضل فى انقاذ الجزائر يرجع الى سيدى بو التقى (114)

فكان هذا الولى يعيش فى خلوة وعزلة بين صلاة وصوم ، وعند ما هاجم الاسبان الجزائر أمر سيدى بو التقى البحر بالهيجان حتى كان ما كان . .

ويذهب هيدو (HAEDO) الى أبعد من ذلك وينقل رواية من يقول ان سيدى بو التقى كان قد توفى قبل الغارة بسنوات ، فعند قدوم النصارى سنة 1541 نهض الولى من قبره فأقام الصلاة وتضرع الى الله سبحانه فكان الولى مسموع الدعاء وقضى الامر (115) . . .

113) انظر ديفولكس (DEVOULX) المرجع المذكور ص 240

114) كان مسجد ابى التقى يوجد فى الزاوية بين نهج قسنطينة والساحة قرب باب عزون ، وعند ما دخل الفرنسيون البلاد احتله رجال الهندسة العسكرية

115) المجلة الافريقية ـ سنة 1871

الجامع الكبير بمدينة الجزائر

معماريًا وتاريخيا

عبد الرحمن الجيلالى

ان من روائع الفن الاسلامى الذى خلفته لنا الاجيال المسلمة السالفة وتركته للاعقاب كنموذج مشرق ناطق بتقدم الحضارة الاسلامية فى سالف عصورها الزاهرة وكدليل ساطع دال عل انتشار المدنية الاسلامية فى الاقطار والامصار شرقا وغربا هذه المساجد الجامعة العظيمة متفرقة ومجتمعة عل وجه المعمور هنا وهناك كنجوم السما. تلمع انوارها وتشع اضواؤها حتى لا يضل ركب الانسانية الزاحف نحو الرقى الروحى والتقدم الحيوى ، فمنها اشرق نور الايمان ، وتجل العلم بجلاله لطالبه من غير احتكار ولا تضييق ولا تقتير ، وعليها وقد افرغت فى قالب الجمال يظهر رونق الفن وبديع الصنعة .

ولا غرو فان المسجد هو مهد الاسلام ورابطة الوحدة الاسلامية بين سائر الشعوب ومثوى العلماء ومنطلق الجنود الفاتحين والمركز الاساسي الاصيل الذي اتخذه المسلمون دار ندوتهم وشوراهم يتبادلون فيه الراى لحل مشاكلهم والنظر فى مصالحهم ، ومنه تخرج على يد رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم خلفاؤه الراشدون وجم غفير من ابطال الاسلام وفطاحل العلماء وكبار الساسة والقادة ، وفى رحابه يجتمع سائر المسلمين مرات فى اليوم لتوثيق روابط الالفة والمحبة بينهم يرفرف عليهم علم الحرية والاخاء والمساواة .

ولقد كانت الجزائر ولاسيما منها العاصمة من المراكز الاسلامية التى كتب لها فضل السبق فى ميدان تشييد هذه المراكز الاسلامية والثكنات الحصينة ، فالتاريخ يشهد لنا بانه كان يوجد بهذه العاصمة قبل استيلاء الاجنبى عليها ما يزيد على نيف وعشرين ومائة معهد اسلامى ، اى ما بين مسجد جامع ومصلى للصلوات الخمس وزاوية للدراسة والصلاة ، ومدرسة للتعليم الثانوى او العالى ، وكتاب للصبيان ، وقبة لضريح ، ومنهم من زاد على هذا العدد فبلغ 166 مؤسسة اسلامية وهى عنده على هذا التفصيل :

109 مساجد للصلوات الخمس
13 مسجدا جامعا
32 ضريحا
12 زاوية .

وفى طليعتها هذا المسجد الاعظم ـ الجامع الكبير ـ الذى كان ولايزال قائما ماثلا امامنا كالطود الشامخ يحمل مشعل المجد وآية الخلد كانه علم فى راسه نار .

هذا الجامع هو أحد المساجد الاثرية الثلاثة التى تنتمى فى تاريخها الى أزهى وأعز عصور الاسلام الذهبية الزاهرة فخورة بانتسابها الى دولة هى من كبريات دول المغرب العربى المسلم وأسعدها ؛ وتلك المساجد الثلاث هى ما بالجزائر وتلمسان وندرومة ، أما تلك الدولة فهى دولة المرابطين الفخمة التى نشأت عندنا فى القرن الخامس الهجرى ـ II م ونشرت أعلامها على معظم هذا الشمال الافريقى وعلى أرض الاندلس أيضا .

امتدت مملكتها من أرض السينيغال جنوبا الى نهر ايبريا ـ أو الايبر ـ شمالا ، ومن البحر الاطلانطى غربا الى اقليم بجاية من أرض الجزائر شرقا ، وكانت العاصمة هى ما أسسته يد هذه الدولة بنفسها من تلك المدينة الجميلة مراكش .

اشتهر ملوك هذه الدولة ـ أمراء المسلمين ـ بالاستقامة والعدل والاخذ بيد العلماء ، ولم يجر فى تراب مملكتهم رسم مكس ولا معونة ولا خراج لا فى بادية ولا فى حاضرة ، وكانت أيامهم كما حدثتنا مصادر التاريخ أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن فأحبهم الناس .

ولاسيما ذلك أيام عاهلهم الاكبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذائع الصيت فقد أجمع المؤرخون على فضله وشجاعته وتقواه ، حتى انهم قالوا : لم يكن فى عصره نفاق ولا ظلم وكانت المرأة فى زمنه

تسير وحدها حاملة الذهب فتجول اقطار افريقية والمغرب لا تجد من يعترض سبيلها أو من يمسها بســـوء .

ومن اظهر خصائص هذا العاهل الكبير انه ما خاض قط حربا من حروبه ضد خصومه الا وخرج منهـــا منتصرا ظاهرا ، حتى انه لم يعرف له فى ذلك نظير فى تاريخ المغرب . ويكفيك منه انتصاره فى تلـك الحرب الضروس التى عرفت بموقعة الزلاقة الشهيرة التى وقعت بأرض الاندلس (479/1086 م) . وناهيك به فضلا وشرفا ان حجة الاسلام الامام أبا حامـــد الغزالى رحمه الله لما بلغته أخبار هذا الامير أزمــع على الرحيل من المشرق ليغتنم صحبة هذ العاهل بالمغرب وفعلا شد عزمه وربط رحله واخذ فى السير من مقره حتى بلغ مدينة الاسكندرية وشـــرع فى التجهز استعدادا للانتقال نهائيا الى أرض المغرب ، فلم يرعه الا وخبر نعيه يعم الآفاق وكان ذلك سنة (500 هـ/1107 م) فعدل الامام عن الرحلة .

فالى هذا العاهل الكبير – يوسف بن تاشفـين – يرجع الفضل فى تشييد هذه المؤسسة الكبـرى فى الاسلام : الجامع الكبير بالجزائر ، بناه كما يقول الزيانى يوسف بن تاشفين أعوام الستين واربعمائة للهجرة الموافقة لاواسط القرن الحادى عشـــر الميلادى . اى ان لهذا المسجد منذ انشائـــه الى اليوم ما يناهز الالف سنة . كما نجد خبره ايضـا فى مؤلفات القرن الخامس الهجرى مثل كتـــاب المسالك الذى صنفه صاحبه – البكرى – سنـــة 460 هـ/1068 م فتراه يقول عن مدينة الجزائر : ولها أسواق ومسجد جامع . . .



عبد الرحمن الجيلالى يدرس المزولة الموجودة بأعلى منارة الجامع الاعظم

فالمساجد الثلاث التى أشرنا اليها هى التى تجدها اليوم وحدها حافظت لنا على نموذج فى المعمــــار المرابطى فى تاريخ العمارة الاسلامية بهذه الديار ، فتراها متشابهة فى شكلها وطرازها ولا تختلف عن بعضها الا من حيث السعة والمساحة فقط ، فاكبرها جامع تلمسان ويليه جامع الجزائر ، ثم جامــــع ندرومة . ورغم التغيير والزيادة التى زادها الموحدون وأحدثوها فى جامع ندرومة فتراه أقرب شبهـــا بجامع الجزائر .

وللجزائر اليوم أن تفتخر على سواها من البـلاد الاسلامية ولاسيما المغرب بكونها امتازت عنهـــا بالحفاظ على هذه المجموعة الاثرية الثمينة الفريدة التى وصلتنا على هياتها الاصلية . والتى لم يبـــق لهذه الدولة فى غير أرض الجزائر اثر معتبر هـــام يمكن علماء الآثار من تصحيح دراساتهم المعماريـــة

واستكمال معلوماتهم وبحوثهم الاثرية مستوفـــاة، كاملة الا "هذه المعالم الثلاثة التى لا توجد الا فى أرض الجـــزائر . اللهم الا اذا استثنينا الجـــزء الشمالى الذى يشمل المحراب من جامع القرويـين بمدينة فاس فانه تم على عهد الامير على بن يوسف ابن تاشفين سنة 531 هـ/1137 م ولكنه اثر ضئيل

ويكفينا فى الاستدلال على رقى فى الانشاء والتعمير بالجزائر فى ذلك العصر الغابر وجود مثل مسجـد الجزائر هذا القائم فى غاية الاحكام والتمكين وقد أشرف على الف سنة ، وهو لايزال على حاله غضـا طريا كان يد الصانع لم تفرغ من تشييده الا منـذ السـاعة ! . .

نعم ان المتأمل وعين الناقد البصير اذا رأى بها هذه المساجد تخضع بصفة عامة الى النمط المرابطى قال بأنها ليس عليها من الرشاقة والاناقة حـظ عظيم ؛ فتقول بلى ! ان لذلك سببا وهذا السبب يعود الى الحالة الاولى التى كان عليها أمراء هــذه الدولة من الميل الى البساطة فى حياتهم العامـة والاعراض عن زخرف الحياة الدنيا وعدم التكلف . ثم انه أيضا لم يكن لهذه الدولة فى أول أمرها اتصال مباشر بفنون الشرق ولا لها اطلاع على الهندسـة المعمـارية فيما قـام به الامويـون بالانـدلس ، أو العباسيون بالمشرق . فاتسمت لذلك آثارها بفـن جديد وطابع خاص يمتاز على غيره بالضخامة والفخامة ثم لما اتصلوا بالاندلس واطلعوا على آثار الحضارة الشرقية التى تركها هنالك الامويون أخــذ فـن المرابطين يتطور متأثرا بمظهر ما عليه جامع قرطبة مثلا ، فكان ما نشاهده اليوم من زخرفة محــراب جامع تلمسان وقبته العجيبة وبعض تيجان أعمدتـه الحاملة لعقوده وأقواسه الفلوقـة .

ولقد كان لاستحالة الحصول على أعمدة كبـيرة لتشييد مآثر هذه الدولة بحسب ما يتجلى لنـا من مساجدها اختير لذلك دعائم مبنية بالحجارة قاعدتها مطولة أو مصلبة تعلوها أقواس تشبه حدوة الفرس دون أن تربطها أوتار . تحمل سقفا مسنمة . وهذا هو السبب فيما نشاهده من أثر الضخامة التى تقوم عليها عمارة المرابطين فى مساجدهم .

والجامع الكبير هذا هو فى جملته وتفصيله مربع الشكل . يمتد من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ومن الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ، وقبلته بالجنوب الشرقى . وهو قائم على شاطىء متصـــل بالبحر . ولقد أدركت جدتى لأم رحمها الله وقـد عمرت طويلا تقص علينا حياتها فى صباها حينمـا كانت تصحب جدها الشيخ مصطفى القــاديــرى مفتى المالكية بالجزائر فيذهب بها الى مقصورتـه بالجامع المذكور . قالت بأنها كانت تشرف بنفسها من نافذة هناك واقعة على البحر ، ولدينا صـــور أخذت لهذا المسجد سنة 1246 هـ/1830 م تصحـح لنا ذلك .

ويحد هذا المسجد اليوم شمالا النهج المسمى بنهج البحرية ، وجنوبا الشارع المدربز المشـرف على المرسى ، وغربا الطريق المتصل بالغرفـــة التجارية . وشرقا الطريق الواصل ما بين نهـج البحرية والشارع الموازى لقبلة المسجد ؛ وهـو يشتمل على أحد بلاطا ـ صفا ـ معاكسا للقبلة ، باضافة الخمس رواقات التى تحيط به من غـالب

جهاته . ما عدا الجهة الشمالية الشرقية ؛ ومساحته تستغرق نحو الالفى ميترا مربعا . وطوله يـزيـد قليلا على عرضه . أو عمقه بثمان ميترات . فالطول هو عبارة عن 48 ميترا . أما العرض فهو لا يـزيد عن 40 ميترا . واذا قسنا الناحية الشمـــــالية الغربية منه وجدنا بها 40 ميترا ، ومثلها كــذلك كل من جهتيه الشرقية الشمالية وما يقابلها مـن الناحية الغربية الجنوبية .

وقد كان متصلا بجداره الجنوبي الغربي بحديقة فسيحة تسمى بالجنينة . كما انه كان بشمالــه الشرقي مصلى للجنائز وهو منتقض اليوم . وساحة أخرى كانت تستعمل كواجهة حربية للدفاع عـن العاصمة وضع بها أربعة مدافع من أكبر عيار كان يستعمل يومئذ فى السلاح التركى . ثم أزيلت هذه المدافع من هناك بعد الحملة الانكليزية التى قادها اللورد ايكسموث ضد الجـزائر سنـــة 1231 هـ 1816 م ، وفى بقية اجزاء هذه الساحة أقيم مـــا نشاهده اليوم خارج جدار المسجد الغربي الشمالى من المقاصر . ومنها مقصورة المفتى . اما ما كان استعمل من تلك المقاصير كمحكمة شرعيـــة للمالكية فانما هو من زيادات سنة 1266 هـ/1850م (ربيع الاول – فيفريى) وأول قاض جلس بهــذه المحكمة للقضاء هو الشيخ حميدة العمـــالى المتوفى سنة 1220 هـ)1873 م ويوم أن بنيت هذه المحكمة



الجامع الكبير بالجزائر – الحرم الداخلى

نظم الشعراء في مدحها أبياتا ومنها هذه الابيات للشيخ محمد بن عبد الرحمن الامين المتوفى سنة 07 : هـ / 1889 ـ 90 م قال :

احسن بمحكمة قد راق منظرها
ابدت محاسنها شكرا لباريها
يحق حسن الثنا للآمرين بها
مع الذين سعوا كذاك بانيها
للحكم قد نصبت اركانها رفعت
لشرعة المصطفى الله يبقيها
لا تعجبن اما يكفيك نسبتها
لمالك شيدت له نواحيها
وحالها نطقت في العين مفصحة
بالبشر ضاحكة تزهو لرائيها
يا قاصدا ربعها لا تخش ضيعة
الله للحق يهدى كل من فيها

★ ★

ودعائم المسجد تقوم على الحجارة والآجر المملوء تغطيه طبقة من الجبس والجير ، ويبلغ عدد الدعائم 72 سارية كلها قائمة الزوايا ، وفيها المصلبة ، تبعد كل واحدة عن اختها بما قدره 3،40 م وهي مثل دعائم جامع تلمسان الكبير تحمل عقودا ـ أو قل اقواسا ـ اربعة متداخلة ومتقابلة اثنان منها مكسرة الاقواس في شكل حدوة الفرس المدببة واثنان مسننة متعددة الفصوص بحيث تبلغ فصوصها الى اثني عشر فصا ، وأول من استعمل هذا النمط من الاقواس المفصصة المفلوقة بالمغرب هم المرابطون كما هو الحال بجامع تلمسان الذى يرجع تاريخه الى عصرهم .

ويدخل تحت هذه العقود أحد عشر بلاطا مديدا يمتد من الشمال الى الجنوب في اتجاه معاكس لجدار القبلة كما هو عليه حال جامع قرطبة والقيروان وتلمسان ، ويخالفها في ذلك جامع القرويين بفاس، فان بلاطاته تمتد موازية لجدار القبلة ، وهذه ميزة خاصة يمتاز بها ما بين سائر المساجد الاثرية الموجودة بهذا الشمال الافريقي ، ثم اننا اذا قسنا عرض ما بين سوارى البلاط الاوسط من الجامع الكبير هذا وجدناه يزيد على بقية البلاطات الاخرى بـ 1،60 كما هو الشان في مديد الصف الاول منه ومثله جامع تلمسان .

ويذكر اهل الجغرافية والتاريخ من متقدمى علماء العرب وتبعهم في ذلك المتاخرون من الافرنج ان بعض الاجزاء الشمالية من جدار المسجد الشمالى الغربى هي من بقايا اطلال هيكل او معبد كان قائما هناك للرومان مستدلين على ذلك بما يوجد بهذا الجدار من الخارج من تلك القطعة الحجرية المنقوشة بحروف لاتينية RVFVSAGLIS تؤدى هذا اللفظ « روفوس أجيلوس » ولا تزال هذه القطعة موجودة ظاهرة جلية متماسكة ملتحمة باجزاء الحائط من الخارج ؛ يقول البكرى في مسالكه : «وكانت بمدينة بنى مزغنة ـ يعني الجزائر ـ كنيسة عظيمة بقى منها جدار مدير من الشرق الى الغرب وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص كثير النقوش .

ويذكر المؤرخ الفرنسي (كلان) انهم ظفروا بأجزاء من الحجارة وقطع من الصوان هي بقايا متممة لنقش ما جاء في حجر المسجد ، وجدت هذه الاجزاء بناحية جامع كتشاوة من العاصمة بالقرب من قصر

أحمد داى . ومضمونها ينص على أنه كان بهـــذا المكان معبد او هيكل شيده المسمى « لوسيـوس ابن اجيلوس » من ماله الخاص الذى تحصل عليـه مما ناله من التشريفات البلدية من وطنه ، وجعلـه وقفـــا .

ونعود الى المسجد فنقول : ان هذا الطراز الذى نشاهد عليه المسجد اليوم هو مرتكز على فـــن المعمار الاموى بالاندلس أو نقول هو فى هندستـه وتخطيطه هذا يرجع الى الطابع الاسبانى المغـربى كما تظهر عليه مسحة من جامع قرطبة فسماؤه مغطاة بسقف ـهى على عدد بلاطاته مـكونة من الخشب الرفيع ومغطاة بقرميد مسنم ذى أربع منحـــدرات وشكلها مثلث . ما عدا فناء المسجد وهو مربـــع وتبلغ مساحته نحو 200 ميترا فهو مكشوف غـير مغطى يشبه فى وضعيته جامع القيروان بصفـــة مصغـــرة .

ولقد حصل هذا التشابه بين هذه المســـاجد المذكورة بسبب التمازج الذى وقع بين سكان المغرب والاندلس حينما اتحدت هذه الاقطار سياسيا وأدبيا واجتماعيا على عهد تينك الدولتين العظيمتين دولـة المرابطـين ودولة الموحديـن فى القـرن الخـامس والسادس على هذا الوطن .

ثم ان ما نرى عليه واجهة المحراب اليوم ما عدا الاسطوانتين القائمتين الى جانبى المحراب من الرخام الملولب فان كل ما نراه من الزليج الزائف وهـذه الطوابع المزخرفة من الجبس الفارغ كل ذلك حدث أخيرا واقحم فى هذه العمارة اقحاما من غير ما دعت الحاجة اليه بالمرة ، فانطمست علينا بذلك أهـم معالم المحراب التاريخية وزال عنه جلاله وبهـاؤه وخسر بذلك المسجد فى نفسه جزءا عظيماً مـــن تاريخه . كما خسر بذلـك فـن المعمـار الاسلامى خسارة علمية فنية ضخمة ! . . وان كان الذين فعلوا ذلك يرونه ـ فى نظرهم ـ حسناً فنحن لا نرى ذلك حسنا . وما هو فى الحقيقة والواقع بحسن . ولا هو فى نظر ورأى علماء التاريخ والآثار بالشىء المستحسن وحتى فيما ذهب اليه علماء الشريعة من فقهاء المالكية فانه عندهم عمل غير مرضى ، ولا ينبغى أن ننسى وان الجامع بنى على عهد دولة كانت تحترم مذهبهـــا المالكى وعليه تجرى جميع أعمالها . ولاسيما وان هذه الناحية من المسجد لم تكن فى حاجة الى اصلاح أو ترميم أو تحوير أو تغيير أو تبديل .

ولعمرك انه منذ وقع بهذا المحراب هذا التحوير وهو الى حد الآن لايزال رافعا عقيرته يصرخ قائلا بلسان حاله : يا قوم ما هذا الظلم ! . . انكم ظلمتمونى حيث البستمـونى لباسا يتنـافى وجلال وضعيـتى الاثرية التاريخية . فكيف يكون شانى أمام رواد العلم وطلاب المعرفة وعلماء التاريخ ؟ . . فكيف يتهيأ لى الوقوف منسجما الى جنب هذا المسجد العتيـق الموقر حينما يقف أمامى مستنطقو الآثار والاحجار الباحثون عن تراث الحضارة الاسلامية عبر التاريخ؟ وكيف يتسنى لى الاشهاد لأزكى دعوى هذا المسجد فى بلوغه سن مشارفة الالف سنة وأنا فى هـذا المظهر المزرى بقيمتى ومنزلتى التاريخية ـ مظهر الزازو ! . . ـ وكيف حتى استطيع ان اتصدر هذا المسجد الجامع الدهرى ؟ أليس فى ذلك لى ولـكم فضيحة وسخافة ؟ ! أليس فى هذا الصنيع تلبيـس

للحقائق وتدليس وتشويه ؟ . . والحالة انني لم أكن من قبل عاريا حتى تكسوني ، ولا جائعـــا فتطعمـــوني ! . .

فان قيل ان لهذا المحراب تاريخا متأخرا ومتأخرا جدا عن تاريخ تشييد المسجد ، وانه هو وما حوله أو فوقه من القبة المثمنة الاضلاع يرجع تاريخـه الى العهد التركي ؟ قلنا نعم ذلك صحيح غير ان هذا العهد الذى عبرتم عنه بالمتأخر له من الزمن قرابة ثلاثة قرون ، وهذا يكفى فى اصطلاح علماء الآثـار لان تشمله قوانين الآثار وتنطبق عليه شرائعهـا ، اذ من المتفق عليه فى القانون الدولى للآثار أن كل ما صنعته أو صورته أو شيدته أو أوجدته يـد الانسان قبل مائتى سنة يعد أثرا تاريخيا يجـب احترامه والحفاظ عليه . بل هناك من الدول من اعتبر أن كل ما سبق القرن الثامن عشر هو مما يطلـق اسم الاثر التاريخى وتجرى عليه أحكام الآثـار وقوانينها المتفق عليها دوليا ، وبما أن ترميـم هذا المحراب وقع فى أواخر القرن السابع عشر ، ونحن اليوم فى أواخر القرن العشرين فهو قطعـا أثر تاريخى ولا ريب .

ولترميمه قصة تاريخية هى فى نفسها مفيـدة تهم المؤرخ الجزائرى بالخصوص ، وذلك لمـا نراها باسقة فوق مثلث غير حقيقى ، وهى فىنفسها هذه المدينة وكان يقودها (دوكيزن) فأرست تجـاه العاصمة ورمتها بقنابلها فسقط منها على عدة قنابل تسببت فى انهيار جدار القبلة بما حواه من المحراب وما اتصل به ، وحينئذ نقلت مكتبة الجامع الثريـة فحولت الى قلعة سلطان سى او قلعة سى المعروفة ببرج مولاى حسن ، وكان لوفرة عدد الكتب استغرق نقلها على الدواب مدة ثلاثة أيام بكمالها ، ومـن المؤسف أن أكثر هذه النفائس من الكتب قد ضاع ولم يبق منها يوم نزول الفرنسيين بالجزائر سنة 1246 هـ / 1830 م سوى نحو الخمسمائة مجلـد ، واما اليوم فلا تسال . فان هذه الاسفـار أصبحت أصفارا موصوفة عن الشمال ! .. ويومئذ تحتم وجوب القيام باصلاح المحراب وترميم المسجد وهذا أمـر ضرورى وطبيعى . واستمرت وضعية الجامع على هذا الشكل طيلة ثلاثة قرون مضت لم يتغير فيه شىء ـ والحمد لله ـ الى هذه المدة المتأخرة فجـاء من حاول طمس معالمه بهذه القشور من طوابـع الجبس المزيفة والزليج المتانفر الحديث الصنـع فانمحى عنه المحراب رونقه واضمحلت بذلك قيمته الاثرية وتجافى عنه جلال التاريخ وهيبته ، وأصبح يحاكى ما استحدث من محاريب المساجد العصرية ، فأين المحافظة على التراث ياحماة الحى ؟ . . فان عملا كهذا ليعد طمسا للتاريخ وتلاعبا بالآثـار فواأسفـاه ! . .

واذا التفتنا الى زاوية المسجد الشمالية وجدنـا بها أمامنا بناية قائمة عظيمة تلك هى مئذنة المسجد. نراها باسقة فوق مثلث غير حقيقى ، وهى فى نفسها مربعة الشكل حسب الطراز الذىجـرى عليـه المهندسون من مشيدى المساجد بالمغرب والاندلس ويقرر علماء الآثار ان هذا الشكل من الطراز المربع الذى تقوم عليه المآذن بالمغرب انما هو مستعـار عن الابراج الاربعة التى كانت قائمة فى معبد دمشق قبل أن يبنى المسجد الاموى بداخله ، ولم يبق من هذه الابراج الآن الا واحد فى الزاوية الجنوبيـة

الغربية وهو مستعمل للاذان .

هذا ولم يكن بمساجد المغرب العربى الكبير طيلة عبر القرون الاولى من الهجرة مآذن سوى مئذنة جامع عقبة بن نافع بالقيروان فهى أقدم صومعة فيما بقى من المآذن الاثرية ، لا فى المغرب فحسب، بل وحتى فى العالم الاسلامى اطلاقا . والمظنون أن مؤسسها هو حسان بن النعمان والى افريقية من قبل الامويين (73 ـ 86 هـ/692 ـ 705 م) ويقال انها بنيت على عهد هشام بن عبد الملك .

وتاريخ انشاء المآذن فى الاسلام يرجع الى عهد ولاية مسلمة بن مخلد الانصارى على مصر (47 هـ /667 م) حيث أمر بابتناء منار المسجد العتيق جامع عمرو بن العاص ، فهو أول من أقام للاذان منارا وابتناه بالمسجد . . وأما المحراب فهو متأخر بعشرات السنين عن تأسيس المئذنة ؛ اذ يرجع تاريخ انشائه الى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز فهو أول من أحدث المحراب عند ما أعاد بناء المسجد النبوى بالمدينة المنورة سنة 88 هـ ـ706 م .

وترتفع صومعة الجامع الكبير عن مستوى الارض الى علو 15 ميترا وتنتهى بقبة صغيرة عليها تفافيح ثلاثة من نحاس معصبة شرفاتها العليا باحاطتها بأربع وعشرين كتفا مثل ما يحيط بأعالى أسوار المسجد ، ومزخرفة جهاتها الاربع من الخارج برسم اقواس ثلاثة على طريق النقش مضرسة مصنوعة باللبن ، تتوسطها نافذة للاضاءة من الجهتين احداهما بالشمال الغربى ، والاخرى بالجنوب الشمالى،وهناك فتح يتوسطها بالجنوب الغربى على شكل باب يؤدى الى سطح المسجد ، وهذه المئذنة متأخرة عن تاريخ تأسيس المسجد بقرنين ونصف ، اذ يرجع عهد بنائها الى أوائل القرن الثامن الهجرى أيام الملوك الزيانيين من بنى عبد الواد بتلمسان ، وذلك ما يشهد به النقش المزبور على رخامة بيضاء مثبتة على الجدار القائم عن يمين الآخذ فى الصعود الى المئذنة متصلا ببابها ، واليك نص النقش المذكور وهو بخط أندلسى مغربى :

« بسم لله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد . لما تم أمير المسلمين أبو تاشفين أيده الله ونصره منار الجزائر فى مدة أولها يوم الاحد السابع عشر من ذى القعدة من عام اثنين وعشرين وسبعمائة وكان تمامها وكمالها فى غرة رجب من عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة . نادا المنار المذكور بلسان حاله الخالى : أى منار حاله فى الحسن كحالى

اقام امير المسلمين تفافحا
كساني بها حسنا وتمم بنياني
وقابلني بدر السماء وقال لى
عليك سلامى أيها القمر الثاني
فلا منظر يسبى النفوس كمنظرى
الا فانظروا حسنى وبهجة اركاني
فزاد الهى رفعة لمتمي
كما زاد فى شاني ورفع اركاني
ولا زال نصر الله حول لوائه
رفيقا له تال وحسنا له ثاني

وكثيرا ما نرى من يشتبه عليه لاول وهلة اسم مؤسس هذا المنار أبى تاشفين الزيانى بمؤسس المسجد أمير المرابطين يوسف بن تاشفين . ومنهم العلامة الشيخ أبو راس فى كتابه الحلل السندسية

فانه جعل المسجد نفسه من مآثر أبى تاشفين الزيانى نفسه فقال فى سياق كلامه عن دولة بنى زيان « واما الجزائر فدخلت فى ملكهم أولا ، وان ابا تاشفين منهم لما أباد الثعالبة بنى الجامع الاعظم بالجزائر ونقش اسمه فى صومعته » وهذا خطأ بين ، فشتان ما بين أبى تاشفين وابن تاشفين فالاول وهو مؤسس المنار اسمه ابو تاشفين عبد الرحمن بن أبى حمو موسى خامس سلاطين بنى عبد الواد الملوك الزيانيين بتلمسان ، نودى عليه سلطانا فى الثالث والعشرين من جمادى الاولى عام 718 هـ/23 جويلية 1318م وتوفى سنة 737 هـ/1337م واما الثانى وهو مؤسس الجامع الكبير فاسمه يوسف بن تاشفين عاهل دولة المرابطين المتوفى سنة 500 هـ/1107 م ، وذاك عاصمته تلمسان وهذا عاصمته مراكش . وكان الباعث لهذا الاشتباه هو وجود اسم تاشفين فى كلا اسم الاميرين ، وكلاهما كانت له يد فى اقامة هذه المؤسسة الجزائرية العظيمة

ولقد لفتت مساجد المرابطين اهتمام ملوك بنى عبد الواد الزيانيين وأذكت مشاعرهم منها على الاخص المآذن فشاركوهم فى تشييدها والتنويه بعمارتها . فنرى كلا من المئذنتين القائمتين الى اليوم بتلمسان او بالجزائر هما من صنع الزيانيين.فمئذنة جامع تلمسان هى من مآثر السلطان يغمراسن بن زيان أول ملوك بنى عبد الواد (633 ـ 681 هـ/1236 ـ 1283 م) ومئذنة الجزائر هى من عمل حفيده أبى تاشفين .

كما اننا نجد على سطح المنار مزولة ـ ساعة شمسية ـ من الرخام الابيض مربعة الشكل تعرف بها الاوقات الزمنية وتضبط بها الاوقات الشرعية بطريق وقع ظل الخيط المرتبط بالقائم على حافة المزولة المنحط ظله على الدرج المنقوشة على سطح المزولة ، ولا نشك فى أن هذه المزولة وضعت هناك مبنية ببناء الصومعة وذلك حسبما ترشد اليه تصميم البناء وتخطيط شكل المزولة ووضعيتها فى مكانها المختص بها والمهيأ لها من أول يوم ، ورغم اهمال استعمال هذه المزولة اليوم فهى لاتزال صالحة للعمل بها والاستفادة منها لوضوح رسومها وبروز نقوشها ولا ينقصها شيء سوى نصب العمود القائم الذى يربط فيه الخيط المتصل بارضية المزولة ، وهذا عمل بسيط لا يستلزم كبير عناء ، ويكفى فيه أن يصدر الاذن بالعمل بها ممن بيدهم الامر بوزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية فتتم الفائدة .

ومن المؤسف أن يبقى أثر علمى نافع كهذا مهملا متروكا لا يؤبه به ولا يلتفت اليه ، فاين المحافظة على تراث الاجداد ، ولاسيما فى المجال العلمى والميدان الحضارى والتاريخى والدينى أولا وبالذات

وتحمل هذه المزولة كتابة منقوشة بالخط المغربى الاندلسى تشتمل على اسم واضعها وتاريخه ولكنها بسبب تعرضها الطويل لحوادث الطبيعة وتقلبات الجو وتداول تغير أحوال الطقس عليها من حر وقر محيت تلك النقوش وتعذر على القارىء قراءة ما فيها ، وهذا لا يمنع من امكان استعمالها فىضبط الاوقات الشرعية ومعرفة حصة الليل والنهار وتحديد حركة الشمس فى غاية ارتفاعها وشروقها

وغروبها وهي تعمل طيلة السنة على اختلاف الشهور والفصول فلا ينبغي أن تكون مهجورة .

ولقد عرف التاريخ العمل بهذه المزاول الشمسية منذ احقاب واحقاب فاثبت لنا وجود مثل هذه الآلة الزوالية منذ عهد الحضارة المصرية القديمة.واقدم مزولة عثر عليها بارض مصر يرجع تاريخهـا الى سنة 1500 ق م واصل المزولة هو اثر بابلي .

واما ما يحيط بالمنار من زخرفة الزليج الازرق والابيض كالعصابة فهو مما أدخل عليه حديثا أى منذ عهد أوائل الاحتلال فقط ؛ اذ يعود وضعــه هناك الى جماعة من فرقة جيش (الجيني) من الجند الفرنسي الذي كان يحتل مخابيء ودهاليز الجامـع الكبير فهؤلاء هم الذين اشتغلوا بتعصيب المنـار بهذا الزليج سنة 1272 هـ/1856 م . كما انه يوجـد بداخل المنار هذا حجرتان أولاهما بقرب مدخـل المنار عن الشـمال والثانية في آخر لوية من حلزون الدرج قبل الاخذ في الصعود لسطح المنار عـلى السلم الاخير ، ولا شك ان لهذين الحجرتين وظيفة يقومان بها اقلها وقاية المؤذنين من اذى الحر والقر، واضرار الرياح والامطار الغزيرة كما انها في آن واحد يصلحان للانقطاع فيهما للعبادة والتبتل أو للدرس والتأمل .

واذا شئنا التعمق في استكمال دراسة فـن المعمار عند المرابطين في تشييد الصوامع والمآذن أو المنارات فلننتقل الى أرض الاندلس لندرس مـا تركته لنا نكبات الدهر وصروفه هناك من ذلـك البرج الوحيد الذي بقي قائما بغرناطة وهو المعروف باسم (سان خوسية) وهو منار مسجد كان معروفا باسم جامع المرابطين . والجامـع هذا مـحطم اليـوم وبنيت مكـانه كنيسة ولـم يبق منه الا هذا البرج المستعمل اليوم للاجراس . فان صحت نسبتـه الى المرابطين فهو آخر منار بقي على وجه الارض منسوبا الى هذه الدولة ؟ . . وهو مربـع الشكل طول ضلعه 3،85 ويدور درجه حول محور سمكـه 41 م ونظـام البناء فيه يقوم على نوع من القطـع الحجرية المهذبـة ملتصقة فيما بينها بالجص . ونصفـه الاعلى منسج بالآجر وينفذ من طاقات صغيرة ضوء خفيف. وتنفتح نحو الجنوب نافذة كبرى في صـورة عقد على شكل حدوة الفرس مع امتـداد يتجاوز نصف القطر . . . وهذا في الحقيقة وحـده غير كاف لاعطـاء فكرة في الموضـوع .

ومن طريف التحف الفنية التي نجدها موضوعة على نشر مرتفـع بسطح هذه المئذنة ذلك النبـراس الفخم الجميل الصنع والوضع . المستعمل للاعـلام بدخول اوقات الصلـواة الليلية وفي ليـالي رمضان ليرى ضوءه مؤذنو مساجد العاصمة من أعلى الصوامع فيشرعوا في الأذان ، وذلك لان لهذا الجـامع فضل وجود آلة المزولة به وعليها المعول في ضبط الاوقات الشرعية فيعتمد مؤذنو المساجد كعلامة أو اشـارة تصدر من موقت الجامع أو باش موقت ليتحققوا من دخول الوقت .

لقد كان مكان هذا النبراس منـذ العهـد التركي القائم بمينا. العاصمة القديم حيث مركزالاميراليـة والادارة البحرية يستعمل لهداية السفن في ظلمات الليل والبحر الى موقع المدينة ومكان المرفأ ؛ ثـم

استغنى عنه بصنع ما هو أضخم وأفخم . وحينئذ جيء به الى مكانه هذا الموجود به الى الآن ؛ وهو مصنوع من نحاس أحمر وبرنز ولطول العهد تغير لونه الى ما يقرب من السواد .

وكيفما دخلنا الى هذا المسجد ومن أى باب أتيناه قابلنا فناؤه وهو مربع تقريبا تشتمل مساحته على نحو 200 ميترا وبه قبتان تظلان ميضاءتين للوضوء ، احداهماعن يمين باب الفوارة ـ النافورة ـ والثانية عن الشمال . وهما وان كانتا متشابهتين فى شكلهما وظاهرهما ، فهما فى الحقيقة والواقع مختلفتان تماما من حيث التاريخ والصنع والمادة التى يقوم عليها حوض الوضوء . فالاصيلة القديمة هى التى عن يمين الباب . وحوضها هو قطعة واحدة من خالص الرخام الابيض وقاعدته مزخرفة بنقوش منحوتة فيها . ويرجع عهدها الى العهد التركى حسبما تهدى اليه قواعد الفن ؛ وأما الاخرى فهى مستحدثة أخيرا فقط قلد فيها وضعية الاولى وشكلها ، وتاريخها لا يزيد عن بضع سنوات مضت . ومادة حوضها من الاسمنت . زيدت للحاجة اليها كما زيدت فى هذه الايام الحنفيات الموجودة عند مدخل باب الجنينة .

وعلى ذكرنا لباب الفوارة الذى هو أحد أبواب الجامع نقول بانه كان لهذا المسجد يوم تاسيسه ستة أبواب رئيسية مصارعها من الخشب الرفيع . أربعة منها بشماله الغربى واثنان بشماله الشرقى عليها طاق من الرخام الابيض . ولكل منها اسم يعرف به . فاولها بالنسبة للقادم من ساحة الشهداء وهى الناحية الجنوبية الغربية للمسجد يعرف (بباب الجنينة) وهو أشهر الابواب اليوم وأكثرها استعمالا ويليه (باب البواقل) ولفظة بواقل هى جمع (بوقال) مؤنثه (بوقالة) آنية تصنع من فخار للشرب وأصل الكلمة لاتينى استعمله العجم والاتراك وشاع استعماله فى اللغة العامية بالجزائر وسبب اضافة هذا الباب الى البواقل هو ما كان به مصطفا من أوانى الشرب العمومية . ثم يلى هذا الباب (باب الفوارة) ـ النافورة ـ وهذا الباب يزيد على غيره من بقية أبواب المسجد بمصراعين كبيرين من الداخل ، وهما من الخشب المنقوش المزخرف بخطوط مشتبكة ، من نوع التشبيكات السداسية والثمانية والاشكال الهندسية المتعددة الاضلاع مما نجد مثله بمصراعى جامع العباد المرينى بتلمسان ولعله يكون من الزيادة التى زادها أبو الحسن المرينى بهذا المسجد . كما أشار اليه ابن مرزوق الخطيب فى مسنده ومما يؤكد لنا هذا المعنى شدة الشبه بين هذين المصراعين ومصراعى النحاس اللذين هما موجودان بمسجد العباد الذى هو من مآثر هذا السلطان ؛ كما اننا نجد ما بين باب البواقل وباب الفوارة بابا مسدودا بمصراعية لا يحل ولا يفتح . مكتوب على طاقة فى أعلاه بالخط النسخى المشتبك هذه الآية الكريمة : « سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » س : الزمر . آية 7 ؛ ثم يلى هذا الباب (باب الصومعة) وهو قريب من المئذنة . وبالناحية الشمالية الشرقية نجد (باب الطحطاحة) ـ أى البطحاء ـ وباب الجنائز وكلاهما مسدود اليوم واستعمل باب الفوارة مكان باب الجنائز ؛ وفى مكان باب الجنائز أقيمت مقصورة للباش حزاب ـ رئيس القراء ـ ويقابل هذين البابين من الناحية الجنوبية الغربية مدخلان يؤديان الى الصحن

المحيط بالمسجد من الجنوب الغربي الى الشرق ومثلهما مدخلان آخران في جدار القبلة ، احدهما عن اليمين والآخر عن الشمال وقد زيد اليوم بينهما ثالث قرب مقصورة الخطيب . وكلها تؤدى الى الصحن المذكور .

وهذا الصحن موضوع فوق اقبية كانت تستعمل في مصالح البحرية لحماية المدينة بحرا فحطمت من اثر ما تسلط على الجزائر وما واجهته من حروب بحرية ؛ فبهذا الاعتبار نستطيع أن نطلق على هذا المكان اسم الرباط ؛ فهو في آن واحد مسجد جامع ورباط .

ثم ان هذا الشباك الموجود اليوم من فوق السور الموازى لهذا الصحن الخارجي عن جدار القبلة ليس هو بالاصيل ، وانما اتخذ زينة لهذه الواجهة يوم زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية (لوبي) الجزائر في أفريل سنة 1903 م - 1321 هـ - ومثله في ذلك ما نجده بالواجهة الشمالية الغربية من هذا الرواق الجميل ذى الستة عشر قوسا مرفوعة فوق سوارى غليظة من الرخام الابيض المزخرف فانه ايضا مستحدث في أواسط القرن الثالث عشر هـ (1252 هـ/1837 م) اى عند ما حطم جامع السيدة وهو بجواره جي. بهذه السوارى وكذلك الحوض المرمرى الاسود الذى يتوسطها فوضعت بهذا المكان وفرشت أرضيته بالفسيفساء وقد كان هذا الحوض كما ادركناه مشتملا على ثلاثة أحواض فسقط منها اعلاها واهمل شأنه فأتلفت قطعه وذهبت أدراج الرياح حيث لم يكن هناك من يأبه له أو يعتنى به .

دشن هذا الرواق بمحضر البرانس الفرنسى (دونومور) - ديسنبر 1837 م وجي. يوم تدشينه بمجموعة من مسكوكات متنوعة لهذه الدولة من ذهب وفضة وبرونز من ضرب سنة 1836 م وأضيف اليها صورة الملك (لويس فيليب الاول) وحرر في ذلك عرض حال مفصل وجعل الكل في جرة دفنت تحت سارية من هذه السوارى بقيت مجهولة الى اليوم ؛ ونذكر من بين انقاض جامع السيدة هذا المنبر الرخامى الجميل القائم اليوم بالجامع الجديد ومنبره الاصلى هو المستعمل كسلم يصعد عليه الى سدة القراء بوسط المسجد .

على أن هناك من يذكر وانه قد سبق لهذه الواجهة الشمالية الغربية من الجامع الكبير قد سبق ان لحقتها ترميمات واصلاحات متعددة بسبب ما تسلط على المسجد من وقع قنابل الاعداء ولا سيما سنة 1682 و 1688 و 1732 م بحيث كثر غزو الاجانب واعتداؤهم على الجزائر .

ومما يشتمل عليه هذا المسجد من عناصر العمارة عنصر آخر مميز للفن الاسلامى ، ألا وهو بناية القبة ، فالقبة عرفها المسلمون منذ ان أقام عبد الملك بن مروان قبة الصخرة بالقدس الشريف (72 هـ/691 م) وكانت معروفة من قبل عند البيزنطيين والرومان . وفي مسجدنا هذا نجد ستة قبب أربعة بداخله . واثنان بخارجه . أولها قبة المحراب المثمنة الاضلاع ومثلها قبة مقصورة المؤذنين . وهما لاشك من العهد التركي ذلك أن قبة المرابطين الموجودة بجامع تلمسان تخالفهما تماما فلذلك أنا لا أتردد في نفيها عن الطراز المرابطي وكذلك قبة النافورة القديمة التى بفناء المسجد

فهى كذلك لا تعاصر المسجد . أما الاخرى التى بجانبها فقد قدمنا الكلام عنها وانها حدثت أخيرا فقط ؛ واما ما بخارجه فقبة مقصورة المفتى وقبة المحكمة اقدمهما قبة المقصورة وهى تركية أيضا أما الاخرى فحديثة كما ذكرناه .

ولا يفوتنا ان نشير الى ما خلف جدار القبلة وراء المحراب من تلك الحجرة المستطيلة الشكل ذات البابين باب داخل المسجد عن شمال المحراب ومنه يخرج الخطيب يوم الجمعة وفى العيدين جعل تفاديا من تخطى الرقاب . وباب خارجى يؤدى الى الصحن المحيط بالجامع ؛ واذا نظرنا الى تصميم هذه الحجرة وجدناه أصيلا فى تشييد الجامع وبناية هيكله ، فسقف الحجرة منبسط من خشب يعلوه سطح من الجص على غرار سقف منازل دور حى القصبة بأعلى المدينة . وكذلك جميع جوانب الحجرة

وبناء مثل هذه الحجر الملاصقة لجدار قبلة المسجد ليس بالامر الجديد فى تاريخ عمارة المساجد وبخاصة مساجد صدر الاسلام فهذه دار الامارة التى بناها سعد بن أبى وقاص بجامع الكوفة 17هـ بناها خلف جدار القبلة . ملاصقة للجدار وكذلك ما صنعه زياد بمسجد البصرة 53 هـ ومنه ما أمر به معاوية ابن أبى سفيان من اتخاذ المقاصر بالمساجد لما طعنه البرك بن عبد الله بسيفه . وهذا ما كان قد أمر به الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه خشية أن يقع له مثل ما وقع للخليفة قبله .

هذا واننا مع هذه البسطة التى قدمناها عن تاريخ المسجد الكبير من ناحية المعمار والتاريخ فاننا مع ذلك مدينون الى ما يحتوى عليه من الاثاث وأهم ما هنالك كله منبره ، فهو ياقوتته الوهاجة والزمرذة اليتيمة فى هذا الجامع ذلك المنبر الضخم المسدول عليه حجاب حجرته الخاصة به عن يمين المحراب ؛ هذا المحراب اليوم يعد ذخيرة من أنفس الذخائر التى تركها لنا الاجداد فهو أقدم منابر الاسلام باستثناء منبر جامع القيروان ولا يعلم له نضير سوى ما بجامع القرويين بفاس وما اشبهه بجامع الكتبيين بمراكش . ولا يعاصره الا هذه الاجزاء المتفرقة من منبر جامع ندرومة الموجود بعضها بالمتحف الوطنى للآثار بالعاصمة ؛ ويرجع تاريخ منبر الجامع الكبير الى أوائل القرن الخامس الهجرى حسب ما هو مزبور بالنقش البارز وبالخط الكوفى المتشابك على خشبتى جانبى مدخله وبأعلاه أيضا ونصه :

بسم الله الرحمن الرحيم . تم هذا المنبر يوم فاتح رجب من سنة (سبع) واربعمائة عمل محمد ، وكان لطول العهد وتراكم الاصباغ عليه واختلاف مواد الصبغة وألوانها مع عدم الاعتناء التام وقلة المبالات بشأنه ان لحق بهذا النقش بعض الغموض، على كثير من علماء الآثار وغيرهم قراءة كلمة (سبع) الواردة فى النص ، فمنهم من قراها سبع بالباء الموحدة بعد السين . ومنهم من قراها بالتاء المثنات من فوق قبل السين،ومنهم من قراها تسعين ؟ وكيفما كان الامر فلا يخرج تاريخ المنبر هذا عن القرن الخامس الهجرى . سواء أكان ذلك فى أوائل القرن أم فى آخره ، وجزم العلامة الاثرى (مانويل‌جوميث مورينو) بأنه سنة تسعين (1097 م) وانه من مآثر يوسف بن تاشفين حيث قال : «وأول عمل فنى قام

به يوسف بن تاشفين فيما نعلم منبر المسجد الجامع بالجزائر . . . » نرجو ممن بيدهم الامر أن يعتنوا بهذه الدرة اليتيمة حتى لا يلقها أذى أو يتسرع اليها البلى .

والمنبر هذا مصنوع من خشب الارز الصلب واجزاؤه تناهز 120 قطعة وبسبب التآكل والفناء لم يبق منها الا نحو 48 قطعة أصيلة موضوعة فى ايطار ما بين مربع ومثلث ومنحرف . وكل ما عداها فهو مما استحدث فى ترميمه . وقوام زخرفته ترجع الى نوع (الارابيسك) أى حشوات مربعة تزينها زخارف هندسية متشابكة مزينة بخرص من الزهيرات واشجار منحوسة تمثل نباتأوراق الكرم والاقنثا وتزاويق ملونة فى أسلوب مغربى اندلسى محظ لا شائبة فيه لفن اجنبى أو حضارة أجنبية أخرى عنه أبدا . وهو ما يذكرنا بما عليه زخارف قصر الجعفرية بسرقسطة وما نجده أيضا فى قصبة ملقة من أرض الاندلس ، وكلها مغروزة فى المنبر ومنقوشة بكيفية بنائية تخالها ركيزة للمنبر . وهو فى زخرفته هذه يمثل لنا الفترة الانتقالية التى تربط المشرق بالمغرب .

وتتميما للفائدة واستكمالا لتاريخ هذا المسجد نذكر على سبيل الاجمال ما كان به من السدنة والموظفين . فقد كان يبلغ عددهم سبعة وستين موظفا وهم كما يلى : مفتى واامان ، وتسعة عشر مدرسا،وثمانية عشر مؤذنا وثمانية حزابين ـ قراء ـ واربعة رجال الحضور ـ قراء صحيح البخارى ـ وثلاثة وكلاء لما كان له من الاوقاف والاحباس ، وثمانية منضفون ، وثلاثة موقدى المصابيح ، وواحد لحمل عصا الخطيب ، وبهذا المسجد كان ينعقد المجلس الشرعى الاعلى للنظر فى النوازل والاحكام الشرعية التى تجرى بين يدى القضاة ، واعضاء سبعة رئيس وهو المفتى الحنفى وكانت الرئاسة لهذا بحسب انه يمثل مذهب الحكومة التركية ، والمفتى المالكى ، والقاضيان حنفى ومالكى وباش عدل ، وعدل مكاتب وآخر يمثل السلطة الحاكمة .

ولقد حمل هذا المسجد رسالة الاسلام قرابة الف سنة فتخرج منه جمهور من العلماء والادباء وانصار دين الله وحماة الحق وذادته حملوا مشعل الثقافة الاسلامية بهذه الديار . فكان بذلك خير سلف لهذا الخلف ، وما اجدر بهذا الخلف ان يعمل على ضوء قول القائل :

نبنى كما كانت اوائلنا
تبنى ونصنع فوق ما صنعوا

عبد الرحمن الجيلالى

مراجع البحث :

تاريخ الجزائر العام ج 1 عبد الرحمن الجيلالى ط الجزائر 1971 م

الترجمانة الكبرى للزيانى ط المغرب الاقصى 1967 م

المسالك والممالك عبد الله البكرى ط الجزائر 1911 م

الفن الاسلامى فى اسبانيا (معرب) مانويل جوميث مورينو ط القاهرة

أبو راس المعسكري وتاريخ مدينة الجزائر

رابح بونار

لقد كان عصر ابى راس المعسكرى عصر تدهور وانحطاط فى الآداب والعلوم. كما كان عصر اضطراب سياسى واجتماعى ، وقد استطاع ابو راس بفضل موهبته وعبقريته أن يرتفع عن مستوى عصره الفكرى ، وان يعيد للدراسات العلمية الفقهية واللغوية مجدها وجلالها ، كما تشهد بذلك مؤلفاته الكثيرة ، وتؤكده شهادات معاصريه من العلماء.

وقد حملنا هذا على أن نخصه بهذه الترجمة القصيرة وان ننشر نبذته التاريخية حول مدينة الجزائر بمناسبة ذكراها الالفية .

ترجمتـــــه :

ابو راس هو محمد بن احمد بن ناصر الراشدى المعسكرى (1) وقد ولد في اوائل النصف الثانى من القرن الثانى عشر الهجرى ، ودرس فى صغره بمعسكر ومازونة على علماء عصره ، ومنهم العلامة المشرفى ، ثم ارتحل الى تونس ومصر واخذ فيهما عن علمائهما كالعالم الاديب الشاعر ابراهيم الرياحى ، والشيخ مرتضى الزبيدى والشرقاوى ، واجازوه ، ووصفوه باوصـــاف علمية رفيعـــة .

ثم عاد من المشرق الى بلاده بعد ان استوعب دراســات عصره ، واحاط بالمذاهب الاربعة ثم تخصص فى المـــذهب المالكى ، وتعمق فى دراسة مختصــر خليل بن اسحاق الـذى اختصر مسالكـه واستوعبها ، ثم انتصب للتدريس وافــادة الطلاب ، وقد بلـغ عدد طلابـه المئــات .

ولم يشغله التدريس عن التاليف ، بل الف كتبا عـــديدة تزيد على خمســـين كتابا (2) منها :

1 ـ لب افياخى فى ذكر اشياخى
2 ـ والسيف المنتضى فيما رويته باسانيد المرتضى
3 ـ وتخريج احاديث دلائل الخـــيرات
4 ـ ودار السحابة ، فيمن دخل المغرب من الصحابة
5 ـ والزمردة الوردية فى الملوك السعدية
6 ـ ومروج الذهب فى نبـذة من النسب
7 ـ وتفسير القــرآن الكريم
8 ـ وحاشيـة الخـــرشى
9 ـ وحاشية المـــكودى
10 ـ وشـــرح العقيقـــة
11 ـ والعاوى بين التصوف والتوحيد والفتاوى
12 ـ وحاشيـــة على السعـــد
13 ـ وشرح مقامات الحـــريرى
14 ـ ودرء الشقـــاوة فى حرب درقـــاوة
16 ـ وذيل القرطاس فى ملوك بنى وطـــاس

وغير ذلك من كتبه الكثــرة .

واهم هذه الكتب فى رايى كتبه التاريخية وهى ذات فائدة كبيرة قد لا يعدله فى ذلك الا الزيانى صاحب الترجمانة الكبرى مع تفوقه عليه فى الحفظ والتوفيق . ومن هذه الكتب كتابـــه ذيل روض القرطاس وقد تناول فيه تاريخ المغرب من القـــرن الثامن الى اوائل القرن الثالث عشر الهجرى . وهو كتاب هـام لا نعرف عنه الا اسمـــه .

وكذلك كتابه الزمردة الوردية فى الملوك السعديـة ، وهـو كتاب يتناول تاريخ الملوك السعديين بالمغرب ، وموضوعــه هام والفترة التى تناولها بالتدوين قليلة المصادر وهذا مـا يسبغ على كتابه اهمية بالغة وهو مثل سابقه مخطوط لا نعـرف عنه الا اسمه .

واخيرا ياتى كتابه شرح نفسية الجمان فى فتح مدينة وهران ، وهذا الكتاب رغم تخصيصه بمدح محمد باى الكبير،وتسجيل مآتيه الحربية فى فتح وهران وافتكاكها من يد الاسبان ، أواخر القـرن الثامن عشر الميلادى فانه يتناول احداثا كثيرة بالشرح والتعليق ويؤرخ لوقائع مختلفة تتناول تاريخ القطر الجزائرى عامة .

ومن هذه الاسطرادات ما ذكره حول تاريخ الجزائر .

وقد عمد احد المعجبين به الى جمع هذه النبذة واخرجها من الكتاب المذكور لتكون خلاصـــة تاريخية خاصة « بالجـــزائر » وجامع هذه النبذة غـير معروف ، وقد جمعها بعد وفاة مؤلفها أبى راس بسنة واحدة اعنى سنة 1823 م

واما ابو راس فقد توفى سنة 1238 هـ ت 1822 م وتضم هذه النبذة معلومات هامة عن مدينة الجزائر والدول التى تعاقبت عليها

وسيجد فيها القراء فوائد ومعلومات عن الجزائر والقطر كله لا يجيدونها فى غيرها من المراجع المختلفة مع الايجاز ومن حســن الصدف ان تنشر هـذه النبـذة فى وقتها المناسب وهو الذكرى الالفية لمدينة الجزائر ليجمع الاحتفال بالمدينة بين شرف ما كتبه عنها مؤرخونا القدماء ، وما يكتبه عنها كتابنا المحدثون وفى ذلك ـ لاشك ـ تقدير كبير ، واحتفاء بالغ بهذه العاصمة التــاريخية الجليلة .

1) الحفناوى : تعريف الخلف ج 2 ص 332
2) الكتانى : فهرس الفهارس ج 1 ص 105

هذ نبذة اخرجت من تاليف الشيخ ابى راس سيدى محمد بن احمد بن عبد القادر الناصرى الغريسى نسبا رحمه الله فى تاريخ الجزائر 1238 هـ / 1823 م

مدينة الجزائر

الجزائر علم على مدينة عظيمة على شاطىء البحر بنتها ملوك صنهاجة ، ومر لنا تاريخ بنائها ، واسم بانيها وغير ذلك ، فانظر ان شئت فى شرح قولى متى ازالهم عنه يوسف الخ . ولم تزل فى طاعة بنى بلكين من صنهاجة ملوك اشير ، والقيروان ، الى ان تغلب ابن عمهم حماد (1) على جبل كتامة ، وبنى القلعة المارة الذكر ، وكثر جنوده وخفقت بنوده ، واستولى على باجة وبجاية ودلس ونحوهم ، وكانت الجزائر من جملة أعماله ، ثم زحف اليه باديس بن المنصور (2) بن بلكين بن زيرى بن مناد فهزمه من مجانة الى وادى شلف ، ونزع اليه عامة عسكره ، ثم رجع جادا السير الى قلعته ، وباديس فى اثره وحاصره الى أن هلك ، وبويع ابن باديس وهو المعز (3) ابن ثمان سنين ، فاتفق مع حماد ، وعاد ملك الجزائر له ولما هلك ولى ابنه القايد وزحف اليه ابن زيرى بن عطية المغراوى فصالحه القايد ايضا ، وبقى على ملكه بالقلعة والمدية والجزائر الى تخوم مغراوة ، وتحت حكمه وعلى امره الى ان هلك سنة ستة واربعين واربعمائة ، وولى مكانه ابنه محسن ثم قام فيهم الناصر بن علناس بن حماد فبنى جبل اللؤلؤة ببجاية من اعظم قصور الدنيا فى حدود **سبعين واربعمائة** قال ابن خلدون فى بعض كلامه على المغرب الاوسط : بجاية اختطها الناصر بن علناس ، ثم لما مات الناصر ولى ابنه المنصور .

بنو حماد والمرابطون

ولما استولى يوسف بن تاشفين على تلمسان وغلب عليها اولاد يحيى الافرينى سنة اربع وسبعين (4) وانزلها محمد (5) بن تينعمر المسوفى ونازل بلاد صنهاجة كالجزائر ونحوها زحف اليه المنصور (6) وخرب ثغوره ، وحصون ماخوخ ، وضيق عليه فصالحه يوسف ، وانقبضت يد المرابطين عن بلاد صنهاجة ، والمنصور هذا هو الذى وقعت حروب بينه وبين ماخوخ انجلت عن قتل ماخوخ ، ولحق ابنه بتلمسان مستصرخا بابن تينعمر فزحفا الى الجزائر وحصروها يومين فمات ابن تينعمر ، وولى يوسف ابن تاشفين مكانه اخاه تاشفين بن تينعمر ففتح اشير والجزائر ورجع الى تلمسان .

ثم ان المنصور زحف من بجاية بأمم المشرق الى تلمسان ، ونزل وادى الصفصيف ، فلقيه تاشفين

---

(1) حماد بن بلكين مؤسس الدولة الحمادية ، اعلن استقلاله عن بني زيري سنة 405 هـ — 1014 م ودام في الملك الى سنة 419 هـ — 1028 م راجع تاريخ الجزائر للميلي ص 135

(2) باديس هو رابع ملوك بني زيرى ، وكان شجاعا جواد محسنا ثار عليه حماد فحاربه وحاصره بالقلعة ومات في اثناء حصاره له سنة 406 هـ — 1015 م

(3) هو المعز بن باديس تولى الملك بعد ابيه باديس سنة 406 وتوفي سنة 454 هـ — 1062 م وبلى بفتنة الهلاليين

(4) اي سنة 574 هـ — 1178 م ويوسف ابن تاشفين هو اشهر الملوك المرابطين توفى بمراكش سنة 500 هـ — 1106 م وقد فتح تلمسان سنة 572 هـ — 1176 م وفتح الاندلس وغيرها ووصل في فتوحاته الى مدينة الجزائر

(5) صوابة تينعمر كما جاء في مراجع مختلفة (6) المنصور هو الملك الحمادى السادس تولى الملك سنة 481 هـ — 1088 م وتوفى سنة 498 هـ — 1104 م

بجنوده ، فانهزم تاشفين ولجا الى جبل الصخرة ، وعاثت عساكر المنصور بتلمسان ، فخرجت اليه حواء زوجة تاشفين اميرهم متوسلة له بوسايل القرابة الصنهاجية التى بينهم ، فأكرم مثواها ، ورجع الى القلعة ، وقدم على المنصور معز الدولة بن صمادح من المرية ، لما هلك الاندلس يوسف ابن تاشفين فاقطعه دلس ، وانزله بها ، ولما هلك سنة ثمان وتسعين واربعمائة ولى ابنه باديس ، وكان عظيم البطش ، شديد الباس ، ثم ولى أخوه العزيز 7 وتزوج بنت ماخوخ ، وطال أمد ملكه ، وكان العلماء يتناظرون فى مجلسه ، ونزلت جربة على حكمه ، وتونس ، وسكنت العرب فى ايامه القلعة ، وفى ايامه وصل المهدى بن تومرت الى بجاية قافلا من المشرق سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ، وغير المنكر بها ، فسعى به عند العزيز فخرج الى بنى ورياكل ، وقام فيهم يدرس العلم ، وطلبه العزيز فمنعوه ، وقاتلوا دونه الى ان رحل الى المغرب ، وهلك العزيز سنة خمسة عشر وخمسمائة ، فولى بعده ابنه يحيى وهو الذى اتخذ السكة من ملوكهم ، وكان ديناره مكتوبا فيه ثلاثة اسطر ودائرة فى كل وجه ، فدايرة الوجه الواحد : واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله الى لا يظلمون ، والسطور لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، يعتصم بحبل الله : يحيى بن العزيز بالله الامير المنصور ، ودايرة الوجه الاخر بعد البسملة ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث واربعين وخمسمائة ، وفى سطوره الامام المقتفى لامر الله أبو عبد الله أمير المومنين العباس وكان مشتغلا باللهو والصيد والنساء ، لما ادبرت الايام عن قبائل صنهاجة ، وكان عامله على الجزائر اخوه القايد بن العزيز بن المنصور ولما فشل ريح بنى عمه أولاد باديس بأفريقية وضايقهم جرجيس بن منخايل (8) أحد رؤساء الكفرة (حكام صقلية) بعث يحيى بالاساطيل فى البحر ، وأتى بالحسن آخر ملوك افريقية من بنى عمه ، وانزله بالجزائر مع اخيه القايد وسبب غزو الكفرة لثغره ان على بن يوسف بن تاشفين اغزى محمد بن ميمون صقلية وفتح قرية منها وسبا اهلها فلم يشك طاغيتهم روجار أن ذلك باملاء الحسن ، فجهز ثلاثمائة مركب وأمر عليها جرجيس المذكور ، وفيهم عدد كثير من النصرانية فيهم الف فارس فملكوا قصر الدماس ثم رجعوا الى صقلية بعد ان استحر القتل فيهم ، ولما زحف **الموحدون للجزائر فر منها القايد** أخو يحيى فقدم اهل الجزائر الحسن المذكور على انفسهم ، ولقى عبد المومن فأمنهم ، وصبح ببجاية من الغد ، فزحف اليه يحيى ، فانهزم وملك عبد المؤمن بجاية ، وذهب يحيى الى اخيه الحارث ببونة لما لم يجد السبيل الى بغداد ، ثم ذهب الى قسنطينة ، فنزل على أخيه الحسن فخلى له الامر ، ثم بايع يحيى لعبد المؤمن سنة سبع واربعين 9 ، ونقله الى مراكش فسكنها ، ثم أنتقل الى سلا فسكن قصر بنى عشر (10) وهو آخر ملوك صنهاجة بالقلعة

(7) الامير العزيز تولى الملك سنة 498 هـ — 1104 م توفى سنة 515 هـ — 1211 م
(8) يعنى به القايد النومادذى بصقلية وقد استطاع ان يحتل شواطىء تونس ومنها مدينة المهدية
(9) يعنى سنة 527 هـ — 1152 م
10 هكذا ورد في الاصل مطموسا

وبجاية والجزائر ، وانتطع ملكهم الى الان ، بل عفارسمهم ، وخمل ذكرهم ، وانغمروا فى الناس فلا يعرفون وكذا بنو عمهم ملوك افريقية .

غربية :

غربية ولم سمى هذا القصر بسلا قصر بنى العشرة ان المراة وضعت عشرة أولاد ببطن واحد ، فجعلهم ابوهم على مائدة ، وذهب بهم الى الامير فأعطاهم الف دينار ، يبنى لهم ابوهم عشرة دورا . انظر بعض شروح الفرائض ولما كان زمن السلطان البانى لهم الدور فيه ، تناقض مع زمن سكنى يحيى بها لم نذكره ، والله اعلم .

الجزائر تحت حكم الموحدين

ثم انتظمت الجزائر فى ملك الموحدين (11) كغيرها من المغربين بل والمغرب الادنى ايضا ، لانهم ملكوا طرابلس مرات وتونس اكثر ايامهم ، وأول خلفائهم ، ثم لما ركد ريحهم ، ودخل الهرم دولتهم سنة الله التى قد خلت من قبل أستقل ابو زكرياء الحفصى من الموحدين بولايته افريقية لما بلغه ان المامون احد ملوك بنى عبد المؤمن غير معالم شيخهم المهدى ، وغير ضرب الدرهم المربع الذى يعرف عندنا بالدرهم المؤمنى الذى هو مكتوب فيه كما هو مشاهد الى الان : اللــه ربنا ومحمد نبينا والمهدى أمامنا ، وقطع اسمهم من الخطبة واثبت ذكره بعد ذكر الامام المهدى بن تومرت مقتصرا على لفظ الامير فقط ، ورفع اليه بعض شعرائه بيتا وهو « صل امير المؤمنين فا : نت احق بها فى العالمين » ، فابى عن ذلك الى آخر دولته ، ودخلت الجزائر فى ملكه ، وتلمسان والزاب وغيرهم ، وتداولها بنوه الى ان تضعضعوا وشردهم الداعى بن ابى عمارة وبسببه افترقت كلمتهم كما هو شان الدنيا .

الجزائر تحت حكم بنى عبد الواد

وطمع فى الجزائر بنو عبد الواد فغزاها السلطان ابو حمو موسى (12) بن عثمان بن يغمراسن من اعيان ملوكهم لما سمع بأبن علان تغلب عليها فى حدود سنة خمسة وسبعمائة ولما خلاله الجوبفتنة محمد ابن ابى عصيدة سلطان تونس ، وابى زكرياء الاوسط سلطان بجاية فاخذها منه فى سنة احدى عشر وسبعمائة على يد قائد حروبه ابن عمه محمد بن يوسف بن يغمراسن وكان ذلك اى اخذها أيام السلطان ابى اللحيان من ملوك تونس ، ولما حضر يوسف بن يعقوب المرينى تلمسان فى القرن الثامن ، كان ابو زكرياء صاحب بجاية مظاهرا لعثمان بن يغمراسن والسلطان محمد بن ابى عصيدة سطان تونس وتلميذ ومحضون الولى الصالح ابى محمد المرجانى فى حصار تلمسان (13) فبعث لهم كتائب بنى مرين ، فأوقع بهم وهزمهم ثم ان ابا عصيدة صاحب تونس ، بعث الى يوسف يغريه بغزو بجاية فسرح يوسف العساكر لنظر اخيه أبى يحيى . فضايقوا بجاية وعاثوا فى تلك الجهات ، ثم انقلبوا الى يوسف ، وهو معسكر على تلمسان وفى سنة ثلاث وسبعمائة ارسل محمد بن ابى عصيدة هدية ضخمة الى يوسف اغرب فيها بسرج وسيف

---

(11) قام لمك الموحدين سنة 515 وسقطت دولتهم 668 هـ — 1269م وخرجت عنهم الجزائر سنة 633 هـ — 1235 م

(12) تولى ابو حمو موسي الأول الملك سنة 707 هـ — وقتل سنة 718 هـ — 1318 م ومن اثاره بناء قصر على وادي نهل قرب مارونة وتاسيس مدينة اقبو (تاريخ الجزائر للميلى م ص 261)

(13) العبارة فيها غموض ويريد بها ابو رأس ان ابا زكرياء كان مواليا لتلمسان وان ابا عصيدة كان منابذا لها ومساعدا للمرنيين على فتحها

ومهامز مرصعة بالياقوت والجوهر ، مع رئيس الموحدين أبى عبد الله بن اكمازين ، ورجع بهدية ضخمة من عند يوسف بن يعقوب ، كان من جملتها ثلاثمائة بغل . وفى أيام ابن ابى عصيدة قتل علماء تونس هداج بن الكعوب بسبب اهانته المسجد ، فانه دخله بأخفافه فقيل له فى ذلك ، فقال هكذا والله دخلت بها على السلاطين ، فقتل فى بعض زقاق تونس بأمر أبى عصيدة ، وقد ذكره الونشريسى فى كتابه المعيار قلت وهداج هذا هو ابن عبيد بن أحمد ابن كعب من بطون سليم ، وقومه يقال لهم الكعوب مشهورون بأرض افريقية ، وهو اذ ذاك سيدهم واستمرت الجزائر فى طاعة بنى عبد الواد ملوك تلمسان من سنة احدى عشر الى ان استولى ابو الحسن المرينى عليها ، وعلى افريقية وطرابلس سنة ثمان واربعين وسبعمائة ، وكان دوخ تلمسان قبل ذلك فكانت لدولته اذل ، ولامره اطوع . ولما جرت بأبى الحسن الوقعة المشهورة بالقيروان (739 هـ) ، واستقل ابنه أبو عثمان فارس بملك المغرب راجع بنو عبد الواد ملكهم ، واستقلت قد مهم بعد عثمان . وقد دخل أبو الحسن الجزائر ، وجمع جموعا وزحف لتلمسان ، وكان المصاف للقتال بتاسالة فكانت على أبى الحسن . وقتل ابنه الناصر ، وخلصه وانزمار السويدى الى جبل المصامدة بازاء مراكش . وتزاحف مع ابنه أبى عنسان حتى مرض ومات سنة اثنين وخمسين وسبعمائة (752 هـ — 1351 م) فى جبل عبد العزيز بن محمد الهنتاتى الذى اجاره وناصره وقاتل معه ولده ، وكان عنده فى غاية الرفعة ، وتحفظ به فى مرضه وقام بمرونته ، وجعله فوق اعواد نعشه ، وبعثه الى السطان أبى عنان ابنه ، فلقى النعش باكيا راجلا حافيا منكبا من مصيبته ، وهو يقبل الارض بين يدى جنازته ، وعفا عن عبد العزيز واحسن اليه فكان له بعد ذلك يد عليه . ثم ان ابا عنان لما استقام له المغرب زحف الى تلمسان ففتك بهم واستلحهم حتى كاد ان يستأصلهم وذلك فى سنة ثلاث وخمسين من القرن الثامن (753 هـ — 1352 م) واستولى على المغرب الاوسط ، فكانت الجزائر له طوع اليد وولى عليها عاملا ، وبعث الى ابى عبد الله الذى ملك بجاية من الحفصيين يقيم الرصد على بنى عبد الواد ، فبعث العيون ، فعثروا على محمد بن سلطانهم ابى سعيد بن عثمان بن عبد الرحمان ، وعلى ابى ثابت أخيه ، وعلى وزيرهم ابن داوود فأوثقهم ، ثم بعث بهم الى ابى عنان فسالوا عن ابى ثابت بعد قتل ابى سعيد ليميزوه من يحيى بن داوود ، لعدم معرفتهم له فقال الوزير انا ابو ثابت وهذا يحيى فقتلوا الوزير (14) وخلوا عن ابى ثابت فجاد يحيى بنفسه لنجاة الامير ، وهذا أمر غريب لم اطلع على مثله الا في قضية كعب بن امامة لما اثر بالماء غيره ، ومات عطشا وبقيت تلمسان خرابا مدة سنين ، وكان رجل يقال له موسى بن صالح مشهور بالكهانة عنده علم من الحدثان يقال ان تلمسان يحرثها غلام اسود على ثور اسود فحرثت على هذه الصفة بسبب هذه الواقعة سنة ستين او احدى وستين (15) وكانت هذه تلمسان الجديدة يقال لها تكرارت ومعناها المعسكر ، لان عسكر يوسف بن

(14) هذا خبر غريب مخالف لما هو معروف من ان ابا ثابت عرف واخذ وقتل ولم يقتل احد مكانه

(15) ان تخريب تلمسان على يد ابى عنان انما كان عقب احتلاله لها سنة 753 هـ ومات قبل سنة 760 هـ واما ما اثبته هنا ابو راس فهو منه

تاشفين نزل هناك ، وقد بنى لهم موضع مشور ابو حمو المشهور الى الان فصار اهل المدينة ينتقلون حتى دثرت القديمة بسبب انشاء الجديدة ، ولما مات ابو عنان عادت دولة بنى زيان بمجد ملكهم وواسطة عقدهم السلطان ابى ثابت المتقدم وراجع ملكــه . ومن جملته الجزائر والحاصل أن الجزائر كان ملوك تلمسان ، وملوك افريقية يتداولون عليها ، فتكون لمن غلب عليها ومرة يتغلب عليها بعض مشايخها الى ان دخلها ملوك الاتــراك سنة خمســة عشر وتسعمائة (915 هـ)

داخل الفقيه الاعظم العلامة الاكرم سيدى احمد بن القاضى احد اباء المغارسة ملوك الزيانيين بتلمسان فى شأنه واشار اليهم بحرمه ومناجزته وكان هذا العالم من اهل مجاجة (16) وقد ذكر صاحب الدرر المكنونة فى نوازل مازونة فى نوازل النكاح وما يتعلق به وبنوه واخوته وقومه وهم الذين آووا ــ الشيخ على ابهلول الوطاسى واخذوا عنه العلم الظــاهر والباطن ووقفوا عليه الاوقاف وبعد موته رضى الله عنه خلفه ابنه الشيخ محمد بن على والشيخ ابو على فكان الشيخ عبد الرحمان بن عبد القادر صاحب المغارسة احد تلامذتهما نفعنا الله بهم اجمعــين ، فكان الشيخ من اكابر رؤســاء تلك الارض واكثر اغراء (17) بنى زيان بخير الدين فلم ينجح له شىء لان أمر بنى زيان قد ولى الادبار وضعف ملكهم وتقلص ظلمهم لا سيما وقد اخذت من اعمالهم وهران يومئذ وكان بذلك العصر فى تلك الارض علماء اعلام وفقهاء عظام منهم من ذكرنا وغيرهم كالامام المغيلى المدفون بتلمســان والونشريس صاب المعيار المدفون بفاس وابى عبد الله المغراوى وقد بنى له بحافة شلف تبتان وقبلهم من اهل التاسع سيدى احمد المريض مستوطن احد مداشر وانشريس وكان معاصرا لابن عرفه وقبله من اهل السابع ابو العباس احمد المليانى كان صاحب فقه ورواية وقد ذكره فى المعيار وكذا ذكره صاحب الدرر وقد انتهت اليه فى عصره رياسة الشورى بالمغرب الاوسط وكان ابنه ابو على خلو من ذلك منهمكا فى الرياسة فلما راى فتن مغراوة مع يغمراسن استولى على مليانة وبويع له بها فجهز اليه المنتصر سلطان تونس جيشا لنظر اخيه الامير ففتح مليانــة عنوة ، وفر ابو على للعطاف ، وعقد لبنى منديل على مليانة وقد كان قبلهم بنوورسيفن منهم مســكنهم الباديــة والامــام المــازونى المــذكــور هو الذى جعل كتابا فى نسائب (18) قبائل اهل المغرب الاوسط ، وقد ذكر فيه أن المحال اهل البطحاء من هلال ، كما قال ابن خلدون وان الذين يقال لهم المضارب كبنى دقيش وبنى حميرة العبد ، وبنى هداج من بنى مخزوم ، من ذرية صعصعة بن حارثة ومن ذرية هشام بن اسماعيل المخزومى وقد اجمل ابن خلدون والمشاهد الان من اقرار المحــال

(16) هناك من يذهب الى أن احمد بن القاضي المعز هو الذى ينتسب الى جرجرة وكانت له امارة بكوكو القريبة من عين الحمــام أوميشلي

(17) هكذا بالاصل ولعل صوابه وأكثر غزو لبنى زيان (17) بياضي بالاصل

(18) هكذا بالاصل والاصوب انساب بدل نسائب

للمضارب بالسيادة والتعليم والتسليم لهم يشهد للمازوني ، وقد كان قبل تلاشي أمرهم وركود ريحهم لا يزوجون بناتهم للمحال مع ان المحال لا يتوهمون ذلك ، ولا يطمعون فيه ، تعظيما لهم وقد اخذ ذلك عن آبائهم ومن المضارب نفر قبيلة الشكالة ونفر باولاد فارس ونفر باولاد سلي وكلهم درس ذكرهم ، وعفت مراسمهم وقد يقال ان الولي الصالح سيدي الناصر بن عبد الرحمان المدفون بالصحراء بالواد المشهور من بني مخزوم والله أعلم بذلك ، ولنرجع الى ما خرجنا عنه ، ثم ان خير الدين نافسه ايضا محمد بن علي من رؤساء عرب افريقية ، وسعى به الى ملوك بني حفص بتونس ، وكانت بينهم حروب يقال ان محمد بن على هلك فيها ، ثم ان أهل المغرب الاوسط وفدوا على خير الدين واتوا به الى ارضهم فاستعمل في طريقه على قلعة بني راشد اخاه اسحاق ولما دخل تلمسان استعمل عليها اخاه عروج ، ثم بعد منصرفه تعصب المسعود من ملوك تلمسان بجيش عظيم وخطب على منبر الجامع الاعظم ، وذكر شأن ملك الجزائر ، ورغب الناس في ملك آل عبد الواد ، وهجموا على عروج فأخرجوه منهم ، ثم زحف اليهم بمن معه ، وكان شديد البأس فدخل تلمسان عنوة وقتل سبعة من المترشحين للملك من بني زيان ، ونحو الستين من بني عمهم أولاد عبد الواد ، واكثر من الف من اهل البلد ، وعاث في تلمسان ، ثم سكنت الفتنة ، ولما راى المسعود أستقامة عروج بتلمسان ، دخل وهران فزحف بالنصارى الى اسحاق بالقلعة ، ورموا عليها من البراق ولما علم اهلها قوة العدو وضعفهم صالحوه على تسليم البلد ، ثم لما خرجوا غدروا بهم وقتل اسحاق وقال العلامة الصباغ وكان ابي ممن قتل يومئذ ، ثم زحف بالنصارى لتلمسان لحصار عروج ، فلما طال امر الحصار عليه خرج بمن معه من الجيش والبطانة راضيا من الغنيمة بالسلامة ، فلحقوه بجبل بني موسى ، وقتلوه ، ومن معه يوم عيد الفطر من سنة خمس وثلاثين وتسعمائة (935 هـ — 1528 م) بعد ما ملكها نحو السنة ، وقيل ان عروج لما دخل تلمسان وعاث بها ثاروا (19) عليه أهل البلد وأخرجوه منها ، وخافوا من عودته ففزعوا الى ولي الله ابن ملوكة فدعا عليه ، فهلك بجبل بني ورنيد والله أعلم ، ورايت في بعض فتوحات الجزائر أن خير الدين دخل تلمسان مرتين مرة لما استعمل عليها أخاه ومرة بعد موته ، وقد عمل بها حامية من الاتراك في المرة الثانية ، فهي باقية الى الان فأذهب فتنتها ، وحسم داءها فلم يعد ، ثم ان خير الدين شمر للمدافعة عن الجزائر في البر والبحر ، وقد كانت المرسى اذ ذاك للاسبانيين من جزر الكفرة ، وكان لهم بها حصن هو الذي فيه الفنار الان ، وكانوا مدتهم مع المسلمين بين نفرة واستقامة ، وصلح وغدر ، وكان حصنهم يدور به الماء من البحر ، واما الطريق التي به الان فانها عملتها الاتراك ويذكر ان بني مزغنة قبل بناء بلكين بن زيري الجزائر كانوا يؤدون الخراج لاهل البرج (20) وكذا اكثر متيجة ، فلما بناها بلكين الصنهاجي وحصنها بالاسوار وانزل

---

(19) هكذا بالاصل على اللغة المرجوحة

(20) يبدو ان في هذا مبالغة لان هذا البرج انما بني قبل مجيء الاتراك بسنوات قليلة

بها الجيوش انتصرت النصارى على عادتهم، ورضوا بدل الخراج بالبيع والشراء معهم ، ولم يزل خير الدين يحّاصره ويقاتله ، ويعالجه ، الى ان فتحه سنة ثمان واربعين وتسعمائة (948 هـ — 1541 م) وقطع طمع بنى زيان من تلمسان سنة ستة وخمسين ، وقد رايت فى بعض فتوحات الجزائر فى سيرة خير الدين الاولى سنة خمس عشرة من العاشر ، وبنى لها السور سنة اربع وعشرين منه (924 هـ) وانظر قوله بنى السور مع ما مر لنا أن يحيى ابن غانية طلب منديل ابن عبد الرحمان على سور الجـزائر اول القرن السادس ، ولعله السور الثانى ، أو أن خير الدين رم الاول والله اعلم .

هذا وقد كان النصارى من كل جنس يغزونها قديما والحرب بيننا عليها مستديما ، واول غزو النصاري لها بعد استيلاء الاتراك عليها سنة خمس وعشرين وتسعمائة (925 هـ — 1519) فى ثلاثمائة وعشرين جفنا ، فهزمهم الله بعد ما قتل منهم خلق كثير يزيد على عشرة الاف وغزوها مرة اخرى ايام خير الدين ايضا فهزمهم الله ، واسر المسلمـون منهم نحو الثلاثة الاف ثم غزاها الطاغية بنفسه لما استولى المسلمون على برج المرسى وذلك سنة ثمان واربعين (948 هـ — 1541 م) كما مر فى زهاء سبعمائة سفينة فبعث الله ريحا كسرت مراكبهم ، ومن خـرج منهم للبر قتل ، حتى أن الطاغية رجع فى اثنى عشر مركبا وكل هذا أيام خير الدين رحمه الله ، وله لقبان الاول باشا كما هو المعروف فى نواب العثمانى على الاقطار والثانى دولاتلى ونظير هذه الغزوة غزوة قسطنطين ابن هرقل لما اخذت اسكندرية واستولى المسلمون على كنيستها العظمى ، وقد كان المسلمون اخذوها قبل ذلك فى خلافة عمر ، ثم رجع لها النصارى بعد ذلك اول خلافة عثمان ، فأخرجوا منها ايضا وحلف عمر بن العاص ليتركنها كبيت الزانية توتى من كل جهة فلما سمع قسطنطين بهدم حصونها غزاها فى الف مركب فى الشتاء فأغرقتهم الريح كلهم الا مركبة نجا الصقلية ، فادخلوه الحمام ووثبوا عليه ، فقتلـوه جزاء له على فعله وغزوه فى ذلك الفصل وغزا ايضا الانكليز فى أيام رمضان باشا فى ثلاث وعشرين مركبا عظاما فرموها بالبونبة فلم تفد شيئا وذلك سنة احدى وسبعين والف· وغزاها الفرنسيون سنة ثلاث وتسعين والف (1093 هـ — 1682 م) فى خمسة وعشرين مركبا فى ولاية حسن باشا ، ورموها بالبونبة فهدموا اكثر دورها ، وبعض مساجدها ، وكذا رموا على شرشال واقتنص المسلمون مركبا لهم فيه جملة من اكابرهم ففرحوا بذلك فرحا شديدا ورجع الكفرة بلا نائل ، ولم يحصلوا منها على طائل ، ثم غزاها ايضا الفرنسيون فى العام الذى بعده فى أيام الباشا المذكور فى زهاء ثمانين مركبا ورموا بالبومبة فى ثالث الايام من قدومهم ، فأتت قدرة بونبة بدار الامـارة فضاقت مذاهبه ، وصالحهم من ساعتـه على أن يسرح لهم الاسارى بلا مشورة احد من اهل دولته وعلى ان يبذل لهم ما صرفوه فى تلك الغزوة ، ورجع اعداء الله مسرورين ، وبعد ذلك بيسير قتله الاتراك وولوا حسن باشا ، وكان قبل الامارة يعرف حسن رايس فبعث للعين من ساعتـه ابعث اسـارى المسلمين ان شئت تمام الصلح ، على ان لا شيء لك فلما سمع اللعين غزاها من عامه فهدم منها نحو

الثلاثمائة دار ، واستشهد فيها نحو الاربعين ، ثم رجع عدو الله من غير طائل ، ثم غزاها الاسبانيون سنة تسع وثمانين ومائة والف (1189 هـ — 1778 م) فى ولاية محمد باشا ، وخرجوا ازاء الحراش فى البر وجعلوا ترسا من حطب ولوح وغير ذلك ، واوقدوا نار الحرب وباتوا ليلتهم فى موضعهم ، فلما كان قبيل الفجر صبيحة يوم الاحد هزمهم الله ومات منهم ما لا يحصى عددهم الا الله تعالى . ورجعوا خائبين ولم ينالوا خيرا واستشهد من المسلمين نحو اربعمائة حفرت لهم مقبرة بازاء عين الربط [21] وقد اتووا الغزوة فى خمسمائة مركب وبقيت عظامهم مائلة فى رمال الحراش أعصارا وقد حضر هذه الوقعة المنصور بالله ابو الفتوحات سيدى محمد بن عثمان باى معسكر فظهر من اقدامه واعتنائه مقامات تعد من مفاخر دولته ، وذكرا له آخر الايام . ثم غزاها الاسبانيون أيضا سنة سبع وتسعين (1199 هـ — 1784 م) فهدموا بالبونبة ازيد من مائتى دار ، وطلبوا الصلح فلم يجابوا ، ورجعوا خائبين ثم غزاها أيضا السنة التى بعدها ، فزحف لهم المسلمون فى البحر وردوهم على اعقابهم فرجعوا بلا طائل ، ثم جاؤوا سنة تسع وتسعين أى من هذا القرن طالبين للصلح فى الحال ، باذلين القناطير من الاموال راضين بدخولها للتجارة لما ايسوا من الظفر وقدموا فى ذلك علجة من بيوتاتهم على عادتهم الذميمة لعنهم الله فابرم الصلح بينهم وبين المسلمين وكل ذلك أيام محمد دولاتلى ومات رحمه الله سنة خمس ومائتين والف (1205 هـ — 1790 م) أيام السلطان سليم بن السلطان مصطفى العثمانى .

---

(21) عين الربط هي تقريبا ميدان المناورات وما يتصل بها

مدينة مليانة عبر العصور

• مولاي بلحميسي

القسم الاول الى نهاية القرن 18 م

ان موقع هذه المدينة الشهيرة فى قلب المغرب الاوسط وتاسيسها بين اهم عواصمه ووجودها من بين ثغور بعض الامارات ، بمكان تبرعت فيه الطبيعة بكل ما يحلم به القاطن والزائر من مياه وزرع وضرع وفواكه وخضر ... كل هذا جعل منذ فجر التاريخ ، مليانة تلعب دورا سياسيا وعلميا وتجاريا رغب الكثير من الملوك والامراء فى امتلاكها . فلا يخلو عصر من عصور بلادنا الا وتحدث فيه التاريخ عنها .

وننتهز فرصة الاحتفال السعيد بمرور الف سنة على تاسيس هذه المدينة لنقدم لقراء « الاصالة » مع كثير من الايجاز اهم الحوادث والاخبار فى مختلف العصور التى مرت على هذه البلدة .

1) ـ « مليانة » وحقيقة اسمها

اختلف المؤرخون والجغـرافيون من مسـلمين وغربيين فى تسمية المدينة .

فقد سماها المؤرخ الاسبانى مارمول Marmol « مليان » Miliane (1) وقال انها كانت تسمى قديما « منيانة » Magnana وأما الانكليزى شاو Shaw فانه يقول : منيانه Maniana ومليانة Maliana وذلك بناء على النطق المحلى (2) وجاء فى معجم البلدان لياقوت مايلى : « مليانة (بالكسر ثم السكون وياء تحتها نقطتان خفيفة وبعد الالف نون) هى مدينة فى آخر افريقية بينها وبين تنس (!) اربعة ايام » (3) .

ويدعى بعض العارفين من سـكان الناحيـة ان « مليانة » مشتقة من « ملآنة » لما فى الناحية من خيرات .. ويقول ر . باسى R. Basset : اذا اعتبرنا ان احد « القصور » بتوات يسمى بمليانة مثل فرقة المحالى فاننا لا نقبل الكلمة الاتينية « مليانة Maliana كتسمية اولى لهذه المدينة .

وبما أن بلكين بن زيرى ، مؤسس مليانة كان من صنهاجة فانه من المحتمل ان قبيلة مليانة من بنى هندل هى ايضا من صنهاجة استـوطنت الونشرس ايام بلكين . . مثلما استمدت مدينة المدية اسماها من قبيلة صنهاجية تعرف بالمدية . (4)

الموقع الجغرفى

تقع مليانة عش العقاب فى منطقـة مرتفعة بين خطى : طول 0 درجة 7 دقائق ، غربا وعرض : 36 درجة 18 دقيقة . وعلى ارتفاع يتراوح بين 726 و749 م .

تقع المدينة غرب الدائرة التى تسمى باسمها وهى دائرة مليانة ، التى تبعد عن الاصـنام 99 كلم . وعن العاصمة 120 كلم بحيث تقع فى الجنوب الغربى منها . تبلغ مساحة المدينة 23773 هكتارا . ويحيط بها مجموعة من الجبـال : كجبال زكار الشـرقى والغربى اللذين يبلغ اعلى ارتفـاع فيهما 1579 م ويطلان على المدينة . اما من الجنوب فيربطهما مضيق صغير . وتطل من الشرق والجنوب على وادى شلف . لها جو معتدل وتجرى فيها مياه كثـيرة وعذبة تديم اخضرار الناحية وهىمحاطة بالحدائق الغناء وتنبنى اهميتها اليوم على موقعها الاقتصـادى والفلاحى حيث انها تحتوى على سوق كبير ومناجم وبها مزار الولى الصالح سدى احمد بن يوسف .

وقال الكتاب القدماء انها تقع على بعد ميلا من مدينة سرجال (شرشال) فى داخل البلاد . وعلى بعد 14 ميل من الجزائر نحو الغرب . إما بتوليمى (Ptolémée) فقد وضعها فى خطى طول 15 درجة 50 دقيقة وعرض 28 درجة 50 دقيقة . (5)

اما الرحالة شاو فيقول أنها تقع على سفح هذه

1) مارمول : وصف افريقية ج 2 ص 396 ـ 397
2) الاسد الافريقى وصف افريقية ج 2 ص 345 ، وشـاو : اسفار Travels ص 282 ـ 284
3) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج 7 ص 155
4) ر . باسى R. BASSET : étude sur la zénatia de l'Ouarsenis et du Maghreb Central. Paris 1895 P. 2.
5) مارمول : نفس المرجع



تنسب هذه الدار لبلكين بن زيري مؤسس مدينة مليانة وقد اجريت عليها تعديلات



الصهاريج التي بناها في بداية الامر بلكين لحاجات جيله وهي اليوم مسبح للاطفال



حي الناصر : تهاطل الامطار العذبة وقبر ابي العباس احمد المليانى

الجبال وعلى ارتفاع 400 تواز (toises) فوق (1) السهل وتبعد بميلين من ناحية الشرق والشمال الشرقى من مدينة الاربعاء .

مليانة عبر العصر

ما قبل الاسلام

اجمع معظم المؤرخين على ان المدينة قديمة ازلية (2) « رومية فيها ابار وانهار تطحن عليها الرحى » (3) وفيها آثار . وذكر كورتوا (Courtois) انها من اكبر مدن موريطانية القيصرية على هضبة تطل على وادى شلف وتحتل اخصب اراضى الناحية يسقيها واد بوتان (Butane) ويضيفون انها شيدت على انقاض المدينة الرومية المعروفة بزوكابار Zuchabar التى ظلت آثارها واقفة حتى عصر البكرى .

وشاهد الرحالة الانكليزى شاو كثيرا من اطلالها فى القرنين 17 و18 ميلادى . « يوجد حاليا بمليانة بقايا من المعمار الرومانى وشاهدت على بعض اسوارها الحديثة نصبا تذكاريا عليه كتابات تلقى اضواء جديدة ترجح ان حفيد هذا القائد العظيم بومبى (Pompée) وابن حفيده مد فونان فى مليانة « وهذا ما جاء على اللوحة :

Q. POMPEIO
C.N.F. QUIRIT CLEMENTI LA...
DUUR EX TESTAMENTO
Q. POMPEO F. QUIA. ROGETI FATRIS SUI
(1) MABRA POSUIT
POMPEIO Q. P.

1) تواز ـ مقياس يساوى ستة اقدام مقياس الطول للانسان ـ
2) ابن حوقل : كتاب صورة الارض ج 1 ص 90
3) ياقوت : نفس المرجع ـ البكرى : المغرب
Jullen, Histoire de l'Afrique du Nord - I, 172 Ptolémé et Mémoire d'Antonin (4





توفى سيدى أحمد بن يوسف بمليانة ودفن بها وذلك حوالى 931 هـ . وفى القرن الثامن عشر أمر الباى محمد الكبير باى وهران ببناء الضريح والزاوية كما تدل على ذلك مجموع الصور هاته

العهد الاسلامى

وان كانت مليانة مدينة قديمة فان اهميتها الحقيقية قد برزت فى العهد الاسلامى عند ما اختطها بولكين ابن زيرى بن مناد (1) وفى ذلك قال ابن خلدون : « واختط (زيرى) مدينة اشير للتحصن بها سفح الجبل المسمى تيطرا لهذا العهد حيث مواطن حصين وحصنها بأمر المنصور ، وكانت من اعظم مدن المغرب . واتسعت بعد ذلك خطتها واستبحر عمر انها ، ورحل اليها العلماء والتجار من القاصية . وحين نازل ابا اسمعيل المنصور ابا يزيد لقلعة كتامة جاءه زيرى فى قومه ومن انضم اليه من حشود البربر ، وعظمت نكايته فى العدو وكان الفتح . وصحبه المنصور الى ان انصرف من المغرب ووصله بصلات سنية . وعقد له على قومه وأذن له فى اتخاذ القصور والمنازل والحمامات بمدينة اشير . وعقد له على تاهرت واعمالها .

1) بلكين بن زيرى بن مناد من اشهر امراء صنهاجة فى خدمة الفاطميين قضى حياته كلها فى محاربة زناتة بالمغرب الاوسط حتى اقصاهم عن البلاد واستولى على المسيلة والزاب وكما استولى على فاس وسجلماسة وهزم برغواتة حتى وافاه الاجل وهو فى طريق العودة 373 ـ 984



مليانة : من بقايا مسجد البطحا، الذى أسس فى بداية العهد التركى ، والذى خربه الجنرال ليشار سنة سنة 1844

ثم اختط ابنه بلكين بأمــره وعلى عهده مدينــة الجزائر المنسوبة لبنى مزغنة بساحل البحر ومدينة مليانة بالعودة الشرقية من شلف ومدينة لمدونة . وهم بطن من بطون صنهاجة وهذه المدن لهذا العهد من أعظم مدن المغرب الاوسط (1) . ولعل ابن خلدون يقصد التوسيع والتعديل والتجديد بحيث اصبحت المدينة من امصار المغرب . قال ابو عبيد البكرى « جددها زيرى بن مناد واسكنها ابنه بلجين وهى عامرة ومنها الى مدينة الخضراء .

وهى أولية شريفة .. وهى مشرفة على جميع ذلك الفحص الذى فيه بنوواريفن (2) وهى عامرة آهلة على نهر ولها آبار عذبة وسوق جامعة ومنها الى مدينة اشير . . » (3) .

وعرفت مليانة فى العهد الزيرى خاصة ازدهارا مرموقا فى الزراعة والتجــارة مما جعل الشــريف الادريسى يقول : « وهى مدينة صغيرة حصينة على نهر صــغير عليه عمارات متصلة وكــروم وبها من السفرجل كل بديع ولها سوق وحمام وسوقها يجتمع اليه اهل الناحية » (4) . .

وتواصل ازدهارها وكثرت الثروة وتردد عليها الرحالون فأجمعوا على محاسن الموقع وكثرة المياه ورخاء العيش « ومن بين اخبارها فى ذلك العهد ما قاله صاحب كتاب الاستبصار وهى مدينة حصينة فى سفح جبل يسمى زكار وشعار هذا الجبل كله ريحان وينبعث من هذا الجبل عين خرارة عظيمة تطحن عليها الارحية لقوتها ولمدينة مليانة مياه سائحة وانهار وبساتين فيها جميع الفواكه وهى من اخصب بلاد افريقية وارخصها اسعارا . ومدينة مليانة مشرفة

1) ابن خلدون : كتاب العبر ج 6 ص 313 طبعة بيروت

2) فى ملتقى وادى الفضة ونهر شلف شرقى الاصنام

3) البكرى : كتاب اغلرب فى ذكر بلاد افريقة والمغرب طبعة دوسلان ض 61 و 69 ـ مضيفا ان اليعقوبى وفورنال ان مليانة ومدكرى او متغرى Medkara ou Metghara شى، واحد

4. الشريف الادريسى : نزهة المشتاق فى اخترا، الآفاق

على فحوص واسعة وقرى كثيرة عامرة ومزارع واسعة وحولها قبائل كثيرة من البربر ويشق تلك الفحوص نهر شلف وهو نهر كبير مشهور (1) » .

الصراع بين الموحدين وبنى غانية فى القرن 12 م

عند ما سقطت دولة المرابطين قام على بن اسحاق بن على صاحب الجزر الشرقية لمناهضة الموحدين ونقل المعارك الى المغرب الاوسط ضد الدولة الجديدة مستعينا ببنى هلال وببعض القبائل البربرية وبعد ما استولى على بجاية فى شعبان 580 هـ / نوفمبر 1184 م زحف نحو وادى الساحل متجها نحو الغرب فدخل مدينة الجزائر وعين على راسها يحيى ابن اخيه طلحة ثم واصل الزحف نحو الغرب الى ان استولى على موزاية ومليانة . ثم توقف لاحد السببين : قيل لعدم انضمام قبائل مليانة فى صفوفه وقيل لان السلطان ابا يوسف يعقوب غادر الاندلس والتحق بالمغرب لمحاربة بنى غانية وترك على بن اسحاق بمليانة واليا يسمى : يدر بن عائشة من قبله ثم رجع الى النواحى الشرقية . 2

وارسل الخليفة ابو يوسف يعقوب جيشا عرمرما لمطاردة بقايا المرابطين فثار اهل مليانة وخرجوا على طاعة ابن غانية وبايعوا من جديد الموحدين ولم يستطع ابن عائشة مواجهتهم فغادر مليانة فارا بين جبال الناحية الىانهم القواعليه القبض وقتلوه وبقيت مليانة تحت امر بنى منديل .

عهد دول المغرب

كانت مليانة طيلة قرنين كاملين موضوع نزاع وسبب حروب بين الحفصيين والزيانيين وبنى مرين وكانت الضغائن بين مرين وبنى عبد الواد قديمة ناشئة عن الجوار فى الموطن ثم الملك وعن المنافسة فى الاستقلال برياسة زناتة .

فلما احتضر يغمراسن اوصى خلفه بمسالمة مرين ... ولكن مرين لا يرضيها مقاسمة بنى عبد الواد رئاسة زناتة فكانت تتجنى عليهم وكانت ايام السلم بينهما هى ايام اشتغالهما بفتن داخلية .

ففى القرن الثالث عشر تولى ابو محمد عبد الله الحفصى قيادة الناحية الشرقية واستقر فى تونس ومنها واصل الحرب ضد يحيى بن غانية فى منتصف سنة 624 هـ / 1227 م ثم انتقل الى مليانة مقر بن غانية وطرده منها فاضطر يحيى الى الفرار بعيدا الى ان وصل الى سجلماسة غير انه عاد الى مليانة سنة 633 هـ / 1237 م فتوفى فى ضواحيها .

ولما استوثق الملك بتلمسان ليغمراسن بن زيان واستفحل سلطانه بها طمع فى التغلب على امصار المغرب الاوسط فزاحم بنى توجين وبنى منديل فاستغاثوا ببنى حفص . فنهض ابو زكرياء الحفصى وغزا تلمسان وتوقف بمليانة فعقد للعباس بن منديل على مغراوة . فعقد العباس السلم مع يغمر اسن ولماتوفى العباس قامبالامر بعده أخوه محمد ابن منديل فصلحت الحال بينه وبين صاحب تلمسان ونفر معه بمغراوة الى غزو المغرب سنة كلدمان .

1 مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار ص 59

2 تابع عبد المؤمن فتوحاته بالجزائر بعد ما امتلك منها جميع اعمالها الغربية فتقدم الى الشرق وغزا نواحى وتشريس واحتل مليانة سنة 544 هـ ـ 1149 م ، وانتهى حكم المرابطين بالمغرب الاوسط

وهى سنة سبع وأربعين وستمائة 647 وهزمهم فيها يعقوب ابن عبد الحق فرجعوا الى أوطانهم، وعاودوا شأنهم فى العداوة . وانتقض عليهم اهل مليانة وخلعوا الطاعة الحفصية وكان من خبر هذا الانتقاض ان ابا العباس أحمد المليانى (1) كان كبير وقته علما ودينا ورواية ، وكان عالى السند فى الحديث ، فرحل اليه الاعلام ، واخذ عنه الايمة ، واوفت به الشهرة على ثنايا السيادة فانتهت اليه رئاسة بلده على عهد يعقوب المنصور وبنيه . ونشأ ابنه ابو على فى جو هذه العناية ، وكان جموحا للرياسة طامعا الى الاستبداد ، وهو مع ذلك خلو من المغارم ، فلما هلك ابوه جرى فى شاو رئاسته طلقا ثم راى ما بين مغراوة وبنى عبد الوادى من الفتنة ، فحدثته نفسه بالاستبداد ببلده فجمع لها جراميزه وقطع الدعاء للخليفة المستنصر الحفصى سنة تسع وخمسين . وبلغ الخبر الى تونس ، فسرح الخليفة أخاه أبا حفص فى عسكر من الموحدين فى جملته «ذون الريك بن هراندة»، من آل اذ فونش ملوك الجلالقة ، وكان نازعا اليه عن أبيه فى طائفة من قومه ، فنازلوا مليانة اياما وداخل السلطان طائفة من مشيخة البلد المنحرفين عن أبى على المليانى ، فسرب اليهم جندا بالليل ، واقتحموها من بعض المداخل ، وفر ابو على المليانى تحت الليل ، وخرج من بعض قنوات البلد ، فلحق باحياء العرب ونزل على يعقوب بن موسى امير العطاف من بطون زغنة ، فأجاره الى ان لحق بعدها بيعقوب بن عبد الحق ، وانصرف عسكر الموحدين والامير ابو حفص الى الحضرة تونس وعقدوا لمحمد



عقد تعيين امير الحج وفى الخلف طابع محمد عثمان سنة 1179

بن منديل على مليانة . فأقام فيها الدعوة الحفصية على سنن قومه ، ثم هلك محمد بن منديل سنة اثنتين لخمس عشرة من ولايته ، قتله أخواه ثابت وعايد بمنزل ظواعنهم بالخميس من بسيط بلادهم ، وقتل معه عطية ابن اخيه منيف . وشاركه ثابت فى الامر واجتمع اليه قومه ، وتقطع بين اولاد منديل ، وخشنت صدورهم . واستغلظ يغمراسن ابن زيان عليهم ، وداخله عمر بن منديل أخوهم فى ان يمكنه من مليانة ويشد عضده على رياسة قومه ، فشارطه

1) انظر فيما بعد ترجمة هذه الشخصية البارزة

على ذلك وامكنه من ازمة البلد سنة ثمان وستين ، ونادى بعزل ثابت ومؤازرة عمر على الامر فتم لهما ما احكماه من امرهما فى مغراوة . واستمكن بها يغمراسن من قياد قومه . ثم تناغى اولاد منديل فى الازدلاف الى يغمراسن بمثلها نكاية لعمر فاتفق ثابت وعايد اولادمنديل على ان يحكماه فى تنس ، فامكناه منها سنة اثنتين وسبعين على اثنى عشر الفا من الذهب .

واستمرت ولاية عمر الى ان هلك سنة ست وسبعين ، فاستقل ثابت بن منديل برياسة مغراوة ، واجاز عايد اخوه الى الاندلس للرباط والجهاد مع صاحبيه زيان بن محمد بن عبد القوى ، وعبد الملك بن يغمراسن فحول زناتة واسترجع ثابت بلاد تنس ومليانة من يد يمغراسن ونبذ اليه العهد . ثم استغلظ يغمراسن عليهم واسترد تنس سنة احدى وثمانين بين يدى مهلكه . ولما هلك يغمراسن وقام بالامر ابنه عثمان انتقضت عليه تنس ، ثم ردد الغزو الى بلاد توجين ومغراوة حتى غلبهم آخرا على ما بايديهم وملك المدية بمداخلة .. بنى لمدية اهلها سنة سبع وثمانين .

ولم يزل عثمان مراغما الى ان زحف اليهم سنة ثلاث وتسعين ، فاستولى على امصارهم وضواحيهم واخرجهم عنها والجأهم الى الجبال . ودخل ثابت بن منديل الى برشك ممانعا دونها ، فزحف اليه عثمان وحاصره بها ، حتى استيقن انه احيط به ، ركب البحر الى المغرب ، ونـزل على يوسف بن يعقوب سلطان بنى مرين صريخا سنة اربع وتسعين ، فأكرمه ووعده بالنصرة من عدوه ، واقام بفاس .

وكان ثابت بن منديل قد اقام ابنه محمدا للامر فى قومه وولاه عليهم لعهده واستبد بملك مغراوة دونه ولما انصرف ابوه للمغرب أقام هو بامارته على مغراوة ثم مات بعد مدة من وفاة ابيه . فخلفه شقيقه على فقام عليه اخواه وحاربوه .

وعند ما نهض يوسف بن يعقوب الى تلمسان سنة 698 هـ وحاصرها عقد على مغراوة وشلف لعمربن ويغرن بن منديل وبعث معه جيشا فافتتح مليانة وتنس ومازونة سنة 699 هـ / 1299 — 1300م ، ووجد راشد فى نفسه اذ لم يوليه على قومه ، وكان يرى انه لاحق بنسبه وصهره ، فنزع عن السلطان ، ولحق بجبال متيجة ، ودس الى اوليائه فى مغراوة حتى وجد فيهم الدخلة فأغذ السير ولحق بهم ، فافترق امر مغراوة . وداخل اهل مازونة فانتقضوا على السلطان وبيت عمر بن ويغرن بازمور من ضواحى بلادهم فقتله ، واجتمع عليه قومه ، وسرح السلطان اليه الكتائب من بنى عسكر .

ولما هلك يوسف بن يعقوب بمناخة على تلمسان آخر سنة 706 هـ / 1307 م وانعقدت السلم بين حافده ابى ثابت ، وبين ابى زيان بن عثمان سلطان بنى عبد الواد على ان يخلى له بنو مرين عن جميع ما ملكوه من امصارهم واعمالهم وثغورهم ، وبعثوا فى حاميتهم وعمالهم واسلموها لعمال ابى زيان ، وكان راشد قد طمع فى استرجاع بلاده ، وزحف الى مليانة فاحاط بها ، فلما نزل عنها بنو مرين لابى

زيان وصارت مليانة وتنس له ، اخفق سعى راشد وافرج عن البلد .

ثم كان مهلك ابى زيان قريبا ، وولى اخوه ابو موسى بن عثمان . فاستولى على المغرب الاوسط فملك تافر كينت سنة 707 هـ / 1308 م وملك بعدها مليانة والمدية ، ثم ملك تنس وعقد عليها لمسامح مولاه .

مليانة فى العهد التركى

فى بداية القرن السادس عشر قدم الى الجزائر اخوان وهما عروج وخير الدين . وبعدما استوليا على مدينة الجزائر ، نهض عروج لبسط نفوذه نحو الجهات الغربية من البلاد .

فاحتل ما بين 1516 و 1517 مليانة وتنس رغم مقاومة صاحب الامارة : حميد العبد . وكانت مليانة فى هذا العهد التركى تابعة لبايلك الغرب وعاصمته مازونة ثم عند ما اعيد تنظيم الايالة اداريا اصبحت مليانة تابعة لدار السلطان وتحت حكم الباشا مباشرة .

وادرك الاتراك اهمية مليانة استراتيجية بما انها تشرف على الطريق الواصل بين الجزائر ومدن بايلك الغرب مثل تلمسان ، ومستغانم ، ووهران فاسكنوا بضواحيها قبائل المخزن وجعلوا منها «قناق» اى نهاية مرحلة (1) غير ان سكان الناحية وهم ريغة كثيرا ما خرجوا على الحكم الجديد ومن اشهر هذه الثورات ثورة « بوطريق » سنة 1544 قتل فيها حاكم الترك بمليانة فخرج اليهم صاحب الجزائر وهو الحاج بشير فهزمهم وبدد جموعهم .

وفى النصف من القرن السادس عشر مر بمليانة الحسن ابن محمد الوزان الفاسى المعروف بالاسد الافريقى فقال فى شأنها :

« مليانة تقع على قمة جبل وهو على اربعين ميلا (64 كلم) من البحر اى من شرشال . والجبل الذى بنيت فيه المدينة تتفجر منه عيون كثيرة وتكسوه غابات من شجر الجوز بحيث أن سكان الناحية لا يشترون هذه الفاكهة بل ولا يقطفونها .

وتحيط بالمدينة اسوار عتيقة . من جهة تطل صخرة على واد فى غاية العمق ومن جهة اخرى يوجد منحدر ينطلق من الهضبة الى وادى شلف يذكرنا بمدينة نارنى بقرب روما » (2) .

وحذا مارمول حذو الاسد الافريقى فى وصفه لمليانة وزاد :

ان ديار المدينة جميلة ونظيفة ولها كثير من العيون ويتعاطى كثير من سكانها الى النساجة وصنع السروج العربية والاكواب الخشبية الرائجة فى كل انحاء البلاد .

وتحيط بالمدينة بساتين واسعة حيث يوجد احسن ليمون فى المغرب كله . وكذلك البرتقال الذى ينقل الى تنس والى مدن اخرى ...(3)

تراجم مليانية فى القرن الثالث عشر

كانت مليانة فى ذلك العصر مركز اشعاع ثقافى وانتاج ادبى شهد بذلك اصحاب التراجم والرحلات ومن علمائها الذين كانت لهم المنزلة الأولى :

1) ارنست ميرسيى : تاريخ افريقية الشمالية ج 3 ص 137
2) الاسد الافريقى
3) مارمول : وصف افريقية ج 2 ص 396 ـ 397

1) على بن عمران بن موسى المليانى (644 هـ / 1246 م) ، ابو الحسن ، عرف بابن اساطير : فقيه ، اصـــولى كان له معرفة بأصـــول الديـــن والتصوف وعلوم الحكمة ، من اهل مليانة ، سكن بجاية وبها كانت وفاته سنة السبعين وستمائة (670) . ذكره الغبرينى وقال : « كان له علم بالوثيقة وكان من عدول بجاية وخيارها » .

2) احمد بن عثمان 675 هـ / 1276 م بن عبد الجبار المتوسى المليانى ابو العباس : فقيه ، مجتهد من اهل مليانة : اخذ عن شيوخ بلده ثم رحل الى المشرق ولقى جماعة من الاعلام ، وعاد وسكن بجاية واقــرا بها توفى بمليانـــة . لـــه « تقييدات » على كتاب التلقين للامام محمد بن على بن عمر المازرى المتوفى سنة 536 هـ .

شهدت مليانة فى القرن الرابع عشر عدة غارات تجعلها تارة تحت حكم الزيانيين واحيانا تحت سلطة غيرهم . وقد نهض اليها ابو سعيد عثمان سنة 1348م واسس من جديد امارة تابعة للزيانيين منها مليانة التى كانت خاضعة للمرينيين طيلة اثنى عشر سنة

وفى سنة 1375 م طرد ابو حمو الثعـــالب من الجزائر وبسط نفوده عليها غير ان هذا الاخير تغلب عليه ابو العباس المرينى فطرده بدوره . واضطر الى الالتجاء الى جبال بنى بوسعيد فـانجده ابنـــه أبو تشفين واحتل مليانة والتيطرى سنة 1387 م .

وفى أواخر هذا القرن سنة 1394 م حدث بين أبو تشفين الثانى وصـــاحب فاس نزاع فنشـــبت اضطرابات بين تلمسان وفاس وتوصل المرينى الى احتلال تلمسان ومنها واصل الزحف الى ان استولى على مليانة ودلس والجزائر .

وفى القرن الخامس عشر 15 اصبحت فيه مليانة والمدية وتنس تكون امارة مستقلة منفصـــلة عن تلمسان وبجاية لكن لمدة قصيرة اذ قام ابو عبد الله محمد المتوكل صاحـــب تنس فجمع سنة 1461 م جيشا عظيما وانطلق من مدينة مليانة فاستولى على بنى راشد ومستغانم ومزغران الى ان دخل تلمسان

غير ان اهل مليانة احتفضـــوا بشبه استقـــلال لبعدهم عن تلمسان وبقوا على هذه الحالة الى ان احتل عروج الناحية وذلك سنة 1517 .

ترجمـــة احمد بن على المليـــانى
(المتوفى 715 هـ / 1315 م)

احمد بن على المليانى ، ابو العباس : شاعر ، كاتب ، من اهل مليانة ثار عمه ابو على بن احمد المليانى — وكان من اعيان مليانة — على الحفصيين فى اواخر المائة السابعة ثم فر الى المغرب والتجا الى السلطان يعقوب المرينى فاقطعه السلطان بلدة أغمات اكراما له . وكان أحمد ممن رحل مع عمه الى المغرب بعد فراره ، فاكمل دراسته بمراكش واغمات وبعد وفاة السلطان يعقوب بويع لابنه يوســـف ، فاستعمل ابا على على جباية الاموال ثم نكبه وقتله واتخذ ابن اخيه ابا العباس احمد صاحب علامته ، فسعى أحمد الى الاخذ بثأر عمه ودبر مـــؤامرة ضد الواشين به حتى قتلهم ثم فر الى تلمسان والسلطان يوسف المرينى محاصر لها . وفى نحو السنة 703 هـ غادر تلمسان ولحق بمدينة غرناطة بالاندلس واستقر بها الى حين وفاته سنة 715 هـ ذكره لسان الدين بن الخطيب فى الاحاطة ، وقال (صاحب العـــلامة)

بالمغرب ، الكاتب الشهير البعيد الشأن في اقتضاء الثرة ، المثل المضروب في العفة ، وقوة الصريمة ، ونفاذ العزيمة . كان نبيه البيت ، شهير الاصـــالة رفيع المكانة على سجية غريبة كانت فيه من الوقار والانقباض والصمت ، أخذ بحظ من الطب حسن الخط مليح الكتابة قارضا للشعر ، يذهب نفسه فيه كل مذهب فتك فتكة شنيعة اساءت الظن بحملة الاقلام على مر الدهر وانتقل الى الاندلس بعد مشقة . فلم يعدم برا ورعيا مستمرا حتى اتاه حمامه وانصرمت ايامه » (عن لسان الدين بن الخطيب : الاحاطة) .

ترجمة احمد بن يوســـف المليـــانى

قال فى « سلوة الانفاس » (1) هو الشيـــخ الولى الصالح القطب الغوث الزاهد العارف العالم المحصل السالك الناسك المقرىء بالقـرآت السبعـــة المحقق الحجة أبو العباس احمد بن يوسف الراشدى نسبا ودارا المليانى . كان رحمه الله من اعيان مشائخ المغرب وعظماء العارفين احد اوتاد المغرب واركان هذا الشأن جمع الله له بين علم الحقيقة والشريعة وانتهت اليه رياسة السالكين وتربية المريدين بالبلاد الراشدية والمغرب بأسره واجتمع عند جماعة من كبار المشائخ من العلماء والصـــالحين من تلامذته واشتهر ذكره فى الافاق شرقا وغربا .

وأوقع الله له القبول العظيم والعطف الجسيم فى قلوب الخلق وقصده الزوار من كل حدب وتتابعت كرامته عليهم وظهرت انواره لديهم وكان متواضعا ورعا زاهدا يحبب الخلق فى الطاعة ويحرضهم على الذكر ويرشدهم الى الصراط المستقيم حتى تاب على يده خلق كثير وهداهم الله تعالى بسببه وهو من تلاميذ الشيخ زروق . ولما حج شيخ شيخه المذكور وهو الشيخ الاوحد العلامة الصالح أبو عبد الله الزيتونى نزل بموضع قريب من قلعته فأتى اليه فقبل الزيتونى رجليه وقال له قد اعطاك الله من قاف الى قاق فقال له المليانى هذا قليل بل اعطانى اكثر . وحكى أن بعض اصحابه قال له ان سيدى عبد الرحمن الثعالبى قا لمن رأى من رآنى لا تأكله النار الى سبعة فقال المليانى كذلك من رأى من رءانى لا تأكله النار الى عشرة وحلق له مرة حلاق راسه فقال له لو لا خفت عليك من الناس لقلت جميع من يجلس فى حجرتك لا تعدو عليه النار . وقال رضى الله عنه دعوت اللـــه فى ثلاث فأعطا نيها فى ليلة واحدة : طلبته ان يرزقنى العلم بلا مشقة فأعطانى على الظاهر والباطن وطلبته ان يبلغنى مبلغ الرجال فبلغنى فوقهم وطلبته ان يرينى المصطفى صلى الله عليه وسلم فى النوم فرايته فى اليقظة وفتح الله على فى علوم ببركته لم يطلع عليها غيرى يعنى من اهل عصره وعنه ايضا قال علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين بابا من العلم لم يعلم ذلك لاحد غيرى اى فى عصرى وقال ايضا جميع من اكل معى اوشرب أو جالسنى او نظر فى لا اسلم فيه غدا يوم القيامة وسئل رضى الله عنه عن السبحة هل يجوز أخذها باليمين فقال نعم يجوز ذلك وهو كـالمهماز للفرس ومن كلامه رضى الله عنه والله وثم والله من عرفنى حتى يندم ومن لم يعرفنى حتى يندم وقال

1) سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس ــ لمحمد بن جعفر الكتانى

ايضا : انما الح بعض اصحابى لمحة فيبلغ بها مقام الاولياء . وكلامه رضى الله عنه واخباره ومناقبه كثيرة جدا وقد استوفى بعضها الشيخ الفقيه العلامة ابو عبد الله محمد بن محمد بن احمد بن على الصباغ القلعى (1) النسب فى تاليف له جمعه فيه بالخصوص سماه «بستان الازهار فىمناقب زمزم الاخيار ومعدن الانوار سيدى احمد بن يوسف الراشدى النسب والدار » وقد أكرمنى الله تعالى بالوقوف عليه وهو فى مجلد ضخم غاية اهـ· مناصحابه ابوحفص سيدى عمر الشريف الحسينى بالتصغير الشـريف الجليل الولى الصالح الحفيل وسيد أحمد بن يوسف توفى سنة 927 (2) فيكون سيدى عمر الشريف من اهل القرن العـاشر وفى « نشر المثانى » (3) لسيدى عمر من صالحى فاس وروضته بها فى ربوة عدوة فاس الاندلس متصلة بروضة لسيدى غالب يفصل بينهما المحجة .

وفى « كتاب الاستقصاء لاخبـار دول المغـرب الاقصى » تاليف الشيخ أحمد بن خـالد الناصرى السلاوى مانصه : قال فى « الدوحة » : كان الشيخ ابو العباس احمد بن يوسف الراشدى نزيل مليانة تظهر على يده الكرامات وأنواع الانفعلات فبعد صيته وكثرت اتباعه فغلوا فى محبته وافرطوا فيها حتى نسبه بعضهم الى النبوة قال وفشا ذلك الغلو على يد رجل ممن صحب اصحابه يقال له ابن عبد الله فانه تزندق وذهب مذهبا باطلا على ما حكى عنه واعتقد هذا المذهب الخسيس كثير من الغوغـاء واجلاف العرب واهل الهوامن الحواضر وتعرف هذه الطائفة باليوسفية قال ولم يكن اليوم بالمغرب من طوائف المبتدعة سوى هذه الطـائفة وسمعت بعض الفضلاء يقول أنه قد ظهر فى حيـاة الشيـخ ابن العباس المذكور فلما بلغه ذلك قال من قال عنا ما لم نقله يبتليه الله بالعلة والقلة والموت على غير ملة . قال صاحب « الدوحة » : ولقد اشار الفقهاء على السلطان الغالب بالله بالاعتناء بحسم مادة فساد هذه الطائفة فسجن جماعة منهم وقتل آخرين وهؤلاء المبتدعة ليسوا من احوال الشيخ فى شيء وانما فعلوا كفعل الروافض والشيعة فى ائمتهم وانما اصحاب الشيخ كأبى محمد الخيـاط والشيخ الشيطى وأبى الحسن على بن عبد الله دفين تافلالت وانظارهم كلهم من أهل الفضل والدين والائمة المقتدى بهم كلهم يعظم الشيخ ويعترف له بالولاية والعلم والمعرفة اهـ · وقال فى « المرآة » مانصه والشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدى الملياني من كبـار المشائخ اهل العلم والولاية وعموم البركات والهداية . وكان كثير التلقين فقال له الشيخ أبو عبد الله الخروبى أهنت الحكمة فى تلقينك الاسماء للعامة حتى النساء فقال له قد دعونا الخلق الى الله فأبوا فقنعنا منهم بأن نشغل جارحة من جوارحهم بالذكر قال الشيخ الخروبى فوجدته أوسـع منى دائرة . قال صاحب « المرآة » (4) وانتسبت اليه طائفة المعروفة بالشراقة بتشديد الراء وهو بريء من بدعتهم فما كان الا امام سنة وهدى مقتدى به فى العلم والدين قد نزهه الا ه

1) ولد بقلعة بنى راشد سنة 1517 وتولى القضاء بها
2) يقول بوراس الناصرى توفى احمد بن يوسف سنة 931 هـ ـ عجائب الاسفار ـ
3) محمد القادرى ـ 12 هـ : 18 م ـ نشر المثانى لاهل القرن الحادى عشر والثـانى
4) مرآة المحاسن من اخبار الشيخ ابى المحاسن ، لابن حميد محمد العربى الفاسى

وطهر جانبه وقد اظهروا شـيئا من ذلك فى حياته فتبرا منهم وقاتلهم وبلغ المجهود فى تشريدهم . قال وحدثنى شيخنا ابو عبد الله النيجى ان الشيخ ابا البقاء عبد الوارث الياصوتى لما ظهرت بدعة الشراقة وانتسابهم اليه وقع فى نفسه من ذلك شىء فقيل له ان الشيخ ابا محمد الخياط من اصحابه فقال انا تائب الى الله كفى فى طهارة جانبه ان يكون الخياط من اصحابه وكانت وفاة الشيخ المليـانى سنة سبـع وعشرين وتسع مائة (927) لكن ما كان عنفوان تلك البدعة المدسوسة عليه الا فى دولة السلطان الغالب بالله كما مر والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء .

الخلفاوى : تعريف الخلف برجال السلف ص : 97 ، 98 ، 99 ، 100 .

مليانة فى رحلة العبدرى

وزارها فى تلك المدة الرحالة المغربى العبدرى فقال : « (مليانة) وقد القى جمل الاعياء جرانه وغنى بلبل الغناء الوانه الى البلدة الخضيبة مليانة وهى مدينة مجموعة مختصرة . وليست مع ذلك عن امهات المدن مقصرة اشرفت من كثب على وادى شلـف . واستشرقت نسيم طرفها من شرق فى روضة جمة الازهار والطرف . برعت فى سفح جبل حماحماها ان يرام . وشرعت فى اصل شهر يشفى الهيم من الهيام . شاق منظرا وراق مخبـرا وشفى الظمـاء موردا ومصدر يشتهى الناظر اليه وهو ريان الشروع ويقول: لورش به لافاق المصروع كأن حصباءه جمان والماء من رقته دموع . وبها جامع مليح عجيب يدعو الشوق من رآه فيجيب . ولكن الزمان قد عوضه من حلى عطلا وادى له من حكمه خطلا ...

وفى مليانـة قد ذبـت شـوقـا
يلين المطـف والقلـب القسـى
كذا مليـانـة ابـدت عـويلا
لاهل ضمهم جـوف الاتى (1)

ولما تغلب السلطان ابو الحسن على المغـرب الاوسط ومحا دولة آل زيان ، وجمع كلمة زناتة وانتظم مع بلادهم بلاد افريقية وعمل الموحدين وضم الى مملكته مليانة وتنس ونواحيها .

وانتقضت العمالات والاطراف ، وانتزى اعياص الملك بمواطنهم الاولى توثب على بن محمد بن ثابت بن منديل على بلاد شلف ، وتملكهـا وتغلب على امصارها : مليانة وتنس وبرشك وشرشال ، واعاد ما كان لسلفه فيها من الملك على طريقتهم البدوية : وارهفوا خدهم لمن طالبهم من القبائل .

وكانت مليانة فى ذلك العصر حدا فاصلا بين مملكة الزيانيين غربا وبين مملكة الحفصـيين شرقا ومن اشهر قبائل الناحية آنذاك بنو توجين من البربر ، ومالك ، والعطاف من العرب .

وقال عنها الرحالة الانكليزى شاو Shaw : « من يرى المدينة من بعيد يظن ان بها منازل ضخمة وجميلة وآثارا قديمة عديدة حتى اذا طلع اليها الزائر خاب ظنه ... فهى قرية لا مدينة وديارها مغطاة بالقرمد خلافا للعادة الجارية فى البلاد والتى تفضل السطوح ... واحسن شىء هناك — زيادة على المياه المتدفقة — هو المنظر الرائع المطل على اراضى جندل ومطماطة وغيرها من القبائل الى المدية.. وفى فصل

1) العبدرى — محمد بن محمد بن على — : الرحلة المغربية من المغرب الاقصى الى المشرق ، بداها سنة 688 هـ — 1289 م

الربيع يقدم اليها من الجزائر والبليدة والنـــواحى جموع من الناس يزورون ويتبركون بوليهـــا سيدى احمد بن يوسف ... » (1)

وهكذا احتفظت مليانة بمكانتها طيلة العهد التركى فى الجزائر ينزل بها المسافر عابر البلاد من المشرق الى المغرب أو العكس طلبـــا للراحة او متشـــوقا للاطلاع .

قال الشيخ ابن مسايب (2) التلمساني فى رحلته الى مكة :

اقطع المشرع وتهدف
وبات من ثمة لا تلهف
زور سيدىاحمد بنيوسف
وبات مليانة داخلها
قوم قبل طلوع الغرار
واوعد المدفون فى زكار
زورو وادخل عنده للدار
وعدته لا بد تعطيها

ويعطينا فانتوردى بارادى Venture de Paradis بعض المعلومات تتعلق بادارة دار السلطان فى تلك العهد . « كان على راس كل مدينة هامة مثل المهدية والبليدة وبوفاريك ومليانة وبنى جياب قائد تركى يعين فيدفع — فى مقابل التسمية — مبالغ من المال وكميات من المنتوجات والهدايا للداى » (3) .

ويتحدث هذا الفرنسى عن فلاحة الارز فى الجزائر فيقول : « يتعاطى ناحية مليانة الى فلاحـــة الارز وكذلك ناحية مينا (دائرة غيليزان) غير أن أرز مليانة أجود من الاخر . وتنتج الناحيتان ســـنويا ما بين 5000 و6000 قنطار تكفى المستهلكين واصبح الناس لا يستوردون الارز من مصر » (4) .

وفى أواخر الثامن عشر حررت وهران (1792) من الاحتلال الاسبانى فقام الباى محمد الكبـــير ببناء ماانهدم من الديار وباعادة السكان الى ديـــــارهم وتنشيط التجارة والصناعة فاستقدم من يقوم بذلك من تلمســان ومليانة خاصة .

— يتبـــع —

1) شـــاو SHAW نفس المرجع ص 282 ـ 284
2) من شعراء الملحون فى القرن الثامن عشر
3) المجلة الافريقية سنة 1895
4) نفس المرجع

المـراجـع العـربيـة

1) ـــ ابن حوقل (ابو القاسم محمد) كتاب صور الارض ج 1

2) ـــ البكري (ابو عبيد عبد الله) القرن 11 م/5 هـ المسالك والممالك

3) ـــ الادريسي (ابو عبد الله محمد المعـروف بالشريف) 1099 ـــ 1180
نزهة المشتاق في اختراق الافاق

4) : كتاب الاستبصار في عجائب الامصار

5) ـــ العبدري (محمد بن محمد بن علي) 7 ـــ 13 الرحلة المغربية 688 ـــ 1289

6) ـــ ابن خلدون (عبد الرحمن) كتاب العبر

7) ـــ ياقوت الحموى : معجم البلدان ج 7 ص 155

8) ـــ محمد عبد الجليل التنسي « نظم الدر والعقيان في دولة آل زيان »

9) ـــ عادل نويهض : معجم اعلام الجزائر

10) ـــ الخلفاوى : تعريف الخلف برجال السلف

11) ـــ محمد بن عبد القادر : تحفة الزائر

II — BIBLIOGRAPHIE OCCIDENTALE

G. Yver, Miliana	:	Encyclopédie de l'Islam - III, 565 G. Yver.
Léon l'Africain	:	Description de l'Afrique - II, éd. Epaulard.
Shaw	:	Travels, Oxford 1738.
L. Celvin	:	Le Maghreb Central à l'époque des Zirides (Paris 1957).
Trumelet	:	L'Algérie légendaire.
Ge Azan	:	Abdelkader.
A. Bel	:	Les Banou Ghania. (Paris 1903).
E. Mercier	:	Histoire de l'Afrique septentrionale 3. V.
Ch. A. Julien	:	Histoire de l'Algérie contemporaine 1. V. Histoire de l'Algérie du Nord 2. V.

ARTICLES DE REVUES

— Les Righa de la subdivision de Miliana - Julienne. R.A. 1856.

— Miliana - Le Brun - R.A. 1864.

مظاهر المقاومة

في الثقافة الجزائرية

عبد المجيد مزيان

متاهات الماضى الخام :

ان فى تعشق الماضى عيبين أساسيين على الاقل : أولهما اعتقاد الجيل الحاضر فى الاجيال الماضية انها نماذج للكمال يجب الاقتداء بها وثانيهما التقدير اللاعلمى الذى يقيس كل حاضر بما يماثله مماثلة ظاهرة فى التاريخ ، تناسيالسرعة التطور الانسانى · فاذا قست مجدك الماضى مثلا بحاضرك وادعيت انه مجد مطلق يمكن ان ينقل بالحرف الى الحاضر فانت مثبط لنفسك بنفسك ، ذلك ان مجدك فى الماضى كان مجدا بالنسبة لخمول الآخرين ، اما اليوم وقد أصبحت حضارتك تلك ، خمولا وأى خمول بالنسبة لقفزة الآخرين ·

قد تبدو مثل هذه التأملات ساذجة الى حد ما ، ولكن من المعروف عندنا اننا نحتقر الاشياء السهلة البسيطة ونتعالى عنها بخيـالنا العارم وعاطفتنا الجبـــارة نحو المطلق الغامض • وفى معاملاتنا للتاريخ مواقف مضطربة تجرنا الى اتهام بعضنا البعض بالرجعية او التبعية او الفوضوية • اننـــا تختصر العنـــاوين ونقـول لكـل من يلتفت نحـو الماضى انك رجعي ونقول لكل من يعتقد فى الماضى انه مثبط للاجيال عن توقانها التقدمى •• انه فوضوى ان التاريخ سلاح ذو حدين •انه فى مجتمعنا الحالى مرجع لنا وعلينا • واذكر على سبيل المثال تجـربة كثير من المربين الذين عانوا منذ استقلال بلادنا اكبر المتاعب فى سبيل توضيح موقفهم تجاه هذا الشكل الذى يعامله كثير من المفكرين بكل احتقار • انهم يقضون اوقاتا لا تحصى مع جماعة لسرد البراهين التى تؤيد وجوب الرجـــوع الى التاريخ لربطه بالحاضر حتى ترتكز الامة على دعائم سياســـية وروحية من ذاكرة الشـــعوب وآفاق حيـــويتها وديمومتها •وهم يتهمون فىدعوتهم هذه بالرجعية • والمحافظة العمياء • ثم انهم يقضون اوقاتا اخرى مع جماعة اخرى للبرهنة على وجوب التقليل من شأن الماضى والاعتناء بالمستقبل حتى تعرف امة اليـوم انها اكثر قدرة من الاجيـــال الغابرة على خوض معركة الحضارة الجديدة ،فيتهمون حينئذ بالانسلاخ عن الوطنية والاصالة ، ويرمون بالالحاد والتبعية • ولا اعجب من هذا المؤمن الملحد ، الوطنى الكافـر بالوطنية ، الرجعى التقدمى ،الصريح المنافق ، الذى يصوره الراى العام تصويرا مختصرا فى ثنائيـــة متناقضـــة لانه حـــاول ان يعرف بعيوب الماضى ومحاسنه بالنسبة لحياة الامة الزاحفة فى معركة النمـو •

وليس هذا بدعا فى عراك الاجيـــال والافكار ، فالحروب بين المحافظين والمجددين كثيرا ما أدت الى بروز حركات توضيحية تتهم كلتى الحـــــركتين بالاطلاق الغامض والانطـــواء على الذات • وقد يؤدى هذا التوضيح الى نتائج ثقافيـة لها قيمتها • غير أن الجديد فى جيلنا ليس هو العراك بين محافظة وتجديد ، بل هو العراك بين تقليدين أحدهما يرجع بنا الى ماضينا المطلق باسمالاصالةالمزيفة ، والثانى يرجع بنا الى ماضى الآخرين باسم التفتح المزيف •

من الاصالة المزيفة أن تختزن ماضيك كالكنـــز الصافى ولاترى مـافيه من انقاض مثبطة ، وخروق بالية • ومن التزييف أن لا تصب أضواء النقد الذاتى على تراثك الفكرى لتعرف مافيـه من ثغرات وعجز وانحراف وانحطاط •

ومن الاصالة المزيفة أن تغوص فى أعماق الماضى بخيالك وعاطفتك فتفتش عن الاصل الاصيل ، أبعـد فأبعد ، حتى تصل الى ما قبل الحضارة وتدعى انك تكتشف فيه جذور القيم ، وجمال التقليد ، وليس لديك معيار لهذا الالتفاتالرجعىالا ادعاء استرجاع الماضى المفقود ، وليس ابشع من القبيلية كمثال لهذه الاصالة التى تدعى صلاحية القيم البدائية فى عصر العراك الحضارى الطاحن •

ومن التفتح المزيف أن تدعى الالتحـــاق بركب الحضارة بنقلك مبتكرات الآخرين بكيفية صـــورية تجعلك تنسلخ عن هويتك تدريجيا حتى الفناء •

وفى معركة التعريب أحسن مثـــال لنا لتقدير الموقفين • فالمنتمون الى الاصـــالة المزيفة يدعون معاملة التراث اللغـوى والادبى معاملة تقديس لا معاملة فعالية ، ولا يهمهم تمرين اللغة العربية على خوض معركة العلم والتقنية بقدر ما يهمهم الاستماع الى عذوبة انغامها والتغنى بعبقرية تراثها • وهناك المنتمون الى اصالة مزيفة من نوع آخر وهم اولئك الذين يلفقون « الفرعونيات » والاقليميـــات فيدعون

احياء التراث في اللهجات المحلية يعوضـــون بها العربية ، سعيا وراء الاصالة الاكثـــر اصالة فيما يزعمون · فدعاة التبدى تحت شعار التأصل الابعد ، في بلادنا رجعيـــون ، عمي في رجعيتهم الى أقصى حدود العمى ، لانهم يضـــيعون الوقت والجهد في الرجوع الى ما قبل الحضارة وما قبل الثقافة بدعوى التأصل المتين · والفريق الاسوء رجعية من هؤلاء وهؤلاء ،هم الذين يصرحون بالاستغناء عن لغتهم الوطنية لصـــعوبة تمرينها على العلم والتقنية ، فيدعون الى التمسك بلغة مستعمريهم تمسكا ابـديا لانها الصق بالعلم واكثر انتشارا ، ويتنـاسـون أن اللغة كنه الهوية وعنوان الشـــخصية بها يصمد المجتمع او يذوب وبواسطتها تســتفحل التبعية أو يتحقق الاستقلال ، وان اللغة بالقوم ، يفعلون بهـا ما يشاؤون ، فهى ملتصقة بالعلم ان أرادوا أو هي متأخرة عنه ان تأخروا ، وان اقتراض لغة الآخرين اقرار بالتأخر وتقنع بقناع الند وذوبان في هويتـه أبد الآبدين ·

فأهل التأصل المزيف في مثل هذه المعركةتقليديون ورجعيون يدعون التقدمية لانهم يزعمون التخلص من رواسب الاستعمار وبناء الشخصية بالرجوع الى الاصل الاصيل ، وأهل التفتح المزيف تقليـــديون رجعيون أيضـــا ، يدعون التقدمية لانهم يزعمون التمسك بالحضارة والعلم ، مع انهم منسلخون عن ماضيهم ومتمسكون بماضى الآخرين ·

هذه أمثلة من ســـوء معاملتنا للماضي مع ان منهجية الرجوع اليه سهلة وبسيطة ولكننا نحتقـر هذا السهل البسيط ·

لم يعد التاريخ نفسه في يوم من الايام ولن يعيد ، واذا حاول مجتمع ما اعادته بالاسراف في التقليدية فتلكم هي القهقرية والمسخ · ان التاريخ ذاكرة ،



وعبرة ، ورأسمال حضارى لما فيه من تجـــارب لن تعاد ، ومكتسبات لن تضيع وفشلا لن يتكرر ·

الشعبية والانقياد للامية :

وفى التأصل بالانغماس في الشعبية عيوب مثل عيوب تعشق الماضى الخام · هبنا نساير الثقافات الشعبية في اقليمياتها المشـــتتة ، وفي تعويضها المعرفة بالخرافة ، وتفضيلها الفلكلور على التفكير ، والكلام المتناثر في مهب الرياح على الثقافة المضبوطة فاننا سنصبح منجرين الى الاميـــــة والانهيار · فالشعبية المسايرة اصالة مزيفة · وليس من المحبة لشعبك ان تداهنه في عيـوبه وتتملق له في بدائيته وشعوذته · ومثال هذه المداهنة ما نشاهده اليوم من التعلق الاعمى باللهجات المحلية والتعشق للتفاهات الفنية لانها ، فيما يزعمون من صميم الشـــعب · وكثيرا ما تختفى من وراء الشعبية أخس الرجعيات التى تتوق الى ابقاء الجماهير في ظلام اميتها لتتأكد ثقافة الاعيان ومبادىء الطبقية بما ينجر معها من

تعالى الانسان على الانســـــان وابخاس المواطن للمواطن فى نفسه واشيائه ·

أما الاقليمية التى تتستر من وراء الشعبية فعرقية صريحة محتقرة للشعوب او استعمار حقود لا يتوب عن تفرقته للامم · فسموم الاثنوغرافيا متسترة من وراء العلم والموضوعية وليس الاعتناء بالاعـــراق والاجناس فى خصوصياتها اللغوية والطقوسية الا اعتناق لعقيدة استعمارية ترمى من وراء المحافظة على الاجناس المشتتة ، الى القضاء على الشـــعب كشعب موحد يرتكز على وحدته للنهوض الحضارى والعلمى ·

ان التأصل بالشعبية يختلف عن كل هذه المواقف اختلافا جذريا · ان ينطلق من مبدأ محافظة المثقف على شعبيته فى سلوكه ، واتصالاته ، ومصـــادر وحيه ، وتوجيه مجهوداته ·

والشعبيةاشتراك مطلق بينابناء الامة دون تمييز جهوى أو طبقى أو مهنى فى عمليةالخروج منالتخلف الفكرى الى مستوى المعرفة العلمية ، حتى لا تتعـدد التناقضات ولاتتأزم الفوارق ، وحتى لاينتقل جزء من المواطنين الى حضارة القرن العشرين ويبقى الجـزء الآخر محصورا فى المحافظة على عتاقته التافهة ·

ولا أرى الشعبية الحقة الا فى تجنيد المثقف نفســه من أجل التوعية المستمرة ، وتبليغ المعرفة الى أكبر عدد ممكن من المواطنين ، سعيا وراء نقل شعب من أميته الى مستوى التأهل للثقافة العلمية ·

ان الداعى الى الشعبية العاطفية عندنا قد يرى الخير كل الخير والحكمة كل الحكمة فى البســـاطة الشعبية ، وسذاجة الحياة ، ويلتمس كل الغنىوالعمق فى الانتاج الثقافى المنحصر فى مستوى القبيلة أو مجموعة القبائل ، ويرى انه لا يجوز المس بهـــذه الثروات التى يمكن أن تصبح مصدر اصالة ، ان لم تصبح فى يوم من الايام مصدر سعادة بالنســـبة لكل المتضايقين من حضارة العلم والتقنيات · ولـكن موقف هؤلاء الدعاة لا يزيد على انه هواية للعتاقة ، وتملص من الواقع الحي ، لان الســـعادة والخير والحكمة صور عاطفية وذاتية محضة يتصورها هواة العتاقة من صميم انفسهم بينما الشـــعب يتخبط فى الفقـــر ، والجهل ، وكوارث التخلف التى تكاد الا تحصى · وقد يجوز لابن الحضارة الغربيـــة الذى ينتحل الاثنوغرافيا علما ان يتعشق البدائية ، بعد ان ضاق ذرعا بحضارتهالمعقدة ، ولكنابن الامة الجديدة التى لا زالت تتوق الى الخروج من التخلف لا يجـوز له ان يتظاهر بالانغماس فى الاصول ، وامته لا تزال تشتكى من التباطؤ فى هذه الاصول ·

أما دعاة الشعبية الفعالة فهم مناضلو الفكر الذين يرون أن العدالة تقتضى اعطاء قدر أدنى من الثقافة لا يمكن النزول دونه لجميع ابناء الامة دون تمييز ، ودون اتكال على تطور الصدف ·

وليست القضية قضية انتظار الاجيال الصـاعدة وانقراض الاجيال النازلة ليتحقق بكيفية تطورية هذا الهدف الاجتماعى بل ان دور مناضلى الفـــكر دور ثورى يتطلب تعبئة كل الوسائل فى الحال · وانه لمن السذاجة ان ندعى اننا رواد الامم فى هـــذا الميدان لان ماضينا مملوء بالنضـــال الثقافى ، ولكنه من الغباوة أيضا ان نقول اننا لا نســـتطيع القيام بمثل الحملات التى قام بها الفيتناميون ، والصـــينيون ، والكوبيون من أجل محو الامية ومظاهـــر التبدى والعتاقة فى بضع سنين · وما رأينا فى الوجود أمـة تبكى على فقدان عتاقتها وتتضايق من الحضارة الا أن تتوق الى حضارة أسمى وتتهم حضارتها الحالية بالتخلف والقصور عن أهداف التقدم والرقى ·

بهذا تتضح حدود الشعبية كنضال ثقافى لصـالح

الشعب ويظهر انها مخالفة تمام المخالفة لشـــعبية الانقياد الى الامية ومسايرة الاقليميات المشتتة ٠

من مظاهر المقاومة فى الثقافة الجزائرية :

اما الآن وقد حاولنا ان نرفع الالتباس عن معنى التأصل بالماضى والشعبية ، فاننا نتيح لانفســـنا أن نرجع الى هذين المفهومين لنرى من خلالهما كيف كان دور الشعب الجزائرى دورا نضاليا فى فتـــرات من تاريخه ٠ وليس معنى هذا اننا نؤمن بصلاحية الطرق التى استعملت فى ذلك الماضى القريب أو البعيد ، بل يقتصر ايماننا على قدرة الشعب فى الكفاح واختراعه وسائل النضال والمقاومة ولو كانت ضعيفة فى بعض الاحيان ٠ وان دراسة مثل هذه التجارب الماضــية لا ينفى انتقادها والتأكيد من انها أصبحت تجارب لا يمكن أن تعاد ، أو أغلاطا لابد أن تجتنب ٠

لقد كان استمرار الثقافة الجزائرية وضمان بقائها مربوطا أوثق الارتباط ببقاء الامة فى حيويتها وديمومتها رغم الظروف السياسية التى كانت تنتابها ٠ ولم تكن الامة فى حياتها الثقافة مقيدة بوجود سلطة مركزية تخطط لها معارفها أو نخبة من الاعيان تقودها الى عقيدتها ، بل كانت الامة تبرهن اكثر ما تبرهن عن قوة وجودها ، اذا فقدت هذه السلطة المركزية ، وانعـدم هؤلاء الاعيان من المثقفين ٠ ذلك ان حيوية الامة كانت دائما مصحوبة بالتزام الجماهير بعقيدتها وصمودها امام العقائد المهاجمة ٠ وليس من المهم أن نبحث عـن عمق هذه العقيدة الشعبية أو بساطتها ، وانما المهم هو الحماس وقوة الالتزام الذى كانت تبديه الجماهير حين تتبناها وتنهض للدفاع عنها ٠ والبحث عن وحدة الثقافة الجزائرية لا يمكن أن يكون خارج هـــذا الاطار ٠ اننا نتكلم اليـــــوم باعجاب عاطفى عن شخصيتنا المقاومة وقدرتها على الادماج وصمودها للاندماج ، وليست هذه الظاهرة الا وجها من وجـوه



من معاقل الثقافة الوطنية
ونبع المقاومة الوطنية

حيوية الجماهير فى مواقفها الثقافية ـ الحضارية على الخصوص ٠ انه حقا لا يمكن اعتبار الطابع الجماهيرى للمقاومة حلا لكل لغز تفسر به ديمومة ثقافة تصدت لاشد الهجومات عنفا ، ولكنها الظاهرة الاساســية لتفهم هذا الاستمرار ٠ طبعا ، لقد أصبحت أمة اليوم غير أمة الماضى ، ولئن كانت أمة القديم مناخا روحيا وبشريا ذا حدود غامضة ، فقد أصبح اليوم متأطرا فى أوطان جغرافية ، ومخططات اقتصادية واجتماعية ،

ورغبات واضحة فى كل ميدان ولم تبق الثقافة الصالحة بالامس هى الثقافة الصالحة لعالم اليوم · ونحن نشاهد الآن تطلع الاجيال الى آفاق ثقافية اكثر فعالية تجاه مشاكل التنمية ومعاركها · وان سرعة التحول المجتمعى تجعلنا ندرك ان مطالب ثقافتنا التى كانت صحيحة منذ عشر سنين ، أصبحت قليلة الجدوى فى الوقت الحاضر · ولا ننكر للتراث القريب منا أو البعيد فى خزائن التاريخ مشاركته فى اقامة البناء الثقافى المعاصر غير ان هذا التراث يجب ان يلتقط بسرعة البرق ، اذ نحن متسابقون مع غيرنا فى العراك الحضارى ، ولا يجوز لنا التباطؤ فى البكاء على الاطلال · ولكن هذا التسابق الذى يقتضى كثيرا من التحولات الجذرية يقتضى من جهة أخرى بقاء القدر الادنى من مكونات الشخصية الوطنية التى كانت فى القديم شخصية الامة بمعناها الروحى الاوسع · وهذا القدر الحيوى الادنى الذى تنعدم الشخصية بانعدامه كان دائما هو النواة التى وقع المحافظة عليها فى ابان الازمات الكبرى ، وبه دخلت الامة اليوم فى معركة الانبعاث والنمو · وتتمثل هذه النواة فى اللغة القومية قبل كل شىء ، وفى الطاقة المكيفة للامة ، وهى تلك الطاقة التى لم تترك انحرافا الا وهضمته ولا انتاجا هامشيا الا وادمجته · فبهذه الطاقة استرجع الشعب ابناءه الناطقين بغير لغتهم ، وطوقهم تطويقا محكما بحيوية الروح الجماعية الى أن انصهر انتاجهم كامل الانصهار مع الاتجاه النضالى لثقافتنا · ولو كنت مؤمنا بالضمير الجماعى لقلت ان هذا الضمير الحى هو الذى يسهر على التكييف المستمر لكل انتاج حتى تتحقق وحدة الثقافة وديمومتها · وما هذا الضمير الا يقظة الجماهير ووعيها الذى تراقب به كل حركة ثقافية تمسها فى شخصيتها · ولقد عرفنا هذا فى فترات ثلاث من تاريخ أمتنا :

التشدد العقائدى فى عصور الانحطاط :

من المعروف ان المغرب العربى دخل فى « عصوره المظلمة » ابتداء من أواخر القرن الرابع عشر ، حيث ظهرت نكسته العسكرية بالاندلس ، وتناقص العمران « والحضارة كما يقول ابن خلدون » وكسدت أسواق العلم » والثقافة ، وتكاثرت الفتن ، وتدهور الاقتصاد والظاهرة الاكثر بروزا فى تشخيص هذا الانحطاط كانت لاشك هي تشتيت الامة ، والرجوع الى البداوة فى كثير من الجهات وانعدام السلطة المركزية أو ضعفها فى كثير من الاحيان ·

ولكن من العجيب أن نشاهد حيوية ثقافية من نوع خاص ابتداء من هذا العصر حتى مجىء الاستعمار · وذلك ان الشعب أخذ على عاتقه القيام بدور المحافظة على عقيدته وثقافته فى هذه الآونة مخترعا وسائله الخاصة للتبليغ ومجندا كل طاقاته لنشر هذا القدر الادنى من العقيدة التى كانت قد انتقلت من الابداع الى الجمود منذ قرون · فلقد كانت العقيدة السنية بما تحمله من توحيد أشعرى وفقه مالكي مبسطين الى أقصى الحدود تكون القدر الادنى من المعرفة المشتركة التى لا يجوز لاى فرد من الامة أن يجهلها ، ولا يجوز لاى مثقف أن يتحلى بها دون غيره من ابناء أمته · وبرزت الى الوجود فى هذه الاونة شتى المؤسسات الثقافية التى كانت الجماعات تسهر على انشائها وبقائها: من مدارس ، وزوايا ، ورباطات ، ومساجد مسحت الاوطان مسحا حتى وصلت الى الجهات النائية المنعزلة وتعدت حدود الوطن الى ما وراء الصحراء والسوادين · وبعد ما غطت كثبان الرمال « طريق الذهب » ظهرت للوجود طرق الثقافة التى هى طرق الشعب الضعيف اقتصاديا الغنى بحماسه العقائدى · وانطلق آلاف « الطلبة » الفقراء الحاملين لبضاعة ثقافية متواضعة ، يجوبون النواحى

القاصية وينشئون المدارس والزوايا ويبثون العقيدة فى تشاد ونيجر ونيجيريا ، وجهات أخـــرى من أواسط افريقيا · ولم يكن هؤلاء المثقفون من ابنـاء المدن الزاخرة بالعلم والحضارة ، بل كانوا من ابناء القرى الصغيرة مثل تمنطيط بالنسبة لفقهاء شمال نيجيريا ، وتوكورت ومتليلى بالنســبة « للطلبة » التجار المســتوطنين فى النيجر ، وعين ماضى وتماسين بالنسبة لدعاة التيجانية فى مالى وغينيا ، ومازونة بالنسبة لمناضلى السنوسية فى تشاد ·

وكانت العقيدة شديدة التماسك اذ ذاك لانهـا انتقلت من طور التفنن الفكرى وتعميق المفاهيم ، الى البساطة الضامنة للانتشار بين الجماهير · وكانت « الكتب الحمراء » التى تحقق بقاء هـذه البضاعة الثقافة بين الشعوب صفحات قليلة يمكن حفظها حتى من طرف الاميين ،فالتقت بذلك وســائل التبليغ الكتابى بوسائل التبليغ السمعى وتساندت التقنيتان ضمانا لاكبر ذيوع ممكن بين ابناء الامة · فمن هذه « الكتب الحمراء » أرجوزة ابن عاشر الاندلسي فى الفقه المالكي ، وصحف السنوسى التلمســانى فى العقيدة السنية الاشعرية ، ومختصر ابن أجـــروم البربرى فى العربية · وكانت فى هذه الوســائل المتواضعة استعدادات كافية للصمود أمام كل هجوم ثقافى · وقد رأينا زحف الاستعمار يكلل بالتفوق العسكرى ، ولكنه ما لبث أن ادرك بأن الحرب أهم وأعمق فى ميادين الثقافة لان منطلق كل صمود أو هجوم من طرف الجماهير المقاومة كان فى حيوية هذه العقيدة البسيطة التى اضحت موزعة بكيفية عادلـة على كل المواطنين · وكان تكالب الاستعمار اذ ذاك على الثقافة ودعاتها ومؤسســاتها تكالبا لم يأت بمثله التاريخ ·

التفكيك الاستعمارى ومحافظة الانقاذ :

وخط الاستعمار خطته فى الابادة الجذرية لكل جماعة أو مؤسسة لها أدنى دور ثقافى ، ولم تبق أية مدرسة الاونسفتهـا المدفعيـة نسفـا ولم تسطع أية زواية أن تنجو بنفسها الا باذعانها لســـلطات الاستعمار ، ولم يبق رجل دين يتردد على المساجد معلما ، الا اذا خضع لاوامر السلطات الفرنســية فى الاقتصـــار على تعليم الطقوس · وما لبث الاستعمار بعد هذه الخطة التفكيكية ان أخضع بعض « دواجن » الدين وكون منهم أعوانه على الشعب · ولكن الجماهيــر كانت أكثر شـــعورا مما يظنه الاستعمار وأعوانه ، فقاطعت الثقافة الرســمية « المستدجنة » بكل ما أوتيت من عـــزيمة وأباء · ودامت هذه المقاطعة المصـاحبة للتفكيك الاجتماعى والاقتصادى أكثر من ستين سنة رأى فيها الشعب المشرد المطرود من أراضيه المحروم من مؤسساته ان يلجأ الى المحافظة على القليل الاقل من مكتســبات ثقافته الشعبية · وكانت هذه المحافظة على القـدر الادنى ، مصحوبة بحماس عارم عند أمة فقدت كل شىء الا أملها فىاسترجاع شخصيتها وتجديد بنائها الحضارى · ولم تمر مدة طويلة حتى تقلصت الثقافة الدينية التقليدية فى أقلية من أعيان المدن يداهنون الاستعمار فيعربون له عن التمسك بالنظام والامن ، ويتمتعون معه بالتعالى على الشعب المقذوف به فى ظلمات الجهل وعذاب التشريد · وكانت هذه الفترة الحالكة فى حيـــاة الجماهير متميزة بالمحافظة الشـــديدة على بعض انقاض الثقافة فى مظاهرها السمعية على الخصوص · فصارت النصوص تحفظ حفظا بدون فهم ، وأصبحت المعرفة وعاء شكليا كأنه يحمل بسرعة الى شاطىء النجاة · وكثيرا ما أفلت فى هذه المدة بعض الافراد من شبكة الاســتعمار والتحقوا بجوامع تونس أو القرويين أو الازهـــر لطلب العلم ، ولكنهم حين عودتهم كانوا يراقبون

مراقبة تضييق واجتزار ليعدلوا عن الاتصال بالشعب وكثيرا ما كانوا ينفون من اوطانهم حتى ينقطع كل تأثير ثقافى ، وحولت الزوايا والمساجد فى هـذه المدة الى بيوت شعوذة وتخريف وموالاة للسلطات الفرنسية ، فرأى الشعب أن يعدل عنها الى ما لديه من وسائل ضعيفة فى المحافظة على القليل الباقى من شخصيته الثقافية ·

وبرزت للوجود المدن الجديدة كمراكز للاستعمار، وكان سكانها من الجـزائريين هم ابناء القرى والبوادى المطرودون من اراضيهم المخلوعون عن أطرهم الاجتماعية المفككة ، المشردون الى مجاهل المكان والزمان ، المحافظون على قليل من الامل فى بناء الامة من جديد ، فجاء فى هذه الظروف وابتداء من سنة ١٨٥٠ الشعر الشعبى داعيا الى المقاومة بين هؤلاء السـكان المعذبين · وانفجرت ثقافة « المداحين » يتظاهر شعراؤها بـ « مـدح » النبى والصحابة ولكن انفجار أدبهم الشعبى كان صرخة مزعجة فى وجه الاستعمار واثارة للحماس الشعبى بتذكير الجماهير بماضيها وسطواتها على أعدائها وقيمها الكبرى التى تتمثل فى الشجاعة والجهاد · ولم يكن للمداح ، سواء أكان شاعرا أو راوية مدرسة ينتسب اليها أو حركة منظمة يتقيد بخطتها ، ولكنه كان المتجول الابدى الذى يعقد حلقات الانشاد فى كل مدينة وقرية ، وينتقل من مكان الى مكان بسرعة البرق ، كأنه فى حرب عصـابات مع شـرطة الاستعمار · وقد يبدو هذا النوع من الثقافةالشعبية تافها اذا قيس بميزان العقل لانه يتلخص فى الملاحم العابثة بالتاريخ المرتكزة على الاساطير · ولكننا نعلم ان هذهالثقافة الجماهيرية كانتآخر ملجأ لانقاذ ما تبقى من قيم الامةوآخر مرحلة من مراحل المقاومة المستميتة · وقد حفظ شعراء الشعب عزة الامـة بوسائلها الثقافية الضعيفة التى لا تتعدى السـمع والالقاء والتى لم يبق لها من ذكريات التاريخ الا بقايا يحيط بهاالضباب ويزحف عليها النسـيان · وبطولة هؤلاء الشعراء الشعبيين كانت تتلخص فى صرختهم الثورية حينما انهـارت كل مقاومة وأيام سكتالفقهاء ورجال الدين ·هذا وتعد نوعية الانتاج الملحمى غير قابلةلمقاييس النقد المنطقى أو التاريخى، لان غرضها لم يكن تثقيف الناس ثقافة دقيقة ،ولكنها كانت ترمى الى اثارة الحماس وبعث الامل فى الامة بكل الوسائل وبالاسـطورة على الخصوص لانها اثبت فى الخيال وأقوى ارتكازا فى عواطف شعب رده الاستعمار الى أسفل درك من الامية ·

الفشل الذريع لثقافة الاعيان :

اننا اذا استثنينا معلم القرآن الذى كان يحافظ على القدر الادنى أو دون الادنى من المظهرالصورى للثقافة ، واذا استثنينا الشاعر الشعبى الذى كان يحمل المشعل الخافق المضـطرب للمقاومة ، فاننا سنجد مخطط الاستعمار ناجحا بعض النجـاح فى محاولته تحويل الامة عن مبادئها الثقافية · ذلك أن ثقافة الاعيان حلت ، بكيفية تدريجية محـل ثقافة الجماهير · فكان أعيان المـدن يتحلون بالمعارف الشكلية التى لا تصلح الا للتظاهر والمفاخـر بالعلم وأصبحت الثقافة العربية قوقعة فارغة تستعمل للزينة والتفوق على « العوام » · ولم يمر ربع قـرن حتى بدأت المدرسة الفرنسية تنشىء أجيالا جـديدة من النخبة المتحلية بالثقافة الغربيةوتكونت ثقافة الاعيان هذه فى مرحلتين · أما المرحلة الاولى فقد ظهر فيها جيل لم يتخل عن تقاليد ثقافته الاسلامية رغم تمكنه من اللغة الفرنسية ، وبقى فى نفسه أمل للتخلص من القمع الاستعمارى رغم تفاهة الوسائل التى كان يلجأ اليها · وهو جيل الامير خالد وابن رحـال ورفاقهما ممن كانوا يواجهون عنف الادارةالفرنسية

بالخطب العاطفية التيتحاول اقناع الخصمبالرجوع الى العدالة والانسانية · غيــر ان هؤلاء المثقفين الاعيان كانوا بعيدين كل البعد عن الجماهيرالمشردة وكانهم يلعبون دور الترجمان عن عواطفهامة صاروا منفصلين عنها بسبب مخالطتهم للاستعمار وقبولهم لخطط تكوين النخب الاهلية كواسطة بين الشعب وسلطات الاحتلال ·

وتبع هذا الجيل جيل اخر من أعيـــان الثقافة الغربية تنكر كل التنكر للجماهير الشعبية ، وسفه علانية أحلام الامـــة ، وطعن فى الثقافة العربية الاسلامية طعنا كان يمليه عليه الاستعمار بكيفية غير مباشرة ، لانه كان يلقن ذلك تلقينا فى كل مرحلة من مراحل التعليم الفرنسى · وتكاثرت الحركاتالمبشرة باللائكيــة والعــالميــة التى يتستر من ورائهــا الحقد على الثقافة الاسلامية كقوة للصمود ، وعلى اللغة العربية كمحور لوجود الامة · وأعلن كثير من المثقفين الجزائريين انســلاخهم الكلى عن العروبة والاسلام وانقادوا جهارا لحـــركة الادماج ، ولم يدركوا أن اعتناقهم هذا المذهبالسياسى كان تتويجا للمخطط الثقافى الذى أخضعوا له وكيفوا بواسطته فى مدارس الاستعمار · وكان الشعب يراقب بدهشة هذا المسخ الذى خلق من ضلعه فيحتار فى معاملته ولا يستطيع أن يبادله العداوة والاحتقار لانه منطينة الامة مهما كان مشوها لها · وتباعدت المســافة الاجتماعية والثقافية بين الجماهير وهؤلاء الاعيان فكان شبه التقاطع يتبعه الصراع الطبقى بين النخب المتكتلة المنتفعة بامتيازات الاستعمار ، والشـــعب الذى لا يزداد الا فقرا وتشـــريدا وتوغلا فى ظلام الامية ·

الانبعاث الثقافى وحيوية الامة والجماعة :

غير ان الامة كانت بالمرصاد لكل هذه الحركات الثقافية الهامشية التى تتجاهل الجماهير وتتحداها فى معتقداتها · ولم يكن التحلى بالحضارة والعلم سلاحا كافيا لتبرير موقف الاعيان المنحـــرفين عن شعبهم ، المعلنين اندماجهم فى المجتمع الفرنسى ، فاصبحوا بينخيبة أمل وتأنيبضمير ينتظرون مجرى الاحداث · وكانت صـــرخة الانبعاث التى أطلقتها الحركة الاصلاحية باسم الامة : أن لا اندماج ، ولا تبعية ، ولا ثقافةاعيان ، وان الحياة الثقافيةالطبيعية بالنسبة لهذا الشـــعب كانت ولن تكون الا ثقافة الجماهير .وسكت شعراءالشعب عن تبشيرهم بالجهاد سكتة واحدة حينما ادركوا انبعاث الامـــة على يد علمائها المناوئين للاستعمار · وتبنى الوطن كله هذه الحركة المجددة لانه شـــعر بابعادها النضـــالية واستعدادها لتجديد الكفاح وكانت الاسسالعقائدية التى جاءت بها تتلخص فى تحـــديد كيان الامة والشخصية الجزائرية حول محورين أساسيين هما اللغة العربية ، والاسلام كدين وحضـــارة · ولم تقتصر هذه النواة العقائدية على الجانب السياسى بل أعلنت عن اعتناقها للعلم والعقلانية كجسرين لابد منهما للوصول الىالتمدن والرقى · ثم اصبحت هذه العقيدة المبســـطة تلقن للجماهير على يد الدعاة المنتشرين فى أنحاء الوطن · وكان الامة عادت الى عهود ثقافتها الاصيلة تتبناها بحماس وتنشـــرها بروح نضالية لانها ثقافة الشعب ، وثقافة مقاومة الاعداء · وظهرت المؤسسات الثقافية المفقودة منـذ ستين عاما فتكاثرت بسرعة البرق وحملها الشعب حملا على اكتافه رغم الفقر والجهل الذى كان يتخبط فيه · وكانت المدارس العربية الاســـلامية تصلح بالمساء ما تفسده بالنهار المدارسالفرنسية ·وأعلنت الحرب دفعة واحدة على الاستعمار وعلى الاعيان ، وعلى شبه الثقافات المشعوذة · أما الاعيان من دعاة العلم العصرى فقد وجدوا فى العقلانية الاصلاحية

احسن سلاح يواجههم ، وأما رجال الطرق ومن التف حولهم من ابناء الشعب المغرورين فقد وقعت مجابهتهم بالدين نفسه ، وأما الاستعمار فكان لابد من محاربته بخلق وحدة متينة بين الاحزاب السياسية الجماهيرية والاصلاح بصفته حركة ثقافية شعبية ٠ وحققت الامة المشتتة بناء وحدتها من جديد كما حققت انبعاث عقيدتها واسترجاع شخصيتها باسترجاع لغتها ٠ واذا اردنا ان نضرب مثلا فى تحقيق هذه الوحدة فما علينا الا ان نرى كيف التف السنيون المالكيون وسنيو وادى مزاب حول عقيدة واحدة ، وهى العقيدة السلفية الاصلاحية بما فيها من تفتح للعلم والمدنية ٠ ولولا حرص الامة على استرجاع وحدتها لمجابهة الاستعمار لما تحقق مثل هذا الاتفاق ، فكانت الروح الجماهيرية النضالية هنا ايضا هي المحرك الاساسى فى كل هذه العمليات السياسية والثقافية ومهما كانت الانتقادات التى وجهها جيل ١٩٥٤ أو توجهها الاجيال الحاضرة للحركة الاصلاحية ، من اتهامها بالعقم المبكر ، أو ميلها احيانا الى سياسة المسالمة ، فانه لا يمكن لاى منتقد أن ينكر ان هذه الحركة الثقافية الكبرى ردت الى الامة كيانها وحيويتها ، وبعثت اللغة العربية من مرقدها ، وردت بالثقافة الى مجراها الطبيعى الذى يتمثل فى صفاتها الجماهيرية ٠ وكانت بكل هذا خير مهيء للثورة التى تبعتها ابتداء من ١٩٥٤ ٠

من مشاكل الحاضر :

اما الآن وقد علمنا ان الثقافة الجزائرية ما فتئت منذ اكثر من قرن ثقافة شعبية مقاومة تخترع الوسائل والاسلحة للقيام بدورها النضالى ، فلا يعنى هذا اننا ننتظر من طاقة الشعب وحيويته أن تخترع أسلحة جديدة لمشاكل العصر ٠ لقد كان المجتمع فى الماضى يجيب عن المشاكل بوسائل قوية احيانا وضعيفة احيانا اخرى ، وكان يخطط بوعى فى بعض الاطوار ويترك للصدف مشاكله أطوارا أخرى ٠ ولقد عزمنا منذ بعيد على الانتقال من مجتمع التطور بالصدف الى مجتمع الثورة والتخطيط الواعى ٠ ولا يمكن أن يقال ان في التاريخ أجوبة للمشاكل الحالية ٠ ان العبرة الوحيدة التى يجب أن نستخلصها من كل عروض التاريخ هي أن ثقافة الاعيان فاشلة مهما كان تفننها وان الثقافة الوحيدة التى يمكن أن تعد ثورية هي الثقافة الجماهيرية النضالية ٠ ولا يمكن ان يقال ان عهد النضال قد فات لان معارك التنمية أشد وطأ من معارك التحرير السياسى اذا احصينا الثقافة كسلاح فى هذين الميدانين ٠ والعبرة هي ان نقيس أيضا بثقافة الاعيان فى القديم ثقافة البيروقراطية والتينقراطية المرتفعة على الشعب فى ابراج مكاتبها ٠ وسنرى اننا تقليديون نتخبط فى التقليدية دون شعور ٠ اننا نقلد الاستعمار فى سلوكه الثقافى ، نتحلى بالمعرفة ونتفنن فيها ولا نشاطر ابناء وطننا حتى القدر الادنى من المعرفة الذى يضمن الخروج من ظلمات الامية ٠ لقد خلق هذا الشعب مناضلين للثقافة عبر القرون منهم الفقير والطالب ورجل الرباط المجاهد ، والمبشر من وراء الصحراء والمداح ، والمصلح الدينى ، ولكن هذه الشخصيات كانت نتاجا لمجتمعات وظروف لن تعاد ، ولن يبرز للوجود اى واحد من هذه الشخصيات ٠ غير ان الداعية الذى يجند نفسه من أجل ثقافة مناضلة تتفق مع مقتضيات العصر ومعارك النمو والتوعية ، وتجعل الشعب منطلقها وهدفها ، يمكن أن يوجد اليوم ٠ وذلك حتى لا تتقلص ثقافتنا التقنية فى حلقات الاعيان التى لن يكون مآلها الا الفشل الذريع ٠

نحو وعي أفضل لتاريخ الجـزائر

د. هشــام الصفدي

« ينبغى على من يشترى ارضا زراعية ان يبيع بيته فى المدينة ، حتى لا تبقى لديه تلك الرغبة التى تدفعه الى عبادة (آلهة) منزله فى المدينة بدلا من عبادة (آلهة) الريف . والمـرء الذى يجد متعة اكبر فى مقره فى المدينة ليس بحـاجة لامتلاك اراضى فى الريف »

ماغون القرطاجى

من بين العوامل العديدة التى دفعتنى لكتابة هذا المقال محاضرة القاها مؤخرا استاذ اجنبى زائر فى كلية الاداب بعنوان : « اهمية المعرفة التاريخية لبلد كالجزائر » . وبما ان المحاضرة كانت نصف ارتجالية يمكن تلخيص النقاط الرئيسية فيها بما يلى :

— اشادة بماضى الحضارة العربية ، وبالتالى دعوة للاهتمام بهذا التراث فى منجزات دولتى المرابطين والموحدين !!

— والى جانب الاهتمام بالثورة الجزائرية ، وبدور المناضل الامير عبد القادر ، يوصى المحاضر مستمعيه بالعناية بماضى بلادهم فى الحقبة السابقة للاسلام مباشرة : وهى حقبة الاستعمار الرومانى .

— وبالمثل يوصى المحاضر بالعناية والتسامح فى تفهم أعمال قطب من اقطاب الفكر المسيحى فى شمال افريقيا الرومانية هو القديس أوغسطين .

وعلى العموم تركزت المحاضرة على المواضيع الخاصة بالعهد الرومانى ومنجزاته الكبيرة فى شمال افريقيا ، مثلما تركزت حول أوغسطين باعتباره أبا للكنيسة اللاتينية .

واذا عاد الانسان الى عنوان المحاضرة ، مال الى الاستنتاج بان المعرفة التاريخية الضرورية للمواطن الجزائرى تنحصر فى النقاط السالفة الذكر .
لما كان المقال لايستهدف فى هذا المجال نقد المحاضرة سواء من حيث استيعابها لعنوانها الضخم أو من حيث تقيدها بالدقة والايجابية فى تحديد اطارى الزمان والمكان بالنسبة للمعرفة التاريخية التى يحتاجها اى بلد عموما — والجزائر التى لم تلتئم بعد جراحات ثوارها خصوصا — فاننا سننتقل مباشرة الى طرح بعض المشاكل المرتبطة بصميم تاريخ الجزائر ومعالجتها .

تاريخ الجزائر : بداياته وابعاده

اذا كان مدلول التاريخ فى أوسع معانيه قصة ماضى الانسان ، فان تاريخ الجزائر يبدأ منذ ان بدأ الانسان تفاعله الهادف مع البيئة فى منطقة شمال افريقيا . ولقد تميزت الجزائر بصفة خاصة فى ان بدايات هذا التفاعل تعود من جهة الى عهود باكرة موغلة فى اعماق الزمن ، ومن جهة اخرى تقدم بقايا الانسان الباكرة فى مواقع مثل : عين حانش وباليكاو ... الخ ، المفاتيح الاولى لمواضيع حساسة جدا فى تاريخ الجنس البشرى عامة .

وعلى الرغم من ان دخول انسان الجزائر الباكر الى التاريخ — أو ما قبل التاريخ حسب التعبير العلمى — قد تم بهدوء وبدون ضجة ، نجد آثار هذا الحدث لا تبقى كذلك ، بل انها تزداد شمولا واتساعا سواء فى المكان او فى الزمان . ومن جديد اذا انطلقنا من الحقيقة التى تقول : فى انه لا يوجد شىء انسانى حقا دون ان يكون على قدر من الاهمية فانه يحق بشكل جدى ان نضع بداية تاريخ الجزائر جنبا الى جنب مع بدايات جهود انسان المنطقة فى التلائم مع البيئة . وهى جهود تصب سواقيها فى بحر الحضارة الانسانية . ولقد تركت الادوات والبقايا المادية التى خلفها ذلك الانسان سجلات بسيطة استخدمت فيما بعد لترجمة فعالياته الفكرية أو جهوده عامة : الايجابية تارة والمتعثرة اخرى ، وما اكثر الصور الجدارية التى تملأ شعاب الصحراء فى الهقار

وتاسيلى ، والادوات الحربية فى مرامل الوديـان وفى كهوف مشتى العربى وسيدى عبد الرحمن . انها تكون المساهمات الاولى التى شارك فيها سـكان المغرب القدماء فى عمليتى التحضر والتطور الطويلتين وتعبر عن نفسـها فى ثقافات معينـة كالثقافـات الوهرانية ، والقفصية ... الخ .

منذ ان بدأ الانسان المغربى خطواته الاولى فى طريق الحضارة قامت فى وجهه مشكلتان اساسيتان : علاقته بالبيئة ، وعلاقته بالاخرين ، وهى علاقات لن تكف عن التفاعل الا اذا كف الجنس البشرى عن الوجود ، هذه المشاكل طرحت نفسها بقوة على واقع الانسـان المغـربى القديم ، وشـكلت لـه « تحديات » عديدة ، يفترض عنه وفقـا لنظرية المؤرخ توينبى — ان يتقدم نحوها « باستجابات » مناسبة يكون مجموعها رصيده التاريخى : بماله وما عليه . ومع نهاية العصر الحجرى الحديث يلاحظ ان علاقة الانسـان المغربى مع بيئـة تكاد تكون معطياتها تصبح ثابتة . وهى تفرض نفسها حتى اليوم متمثلة فى مجموعة « ثلاثية » الاطراف تتألف من : سهل ، وجبل ، وصحراء . لكل منها شروط خاصة بها تضمها جميعـا جزيرة كبيرة يحيـط بها بحران : واحد من الماء المالح ، وآخر من الرمال اللاهبة ، هى جزيرة المغرب .

لن نحاول هنا التفصـيل فى دور عامل المنـاخ والبيئة الحاسمين على استجابات الانسـان فى كل منطقة من المناطق الثلاثة ، بل نكتفى حاليا بالاشارة الى الموضوع الاول فى هذا المضمار : وهو موضوع البداوة والترحل ، ونظام الحياة الاجتماعية الناشئة والماثلة باستمرار منذ اكثر من خمسة الاف سنة فى تاريخ الجزائر وفى مناطق كانت خضراء مخصبة ، ثم تحولت تدريجيا وبسبب الجفاف والانجراف الى صحارى وسهوب . هذه الشروط البيئوية لن تتغير معطياتها وآثارها القوية على تاريخ المغرب الا عند ما يسيطر الانسان بشكل فعال وكاف على الطبيعة وبالدرجة الاولى على موارد الميـاه فيها او موارد الطاقة (1) . علاوة على ذلك شكلت هذه الوحدات الجغرافية الثلاثية ، والحواجز القائمة بينها عقبات فى وجه الوحدة السياسية حتى لقد وجد من المؤرخين المعاصرين من يتحدث عن « لعنة جغرافية » كاميل فيليكس جوتيه وآخر يتحـدث عن «ديمومـة جغرافية » فى المغرب — « شارل اندريه جوليان » تتحدى التغيرات السياسية نظرا للصراع الذى كان قائما بين سكانها ...

وهكذا يتضح لدارس تاريخ المغرب ان « ثلاثية » البيئة هذه نتج عنها وكان يقابلها بشكل مستمر عبر التاريخ « ثنائية » فى التنظيم الاجتماعى تتألف بشكل رئيسى من بدو ومن حضر . ولقد تارجحت حدود هذه الثنائية الاجتماعية وفقا لاعتبارات سياسية احيانا . ولا بد ان نذكر حقيقة راهنة تتلخص فى ان الوافدين على المغرب من فنيقيين ، ورومان ، وبيزنطيين ، واسبان ، وايطاليين ، وفرنسيين مارسوا انماطا فى المعيشة لم تستهدف الانسجام مع معطيات « ثلاثية » البيئة ، فى حين انفرد العرب المسلمون الذين قدموا من بيئة جغرافية مشابهة للمغرب — سواء فى التأقلم

1) سنقدم هذا الموضوع فى بحث عنوانه : « دور الصحراء فى تاريخ الجزائر .

مع ،واقع البيئة الجديدة أو في مشاركة أهل المغرب ، ثنائيتهم الاجتماعية ولقد تم ذلكبسرعة لعوامل عديدة

العلاقة مع الاخرين : هنا نأتي الى الشق الثاني من الموضوع وهو علاقات السكان مع بعضهم ومع الاخرين . فانه يتأثر كما رأينا بالاعتبارات البيئوية الجغرافية التى رسمت الى حد كبير انماط حياتهم الاجتماعية . ولا يعنى ذلك اهمال العامل البشرى الذى رسخته طبيعة الحياة القبلية من جهة ، وحياة المدينة من جهة اخرى فى انماط معينة .

واذا كان من السهل نوعا ما دراسة علاقةالانسان المغربى القديم (انسان ما قبل — وفجر التاريخ) ببيئته ، على ضوء المخلفات المادية التى تركها ، فاننا لن نجد نفس السهولة فى بحث المعالم الباكرة لعلاقاته مع الاخرين . خاصة وانه لم يسجل اعماله انذاك بواسطة الكتابة لذلك سيكون من السابق لاوانه رسم صورة نهائية لما كان عليه التركيب البشرى فى المراحل الباكرة وعلى الاخص طرح فرضيات يحلو للبعض ان يحولوها على الزمن الى مسلمات تاريخية حول الانسان والارومات العرقية . وفي هذا الميدان ما يزال أمام ابحاث ما قبل التاريخ والانتروبولوجيا المغربية عمل كبير لسد الثغرات القائمة فى تاريخ السكان الاوائل .

ومع بدء الحقبة التاريخية تلوح فى المغرب ظواهر خاصة فى العلاقات البشرية ستبقى الخطوط الرئيسية فيها متشابهة حتى فترة قريبة . فهنا لك جماعات من البشر أطلق عليهم الاغريق والرومان اسم : ليبيين ونوميديين وموريين ، كانت تقطن منذ فجر التاريخ على الاقل منطقة المغرب وتمارس انماط معيشة تتراوح بين الترحل الكامل وبين الفلاحة والرى .

وهناك أدلة اثرية تسبق ادعاء المؤرخ ابيان « بان ماسينيسا علم النوميديين الزراعة » تشير الى ان النوميديين لم يكونوا رحلابالمعنى الانتروبولوجى لهذه الكلمة الاغريقية الاصل « نوماد » ، بل كانوا الى حد كبير فلاحين — رعاة للماعز . فينتقلون بقطعانهم من المراعى العالية فى الصيف الى المراعى المنخفضة فى السهول فى الشتاء ، ويمارس جانب منهم زراعة الحبوب كالقمح والشعير بالاضافة الى معرفتهم للكرمة وشجرة الزيتون . واشتهروا بكونهم فرسانا محاربين مربين للخيول ينتظمون اجتماعيا في سلالات تستند على قبيلة أو على تحالف قبلى . وبما ان نظام الحكم اعتمد الى حد كبير على التكوين القبلى ، يلاحظ ان القبائل نفسها لا تتفق دائما بسبب وجود مبدأ الفريقين . وتتأرجح تحالفات الفرقاء وتسود بين انصار الحاكم واعدائه من القبائل. ويرى المؤرخ قولفل ان كلمات نوميديا وموريتانيا ليست الا اسماء ذات مدلول للاجانب اكثر منها لابناء المنطقة ، وحتى بالنسبة للاجانب يتأرجح المدى الارضى الذى يقابل هذه التسميات . فالقبائل تتجمع في المكان وتنمو فيه ، وتنحل فيه وهذا التأرجح يقدم صعوبة كبيرة لتشكيل مفاهيم ثابتة للحكم وللدولة ولعل هذه الظواهر يشترك فيها قدماء المغاربة مع سكان شبه الجزيرة العربية ، حيث تساهم البيئة الى حد كبير فى دفع التنظيم الاجتماعى فى هذا الاتجاه . ولا بد من الملاحظة اننا مازلنا نفتقد الى المعلومات الوافية بالنسبة لهذه المرحلة الهامة من تاريخ المغرب . ذلك ان النتائج التى توصل البعض اليها تعتمد على دراسات اتنوجرافية وسوسيولوجية للقبائل المعاصرة ، ومن ثم القياس على النتائج

بالنسبة للاوضاع فى الماضى البعيد . وهذا عمل محفوف بالمخاطر .

بالنظر للعوامل الجغرافية والبشرية السابقة الذكر تشير الظواهر الى ان المغرب القديم كان يفتقر فى العهود الباكرة من تاريخيه الى عنصرين اساسيين هما : « نظام المدينة » اى العاصمة ، و « الوحدة السياسية » اى الدولة الموحدة . وهى عناصر توفرت فى وادى النيل من قبل ، ثم حققها الفينقيون فى موطنهم الجديد فى المغرب .

مع احتكاك اهل المغرب بالشعوب الاخرى يبدأ التاريخ بالحديث عنهم وعن مناطقهم . وكان المصريون ثم الفينيقيون والاغريق فى طليعة هذه الشعوب . ولعل المشكلة الرئيسية فى هذا المجال تكمن فى ان ما نملكه من معلومات حول هذه العلاقات يعتبر وحيد الجانب : اى من كتابة الاخرين . فلا نجد حاليا فى المغرب القديم مقابلا للاخبار والسجلات التى دونها الفراعية عن صلاتهم الوثيقة بالليبيين . كذلك تبقى الكتابة الفينقية الوسيلة الرئيسية لتسجيل الاحداث فى المغرب حتى يحتك أصحابها بالاغريق وبالرومان . وبالنظر لضياع السجلات والوثائق الفينقية بفعل الدمار الذى لحق بقرطاجة نتيجة الحروب البونية ، وبالنظر للوضع الراهن المتعذر بالنسبة للكتابة الليبية يفتقر تاريخ المغرب القديم الى وثائق ومصادر على جانب كبير من الاهمية ، كان المفروض فيها ان تغطى حقبة الالف الاول قبل الميلاد ، ويبقى النصف الاول منه بصفة خاصة محفوفا بالغموض والظلام .

من بين المواضيع الهامة فى هذه الفترة ، والجديرة ببحث خاص ، نشير الى العلاقات المغربية الفينقية التى قامت مبكرة منذ القرن الحادى عشر ق . م . على الاقل . فمنذ تأسيس مدينة أوتيكا وغيرها من المحطات الساحلية وحتى بعد قرون عديدة من تأسيس قرطاجة ، استمر النوميديون والليبيون يمارسون حياتهم وتطورهم وفق الانماط الخاصة بهم ، نظرا لان الفينيفيين لم ينتشروا الا على رقعة ضيقة من الساحل المغربى ، وبقى الجارامانت يشكلون جسرا بين افريقيا الاستوائية وساحل البحر المتوسط .

واذا قبلنا الطابع السليم والتعاونى الذى يوحى بهكل من قصة الملكة ديدون ، ورحلة حنون للعلاقات المغربية ــ الفينقية الباكرة ، يتوجب على المؤرخين وعلماء الآثار ان يفتشوا فى هذه المرحلة بالذات عن جذور التبادلات الحضارية والمادية التى تمت بين افريقيا الشمالية واسيا الغربية . فبدون تحديد للعناصر التى كان الفينقيون واسطة لنقلها من المشرق الى المغرب وتلك التى جاءت حصيلة الابداع والتطور المغربى ، لا يمكن اعطاء صورة واضحة لما تم في هذه المرحلة الحاسمة وبواسطة دراسة ميدانية ومكتبية تعتمد أولا على علم الآثار سيتحقق للمؤرخين تصنيف مراحل التطور فى العلاقات ضمن مراحل محددة نطلق عليها اصطلاحا اسم : مرحلة فينقية ، واخرى قرطاجة وثالثة بونية ــ ليبية ، مازلنا للأسف نفتقر الى تحديدات كرونولوجية دقيقة لها سواء بشكل مباشر او عن طريق الربط مع تقديم زمنى مجاور . ان دراسة موضوعية من هذا النوع كفيلة بتقديم اجوبة وفيرة على عدد من علامات الاستفهام المحيطة بتاريخ المغرب الباكر . وهى

ستضع نهاية لاستنتاجات واحكام بعض المؤرخين كالمؤرخ جوليان (1) مثلا ، الذى يحتم بشيء من القدرية بان طبيعة المغرب مسؤولة عن قصوره عن الاستقلال ، وان جمود سكانه يمنعهم من التطور حينما يقول :

« مهما رجعنا الى اوائل تاريخ افريقيا الشمالية لاحظنا ان الامور تجرى كما لو انه كتب على هذه البلاد ان تبقى قاصرة قصورا وراثيا عن التمتع باستقلالها ... فالمدنيات المتتابعة التى طرات من الخارج لم تكن بالنسبة الى البربرى الا ثيابا متنوعة تستر جسدا وروحا لا يتغيران ... » .

واذا رجعنا الى التاريخ البعيد والقريب لوجدنا انه فى تجربتين متماثلتين فى تاريخ المغرب ، الواحدة تمت فى عهد يوغرطا ، والثانية فى عهد عبد القادر لم تكن « الطبيعة ، ولا القصور الوراثى » ، بل قوى خارجية عن المغرب مسؤولة عن سحق حريته وايقاف تطوره .

مصادر تاريخ المغرب

ذكرنا بان التاريخ بدأ بالحديث عن المغرب القديم منذ ان احتكت به الشعوب الاخرى . وكان الفراعنة والفينقيون فى طليعتها . ثم اخذت المنابع بالازدياد منذ احتكاك الاغريق والرومان به . ويعتبر المؤرخان الاغريقيان هرودوت وبـوليب في طليعة من تنارل المغرب بالرصف والدراسة .

ويتلو ذلك كتابات المؤرخين اللاتين امثال سالوست ، وتيت ــ ليف ، وبلينى وديوكاسيوس وبروكوب ·· الخ ، وبالاضافة الى كتب التاريخ هناك مجموعات هامة من الكتابات السامية والاغريقية واللاتينية تتصل من قريب او بعيد بتاريخ المغرب ، عثر عليها فى مناطق مختلفة من البحر المتوسط وجمعت في مجلدات خاصة · وعلى مر الزمن عدت هذه المؤلفات رغم ما فقدمنها مصادر رئيسية ، واستخدمها المؤرخون الاروبيون التالون لانتزاع المعلومات منها الى اقصى حد يتيح ازاحة بعض الظلام المخيم على المغرب وعلى علاقاته الدولية .

ولا يخفى على القارىء ان الكتاب الاغريق واللاتين ينتسبون الى شعوب تحيزت بعدائها للفينقيين ولاهل المغرب لذلك لا تتصف كتابات الكثيرين منهم بالموضوعية التامة ولا بالجهد للوصول الى الحقيقة التاريخية السليمة · وعلى الرغم من ان اعمال المؤرخين الاغريق واللاتين تتناول احداث الالف الاول قبل الميلاد ، نجد أن القرون الستة الاولى منه تكاد تكون مهملة . ولقد حظيت الكتب الاغريقية اللاتينية باهتمام المؤرخين الاروبيين التالين ، فاشتط الكثيرون فى اخذ ما جاء فيها من معلومات بشكل حرفي وباعتبارها الحقيقة النهائية بالنسبة لاخبار أهل المشرق،بما فيذلك سكان المغرب القديم، ومع قيام علم الآثار وممارسة التنقيب فى مواقع المغرب التاريخية مثل قرطاجة وليكوس وسيرتا ، بدات معلومات المصادر الكلاسيكية تقابل بمحك النقد والتمحيص ، فتوجب تصحيح أو رفض بعض المعلومات السابقة احيانا ، وفى بعض الحالات جاءت نتائج البحث الاخرى تؤكد صحة الاخبار السالفة وخاصة عند ظهور وثائق كتابية اصيلة ومعاصرة .

---

1) جوليان تاريخ افريقيا الشمالية ، تونس 1969 ص 65

واذا حاولنا ان نقدم لمحة موجزة عن ما يمكن تقديمه من نقد لهذه المصادر ، فسيكون ذلك من قبيل ضرب الامثلة العملية ، وقد نكتفى بابسط جانب ونعنى نقد التسميات التى وردت فيها .

1) — فاسم الفينقين ليس من وضع اصحابه ، ولكنه من وضع الاغريق الذين اطلقوا على الساميين من سكان الساحل السورى اسم صباغة الارجوان « فونيكس » التى اشتهر الفينقيون بها . وفيما بعد حرف الكتاب اللاتين كلمة « فينقى » الاغريقية الى « بونى » اللاتينية .

2) — ونفس الشىء ينطبق على تسمية النوميديين الذين اشتق الاغريق اسمهم من طريقة معيشتهم . وفى ذلك يقول المؤرخ بلينيوس : « نسمى نوميديين اولئك الناس الذين يطلق عليهم الاغريق اسم « نوماداس » . اى رحل .

ثم استعير اسم الشعب ليطلق على البلاد التى يسكنها فغدا اسمها نوميديا ، علما بان شمال افريقيا كانت تعرف سواء من قبل المصريين او من قبل الاغريق باسم ليبيا .

3) اما الرومان فقد اطلقوا على جزء من سكان المغرب اسم « بربر » وهو اسم مشتق من الاغريقية « بار — بار » ويعنى الهمج . وكان الاغريق ينعتون به غيرهم من الشعوب ، وبصفة خاصة الاقوام الشرقية التى لا يفهمون لغتها . وبتأثير الفلسفة الرواقية زال المفهوم القومى لهذه الكلمة ، فأخذ الناس يرون فى البرابرة والعبيد بشرا ومع الزمن اتخذت تسمية « بربرى » مدلولا ثقافيا فشمل كل الذين لم يساهموا فى الثقافة الاغريقية الرومانية

وترد هذه التسمية عند المؤرخ سالوست : « كان اوائل سكان افريقيا الجتوليون والليبيون ، وهم اقوام خشنة وبرابرة يقتاتون بلحوم الحيوانات المتوحشة او من اعشاب المروج على طريقة المواشى » .

يتبين من الشواهد السابقة ان ما كتبه المؤرخون الكلاسيكيون عن المغرب من تسميات مشوهة ومعلومات لا تلتزم بالدقة قد تم فرضه من جانب واحد .

ثم اخذ المؤرخون التالون هذه المعلومات واعتبروها شبه مسلمات فعلى الرغم مثلا من ان المؤرخ جوليان يعترف « بان البربر لم يطلقوا على انفسهم هذا الاسم ، ولم يروموا استعماله فانه يعتبره افضل تسمية لشمال ارفريقيا » !! ومن الغريب ان بعض كتاب التاريخ المعاصرين من ابناء المنطقة يعيدون اقتباس بعض هذه الاخطاء دون ان يطبقوا عليها مبادىء النقد التاريخى . ولو سأل احد « الفينقيين » عن اسمهم الحقيقى لاجابوه بانهم « صيداويون » نسبة الى مدينة صيدا ، او اجابوه بأسم شعبهم عامة ، كما اجاب القديس اوغسطين من بعد بانهم « كنعانيون » .

4) — ونفس مبادىء الشك والنقد يمكن تطبيقها على بعض المعلومات الواردة من كتب المؤرخ بوليت حول اعداد الجنود الذين اشتركوا فى الحرب اثناء غزوة القائد الرومانى ريغولوس على شمال افريقيا او فى ثورة الجنود الليبيين الملقبين « بالمرتزقة » على قرطاجة ... او فى تحليل المؤرخ سالوست لاسباب ثورة يوغاطا ، بله نزاهته كموال وكمؤرخ لشمال افريقيا .

5) — اما المؤرخون المعاصرون الذين عالجـوا تاريخ المغرب عامة ، فان بعضهم لا يتأخر عن توجيه كتابة التاريخ اتجاهات معينة سواء لضرب الوحدة الوطنية او لتبرير الاحتلال كلما كانت مصالح بلده المستعمر تتطلب ذلك . وما اكثر ما كتبه المؤرخون المعاصرون عن تمجيد الاستعمار الروماني في شمال افريقيا ، وما اشادوا بالازدهار الذى حقق للمنطقة وما ابرع المقارنات التى كانت تعقد بين منجزات الرومان واعمال الفرنسيين فيها ، وهناك مؤرخ عالم كالمؤرخ جزيل يرسم في كتابه « الجزائر في العهود القديمة ، عام 1900 » الطريق للاستعمار الجديد حينما يحلل الوضع الجديد مستفيـدا من اخطـاء الاستعمار القديم : « ... فبينما كانت الجزائر عام 1830 منطقة بربرية ، وجد الرومـان فيها مدنا مزدهرة وكثيرا من الاراضي المستثمرة . فكان عليهم انذاك ان يطوروا جسدا كان قويا من قبل ، ولم يكن عليهم ان يعيدوا الحياة الى جثة .

فلم يصطدموا لا باحقاد قومية ولا بأحقاد دينية ... ولم يكن ضروريـا لهم لكى يثبتوا سيـادتهم ولكى ينشروا لغتهم وعاداتهم ان يملأوا البلد بالمستعمرين . وهناك عدد كبير من الافريقيـين قبلوا طواعيـة الحضارة التى جاءهم بها الرومان . صحيح ان الكثير غير هؤلاء فضلوا الاحتفاظ بعادات ابائهم ، نجد ان روما ومن بعد بيزنطة وريثتها اخطاتـا بأنهما لم تبذلا محاولات قوية لكى تحول من مشاعرهم . وهذا كان بالنسبة لروما وبيزنطة عربونا للسلامة . وقد اخطأتا قبل كل شىء بانهما **لم تقيما فى افريقيا مؤسسة عسكريـة قويـة الى درجة تخولها من طرد الناهبين البربر ومن ايقاف الغزوين الجرمانى والعربى ... »** .

اخيرا اليس الغاية من تقديم بعض الشواهد حول مجالات نقد المصادر الطعن فى كل ما تتضمنه هذه من معلومات حول ماضى المغرب ، بل رغم ذلك تبقى مصادر على درجة من الاهمية . غير ان الهدف الحقيقى من طرح المشاكل **بدء حقبة جديدة من وعى سليم لتاريخ المغرب .**

صحيح أن الدراسات التاريخية باللغة العربية قد قصرت فى هذا الحقل لاسباب عديدة ، كان التخلف الذى فرض من الخارج ومن الاستعمار بالذات فى مقدمتها . فيضاف الى ذلك جهل باللغات القديمة الاغريقية — اللاتينيـة او السـامية ، وافتقار الى المكتبات الضخمة ، وحرمان من ممارسـة البحث الآثرى . واليوم يحتم مستوى البحث العلمى المعاصر اسلوبا جديدا فى معالجة ودراسة تاريخ المغرب القديم . فالمصادر الكلاسيكية وكتب التاريخ المعاصرة التى اعتمدت عليها تكاد تستنفذما لديها من امكانيات فى تقديم صورة كاملة سليمة اى قريبة من الحقيقة التاريخية . والثغرات العديدة الواسعة التى ما تزال قائمة ضمن فصول هذا التاريخ لا يمكن رأبها الا بالرجوع الى المصادر المادية : اى بالرجوع الى كل ما خلفه سكان المغرب من انتاج يدهم وفكرهم عبر القرون . هذا التراث الهام ما زال يكمن تحت التراب لا فى مواقع المغرب التاريخية الوفيرة ، بل ينتشر في ارجاء حوض البحر المتوسط وجزء من سوريـا ومصر الى ايتاليا واسبانيا . أن مسؤولية استعادته وتنقيح ما يشوبه من شوائب تقع بالدرجة الاولى على ابنائه وعلى المختصيـن فيه . وبتضامن جهود

علماء الآثار مع علماء اللغات والمؤرخين والانتروبولوجيين يمكن التصدى بشكل جدى لهذا العمل ، اما الباحثون الناشؤون فسيجدون انفسهم محتاجين للتسلح بعدد من اللغات الحية ، وآخرمن اللغات القديمة واخلاصا منهم للموضوعية سيكونون ملزمين بالتقيد باختصاص عميق فى حقبة معينة وحضارة خاصة . فالعصر الذى يتصدى شخص بمفرده لكتابة تاريخ الانسانية من عهد آدم الى اختراع البخار قدولى الى غير رجعة .

لماذا نهتم بتاريخ المغرب

قد يتساءل البعض : «لماذا يتوجب علينا ان نعرف تفاصيل الماضى اطلاقا ؟ » ، و « ما فائدتنا من دراسة مخلفات قرطاجة او من الكشف عن اطلال تمقاد وبنى حماد ؟ » اجابة على هذه التساؤلات نعيد الى الذاكرة ما سبق لنا التأكيد عليه سابقا . **فلا يوجد ثمة شيءانسانى حقا بدون اهمية .** فالماضى لا يشكل فقط جذور تلك الدراسات التى تلوح فى جوهرها مستقلة عن الزمن : كالرياضيات والعلوم . بل يمكن للماضى ايضا أن يقدم مفتاحا للمشاكل المطروحة فى حياتنا الحاضرة والتى لا تستطيع العلوم الطبيعية — على الاقل — فى مرحلتها الحاضرة من التطور ان تفسرها . هناك اشياء يمكن للشعوب أن تتعلمها من التاريخ ، ولا يمكن تعلمها من الفيزياء او من الرياضيات .

فى دراستنا لتاريخ المغرب يمكن أن نعثر على مقدمة مفيدة للمواضيع المعقدة التى يريد ابناء المغرب ان يتفهموها او يتصدوا لها . وسواء كانت المشاكل المطروحة هامة أم تافهة ، بعيدة أم قريبة فان بعض المعلومات الصحيحة عن ماضى هذه المشاكل يمكن ان تساعد على معرفة ما يجب عمله . وليس التاريخ بهام كاهميته فى التصدى لموضوع حيوى : كموضوع مستقبل المغرب والمشرق العربيين عامة ، او صياغة مستقبل الجزائر خاصة . ولكى نعرف **ما يجب عمله يجب ان نعرف اين نقف .** فالتاريخ تعبير عن كبرياء الشعوب . والشعوب كالاشجار الحية تزداد مقاومتها للاعاصير كلما رسخت جذورها فى أعماق الارض .

بين ماضى المغرب وحاضره

ا — الثورة الزراعية :

فى يومنا هذا ولم تمض عشر سنوات بعد على استقلال الجزائر ، يتردد فى ارجاء المجتمع الجزائرى اصداء عميقة لثورة زراعية . ثورة تعيد التوازن بين افراد الوطن الواحد ، وتحقق لهم فرصا متكافئة فى الحياة . الارض والعمل مصدران اساسيان للرزق « والارض لمن يعيش عليها ومن اجلها » .

ويلوح للبعض وكأن هذه الشعارات مستحدثة فى المغرب اومستوردة . ان نظرة فاحصة الى الماضى البعيد ترى أن شعارات مماثلة نادى بها على أرض المغرب عالم من علماء الزراعة الاوائل هو ماغون القرطاجى . ولقد الف ماغون كتابا هاما فى الزراعة . طبقت مبادئه فى ريف الدولة القرطاجية ومزارعها ، واعتبرت سببا هاما من اسباب ازدهار الاقتصاد الزراعى الذى اشتهرت به الدولة القرطاجية . بل ان مجلس الشيوخ الرومانى يأمر بترجمة كتاب ماغون الى اللاتينية بعد سقوط قرطاجة (1) .

---

(1) سلم كتاب ماغون من الفناء بفضل ترجمته الى اللاتينية والى الاغريقية

خلد ماغون في كتابه المؤلف باللغة الفينقية وجهة نظر القرطاجيين بالنسبة للملكية الزراعية ، وبالنسبة لعلاقة الانسان بالارض عند ما قال ناصحا مواطنيه : « ينبغي على من يشتري أرضا زراعية أن يبيع بيته في المدينة ، حتى لا تبقى لديه تلك الرغبة التي تدفعه الى عبادة (آلهة) منزله في المدينة بدلا من عبادة (آلهة) الريف . والمرء الذي يجد متعة اكبر في مقره في المدينة ليس بحاجة لامتلاك اراضي في الريف » .

وفي الحقيقة اعتبر القرطاجيون عمل الفرد في مزرعته واشرافه بنفسه على العناية بممتلكاته الزراعية مدعاة للفخر . وكان الفلاحون يتجمعون ضمن قرى ولا يسمح لهم ان يعيشوا متفرقين .

وقد حرصت قرطاجة على عدم تفتيت الاراضي الزراعية نتيجة تناقلها بواسطة الارث ، وانتقلت هذه المبادىء الى ايتاليا وصقلية فعادت بفوائد جسيمة على الدولة الرومانية . ان اطلاع المواطن على نتائج تجربة زراعية مماثلة للتجربة التي يتصدى لها — قامت على نفس أرضه وبيد أسلافه — كفيل بأن يبث الطمأنينة في النفس ، وبان يزيد الثقة بالمستقبل ، والمشاكل التي تتصدى لها الشعوب متشابهة في جوهرها طالما بقي الانسان المحور الرئيسي في العلاقة مع البيئة والزمن .

ب — « افريقيا الرومانية » والقديس او غسطين

في معرض الحديث عن العلاقات الاجتماعية في تاريخ المغرب وحضارته الحاضر منها بالماضي، لابدلنا من عود على بدء . عود الى الذين يدعون للعناية بتاريخ « افريقيا الرومانية » والاهتمام بشخصية اوغسطين : اذ انه من باب المصادفة الغريبة ان تلقى هذه الدعوة صدى عاجلا لها في مشروع أولي للبحث العلمي » اعد مؤخرا .

نعم لقد كان اوغسطين من ابناء المغرب واشتهر بالخدمات الكبيرة التي قدمها للكنيسة المسيحية . وكان علما من ادبائها بذل اوغسطين جهده لنشر الدين المسيحي في « افريقيا الرومانية » بالفكر وبالعمل بين ابناء قومه . الا ان اوغسطين رغم ما يتمتع به من فصاحة البيان وتعدد الالسن يلقى المقاومة والاعراض من كثيرين منهم .

لذلك اذا استعرض المرء اعماله فلابد أن يعرضها كاملة اي ان يضعها في اطارها الصحيح . وباعتبار اوغسطين من ابناء المغرب لا يكفي فقط ايضاح دوره الديني بالنسبة للكنيسة بل لابد من تبيان طبيعة علاقته بمجتمعه المغربي ، لان هذه العلاقة قد تكون مرآة لعصر .

بعد انتصار الرومان على قرطاجة وبدء احتلالهم للمغرب ، نجد اهل المدن يبدأون في استعمال اللغة اللاتينية وتتخذ الارستقراطية المحلية آلهة رومانية بينما يحافظ ابناء الشعب على عباداتهم ولغتهم السابقة ، وعلى دخول المسيحية الى شمال افريقيا يلاحظ ان عدد معتنقيها يكثر بالمثل في المدن وبين افراد الطبقة الارستقراطية . وفي العهد الامبراطوري عند ما تتزعزع هيبة الحكم الروماني في شمال افريقيا في عهد غورديانوس ، تسرع الارستقراطية المحلية للاتحاد مع الكنيسة الرسمية حامية النظام لمقاومة حركة ثائرة مناهضة للنظام الاجتماعي ضمت المعدمين من المواطنين الذين التفوا حول النحلة

« الدوناتوسية » المنشقة عن الكنيسة . واعتبارا من العام 253 للميلاد يتخذ النزاع الذى رافق الازمة الاقتصادية فى الامبراطورية الرومانية صورة صراع طبقى بين المعدمين والجائعين فى الريف والجبال من جهة وسكان المدن من جهة اخرى . ولابد من الاشارة هنا ان طبيعة الاستعمار الرومانى عملت بحكم منطق الاستغلال ، على ابقاء الفوارق الكبيرة بين هذين العنصرين من ابناء المغرب ، وقد كرست السلطة الرومانية قواتها فى مناسبات عديدة لقهر الثائرين . الا ان المقاومة اتخذت لنفسها صبغة اجتماعية اخرى تتمثل فى حركة « الدوارين » — (وهم من المعدمين الذين كانوا يدورون حول مخازن القمح لسرقة قوتهم) — يضاف اليهم الفلاحون البائسون فى الريف . وانتهز « الدوارون » فرصة الصراع الناشب بين نحلة الدوناتوسيين والكنيسة الكاثوليكية للثورة . وقد اعلنوا انهم « جاؤوا ليملأوا الارض عدلا » وينادوا « العبيد للتحرر » .

من جديد اشتركت الجيوش الرومانية مع الكنيسة فى قمع الثورة فبطشوا بالدواريين وبالدوناتوسيين بكل قوة .

وفى الحقيقة : يلخص رأى المؤرخ رينان موقف الكنيسة الافريقية بالنسبة للسلطة الرومانية من جهة وللمعدمين من ابناء الريف من جهة أخرى بشكل بليغ : « ان السلطة تميل الى السلطة ، اذا كان من الحتمى ان يحس رجال محافظون كالاساقفة برغبة ملحة جبارة تدفعهم الى التراضى مع السلطة العمومية ، مقتنعين بان عملها يهدف فى اغلب الاحيان الى الخير العميم ... فحقد المسيحية على الامبراطورية الرومانية ، هو حقد من كتب لهم ان يتحابوا يوما ما » (1) . وبالفعل ساندت قوات الامن السلطة الكنيسية فى محاربتها لنحلة الدوناتوسيين المتمردين . وهذا يضطر الدوناتوسيين للاتحاد بالمثل مع حركة « الدوارين » والاستبسال فى المقاومة . وعند ما يتزعم المقاومة امير نوميدى اسمه فيرموس تتخذ الثورة على الحكم الرومانى فى موريطانيا وفى نوميديا طابعا قوميا بالاضافة الى الطابع الاجتماعى . الا ان الرومان يتمكنون من اخماد الثورة بالقوة وبالتآمر عام 375 .

فى هذه الظروف الاجتماعية الملتهبة نجد القديس اوغسطين على مسرح الاحداث . فهو اسقف منتخب لمدينة عنابة منذ عام 395 وصديق صميم لاسقف قرطاجة . يتميز بمواهب عديدة : شخصية فكرية ، سياسية ، خطابية وكتابية ... ويسخر مواهبه لخدمة الكنيسة المسيحية . « وكانت الدعوة الى المسيحية فى هذه البلاد — التى تكثر فيها الضيعات الكبيرة — يعين على نشرها بنجاعة الملاكون الكبار الذين كانوا يسعون هم بانفسهم الى تنصير معمريهم والى توطيد الوحدة الدينية فى اراضيهم بنوميديا » (٢) اذ كانت المسيحية بالنسبة للاسياد ضمانا لحقد طبقة المعدمين من الفلاحين .

ولقد تم النصر للكنيسة الكاثوليكية على خصومها عند ما أعلن الامبراطور — بناء على طلب من مجمع الكنيسة فى قرطاجة وبتحريض من أوغسطين —

1) انظر جوليان ، تاريخ افريقيا الشمالية ، تعريب مزالي-سلامة-الدار التونسية للنشر 1969 ، ص 296 — 301

2) انظر جوليان المرجع السابق ص 307

عام 405 ان النحلة الدوناتوسية منافية لقــوانين الدولة . فنتج عن ذلك قمع وبطش شديدين صمدت لهما حركة الثوار فى نوميديا ، وانفصل الدوارون عن الدوناتوسيين ، وعادوا لنهب المزارع الكبيرة .

تجاه المقاومة الضارية يتراجع الامبراطور على ما يبدو ويعلن فجأة عن حرية العقيدة . فجاء اعلانه ضربة شديدة لمساعى كنيسة قرطاجة عموما ولجهود اوغسطين خاصة . فيعود اوغســطين من جديد ليمارس براعته ومواهبــه فى الدعوة لعقد مجمع دينى بهدف « اعادة الوحدة الدينية » الى الكنيسة . وتجاه الضغط والشكاوى التى ارسلها المجمع الى الامبراطور تظفر الكنيسة من الاخير بسحب مرسوم حرية العقيدة المتســامح ويستجيب الامبــراطور هرنوريوس مرة اخرى لاساقفة قرطاجــة عند ما يصدر الحكم على المنشقين بالعودة الى الكنيســة تحت طائلة التعذيب والنفى ومصادرة الاموال .

بفضل جهود القديس أوغسطين ينتصر الكاثوليك فى شمال أفريقيا على خصومهم وهذا ما يزيد فى اشعال حقد المواطنين على الامبراطورية الرومانية وعلى الكنيسة اداتها او على حلفائها الارستقراطية ملاكى الاراضى : لقد اعتمد اوغســطين فى نشــر المسيحية بين قومه مثلما اعتمد فى مقاومتهم على مبدأ من وضعه هو « مبدأ الارهاب المجدى » الذى تمارسه السلطة ضد الخارجين على الكنيســة . أما سياسة الكنيسة فكانت تقضى بمساعدة الضعفاء شريطة ان يقبلوا بالتفاوت الاجتماعى وبالخضوع . كما اعلنت شرعية الرق . ومن الطريف انه فى خلال ازمة الامبراطورية الرومانية وانحلالها لم يبق الى جانب الكنيسة فى شمال افريقيا الا ملاكو الاراضى يدعمونها . وهذا هو الوضع الاجتماعى الذى آل اليه المغرب فى اواخر ايام الاستعمار الرومانى من انفصال عميق وضع الحكام وكنيستهم والارستقراطية المحالفة من جهة والشعب من جهة اخرى . اذ ان الفريقين يختلفان فى اللغة وفى الثقافة وفى الدين وحينما تهوى الامبراطورية الرومانية فى شــمال افريقيا يبقى الاساقفة وحدهم . ويعلن المؤرخ ستيفان جزيل على ذلك : « بعد ان قبل اهل المغرب القرآن بقى الرهبان والاساقفة وحــدهم المدافعــون عن الحضارة اللاتينية ، وما لبثوا ان اختفــوا فى كل مكان تقريبا وبدأت اللغة العربية بالانتشار ومن المحتمل ان كثيرا من الافريقيين تبنوها بدون صعوبة لانهم مازلوا يعرفون اللغة البونية ذات الاصطلاحات السامية المتشابهة مع العربية .

ولم يبق فى لهجــات البربر الابعض كلمــات لاتينية » (١) .

وفى الحقيقة لربما فات المؤرخ جزيل أن يقدم بفيد؟ الاسباب التى دفعت أهل المغرب لاخذ اللغة العربية والدين الاسلامى . فالحضارة اللاتينية سواء بحلتها القديمة اللاتينية امبحلتها الجديدة المسيحية لمتنفذالى قلوب ابناء الشعب المغربى . ودين الامبراطورية الجديد لم يقدم لهم الحد الادنى من العدالة الاجتماعية فقد انحاز رجاله وفى طليعتهم اوغسطين نفسه الى صف الحكام ، وتخلوا عن كتلة الشعب من الفلاحين الكادحين والمعدمين مما وسع الهوة بين الطبقات .

1 - St. GSELLE, l'Algérie dans l'antiquité, Alger 1900, p. 88 s.

خـــاتمة

فى ختام هذا المقال يتضح ان تاريخ المغرب يشكل وحدة متكاملة تكاد حلقاتها تكون متصلة . والماضى يتصل بقوة بالحاضر فى عنصرين اساسيين هما : البيئة والانسان . وكما قدمنا سابقا ، مازالت البيئة « بثلاثيتها » المؤلفة من سهل وجبل وصـــحراء ، تعرض مشاكل متشابهة وسواء اطلق البعض على هذه الثلاثيـــة اسم لعنـــة جغرافية او ديمومـــة جغرافية ، نجد الجواب عليها عند الانسان المغربى فهو مازال يجابهها ويتحداها « بثنائية » اجتماعية من بدو وحضر تدعمت منذ زوال الحكم الرومانى (بثنائية) جنسية متشابهة الاصول والمنشا . وفى الحقيقة يعتبر انتشار الاسلام فى المغرب الرد العملى الاجتماعى على الديمومة الجغرافية فالاســـلام جاء محققـــا لشرطين كانا عسيرين هما : الوحـــدة السياسيـــة والوحدة الحضارية . مطلبان عزيزان افتقد المغرب الواحد حينا والاخر احيانا . هذه الحقيقة يتجاهلها المؤرخون الغربيون من انصار الديمومة ـ او اللعنة الجغرافية » . ويمكن القول ان الوحدة الروحية فى المغرب كانت فى الماضى ومازالت أساسا لصهر وتلاحم الثنائية الجنسية . والوحدة الروحيـــة فى الحاضرة قدمت الدرع الواقى الذى تجمعت وراءه ارادة التحرر الحديثة ـــ فانتصرت . ان نظرة الى الماضى توحى بان مستقبل المغرب العربى سيرسى على دعـــامتين اساسيتين : وحدة روحية ، ووحدة اقتصادية . وكما ان الاخيرة لا يمكن ان تكون بديلة للاولى ، فان المغرب العربى الكبير لا يمكن ان يكون بديلا لوحدة حقيقية مع المشرق العربى .

اذا كان للمواطن الجزائرى ان يعى تاريخ بلاده فلابد ان يهتم بكل فصل من فصوله ، فهى مدرسة ، وفيها كما يقول ابن خلدون عبرة ، اما الغموض والظلام الذى يرافق احيانا بعض هذه الفصول فانه لا يرجع الى شذوذ ولا الى نقص ، بقدر ما يعود الى قلة البحث الموضوعى المركز ، ونقص فى المصادر وندرة فى شمول الرؤيـا .

الحقيقة والزيف في مجتمعنا العربي

د. عبدالله شريط

من أحرج مشاكلنا الفكرية والنفسية التى نجتازها في مرحلتنا الحضارية الراهنة ، هي حيرة الكاتب عند بحثه اى موضوع • باى طريقة يتناوله : هل ينساق مع منهج الفخر الذى توارثناه عن اجدادنا فى الجاهلية ، ونقلناه من الميدان القبلى الى الميدان القومى والدينى والحضارى ؟ وهو منهج ترتاح اليه نفوسنا • ولكنه لا يعطينا نتيجة ايجابية ولا يقدم عجلة تطورنا الى الامام ؟ أم هي طريقة النقد الذاتى الذى يساعدنا على كشف نقائصنا ومعالجتها بفكر مسؤول ، ولكنه منهج قد يحطم طموحنا الى المعالى ويشعرنا باننا اصغر مماننتصور حقيقتنا ، ومن ثم فلا يصبح هذا النقد الذاتى مثل الفخر تماما من حيث النتيجة المعطلة التى تؤدى اليها •

ذلك ان هذين المنهجين هما الموجودان فىمجتمعنا العربى على اختلاف بين بعض مناطقه والبعض الآخر • فمثلا عندنا فى منطقة المغرب وفى الجزائر على وجه الخصوص نجد الاتجاه يلح اكثر وبدون قصد فى اغلب الاحيان ، على مايمكن ان نسميه بمنهج النقد الذاتى وهو اتجاه تلقائى مفرط فى هذا النقد حتى أن المستمع الى أحاديث الناس عندنا،

سواء كانوا مثقفين أو من أوساط الشعب ، يلاحظ بسهولة ان هذه الاحاديث لا تتناول الا النقائص وحتى عندما لا تكون هذه النقائص صارخة فاننا نلتذ باخراجها من حفرها وابرازها والتشنيع بها فيما بيننا ، وحتى امام الاجانب احيانا · وكثيرا ما ينعكس هذا الاتجاه عندنا على كتابتنا وابحاثنا في الميادين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية وكل ما يمس حياة المجتمع من قريب أو من بعيد ،وكثيرا ما يأخذ هذا النقد طابع ضمير الغائب: فاذا كنا نسير في طريق غير معبد كما ينبغي ننهال بالنقد على عمال الطرقات ومصالح الاشغال العامة · واذا ذهبنا الى المستشفى ولم نجد مكانا أو طبيبا أو ممرضا على الفور ، واذا دخلنا ادارة بريد أو بلدية نتضايق من الازدحام ويشتكى كل واحد منا من كثرة الناس ، وننسى اننا بعض هؤلاء الناس ولكن المسؤول دائما في نظرنا هي السلطة !

وقد اتخذ هذا النقد المرير الذى لا ينقطع ، طابعا مأساويا عندنا وشعورا بعدم الرضى في كل الاحوال واذكر ان أحد الاساتذة الشرقيين ، وهو رجل فاضل وصريح ، كان يعمل معنا في الجامعة ، وكنا يوما نحدثه عن كثرة مشاكلنا من قلة الامكانيات المادية والبشرية لمجابهة كل الطلبات الملحة ، وعن تأخرنا ، وعدم جدية اطاراتنا ، فكان ينصت الينا بانتباه وتعجب ، ثم قال : يا اخوانى · بكل صراحة انا لا افهم معنى لقلقكم واستعجالكم · لقد قطعتم في ثمانى سنوات من الاستقلال مراحل في نشر التعليم وتعبيد الطرق وبناء المساجد والمستشفيات وتكوين الاطارات واقامة المصانع والجسور والسدود وو ·· ما لم تحققه لكم فرنسا في ظرف قرن وثلث قرن · فماذا تريدون اكثر من هذه الغاية ؟ ان كل شىء عندكم على احسن مايتمنى المرء لبلاده ، الاشىء واحد : وهو هذا القلق والاستعجال الذى اصابكم بالعبوس وقنوط النفس ·

انكم في حاجة الى شىء واحد · الى انفساح الامل في القلب وابتسامة مشرقة في الوجه وفى بعض اقطارنا في المشرق نلاحظ عكس هذه الظاهرة : فمهما كانت المشاكل من الحدة وعظم الخطب يقابلها الانسان العربى كما لو كانت شيئا طبيعيا لا يستدعى الانزعاج ولا يتطلب الاسراع في تغيير الاوضاع · واذكر انى زرت بلدا عربيا يعتبر في طليعة اقطارنا الناهضة · وكتب لى ان حظيت بمقابلة رئيس هذه الدولة ، في مهمة تتعلق بالثورة في الجزائر ، وكنت اذاك مديرا لمجلة « المجاهد » · وكان يصحبنى في هذه المقابلة مدير جريدة من كبريات صحف المشرق العربى · وانطلقت بكل بساطة اتحدث عن المستوى الاجتماعى المتدهور الذى يلاحظه الزائر لهذا البلد ، شارحا رايى باننا ما لم نهتم في وطننا العربى بالتكوين الحزبى والثقافى والاجتماعى والسياسى في شعبنا العربى ، فان مظاهر التمدن الغربى ستبقىقشرة مصطنعةتخفى تحتها بدائيتنا الحقيقية· وان الاجانب لن يقيسوا رقينا بما استوردناه من عندهم من الآلات والمصانع والسيارات بل يقيسونه بما نحن عليه من المستوى الذهنى والمهارةالحضارية التى هي روح تلك المادة الآلية المتحركة ·

وعند خروجنا من المقابلة صارحنى رفيقى الذى كان يصحبنى باننى كنت قاسيا جدا ، مبديا تعجبه مما كاد ان يسميهوقاحة · ومعربا عن رضاه الكامل بالاوضاع السائدة في بلاده وفى جوابى اليه لم اخف عنه تعجبىمنتعجبه· ثمسالته : أى فائدة فىان اعتبر نفسى عربيا فىاىبلدعربى انزلفيه واتحدث معابنائه، مسؤولين او غير مسؤولين ، كما اتحدث مع ابناء بلدى ؟ كما اعربت له عن دهشتى من عدم تنبيهه هو

للمسؤولين لهذا النقص فى أوضـــاع المجتمع · ثم استدعيته لزيارة من يشاء من مســؤولينا ويتحدث اليهم عن النقائص الصارخة التى تتخبط فيها الثورة الجزائرية فان آراءه سنتقبلها لا بصدر رحب فقط بل اننا عندئذ فقط سنحس بأخوته الحقيقية ·

اذن فهناك حالة مرضية فى كلتا الظاهـــرتين : النقد المفرط الذى يخلق جوا ماساويا قلقا مثبطا · والرضى الابله الذى يخلق حالة من الاطمئنـــــان القدرى العاجز ·

اننا فى كلا الحالتين لم نهتد الى الموقف الموفق · كان أحكامنا عن أنفسنا ما تزال سجينة التشـــاؤم الابكم أو التفاؤل المجنح ، وكل منهما يرتكز عــــلى عاطفة طفولية غير ناضجة ومزاج نفسى متهافت · وفى كلا الحالتين ما زلنا محرومين من الحــــــكم العقلى الهادئ المحلل ·

واذا التفتنا الى تقاليدنا الفكرية القديمة فى هذا الصدد فاننا نعثر بسهولة على أصل هـــذا الموقف المزاجى ، وهو أصـــــل المدح والهجاء فى تراثنا الشعرى القديم · بحيث اذا استثنينا الجاحظ وابن خلدون ، ذاك فى مجاله الادبى المســــلح بالثقافة العلمية ، وهذا فى مجاله الاجتماعى المسلح بالتجربة فاننا لا نكاد نعثر فى هذا التراث على تقاليد للتحليل الفكرى الخالص من ضباب المزاج وغيـوم العاطفة والحكم المرتجل ·

أما اذا رجعنا الى وضعنا الراهن لنبحث فيه عما يمكن ان يزودنا به فى هذا المجال من سلاح ، فاننا نجد الضباب قد تضاعف بدلا من ان ينقشع ،والغيوم تراكمت حتى غشيت امامنا كل رؤية صحيحة ، وذلك بفعل تصادمنا مع الحياة العصرية تصادما اختلطت فيه الحقيقة بالزيف لاختلاط المادة عندنا بالفكر ،


ابن خلدون


ابن سينا


ماو تسى تونغ

فلم نعد نميز بينهما ولا نعرف ما هي حقيقتنا فى هذا الاصطدام •

وسنعود الى توضيح هذه النقطة بعد ان نوضحها بايجاز من الوجهة الفلسفية : ان هجل يعتبر الوجود الفكرى هو الوجود الحقيقى • فهل كان على خطأ ؟ ان السكة الحديدية قد وجدت فى ذهن المهندسين قبل ان ينجزها العامل • وهو يعنى ان كل وجود عملى لم يسبقه درس فكرى ، فهو صائر الى زوال • ولا يدخل باب الحضارة الخالدة • ووجود المجتمع عنده لا يقاس بوجود افراده ، بل هو يدخل التاريخ منذ اليوم الذى تشكل فيه لذلك المجتمع دولة • لان الدولة وذلك فى الحدود التى تكون فيها الدولة هي عقل المجتمع ، وهى الوجود الفكرى له ، اى الوجود الحقيقي • فالمجتمع لايدخل الوجود الانسانى قبل ان يمتلك العقل اى الدولة •

واذن فالمجتمع الذى لم يقم على أسس عقلية فهو لا يعد مجتمعا حقيقيا • وابن خلدون من ناحيته يعتبر الوجود العملى هو آخر مرحلة فى الوجود النظرى • بحيث يكون الوجود الاجتماعى الذى لم يركب مطية الفكر الى الوجود العملى فلا أمل له فى الوجود الحقيقى • ومن ثم كرس كل جهده الى فهم المجتمع العربى ذهنيا لانه لاحظ ان هذا المجتمع بقى محروما قبله من هذا الوجود الذهنى الذى هو الوجود الحقيقى • ولعل ما يسميه الاستاذ « ناصيف نصار » بواقعية ابن خلدون هو هذه الواقعية الفكرية التى افتقدها المجتمع العربى قبل ابن خلدون ، اى افتقد وجودا مدروسا ومحللا ، ينتقل به أو يرتفع من الوجود العملى (Empirique) الى الوجود العلمى المعقلن • لقد الح الاستاذ ناصيف نصار على عنصر الفكر فى واقعية ابن خلدون • وهذا الالحاح يأخذ فى نظرى أهميته الكبرى من ادخال عنصر الفكر هذا فى الوجود الخام لكي يصبح وجودا حقيقيا • وابن خلدون فى هذا الصدد يلتقى مع هيجل فى غاية واحدة ذهب اليها كل منهما عن طريق خاص به •

وهذا ما نريد من ناحيتنا ان نبنى عليه مشكلة الحقيقة والزيف فى مجتمعنا العربى • وليسهل علينا توضيح الطريق الى هذا الغرض سنقسمه الى ثلاثة ميادين رئيسية هي : الميدان الحضارى ، والميدان السياسي ، والميدان الثقافى ، محاولين ان ندعمها بأمثلة مأخوذة من وقائع حياتنا الاجتماعية •

الميدان الحضارى :

قلت قبل قليل ان وضعنا الراهن فى مجتمعنا العربى يتميز بالتصادم الذى اختلطت فيه حياتنا التقليدية فى كل الميادين بالحياة العصرية • وهذا الاختلاط طبيعى ولم يكن لنا منه مفر ، وليس لنا أن نأسف له فى حد ذاته • ولكن ما نأسف له فى هذا التصادم هو اننا تقبلناه عمليا وتعودناه كما لو كان شيئا طبيعيا ، ودخل حياتنا اليومية قبل ان نتلقاه فكريا وندرسه ونفهمه • فكان الجانب الحضارى فى حياتنا موجودا وجودا عمليا أى وجودا مستعارا ، ولكنه غير موجود فكريا ، أى هو غير موجود وجودا حقيقيا • ان وجودنا الحضارى خليط من الحقيقة والزيف ، ولكن الى أىحد يمكن ان نميز بين الحقيقة والزيف بوضوح فى هذا المجال ؟

اننا فى محاولة التمييز نفسها نوشك ان نقع فى الزيف اذا رحنا نستعير القوالب الذهنية الاوروبية ونصب فيها وقائعنا الحضارية • لذلك سنلجأ الى تراثنا الفكرى الوحيد فى هذا المجال لانه هو الذى ما تزال قوالبه صالحة لان نصب فيها وقائعنا الراهنة • وهو تراث ابنخلدون : والمشكل الحضارى فى المجتمع العربى فى هذا الصدد من جهة التحليل

الخلدونى يتمثل فى مشكل البداوة والحضـــارة ، وليس فى التقسيم الطبقى الاقتصــادى كما يقتضى ذلك ، المنهج الماركسى · فهل ما يزال هذا التقسيم صالحا لنا اليوم ؟ وأى نصيب من البداوة فى حياتنا العربية المعاصرة ، وأى نصيب من الروح الحضرية فيها ؟

منذ حوالى أســـــبوعين فقط كان لى حديث مع ممرضة فى مصحة للتوليد فى مدينة الجـــزائر العاصمة فقالت لى : ان أكثر ما يضايقنا فى عملنا هو مجابهة الزوج الذى ينتظر فى قاعة الاستقبال ان نخبره بما ولدته زوجته ، فاذا كان ولداً ذكرا فان البشر والانشراح يصل به الى ان يغمرنا بالهـدايا والعطايا وبالشكر والامتنان كما لو كنا نحن الذين رزقناه بهذا الطفل المولود · واذا كانت بنتا ، فهو التجهم والعبوس وأحيانا يصل الى درجة شــتمنا والتهجم علينا كما لو كنا نحن الذين تســببنا له بصورة مباشرة فى حصول هذه الكارثة ·

هذه المصحة لا يقصدها الرجل المتوسط عندنا ولا رجل الريف أو البادية ، وانما تقصــدها الاطارات العليا فى البلاد من كبار الموظفين والعائلات الموسرة ذات التقاليد الحضرية العريقة ·

ولنفحص هذه الظاهرة عن قرب : هذا الرجـــل يرتدى لباسا أوروبيا من آخر طراز ، وزوجته كذلك وقد أتى الى المصحة فى سيارة أنيقة ، وليس عـلى ظهر بعير · والآلات التى استعملت فى عملية التوليد من أحدث الآلات وأدقها ، والطبيب المولد نال درجة الاختصاص فى هذا الفن من المعاهد الاوروبية · والمصحة التى يجرى فيها التوليد ليس فيها ما يذكر بالخيمة ، أو الاعتماد على الاولياء الصالحين فى تسهيل عملية الولادة · والمحيط المادى الذى يغمـر



كاتب يسن : صوامع المسلمين لا تنفذ !

هذه العملية كلها هو محيط حضارى تســتطيع ان تنافس به أرقى المصحات فى العالم المتحضر ·

ولكن الروح التى تختبىء خلف هذه المظاهر كلها هي تلك الروح التى وصفها القرآن فى الانســـان الجاهلى منذ اربعة عشر قرنا وهى ان أحدهم اذا بشر بالانثى ظل وجهه مسوداً من سوء ما بشـر به ايمسكه على هون أم يدسه فى التراب · هـــذا ولا حاجة بنا الى التوسع فى ظاهرة الدعوة الى تحرير المرأة وأعطائها حقوقها الكاملة فى المســاواة مع الرجل ، ولكننا نقصد دائما نساء الآخرين واخواتهم وزوجاتهم · أما الروح التى نتصرف بها مع نسائنا من عشيرتنا فهى لا تحمل من المساواة قليلا ولا كثيراً ولا حتى من الاحترام العادى الذى حاول الاسلام ان يغرسه فى نفوسنا منذ عشرات القرون نحو المـرأة ولكن بدون جدوى ·

ان التوسع فى هذه الوقائع من حياتنا الاجتماعية سهل جدا ويستطيع كل واحد ان يحشد منه عشرات الامثلة فى اليوم الواحد لانه هو الطابع العام فى



هيجل

حياتنا كلها واذن فاين هي الحقيقة الحضرية في هذه الوقائع ، وأين هو الزيف ؟

ان اكثر ما يبرز الجواب على هذا السؤال هو اندفاعنا الشديد وحدة تحمسنا في تقبل النقائص حتى قيل عن معدتنا الحضارية انها اقوى معدة حملتها الشعوب في التاريخ : تتحمل الحار والبارد والمنبه والمخدر في آن واحد ·

والنقائص التي نتحملها هنا هي اجتماع البداوة الفكرية والحضارة المادية ، والافراط فيهما معا : لا نرضى من مستوردات الحضارة الحديثة الا بما كان من آخر المنجزات التقنية الآلية · وفي نفس الوقت لا نتمسك من تقاليدنا الموروثة الا بما كان موغلاً في التأخر الفكري ولكننا بدون اى حرج أو شعور بالاثم نجمع النقيضين تحت سقف واحد وتشمله في الشخص الواحد نفس البدلة ونفس الجسم والفكر · ولنحاول الآن ان نقلب الوضع قلبا فرضيا طبعا لكي نتصور وجودنا الحضاري وجودا حقيقيا لا مزيفا ·

ولنستعين على توضيح هذا القلب سنلجأ الى مثل من الصين ، بقطع النظر هنا عن الايديولوجية السياسية ، مفترضين ان هذا القلب فيها كان يمكن ان يتم بدون نظام شيوعي · في الصين يتمتع المجتمع بتراث حضاري تقليدي في النظم الاجتماعية وفي الصناعات اليدوية والانتاج الفكري يعد أرقى من التراث العربي قليلا أو كثيرا · ولكنهم في الاخذ من الحضارة المستوردة يكتفون بالضروري من الآلات الانتاجية ووسائل الحياة العصرية أو ما يشبه الضروري وما يسميه ابن خلدون بالحاجي من لوازم الوجود · وبذلك استطاعوا ان يلائموا بسهولة بين تراثهم التقليدي الرفيع نسبيا ومستورداتهم المتواضعة نسبيا ، وهم الآن لا يعانون ما نعانيه نحن من التناقض الصارخ بين الميراث الوطني والمستورد الاجنبي في حياتهم · لماذا ؟ هل لان الفرق بين العرب والصينيين هو فرق في الانسانية كما يسميها ابن خلدون ؟ كلا ! الفرق يكمن في دور العقل في كل من الحالتين : في الصين بذل مجهود فكري على الجبهتين : جبهة التراث التقليدي بالتنقية والتقييم ودرس ما هو قابل للحياة وما هو غير قابل للحياة · وجبهة المستوردات الاجنبية بالدرس والتقييم ما يصلح منها للانتاج ، وما هو للمتعة المادية وحدها · نعم لقد ارتكبت اخطاء في هذا المجهود الفكري ، وربما ما تزال وستظل الاخطاء ترتكب · ولكن ما استوردوه من المستحدثات عن طريق التقييم الفكري، وما ادخلت عليه الحياة من التراث التقليدي قد استطاع به الصينيون ليس فقط ان يتخلصوا مما بينهما من تناقض معطل ، بل وايضا ان يوجدوا بينهما تكاملا حركيا يزيد من سرعة التاريخ · (ابرز مثل معروف في العالم هو الجمع بين الطب التقليدي والطب الحديث)هذا المجهود سواء سميناه ايديولوجية متكاملة يقوم بها رجال السياسة ،

او ثمرة ابحاث اجتماعيةجادة يقومبها رجال الفكر ، هو مالم يقم به ابناء المجتمع العربى فى الصدام الذى حصل بين تراثهم التقليدى ومستورداتهم الحديثة ، فكانت نتيجة الصدام بينهما فى مجتمعنا ليست فقط فقدان التكامل بينهما ، بل كانت النتيجة هي تعطيل سير التاريخ بالمجتمع العربى المعاصر والشلل الحقيقى الذى لم يختف وراء كثرة الحركة الظاهرة

فى الميدان السياسى :

فى هذا الميدان ايضا وعندما نلتفت الى تراثنا التقليدى المدروس نجده اقرب الى الفقر منه الى الغنى . ويحسن ان نزيد هذا الزعم توضيحا : فى ميدان المبادىء السياسيةالقائمة على القيم الاخلاقية والعدالة والمساواة امام القانون ورفع قيمة الانسان وتكريمه ، نجد تراثنا السياسى المتمثل فى الاسلام مبادىء اقل ما يقال فيها انها ثورية على النطاق الانسانى العام فتساوىالناس كاسنان المشط ، وعدم افضلية العربى على الاعجمى الا بالتقوى ، والمجهود الذى بذل فى تحرير العبيد وترقية المراة ، ورفع العلاقات الاجتماعية من مجال القرابة الدموية الى مجال الايمان بالفكرة ، واعتبار الوطن الاسلامى كله وطنا لا لابنائه الاصليين فقط ، بل لكل من يحمل عقيدة الاسلام ، ونظام الضرائب والزكاة ، والتقريب بينالطبقات اقتصاديا واجتماعيا ،وافساح المجال وتوفير المناخالضرورى للانتاج الثقافى ونشر جو الاخوة بين الشعوب ، والتوغل فى مجاهل الارض لاخراج الشعوبالبدائية وتحويلها منوحوش

الى آدميين ، وابراز عنصر القوة ومقاومة الضعف النفسى والاقتصادى والحزبى ، والتحريض على العمل والبناء ومقاومة الظلم والفساد والامر بالمعروف والنهى عن المنكر الخ ... كل هذه القيم والمبادىء تعتبر ثورية ، لانها جاءت فوق ما يستطيع



محمد عبده

البشر ان يهضموه فى عصر كانت فيه البشرية ما تزال فى خطواتها الحضارية الاولى فى ميدان علاقة الانسان بالانسان . وهي وان لم تعتبر اقرب ما تكون الى الايديولوجية المبسطة فقد كانت بقطع النظر عن ناحيتها الغيبية المتمثلة فى الوحى ، هي المجهود الفكرى الاول والاخير الذى جاء الى المجتمع العربى كفكرة ، قبل ان يبنى عليه الاساس العملى كتطبيق . فكان به مجتمعاحقيقيا دخل الى الحضارة الانسانية من بابها الواسع ، وظل متمكنا فى النفوس وفى التاريخ ، وكان به المجتمع العربى فى العصور الوسطى هو الذى يمثل تقدم الانسانية فى مرحلة عصر الايمانفيما يرىاوغست كونت . وكان الناحية الاخلاقية على وجه اخص مجتمعا حقيقيا لا زيف فيه

ومع ذلك فان هذا التراث العظيم من المبادىء لم يستغل احسن استغلال من الوجهة الفلسفية فى ميدان الفكر السياسى فلم نستخرج منه الدساتير والمؤسسات والنظم السياسية التى تجعله يرتفع على الاقل الى مستوى ما كان عليه التنظيم المحكم الذى كان عند اليونان او الرومان ، بالرغم مما كان فى النظم الرومانية واليونانية من الفقر فى المبادىء الاخلاقية ، ولكن ثروتهم السياسية والتنظيمية وحدها كانت تفوق بكثير ما كان عليه المجتمع العربى

فى هذا المجال السياسى ·

هذا التراث التنظيمى والدستورى هو الذى نقصد نعتهبالفقر · حتىاننا لا نكاد نجد جهدا فكريا حقيقيا جديرا بهذا الاسم بذل فى تراثنا كله الا عند رجل واحد هو ابن خلدون · ولكن مجهود ابن خلدون نفسه يكاد ينحصر فى التحليل الموضوعى والبحث العلمى المجرد ،بلغ فيه صاحبه من التجرد والواقعية والحياد حدا جعله يحرم على نفسه أن يتخيل او يقترح شيئا يعوض به ما حكم عليه بالفساد والقصور والعجز فى هذا الفكر السياسى ·

وأبرز ما يميز قصورنا فى هذا المجال الى اليوم هو الحل السهل أو ما سماه ابن خلدون عندنا بالميل الى البسائط من الامور · والحل السهل الذى نفكر فيه عند اصلاح المجتمع هو بصورة مباشرة اصلاح الحكومة ، ان معالجة وجع الرأس دون البحث عن الامراض التى تنهك الجسم الاجتماعى ، والتى ليست اوجاع الرأس الا بعض أعراضها ونتائجها · ومظهر التصور السهل فىهذا الحل هو اعتقادنا بان صلاح افراد الحكمهو الطريق المختصر المباشر الذى لا عناد فيه لصلاح المجتمع بحيث اذا كانت الحكومة افرادها صالحون فان المجتمع يكون مجتمعا صالحا راقيا متطورا ، بصورة الية واذا كان العكس فى افراد الدولة ، فالعكس أيضا يكون فى المجتمع وعلى هذا الاساس يذهب البعض منا الى تفسير القول المأثور : كما تكونون يولى عليكم ولا نتفطن الى اننا بهذا التفسير نعاكس المعنى تماما ·

فهذا الحديث لم يقل كما يتولى عليكم تكونون ، بل قال كما تكونون يولى عليكم · بمعنى ان الحكومة هي التى تكون انعكاسا للمجتمع ، وليس المجتمع هو الذى يكون انعكاسا للحكومة ، لان الحكومة فى الاسلام الفطرى كما هى فى المفهوم الحديث هي الفرع والمجتمع هو الاصل · ولا يمكن ان تستمد عروق الشجرة من الاغصان والفروع ، بل العكس هو الصحيح · ومع ذلك ففهمنا غير الطبيعى ، لانه هو الذى يتلاءم مع ميلنا الى الحل السهل ، جعلنا نتصور دائما انه يكفى ان يكون على رأس الحكومة عندنا رجل أو رجال صالحون لكي نطمئن على مصائرنا وننام على اذنينا الاثنين كما يقول التعبير الفرنسى · كما نتصور ان صلاح افراد الحكومة سيسرى مباشرة الى صلاح المجتمع ، ولا نتصور ان فساد المجتمع وتعفنه هو الذى يسرى الى الرأس ويقضى عليه · ان العمل على اصلاح المجتمع يتطلب جهدا فكريا متواصلا فى هذا المجال عبر أجيال واجيال ونحن لا قبل لنا بالعمل المتواصل ! ومن جانب الحكومة فاننا نجد نفس الظاهرة ، ظاهرة الميل الى الحل السهل ، يتمثل فى كونها عندما تكون حكومة وطنية صالحة تنصرف الى العناية بالبلاد وتهمل العناية بالعباد ، تزود البلاد بالاجهزة الآلية من مواصلات وتليفون وابنية وطرق والات دقيقة وخشنة ومن كل الاوزان والمعايير لان كل هذا المجهود لا ينتجه المجتمع ، بل تكتفى الحكومة باستيراده من حضارة أخرى جاهزة · فيجرى كل هذا فى المدن العربية حيث لا يستعمله الا عشرون فى المائة من السكان على أحسن تقدير · أما البشر الذين يسكنون بقية البلاد ، والذين يوجد أغلبهم فى الارياف والبوادى فهم يواصلون حياة البداوة والبدائية يسكنون الخيام فى الصحراء أو الغيران فى الجبال ويستضيئونبالقنديل أو بقبس من الحطب وتتزين نساؤهم بوسائل الزينة التى كانت مثيلتها فى العصر العباسى أرقى مما هي الآن عندهن ·

فأين هي حقيقتنا فى هذا التناقض ؟ وأين هو موطن الزيف فيه بعبارة أدق أين هو وجودنا الحقيقى ؟

انه من الواضح هنا أيضا ان فقدان المجهود

الفكرى فى الميدان السياسى جعلنا نعانى هـــذه التناقضـــات ونتقبلها كما لو كانت طبيعية لا تثير الاستهجان ولا تبعث على القلق والبحث • نعم ان لنا كل مظاهر الفكر السياسى : الاحزاب والصحف والاذاعات والتليفـــزيون وحتى المجالس النيابية والانتخابات • ولكن كل هذا نستعمله فى السياســة اليومية لا فى تكوين الفكر السياسى ، وفيما يسمى بالمناورات السياســـية لا فى التربية السياسية للمواطن ليعرف واجباته نحو الدولة وحقوقه منها •

لذلك فان هذا القاسم المشترك من التأخر السياسى فى البلاد العربية مشرقا ومغربا جعل من الافتعال ان نزعم بان هذا البلد أحسن من الآخر لان فيه مجلســا نيابيا والآخر لا يوجد فيه هذا المجلس أو ان هـــذا البلد افضل حالا لان نظامه تقدمى والآخـــر نظامه رجعى • انما يجمع بيننا جميعا وراء بطاقة التعريف هذه هو حقيقة التناحر عندنا جميعا بين البداوية السياسية فى المستوى الانسانى واجهزتنا العصرية فى مستوى الوسائل الآلية وهو هذه العناية الساذجة من قبل الشعب باشخاص الحكام من حيث الصلاح والفساد ، والعناية التى لاتقل عنها سذاجة من قبل الحكام،بالارض والشارع والجدار والآلة، لابالانسان العربى الذى يتصارع مع هذه الوســـائل المادية بوسائل فكرية وحضارية قاصرة • وما يجمع بيننـــا اخيرا ، وهنا الكارثة الحقيقية ، هو موقف الحيـــاد الفكرى الذى يقفه المسؤول الاول فى هذا الصراع ، لانه صراع فكرى ، وهـــو المثقف العربى الذى سنخصص له فقرة بذاتها فى هذا الحديث •

فى الميدان الثقافى :

اذا كان تراثنا الثقافى فى الفكر السياسى العلمى اقرب الى الفقر فانه ليس أغنى فى الميدان الاجتماعى العلمى كذلك • ونحن اليوم استطعنا ان نحافظ بكل امانة على هذا الفقر فى العنصر الاجتماعى فى أدبنا وثقافتنا • وكنت أود ان لو تمكنت من اجراء احصاء فيما تصدره مطابعنا فى المشرق والمغرب من الكتب ذات الصبغة الاجتماعية العلمية ، بالنسبة الى مـــا تصدره من دواوين الشعر والنقد الادبى والبحوث الميتافيزيقية والفنون الجميلة وبحوث اللغة ومشتقاتها! وهى كلها بحوث قل ان يتوفر فيها هي ايضا الطابع العلمى • واذا كنا لا نستطيع ان ناتى بالامثلة من تراثنا الحديث تلافيا للحساسيات ، فان ابرز مثـــال من تراثنا القديم يقدمه لنا اشهر فلاسفتنا واعظـــم مفكرينا على الاطلاق وهو الشيخ الرئيس ابن سينا • ففى كتابه الشــــفاء يخصص (٤٥٠) صفحة فى شؤون ما بعد الطبيعة ، وفى آخر الكتاب يخصص اربع صفحات ونصف الصفحة يجمل فيها البحث فيما يسميه بالسياسات والمعاملات والاخلاق •

وقد استمر عندنا هذا التقليد فى اهمال البحوث الاجتماعية فى تراثنا الحديث اهمالا وصفه صاحب كتاب « العلوم الانسانية » الذى ظهـــر اخيرا فى القاهرة ، « بان لدينـــا قوالب وعادات ذهنية تعطل عقولنا عن التحليل الموضوعى للمواقف ••والمطلوب هو بذل المحاولات الصادقة للتخلى عن هذه العادات وتنمية عادات اكثر ملاءمة لآفـــاق الانسان • فنحن نبنى مجتمعنا فى عالم يعتمد على العلم كمنهج بلغ اليوم قدرا من التقدم لم ننتبه اليه بعد •• »

واذا تركنا مسالة الكم وهزالها فى هذا الانتـــاج الاجتماعى والثقافى الى ناحية الكيف ، فاننا نستطيع ان نجمل اكثرها فى اتجاهين : اتجاه يعتمد غيـــه صاحبه ما يسمى بالحياد العلمى الى درجة لا يؤمن فيها صاحبها بموقف ، ولا يعمل على نشر اتجاه ، ولا يحرك عاطفة عقائدية هادفة • فهو من النـــوع الذى وصف نيتشيه اصـــحابه بانهم يحملون فى عروقهم دم الضفادع وهذا الاتجاه نجـــده اكثر ما نجده فى الانتاج المدرسى الاكاديمى ، واتجاه مقابل له ومضاد ، وهو اتجاه من العاطفة الســـطحية المعتمدة على تقاليد الهجاء أو المدح ، والفخر الابله أو التحطيم الاعمى • ويؤلمنى جدا ان آتى هنا ببعض الامثلة المعينة على هذا الاتجاه الغالب على انتاجنا

الثقافى فى الميدان الاجتماعى · ولكن الصراحة والاخوة معا تلحان علي ان اذكر هنا كمثال صارخ على هذا الاتجاه كتابا ظهر مؤخرا فى لبنان الشقيق تناول فيه صاحبه نقد الفكر الدينى ، واظهر من الجرأة الفكرية والشجاعة ما يبشر بان المثقف العربى صمم على الخروج الى ساحة المعركة الحضارية التى تصارع فيها الآراء من اجل البقاء والغلبة · وأثار الكتاب ضجة اجتماعية هزت ، أو كانت جديرة بان تهز ركودنا الفكرى · وسمعنا بالكتاب فى المغرب وتلهفنا على الاطلاع عليه ، ورجونا من المسافرين ان يأتونا به · وكتب لى ان اطلعت على الكتاب ، ولكن كانت دهشتى مؤلمة عندما وجدت الكتاب يتناول نقد الفكرى الدينى فى السائل الغيبية الماورائية وحدها، كتحطيم فكرة الجنة والنار والنفس والروح والجن والملائكة وابليس والمظلوم الى آخر ·· فلم أصدق ما رأيت · لقد كنت اتوقع ان يكشف الكاتب عن فقر فقهائنا ورجال الدين عندنا وقصورهم فى اثراء الثقافة الدينية بفكر اجتماعى متطور ، فى حين يزعمون ان ديننا صالح لكل زمان ومكان ، وان احكامه تدور مع المصلحة الاجتماعية حيث دارت · وحتىاذا ظهر له ان ينقد الفكر الدينى نفسهلا رجاله فحسب فانه كان يستطيع ان يتناول بالنقد ، لا بالانتقاد ، ما جاء فى الدين من معالجات لشؤون المجتمع كفكرة الصوم وكيف يمكن أو لا يمكن ان نجعل هذه الشعيرة أو تلك من شعائر الدين الاجتماعية تؤدى وظيفتها التربوية والحضارية والحقيقية فى عصرنا الحاضر ·

ولكن المؤلف ترك هذهالقضايا الاجتماعية الكبرى التى يعيشها المجتمع العربى فى حياته اليومية والسياسية والاجتماعية عموما ، وراح يحارب اشباح الميتافيزيقا الدينية التى لمتعد تعطل احدا ولا تلعب أى دور فى حياتنا الاجتماعية ·

ولست اقف هنا مدافعا على الدين وان كان الدين هو العنصر الوحيد الذى جمع شتات العلاقات الوطنية والسياسية والاجتماعية لبنى اسرائيل ·

ان هذا التحطيم الذى ضربت عليه مثلا من لبنان، نستطيع ان ندعمه بمثل آخر من الجزائر يزعم فيه كاتب ياسين عندنا بان المآذن هى مصانع المسلمين ناسيا ان الاستعمار الفرنسى لم يترك فى بلاده حتى المآذن ، وان المعابد فى اوروبا واسماء القديسين تملأ الشوارع فى باريس فى حين لا يوجد عندنا ، الا نادرا ، شوارع تحمل اسماء رجال الدين · ان الامثلة على هذا الزيف فى الروح العلمية فى ثقافتنا الاجتماعية بكل شعبها المختلفة ، لا تكاد تنحصر فى عدد · وما يعزز هذا النقص بصورة صارخة هو ما فى مقابله فى الطرف الآخر من النهر من انتاج فخرى يرى اصحابه انه هو الوسيلة الفعالةوالمجدية فى احياء نخوتنا العربية واسلامنا الذى لن تعرف الانسانية الحديثة سلامها الا اذا اعتنقته دينا لها · وفى الفخر بلغتنا التى هيأكمل اللغات وأدقها ، ومن أطرف الادلة على كمال لغتنا مثلا فى رأى محاضر عندنا فى الجزائر اننا نفهم اليوم اشعار امرىء القيس كما كان يفهمها أهل وسطه ، فى حين نجد الفرنسيين اليوم عاجزين عن فهم لغة راسين او كورنا · صحيح ان عندنا اليوم شعرا اجتماعيا وقصة اجتماعية واقلاما اجتماعية وأخيرا برزت الاغانى الاجتماعية والسياسية وفن التصوير الملتزم الى آخره · وكل هذا حسن وان جاء فى وقت متأخر جدا ، وكان ينبغى ان يكون فىطليعة انتاجنا الثقافى منذ عشرات السنين·ولكن ما نطمح اليه اليوم ، وما أصبح هو ايضا متأخرا عن وقته لانه لم يولد بعد فى انتاجنا الثقافى ، فهو هذا الذى نحسد عليه الغربيين ، من الثروة الحقيقية من المؤلفات والبحوث المتنوعة فى فنون الاجتماع والاخلاق · حتى ان من يفتح منا قاموسا من قواميسهم العلمية فى هذه الفنون يندهش لوفرة الكتاب والفلاسفة والمفكرين والباحثين وما انتجوه من الدراسات العلمية المنظمة فى شؤون المجتمع والاخلاق والسياسة ، فيشعر

عندئذ بالتواضع والخجل أمام فقرنا القديم والحديث فى هذا الميدان · ويفهم عندئذ فقط ان ما يفوقوننا به من آلات ووفرة تيكنولوجية لا يعد شيئا ازاء ما يفوقوننا به من العناية والتنظيم الفكرى لشؤون المجتمع والعلوم الانسانية ، ويدرك عندئذ فقط ان ما هم عليه من النظام والتقدم والعمل والانتاج والعلاقات الانسانية الراقية لم يأتهم صدفة ولا هو بركة من بركات رهبانهم وكنائسهم ، ولا عطية الهية ، وانما ثمرة مجهود فكرى متواصل بذلوه اجيالا بعد اجيال ورفعوا صرحه لبنة فوق لبنة مع المحافظة على كل ما هو قديم مثمر ، واضافة الجديد المستمر فى الجدة والتطور ، فلا قطع مع الماضى ولا توقف عن المستقبل

ومن مظاهر الزيف الكثير التى لا نتفطن لها اننا فى السنين الاخيرة حسبنا اننا عثرنا على سر نهضتهم المستمرة وركودنا المستمر ، وظننا ان هذا السر هو تقدمهم العلمى فى الميادين الطبيعية والتكنولوجية وقد بلغ هذا الشعور الزائف عندنا فى بلاد المغرب ان جعل أحد الكتاب المحترمين يتقدم الى الشباب بهذه النصيحة : « اقلوا من العناية بالفلسفة والادب ، واكثروا من العناية بالعلم والصناعة ، اهتموا كل الاهتمام بالعلوم العملية ، فالعصر عصر العلم ، والثقافة السائدة هي ثقافة علمية ·· والادب والفلسفة من البضائع التى أصبحت قليلة القيمة فى وقتنا الحاضر وستكون اقل قيمة فى المستقبل » ·

وعندنا فى الجزائر على وجه أخص تكاد هذه النزعة الى العلوم الطبيعية والتكنولوجية تصبح تعبيرا عن عقدة نفسية اكثر منها اختيارا فكريا مدروسا ، فالرياضيات الحديثة والاليات الفنية ، والكميا ، البترولية ، تكاد تغمر كل انواع الدراسات الاخرى فى الثانويات والتعليم العالى بجملتهما ، بحيث تسربت الرياضيات حتى الى كلية الآداب واصبح دارس علم النفس لا يستطيع ان ينال شهادة الليسانس الا اذا كان بارعا فى الرياضيات · واذكر اننى شخصيا ظللت اشارك فى الاجتماعات التى لا تتوقف منذ فجر الاستقلال الى اليوم للنظر فى اصلاح التعليم وتخليص خيوطه الدقيقة من اشواك النظم الاستعمارية العتيقة ، وكانت كل جهودى فى هذه الاجتماعات مركزة على التحذير من خطر هذا الاندفاع الى العلوم التقنية على حساب العلوم الانسانية ، ولكن يجب ان اعترف باننى لم انجح فى الحد من هذا الاندفاع الذى يغمر زملائى الآخرين · وكان من نتيجة ذلك اننا فى الجزائر قد نعد اليوم فى طليعة البلدان النامية من حيث النهضة الصناعية الثقيلة والخفيفة على السواء ولكننا على التاكيد نعد فى آخر القافلة من حيث الانتاج الثقافى العام ، ويظهر فقرنا هذا فيما تنتجه مطابعنا من كتب وصحف وفى صحافتنا ، واكبر ازمة تعانيها فى هذا المجال تتمثل فى افلامنا السينمائية التى أصبحت بسرعة تزاحم الافلام العالية فى تقنية الاخراج ، ولكنها ماتزال تعانى نقصا فادحا من حيث الحوار ومحتواه الادبى والثقافى · وليس ببعيد ان يزداد هذا الخلل عندنا استفحالا فى السنوات القادمة اذا بقينا مصرين على الولوع بالتقنيات · مهملين الجانب الانسانى من هذه التقنيات : ذلك ان كل شيء اصبح متلاحما مع كل شيء · ومن الخطأ الظن بان نجاح الامريكان مثلا فى الصناعة قد تم على حساب ثقافتهم الادبية والاجتماعية · ويكفى ان نلقى نظرة على بعض مؤلفاتهم فى الميادين الاجتماعية لكي ندرك زيف نظرتنا فى ان رقيهم قد تم بالعلوم الصناعية وحدها على حساب العلوم الانسانية والاجتماعية · ويذكر الاستاذ الخشاب فى كتابه « **علم الاجتماع ومدارسه** » انه نشأ عندهم نضج ورقى مستمران فى البحوث الاجتماعية ، واهتموا خصوصا بالابحاث الريفية والمدنية ، وقضية الهجرة من الارياف ، وتكاثر المدن الصناعية ، وتعقد العلاقات الاجتماعية ، وتغير مستويات المعيشة بتغير الظروف الاقتصادية وبمشكلة عدد السكان والمواصلات والجرائم وانحلال الروابط الاسرية

وانخفاض المعايير الاخلاقية ، ومستويات الذوق العام ، كما اهتموا ببحث أصول الثقافات وانتشارها بسبب ما عرفته أمريكا اكثر من غيرها من انواع الهجرة الخارجية • ودراسات العادات الشعبية واساليب التفكير المتنوعة ،وتاثير التقدم العلمى على السلوك الاجتماعى والفردى وتاثير الاحوال المادية والمعنوية على حياة المجتمع • كما اهتموا اخيرا بتحسين مناهج البحث نفسها فى الميادين الاجتماعية لتحل محل المناهج القديمة برموز لها خاصياتها الرياضية حتى يمكن دراسة الظواهر الاجتماعية بالدقة نفسها التى تدرس بها الرياضيات ويعرف هذا المنهج عندهم بمنهج قياس الظواهر الاجتماعية » •

ولا تقل عناية العلماء السوفيات عن زملائهم الامريكان فى هذه البحوث الاجتماعية • أما فى الصين التى تطمح ان لم تصبح بعد ، قوة عالمية عملاقة ، فاننا نعرف سلسلة الثورات الثقافية التى تكاد تحدث عندهم فى كل عشر سنوات ، وهم يطمحون اليوم الى تقديم طراز جديد من الدراسات الانسانية لم تعرفهاوروبا وامريكا ولا حتىالماركسية التقليدية • اذا يحاولون ان يجعلوا قيمة التقدم الآلى فيما تقدمه من تكامل للتقاليد الحضارية العريقة ، وقد اعتبرت الصحافة الاوروبية هذه المحاولة فى أول الامر ضربا من الجنون ، ولكنهم عادوا فعدلوا عن هذا الحكم •

ويمكن تلخيص الموقف الحديث عندهم من قضية العلاقة بين الانسان والتقنية فيما يلى : ان معيار الانسان المنتج ليس فيما يظهره من مهارة تقنية أو علمية ، بل فيما يقدمه للشعب من خدمة • ان هناك مراجعة كاملة فى سلم القيم ، تتمثل فى السؤال الآتى مثلا : هل قيمة السلاح تفوق قيمة الجندى ، أم العكس ؟ والجواب عندهم واضح ، وبناء عليه فان قيمة الانسان تفوق قيمة التقنية • ويعد هذا الجواب أساسا منالاسس الكبرى فىالثورة الثقافية الجارية الآن فى الصين ولكن هذا الحكم عندهم لا يقف هنا ، اذ هو قد يوحى بتفضيل الثقافة النظرية الادبية على الثقافة العلمية التقنية • لذلك يضيفون اليه اساسا آخر ، وهو الالحاح على الثقافة العلمية وافضليتها على الثقافة النظرية • بل يعتبرون من الخطر الاهتمام بالثقافة النظرية لذاتها ، والتى لا ترتبط ارتباطا مباشرا بالمصلحة الاجتماعية ، وهو موقف يتعارض تعارضا مطلقا مع موقف ارسطو وما اورثه فى ثقافات البحر الابيض المتوسط من ولوع بالنظرى على حساب العملى • ولكنه ـ أى الموقف الصينى ـ يلتقى مع الموقف العملى فى البراغماتية ، الامريكية والحركة الماركسية • ويبدو ان الصينيين قد بالغوا ، كما تبالغ كل نزعة جديدة ، فى تفضيل الثقافة العملية علىالثقافة النظرية الى درجة تفضيل ثقافة العامل المحتك بالتجربة المادية على ثقافة المهندس الذى استمد ثقافته التقنية من الكتب • وهم اخيرا يتهمون فنييهم الذين نعتمد نحن على امثالهم فى رقينا الصناعى ،بانهماستمدوا تقنيتهم من الكتب الاجنبية وكانوا مقلدين وعالة ، فى حين يستمد العامل معرفته من التجربة المحلية المباشرة • وما يخشى على هذا الفكر الصينى الحديث هو ان يؤدى اذا نزل الى الطبقات الشعبية ، الى نزعة معادية لثقافة الكتاب ولكن المهم فى الامر هو انه اذا كان موقف المنطق الغربى المتوارث عن ارسطو ،كما يقول الكاتب اليابانى هو منطق المعرفة فان المنطق الصينى الحديث هو منطق العمل• واذا كان الاتجاه الغربى اتجاها علميا فان الاتجاه الصينى هو اتجاه تقنى فى النهاية • واذا كان الفكر الغربى يحلل ويبحث فى الاسباب والعلل ، فان الفكر الصينى هو فكر النشاط العملى • واذن فالعمال هم العلماء •

أما ما يهمنا نحن من هذا الموقف الصينى ، مثله مثل المنهج الامريكى والماركسى ، **فهو المجهود الفكرى الذى بذل ويبذل باستمرار وتزايد فى المجال**

الانسانى ، والذى لم تستطع التقنيات المتقدمة فى هذه البلدان معا ان تغطى عليه مهما نعتوا اعتباطا وزيفا ، بانهم امبصـــناعية ومهما بهرتنـــا نحن بالخصوص نتائج العلوم التقنية وحدها لانها تصىر الينا وتغزونا فى عقـــر دارنا ، ونغفل عن الرقى الانسانى الذى عليه هؤلاء القوم جميعا فى بلادهم والذى لا يسترعى انتباهنا فى الغالب والذى هـو نتيجة عنايتهم التى لا تقل ـ كما راينا ، عن عنايتهم بالرقى الآلى والتـكنولوجى · ان انبهارنا بعنايتهم بالعلوم التقنية وغفلتنا عن عنايتهم بتقدمهم الاجتماعى والانسانى بلغ من الزيف بل من السذاجة ان اصبح لا يقل عن سذاجة الاطفال : حدثنى والدى انه كان يسير يوما فى بعض الطريق ،وامامه طفلان صغيران خرجا من المدرسة الى بيتهما ، وكانا ، وهما يسيران امامه يتحدثان بالفرنســـية ، فقال لهما : لماذا لا تتكلمان بالعربية · قال الوالد فســـكت احدهما واجابنى الثانى بقوله : « روح يا شيخ فى حالك · اننا نتكلم باللغة التى نصعد بها الى القمر » ! أعتقد ان جواب هذا الطفل يعبر ببراءة عن سذاجتنا نحن الكبار فى كل انحاء الوطن العـــربى فيما يتعلق بوسائل الرقى التى يجبان نستعملها · انه انصراف كلى ومطلق الى العناية بالتقنية وحدها ، واهمال للوسائل المعنوية فى تكوين الانسان سياســـيا واجتماعيا وادبيا ·

ولكن فى مقابل هذا الزيف عندنا يوجد زيف آخر ، وهو انما عندنا من عناية بوسائل التكوين الاجتماعى للانسان العربى ماتزال فاقدة لعنصر العلم والثقافة العلمية والروح العلمية · وابرز ميدان يظهر فيـــه هذا النوع الآخر من الزيف ، بل الخطأ والسطحية ، يظهر اكثر ما يظهر فى التكوين الدينى ، اذ ما يزال رجال الدين عندنا يعتبرون ثقافتهم تتمتع باكتفـــاء ذاتى ليسوا فى حاجة معه الى التـــزود بالثقافة العلمية والاجتماعية الحديثة · وتحضرنى فى هـذا الصدد قصة للمرحوم الشيخ محمد عبـــده مفادها انه كان يوما يتجول فى حديقة بالقاهرة مع صديق له ، وهما يتحدثان ، واذا بالشيخ عبده يتخلف عن صديقه برهة من الوقت ثم يلحق به وعيناه مبتلتان بالدموع · فساله صـــديقه عما اذا كان قد آذاه شخص · فقال عبده كنت استمع لامراة انكليـــزية تنتهر طفلها الصغير عن قطف الازهار من الحـــديقة وتحدثه بمعانى لا تخطر ببال اجل شـــيوخيا علما وفضلا ! ويلتحق بهـــذا الصـــنف من مثقفينا الاجتماعيين ، الجمهـــور الاكبر من الابناء الذين يكتفون بثقافة لغـــوية فى الغالب · وقد كان فى امكان هذين الصنفين من المثقفين فى الوطن العربى ، وهم الصق الناس بجمهور الشعب العـــربى ، ان يساهموا فى رفع مستواه الثقافى المتـــدهور ، لو تزودوا بثقافة علمية واجتماعية حديثة ، وحاولوا ان يحتكوا فكريا بواقع امتهم الاجتماعى الخام !

وقد راينا فى المؤتمرات العديدة التى تجرى فى انحاء الوطن العربى شرقا وغربا ، كلقاءات التعرف على الفكر الاسلامى عندنا فى الجزائر وكمؤتمرات رجال الفكر والادباء العرب هنا وهناك من المشرق فلا ترتقى فى اغلبها الى قمم فكرية تفحص منهـــا فحصا علميا ما يتخبط فيه المجتمع العـــربى من ضبابيات فكرية وحشو ثقافى وتاخر فى اســـلوب التعامل يدعو الى الـــرثاء ، ومن خلط فى مفاهيمه الحياتية وتصادم فى اذواقه المتنافرة وفقدان لـــكل هدف او طموح ، وذبذبة فى القيم الاخلاقية والتربية المدنية وعقم فى التكوين الســـياسى والنضـــج الاجتماعى ·

ولكن المثقف العربى نفسه اذا كانت تتوفر فيـــه صفة الثقافة على نحو من الانحاء ، فان صفة العروبة فى ثقافته هى التى تعز فيه وتندر · اننا اذا توجهنـــا

اليهم فى مختلف انحاء الوطن العربى فاننا سنجد احدهم يحمل مفاهيم امريكية للثقافة الاجتماعية ، والآخر يحمل طابعا فرنسيا والثالث ماركسيا سوفياتيا والرابع ماويا ، والخامس سلفيا دينيا والسادس خرافيا مشعوذا والثامن لفضيا سفسطائيا الخ ·· يتكلمون كلهم بلغة الضاد ولكن هذا كل ما يجمعهم من عناصر الثقافة · وكل منهم قد يكون له عذره فى اتجاهه ومحتوى ثقافته لانه تلقاها تلقيا ولم يخلقها خلقا · ولكن هذا جدير بان يجعلنا نتساءل على الاقل : اين هي الحقيقة واين هو الزيف فى هذه الثقافة ؟

لعل هذا التساؤل هو الذى خلق اليوم عددا لا بأس به من جيلنا الجديد فى المشرق العربى وفى المغرب ، ممن بدؤوا يشعرون بالحاجة الى بذل مجهود فكرى نعول فيه على انفسنا لاننا تجاوزنا مرحلة الاعتماد على الآخرين والنقل الآلى لمفاهيمهم ومناهجهم ومحاولة الصاقها تعسفا واعتباطا بوقائعنا التى تاباها · ذلك اننا رغم تاخرنا ورغم ما قيل عنا لسنا شعبا بدائيا غفلا من كل علامة ، او مستعدا لان يقبل كل التناقضات المتناحرة ننتمى الى نمط من انماط الحضارة طبع جزءا هاما من تاريخ الانسانية بطابع خاص ، وتراثنا مهما تجاوزته الاحداث والثقافات المعاصرة ، مايزال يحتفظ بقوة على ان ينبعث الى الحياة من جديد · وفى تراثنا الثقافى سواء منه المكتوب فى عصور حضارتنا ، او الحى الماثل فى حياتنا الاجتماعية من عادات وقوانين وعقائد وتقاليد وفنون وآداب ـ ان فى كل ذلك لثروة زاخرة بالامكانيات ولكنها ظلت مخزونة كثروتنا البترولية بدون استغلال بحيث يستطيع ابناء الامة العربية اليوم اذا تفطنوا لكنوزهم الثقافية بانواعها ، ان يستخرجوا منها مناهج خاصة بهم وقادرة على خدمة مجتمعهم والنهوض به نهضة ثقافية فى الميادين الاجتماعية بانواعها لا تقل عن تراث غيرنا من وارثى الحضارات الكبرى ولكن هذا التراث المكتوب منه والحى على السواء يتطلب جهدا علميا هادفا وجرأة على التحرير من عادات عصور الانحطاط الفكرية ، ومن عادات الاستلاب ((ALIENATION)) الحديثة معا · ويشرفنى ان يكون عدد من ابناء المشرق الفحول قد سبقوا ابناء المغرب الى الدعوة الى هذه المنهج المستقل المتمثل فى التتلمذ من جديد على العالم العربى الاصيل فى هذا المجال الاجتماعى ، وهو عبد الرحمن بن خلدون · وفى مقدمة هؤلاء الداعين الافاضل اذكر الاستاذ المحترم الدكتور على الوردى فى كتابه القيم « منطق ابن خلدون » · ولكننى اريد فقط ان اضيف الى دعوته التى اشاركه فيها معتبرا انها الشارة أو الخطوة الاولى التى نخطوها فى سبيل تحررنا الثقافى ـ أريد ان اضيف أمرين : الاول ان منهج ابن خلدون فى الثقافة الاجتماعية هو المنهج العلمى الذى أرسى قواعده ومتن اصوله على مر العصور جميع عباقرة الانسانية من أرسطو الى جون ديوى أو ماركس · وان ابن خلدون اذا تميز عن هؤلاء جميعا بشىء فهو بالنسبة الينا اقربهم اهتداء الى تحليل اوضاعنا ، واكثرهم جدوى لما نطمح اليه من عناية أصيلة مستقلة بدراسة شؤون مجتمعنا · واذن فما يدعونا الى التتلمذ عليه ليس هو انتساب الى جنسنا والتعصب له بل روحه العلمية الجريئة الواضحة ·

والامر الثانى هو ان ابن خلدون نفسه قد تحرر من تحكم العادات الفكرية ، التى سار عليها اسلافه فى الثقافة الاجتماعية ، وتحرر فى الوقت نفسه من التقليد اليونانى التجريدى الذى ولع به الكثير منهم وهو من ثم يعتبر ان شئنا سندنا الاكبر فيما ننزع اليه اليوم من التحرر من نفس العبوديتين الفكريتين اللتين نعانيهما فى عصرنا الحاضر ايضا : عبودية

اسلافنا بمناهجهم الخطابية السطحية ، وعبودية من بهرونا فى العصر الحاضر بتقنياتهم الآلية وبقوالبهم الفكرية التى لا تنطبق تماما على وقائع حياتنا الاجتماعية ٠

واخيرا لاننا بهذا المنهج العربى الاصيل والعلمى المستقيم سنجد حقا معيار الحقيقة والزيف فى حياتنا الاجتماعية كلها وعلى وجه اخص فى ثقافتنا الاجتماعية ان ابن خلدون بالرغم من كل ما اتهمه به فريق من الجيل الماضى من مثقفينا ، وفى مقدمتهم طه حسين وعبد الله عنان - يبقى هو الابن البار لامته العربية التى لم يزيف لها حقيقتها ، وانما عمد الى تشريحها بامانة ، وجرأة وشجاعة ، كان يجب ان تصبح هي المدرسة الفكرية الاولى عند مثقفينا فى العناية بشؤون امتهم ، بحيث لو كان هذا الرجل عند أمة اخرى من الامم الاوروبية التى تحترم تراثها وتبنى عليه الجديد المستمر ، لاتخذت من آثاره أول وثيقة تدرس فى جامعاتها فى شؤون الاجتماع ، ومع ذلك فابن خلدون ليس هو كل ما نملك كحقل خصب للدراسة والبحث بل يوجد الى جانبه شعبنا العربى نفسه الذى لاتقل مادته الخام غزارة للدراسة والبحث عن تراث ابن خلدون المكتوب وكلا المنبعين مترابطان عضويا ، اذ ليس تراث ابن خلدون المكتوب غير تراث الشعب العربى نفسه معقلنا ومدروسا ٠

ان نهضتنا الحديثة قد تجاوز عمرها نصف قرن من الزمن ، وهي مدة استطاع فيها الاتحاد السوفياتى ان يقفز من مجتمع متاخر الى دولة عظمى ، واستطاعت امريكا فى ضعف هذه المدة ان تكون معجزة القرن العشرين ، واستطاعت الصين فى أقل من نصف هذه المدة ان تحتل مكانتها بينهما ٠ والسبب الاساسى فى نظرى انه كان لهم فلاسفة اجتماعيون انكبوا على دراسة اوضاعهم وتشريحها علميا ، الى جانب علمائهم الطبيعيين والتقنيين ، وانصرفنا نحن طيلة هذه المدة الى الثقافة اللفظية والفخر والهجاء الجاهلى ، والجدل الكلامى ، فبقينا حيث نحن فى حقيقتنا ، واذا تغير زيفنا تغيرا كبيرا ، وتزيفت نظرتنا الى واقعنا تزييفا اخطر !

ولئن وجدنا عند ابن خلدون شيئا يخلصنا من هذا الزيف المضاعف ، واقعا وفكرا ، فهو حكمه علينا باننا نميل الى البسائط من الامور ٠ وترك المجتمع ينبت ويتكاثر ويعيد امسه فى يومه ، هو أمر سهل ٠ اما تنظيمه واقامة هذا التنظيم على اسس الفكر والدرس ، فهو الامر الصعب وقد تهربنا منه كثيرا ولكن لا مناص لنا من مجابهته اليوم أو غدا ٠

لقد عشنا طيلة فترتنا الحضارية الحديثة بعادات الاموات من اسلافنا ، الى جانب ثقافة الاطفال من محدثينا ٠ وهكذا كان زيفنا مضاعفا ٠

والخلاص من هذا الزيف المضاعف فى حياتنا وفكرنا هو بذل المجهود الفكرى الذى تهربنا منه لحد الآن فى المجال الاجتماعى ، بذل مجهود فى فهم واقعنا علميا قبل ان نعمد الى تغييره عمليا ٠

لقد حكم ابن خلدون على الفرابى فى الشرق بانه اضل السبيل لانه درس المجتمع كما يجب ان يكون قبل ان يفهمه كما هو كائن ٠ وحكم على ابن رشد بنفس الضلال لانه درس المجتمع العربى بقوالب ارسطو الفكرية ولكن كلا المنهجين الضالين الزائفين ما يزالان مسيطرين على عنايتنا الثقافية بالمجتمع الى اليوم باشكال اخرى وتهتم اسرائيل بدراسة المجتمع العربى كما حلله ابن خلدون لتفهم هذا المجتمع كما هو ، وتبنى عليه سياستها معه ٠ حتى قيل انه تقدم فى جامعاتها فى عام واحد اكثر من ستين اطروحة عن ابن خلدون ٠

اليست هذه واجهة اخرى من واجهات المعركة العربية مع شرذمة اسرائيل ؟!

أصالة الثقافة الجزائرية

فى القديم والحاضر والمستقبل

ومدى انتشارها وتأثيرها فى العالم الخارجي

عثمان الكعاك

ان الثقافة الجزائرية باصولها الدينية والتصوفية والعقائدية والعلمية والادبية والفنية والتقنية اصالة راسخة القدم فى الاصالة منذ كانت والى يوم الناس والى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

ذلك لانها استمدت عناصـــر كيانها من صميم التربة الجزائرية ، اخذت من شمس الجزائر المنيرة الربيعية الدافئة المنعشة اشعاعها وبريقها وائتلافها وجمالها ، واخذت من قمر الجزائر البـــدر لونه الفضى الذى يموه به الانهار والازهار والاشـجار واستمدت من قمم الاطلس العالية الشامخة الراسخة المليئة بأخبار البطولة وعناوين المجادة المتوجـــة الرؤوس بالثلوج اللموعة الصافيــة الرائعــة والتى شابت هامتها من قطع الهام واحداث الايام وكفاح الاسد الضرغام على طول الادهار والايام ، وفى غاباتها الكثيفة الظليـــلة مأوى للمثاغر والمغاور واشياء والثائر والزائر ولوحات جمال للرســـام وآيات جمال من موسيقى الاطيار ورنات الاوتـــار وخرير الانهار ونشيد الاشعار ، ومن عبير الازهار ، وشمم النوار ، ومن رائح الثمار وقد انتعشت عــلى صخورها اخبار الادهار وبطولات كل مغوار ·

وهذا البحر الاسمانجونى الهادى كديباج ازرق قد طرزته اشعة الشمس بزركشة من ذهب او مائج مائج كصوفى فى حالة جذب وشطحات مائجة مائجة قوية التعبير جميلة الحركات بديعة الغمرات ·

لو حول مدادا لروى أخبار الفتوحـــات والغزوات والمغامرات والمثاغرات والمغاورات والبطولات ·

ولوحولت اشعة الشمس الذهبية الىاقلام منعقيان لكتبت امجاد أمة على ذلك الرق الاسمانجونى الذى نسخت عليه المصاحف الاسلامية الرائعة فكانت اسفار فخار على وجه الادهار ، وهذه الانهار المنســـابة بين العشبوالازهار والاشجار والاحجار تغنى عليها الاطيار انشودة الزمان بأروع الالحان كقيثارة فنان تروى آيات تاريخ صفحاته نقية صقيلـــة ، بديعـــة طويلة ، عربية أصيلة ، شريفة نبيلة ، ترويها للموج الزبرجدى المرصع بالزهور وللعصافر الراقصة على افنانها والطيور ، وللاحجار والصخور ، وللاســد الاطلسى الهصور وللبحر الصامت الوقور فمـــا هى قصة هذه الثقافة ولماذا هي اصيلة ؟

الثقافة الاسلامية الجزائرية أصيلة لانهـــا ثقافة مثاغرة أعنى تشعر بأنها طوال الدهر على الثغور مفتوحة على الشمال والجنوب والشـــرق والغـرب فتخشى ان تدنســـــها قدم الفاتح ولغته وثقافته واساليبه العقائدية فتمسكت بالديانة الاصيلة واللغة الاصيلة فكان لديها من كبار الصوفية الاصـــــليين كابى مدين والهوارىوالعكاليىوابن باديس والتبسى والابراهيمى وابى يعلى الــــزواوى وابن مرزوق والمشدالى ، وعبد البجواوى وعبد الحليم بن سماية

وتمسكت باللغة العربية ولم تشأ بها بديلا غزتها الاسبانية والايطالية والفرنسية فتغلبت عليها بعد ما امتصت منها عصارتها النافعة وحـــــولتها الى دم جزائرى نقى أصــــــيل ، وكان علماء اللغة لديها والمترســـــلون بالعربية وفحــول التراجمة وكبـار المدرسين والكتاب والخطباء والمؤلفين والشـــعراء وعلماء النحو والبلاغة فى المقام الاول من الجودة والاتقان ، فشعراؤها اكبر الشعراء فمن المســـيلة محمد بن هانى ـ متنبى المغرب ـ والحســـــن بـــن رشيق ، ومن طبنة زيادة **السرالطبى** ومحمد الطبنى الذى كانشاعر البلاط الاموىبقرطبة ، ومن قسنطينة الفكون وعائشة الشريفة ومن تلمسان ، المقرى وابن خميس الذى تغنى بجمال مســـاقط الاوريط وبدائع ساتينة التلالسى وعفيف الدين التلمسانى والشـاب الظريف ومن ميلة ابن قاضى ميلة ·

ومن قالمة عبد الرحمان القالى كبير كتاب المهدى بن تومرت ، وشعراء الوطنية منذ الاحتـــلال المقيت والىالاستقلال البطولىالرائع لا يدخلون تحت حصر سواء الذين ألفوا بالعربية أو الذين ألفوا الشـــعر الشعبى الوطنى الذى هو من أروع الشعر ·

وعواصم العلم الجزائرى هي طبنة والمسيلة وتبسة وبسكرة النخيل على عهد بنى مزنى ومقرة وقسنطينة عاصمة الباديسيين وبونة مدينة مروان البونى شارح الموطأ وشمس الدين البونى الذى وصل فى الرياضيات الى أبعد غاية واحمد البونى المؤرخ والجزائر العاصمة التى أخرجت العلامة المفسر والمتصوف الكبير عبد الرحمن الثعالبى ، وتنس التى أخرجت الامام التنسى الشاعر المؤرخ ٠ على ان المجد الثقافى الجزائرى الاصيل لايقتصر على عصر دون عصر ٠

ففيما قبل الاسلام نجد الملك يوبا الثانى الذى أسس جامعة شرشال أول جامعة وطنية جزائرية احدثت فى عصور جاهليةمتقادمة تدرس العلوم على اختلافها والفنون من موسيقى ونحت ورسم وتمثيل وانتخب لها منابناء البلاد الاشاوس ومن اليونانيين علية الاساتذة فبعثها نهضة علمية وادبية وفنية أشرقت أنوارها على ربوع البحر المتوسط طيلة أجيال ، وهو نفسه قد كانمؤلفا ، فالف دائرة معارف لعامة العلوم وألف كتابا فى جغرافية جزيرة العرب وكأنه كان ينظر الى عروبة المغرب بعين الغيب ٠

ومنهم ابوليوس المداوروشى الذى كان روائيا مبدعا وحقوقيا ضليعا بليغا فى اللاتينية واليونانية علاوة عن البونيقية وطبيبا نطاسيا ممتازا له مخبر للتجارب عديم النظر وكان استاذا للحقوق والطب بجامعةقرطاجنة واذا ما تعقدت قضية بين أبناء رومة استدعوا لحلها المحامى المداوروشى النبيل ٠

على ان علماء الجزائر كانوا اساتذة العالم فى عصرهم منهم محمد الابلى التلمسانى ، شيخ ابن عرفة ، وابن خلدون ، علم بالجزائر وتونس وفاس ومحمد المغربى والد المؤرخ الذى علم بفاس وخرج عليه اعلام ، وآل الغبرينى البجائيين الفقهاء والمؤرخين الذين درسوا بتونس وتولوا الخطط العلمية والشرعية العالية بعاصمة الحفصيين ، وابن الخطيب نفسه أخذ فيمن أخذ على أعلام من تلمسان منهم ابن مرزوق التلمسانى الجد وعلى التلمسانى والقاضى محمد المقرى والد أحمد صاحب نفح الطيب ، ومنهم شاعر تلمسان محمد بن خميس حامل راية المنظوم والماثور له القصيدة المشهورة ٠

عجبا لها أيذوق طعم وصالها

من لا يؤمن ان يمر ببالها

وقد أثنى عليه ابن دقيق العيد حين وقف على ذلك القصيد وقد أخذ عنه أعلام منهم ابن الفخار الاندلسى ٠

ومن كبار علماء الجزائر الذائعى الصيت فى العالم الاسلامى الحسن بن باديس وابن قنفد القسنطينى وابن مرزوق وابو شريشى ؟

ومن كبار علمائها ومفسريها ومتصوفيها الشيخ عبد الرحمان الثعالبى ، ومن علمائها فى العهد التركى سعيد قدورة والخروبى وزروق وكلهم من العالميين الذين نشروا العلم بالجزائر وخارجها ، ومنهم العلماء السنوسيون الذين لعبوا دورا عظيما فى هذا المغرب العزيز فى عصور مختلفة ٠

ومن علماء أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن شعيب التلمسانى (١٨٤٣ ـ ١٩٢٨) قاضى تلمسان وصاحب كتابزهرة الاوطان فى علمالالحان والمعلومات الحسان فى مصنوعات تلمسان الى غير ذلك من الكتب الجليلة والشيخ عبد الحليم بن سماية وعلامة المغرب الكبير محمد بن أبى شنب الذى ألف امهات الكتب فى شتى المواضيع وتخرجت عليهأجيال من الاساتذة والعلماء بين تونسيين وجزائريين ومغاربة ٠

ومن مشاهير شعراء الحركة الوطنية والثــورة محمد العيد وأحمد سحنون ، والطاهر بوشــوشى وصالح الخرفى ومحمــد الامين العمودى ومحمد السعيد الزاهرى ومفدى زكرياء شاعر الاقطــار المغربية وحتى الشرقية ومواكب الحركة منذ نشاتها ومحمد الهادى السنوسى وأبو اليقظان ورمضــان حمود والسائحى عبد القادر والســائحى محمد الصغير وأول من كتب فى أسباب انحطاط المسلمين وسر نهضتهم الامير عبد القادر بن محى الدين ٠

على ان الكثيرين من رجال النهضة فى الاقطـار المغربية الشقيقة من الجزائريين أمثال حسن قلاتى وعبد العزيز الثعالبى وحسين الجزيرى والصحافى الكبير على بوشوشة صاحب جريدة الحاضر الذى اصله من جيجل ، على اننا لا ننسى ولن ننسى علامة العصر عبد الحميد بن باديس والعلامة الكبير بحـر العلم والخطابة استاذنا البشير الابراهيمى رحمـه الله تعالى ٠

وبذلك اجتازت الجزائر ازمة الاحتلال بســلامة ثقافية وخرجت منها بعروبتها وعربيتها سالمة العقل والبدن مرفوعة الرأس تجلس بين ابناء اعمامهـا فى مكانة مرموقة من الشمس ٠

ولكن العالم العربى كله يعانى بسبب الاستعمـار ازمة ثقافية نريد ان نستعرضها لفهم اســبابها واسباب علاجها مع العلم مسبقا بانها لا تزيد عـن ازمة نشوء وكما يقول المثل التونسى « ما يتفرس الا ما يتهرش » مما هو ملاحظ معروف ، ومعقــول الوقوع أن كل قطر من الاقطار مهما كان ، ووقع فى مخالب الاستعمار ، الا وكانت لغة العـلم والتعليم خلال محنته هي لغة المستعمر ، لا يســلم من ذلك احد ، حتى ان الدول التى بذلت مجهوداً مرموقا فى المحافظة على لغتها انما تحافظ على ذات اللغة وعلى انتاجها الادبى ويكون الانتاج الادبى محدودا بفقدان الطباعة أو لعسرها ولفقدان حرية القول وحـرية النشر ووجود مراقبة شديدة على المطبوعات والانتاج العقلى لذلك فالتاليف التى تتعلق بدراستها من تاريخ وجيولوجيا وجغرافيا وفولكلور وزراعة وتجــارة وحيوان ونبات ومعمار وموسيقى ، والكتب التعليمية من كيمياء وفيزياء وجبر ومثلثات ورياضيات وفلك انما تكون بلغة المســتعمر ليس الا على ان مفهوم الكتاب نفسه في محتواه انما يكون مفهوما استعماريا كان يرسخ فى الاذهان ان العربية ليست لغــة علم وهى عاجزة عن القيام بهذا الدور وان المســلمين ليست لهم علوم ولا آداب ولا فنون وان الذى قضى عليهم بالتاخر هو جمودهم وتعصبهم وعجز دينهم عن مسايرة العصــــر الى غير هذا من الترهات المعلومة التى أصبحت كالاسطوانة الموسيقية ذات الكسر التى تعيد نبراتها على الدوام ٠

لذلك فان هناك مشكلا ثقافيا لابد من حله ٠

اما الآن وقد اقام الجزائريون الاشاوش ثورتهم على أســاس : « الاســلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا » فقد صح ايمانهم بالعربية أو بوجه أصح انهم ما فتؤوا حتى فى أحلك العصور يؤمنون بلغتهم ، بل اقتضت الثاغرة جعل هذه اللغة فى المقام الاول من ايمانهم الدينى والوطنى ، لكن الايمـان يقتضى العمل الذى كــان معطلا أومقيـــدا قبل الاستقلال وانعتق الآن من عقاله ، ونعنى به الاصول الآتية :

الاصل اولا : ترجمة ما تركه المستعمر من الاف الكتب المتعلقة بعامة الدراسات الجزائرية فى عامة المواضيع والذى لا يوجد منهم بالعربية الا النـــزر القليل ، فهذا الميراث المســلوب ولا شك بنزعات ونزعات يجب ان يضبط وان يرقم ترقيما من واحــد

الى عشرة ، وان يخطط له تخطيط تعريب عشرين ، فتترجم فى السنة الاولى الكتب ذات الرقم الاول وفى الثانية ذات الرقم الثانى ، وهلم جرا ٠

وهذا احتياج عام شامل لعامة الدول التى كانت تحت نير الاستعمار ولا خروج لها من الاستعمار الثقافى ـ احبت أم كرهت ـ الى الاستقلال الثقافى والفكرى الابهذه الوسيلة ٠

وشانها فى ذلك شأن الاستقلال الثقافى الاسلامى نفسه ، فان الاسلام وجد نفسه فى صدر الملة على رأس امبراطورية عظمى شملت امبراطوريته نفسه وامبراطوريتي العملاقين الكبيرين يومئذ العملاق الايرانى والعملاق الرومى والرومانى ولكن ليست له علوم ما عدا أوائل علومه الدينية واللغوية الآلية، فبدأ الترجمة على عهد الامويين وانتهى منها على عهد المأمون العباسى ، فترجم عامة كتب الاقدمين فى عامة العلوم والآداب والفنون والتقنيات من الهندية والايرانية والسريانية والقبطية والعبرانية واليونانية واللاطينية والبربرية والبونيقية ٠

فالدولة الاسلامية التى كانت خالية من كل مصدر حتى مصادر نفسها صارت دولة المصادر لنفسها ولعامة الشعوب ممن أراد معرفة نفسه من الشعوب الاخرى ولكن وجب عليه أن يعرف العربية لان الكتب الاصلية التى كانت كتبت قد ضاع معظمها وبقيت ترجماتها العربية ٠ على أن الترجمة العربية قد مرت بالاطوار الآتية :

أ ـ طور التهذيب

ب ـ طور الترجمة

ج ـ طور الشرح

د ـ طور التاليف المبتكر والزيادة على ما قاله الاقدمون ٠

هـ ـ طور التجميع الموسوعى ، فالفت الموسوعات التى جمعت اشتات تلك العلوم وقدمت المقدمات لها لبيان اطوارها وشرح العلوم المتعلقة أو ابتكارها ، كما فعل ابن خلدون فى مقدمته فى العلوم التاريخية والاجتماعية والاقتصادية وياقوت فى العلوم الادبية والقلقشندى فى العلوم الانشائية والديبلوماسية والادريسى وابن فضل الله العمرى فى العلوم الجغرافية وشرف الدين التيفاشىالقفصى فى العلوم الرياضية وهلم جرا ٠

فيجب أن نمر نحن المغاربة بنفس السبيل ، مع اعتبار ان هنالك كتبا فى الشركة بيننا فيجب ان تترجم بالشركة مثل كتاب ستيفان قزال عن تاريخ المغرب فى القديم ، أو الكتب التابعة للمغرب المفقود الذى هو أسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا وجنوب ايطاليا وصقلية وسردانيا ومالطة ، فهنالك تأليف عجيبة ألفت عن تاريخنا وآثارنا هناك يجب ان تترجم حتى نفهم ما هى قيمة حضارتنا وهذه ترجمتها بالشركة بين عامة الاقطار المغربية مثل كتاب امادى عن تاريخ المسلمين فى صقلية أو كتاب يونس بوقس عن تاريخ مؤرخى العرب بالاندلس او كتاب خوليان دبيبرا عن تاثير الموسيقى العربية فى أسبانيا او كتاب توسان عن الفن المدجن العربى بعامة الجمهوريات الامريكية ومثل ذلك كبير ٠

ثانيا : ان لنا تراثا من المخطوطات المفرقة فى بلادنا وفى مكتبات الشرق وأوروبا وآسيا وأمريكا وهي تاليف اجدادنا الاقربين بالاندلس وصقلية والمغرب ، وهي تنام هناك ، على أن الجزائر قد قامت عند غزوة الافرنج بعملية « تجديد » لمكتباتها بالزوايا والجوامع حفاظا على تراثها وحسنا ما فعلت فما وجد رونى باسىوهوداس وشربونو من الكتب الا ما

قل وتناثر ، والآن وقد خرجنا من المحنـــة فيجب ان نقوم بالعمليات التالية :

١) البحث عن المخطـــوطات وفق برنامج مدقق منهاجي .

٢) تصويرها حيثما كانتوجمعها في ديار الكتب الوطنية المغربية .

٣) نشرها بالوسائل السريعة وفق احدث المناهج النقدية التي يقتضيها علم الخطاطة POLEAGRAPHIE (انظر : عثمان الكعاك : الوســاطة في الخطاطة)

٤) البحث عن الكتب العربية المطموسة POLEMPSERTE

وهي الكتب التي كتبها اصحابها على الرق، فلماجاء غيرهم نسخوا الكتابة وكتبوا غيرها ، ولما خـــرج المسلمون من جهات من الاندلس وصقلية على التوالي من الاسبانيين والسيسيليين اخذوا كتبهم وكتبوا فيها بلغاتهم ونقلت الكتب مع الاندلســيين الى افريقيا السوداء فمنها ما بقي ومنها ما محي وكتب مكانه شيء آخر ، فهــذه هي المطموس ومن المعلوم ان المطموس يمكن استظهارها واستجلاؤها بارســال اشعة ما تحت الاحمر INFRA-ROUGE عليها فتظهر منها طبقة بعد طبقة الى الخامسة ان وجدت ، وبذلك يتيسر احياء عدد من الكتب العربية في مخطوط واحد ولاجل هذا وجب اعداد فيالق من الشباب المتحمس للتراث لاحيائه وجمعه واستجلاء المطموس منه حتى يمكن ان نضع يوما الكتاب الجامع للكتب العربية أعني ما يمكن ان يسمى CARPUS hierorum araborum ـ على غرار Carpuscher lecinorings وقد تظافرت جهود علماء اوروبا على ذلك مدةطويلة الامد . ولما كانت الطريق طويلة فيجب الابتداء من الآن .

ثالثا : اننا نحتاج الى ضبط المصطلحات الفنية في العلوم والآداب والفنون نضبطها لا بالابتكار من ادمغتنا كما اتفق وكما تيسر قبل ان نتروى في الامر ولكن بالبحث أولا في المعاجم المختصة كالمخصص لابن سيده وكشـــاف مصطلحات الفنون للتهانوي ومفردات ابن البيطـــار والغابعقي وابن الجـــزار وغيرهم ، وجمع المفردات الاصطلاحية الموجودة في الصناعات التقليدية ان كانت فصيحة وســـليمة والرجوع الى معجم دوزي وملحقاته ومراجعةالكتب التقنية العربية ككتاب رضوان الساعاتي في اسماء قطع الســـاعة ومصطلحاتها ، والرجـــوع الى المصطلحات الاوروبية ذات الاصل العربي مثل الجفر عوض الشفرة وشين (ش) عوض ايكس والخوارزمية عوض الفوريزم وهي منسوبة الى الخوارزمي الى غير ذلك .

والذي نؤمن به هو ان العربية متسعة جدا فمـــا لدينا من المواد الاصطلاحية لايعرض علينا الا حسن الاختيار .

والمهم في الامر مهما كان ، هو ان نختـــار اللفظ الاليق للمكان الاليق ، وان نتفق على اصطلاح موحد بين كافة الاقطار العربية اذ من المصـــيبة الكبرى والكارثة الجلى ان تكاثر المصطلحات

تكاثرت الظبـــاء على سعيد
فما يدري سعيد ما يصيد

والا تستعمل كلمات اجنبية الا عند الضرورة فلا نقول في كلمة — FUGUE — فوج وانما نقـــول هروب وهو المصطلح المغربي الموسيقى القـــديم ولا نقول GAMME ولكن جمع وجمعوت لان GAMMUS او GAMMES مأخـــوذ من جمع وجمعوت وهلم جرا .

رابعا : المجلات التعليميـــة التقنية التي كانت في عهد الاستعمار .

ان الدول الاستعمارية كانت تنشر في كل قطر من

الاقطار التى استحوذت عليها مجـلات فنية تقنية فى ارفع مستوى عالمى كمجلات التاريخ والنحـــالة والغمور وزراعة الكــروم وزراعة الحبوب وزراعة الاشجار المثمرة والقانون والتوازن JURISPRUDENCE والاغنام والدواجن الى غير ذلك ،

علاوة عن مجلات البحوث العليا المحلية مثل المجلة الافريقية بالجـــزائر ومجلة هيكسبريس بالمغرب والمجلة التونســية بتونس ومجلة ليبيا بليبيا وهلم جرا ، فلما اضمحل الاســتعمار اضمحلت هـــذه المجلات معه ، وذهابها خســارة وتخلف عن المحيط الثقافى والتقنى العالميين فلابد من الرجوع اليهـــا بالعربية فىهذه المرة مع تلخيص المواضيع بالفرنسية أو الانكليزية ولا يمكن لدولة واحدة من دول المغرب أن تضطلع بهذا العمل ، لا من ناحية النفقات المالية ولا من ناحية عدد القراء ولا من ناحيـــة الكتاب التقنيين الاخصـــائيين ولذلك فلابد من التعاون والتعاون هو بوقوع الاتفاق بين الشـقيقات على ان تختار كل واحدة عددا من هذه المجلات تنفق عليهـا من مالها وينفق عليها الجميع من اختصـــاصهم ويطالعها عامة القراء الاختصاصـــيون فى عامة الاقطار الشقيقة والمثل يقول : حمل الجماعة ريش .

المسح الثقافى :

المسح الثقافى هو تخطيط لاحصاء التراث الثقافى متزوجـــال علم وادب وفن ومن كتب مخطوطة أو مطبوعة أو مصورة ومن انتاج موسيقى ومن معالم اثرية كالمدن الاثرية والقصور والمعابد ومن نقـــود اثرية ومن قبريات ومنقوشـــاتها ومن تحف اثرية كالانسجة والثياب والســلاح والاثاث والحلى ومن اغان ومن امثال واحاج واغاليط الى غير ذلك .

والمسح الثقافى CADASTRE CULTUREL هو تقسيم ترابى مدقق لا تفلت منه شاردة ولا واردة يطبق عليه القسم الثقافى الذى تريد احصاءه ، ثم ينشر ذلك القسم فى مجموع مفتوح الباب للزيادة كلما عثـــر على جديد ، ويسمى المجمـــوع ديوانا ولا شك ان المستعمرين اشتغلوا قليلا بهذه الشؤون كجمع النقود العربية فى دواوين أو جمع النقائش فى مجاميع ، ولكن ذلك غير مستوف واكثره قد نفد فلا تصله يـد الباحث الا بعناء شديد ، وفيه احيانا اغلاط يجب مراجعتها وهو فـــوق ذلك ليس بالعربية فبعضـــه بالفرنسية وبعضه بالايطالية وبعضه بالاسبانية ثم هو مدرج أحيانا فىمجالات نادرة ، فديوان النقائش العربية بسردانيا منشور فى مجلة تقنية ســـردانية تسمى ARCHIVICE STARICO SARDO صدرت منذ ١٣٠ سنة فمن ينتبه الى ذلك ، ثم عثـر بعد صدور تلك المجلة على نقائش اخرى لم تضف اليها ، ونشرت النقائش الصـــقلية العربية بمجلة ARCHINIO STARICO فى منتصف القرن الماضى .

ولذلك فلابد من جمع ما نشر فى مجموع واحـد واضافة ما لم ينشر عليه .

ونعنى بالديوان فىالمرحلة الاولى الديوان المغربى أى الجامع للتراث المراكشى والجزائرى والتونسى والليبى والاسبانى والبرتغالى والصقلى والسردانى والمالطى وما زاد عليه بجنوب فرنســـا .

وقد يضاف الى المغرب البـــلاد الصـــحراوية القريبة منا فانها صنهاجية أى مغربية اصالة .

وننجز الدواوين المغربية فى مرحلة أولى ريثما تتم الدواوين العربية المشرقية فىمرحلة ثانية وريثما تتم الدواوين الاسلامية فى مرحلة ثالثة وبها مسك الختام ، وأول الغيث قطـــر ثم ينسكب وأهم هـــذه الدواوين هي :

اولا ديوان النقود المغربية :

يشـــمل النقود البربرية والبونيقية والرومانية والوندالية والبزنطية والعربية على اختلاف الدول المغربية والتركية والاسبانية وما اخرجه المستعمرون من نقود بالمغرب ·

ثانيا : ديوان الكتاب المغربي يشـمل كافة الكتب المغربية المخطوطة والمطبوعة والمصورة والوارد ذكره فى كشف الفنون للحـــاج خليفة وملحقاته ومعجم الكتب المخطوطةالعربية الموجودة لبرلين شـــلوارد

SHLWORDT بعنوان VERZEICHNIN

وفى كتاب بروكلمان « تاريخ آداب اللغة العربية وفى فهارس المكاتب العامة أو الخاصـــة وفى فهارس المطبوعات مثل اكتفاء القنوع لفنديك ومعجم المطبوعات لسركيس وغير ذلك ·

ثالثا : ديوان الآثار المغربية وأطالسها ·

رابعا : ديوان القصور

خامسا : تاج التراجم المغربى

سادسا : ديوان النقائش المغربية التى على المعالم والقبور

سابعا : ديوان المعالم الاســـلامية من جوامع ومدارس واسواق وابراج وقلاع وأسوار وحمامات وفنـــادق ·

ثامنـــا : أعداد ديوان المصادر المغربية

تاســـعا : ديوان الفولكلور المغربى ·

عاشـــرا : ديوان الثياب وديوان الســـــلاح وديوان الحلى وديوان المنقولات المغربية من أثـاث ورياش ·

من ذا الذى سيقوم بهذا العمل الجبـــار الطويل النفس ، لا تستطيع ان تقوم به الا مؤسسة مركزية مغربية مشتركة لها فروع مختصـــة بكل قطاع من القطاعات وهذه المؤسسة لا يمكن ان تكون الا مجمعا علميا مغربيا له اتصـــال وثيق بالمجامع العلمية الموجودة وبالمجامع العلمية الخارجية ·

فلسطين

هل يعيد التاريخ نفسه ؟

د . شكرى فيصل

فى تاريخنا الطويل وعلى مدى هذه القرون المتلاحقة ، ازمات كثيرة اكتوينا بنارها ، بعضى هذه الازمات ياتى من الداخل . من اثر هذا التفـاعل بـين العناصر المختلفة التى صهرها الاسـلام وبعض هذه الازمات كان ياتى من الخارج من هذه المطامع والاحقاد التى يثيرها المتسلطون والحكام غـير ان هذه الازمات كلهـا تلك التى تاتى من الخارج ، من وراء الحدود اوتلك التى تنبـع من الداخل من اعماق عناصر هذا الاشتات هذه الازمات كلها ما كان لها ولن يكون لمثلها ان تخرج الوطن العربى الاسلامى عن رسـالته التى يحملهـا فى الوجود او عن عنايته التى يعمل لها فى الحياة وعن ايمانه بـانـه تـوجـد فى تـراث الانسـانيـة ثـروة يجـب ان تظل دائما حية نشيطة تربو على الانفاق وتألق مع الزمن ويكون لها فى تاريخ الحياة على طهر نصيب اى نصيب . والحق ان هذه الازمات الكثـيرة على تلاحقهـا وقوتهـا وعنفهـا ومرارتها والحـروب المنهكـة التى كانت تعصف فى ظلالهـا والدمـاء التى تراق فيهـا ، والمدن التى تجتاح والثـروات التى تبدد والتراث الذى يزال بالنار ــ وبالطوفان .

ظلت ابدا فى حياة الوطن الكبير منـارا للتجديد القوى بعد نوبة ضعف ، ومبعثا لتوحيد اطرافـه المتفرقة ومعبـرا الى الفترات الخالـدة فى تاريخنا الكبير ومن هنا ينطلق ايماننا بهذه القوى المختزنة فى ذواتنا التى تضحك للخطوب وتبتسم للاعاصير وتجد من اشد الساعات الحالكة متنفسا لفجـر جديد ، ايماننا بان الله سبحانه حين زرع فى قلوبنا الوحدانية زرع فى قلوبنا معها ان الله وحده هو الذى يخشى ويخاف ويهاب ويحب وانه ما من قوة اخرى قادرة فى الكون تستحق ان ترجف منالها فى اجسامنا فريصه او تهتزلها من روؤسنا شعره او ان يخالطنـا من اجلها مهانة من اجل ذلك فنحن حين نعرض لنكبات ونكسات حين نتحدث عنها ونحاضر فيها وندير نقاشا حولها ، لانفعل ذلك فى ظلال صـفراء من الخوف ولا فى دنيا كاتمة من التشاؤم ، اننا نتحدث ونحاضر ونناقش بايمان عميق بحقنا وبذواتنا ، وبالرسـالة التى نحملها بين جنوبنا ، يتوارثها عنا جيل عن جيل ويورثها الوالد الولد ، وتدوب فيها كل فعـالياتنا واهتماماتنا ، فلنا فى هذا الحديث عن نكباتنا ونكساتنا فى فلسطين لنودع منا الاسى ونجفف الدمع الذى يندى خدود المذابح احيانا ، ونجانب الصواب الذى يتراءى هنا وهناك ، ولنعرض قصة هذا الجزء من الوطن الكبير ، قصة الامس فى الحروب الصليبية ، وقصة اليوم مع اسرائيل ، فى أوائل القرن الخامس الهجرى كان هذا الوطن الكبير يعانى ضعف الخلافة فى بغداد وتسلط الامراء الاتراك وثورات المتسلطين فى الولايات القريبة والبعيدة .

كان العهد العباسى الاول وهو العهد الذهبى قد انتهى حين غاب السفاح والمنصور والمهدى ومضى الرشيد والامين والمامون واختفى الوجه الحـازم القوى الذى كان يطل من بغداد على اطراف الارض الشاسعة ثم تسلط الوزراء البويهيون على الخلفاء العباسيين واستبدوا بهم فكانت خصومات ومنازعات فى قلب الدولة ذهبت بهيبتها واضاعت مكانتها واتاحت للاطراف ان تقطع ما بينها وبين بغداد من صلة فلنا لنا مراكز كثيرة من هنا وهناك فى مصر وما وراء شمال افريقيا وفيما وراء بغداد فارس وخراسان وما بعدهما من الخليج .

هذا الوطن الكبير فى هذه الفترة من فترات الضعف كان يجاور قوتين اثنتين : الاولى هذه القوة المركزة المنظمة التى كان مركزها القسطنطنية والتى نسميها الامبراطورية البيزنطيـة او امبراطورية رومانيـا الشرقية والتى كانت آسيا الصغرى وطنها الفسيح . القوة الثانية هى هذه القوة التى تكونت فى اعقاب الدولة الرومانية الغربية بعد شـارل مارتل الذى تذكرون انتصاره على العرب فى بسهل توروبواتيه ، تعاقب عليها الملوك فكان ابرزهم شارلمـان الذى تذكـرون مـاكـان لـه من اتصـال مـع هرون الرشـيد واتصـال الـوطن العـربى ومركز الخلافة الاسلامية بهذه القوى لم يكن اتصال ود او صداقة كان اتصال خصومة وحرب كان الوطن العربى يمد ذراعيه ليستولى على القسطنطينية . ذراع اولى تمدها بغداد من آسيا الصغرى تريد ان تنال هذه المدينة الضخمة ، ذراع أخرى كانت تمدهـا الاندلس تريد ان تطبق البحر الابيض المتوسط لتبلغ القسطنطينية . اما ذراع بغداد فلم تمكن لها الحروب المتصلة بينها وبين الدولة البيزنطية على الثغور من

ان تحقق هذه الغاية . كانت الحرب سجالا بين بغداد وبين القسطنطينية ، كان الخليفة يقوى فى بغداد فيحاصر خصمه ويحاربه ويضرب عليه الجزية ويقوى الامبراطور فينقض الشروط ويجوز الثغور ، وفى كل مرة من مرات الضعف او القوة كانت تثور حروبلتهدأ وتهدأ لتثور اما الذراع الاخرى التىامتدت عبر البرينية والتى كانت لها هذه الغزوات الخاطفة والموفقة فى جنوب ايطاليا وفى جزر البحر فلم تفلح ان تكون عملا منظما ولا متصلا .

وواضح لنا ان هاتين القوتين قوة الافرنج والقوة القسطنطينية كانتا تتحينان الفرصة لتخنق الوحدة العربية الاسلامية التى تريد ان تلف العالم كله فى نظام جديد وواضح كذلك ان هذه الموجة قد بلغت اقصى ذروتها مع الرشيد فى بغداد وعبد الرحمن الناصر فىالاندلس فلما كانتفترةالضعفهذهالتىجاءت فى نهاية حكم البويهيين فى منتصف القرن الخامس الهجرى كان الشعور حادا وقويا عند الاوروبيين وعند البيزنطيين فى ضرورة الحد من هذه الموجة العربية الاسلامية والتى نادت بالفكر الواعى ، والحق ان هذا الطابع فى الحياة العربية الاسلامية بلغ حدا مخزيا ، فى الغرب كان الامويون والاندلسيون عرضة للهجمات المتصلة وفى الشرق كان البيزنطيون يثيرون حروبا طاحنة لا تنقطع ، واجه الحمدانيون هذه الحروب ولكنهم لم يستطيعوا ان يقفوا لها دائما بل ان كتائب الدولة الرومانية اخذتهم بما لا قبل لهم به فضمت سواحل الشام وعبرت نهر الفرات .

وكانتعلى طريق بغداد وذعر الخليفة والامير البويهى حتى لقد بعث اليه الامير البويهى اثاث قصره ليستعد لشن هذه الحرب ، واباطرة القسطنطينية لم يجدوا لحسن الحظ القوة على الاستمرار فى هذه الهجمات فرجعوا عنها ، ولم يكن بينهم وبين قادة اوروبا ما يساعدهم على عمل مشترك . ان الخلافات الدينية بين القسطنطينية وروما كانت ولاتزال اعمق من ان تتحاشى او تهمل او ينشأ مكانها نوع من الالفة والوفاق . كان هذا فى اواخر القرن الخامس الهجرى اواخر حكم البويهيين . غير انه لم يكد ينتصف هذا القرن او يكاد حتى شهدنا موجة من القوة تتدفق فى وطننا الكبير ، كان ذلك حين ظهر السلاجقة فتولوا الحكم للخليفة فى بغداد ، انقذوه من البويهيين وتركوا له ماشاء من مظاهر السلطان والرئاسة ولكنهم امسكوا بالسيادة الفعلية بأيديهم فجددوا للدولة العباسية شبابها ، اريد بالطبع الشباب المادى الذى اوشك ان يزول . وفى العهود الاولى لهؤلاء السلاجقة حدث هذا الحادث الخطير الذى كانت تتطلع اليه الدولة الاسلامية . كانت القسطنطينية من آسيا الصغرى مثار كروفر ، بين البيزنطيين والعباسيين فى آسيا الصغرى ، فى اقصى طرفها الغربى كانت القسطنطينية بكل جلالها وعظمتها تتراءى لعين مسدودة . فلما قوى أمر السلاجقة اصلوا بيزنطة نارا حامية وصار فى ايديهم زمام المبادرة بعد ان كان للبيزنطيين ، وضربوا فى احشاء هذه الدولة وانثالت جيوشهم فى غزر وعنف تتقدم من مكان الى مكان وتربح معركة كبرى بعد معركة . كانت معركة ملاذ كرد من معارك التاريخ الفاصلة ، اسر السلطان الب ارسلان الامبراطور رومانيوس ، ثم تتابعت الوقائع والمعارك واستقر أمر السلاجقة فى قلب الامبراطورية

البيزنطية في آسيا الصغرى ؛ ولم يبق للبيزنطيين الا الجانب الغربي . ما معنى هذه الخطوة الجديدة الواسعة عند السلاجقة . معناها تهديد القسطنطينية وزعزعة الدولة التي تأبت على الفتوحات الاولى ، معناها ان يوصل التاريخ من جديد ما كان انقطع من غزوات معاوية والوليد وسليمان . حينذاك اخذت المسألة شكلا خطيرا وادرك الامبراطور البيزنطي كاسيوس حرج موقفه ورأى أن في وسعه أمام هذه الخطوة العريضة التي تفتح فاها وتوشك ، أن تبتلعه أن في وسعه أن يهادن الفرنجة في أوروبا وأن يتقرب من اوروبا وأن ينسى خصوماته الوثنية التي بلغت حد المهاترات والتنادف بالخرافة ، بل انها اصطنعت السلم احيانا ، فكان بينها في بعض الفترات وارسل كاسيوس نداءه الى أوروبا يستغيث بها والبس هذا النداء ثوبا دينيا ، وتجاوبت معه اوروبا في اوروبا الصغرى يذكر منها التاريخ صوت البطرس الاول ، ونادى البابا البانوس الثاني نداءه التاريخي للعالم المسيحي لاسترداد بيت المقدس . ومضت الدعوة كما نراها في القرن العشرين ، وحملت الى شرقنا العربي الى فلسطين هذه الغزوات التي البسوها اسم الحروب الصليبية . لست احب أن اتحدث عن هذه الحروب بشيء من التفصيل وليس من هدف هذه المحاضرة التعرض للاحداث وللحروب بالذات وذلك ان الاسماء التي اطلقت والاحداث التي كانت ليست هي التي تهمنا في شيء ، ليكن اسم هذه الحروب ما يكون ، ليكن من احداثها ما يكون .

انني لا اقصد هنا الحديث عن الاحداث التاريخية بنفسها ، وانما اقصد الى الروح التي تكمن وراءها والمطامح التي تسيرها ، والبواعث التي تحركها ، والسياسات التي تتلاعب بها ، واننا اليوم وبعد هذه القرون الثمانية لا نتحدث عن هذه الحروب القديمة في مثل الافاق التي كان يتحدث فيها اصحابها أو الذين ارخوها اننا نملك أن نفهم من هذه الحروب ونحن نستقطب التاريخ شيئا آخر غير الاسم الذي اطلق عليها ، فالدين وخشبة الصليب ، والسيد المسيح عليه السلام . وغير ذلك من الاشياء لم تكن وحدها . كانت لبوسا من لبوس هذه الحروب وانما كان وراءها سلسلة من الدوافع والمحركات ، بعضها دين وبعضها دنيا ، بعضها سلطان وسيطرة ، وبعضها تجارة واستثمار واستعمار ؛ تجمعت كلها على هذا الاسم ، على نسب مختلفة وتفاعلت في هذه الحركة التي يؤلف بينها طابع رئيسي وهي انها عدوان . ايا كانت صفة هذا العدوان أو اسمه ، وتحركت مواكب هذا العدوان نحو المشرق العربي على نحو ما تحرك العدوان الذي نعيشه ، ان صح هذا التعبير نحو قلب هذا المشرق العربي ، نحو فلسطين ، الحق ان هذه الحروب الصليبية كانت في معمل من معاملها شكلا من اشكال هذا الصراع الدائم المستمر بين الشرق والغرب على مدى التاريخ منذ حروب دارا والاسكندر ، والوقفة القصيرة والمتأنية على نشأة هذه الحروب واحداثها وتطورها يضع هذه الحقيقة موضع التأكيد ان لم أقل موضع اليقين .

ان العالم في نظره كلية يجري في كفتي ميزان مترجرج ، كل حركة في احدى الكفتين تستدعي رد فعل في الكفة الثانية ، هاتان الكفتان لا تستوعبان قوى العالم كله ، وكثيرا ما يتفرق العالم كتلا وجماعات عديدة ؛ لكن الافتراق بين القوى العالمية او التقاؤها لا بد ان ينتهي حين تبلغ هذه الخصومات ابعد غاياتها إلى أن تتجمع هذه القوى في كتلتين كبيرتين متضادتين ، في هذا التجمع عادة تذوب

الخلافات الجزئية الصغيرة فيما بين اجزاء الكتلتين لتستعد للخلافات الكبرى .

اى ان المجموعات الصغيرة تنسى ما بينها احيانا او تتناسى او تحمل على التناسى لتنتظم خلافاتها فى صور الصراع الكلى فلهذا العالم ينشطر لكتلتين ضخمتين ، ولذا ولاء القوى الصغرى يتوزع بينها ، وان الانسانية أمام خطر التصادم فى هذا الكوكب — الارض — بين هاتين القوتين او الكتلتين ، ابرز الاسماء او المصطلحات التى اطلقت عليهما ، انهما الشرق والغرب ، هذا دون ان يكون فى هذا الشرق والغرب على نحو مستمر وواضح معنى جوهرى بل انه ليوشك ان يكون مستحيلا احيانا ان نجد هذا التحديد الجغرافى فضلا عن ان نضبطه ، ان المدلول الضيق اولا لهاتين المنطقتين اى الشرق والغرب يضمر او يغيب لتأخذ الكلمتان معنى اصطلاحيا جديدا يرمز الى كل قوتين عالمتين متصارعتين تتكثف بينهما عوامل الافتراق وتختلف العقائد والفلسفات والمصالح القائمة على هذه الفلسفات وينتهى الخلاف الى صيغة نزاع او صراع او حرب على هذا الاساس ، احب ان افهمك وان نفهم معا هذه الصورة التى قلت فيها ان العالم يشبه كفتى ميزان مترجرج مع كل حركة فى احدى الكفتين نحو الغلبة تستدعى رد فعل فى الكفة الثانية .

لم تستطع كفتا الميزان هاتان ان تلتقيا على اتجاه واحد على حركة متوازية دائمة ولذلك لن تستطيعا أن تكتسبا شيئا من الاستقرار او شيئا من السلام الطويل ، وتذكرون الجملة المشهورة : ان السلام فترة بين حربين — ان روح الانسان وحركة المجتمعات ابتا منذ كان الانسان والمجتمع شيئا من السكون الثابت ، ولهذا تظل الكفتان تتأرجحان وتتناقضان وكثيرا ما يؤدى ذلك الى رقصة الحرب الكبرى . من هنا فى شىء من الاستطراد — والاستطراد مما يسهل على — تتردد قيمة الفكرة المعاصرة الكبرى فكرة العالم الثالث التى نشأت فى اعقاب المغامرتين القاسيتين — الحرب العالمية الاولى والثانية — ان فكرة قيام حرب اخرى سقطت فلم يكن هناك حيرة .

وجاءت فكرة العالم الثالث تعويضا اكثر موضوعية عنها ومحاولة للحيلولة بين هذا العالم كله وبين ان يستقطب من جديد فى قوتين لعله لا بد ذات يوم من ان تتصارعا طبعا الا اذا اتفقتا على تقسيم هذا العالم الثالث .

ثم جاءت محاولات اخرى كثيرة بين هاتين القوتين فى سبيل اقامة التوازن وهو توازن اغلب الظن ان حياة الانسان وخيره لم تكن هى مصدره قدر ما كان المصدر : الروح التى اشاعها التقدم النووى واستخدامه فى اغراض الحرب فوق استخدامه فى اغراض السلم .

ومهما يكن من شىء فلسنا فى هذه الساعة مع الحاضر ، نحن مع التاريخ ، لنصل الى هذا الحاضر وانه لامر واضح ان الغرب لم يستطع فى مرة من المرات ان يتقبل المساواة مع الشرق ولا ان يجرى معه على مستوى واحد لا فى مستوى العقيدة ولا فى مستوى الاقتصاد ، لا فى الفكر ولا فى العمل ، ولذلك كان يدعى ان له حقا فى الاخرين ، ودعام هذا الحق كان يقوده الى السيطرة ، ولهذا كانت وجهته دائما رصد الفرص التى يستطيع معها القضاء على كل قوة ناشئة فى هذا الجزء من العالم يخافه ان يكون

مستقبل هذه القوة الناشئة حائلا بينه وبين سيطرته ومطامحه ، ولقد كان الوطن العربى منذ مبعث النبى (ص) هذه القوة العاتية وحد الشرق ، وامتص الاسلام القوى الناشبة فيه فادخلها فى حوزته وامتد جناحاه هنا وهناك . فكان الموقف الغربى ردة الفعل هذه لابد ان يبدأ بقص الجناحين ويحاول ان ينفذ بالقلب ، لندع قصة الجناحين فان لهما تاريخ هو مزيج من الهزيمة والنصر ، الجناح الذى انكمش فى الاندلس فارتد الى الوراء ، والجناح الذى اشتد فى اسيا الصغرى وتجاوزها حتى دخل قلب اوروبا ، لندع حديثنا اليوم فى منطقة بلاد الشام اى عن القلب الذى استهدفها الغرب فى الحروب الصليبية كما يستهدفها اليوم والتى أراد من عكا ويافا ان يسيطر اكثر فاكثر ، واعذرونى ان لم اسق الاحداث تتابع تتابعا تاريخينا متسلسلا سأوفر عليكم سرد الاحداث لانتقل بكم الى الحقائق التى وصلت اليها ، وهى التى تحدد وتساعد على تحديد وجهتنا وتقود خطوتنا ، انى لا ازعم انى ارسم طريق المستقبل ، ولكننى أزعم اننا فى حاجة دائما لان يكون التاريخ لنا بمثابة البوصلة التىتهدف الىتحديد وجهتك حين يظلم الجو من حولك ، ولك بعد ذلك ان تختار وجهتك وفق ظروفك وواقعك ، كذلك هنا نريد ان تكون الحقائق التى ننتهى اليها هى النور الذى نرى به من أمر هذا الحاضر ابعد مما نرى فى جلبه الاحداث اليومية ، واخبارها المضللة والدعايات المغرضة ، لقد انتهيت الى جملة من هذه الحقائق الحقيقة الاولى أن احداث الشرق الحاضرة والماضية هى امتداد للصراع بين الشرق والغرب ، قد يكون فى هذا الصراع ابعاد من السيطـــــزة اكثـــــر • ممـــا لـــه من ابعــــاد الدين ، وابعـــــــاد التجـــــارة اكثـــــر من

الابعاد الخلقية ، لا نخالفولا نناقش فى ذلك لاننا متفقون على كل حال انها ابعـــاد عدوانية تجافى الحق وتتنكر للعدل ، ان هذا الصراع السافر اتخذ من فلسطين مركزا له ومنطلقا ، وقد هدفوا من مقدسات معنية اليوم من الغرب ، ولكنها هى المعنية اليوم من الصهيـــونية ، انها ارض المأوى وارض الميعاد ، انها الوطن والعقيدة فى آن واحد ، ولهذا لم يأخذ الصهيونيون اى وطن آخر غيرها ، ونستطيع ان نحدد العامل الدينى الذى اعطته الصهيونية ، ان الغرب الذى حمل نفسه حملا الى فلسطين اثناء الحروب الصليبية لم يستقر له الامر حتى بعد مئتى سنة فخرج منها ، هذا الغرب عاد ففرض نفسه مرة اخرى فى فلسطين بعد الحرب العالمية وعلى بلاد الشام كلها ، ووقف اللنبى القائد البريطانى على قبر صلاح الدين ليقول قولته المشهورة : « اليوم انتهت الحروب الصليبية يا صلاح الدين » • ومع ذلك فلم يستقر للغرب قرار طوال سنوات الاحتلال كلها التى امتلأت ثورات هذا الغرب نفسه آثر مرة ثالثة تجربة جديدة على يد الصهيونية هذه المرة انه دفع باسرائيل لتكون ركيزة ، وبرج مراقبة وبرج تجسس ، وكان بين اسرائيل وهذه القوى الغربية مثل هذا التواطؤ المشترك ، اسرائيل تسعى الىاثبات كيانها ، والقوى التى تساعدها تسعى الى الحياة الجديدة الناشئة النشطة فى الوطن العربى ، وفى ما وراء الوطـن العربى من اقطار الشرق المستعرب وغير المستعرب تريد امتصاصها ، تعويق حركتها نحو المستقبل ، تريد ان تحول بين التربة التى خلدت الى الراحة مدى طويلا وبين ان تحيا وتزدهر . ذلك ، لان التراث الحضارى العريق الذى يتمتع به سكان هذه المنطقة من العرب المسلمين ، والموقع الجغرافى الرائع ،

والثروات التى تتفجر فى ارضه ، والعقيدة المثلى التى استطاعت ان تجابه احداث القرون ، والتى حفظت فى نفوس اصحابها ارادة الحياة الكريمة ، كل ذلك بروع هؤلاء الغزاة كما لا تروعه اية قوة اخرى ، اذ ليس هناك كيان مكتمل ، او يمكن ان يكتمل فى قلب العالم غير كيان هذه الشعوب العربية والاسلامية . ولهذه الاحقاد كانت عملية تمريض الدولة العثمانية وتشتيت الامة العربية وتقطيع اوصال الوطن العربى ، واثارة النزعات المختلفة باسماء مختلفة ، او من هنا ايضا كانت ابرز خطوط السياسة الغربية التى تتضح كالشمس ، اليس من المؤلم اننا احيانا لانرى الشمس واننا فى بعض الاحيان كهؤلاء الذين خرجوا من حانة مخمورين ، فلما خرجوا تساءلوا اهوضياء الشمس أم ضياء القمر ، ثم عادوا يغطون . الحقيقة الثانية التى تبدو فى احداث الحاضر كما كانت تبدو فى احداث الماضى ان هؤلاء الفرنجة الذين قصدوا قلب الوطن العربى قد قاموا مبناه فرقة ما كانوا يستهدفون الملك وحده ولكنهم كانوا يهدفون قبل كل شىء الى فصل هذا الكيان العربى وتجزئته . كانوا يريدون شيئا اساسيا هاما يعتبروه ابرز الركائز فى سياسة الفرنجة جميعا ولعله اشد ما تلتقى عليه هذه السياسات جميعها ذلك هو فصل عرب آسيا عن عرب افريقيا ، ومن ينظر تاريخ هذه الفترة يظهر له بوضوح كيف حرصوا حتى حين بدأوا يتراجعون ، ان يبقوا فى الكرك والشوبك من بلاد الاردن . اطول فترة لا لشىء اذ ليس للارض فاكهة . ولكن لكى يحولوا بين الاتصال البحرى بين جنوب سوريا وبين مصر ، ان خطة هذا التفتيت هى التى طبقت ايضاً فى اقطار اخرى من بلاد العرب والاسلام ، وانتم تذكرون ماذا حدث فى الحرب الاولى ، من كان يصدق ان الشام التى لا تتجاوز ثلاثة ملايين قد قسمت الى قسمين : شمالى وجنوبى ، وان القسم الجنوبى كذلك قسم الى قسمين فلسطين ، والاردن . وكانت الاردن تحت نظام غير النظام فى فلسطين . وان شمال سوريا اول الامر قسم الى اربع دويلات . حلب والشام واللاذقية ولبنان واقيمت حكومات منفصلة وانظمة مختلفة فى كل جزء ، الحق ان التاريخ كله كان يعرف ان بلاد الشام كانت وحدة واحدة . هل اخذكم العجب لولا صعوبة الادانة التى واجهت الانتداب الفرنسى ولو لا خطة اخرى قد تكون اكثر مكرا ، لما جمعوا بين حلب واللاذقية والشام فى دولة واحدة فى الجمهورية السورية .

وكان لبنان صغيرا جدا وفقيرا جدا ، فاغنوه ، فاقتطعوا له جزءا من سوريا ، اربع مدن صور وصيدا وطرابلس وبعلبك ، ولماذا يأخذكم العجب ، الم تقسم ليبيا اعقاب الحرب العالمية الثانية ثلاثة اقسام ، اذن عملية التفتيت هذه على اساس اعطاء هذا التفتيت صفات خاصة ، حتى ينتج كيان مستقلا عن البلاد الاخرى ، هذا الاسلوب الذى يمكن ان يدل عليه مصطلح الاقليمية هو الذى لجأ اليه خصومنا ، انه نوع من التفتيت وايجاد مثل له واشكال بعضها بالحق وبعضها بالباطل ، ولكن الله منذ ان مكن الله للاسلام فى الوطن العربى الكبير اراد أن يكون لهاتين القيمتين الكبيرتين سلطانهما على كل حملة مضادة لها لهذا لن تتغلب عوامل هذا التفتيت والتجزئة المصطنعة على عوامل الوحدة الاصيلة . اقول لن تتغلب بل ان الصراع مازال قائما والمشكلة لم تغادر منطقة الخطر ، لقد تنبه الحس الاقليمى الى حد بعيد فى وطننا العربى ، ونشأت له جذور ، ووجدت له

تربة مصطنعة ، واعطيت له فلسفات ، وليس هناك على المدى البعيد والقريب خطر اكبر من الاقليمية ومن نمو الاحساس بها ، لقد نشأنا نحن الان المغرب ، اما تسمية اقطاره فدلالات ونشأ غيرنا لا يعرف الا بلاد الشام ، وعشنا في القاهرة في الاربعينات واوئل الخمسينات لم يكن الشاب المغربي يعرف كل هذه الاسماء المصطنعة ،سوري فلسطيني ولكن جيلنا ومؤسساتنا ودساتيرنا واعلامنا حثوا على المشاركة في هذه التجزئة والله اعلم ما وراءها ، وانتشرت كلمات كان يجب أن لا تنتشر ، مثل الجزارة والمغربة أو التمصر ، وما اشك ابدا في أن بعض هذه الكلمات نقي صاف يقصد به الى مغزى نقي صاف هو محاربة الدخيل المتغلب واحلال الاصيل محله ، ولكنني كنت اتمنى ان تأخذ هذه الاصطلاحات صيغا أخرى بعيدة عن الايماء الاقليمي .

الحقيقة الثالثة التي تبدو من خلال الظروف القديمة والمعاصرة ، ان الغرب يستهدف دائما رد العرب الى الوراء ، ردا في الزمان والمكان والتاريخ، العودة بهم الى البادية والابقاء على الذين يبقون في الاطراف مستخدمين ، في نظر الغرب يجب أن يظل العرب رعاة أو شبه رعاة ، جماة قوافل ، ان الغربي يريدنا أن نكون هذا التابع الأمين الذي لا يجاوز الوبر الى المدر الا في النطاق الضيق الذي ينسى فيه جوهره الاصيل ، وان لا ينتقل من الرمل الى الطين ، وعليه ان يقف على اطراف السواد ، ينظر اليه ويتمناه . ولكن ابلغ حظه منه ان ينال منه ما نال النابغة وحسان من بردى ، ومن مشاجر الفيحاء وعطر الريحان ، وان ينظم في ذلك شعرا ، وكذلك عاش العرب فيما قبل الاسلام في جزيرتهم او بعض جزيرتهم ، فلما كانت وثبة الايمان الكبرى التي خرجت بالعربي من المحطات الى المدن ، ومن الرمل الى الطين ، ومن ابواب المدن الى المدن نفسها ، ومن رؤية السواد الى الخوض في السواد ، ومن بحار الرمل الى بحار الماء ، كما كانت هذه الوثبة الكبرى التي بثت هذه الروح في منطقة البحر الابيض المتوسط ، كان لا بد للغرب ان يرصد الفرص التي يرد بها هذه القوة المنطلقة الى مداخلها الاولى .

الحروب الصليبية اذن كانت تستهدف هذه الابعاد ولذلك كان الشيء الاساسي عندها أن تستولى على الشيطان الشمالية المتوسط والبحر الاحمر ، واقول لكم ان الحروب الصليبية في غزواتها لم تكد تترك شيئا من سواحل بلاد الشام من انطاكيا الى طرابلس الى بيروت الى صيدا وصور وعسقلان ، كما حاولت أن تستولى على البحر الاحمر وعلى العقبة وعلى عريجان وامتدت الى البحر المتوسط كذلك فجهزت حملة ارادت منها السيطرة على دمياط وحملات أخرى للسيطرة على اسكندرية وما يقابل ذلك في احداثنا المعاصرة لا اشك ان بلاد العرب تمتد بين الشواطىء والصحراء صورة الخريطة العربية في فترة الاستعمار المظلمة من جبل طارق الى اسكندرونة الى الخليج كانت كلها قبائل ، ومرة اخرى ان الارث الروحي والحضاري والتاريخي ومكتسبات نفسية من خلال هذا الارث مكنت لنا أن نواجه هذا العدوان الشرس للمقاومة الفعلية ، فسلمت لنا شواطئنا من جبل طارق الى شمال سوريا ، وتأخذ شواطىء اخرى جنوب الجزيرة طريقها الى ان تساندنا ايضا . ولكن القوى المعادية لم ترض عن هذا فهي تحاول ان تسلبها على نحو آخر واقرار التجزئة اول الخطوط لذلك ، والمعاهدات المقيدة هي الخطوط الثانية في هذا الموضوع ، لكن الخطر المفاجىء الاكبر مما يتضح

فى اسرائيل وفى مواضع أخرى فى وطننا العربى لا فى البحر المتوسط فحسب ، بل فى البحر الاحمر ، ان البحر الاحمر هو الذى يقودها الى عدن والى ما وراء عدن من بلاد الهند ، ان هذه المناطق تعتبر فى مكان القلب من الوطن العربى ، وماذا يبقى للاطراف اذا سكت القلب .

الحقيقة الخامسة لهذا الصراع انه صراع تاريخى جذوره بعيدة احداثه متشابكة وممتدة عبر التاريخ . ان علاقة الغرب بكل قواه ومراكزه وتراثه الحضارى وبكل ما يملك من ثقافة ، وعسير فى هذه الظروف التى نعيش فيها ان تتغلب على الغرب نزعة الذات الانسانية المسالمة، لذلك علينا ان نبنى مستقبلنا على ان هذا صراع طويل ومستمر . وأن ما تراه اليوم فى فلسطين والوطن العربى ليس جديدا ، ولكنه قديم امتداد لماضى وامتداد عنيف له تريد ان تلف المستقبل كذلك وحياتنا يجب أن تبدأ بهذا الايمان وتقوم عليه . ولذلك فنحن نميل الى السلم لأنه فى صلب عقيدتنا لكن لا نفهم الدعوة الى السلم فى هذه الظروف القاسية التى نمر فيها فى هذا الواقع المرير الذى نحياه . نجد انه لا يتصل بنا لا فى الكثير ولا فى القليل ان سلمنا هو السلم الذى يكفل العدالة ويقوم عليها ، أما السلم الذى يقوم على اساس من الواقع وعلى اساس هدد كرامتنا واغتصب موردنا فشىء لا نستطيع ان نتقبله ان السلم يجب أن لا يعيش بيننا انه مما يجب أن يحمل اولا فى قلوب اولئك الاقوياء الذين يلعبون فى مصالح العالم ، وأن تصدر عن هذا السلم تصرفاتهم واعمالهم تجاه الضعفاء .

هذه هى الحقائق الخمسة التى نراها حين نلتفت الى الاحداث التى تحيط بنا والتى حدثت من قبل أن هذه الحقائق يجب أن تحيا فى اذهاننا ، وفى ضوء منها يجب أن نعالج المشكلة التى نعيشها فى فلسطين حتى تأتى المعالجة ناجحة وموفقة ، ولكن نظلم انفسنا ونظلم الفكرة حقا اذا نحن عالجنا المشكلة القائمة اليوم دون ان نعرف كيف عولجت من قبل لقد مر اجدادنا بمثل هذا الاحداث ، بل وباكثر منها ، لكنهم خرجوا منها بعد ان ظفرهم التاريخ ، ان الغارات السابقة كانت اعنف من هذه الغارات ولكنهم صمدوا لها فكيف كان ذلك ... ما الذى فعلوا حتى يكون لنا فى الذى فعلوه عبرة ، ساتحدث عن هذا الذى فعله العرب فى القسم الثانى من المحاضرة . ولكن أود أن امهد لذلك بملاحظات :

اولا : انى لا أزعم لكم ولا لنفسى ان التاريخ يعيد نفسه بكل ظروفه وشروطه ، ولكنى ازعم لكم ولنفسى ان التاريخ يعود بروحه واتخذ من الاحداث الجديدة اشكالا جديدة ، انه يتأقلم مع الاحداث . الا يستطيع التاريخ الا ان يعيد نفسه . اذا كانت النفس البشرية لاتزال تعيش فى هذا الجشع العجيب فى قسوتها ونعومتها فى جبروتها ووداعتها اذا كان انسان الذرة لايزال هو انسان الغاب ، رغم عقله الهائل ظل فى جوهره النفيس قريب من الانسان الاول ان لم يكن هو ذاته .

والملاحظة الثانية اننى سوف انظر الى الحروب الصليبية فى مدى قرنين نظرة كلية ، احاول استقطاب بعض الظروف والحركات والغايات وساحاول أن ابين السياسة التى سار عنها عماد الدين وصلاح الدين لانقاذ فلسطين . ايها الاخوة لقد كتب فى الحروب الصليبية مؤرخون كثيرون ، بعضهم كتب عليها وحدها ، بعضهم كتب عنها فى حوليات التاريخ بعضهم اقامها على اساس اثبات بعض الحوادث .

وبعضهم أقامها على اساس الاحداث السليمة ، كل هؤلاء ينظرون الى هذه الحرب كأنما كانوا يقدرون هذه الغزوة المتجددة . فاجتهدوا ان يذكروا لنا كل الذى كان حتى نتدبر نحن كل الذى يكون ، واوشك ان اعتقد من ناحية ثقافية اننا فى اشد الحاجة الى ان نحيط بتاريخ القرنين السادس والسابع الهجريين فى طرفى العالم الغربى والشرقى يجب ان نستحضر دائما الاحداث بتفاصيلها وجزئياتها لنرى كل ما كان من تجزئة وتقسيم ، من عبود وذل العبودية من القوى الذاهبة والقوى الناشئة ان شيئا آخر لا يمكن أن يفجر فى نفوسنا روح العزيمة والتفاؤل فى المستقبل كما يفعل ذلك عند قراءة احداث هذه الفترة من تاريخنا ولو كان لى اقتراح على ذى سلطان لاقترحت ان يجدد كل هذه الكتب وان يعيد طبعها وان يجدد عرضها وان تفرض للتدريس فى كل مراحل التدريس . واقتضت عواملى انا ان اقرا تلك الكتب واستعرض أحداث سنة 1967 وخرجت بهذا الايمان القوى أن المعركة هى المعركة وان اختلفت الاسماء والاشخاص والاقوام ، والاهداف هى الاهداف بل توشك أن تكون الوسائل هى الوسائل ، تفصيلات دقيقة هى التى تنبئنا عن ذلك ، غير اننا فى بلادنا لا نعرف التاريخ كله كما يجب ان نعرفه .

لقد انتهيت الى ان هناك جملة من القواعد سادت عملية تصف الصليبيين القاعدة الاولى ، هى ارادة الجهاد ، فما لم يولد الجهاد ما لم نعظ هذه اللفظة الاهمية فى حياتنا العامة والخاصة ، وما لم نصمم على هذا ونؤمن أنه طريق الحياة فان انقاذ فلسطين يبدو أمرا بعيدا ، اننا فى حاجة الى تجديد هذا المفهوم فى حياتنا وفى مؤسساتنا ، فى مدارسنا واسرتنا ومصانعنا ، وكل الجوانب من اركان الحياة يجب ان تحيا عندنا ارادة الحياة وارادة الجهاد معا وتحيا فى نفوس الناس ونفوس ذوى السلطان ، وان تحيا فوق مستوى كل ارادة اخرى وان تكيف حتى الادارات الاخرى حتى تعيش فى اطار منها . ان ما فعله نور الدين وصلاح الدين لم يهدف الى تملك أو سيطرة ولم يفكر اى منهم باستثمار او مصلحة ، كان فى حياتهما أمثلة رائعة من هذا النحو قائمة على هذا الاساس ، ان ارادة الجهاد هى التى تجعل احتمال الاباء سهلا يسيرا ، وهى وحدها التى تقضى على شعور الفزع والرعب ، وتجعل من الاقدام المرتجفة اقدام ثابتة او من الجماعات القلقة جماعات تحتمل مثلما احتمل اهل عكاحصارا من البر والبحر سنتين أثنتين فسد فيهما كل شىء حتى التراب مثل هذه الارادة هى التى تجعلنا نقول مثل قولة نور الدين حين فقد أخوه عينه ، قال له : لو كشف لك عن الاجل الذى اعدلك لتمنيت ان تذهب عينك الاخرى .

القاعدة الثانية التجميع والوحدة : لقد كان المجتمع العربى فى ابان الحروب الصليبية فى مثل هذا التفكك، كان هناك خلافتان كل منهما ترى انها هى الخلافة الشرعية واحدة فى بغداد والثانية فى القاهرة ، وكان بينهما ذلك العداء الذى يكون عادة بين المتخاصمين ووراء الخلافة الفاطميين فى القاهرة امتدادها فى شمال افريقيا ووراء الخلافة العباسية فى بغداد امارات فى شبه الجزيرة كان هناك هذه الفوضى السياسية الكبيرة :

د. شكرى فيصل

(القيت هذه المحاضرة فى شهر جوان فى قاعة الموقار بالجزائر العاصمة) .

أصالة الشخصية الجزائرية

د . عبد المالك مرتاض

ما الشخصية ؟

ان الشخصية كلمة جامعة لعدة معان وهي لا تقوم في الغالب الا اذا ما ائتلفت من عدة مبادىء ومقومات . ولكل فرد من الافراد شخصيته التي يتميز بها عن سواه ، كما ان لكل أمة من الامم شخصيتها التي تسمها بميسم خاص . بيد ان شخصية الامم تختلف باختلافها في اللغة والدين والعادات والتقاليد و الماضي التاريخي . وهلم جرا من هذه المقومات التي تتكتل مع بعضها فتشكل بنيانا متينا متماسكا ندعوه بالشخصية الوطنية .

فما هي الشخصية الجزائرية ؟ وما مقوماتها ؟

أما السؤال الاول ، فلا ينبغي أن نجيب عنه الا بما نجيب على السؤال الثاني . والاجابة على السؤال الثاني هي التي تستغرق هذا الحديث كله .

ولقد حاولنا ، جهدنا ، أن نحصر بعض العناصر القوية التي تتألف منها الشخصية الجزائرية ، والتي ظلت تحصنها وتحفظها من المسخ والذوبان فرأيناها تتمثل ، بوجه خاص ، في العناصر التالية

1 ـ العادات والتقاليد ،

2 ـ التاريخ والحضارة ،

3 ـ اللغة والثقافة العربية

4 ـ القوميــة ،

5 ـ الدين الاسـلامي ،

1) العـادات والتقاليد :

ان مدلول لفظ «العادة» يدل في أصل وضعه على الفعل المكرر ، فهو مشتق من مادة «عود» التي تدل على الرجوع والتكرار . فالذي يعتاد فعلا ما ، يصبح له ديدنا يلازمه اي عادة ملحة لا تكاد تحيد عنه ولا تريم . وقد تطور مدلول هذا اللفظ الى ان أصبح يطلق لدى علماء الاجتماع على مجموعة من الظواهر الاجتماعية التي الف الناس فعلها ورؤيتها داخل مجتمع ما . وكثيرا ما نقرن في أحاديثنا الراقية . وفي كتاباتنا ، لفظ العـادات بلفظ التقاليد ، وانهما لمتقاربان في مدلولهما العام تقاربا واضحا الا أن أصل لفظ التقاليد في الوضع اللغوي اقتباس فعل ما ، أو عادة ما ، أو مظهر ما ، من طرف آخر . وهذا الطرف قد يكون الجد بالقياس الى الحفيد وقد يكون الاب بالقياس الى الابن ، كما قد يكون المسود أو المحكوم ، بالنسبة للسيد أو الحاكم .

واذا ما اعتبرنا ان الانسان مقلدا قبل أن يكون مبدعا ، فان التقليد قد يكون اعرق في حياته ، من العادة . فكأن العادة تنشأ عن التقليد ، حتى اذا تبني الناس في مجتمعهم ذلك التقليد ، أصبح شيئا مالوفا شائعا يرد في افعال الناس ، فاذا هو عادة متبعة لا يسأل الناس العاديون عن أصولها الاولى ، ولا يثيرون البحث حول جذورها الخفية ، لغاية البحث نفسه .

وواضح اننا نجد لكل شعب من الشعوب ، عاداته وتقاليده التي تطبع حياته الاجتماعية ، بطابع خاص . وهذه العادات والتقاليد الاجتماعية من جملة العوامل التي تميز الشعوب بعضها عن بعض . وان هذه العادات يقوى سلطانها في أنفس الناس داخل المجتمعات حتى تصبح لها قوة القاعدة المتبعة ، وحكم القانون الكلي ، فتراهم يحترمونها احترامهم للمبادىء الدينية أو أشد من ذلك أحيانا ، فاكرام الضيف ، أو عدم اكرامه ، من العادات التي يتوارثها الناس خلفا عن سلف ، وابنا عن أب ، بالرغم من أن طبيعة النفوس البشرية تخضع ، في اتصافها بالبخل أو الكرم ، لعوامل نفسية أو مالية ، أو وراثية بعيدة . كذلك الاحتفالات بالاعراس والحفلات ؛ من العادات التي يتوارثها الناس بعضهم عن بعض . ونحو ذلك يقال في التزيي بأزياء معينة دون سواها فترانا نقول : فلان يتزيى بالزي الوطني أو التقليدي وفلان بالزي العصري . حتى كان الشيوخ والعلماء وكثير من الآباء في بوادينا الجزائرية منذ زهاء عقدين من الزمن يرون العفو عن شعر الراس وحسره

وحلق اللحية رجسا من أعمال الشياطين ، يجب على المؤمن الفاضل الصالح نبذه ورفضه . مع أن هذه القضية شكلية الى حد بعيد . ومن التعسف والتزمت اخضاع كل شيء الى الدين . إذ كان اللباس والطعام مما يخضع لطبيعة التصورات الحضارية والاجتماعية التى تعتور المجتمعات الانسانية . وتنشأ عن اتصالهم : بعضهم ببعض .

ومثل ذلك يقال أيضا فى ظاهرة الاحتفال بالاعراس ، فان الناس مضطرون . بحكم انتمائهم الى هذا المجتمع أو ذاك . الى الخضوع للطقوس الاجتماعية التى الف للناس أن يأتوها عند اقامة مثل هذه الاحتفالات . لهذه المناسبات .

واذا بحثنا عن مدى صلة عادات الغازين أو المستعمرين . بعادات الجزائريين المغزوين عبر التاريخ لطويل ، وجدنا الشقة بين أولئك وهؤلاء بعيدة جدا .

أرأيت ان الناس كانوا لدينا . منذ نحو عشرين عاما فقط . يرون حسر الرأس والابقاء على شعره عملا من أعمال الكفار . وتشبيها بهيئة المستعمرين، ومن تشبه بقوم فهو منهم . فانكار هذه الظاهرة من قبل شيوخنا . فى تلك الفترة . يقوم على تعليل اجتماعى أكثر مما يقوم على تعليل دينى ، اذ كان كثير من الآباء الشيوخ يتغاضون تغاضيا تاما عن ترك الصلاة من قبل أبنائهم . فلا ينتهرونهم بل لا يرشدونهم . حتى اذا رأوا رؤوسهم حاسرة . ولحاهم محلوقة ، أنكروا ذلك عليهم وأعظموه أشد الاعظام .

وان الحرص على اتباع العادات واحترام التقاليد



المرحوم الامام عبدالحميد بن باديس

القومية . مما حصن الشخصية الجزائرية . وحفظها من الاضمحلال أو الضعف . فضل الجزائريون، نتيجة لذلك . يحيون حياة اجتماعية تختلف عن الذين استعمروهم .

ونحن نصدر هذا الحكم حول أهل البدوى الذين ظلوا محافظين على شخصيتهم الجزائرية العربية الاصلية من حيث احتفالاتهم بالاعراس والمواسم . وملابسهم فى المناسبات ، ومن حيث تصرفاتهم واخلاقهم داخل مجتمعاتهم التى ظلت بمعزل عن تيار الحضارة الغربية

الطارئة التى لم تكد تغزو الا المدن والقرى التى لها بها اتصال وثيق لا غير .

فكانت هذه العادات والتقاليد بمثابت الحصانة الحصينة ضد اندثار شخصيتنا الوطنية . اذ كان الاختلاف فى العادات . مما ينشأ عنه اختلاف ثار فى النواحى الاخرى . وذلى مما ساعد على تعلق الجزائريين بعاداتهم وتقاليدهم التى حفظت الشخصية الجزائرية كاقوى واشد ما يكون الحفظ والحصانة . ونحن لسنا ننفى اثر العادات الفرنسية بوجه خاص . فى مجتمعنا ، وما كان لها من آثار على سلوكنا الاجتماعية . بل على كيان الشخصية الفردية والجماعات معا . غير ان ذلك لم يستفحل الا بعد الاستقلال حيث اغترفنا بنهم شديد من الثقافة الفرنسية . بالاضافة الى معطيات الإستقلال الكثيرة التى اتاحت للشعب الجزائرى ان يطل على العالم الخارجى . ويتاثر بما فيه من خير وشر ، وصلاح وفساد .

ولعلنا لا نعدم من يعترض علينا من حيث اننا جعلنا تاثر الشعب الجزائرى بمرحلة ما بعد الاستقلال . بالمستعمر . كان اكثر من تاثره به اثناء فترة الاستعمار نفسها . وانما ذهبنا هذا المذهب لاننا نحسب ان انطواء الشعب الجزائرى على نفسه قبل الاستقلال — وقد كان مضطرا مرغما على هذا الانطواء — ثم تجهيلة منقبل الاستعمار ، وحصره فى البوادى والمناطق النائية . كان من العوامل التى عملت على خدمة مصلحة الشخصية الوطنية بحيث بقيت نقية طاهرة . وبارزة قوية . فكانت النتيجة التى سعى الاستعمار الى تحقيقها سلبية بالقياس الى مسعاه الذى خاب .

فلو افترضنا أن التلفزة اخترعت فى أوائل هذا القرن . ثم عمم استعمالها فى الجزائر كلها ، كما هو الشان اليوم . وكان ذلك بوحى من التوجيه الاستعمارى البحت . بالاضافة الى تعميم التعليم بالفرنسية واجباريته ، لحق لنا أن نذهب الى ان مثل هذا كان يقينا أن يعمل على هدم الشخصية الوطنية واضعافها . ان لم نقل : اذابتها . فقد كان هذا التاثير بعد الاستقلال أكثر لهذه الاسباب التى اتينا عليها . منذ حين . ذكرا . ومنها تعميم التعليم، وتقوية الاعلام . ونشر الثقافة بعد الاستقلال ، فى حين أن وسائل التاثر — أثناء عهد الاستعمار — كانت منعدمة فى البوادى لفشو ظاهرة الجهل . وضعيفة فى المدن لنفس العلة . فكانت شخصيتنا أثناء الاستعمار وفى ابان الثورة . متحفظة ، محتاطة ، شديدة الحذر فى الاندفاع وراء المعطيات الحضارية الطارئة . ولاسيما تلك التى كانت تاتى من نحو الاستعمار.من أجل كل ذلك.استحال على المستعمرين قديما وحديثا ، اذابة هذه الشخصية وصهرها فى بوتقة حياتهم السياسية والاخلاقية والاجتماعية معا.

2) الحضارة والتاريخ :

ان التاريخ الوطنى سرد لاعمال الاجداد ، وتمجيد لبطولاتهم . وتضحياتهم من أجل الوطن والمواطنين جميعا . ولم أرد بكلمتى هذه . تعريفا دقيقا جامعا للتاريخ . فان المؤرخين أنفسهم لايزالون يختلفون فى هذا التعريف بالرغم من وضوحه . كاختلاف

الفلاسفة حول تعريف الفلسفة . وكاختلاف المتصوفة حول تعريف التصوف أيضا ، وانما اردت اعطاء صورة مصغرة بسيطة لمفهوم التاريخ الوطني وموضوعه . . . ولما كانت اهمية التاريخ عظيمة ذات شأن . فان الامم المتحضرة تفزع اليه في تبين شخصيتها الوطنية عبر الازمان السحيقة . والاحقاب البعيدة . والتاريخ . في الجزائر ، مما كان له أثر واضح في حفظ الشخصية الجزائرية وتعميق أصالتها .

واذا كان عامة الشعب الجزائري لم يكونوا يعرفون شيئا كثيرا عن يوغورطا . وماسينيسا . والكاهنة ، وهلم جرا من رجالاتنا الذين سيروا التاريخ وكان لهم شأن مذكور مع الغزاة الاجانب عبر الازمنة الموغلة في البعد . فانهم يعرفون الشيء الكثير عن الامير وحروبه مع الغزاة الفرنسيين الى جانب الثوار الآخرين . ينضاف الى كل ذلك التاريخ المعاصر وحوادثه العنيفة . كالحادثة التي تتمثل في مجازر سنة خمس وأربعين من هذا القرن ، فان ذلك مما كان له أثر بعيد في قيام الثورة . من أجل الحصول على الحرية التي هي اعتراف سياسي بسيادة الشخصية الوطنية . فكأن الشعب الجزائري اتخذ من هذه المجازر الرهيبة وقودا يضرم به ثورته . كلما ضعفت أو الم عليها الكلال والفتور .

ونحو ذلك يقال في حروب الامير التي كان المواطنون المستنيرون يتخذون منها ملهمة لهم في دفع الناس الى الثورة . وفي توجيههم كيف يحافظون على شخصيتهم الوطنية الموروثة العريقة .



يوغـــرطة

اننا اليوم حين نبحث عن أنفسنا ، ونشرئب الى معرفة أصول شخصيتنا . نفزع الى التاريخ الوطني. والى حوادثه الجسام بوجه خاص . لنرى في هذا التاريخ أنفسنا ماثلة ، وشخصيتنا الوطنية قائمة واضحة . ولولا هذا التاريخ . لما عرفنا ما ضيننا الذي نستمد منه القوة والعزم . ونستلهم منه الابداع . وننشد فيه العزة والفخار .

فكأن التاريخ الوطني ، كان بمثابة المرآة المجلوة التي تنعكس عليها شخصية الشعب الجزائري كأشد وأقوى وأنصع ما يكون الانعكاس .

فالتاريخ حلقات متواصلة من الحياة . والحوادث . والحروب . والشخصية الوطنية سلسلة طويلة تمتد مع هذه الحلقات التاريخية وترتبط بها . وتنوب

فيها ، حتى تصبح جزءا من التاريخ ، كما يصبح التاريخ نفسه جزءا منها .

فالشخصية الوطنية اذن ، لا تتشكل فى حقبة زمانية قصيرة ، وانما تمتد أصول جذورها الى أعماق الزمان البعيد ، وتمضي مع الاطوار التاريخية لتنصقل وتقوى . واذا انصلقت الشخصية وثبتت اركانها ، وصلب عودها ، عسر على العدو اذابتها او تفتيتها ومحوها .

وذلك ما وقع للاستعمار الفرنسي بالذات ، فقد ظل حائرا فى أمره ، لا يدرى ما يصنع أمام قوة ماضى هذا الشعب الاصيل ، وأمام عظمة تاريخ هذه الامة العريقة التى لم تستسلم قط الى الاستعمار ، وانما تظاهرت بالاستسلام لتثور ثورتها المعروفة التى سار بها الركبان ، ولهجت بها السنة السمار .

ومن الحق ان المستنيرين من الجزائريين لم يكونوا يجهلون أثر التاريخ فى حفظ الشخصية الوطنية ، من أجل ذلك ألفينا مباركا الميلي يقدم على تأليف أول كتاب فى تاريخ الجزائر ، فقد كان ، لا ريب ، يعلم أن هذا الكتاب يشبه ثورة مسلحة بأكملها ، اذ يشهد بوجود الشخصية الجزائرية عبر التاريخ . ونحن نحسب أن مثل هذه الكتب لا تقل خطرا ، فى رأى الاستعمار – وذلك حق – عن قيام ثورة فعلا . ونحو ذلك يقال فى تاريخ الجيلالى ، وفى كتابات المدنى التاريخية ، فانها كلها كانت بمثابة قذى فى عين الاستعمار ، وشجى فى حلقه . فى حين أن هذه الكتب ، كانت بالقياس الى الجزائريين كالمصابيح المضيئة التى تهدى الضالين ، وترشد السارين .

هذا ، الشأن فى التاريخ .

أما الحضارة فهى عبارة عن مآثر الاجداد ومخلفاتهم المادية . ولا أريد بهذا القول أن أعطى تعريفا دقيقا جامعا للحضارة ، فانى لا أريد هنا ذلك ، قدر ما اريد اداء الفكرة وتقريبها الى الافهام . والحضارة لها طرفان : طرف مادى ، وطرف روحى .

أما الطرف الروحى ، فلا نبغى أن نثير حوله الكلام فى هذا الحديث ، وانما غايتنا اثارته حول الطرف المادى المتمثل فى بنايات المدن الضخمة ، وزخرفة القصور الفخمة ، وتنميق المساجد والاضرحة وسواها ؛ مما يملأ نفس المواطن اعجابا واعتزازا بماضيه ، فتقوى ذاتيته ، ويصلب عوده ، وتتميز شخصيته ، وكيف لا تطفح نفسه اعتزازا وفخارا ، وبعض ذلك دليل على أن أجداده الذين عاشوا قبله على هذا الوطن ، كانت لهم مآثر حضارية هذا جزء منها لا يبرح للعيان ماثلا :

تلك آثارنا تدل علينا
فانظروا بعدنا الى الآثار

فعلام تدل هذه الآثار ؟

اننا لو أخذنا مثلا واحدا حضاريا لرجونا أن نقتنع بما للحضارة من أثر فى حفظ الشخصية الوطنية من الاندثار والدروس . فان المواطن مثلا حين يزور مدينة تلمسان ، ويرى فيها تلك المساجد والقصور الفخمة يتساءل عن بانيها ، وعن تاريخ بنائها ، وعن سيرة الملوك والرؤساء الذين بنوها . . . ثم انه لا ريب يلاحظ أن هذه البنايات وزخرفتها كانت كلها عربية ، بالاضافة الى المساجد والمآذن

والاضرحة التى تنبى، فى مجموعها بعراقة الامــة الجزائرية فى العروبة والاسلام . ان المواطن العادى حين كان يشاهد تلك الزخارف العجيبة ، والحروف العربية المنقوشة نقشا منمقا على البنايات الباقية ، فى عهد الاستعمار بالامس القريب ؛ كان لا ريب يقتنع فى قرارة نفسه بانه عربى حقا ، وان العربية كان لها شان عظيم فى هذا الوطن ، وان هذه الفرنسية

ان هى الا لغة دخيلة فرضت على الجزائريين فرضا، وانها زائلة بزوال الاستعمار . .

واذن ، فان التاريخ من حيث هو حوادث معنوية مجردة ، تدرك بالعقل ، وان الحضارة من حيث هى مآثر مادية قائمة محسوسة ترى بالعين ، لمــا يحفظ شخصية الامة . وذلك ما حدث بالقيــاس الى الشخصية الجزائرية التى تعلقت بتاريخها ، وتشبثت بحضارتها . واتخذت منهما مرآة تفزع اليها لتــرى فيها نفسها كلما دهمتها الخطوب ، والمت عليهــا المكــــار • .

فللتاريخ اذن فضل عظيم على استمرار شخصيتنا وذاتيتنا ، وبقائهما قويتين واضحتين فى أحلـــك الظروف ، وأصعب الفترات الزمنية .

كان ذلك ، العنصر الثانى من مقومات شخصيتنا الوطنية ، وأما العنصر الثالث فهــو :

3) اللغة والثقافة العربية :

ان بالاسلام اكتملت الشخصية الجزائرية وتعمقت أصالتها ، فاذا اعتبرنا أن هذه الامة لم تك بلغت شأوا بعيدا فى مجال الحضارة ، فان الاسلام أبرز عناصر هذه الحضارة وشحذها . واذا زعم زاعم انها



المرحوم الشيخ مبارك الميلى الابراهيمى

لم تك متحضرة من قبل اطلاقا ، فانه لا يستطيــع أن يزعم ان الاسلام لم يحضرها ويهذبها ، حــتى اصبحت راقية واعية ، ومتمدنة ، اذا اعتبرنا التقدم الحضارى المتواضع قديما ، بالقياس الى الحضارة الناتجة عن استكشاف البخار ، ثم الكهرباء والذرة حـــديثـا .

كانت الامة الجزائرية قبل الاسلام تتحدث لغتها العريقة وهى ، تامزيغت » ، ونحن نعلم أن هذه اللغة

عبارة عن لهجة بدائيةالى حد بعيد: لم تنشىء حضارات ولم ينطق بها كتاب دين من الأديان السماوية، فلم يتح لها ان تقدم منفعة حضارية ذات بالالى الانسانيـــة .
فلا غرو أن نلفى الجزائريين يسارعون الى اعتنـــاق الاسلام بالرغم من ترددهم أول الامر ، ومحاربتهـم العرب الفاتحين حين وطئت أقدامهم هذه الارض ، لانهم كانوا يحسبون انهم ليسوا بدعا من الغازين الاول ، ومنهم الوندال والرومان . وان حرب الجـــزائريين الشديدة للفاتحين المسلمين لتدل بحق على اصالـــة الشخصية الجزائرية وقوتها ، وعدم اذعانها بسهولة. ولولا أنهم أدركوا ان الفاتحين المسلمين لم يكـونوا يريدون الا خيرا،وانهم لم يبغوا استعمارا ولا استعبادا ولا استغلالا ، لظننا ان الحرب لم تكن قد انتهت عند ما انتهت اليه حينئذ . .

لكن الجزائريون حين أدركوا مدلول الاســـلام ، وتشبعوا بمبادئه العالية ، تعلموا العربية لانها لغـة القرآن والحديث : أى لغة الدين الاسلامى الجديد . وما لبثت هذه اللغة ان انتشرت فى الجزائر حـــتى اصبحت مع مرور اربعة عشر قرنا من حياة الاسلام ، اللغة الوطنية للامة الجزائرية . وبذلك أصبحـــت الشخصية الجزائرية فى بعض جوانبها . جزءا مـــن الشخصية العربية الشاملة . فالجزائرى عربى مـــن حيث انه يتكلم العربية،وهو عربى من حيث أن كثيرا من أصوله الاولى التى منها ما يعود الى الفتح الاسلامى حين ابتدأ الاختلاط بين الامازيغ الاصليين وبين العرب الوافدين ، ومنها ما يرتد الى الهجرة الجارفة الـــتى قامت بها قبائل بنى هلال ، وبنى سليم فى المـائة السادسة ، كما ذكر ابن خلدون فى المقدمة (1) ، بل منها ما يرجع الى الهجرة الاولى المعنة فى القدم ، والتى قام بها افريقيس اليمنى ، الى افريقيا الشمالية حتى ان هذه القارة فى تسميتها ، انما تنسب اليه (2)

فاللغة العربية حين اصبحت احد أصول مقومـات الشخصية الجزائرية ، لم تصبح كذلك طفرة ، أو عن طريق المصادفة العارضة ، وانما كانت نتيجة حتمية لعوامل تاريخية وبشرية متشابكة يشد بعضها بعضا.

ولو هم أحد ان ينتزع من هذه الامة لغتهـــا هذه العربية ، لفشل فشلا ذريعا ، ولو سخـر فى ذلك أعظم القوى ، وأحدث الوسائل العلمية والنفسية والمثل على ذلك موجود . والدليل على هذا المذهب ثابت دامغ ، فقد جاهد الاستعمار الفرنسى نفســـه جهادا شاقا جدا من أجل أن ينال من هذه اللغـــة فلم يستطع أن يصنع شيئا كثيرا . لان الجـــزائرى بطبعه عنود متصلب الارادة . وهو حتى فى حـــال اذعانه ، فان فعله ذلك انما يشبه السكون الـــذى تعقبه العاصفة الهوجاء .

الثقافة العربية واثرها فى حفظ الشخصية الجزائرية

وبهذه اللغة العزيزة كتب الشعب الجزائـــرى ثقافته وتاريخه وأدبه ، فدل على عراقة عروبتـه ، واصالة شخصيته ، فان الجزائريين حين غزوا من قبل الفرنسيين كانوا أحسن منهم ثقافة . وليـس شرطا أساسيا أن يكون الغازى أثقف من المغزو فى كل الاحوال . فالشواهد التاريخية تشهد بـأن الغزو لا يخضع لمبدأ التفوق فىالعلم وحده . ونحن لم ندع ما ادعينـــا لمجرد حب الانسيـــاق وراء العاطفة الوطنية ، بل انما ادعيناه لحب تسجيـــل

1) المقدمة : 265

2) معجم البلدان لياقوت : 300/1

الحقائق التاريخية التي شهد بها المؤرخون الفرنسيون أنفسهم . فقد ذهب أصحاب كتاب : «الجزائر ماضيا وحاضرا» ، الى أنه «كان يعتقد بأن الشعب الجزائرى كان اميا . وانما الاستعمار هو الذى جاءه بالثقافة والعلم . مع أن ذلك خطأ محض» (3)

كما أورد أصحاب هذا الكتاب نفسه نصا تاريخيا لروزى قد كتبه سنة ثلاثين وثمانمائة والف . وأكد فيه بأن السكان الجزائريين فى هذه الاثناء : «ربما كانوا أكثر ثقافة وتعلما من الشعب الفرنسى نفسه ذلك بأن جميع الرجال كانوا يحسنون القــــراءة والكتابة والحساب» (4)

وقد جاء فى هذا الكتاب ايضا ان الامية كانت أقــل فشوا فى الجزائر من فرنسا ، حيث كانت تتجاوز الاربعين فى المائة (5) . ومعنى ذلك أن نسبة الامية فى الرجال كانت ابان الاحتلال الفرنسى فى الجزائــر اقل بكثير من اربعين فى المائة باعتراف من هــؤلاء المؤرخين الفرنسيين انفسهم . فلماذهب الاستعمار الفرنسى ترك نسبة الامية فى الجزائر اكثر من ثمانين فى المائــة .

كانت ثقافة الشعب الجزائرى ابان الاحتـــلال الفرنسى عربية أصيلة . بالرغم من المحاولات الكثيرة التى قام بها المستعمرون من أجل محو هــــذه الشخصية ، بسل ثقافتها العربية منها . لكنهــم فشلوا فى معظم الاحوال .لان هذه الثقافــة كانــت تدافع عن نفسها بنفسها . فكانت كالنور الفيــاض الذى لا يطمس من شعاعه الغامر . الظــلام الشاحب شيئــــا .

ذلك بأن الثقافة العربية التى كانت قائمة يومئذ



الأمير عبد القادر

فى الجزائر ، وظلت كذلك طوال عهد الاستعمـــار الفرنسى . كانت ثقافة مبنية على أصول من العلــم والدين والاخلاق والقومية جميعا . وهذه عوامــل يصعب مغالبتها والقضاء عليها فى فترة تاريخيــة محدودة من الاستعمار . مهما كانت طويلة الامد .

فثقافتنا القومية كانت أصيلة : فيها قوة الدهر، وعمق الحياة ، وطبيعة هذا الشعب نفسه . فقــد كانت لنا مدارس كثيرة باعتراف المؤرخين الفرنسيين أنفسهم أيضا . فكانت هذه المدارس . التى يمــكن أن نطلق عليها اليوم مدارس ابتدائية . تفتح عقول الطلاب ، وتزودهم بالمعرفة الاولية التى لابـــد منها . حتى اذا الموا بما فيها . يمموا الزوايـــا

3) الجزائر ماضيا وحاضرا : ص 228

4) نفس المصدر ونفس الصفحة

المشهورة باحتضانها للعلم والعلماء ، وكانت هذه الزوايا أشبه ما تكون وأقرب الى المراكز الثقافية النشيطة ، منها الى أي شيء آخر . اذ كانت تهيء الطلاب الى أن يتابعوا دراساتهم في احدى الجامعات الاسلامية الثلاث ، ولاسيما الزيتونة بتونس ، والقرويين بفاس . وقد اعتبر مؤلفو كتاب «الجزائر ماضيا وحاضرا» خريجي هذه الجامعات دكاترة بالمفهوم العلمي لهذه اللفظة . (6) ومن هؤلاء المتخرجين ، كان القضاة والاساتذة الاجلة ، والمؤلفون ، والمشهود لهم بالعلم ، وكل الذين كانوا يتولون المناصب السامية في الدولة (7)

فكانت الجزائر ذات كيان ثقافي مستقل عميق الاصالة ، قوي الشخصية . فلم يكن من اليسير على الاستعمار الفرنسي ان يمحو هذه الشخصية الثقافية بالرغم من تهديمه المدارس والمساجد ، وتحويلها الى سجون طورا ، والى مؤسسات أخرى لاصلة لها بالثقافة العربية طورا ثانيا .

فاذا اعتبرنا الثقافة العربية بمثابة السلاح المعنوي القوي الذي ظل يحارب الاستعمار الفرنسي من حيث يشعر ومن حيث لا يشعر ، لم نبالغ ولم نخطيء . ثم اذا اعتبرنا هذه الثقافة العربية بمثابة الحجاب الذي ظل يحصن الشعب الجزائري من رطانة العجمة ، وهجنة الفرنسة ، وطغيان الغزو الثقافي الاجنبي ؛ لم نك بعيدين عن الحق .

فقد هدم ، هذا الاستعمار ، المدارس والمساجد التي كانت قائمة في المدن الضخمة ، ولكنه عجز عجزا مبينا عن أن تمتد يداه الى ما كان في البوادي النائية ، والقرى المنعزلة ، من مؤسسات ثقافية

5) الجزائر ماضيا وحاضرا : 228

6) الجزائر ماضيا وحاضرا : 229

7) نفس المصدر ونفس الصفحة

ـ على ما قد توصف به من تواضع محدود ـ فانها كانت مخلصة في الرسالة ، مؤمنة بالمبدأ : فكان الطلاب يحفظون القرآن ، والحديث ، والمتون الفقهية والنحوية ، ثم يتدارسونها في أعماق البوادي ، وقمم الجبال ، وظلال الغابات ، ولدى ساقات النخيل ، وعلى ضفاف الانهار . أرأيت أن الناس في البوادي كانوا يعرفون معظم ما يجب أن يعرف عن الاسلام ، وتاريخه ، ورجاله ، من حيث لم يكونوا يعرفون شيئا قليلا أو كثيرا عن هذا الاستعمار وحضارته وتاريخه ، لان الجزائريين بحكم انهم يختلفون عنه اختلافا في العقيدة واللغة والجنس والتاريخ ، كانوا ينظرون اليه نظرة مليئة بالحذر والتحفظ والخوف جميعا . وكان هذا الحذر يغريهم بأن يزدادوا تعلقا بما لهم من ثقافة ، وحرصا على ما عرفوا من علم .

ان الاستعمار الفرنسي لم ينجح قط في غزو عقول الجزائريين بثقافته ، وهذا النفي ينطبق انطباقا تاما على سكان البوادي بدون استثناء

في حين انه نجح نجاحا جزئيا آخر الامر بالقياس الى المدن ، حيث نجم بعض من يحترفون الكتابة من الجزائريين ، بيد أن هؤلاء استحالوا ابان الثورة خاصة الى أعداء الداء ، يحاربونه بسلاحه وهو الثقافة الفرنسية ، بيد أن دور هؤلاء الكتاب بالفرنسية لم يك قط في المستوى المنشود ، وظل المثقفون بالعربية ، في معظم الاحوال ، هم الذين يوجهون الشعب ويقودونه ، معولين في توجيهم على هذه الثقافة العربية ذاتها .

ان من السفه انكار ما كان للثقافة العربية في حفظ الشخصية الجزائرية خلال عهد الاستعمار

الفرنسي ، وصيانتها من العجمة والفساد أو الذوبان

4) القـــوميـــة :

والقومية هي عبارة عن :

« الانتمـاء الى أمة معينـة ، والتعلق بها » (8)

وهذا التعريف لا ينبغي أن يعطينا صورة دقيقة عن مدلول هذا اللفظ الجديد المفهوم . في جميـع اللغات العالمية . ذلك بأن القومية ، بمفهومهـــا السياسي الدقيق ، لم توجد في أروبا نفسها الا في القرن التاسع عشر . ولم تجد سبيلها الى افريقيـا وآسيا وامريكا اللاتينية ، الا في هذا القرن .

فماذاكان أثر القومية علىحفظ الشخصية الجزائرية وصونها عن عواصف الاحداث التي عصفت بهـــا خلال تاريخنا الطويل . وخلال عهد الاستعمار بوجه خـــاص ؟

ان الذي يتأمل تاريخ الجزائر قديمه وحديثه ، لا يعدم عناصر واصولا لهذه القومية . وانما كانت تضعف أحيانا حتى كان وجودها لم يكن . وتقـوى أحيانا أخرى حتى كأنها هي التي كانت توجه سير التاريخ . وتعمل على حفظ الشخصية الوطنية مـن الذوبان والذهاب . ونجد أصولا للقومية الجزائرية في التاريخ القديم ، وهي تتمثل في شخصيـــات مسينيسا . وبعض أبنائه . ويوغورطا بوجه خاص . وهو الذي رمى بالامازيغ في حرب الرومان . وأذاق القائدين الرومانيين المحنكين : ميتلوس ، ومريوس وسواهما أمر الهزائم .

وتلك مواقف تاريخية ينبغي أن تكون القوميـة الجزائرية قد تجسمت فيها وتجلت . وان لم يـكن الناس يومئذ يدركون القومية على النحو الذي يدركه اليوم المعـــاصرون .

فحروب يوغورطا مع الرومان . اشبه ما تكـــون بحروب الامير عبد القادر مع الفرنسيين . فكــلا هذين القائدين العظيمين استعمل حرب العصابات في مقاومة الغزاة.وكلاهما كانت له مملكة أو حكومة متنقلة . مع وجود فوارق في طبيعة هذه المملكة ، طبعا. وكلاهما انما حارب من أجل سيادة الوطن ، وحرمة الشخصية الوطنية . فطريقة الحرب كـادت تكون واحدة . والعدو في طبيعتـه الاستعمـارية ، وأصله الجغرافي . كاد يكون واحدا . والهدف مـن الغزو والمقاومة كان واحدا أيضا .

ولعل المؤرخ الملم المولع ببحث الدقائـق من الامور ، يعثر على مواقف تاريخية كثيرة كانت تتجلى فيها القومية الجزائرية خلال عصور التاريخ . أمـا نحن في هذا الفصل ، فحسبنا ما أشرنا اليه . فقد ينبغي أن تكون القومية قد تجلت بصورة ضاريـة في حرب يوغورطا للغزاة الرومان . ان مثـل ذلك الموقف التاريخي الرهيب . لا ينبغي أن يمثـل شيئا أولى من تمثيله القومية السياسية بمدلـولها الدقيق . ونحو ذلك يقال في حرب الكاهنـة مـع العرب المسلمين . بالرغم من أن أهداف الحـــرب هنا تختلف اختلافا بعيدا ، فالرومان والفرنسيون وسواهم من الغزاة . انما يمموا الجزائر مستعمرين مستغلين . على حين أن المسلمين انما قصدوا هذه الارض ابتغاء نشر الدين الاسلامي فيها . وانقـاذ أهلها من طغيان الجهل وضلال الكفر . ونحـــن نحسب ان المؤرخين الغربيين يختلفون معنا اختلافا

8) الموسوعة العربية : 1408 ـ قومية ـ

عظيما ، لانهم يكادون يذهبون جملة غير هـذا المذهب . بيد ان ذلك لا يغير من واقع الحق شيئا. فالعرب نشروا الاسلام ولم يغزوا بالمفهوم الاستعماري الحديث . ولو كان سبيلهم ذلك ، كالرومان من الاقدمين ، والفرنسيين والانجليز من المحدثين ، لآل أمر البلدان التي فتحوها الى ما آلت اليه البلدان التي استعمرت حديثا ونالت سيادتها اليوم ، ولكان مصير العرب الطرد والجلاء من افريقيا الشمالية ، كما كان مصير المستعمرين الفرنسيين مثـلا .

ولذلك ، بالرغم من محاربة الكاهنة للعـرب ، وبالرغم من تجلي القومية التي تتمثل في التفـاف البرابر حولها من أجل الدفاع عن وطنهم ، فـان نتيجة هذم الحرب ، ولا غايتها من الفاتحين المسلمين لم تكن مماثلة لغاية الغزاة الرومانيين والفرنسيين والاسبان .

وحرب الكاهنة أو مقاومتها ، تمثل آخر حلقة من الحلقات التاريخية الطويلة التي كانت تتمثـل فيها الشخصية الامازيغية الضيقة في التاريخ . اذ بعد

الفتح ، وحين اعتنق الجزائريون الاسلام دينـا ، واصطنعوا العربية لسانا ، تحول مفهوم الشخصية الوطنية لديهم ، واصبح يتالف من طائفة من المبادىء التي يكمل بعضها بعضا ، ولكن ابرزها جميعا اللغة والدين . فاصبحت شخصيتنا قوية متينة ، تستطيع ان تثبت لاعنف العواصف الهوجاء . ولـذلك لـم يستطع الاستعمار الفرنسي أن يذيبها ، بل افتضح أمره ، وظهر عجزه ، وانكشفت غايته الشريرة حين أراد عزل الامازيغ عن اخوانهم العرب ، فقد كتب رؤساء زواوة الكبرى سنة ثمان وأربعين من هـذا القرن ، عريضة طالبوا فيها الحكومة الاستعمارية بنسخ العوائد المعمول بها في تلك الناحية ، والقاضية بعدم توريث الزوجة والبنت . وانما تلك عادة قديمة جدا ؛ فلما جاء الاسلام نقضها وانكرها ، فـأراد الاستعمار احياءها ليفتت بها شخصية الرجـل الجزائري ، ويجعل منه عربيا وبربريا ، ومسلمـا ومسيحيـا (9)

ان القومية قد لعبت دورا عظيم الخطر في حفظ كيان الشخصية الجزائرية عبر التاريخ ، وصونها من الذوبان والامحـاء .

واذا كنا لا نعدم من يعترض علينا بأننا نقيـم هنا اثبات الشخصية الجزائرية على أساس منهـار من بعض الجوانب ، لان القومية لم توجد الا في العصر الحديث ، فان حجتنا أن القومية وجد مفهومها منذ القديم . وهي تتجلى في كثير من المـواقف التاريخية الهامة التي تمثل فيها اتحاد الامة اتحادا كليا أو جزئيا حول شخصية جزائرية واحدة ، كما حدث ذلك مرارا في التاريخ الجزائري ، ولا سيما في عهد يوغورطا ، والكاهنة ، والامير عبد القادر .

وعلى أننا وجدنا القومية تتجلى كأشـد وأقـوى وأضرى ما تكون أمرا ، في مقاومتنا للاستعمـار الفرنسي أثناء الثورة الكبرى . فقد اتحد فيها الشعب الجزائري والتف التفافا عجيبا ، لا حول شخصيـة وطنية بعينها هذه المرة ، ولكن حول حزب جبهـة التحرير الذي كان بمثابة عصارة للاحزاب الوطنية الاخرى ، التي ذابت فيه طوعا لا كرها .

ولا أحسب من موضوعنا هنا ، ابراز تلك الاسباب والعناصر والرواسب التي تكتلت واجتمعت حتى

9) نشرت هذه العريضة بمجلة ـ صوت المسجد عدد 3 ص 23 ـ 26 ـ 1948

هيات هذه الثورة ونجاحها . فذلك معروف عند من يلمون بالتاريخ السياسى المعاصر فى الجزائر .

5) الـــديــن :

عرفت الجزائر الاسلام أثناء النصف الثانى من القرن الاول الهجرى . وبالرغم م نالردات الـتى حدثت بعد ذلك . فان الاسلام تمكن من قلـوب الجزائريين آخر الامر ، واصبحوا يشكلون قـوة اسلامية عظيمة فى الجهة الغربية من العالم الاسلامى القديم ، ومن ذلك أنهم شاركوا فى فتح الاندلس مع طارق بن زيـاد .

ومنذ ذلك التاريخ اصبح الاسلام يمثل جـزءا أصيلا من مقومات الشخصية الجزائرية . بحيـث أصبح من المستحيل تصور الشخصية الجـزايرية مجردة عن الاسلام . وساعد على تأصل هذا العنصر فى شخصيتنا الوطنيـة ، قلة اليهـود والنصـارى بارضنا . فكانت الاغلبية المطلقة للجزائريـين المسلمين عبر تاريخ الجزائر المسلمة . فتـأصلت من أجل ذلك الشخصية الجزائرية حتى ذابت فـى أشعة الاسلام ، وغدا مستحيلا على أى غاز أن ينجح فى سلبها من هذا المقوم الكريم .

ويستطيع الباحث المتأمل أن يعتبر الدين الاسلامى من أقوى المقومات ، ان لم نقل : أقواها . التىظلت تغذى الشخصية الجزائرية وتصونها من الذوبـان والمسـخ .

ارأيت أن الفرنسيين حين تم لهم احتلال الجزائـر بالقوة الجبارة الطاغية . وجدوا الجزائر كلهـا مساجد ومدارس . فهالتهم هذه الظاهرة الرائعة . واقضت مضاجعهم ، وأقلقت نفوسهم ؟ فاجمعـوا أمرهم على ابدال المساجد بالكنائس . كما حـدث لمسجد كشاوة بالعاصمة . أو ابدالها مؤسسـات أخرى لا تمت للدين الاسلامى بصلة واضحة . كما وقع لمسجد سيدى بلحسن بتلمسان ــ الذى تـم بناؤه فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى ــ فقد حول هذا المسجد التاريخى فى عهد الاستعمار الى متحف ، وهو المتحف الذى لا يبرح قائما الى اليوم بتلمسـان .

والغرض من هذه الكثلكة المفضوحة . واضـح يعرفه الغبى والذكى،والجاهل والعالم على السواء . فى الجزائر . فانما اراد المستعمرون محو طابـع الشخصية الاسلامية ومعالمها من الجزائر،وتعويضها فىذات الحين بالمسيحية التى لايزال كثير من رجالها ونسائها قائمين بالتبشير فى مراكز معروفـة بالجزائر . الى اليوم . بيد أن مسعى السلطـات الاستعمارية خـاب فى الجزائر . لبعض هـذه الاسبـاب :

1) ان رقعة الجزائر واسعة جدا . بالقيـاس الى سكانها ، فاستحال على المستعمرين مراقبة جميـع النواحى . ولاسيما المناطق الريفية البعيدة . والبوادى الشاسعة النائية .

2) ان الاسلام كان قد تبوأ من قلوب الجزائريين تبوءا مكينا عميقا . فكان من العسير جدا مسخهم . وتجريدهم من عقائدهمالاسلامية على نحو او على آخر والدين اذا تمكن من القلوب . لا تنزعه السياط. ولا تزيله النيران بله الوسائل النفسية والعنصريـة المفضوحة .

3) ان الاستعمار ازدرى الشعب الجزائرى ــ وهذا المذهب الذى نذهبه ليس ينبغى أن يكون قائما على الهوى والعاطفة ، بل ان من يتأمل أمر الجزائريين مع الاستعمار الفرنسى يقتنع اقتناعا شديدا بسداد هذا المذهب . وليس من غرضنا الآن الاتيـان

بالدلائل الدامغة على ذلك (10) فجهله . بعد أن كان قد جوعه . فحال بينه وبين العلم بهذا التجهيـــل ، كما حال بينه وبين العيش الرغيد بالتجويع . اذ كان يعلم ان الجهل والجوع مما يفتك بشخصيـــة الامم ويفتت تاريخها ، ويفصم وحدتها فصما شنيعا ، ويجعل من أملها يأسا ، ومن قوتها ضعفا ، ومـــن اعتزازها استكانة . من أجل ذلك ألفينا هـــــذا الاستعمار لا يؤسس المدارس الا في المدن ، وهـــو انما أسسها في هذه المدن من أجل ابناء الفرنسيين والمعمرين ، اذ لم يك للجزائريين الذين كانـــوا يقطنون المدن الا الاعتبار الاخير في التعليم .

أما في البوادي ، فلم يكن أحد من الجزائريـــين يعرف عن التعليم الفرنسي شيئا يجب ذكره ، بلـــه أن يكون له تأثير مباشر على الحياة الاجتماعيـــة للناس في هذه البودي . فظلت هذه البوادي عـــلى حالها ـ ولا تقل ان أهلها كانوا محرومين من هذا التعليم ، لانه مسموم ، ولكن قل : ظلوا ناجـــين من هذا الشر ـ يقبل فيها الصبيان والشبان عـــلى الكتاتيب القرآنية ، والمساجد والزوايا من أجـــل حفظ القرآن الكريم ، وتعلم المبادىء الاولى من علوم العربية والدين ، فكانت هذه المساجد بالنسبة الى جامعة القرويين التي كان يقصدها طلبة الغـــرب الجزائري ، أو الى جامعة الزيتونة التي كان ييممها طلبة الشرق الجزائري ، بمثابة المدارس الابتدائية التي تهيىء للمعاهد الثانوية ، وذلك قبل أن تؤسس مدارس جمعية العلماء ، ومدارس حزب الشـــعب والهيئـــات الوطنية الاخرى .

وهنا يكمن سر احتفاظ الجزائر بشخصيتهـــا الاسلامية القوية ، ولو كانت رقعة الجزائر ضيقة ، بحيث يغطيها الاستعمار تغطية معنوية وماديـــة شاملة برجاله ، ثم لو كان الاستعمار لم يجبل على حب التجهيل والتجويع ؛ فبنى المدارس فيالقرى والبوادي ، كما يراها في المدن ، وعمـم التعليـــم فجعله اجباريا ـ ونحن نعرف هنا معنى التعليـــم أثناء عهد الاستعمار ، فانه كان يتمثل في كل ما هو متعـــارض مع تاريخنا وديننا ولغتنـــا وحضـــارتنا وشخصيتنا القومية ـ لاصيبت الجزائر فيشخصيتها بمصيبة كبرى ، ولنكبت في أعز ما اكتسبته عبـــر الازمان البعيدة ، والحقب العريضة .

واذن ، فقد خسر الاستعمار من حيث أراد الربح . واذن ، فقد ربح الشعب الجزائري ربحا تاريخيـــا عظيما بهذا التجهيل ، لان هذا الشعب نجـــا مـــن طغيان الفرنسة والكثلكة والتغريب : أي انه نجـــا من المسخ والذوبان ، وحكمنا هنا ينطبـــق عـــلى سكان البوادي والقرى بوجه خاص ، وهم الـــذين لا يبرحون يشكلون الاغلبية الضخمة من سكـــان الجزائر الى اليوم .

اما ما نرى اليوم من أثر الفرنسيين في مدننـــا ، فانه لم يك ناشئا عن التأثير الاستعماري المباشر ، قدر ما كان ناشئا عن :

1 ـ تعميم التعليم في المدن تعميما مطلقـــا . ونحن نعلم أن تعليمنا لايزال في معظمه بالفرنسية في مختلف مراحله الثلاث ، بالرغم من تعريب بعض الاقسام او المؤسسات هنا وهنـــاك ، فلو كان الطفل الجزائري يدرس جميع المواد التي يتلقاها بلغـــة الضاد لما كانت حاله هذه التي هو عليها الآن .

2 ـ اشتداد الاتصال بالاجانب ، عن طريـــق

(10) راجع تقريرا نشره ابن باديس لعمه السيد احمد ابن باديس ، فانه يشهد بازدراء الفرنسيين للمواطنين الجزائريين . اثار ابن باديس : 4/23 ـ 32 وقد حرر هذا التقرير سنة 1891

ما يقدم في التلفزة . ودور السنيما . وما يكتب في الصحف والكتب والمجلات . ينضاف الى كل ذلك المرافق الحضارية المستوردة من الغرب .

3 ـ هجرة الجزائريين الى أروبا ، من أجل العمل وامتزاجهم هناك بالعمال الغربيين . وخصوصا في فرنسا .

4 ـ وجود جالية فرنسية هنا لدينا . بالاضافة الى المتعاونين الذين لم يبرحوا يملأون الشعاب والرحاب . والارض والسماء .

حقا ، ان العاملين الاخيرين كانا نتيجة حتمية للوجود الاستعماري الذى ابتلى به الشعب الجزائرى مرغما . ولكنه لا أحد يزعم ان الجزائر لن تستطيع أن تتخلص من ذلك في وقت محدد . فمشاريع التصنيع التى تقام اليوم ـ ان صحبها الاخلاص فى العمل والتفانى فيه ـ والتى ستقام مستقبلا أيضا ، من أهدافها ادماج كثير من عمالنا المهاجرين فى أروبا . فى وطننا من جديد . كما ان تعميم التعليم لدينا ، سينتج عنه حتما التخلص من المدرسين الاجانب .

ومن المظاهر الدينية التى كان لها أثر مباشر فى حفظ الشخصية الوطنية من المسخ والفرنسة :

1 ـ الاعياد الدينية التى كانت تقام حسب الطقوس المعروفة بدون تغيير . وخصوصا فىالبوادى التى كانت تتغير تغيرا كاملا فى أيام الاعياد . نظرا لوجود السكان الجزائريين المسلمين وحدهم . أما فى المدن . فكان وجود الاروبيين ينغص صفو هذه الاعياد . ويقلل من بهائها وجلالها . فمناسبات الاعياد الدينية من عيدى فطر ونحر . الى عاشوراء ومولد نبوى ؛ كانت بمثابة الذكريات المنبهة . والايام المذكرة بحقيقة الامة الجزائرية ، وأصلها . وجنسها . ودينها .

2 ـ تأسيس المساجد والاشتراك فى بنائها فى كل حين . فان تلك المناسبات كانت تتيح للامة أن تأتلف وتجتمع على هدف واحد . وتسمح لها بالاستمرار فى وحدتها ، والحفاظ على كيانها .

3 ـ مدارسة العلم . ونحن نريد هنا بالعلم مفهومه التقليدى أو القديم . لا مفهومه الحديث . اذ كان الشبان والشيوخ يتدارسون القرآن والحديث .كما كانوا يتدارسون علوم اللغة من بلاغة ونحو وعروض. ولا يخفى ما فى هذا العنصر من قوة الحفاظ على الشخصية . وصونها من الذوبان . فكانت غاية معرفة النحو واللغة عند علمائنا وطلابنا التقليديين تتفق . أو تكاد تتفق ؛ مع غاية العلماء الاقدمين . فانما كانوا يدرسون ذلك لفهم القرآن والحديث ومدارستهما . فالغاية فى جوهرها كانت دينية . قبل أن تكون علمية . أو مادية . وكان العالم الدينى، أو الفقيه . (كما كان الجزائريون يطلقون عليه) شديد التزمت ظاهر المحافظة . بحيث انك كنت تجد مقرىء القرآن فى القرية يحافظ على هيئة خاصة فى ملابسه وسلوكه داخل المجتمع ، فهو يعفو عن لحيته حتى تطول . وهو يلتزم لباس عمامة وجلباب . وبرنس . وهلم جرا من هذه الاجزاء الاخرى التى تشكل الزى التقليدى الذى لايزال معظم الجزائريين يحتفظون به ، ويحرصون عليه .

فقد نشأ اذن عن مدارسة العلم ، والاحتفال بالاعياد الدينية ، هذا المظهر الذى بالرغم من انه شكلى فى حقيقته ، فان قيمته فى حفظ الشخصية الوطنية عظيمة جدا ، لان الجزائريين فى معظمهم ، ظلوا فى ملابسهم وسلوكهم وحياتهم الاجتماعية ، مستقلين بشخصيتهم ، محافظين على كيانهم . وكان الدين الاسلامى أحد العوامل الرئيسية التى أوحت اليهم بذلك ، بل دفعتهم اليه دفعا قويا ، وشجعتهم على التعلق الشديد بالشخصية الوطنية الاصيلة .

فما أعظم فضل هذا الدين على هذه الامة الكريمة العزيزة ، انقذها من ضلالها فى القديم ، ووحد صفوفها ، وحافظ على كيانها أثناء النكبات المدلهمة والخطوب السوداء ، عبر التاريخ الطويل . ثم كان لها بمثابة الركن الشديد الذى كانت تستند اليه حين ثورتها الكبرى : فكانت تنشد فيه الهامها وسعادتها وحياتها ، فالمقاوم مجاهد ، والذى يخر صريعا فى المعركة شهيد . وهذا المثال وحده كاف لأن يجعل من عنصر الدين الاسلامى ، العنصر الاهم الذى حفظ الشخصية الجزائرية من المسخ والتشويه ، وهيأ لها سبل الحرية التى تنعم بها الآن فى ظل السيادة السياسية .

عبد الملك مرتاض ـ جامعة وهران

التعليم الأصلي في الجزائر خلال العشر سنوات من استرجاع الإستقلال

أحمد درار

ان الجزائر عبر القرون التالية للفتح الاسلامى حافظت على الثقافة العربية الاسلامية بصلابة ليس لها مثيل ، وأغنت التراث العربى بكثير من الشروح والتعليقات ، والمؤلفات الهامة ، وإنتفعت بالتيارات الثقافية العربية التى قدمت اليها من الاندلس والاقطار العربية الاخرى .

وقد كثرت فيها الجامعات ، والمعاهد ، المشهورة التى درس فيها أعلام من أروبا والتى تحطمت كلها فيما بعد ،خاصة أثناء الغزو الصليبى الاسبانى

وفى عصور الانحطاط تلتها الزوايا و الرباطات التى ادت الى ثورات ثقافية قدر لها ان تستمر ردحا من الزمن ، وقد اشتهرت بعض هذه الرباطات بأسماء أصحابها ، وأصبحت مركزا للادب ، والامامة ، والارشاد .

ويقول «بولارد» المؤرخ الفرنسي فى كتابه «التعليم فى الجزائر» (كان فى الجزائر فى القرن الرابع عشر وما بعده مراكز ثقافية باهرة ، وكان فيها أساتذة متمكنون في علوم الفلسفة ، والفقه ، والادب والطب ، والنحو ، والفلك ، وكانت المدارس منتشرة فى ربوع البلاد ، والتعليم فيها دينى ومدنى) .

وحتى فى المدة الطويلة من أيام الاستعمار التى ابتليت بها ، ورغم الضغط والتنكيل برجال العلم، ورغم المصادرة والابادة والعمل على محو كل أثر يجعل من الفرد الجزائرى يشعر بمقوماته ودينه ، اذ أغلق المستعمر المدارس ، واغتصب أوقافها ، ومنع التعليم العربى ، وعاقب بالسجن والتشريد من يمارسه أو يطالب به ، حتى خبت منارات الاشعاع الثقافى ، فقد ظلت الجزائر تبعث بأبنائها لكل مكان تأنس فيه علماء طلبا للعلم واستزادة من المعرفة ، وبفضل الارادة الشعبية ووفاء هؤلاء الابناء البررة استطاعت الجزائر أن تحافظ بكل صلابة على دينها ولغتها ، رغم الحديد والنار ، وبطش المستعمر وجبروته ، ودهائه ومكره ، وتجنيد كل الطاقات لتشويه ماضيها التليد ، وطمس معالمه ، والعمل على فصله عنها ، وفصلها عنه ،

وهكذا كانت الجامعات والمعاهد فى الاول ، ثم المساجد والرباطات (الزوايا) ، ثم المدارس الشعبية الحرة فى المرحلة الاخيرة ، مراكز اشعاع للثقافة العربية الاسلامية ، وقلاعا حصينة للحفاظ على الشخصية الجزائرية الاصيلة .

واليوم وقد استعادت الجزائر حريتها واستقلالها يحق لها أن تستعيد مجدها الثقافى الاصيل، وتتخلص من التبعية الفكرية البعيدة عن الواقع الجزائرى .

كما يحق لها أن تسهم فى بعث التراث الاسلامى وترفع فى ميدان البحوث مشعلها المجدد . وليس من حقل طبيعى لتحقيق هذا الهدف سوى مؤسسات التعليم الاصلى التى تبنت هذا النوع من التعليم ، وعملت على تطويره بما له من أهداف قريبة وبعيدة، ترمى من ورائها الى الرفع من مستوى الفرد الجزائرى روحيا وخلقياً ، وجعله عضوا نافعا بناء ، تكاملت فيه شروط المعرفة والاخلاق ، وتفاعلت فيه مثالية الروح وتفتح العقل .

وضعه بعد استرجاع الاستقلال

منذ انشاء تكميليات وثانويات التعليم الاصلى غداة الاستقلال ، وقد كانت تسمى الى سنة 1390 هـ - 1970 م بالمعاهد الإسلامية للتعليم الدينى ، وهذا التعليم يعمل كخلية حية صادقة النماء ، الا انه فى مراحله الاولى كان يسير ببطء ، بالنظر الى ضحالة الامكانيات وكثرة المتطلبات ، وظل فترة الطفولة يعيش على الامكانيات الخاصة الضعيفة للوزارة من جهة ، والتشجيع الشعبى من جهة أخرى

بيد ان انتفاضة 19 جوان 1965 م وضعت حدا لهذا الوضع الشاذ ، وأوجدت حلا حاسما للازمة التى كان يعيش فيها هذا التعليم ، الذى بذلك أعطى النفس الحقيقى ضمن المخططين الثلاثى والرباعى ، وأصبح قائم الذات كنظائره من المؤسسات العامة ، بفضل ما أولته السلطة الثورية من رعاية وتشجيع ، فخصصت لمؤسساته اعتمادات ضمن ميزانية الدولة ، وصدرت بشأنه

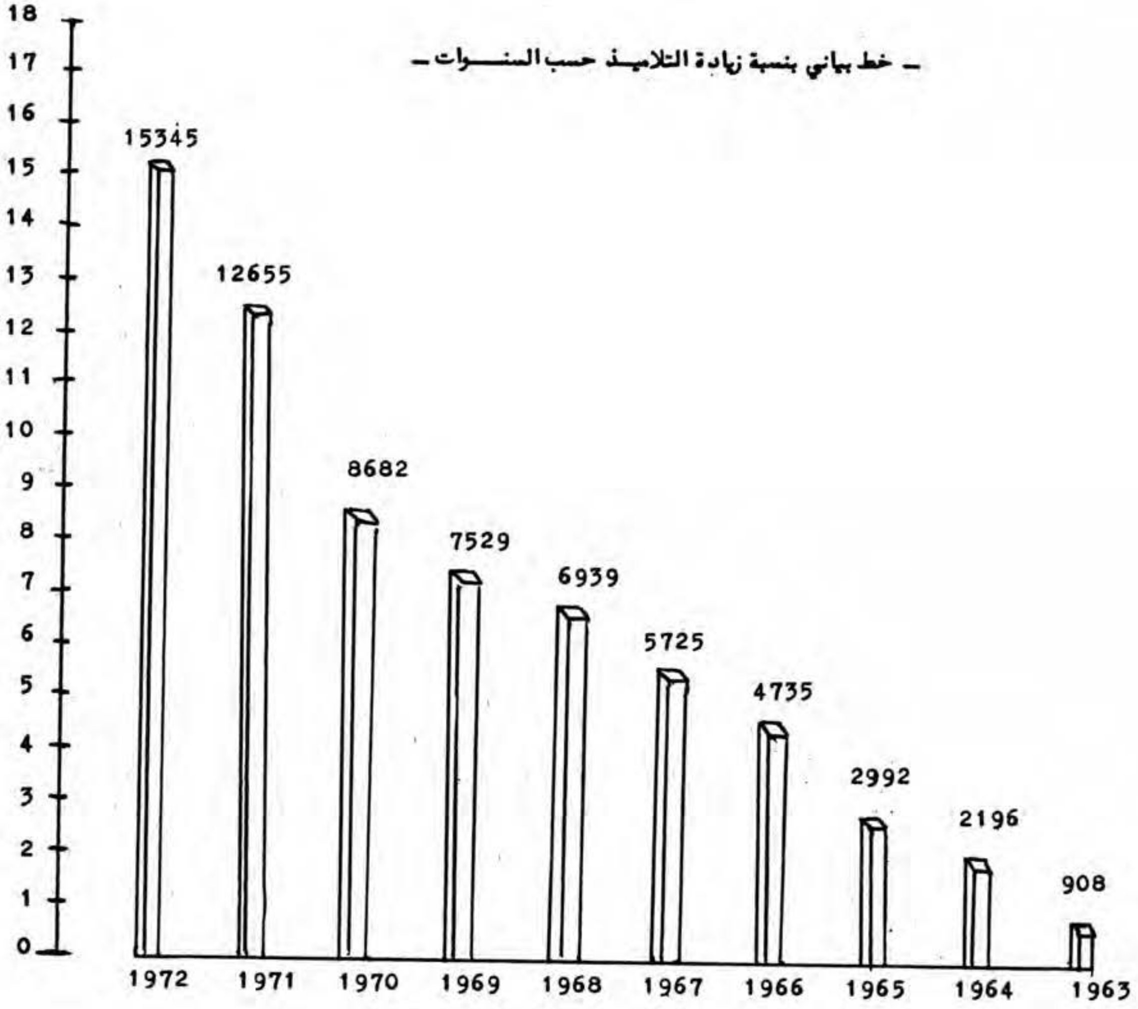
المراسيم الرئاسية للاعتراف بشهاداته ، وتوسيع نطاقه .

لقد كان عدد المؤسسات المخصصة للتعليم الاصلى فى السنوات الاولى من استرجاع الاستقلال سبعا ، ثم تدرج تبعا للاقبال عليه من طرف الشعب فبلغت تكميلياته واحدة وعشرين ، تضم من التلاميذ الذكور (12478) ومن الانـاث (2867) المجموع (15345) ، وفى سنة 1393/92 هـ - 1973 م سيكون عددهم حوالى العشرين ألفا .

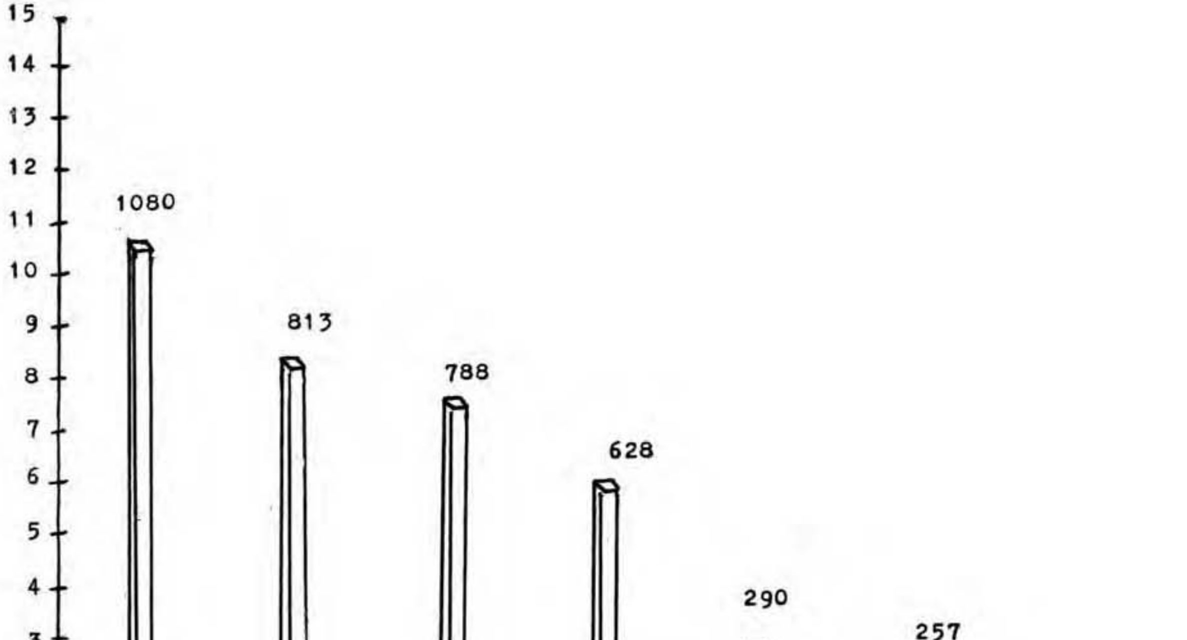
لقد تهيأت هذه المؤسسات منذ عام 1965 م لتخريج الفوج الاول من الطلبة المحصلين على شهادة الاهلية ، ثم أخذ عدد المتخرجين يزداد كل سنة باطراد الى أن أكمل بشهادة البكالوريا فى عام 1971/70 م ، حيث نجحت مجموعة من الطلبة كباكورة أولى لتلك الجهود ، أرسل منها عدد الى فرنسا وبلجيكا للتعليم والدراسة بناء على طلب من سفارتنا فى بلجيكا ، وودادية الجزائريين فى أوروبا والمركز الثقافى الاسلامى الدولى فى بروكسيل ،



منظر جانبى لثانوية التعليم الاصلى بمدينة معسكر



(مقياس (1) سنتيمتر = 1000 تلميذ)



(خط بياني بنسبة الناجحين في شهادة الاهلية حسب السنوات)

والآخر التحق بالجامعات الجزائرية ، أو بالوظيف ، سواء في الادارة أو التعليم لدى وزارة التعليم الابتدائي والثانوي ، حيث يوجد لديها حاليا نحو ثلاثة آلاف معلم ومعلمة في المدارس ، ونحو الالف أيضا في المعاهد التكنولوجية لتكوين المعلمين .

وقد صدر مرسوم تحت رقم : 71 ــ 138 مؤرخ في 18 ربيع الاول عام 1391 هـ الموافق لـ : 13 مايو سنة 1971 م يتضمن احداث شهادة البكالوريا للتعليم الاصلي ومعادلتها التامة بباكالوريا التعليم العام .

ذلك أن التعليم الاصلي أصبح له منهج دراسي كامل ، مستمد من أحدث الطرق التربوية المعمول بها حاليا لدى الدول الشقيقة والصديقة ، روعي في اعداده مبدأ الأصالة والتفتح ، حيث أن برنامجه ــ أي المحتوى ــ هو نفس برنامج وزارة التعليم الابتدائي والثانوي من حيث المواد الحديثة واللغتين الاجنبيتين الاجباريتين ، مع التوسع في الادب العربي ، والتاريخ الوطني ، والاسلامي عامة وبرنامج اضافي يتمثل في تعمق أكبر في علوم اللغة العربية ، وزيادة العلوم الشرعية من تفسير ، وحديث ، وفرائض ، وأصول ، وكلام ، والفلسفة الاسلامية ، وتاريخ الفلسفة المقارن ، وتاريخ الاديان المقارن ، والاتجاهات السياسية ، والفكرية والاقتصادية المعاصرة .

وبذلك يكون المتخرج من هذه المؤسسات مكتمل الشخصية ، متوفرة لديه كافة الامكانيات الثقافية التي تفتح له آفاق المستقبل ، وتمكنه من المتابعة في مختلف الكليات الجامعية ، مع البقاء على أساسه المتين ، الذي يضمن له جميع مكونات شخصيته وعناصر أصالتــه .

الطلبة الوافدون من مختلف البلدان الاسلامية:

ان مؤسسات التعليم الاصلي عملت على أن تكون أبوابها مفتوحة للجميع طبقا للمبدأ والهدف من تأسيسها ، ومنذ الانطلاقة الاولى غداة استرجاع الاستقلال الوطني ، ومنذ أن ذاع عن هذه المؤسسات انها تعنى بالتثقيف الديني والدنيوي،أخذت أفواج من الطلبة الافارقة وغيرهم تؤمها ، وهي الان تحتضن عددا من البلدان الاسلامية أو التي بها جالية اسلامية مثل : السنغال ، فولتا العليا ، غينيا ،ساحل العاج،الكونغو موريطانيا ، غينيا (بيساو) ، السودان ، سيراليون ، غامبيا ، أرتيريا ، تانزانيا ، نيجيريا ، النيجر ، مالي ، الصومال ، تشاد ، تايلاندة ، وهم يحظون بالنظام الداخلي ، وبمنحة دراسية من طرف الوزارة تضمن كل الالتزامات الدراسية .

وقد تحصل الفوج الاول من هؤلاء على شهادة الاهلية للتعليم الاصلي وهم الآن يتابعون المرحلة الثانية من التعليم الثانوي .

وضعية المباني الخاصة بالتعليم الاصلي :

ان وضعية مباني التعليم الاصلي في مستهل حياتها كانت مهلهلة ، ينقصها الكثير من المرافق الضرورية للتدريس ، غير انها بمرور الايام لمستها يد الاصلاح فأعيد جل مبانيها ، وحول بعضها الى بنايات حديثة كتكميليات وثانويات جديدة من الاساس ، وبنى العدد الاكبر منها أخيرا مما سمح

باحتضان أكبر عدد ممكن من التلاميذ وفق مراحل مـــدروســـة .

الثـانويـــات الجـديدة :

وهكذا بالاضافة الى العدد المشار اليه آنفا ، فقد تم بناء ثانويات جديدة طبقا للتصميم العصـــرى ، مجهزة بالمخابر ، وقاعات العرض ، مشتملـة على النظام الداخلى .

وهذه الثانويات ستشرع فى العمل فى العـــام الدراسى 1973/72 م فى كل من :

- **قسنطينـة**
- **وهـــران**
- **تيزى وزو**
- **سطيـف**
- **بجـــاية**
- **معســـكر**

هذا وفى السنة التى تليها 1974/73 ستفتـــح ثانويات فى كل من :

- **بســـكرة**
- **تيـــارت**
- **سعـــيدة**
- **آدرار**

وستخصص المؤسسة الحالية بآدرار لاستقبال من فاته السن الدراسى من حفظة القرآن الكريم من الجزائريين بصفة خاصة ، لتكوين الاطارات الدينية من جهة ، وللوافدين الافارقة الذين لا تسمح لهـم سنهم بمتابعة الدراسة النظامية فى الشـــانويـات الاخرى من جهة ثانيـــة .



ثانوية التعليم الاصلى بقسنطينة



منظر جانبى
لثانوية التعليم الاصلى
بقسنطينة

مؤسســـــات بصـــدد البنـــاء :

وهناك مؤسسات جديدة أخرى بصدد البناء وهي:

ـ ثانوية الذكـــور بتلمســـان

على أن تخصص المؤسسة الحالية (دار الحديث) للبنات . والعمل الآن جار بها لتحسينها ، والقسم الداخلي بها على وشك الانجاز .

ـ ثانويـة العاصمة للذكور

على أن تخصص المؤسسة الحالية للبنات بعـد أن تحور وتوسع ، وينشأ بها القسم الداخلي .

ـ ثانوية آقبـــو للبنـــات

وقد تقرر انشاء ثانوية داخلية للبنات بالمدية ، وبذلك ستكون لنا أربع ثانويات داخلية مخصصة للبنـــــات .

- **ثانوية الاصنام**
- **ثانوية تمنراست**
- **تكميلية ندرومة**
- **تكميلية المسيلة**
- **تكميلية قنـزات**
- **تكميلية البيض**
- **تكميلية المشرية**

وعلى ضوء كل هذه الانجازات خلال عشر سنوات من استرجاع الاستقلال نرى أن التعليم الاصـــــلى قد خطا خطوات عملاقة فى طريق البناء ، ويعمل فى نفس الوقت على مواكبة الركب الحضارى بمعطيـات العصر ، ليكون مهدا أمينا للحفاظ على الشخصيـة الجزائرية.وينبوعا غزيرا المدد يضمن للشباب حفاظه على أصالته ، وارتباطه بماضيه ، وحظه الوفير الزاهر فى مستقبلـــــه .

التعليـم الاصـل العـــالى

ان انبثاق كلية للشريعة والقانون المقارن،واخرى فى أصول الدين وتاريخ الاديان المقارن،وثالثة فى اللغة العربية وآدابها وبعض اللغات القديمة،فى كل من **قسنطينة،والعاصمة،ووهران**، كنواة لجامعة اسلاميـة شاملة فى المستقبل القريب،تضم جميع الكيات الاخرى كالطب ، والصيدلة ، والاقتصـــاد ، والـــــزراعـة ، والهندسة ، والعلوم الانسانية الخ ، سوف تثـــرى الوطن بعناصر واعية ، مشبعة بالروح الثقافيـــة الدينية متفهمـة لاسرار الاسلام الى جانب العلـوم العصرية ، وهى مرحلة طبيعية يرتقى اليها ويتوج بها التعليم الاصلى بعد التكميلى والثانوى ، كنتيجة حتمية وملحة ، على غرار جامعة الازهر بالقاهـــرة ، التى تضم مختلف الكليات الموجودة فى أغلـــب الجامعات الاخرى ، مع اضفاء الطابع الدينى الـذى يجعلها مميزة بمرونة خريجيها ، واتساع أفقهـــم وتشبعهم بالروح الدينية والاخلاق الفاضلة ، ممـا يزيد من كفاءتهم وقدرتهم على ممارسة الاختصاصات وتحمل المسؤوليـــات .

ان وجود مثل هذه الجامعة فى الجزائر المسلمة ، ليس وليد فكرة اعتباطية ، بل هى حقيقة فرضتهـا حقائق المبادىء التى ندين بها ، والاهداف العليـا للوطـــن .

كما ان لها من أصالة الشعب عبر التاريخ أكثـر من سبب ، فلا غرو أن يعمل التعليم الاصلى عـــلى

انبعاثها وتجسيدها ، لا من باب الاقتداء فحسب ، بل لاثراء الافكار والعقول ، وعن اقتناع بأن وجود جامعة اسلامية بالجزائر ، هو بمثابة الروح للجسم والسماد للتربة ، اذا أردنا أن نوفر لكل منها القوة والمناعة ، والخصب والنمـــاء .

وبذلك نسترجع أيضا ما كان لنا في ماضينـــا المجيد من جامعات مشهورة ومعاهد زاهرة ساهمت في اثراء التراث الاسلامي وفي الحضارة العالميـة ، في قسنطينة ــ وقلعة بني حماد ــ ومسيلة ــ وبجاية ــ والجزائر ــ ومازونة ــ وتيهرت (تيارت) ــ ووهران وتلمسان ــ وندرمة ــ وطبنة ــ وبسكرة ــ وورقلة وغـــيرها .

ان مثل هذه المؤسسات الجامعة بين الدين والدنيا يوجد اليوم حتى في أروبا الشرقية ، فضلا عـــن الغـربية ، (في بلجيكا وفرنسا مثلا) وليـس في الشرق العربي فحسب ، كما يبدو ، وكمثل على ذلك ما جاء أخيرا في المجلة الاسبوعية المسماة (الاخبار الكاثوليكية الدولية) التي تصدر في باريس ، فقد جاءت فيها رسالة من طالب في كلية من كليـــات اللاهوت (أصول الـدين والعلـوم الـدينية) في يوغوسلافيا ينتقد فيها المجلة المذكورة لانها كتبت (أن في يوغوسلافيا كلية واحدة للعلوم الدينيـــة ، والحقيقة أن فيها أربع كليات للاهوت من هـــذا النوع في مدن مختلفة من البلاد) .

وقد عقبت المجلة المذكورة على رسالة القـارىء اليوغوسلافي بأنها اذ تعتذر عن خطئها ، تهـنىء نفسها بهذه المعلومات السارة المشجعة ، وتشـكر القارىء على تزويدها بها .

ان الاهتمام بالقطاع الديني في البلاد الشيوعيـة لا يقتصر على يوغوسلافيا وبولونيـا ، فجمهـورية ألمانيا الديمقراطية هي الاخرى تعنى بهذا القطـاع اذ يتمتع التعليم اللاهوتي لديها بالموارد التالية :

1 ــ الاوقـــاف

2 ــ ضريبة الكنيسة ، التي يدفعها كـــل موظف وكل عامل ، والتي تؤخذ رأسا من المورد .

3 ــ اعتمادات مخصصة من الدولة .

واذا كان هذا في بلاد شيوعية ، فماذا نقول نحن عن بلادنا التي دينها الرسمي الاسلام ، وحافظت على نفسها بالاسلام طيلة محاولات المسخ ، والتشويه والادماج ، وكافحت واسترجعت استقلالها بالاسلام؟

ان الاقتصار على ثمرة التعليم الاصلي بمرحلتيـه التكميلية والثانوية سيبقى عملا ناقصا ، ان لـــم يعزز بالتعليم الاصلي العالي ، الذي لا منطلق له الا من رحاب جامعة اسلامية ، تتلاءم ومتطلبات العصر الحديث ، وتستجيب لحاجيات البلاد الى ذوي الخبرة والاقتدار ، في ميدان الدعوة والتوجيه ، ونشـــر التعاليم بما تدعو له من أخلاق وفضيلة ، ومثـــل اسلامية عليا ، تساعد على خلق جيل متكامل ومجتمع فاضـــل .

النشـــاطـات المدرسيـــة :

ان هذه المؤسسات على الرغم من حداثة سنها ، استطاعت أن تنجب فرقا عديدة في مختلف النشاطات المدرسية ، وتسهم بقدر جزيل في ميدان الفنـــون والآداب والتوجيه ، والتربية .

ان كل مؤسسة لديها نخبة من الاساتذة من ذوى الاختصاص تشرف على رعاية الفرق المختارة من مجموع الطلبة وفق الميول والرغبات تحت اشراف ادارة المؤسسة .

وهذه الفرق هى : الخطابة ـ المحاضرات ـ التوجيه والارشاد ـ الشعر ـ التمثيل والمسرح ـ الرسم والنحت ـ الخياطة والتطريز ـ الصحافة والنشر ـ الرياضة البدنية بألوانها .

وقد عكفت هذه الفرق على ممارسة اختصاصاتها وفق جدول زمنى ، محدد لا يضر بسير الدراسة ، ولا يضغط على ساعات المراجعة ، وتمخضت هذه الجهود عن بواكير فنية صادقة ، وكشفت عن طاقات لا تخلو من ابداع ، فى عدة مجالات منها :

فرق الثقافة التى تعنى بشؤون الخطابة والمحاضرات ، والتدرب على الكتابة فى شتى المواضيع الادبية ، وقد تمكنت من ابراز خامات دسمة ، وأقلام غزيرة ، استطاعت أن تقدم انتاجا حسنا صالحا للنشر ، وقد يتسع المجال فى هذه المجلة لتخصيص ركن لنماذج من هذا الانتاج .

أما فرق التوجيه ، والتربية ، والارشاد ، فانها تعمل على تنمية الجانب الروحى ، بحكم ايمانها برسالة التعليم الاصلى ودوره الكبير فى معركة التعريب ، والعودة بالامة الى الاصل الذى هو أساس شخصيتها ، والدعامة المتينة لمقوماتها ، وللتخلص من العادات النابية عن تقاليدنا ، فان هذه اللجان قامت ومازالت تقوم بحملة توعية شاملة ، انطلاقا من المسجد الى كل مكان يقام فيه نشاط ثقافى ، طبقا لما نادت به السلطة الثورية فى بلادنا ، كهدف يجب تحقيقه .

وهكذا فقد كان للدروس والمحاضرات التى ألقيت فى المساجد والاندية ، والمساهمة الفعالة فى حملة محو الامية ، والمواضيع الاخرى المقترنة بالمناسبات الدينية والوطنية ، عامل ايجابى فى الدلالة على الدور الذى تلعبه هذه اللجان فى معركة التعريب والتوعية .

كما ان الفرق الاخرى لا تقل شأنا فى ولوعها بما تقدمه من انتاج وفق اختصاصاتها ، ففرق الموسيقى والشعر عملت على تقديم أناشيد وطنية ودينية ، ومقطوعات شعرية فى شتى الاغراض بحسب المناسبات ، وفى مجلاتها الداخلية والتى تتبادلها فيما بينها وترسل منها الى الوزارة .

وكذلك بالنسبة للتمثيل والمسرح ، فأن فرقها قدمت مسرحيات تاريخية ، واجتماعية ، تعالج عدة قضايا ، عرض بعضها فى التلفزة الوطنية ، وبعضها فى الاحتفالات المدرسية وغيرها ، وأحرزت على اعجاب الملاحظين ، وحازت قصب السبق فى ميدان المسابقات بين الثانويات على مستوى الولايات .

أما فى ميدان الرسم والنحت ، والفنون الجميلة ، فقد أظهرت هذه الفرق امكانيات مبدعة ، بما قدمته من لوحات زاخرة بالحياة تنم عن مواهب كامنة ، ويصح القول فيها انها محاولات ناجحة تدل على ولوع أصيل وجهد وعرق أيضا ، اذ أن العبقرية ، كما يقول الالمان ، تتكون من عنصرين

اثنين : واحد في المائة موهبة ، وتسعة وتسعين في المائة جهد وعرق !

ان هذه اللوحات تمثل صور الشخصيات العلمية والسياسية والوطنية عبر التاريخ ، ومواقف تاريخية كما قامت برسم خرائط جغرافية مختلفة ، عالمية ، واقليمية وغيرها في شتى الاغراض ، ولم تهمل هذه الفرق جانب التصوير المجسم ، والنحت ، بالاضافة الى رسم أجمل المعالم والمناظر الطبيعية في البلاد ، على اختلافها ، واشكال التطريز الهندسي البديع ، وسنخصص قريبا معرضا لهذه الباكورات.

أما فرق الرياضة البدنية ، فقد كان لها حظ وفير من العناية والاهتمام ، لما لها من أثر بالغ في الابدان والنفوس ، وهي تمارس مختلف الالعاب الرياضية ، ككرة القدم ، وكرة السلة ، وكرة اليد والكرة الطائرة ، والعاب القوى ، وقد زودت بالمعدات العصرية اللازمة لمثل هذا النشاط .

شاركت هذه الفرق في مباريات رياضية ، ففاز بعضها في سباق العدو الذي اقيم على المستوى المدرسي داخل التراب الوطني ، كما فاز بعضها الآخر في كرة القدم على نفس المستوى في جهات اخرى .

ان هذه البراعم والبواكر سواء في الرياضة ، أو الفن ، في الادب ، أو في التوعية ، ستنمو ويشتد عودها ، بما يؤهلها لاقتعاد المكانة اللائقة بها في المستقبل حسب اختصاصها .

الخاتمة

ان التعليم الاصلي بمؤسساته العاملة ، وانبعاث جامعة اسلامية منبثقة عنه في القريب ، سيوفر ولاشك حاجياته من الاساتذة ، وتطعيم المجالات التربوية الاخرى بذوي الاختصاص منهم ، ويهيء عناصر صالحة في كثير من القطاعات .

ومن ناحية أخرى لا يخفى على الاذهان ما تتعرض له اليوم من تيارات دخيلة بعيدة عن طبيعتنا ، ومن غزو فكري يهدف الى ابقاء السيطرة الاجنبية والنفوذ الاستعماري ، ونحن الآن بحاجة ملحة الى دعاة مرشدين اسلاميين واعين بما يحيط بهم ، ومتفتحين على العالم دون تهيب أو انحراف .

ان الجزائر التي كافحت بصمود ، وكانت قدوة حسنة في كفاحها الوطني بالنسبة لشعوب افريقيا تشعر اليوم بأن عليها واجبا أكبر وأبعد شأوا في أن تظل تلك القدوة الرائدة في طريق المثل العليا والاخلاق السامية لبعث جيل واع يقظ .

من أجل هذا وغيره من الاهداف المتعددة ، كان العزم معقودا على النهوض بهذه المؤسسات وجعلها في مستوى نموذجي يسمح باتاحة المنطلق الطبيعي كي تثمر بالنتيجة المرجوة منها في أقرب وقت وأيسر سبيل .

السلك الدينى فى الجزائر خلال العشر سنوات

واجبات
وحقوق

محمد الصغير بلعلام

دور المسجد والامام فى الاسلام عامة

كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو الامام الاعظم لهذه الامة والمؤمنين فى كل نواحى الحياة الدينية والدنيوية، فهو امامهم فى المحراب، وقائدهم فى المعارك، ومعلمهم فى المسجد، ومربيهم ومرشدهم فى حلهم وترحالهم ، وعندما انتشر نور الدعوة الاسلامية ، وعم الآفاق، وكثر عدد المعتنقين للدين الجديد من مختلف المناطق والشعوب ، واحتاجوا الى من يفقههم فى الدين كلف الرسول صلى الله عليه وسلم بعضا من صحابته للقيام بهذا الدور الجلل ، دور الامامة لاولئك المسلمين الجدد ، من ذلك ارساله لمعاذ بن جبل رضي الله عنه ، الى اليمنيين، ليعلمهم دينهم ، ويبين لهم الاحكام ، ويؤمهم فى الصلاة ، كما ارسل قبل الهجرة الى المدينة مصعب بن عمير رضي الله عنه ليؤم المسلمين من اهلها فى صلواتهم، ويعلمهم شريعة الدين وشعائره ، وكان لهذا الامام الاثر البين فى نشر تعاليم الاسلام فى ربوع المدينة واجتذاب اهلها اليه ، اذ استطاع هذا الصحابى الجليل الذى اتخذ من دار اسعد بن زرارة مسجدا باسلوب الداعى، الواعى لمهمته ومنهج المرشد اليقظ ان يؤدى رسالته على الوجه الاكمل .

وكما كان الرسول (ص) هو الامام الاعظم للامة كان كذلك الخلفاء الراشدون من بعده ، ثم من بعدهم من الخلفاء طوال العهود الاسلامية الزاهرة ، وفى هذا يقول الامام ابن تيمية : (وقد كان من السنة ان الذى يصلى بالمسلمين الجمعة والجماعة ويخطب بهم هم امراء الحرب ، الذين هم نواب ذى السلطان على الجند ، ولذا لما قدم النبى (ص) ابا بكر فى الصلاة قدمه المسلمون فى امارة الحرب وغيرها ، وكان النبى (ص) اذا بعث أميرا على حرب كان هو الذى يؤمره للصلاة وكذلك اذا استعمل نائبا على المدينة » ·

وكان الخليفة أو الامير يكلف بامامة الناس من يرى فيهم الصلاح والكفاءة والمقدرة على القيادة ، اذ ما الامام الا قائد للمجتمع الذى يعيش فيه ، كما كان هناك المتطوعون لاداء هذه المهمة الجليلة بدافع من ايمانهم وعقيدتهم ·

ولقد انتشر هؤلاء واولئك فى كل البقاع الاسلامية واستطاعوا بما اوتوا من الايمان ان ينشروا تعاليم الاسلام بين ابناء كثير من الشعوب التى تختلف لغة وحضارة وتقاليد ، ولكن الاسلام جمعها كلها وصهرها فى بوتقته ، وجعل منها جميعها خير أمة اخرجت للناس ، ومنذ ان بدأت الخلافة الاسلامية تتخذ لونا جديدا فى الحكم ، وتبتعد شيئا فشيئا عن المنهاج الاسلامى الصحيح فى الخلافة ، بدأ دور الخلفاء الدينى يضعف وتقل أهميته ليترك مجالا لدور الائمة العلماء الذين انتدبوا انفسهم لتعليم الناس ونشر المبادىء والمثل الاسلامية فى كل مجالات الحياة المادية منها والروحية ، فبدأ الائمة الاعلام أمثال مالك ، وابن حنيفة ، والاوزاعى ، وسعيد بن المسيب ، والحسن البصرى ، والبخارى ، ومسلم ، والشافعى ، واحمد بن حنبل ، وسفيان الثورى ، الى آخر تلك السلسلة الذهبية فى تاريخ الاسلام والمسلمين يقومون بهذا الواجب ·

لقد قام الامام طوال العصور الاسلامية بالدور الايجابى الفعال ، وكان تاثيره الروحى والنفسى على المسلمين اكثر من اى كان ، كما كانت له قوته الذاتية وقوته الخارجية المنبعثة من صدى دعوته فى قلوب ماموميه ، كما كان محل الثقة والتقدير فى مختلف فئات المجتمع الذى كان يعتبر الامام مرجعا له فى كل ما يتصل بشؤون حياته ·

واذا تكلمنا عن الامام ، والامامة فلابد من ان نتكلم عن المسجد الذى كان مهد الحضارة الاسلامية فيه ترعرعت ونمت ، ومنه سطع نورها الذى اكتسح ظلمات الجهل والطغيان والاستبداد والاستعباد ، « لقد كان المسجد فى الاسلام وخاصة فى عهوده الزاهرة هو كل شىء ، حيث كان مقرا للعبادة ، ومكانا للاجتماعات والشورى ، ومجلسا للحكم ، ومجلسا للحرب ، ودارا للقضاء ، ومعهدا لتعليم كل من الكبار والصغار ، وجامعة تخرج منها كبار العلماء والفلاسفة الذين سطروا مجد الحضارة العالمية الحديثة ·

– وذلك ان الاسلام عبادات ومعاملات ، ودين ودولة ، ونظام واحكام ، وحضارة وحياة · »

– ولم يكن المجتمع الاسلامى غافلا عن ذلك بل كان يرى ان حياته كلها مقترنة بالمسجد ان فقده فقدها فهو فوق كل ما ذكرنا نقطة التقاء ابناء هذا المجتمع الاسلامى فى رحاب الله وفى ظلال العقيدة ، ولذا كان أول عمل قام به الرسول (ص) بعد الهجرة الى المدينة هو بناء المسجد النبوى الذى اصبح مركز الدائرة للمجتمع الجديد والذى صدرت عنه ورجعت اليه كل توجيهات المجتمع المسلم الناشىء ·

ولقد اتبع المسلمون بعد الرسول (ص) هذه السنة

فكان أول عمل يقومون به بعد أي فتح هو تأسيس المسجد الذي هو المظهر الاساسي لشخصية الدولة الجديدة • ونجد ان عمر كان يأمر الولاة ببناء المساجد في كل بلد يفتحونه ، كتب بهذا الى ابى موسى الاشعرى فى البصرة ، والى سعد ابن ابى وقاص فى الكوفة ،والى عمرو بن العاص فى مصر ، والى اجناد الشام ان يتخذوا فى كل مدينة مسجدا ، ومع اتساع رقعة الدولة تكاثرت المساجد حتى لم تبق قرية أومدينة خالية منها ، ولقد قامت هذه المساجد بدورها احسن قيام ، ووفت بمتطلبات الامة وحاجياتها فى الثقافة والعلم والقيادة والتوجيه بفضل جهود المخلصين من الائمة والدعاة •

ولم يقتصر دور المسجد على نشر نور العلم والعرفان والمحافظة على العقيدة ، بل كان للمسجد طوال التاريخ الاسلامى الدور الفعال لجمع كلمة المسلمين ، وتحقيق الوحدة والتضامن لمواجهة الاخطار التى تعرضت لها الامة الاسلامية فى مسيرتها ، ففى هذه المساجد كانت تعقد الندوات لوضع الخطط الحربية ، بل كانت تتخذ معسكرات للتدريب الحربى الى جانب التدريب النفسى ، وكان الامام هو القائد الذى تلتف حوله الجموع لتتزود منه بما يؤهلها للمقاومة ، وما يعدها للاستبسال ، ويحفزها الى التضحية فى سبيل الله عندما يدعو داعى الجهاد ، ولعلنا نتذكر ونعلم جيدا ان جيوش الفتح الاسلامى كلها من عهد الرسول الى عهد الخلفاء الراشدين والدول الاسلامية التالية كانت تجهز فى المساجد ومنها تنطلق الى ساحات القتال وكلمة الله اكبر تسبقها •

دور المسجد ولامام فى الجزائر خلال التاريخ حتى الغزو الفرنسى :

ولقد كانت مساجدنا أصدق مثال على ذلك ، اذ كانت هي المراكز التى انطلق منها مجاهدونا طوال تاريخنا الحافل بالصراع وبالمعارك الطاحنة ضد الغزوات الصليبية التى كانت شواطئنا مسرحا لها ومنذ الف سنة كان الامام ابو مروان البونى اماما فى المسجد ، وقائدا للمعارك التى تدور رحاها على شواطىء عنابة (بونة) بل ان هذا الامام المجاهد ، حرصا منه على ان يكون فى اتون المعارك ولا يقودها من الخلف اتخذ مسجده رباطا وثكنة على البحر حتى يكون على بينة من كل شيء • وعندماتعرضت بلادناللغزو الفرنسى فى سنة ١٨٣٠ انتدبت له صفوة من ابناء المساجد تقود جموع المواطنين للجهاد فى سبيل الله ، وفى سبيل الدفاع عن كرامة هذا البلد ومقدساته ، وعلى رأس هؤلاء جميعا الامير عبد القادر الذى أعلنالجهاد فىمسجد المبايعة بمدينة معسكر ، ثم من جاء بعده من المجاهدين أمثال السيدة فاطمة نسومر ، والشيخ الحداد واولاد سيدى الشيخ وغيرهم من ابطال هذا البلد المجاهد الذى ضرب أروع الامثلة فى الفداء والتضحية والبطولة فى سبيل الوطن والعقيدة •

دور الامام اثناء الاحتلال الفرنسى :

وعندما استتب الامر للمستعمر فى بلادنا وتمكن من اخماد جذوة الكفاح الى حين ، ادرك هذه الحقيقة ، حقيقة المسجد وما يمثله بالنسبة للمسلمين فعمد الى الاستيلاء عليها جميعا ، ووضعها تحت تصرفه ليهدم منها عددا كثيرا ، ثم ليحول الباقى الى كنائس ، وهذا هو الاغلب ، ارضاء للحقد الصليبى الاسود على الاسلام والمسلمين ، وحول الباقى الى متاجر ومخازن ، ولم يترك الا القليل منها للمسلمين ، ليؤدوا فيها شعائرهم الدينية ، ثم عمد بعد ذلك الى مصادرة الاوقاف الاسلامية التى كانت تمول المؤسسات الدينية والتعليمية فى البلاد

بما تحتاج اليها لتقوم برسالتها ، وفى هذا المجال اصدر الجنرال كلوزيل غداة الاحتلال قرارا بتاريخ ٧-١٢-١٨٣٠ يقضى بالاستيلاء على أوقاف المسلمين فى الجزائر لفائدة المعمرين الاجانب الراغبين فى الاستيطان بالجزائر ، ولقد بلغت هذه الاوقاف قبل الاحتلال ٠٠٠ر٠٠٠ر٢ من الهكتارات من أحسن الاراضى و ٢٠٠٠ عمارة ٠

ولاضعاف جهاز الدعوة وتضليل ابناء شعبنا عمد المستعمر الى توظيف عدد من عملائه فى المساجد واسندت هذه المهمة الجليلة الى هذه الجماعة التى لا تمت الى الدين بصلة فى اكثر الاحيان مكافأة لهم على خدمات أدوها له ٠

ولقد كان هؤلاء الائمة فى عهد الاحتلال يلقون بالحرف الواحد نص الخطبة الذى كان ياتيهم من اسيادهم أمثال (القوفير نور جنرال) وكان هذا النص موجها بالدرجة الاولى الى قتل روح المقاومة وتخدير ابناء الشعب وتضليلهم ، بل لقد كان فى بعض الاحيان دعوة صريحة الى الاستسلام والرضوخ للامر الواقع ٠

تقول جريدة البصائر عن اختيار رجال الدين فى ذلك العهد البغيض « وأما رجال الدين عندنا فقد اختارتهم حكومة لائكية متسلطة وما اختارتهم الا بعد ان ارتضتهم بميزانها لا بميزان الاسلام ، وراعت فيهم شروطها لا شروط الاسلام ، وما رأيناها تحفل فى هذه الوظائف بالعلم ولا بالكفاءة الدينية ، وانما تحفل بشىء واحد هو ما يشهد به « الدوسي » ، وما عهدنا موظفا من هؤلاء جاءته الوظيفة وهو فى داره من غير ان يسعى لها سعيا ، بل ما وصلت الحكومة حبلهم بحبالها الا بعد ان اتخذوا لها الاسباب ، وطافوا بالابواب ، وما زلنا نقول : ان الحكومة تحتفظ بهذه الوظائف الدينية لاصحاب الخصائص



مسجد حسن باى فى قسنطينة ، نموذج للمساجد التى حولتها ارادة المستعمر الى كنائس ، واعيدت الى ما اسست له بعد استرجاع الاستقلال



المدرسة الوطنية للاطارات الدينية ببلدة مفتاح ـ الواجهة الامامية

المطلوبة لها ، وانها فى حقيقتها مصائد لا وظائف ، وانها لا تدفع لهم الاجور على الصلاة والاذان ، فسواء عليها أصلى المسلمون أم لم يصلوا وانما تدفعها لغايات ومقاصد يجمعها قولك « القيد والصيد » ، ومحال على الحكومة أن تطعم ثمرها ، من يعصى أمرها وقد قرأنا فى محاضر المجلس المالى القديم اسماء عجيبة لاجور هذا النوع من الموظفين، أليس تسليم الحكومة المساجد الى هؤلاء الموظفين تسليما من الحكومة الى الحكومة ؟٠ وهل يستطيع واحد من هؤلاء ان يعصى لها أمرا ولو كان فيه خراب الكعبة » ؟ (١) ٠

واذا كان الائمة فى المساجد الحرة وفى بعض الزوايا التى لم يسيطر عليها الاستعمار قد قاموا بنشر تعاليم الدين الصحيحة وبمهمة التوجيه والقيادة الفكرية بل والعسكرية للمواطنين وتعليم النشء القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة واللغة العربية وتاريخ الاسلام وحضارته ، فان ائمة المساجد التابعة للادارة فى عهد الاحتلال كانوا أبواقا للاستعمار وصنائعه وكانوا فى أغلب الاحيان يقومون بالجوسسة لحسابه ، وهذه حقيقة شهد بها المستعمر نفسه ، يقول « بيرك » ، أحد أقطاب ادارة الشؤون الاهلية فى عهد الاحتلال ، وهى الادارة التى كانت تقوم بتنصيب وعزل رجال الدين ، يقول فى مجلة « البحر المتوسط » جزء جويليت ـ أوت ١٩٥١ ـ ما ترجمته الحرفية : « ان خطأنا الفاحش فى سياستنا الدينية منذ عشرين سنة، هو اننا تساهلنا فى وجود موظفين دينيين فى المساجد يسيطر عليهم الجهل المركب والطمع وعدم التهذيب ولا حد لرغباتهم فى ان يحمدوا بما لم يفعلوا » ٠

فعدم الكفاءة والمبالغة فى الخضوع والانقياد هى الشهادات الوحيدة التى يمكن لهم أن يعتزوا بها ٠

لقد رأينا مفتيا يستفتى الطيب العقبى فى موضوع صبيانى ، حكم فيه علماء الدين اكثر من مائة مرة ، لكن هذا المفتى كان جاسوسا مخبرا للبوليس ، كما سمعنا أحد الموظفين الدينيين فى مؤتمر عام يظهر فكرة من الافكار البالية التى يمجها الذوق ، حتى انفجر زملاؤه التونسيون والمغاربة ضحكا لم يستطيعوا له دفعا ، لكن هذا الموظف الدينى ممن لا يكادون يفارقون مكاتب البوليس ، ورأينا أحد الجزائريين لم تمكنه معلوماته القرآنية التافهة من اتقاء اغلاط فى الحفظ والتجويد لاتصدر عن أقل المسلمين علما لكن هذا الحزاب كان عونا مأجورا للانتخابات (٢) ٠

ويعلق الشيخ محمد البشير الابراهيمى على هذه الشهادة فيقول « وباليته (بيرك) زاد فى التمثيل للوقائع الشخصية سرقة اكفان الموتى يوم كانت الاكفان « مقسطة » ! فقد سرق امام قماش الاكفان فلما تحققت التهمة رفعته الحكومة من منصب امام الى منصب مفت » (٣) ولم تقتصر سيطرة المستعمر على المساجد الحكومية بل لقد امتدت الى بعض الزوايا فسارت فى ركابه وعملت لحسابه كما قامت بعض الزوايا بنشر الشعوذة والخرافات بين ابناء الشعب لتجهيلهم واطفاء جذوة الحماس للدفاع عن تراثهم وترابهم ٠

لهذا كله لم تكن المهمة التى قامت بها وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية للاصلاح والنهوض برجال السلك الدينى سهلة أو ميسرة ، وسوف نرى فيما يلى بعض ما قامت به الوزارة فى هذا الميدان ٠

1) صفحة 67 من كتاب عيون البصائر للشيخ محمد البشير الابراهيمى .

2) عيون البصائر صفحة 202 ـ

3) المرجع السابق صفحة 203 .

المسجد والامام بعد استعادة الاستقلال :

لقد شهدت الجزائر بعد استعادة استقلالها نهضة دينية شاملة عمت مختلف ارجائه ساهمفيها المواطنون بمجهود كبير ومشكور فلم يبخلوا على هذا القطاع من النشاط الوطنى بأى شىء يمكن ان يقدموه له ، فاقيمت البيوت التى اذن الله ان ترفع ويذكر فيهـا اسمه فى الاماكن التى كانتمحرومة منها من قبل بأموال وجهود المواطنين مع مشاركة رمزية فى كثير من الاحيـان من الوزارة ، كما انشات الوزارة بعضا من هـذه المساجد من ميزانية الدولة ، نذكر منها مساجد : الابيار ، وسعيدة ، وعين الحمام ، وذراع الميزان ، وعين طاية ، وكركار ، وبلولى ، وقم الطـوب ، وسريانة وتقلفال ، وسـطيف ، وبرجبوعريريج ، وتندوف ، والامام مالك فى وهران ، وغيرها ، وهى الآن بصدد بناء مسجدين فى الجـزائر العاصـمة ، احدهما فى حي حيدرة ، والآخر فى حي محي الدين ، كما سيشرع قريبا فى بناء مسجد تامنراست الكبيـر وقبل ان ننهى الكلام عن هذه النقطـة نشيـر الى ان تجهيز المساجد كلها من فرش ، وكهرباء ، وماء ، ومصاحف ، وكتب ، الخ تقوم به الوزارة فى اطـار البند الخاص بهذا فى الميزانية العامة ٠

والشىء الذى يجب ان ندكره هنا هو ما قـامت به اللجان الدينية التى كونتها الوزارة فى مختلف انحاء الوطن للاشراف على بناء المسـاجد ، وترميمها ، وتصليحها ، من مجهود ضخم فى هذا الميدان ، ساهم فى دفع عملية النشاط فى هذا القطاع خطوات شاسعة الى الامام ٠

لقد أصبحت كل قرية وكل مدينة فى بلادنا ورشـة لبناء المساجد التى حرمت منها من قبل المسـتعمر الغاصب الذي رأي فى المسجد العدو الاكبر الممكن ان يقذف به الى البحر اذا سمح لهبأداء دوره ، واصبحت كل قرية وكل حي فى المدينة يحرص على ان يكون له مسجده يتردد اليه المواطن ليؤدى فيه شعائره الدينية بكل حـرية واطمئنان ، وليتزود منه بزاد المعرفة ، والعلم ، والثقافة التى تصـلح له حاله فى الدنيا والآخرة ٠

ولقد كان من أروع مظاهر النهضـة الدينية فى الجزائر فك أسر كثير من المساجد التى شاءت ارادة المستعمر ان تغتصبها لتحولهاالى كنائس وبيع ، وأبت ارادة الله الا ان تعود الى ما كانت عليه من قبل يرتفع فيها صوت المؤذن ان « الله اكبر » ! ومن هذه المساجد جامع كتشاوة الذى كان كاتدرائية للقطر الجزائرى كله ، وعلى بتشينى ،وابن فارس فى الجزائر ،وجامع الباى فى قسنطينة ٠٠ الخ ٠

لقد تم تحويل الكنائس الكثيرة والبيع الى مساجد بعد ان هجرها أهلها فرارا من الحق ، وذلك باتفاق مع الكردينال دوفال الذى يعلمنا بشغور اية كنيسة وعدم الحاجة اليها ، ولقد جسد هذا العمل سيادة الاسـلام فى ربوع وطننا وشخصيةالدولة المسلمةالمستقلة ، وقد بلغ عدد هذه الكنائس والبيع التى حولت الى مساجد ١٨٣ كلها تقام فيها الصـلاة ، ويؤذن فيها المؤذن ، ويذكر فيها اسم الله ، وتكافح فيها الأمية وتلقى فيها الدروس !

وبهذه المناسبة ، نود ان نقول بأن هناك عددا من رجال الدين المسيحى يتقاضون رواتبهم من الوزارة ، اى من ميزانية الدولة ، وذلك تمشيا مع روح الاسلام الذى يدعو الى التسامح مع الاديان الاخرى وتوفيـر حرية الاعتقاد لكل فرد فى المجتمع اذ لا اكـراه فى الدين ، عدا الردة طبعا ٠

اما عن رجال السلك الدينى من ائمة ، ومؤذنين ، وحزابين ، وقيمين ، فقد عمدت الوزارة الى تطهيـر هذا الاطار من المندسين فيه والمتطفلين عليه ، يستوى



صورة عن سير عملية محو الامية فى المسا...

فى ذلك من تسرب اليه عن طريق الاستعمار أو من فشل فى كل أوجه النشاطات الاخرى فاتخذ الدين تجارة يكتسب بها وياكل منها أموال الناس بالباطل ، وهذا كله محاولة من الوزارة لان تعيد لهذا الاطار الحيوى الهام فى حياة شعبنا مكانته التى كانت له والتى تبوأها بجدارة واستحقاق طوال عهود الاسلام الزاهرة ، واتخذ فى سبيل كل ذلك من الاجراءات ما يكفل للائمة الاستقرار والاطمئنان الى مستقبلهم ومستقبل اولادهم ، ممايؤدى بهم بالتالى الى القيام بمهمتهم على الوجه الاكمل ، ونذكر هنا بالخصوص بعض الحقوق التى منحت لهم والواجبات الملقاة على عاتقهم والتى قصد بها جعل المسجد مدرسة ومركز اشعاع علمى وحضارى الى جانب كونه مكانا للعبادة

حقوق الائمة :

بدىء فى تعيين الائمة ورجال السلك الدينى فى مناصبهم بعد استرجاع الاستقلال مباشرة ٠ وقد خصصت مناصب مالية لهذا الغرض ، غير ان كلذلك لم يكن الا كنوع من المساعدة تقدم للقائمين بهذا النشاط الحيوى والاساسى لمجتمعنا ٠ وفى سنة



صورة عن سير عملية محو الامية فى المساجد

١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م صدر الامر الخاص الذى يتضمن قانون رجال السلك الدينى الاسلامى الذى لم يبدأ فى تطبيقه فعليا الا فى سنة ١٩٧١ ، هذا القانون الذى أصبح بموجبه هذا الاطار يتمتع بكامل حقوق الموظف فى الدولة من منح عائلية ، وضمان اجتماعى ، وترقية واجازات ، وعطل ، وتقاعد ، واستقرار فى الوظيف ، واطمئنان الى المستقبل ، وبعد ان كان يتقاضى من قبل مجرد منحة مؤقتة ، كما اسلفنا ، أصبح الآن يتقاضى راتبا شهريا معينا وثيق الصلة بمستـــــواه العلمى ، وكفاءته ، ومقدرته ، ونشاطه ، وثقافته ، والتفانى فى القيام بواجبه ، فالامام الممتاز يتقاضى راتب الاستاذ الثانوى ، والامام الخطيب يتقاضى راتب الاســـتاذ التكميلى ، وامام الصلوات الخمس له راتب المعلم ، اما المؤذن والحزاب فانهما يتقاضيان راتب المساعد فى سلك التعليم ٠ ثم بعد ذلك يأتى الائمة الذين يحملون شهادات علمية معترفا بها ويرســـــمون بمقتضى تلك الشهادات ويتقاضون راتبا حسب ما نص عليه قانون السلك الدينى وحسب المقاييس الاخيرة المذكـــورة ٠

عدد الموظفين فى السلك الدينى :

اما عدد رجال اللسلك الدينى الذين تجرى عليهم الوزارة رواتب شهرية حاليا فقد تضاعف خمس مرات منذ استعادة الاستقلال حتى اليـــــوم ، وخاصة فى السنتين الماضيتين ، اذ كان عددهم غداة اســترجاع الاستقلال اربعمائة واربعين ،وهم اليوم مئاتان والفان (٢٢٠٠) عدا معلمى القـــرآن الذين تمدهم الوزارة بمنحة شهرية وعددهم يزيد عن الالفين ٠

هذا ولا يزال مثل هذا العدد تقريبا يقوم بالصلوات الخمس وصلاة الجمعة والتعليم فى المساجد أما تطوعا أو على نفقة المواطنين الذين يوجد فى حيهم أو قريتهم المسجد ، والوزارة جادة فى تعيين من يتوفر من هؤلاء على كفاءة تمكنه من القيام بواجباته أحسن قيام ٠

امتحان المستوى لرجال السلك الدينى :

وبما ان اغلب رجال السـلك الدينى لم يكونوا يحملون شهادات علمية مدرسية او جامعية تشهد لهم بمستواهم العلمى وبكفاءتهم المهنية ، اذ ان جلهم قد زاول تعليمه حسب النمط التقليدى فى المساجد والزوايا والمعاهد التقليدية ، وكل هذه المؤسسات لم تكن تعرف نظام الشهادات ، فقد عمدت الوزارة الى اجراء امتحان مهنى خاص للمستوى شمل كل الاطار الدينى من ائمة ، ومؤذنين ، وحزابين ، وقيميين ، وذلك حسب ما نص عليه الامر المشار اليه آنفا والخاص بقانون رجال السلك الدينى ، رسـم بمقتضاه كل الناجحين فيه فى درجات تتناسب ونتائجهم فى هـذا الامتحان • وهذا الامتحان اجبارى ولا يجوز لاى كان ان يتخلف عنه الا لعذر شرعى مقبول ، وقد وقعت الدورة الاولى فى السنة الماضية • أما الدورة الثانية فقد وقعت فى شهر ربيع الثانى (مايو) من هـذه السنة ، والشىء الذى يجب ان يلفت اليه النظر ان الذى لم يسعفه حظه ولم تمكنه معلوماته من النجـاح فى هاتين الدورتين لا يفصل من منصـبه ، بل يبقى فى مكانه كما كان من قبل ويتقاضى راتبه كاملا على ان يستعد للدورة المقبلة •

ولقد ارادت الوزارة بهذه الطريقة ان تبعد الامام المتكاسل الذى يتخذ من المسجد زاوية للنوم ، ومن مهنته الشريفة سببا للكسل والتواكل والتخاذل ، وتفتح المجال للامام النشيط العامل الذى يدرك ابعاد وظيفته الدينية والاجتماعية والثقافية ، ويقبـل على العلم والعمل بارادة جادة وحازمة •

وحتى تكون نتائج هذا الامتحـان اكثر ايجابية واصدق دلالة على المستوى الثقافى العلمى لدى الائمة عملت الوزارة على تنظيم فترات تربصية لجميع رجال السلك الدينى الذين دعوا الى المشاركة فى هـذا الامتحان على مستوى البلاد ، وبالفعل فقد دلت النتائج الاولية للدورة الثانية التى وقعت فى شهر ربيع الثانى (ماى) لهذه السنة كما اسلفنا على ان تلك الفترات قد اتت اكلها واعطت ثمارها حتى ان النجاح كان فوق كل ما كان متوقعا •

واجبـات الامام :

لم تعد مهمة الامام كما أراد لها الاستعمار والجهل ان تكون تقتصر على فتح أبواب المساجد فى أوقات معينة لاداء الصلاة والقاء بعض الدروس الصورية ثم يغلق باب المسجد بعد ذلك وينصرف الامام على اثرها الى القيام باعمال خاصة أما الى حقله أو مزرعته ان كان فى الريف ، أما الى تجارته او الى مجالس المؤانسـة مع الاصدقاء هنا وهناك خارج المسـجد ان كان فى المدينة ، بل ان مهمته اصبحت الآن تشمل الى جانب امامة الناس فى الصلاة والوعظ والارشاد ، تحفيظ القرآن الكريم وتعليم أبناء الشعب الذين لم تسمح لهم ظروفهم بالانتظام فى مدارس ومعاهد التعليم ، أى ان الامام أصبح مرشدا ومدرسا ولقد اصدرت الوزارة التعليمات المشددة لجميع الائمة ليقوموا ، زيادة على امامة الناس فى الصلوات ودروس الوعظ والارشاد ، بالواجبات الآتية :

١ ـ تحفيظ القرآن الكريم للصبيان ذكورا واناثا تمشيا مع سياسة الدولة فى بلادنا التى تولى هـذه المهمة المقدسة ، مهمة تحفيظ كتاب الله للناشئة ونشره بينها ، اهتماما خاصا ، ويتوج هذا كله الحفل السنوى الذى يقام فى ليلة السابع والعشرين من رمضان المعظم فى كل سنة تحت اشراف الاخ رئيس مجلس الثـورة والحكومة فى الجامع الكبير بالعاصـمة لتوزيع الجوائز على صغار حفاظ القرآن الكريم •

٢ ـ دروس الفقه ، والتفسير ، والحديث ، والسيرة والنحو ، والصرف الخ ، التى كانت تنظم فى المساجد الحرة والمعاهد التقليدية فى العهد الاستعمارى البائد

والتى بفضلها حافظت الجزائر على شخصيتها العربية الاسلامية رغم موجات المسخ والتشويه التى تعرضت لها ·

٣ ـ دروس محو الامية فى المساجد ، ودخلت السبورة الى المسجد وأصبحت ملازمة له كالمنبر ·

ولقد شرع فى حملة محو الامية فى مساجد البلاد كلها فى ١٥ شعبان ١٣٩٠ هـ الموافق لـ ١٥ اكتوبر ١٩٧٠ م ، وقد افتتح هذه الحملة الاخ الرئيس بنفسه كما تفقد سيرها فى بعض مساجد العاصمة وبعض عواصم الولايات ، نخص بالذكر منها مدينة سطيف ، وقد ورد على لسان الاخ مولود قاسم فى الكلمة التى القاها بمناسبة تدشين مسجد ابن باديس فى مدينة سطيف بحضور الاخ الرئيس وتدشين حملة محو الامية فى نفس الوقت : « ورمزا الى هذه الوظيفة المتعددة الجوانب للمسجد حرص الرئيس على ان يكون افتتاح هذا المسجد الكبير ببدء الدروس فيه لكافحة الامية ولنشر النور والمعرفة ، ومساهمة فى ثورتنا الثقافية الشاملة التى تكمل ثورتينا الصناعية والزراعية ، وتتوجهما وتعطيهما روحهما ومغزاهما الكامل المتكامل » ·

ولقد زودت المساجد بعدد ضخم من الكتب لتوزع مجانا على المترددين الى المسجد للتعلم ذكرانا واناثا اذ ان ابواب المساجد مفتوحة للجنسين بدون تفريق وتقام فى اوقات مناسبة دروس خاصة بالرجال ، ودروس خاصة بالنساء وهذه الاخيرة تقوم بها معلمات متطوعات ، ومن هذه الكتب كتاب لتعليم القراءة وفيه جزآن ، وكتاب الخط ، وكتاب الحساب ، وكتاب المعلم ·

ان الدولة فى بلادنا المؤمنة بأصالتها والمتمسكة بدينها تولى اهتماما خاصا لحملة محو الامية فى المساجد ، لان المسجد موجود فى كل مدينة ، وفى كل حى ، وفى كل قرية ، مهما كانت نائية فى اقاصى الصحراء ، أو فى قمم الجبال ، ثم ان علاقة المواطن بالمسجد علاقة روحية تجعله ينجذب اليه بصفة خاصة وفى الدرجة الاولى منهم من كان فى سن الكهولة او الشيخوخة ، ثم ان مكانة الامام الاجتماعية اكثر رسوخا واكثر عمقا من مكانة غيره ممن تقتصر علاقته بالمواطنين غالبا على مجال عمله فقط ، بينما نجد الامام هو محور الحياة فى القرية ، وهو كل شىء بالنسبة للمواطن ، فهو الامام ، وهو المفتى ، وهو القاضى ، وهو المعلم الخ ·

وبالفعل فقد اعطت هذه الحملة ـ والحمد لله ـ ثمارها الطيبة ، فمن الاميين أمية كاملة من أصبح الآن يطالع الصحف ، ومنهم من تقدم الى الشهادة الابتدائية ونجح ولا يزال يواصل ، ومن الاميين من كانت له مبادىء أولية فى القراءة والكتابة واستطاع بمثابرته على دروس المسجد ان يتقدم الى امتحان المرنين أو الى الشهادة الاهلية ونجح ـ وخاصة فى ولايات الواحات ، وباتنة ، وقسنطينة ، وتيارت ، الا اننا لاحظنا ان نجاح هذه الحملة نجاحا كاملا ، كما نرجو ، يتوقف على كفاءة الامام ومستواه العلمى ، والاسلوب الذى يتبعه فى تعليم الكبار ، ولذلك نظمت الوزارة دورات تدريبية للائمة خاصة بطرق مكافحة الامية فى كل من وهران والجزائر بالتعاون مع المركز الوطنى لمحو الامية ، ليستطيعوا بعدها النهوض بأعباء هذه المهمة النبيلة التى تعتبر مساهمة فعالة فى محو الامية باللغة القومية طبقا لما نص عليه برنامج المخطط الرباعى ، وفى تنفيذ مرسوم تعريب الادارة فى البلاد

وبما انه يوجد فى كل اطار ، مهما كانت وظيفته ، من يستهين بعمله ولا يقدره حق قدره فيتهاون فيه ويبخل عنه باخلاصه ! وتفاديا لذلك الحت الوزارة فى مناشرها المتعددة للائمة فى ان يكونوا عند حسن الظن

بهم ، وقد نص احد هذه المناشير على ان الامام الذى يثبت عليه انه تهاون فى اداء مهامه وخاصة مكافحة الامية يعاقب بانذار كتابى له مع خصم جزء من راتبه فى المرة الاولى ، وقد يعزل نهائيا ان تكرر منه ذلك ، وكذلك نص نفس المنشور انه على المفتشين ان يسهروا على تنفيـــذ تعليمات الوزارة ، وكل مفتش تهاون فى ذلك يلحقه نفس العقاب ٠

المدرسة الوطنية لتكوين الاطارات الدينية :

اسلفنا القول بأن الاطار الدينى الموجود حاليا فى غالبيته لم يتلق التعليم فى المدارس أو الجامعات بـل كان ذلك فى المعاهد التقليدية التى لا تخضع لبرامج مدروسة وموضوعة حسب أسس منهجيــة ، وتلافيا لذلك فى الاطار الدينى للمستقبل انشــات الوزارة مدرسة وطنية لتكوين الاطارات الدينية ببلدة مفتاح ، فى ضواحى العاصمة ، والهدف من هذه المدرسة كما قلنا هو تخريج اطارات دينية عصرية تكون على علم بما يجرى فى العالم من حولها، وتلم باشتات الثقافات المتعددة والمتباينة فى المنهج والتفكير والهدف ، حتى تتمكن من مجابهة مشاكل العصــر اليومية ، وحتى تستطيع ان تؤدى رسالتها كما يجب ، وخاصــة فى أوساط الشباب المثقف الذى تتجاذبه التيارات الفكرية والايديولوجية ، والسياسية المتضاربة والمتناقضة فى كثير من الاحيان ، وان كانت كلها تتلاقى عند هدف واحد هو محاولة ابعاد هؤلاء الشباب عن أصــالتهم وقوميتهم وسلخهم عن شخصيتهم ، وبكلمــة قصيرة ابعادهم عن دينهم الذى عصــم آباءهم من قبــل من الذوبان ، والانحلال ، والمسخ ، والتشويه ٠

وستكون هذه المدرسة مفتوحة للائمة المرســين والمعينين حاليا ليقضوا فيها فترات تدريبية دورية كي يعمقوا مداركهم منجهة وليطلعوا على أساليب الدعوة الحديثة واخطار الغزو الفكرى وطرق مقاومته من جهة اخرى ،وستكون مفتوحة كذلك أمام الاطارات الجديدة التى ستعد لتحمل رسالة الدعوة الى دين الله ونشـر تعاليم الاسلام فى المســتقبل ، من خريجى ثانويات التعليم الاصلى وبعض المعاهد التقليدية التى ما تزال تقوم بأداء واجبها كما كانت من قبل ٠

اما اولئك الذين يرغبون فى التكوين والاتقان فى العلوم الاسلامية ، لكن ظروف حيــاتهم تمنعهم من المشاركة حضوريا فى هذه المدرسة ، فانه ستوجه لهم دروس تخصصية بالمراسلة ٠

تجديد المعاهد التقليدية :

وانطلاقا من هذه السياسة التى سـلكتها الوزارة فى كل ما يتعلق بالاطار الدينى اتخذت قرارا خاصـا بتطوير الزوايا والمعاهد التقليدية القــديمة ، وبعث الحياة فيها حتى تتمكن من اداء رســالتها التعليمية كاملة ، وسوف يعاد النظر فى حالات جميع هــذه الزوايا فى كامل البلاد لتدرك حقيقة كل منها ودورها فى تحفيظ القرآن ونشر التعاليم الاسلامية ، وسيحافظ على الصالح منها بل يطور ويمد بالبرامج ، والاساتذة والمساعدات المادية ، اما تلك الــزوايا التى ليس من هدفها سوى نشر الشعوذة والخرافات وابتزاز أموال المواطنين بالباطل فستغلق نهائيا ، وستكون هــذه المعاهد التقليدية مفتوحة لابناء المواطنين جميعا بغض النظر عن السن والمستوى الثقافى وســتوفر لهم كل الامكانيات التى تجعلهم يتابعون تعلمهم بنفوس راضية وقلوب مطمئنة ، وبعد ذلك تفتح لهم معاهد خاصة التى انشئت وستنشأ لهــذا الغرض فى كل من ادرار فى الساورة ، وسيدى عبد الرحمن اليلولى فى القبائل الكبرى ، والعثمانية فى قســنطينة ، ليزاولوا فيها التعليم الثانوى الذى سيؤهلهم للدخول الى المدرســة الوطنية لتكوين الاطارات الدينية فى بلدة مفتاح ٠

كلمة اخيرة : اننا نشاهد من خلال هــذا العرض



توزيع الجوائز على صغار حفاظ القرآن الكريم
ليلة 27 من رمضان 1390 هـ 1970 م تحت اشراف
الاخ الرئيس ـ فى الجامع الكبير بالعاصمة

القصير بوادر نهضة دينية ودلائل وثبة علمية ، واشعة انبعاث فكرى ، تتجمع كلها فى المسجد ، ويمثلها الامام الذى يجب أن يكون مرآة صادقة للمبادىء والمثل التى يدعو اليها ، حتى يستطيع أن يسهم بنصيبه الوافر فى الميادين الاجتماعية ، والعلمية ، والروحية، وان يسترد مكانته التى تبوأها يوم ان كان العلماء ورثة الانبياء ٠

ان شعبنا المسلم يعلق الآمال الكبار على ائمته ، ولذلك يجب عليهم أن يكونوا على مستوى آمال هذا الشعب ، وان يجعلوا من المسجد دار عبادة وريادة ، ومعهد تعليم وتقويم ، يتخرج فيه جيل مسلم قادر على تحقيق التقدم والازدهار لوطنه ولامته ، فانما العلماء من الامة بمثابة القلب اذا صلح صلح الجسد كله ٠

فتـــاة العَصـــر!

ما بـــال سيـرِ فتاةِ العصر منحرفا   يهويِ بها فيمهاويِ الإفك والزور
ان الجزائر أمست بنتُهــا غرضــا   لكـــل رامٍ بسهم الغيِّ مأجــور
ما بالهـــا هجـرت آداب ملتهـــا   مابالها أعرضت عن خيـــر دستـــور
إن الذى بــــرأ الجنسين خوَّلهـــا   حقوقهـا في كتـــاب منه مسطور
لوانهـا اقتبست من نوره وجنَت   من روضه ألتحقت فيِ الطهر بالحور
عافت تقاليدَها المثلى وقد سطعت   أنوارها وارتمت فيِ كل ديجور
ما جلّ آرائها المستحدثات ســـوى   مستوردات مـــداهـــا غيرُ مشكور
فـيِ كل مرحلـــة تزداد ظلمتهـــا   فيِ الرأيِ فاقرأ عليها سورة النور1

من ديوان محمد العيد محمد علي خليفة

(١) سورة النور فى القرآن الكريم اشتملت على بيان بعض حقوق النساء وواجباتهن ، وقد ورد فى الحديث الشريف : (علموهن سورة النور .)

البشير الإبراهيمي في المشرق العربي

تركي رابح



الشيخ البشير الابراهيمي في الشرق العربي
(١٩٥٢ ـ ١٩٦٢)

« يموت العظماء فلا يندثر منهم الا العنصر الترابي الذي يرجع الى أصله ، وتبقى معانيهم الحية في الارض ، قوة تحرك ، ورابطة تجمع ، ونورا يهدي ، وعطرا ينعش ، وهذا هو معنى العظمة ، وهذا هو معنى كون العظمة خلودا ، فان كل ما يخلف العظماء من ميراث هو اعمال يحتذيها من بعدهم ، وأفكار يهتدون بها في الحياة ، وآثار مشهودةينتفعون بها . وأمجاد يعتزونبها ويفخرون، والاعتزاز والفخر من الاغذية الروحية الحافظة لبقاء الجماعات (١) »

« محمد البشير الابراهيمي »

1) جريدة البصائر عدد 151 سنة 1951 ص 1

هناك جانب هام من حياة المرحوم الشيخ البشير الابراهيمى لم يتناوله الكتاب والباحثون بالبحث والدراسة حتى الآن ، واعنى به الفترة التى قضاها فى الشرق العربى سواء فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى (١٩١١ ـ ١٩٢٠) أو فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٥٢ ـ ١٩٦٢) وسأتحدث فى هذه الكلمة المختصرة عن هذا الجانب من حياة الفقيد العامرة بجلائل الاعمال ٠

واذا كانت دوافع واسباب الرحلة الاولى من الجزائر الى الشرق العربى هي ـ كما ذكرها الشيخ البشير بنفسه ـ من أجل الالتحاق بوالده (٢) الذى سبقه الىالهجرة الى المدينة المنورة فى عام ١٩٠٨ ٠ ثم من أجل الاستزادة منالدراسة والتحصيل العلمى على عادة علماء المسلمينفىتاريخ التربية الاسلامية من اعتبار الهجرة فى سبيل العلم والاتصال بكبار المشائخ والعلماء المبرزين ، والاخذ عنهم ، والتتلمذ عليهم ، من شروط الكمال فى العالم المتمكن من التقاليد العلمية الاسلاميةالصحيحة ـ اذا كانت هذه هى باختصار دوافع وأسباب الرحلة الاولى ـ فان دوافع وأسباب الرحلة الثانية تختلف اختلافا كليا عن ذلك ٠ فقد كانتالرحلة الاخيرة تهدف الى تحقيق أمور أخرى هى :

(١) العمل على ارسال بعثات علمية من الشباب الجزائرى الى الشرق العربى بغرض الدراسة فى مختلف مدارسه ، ومعاهده ، وجامعاته ٠

(٢) طلب المساعدة المادية لجمعية العلماء من الاشقاء العرب والمسلمين كي تستطيع مواصلة رسالتها فى ميدان نشر التعليم العربى والمحافظة على الشخصية العربية الاسلامية للشعب الجزائرى التى تواجه محاولات كبيرة لهدمها من طرف الاستعمار الفرنسى ورجال التبشير المسيحى المتعاونين معه ، يقول الشيخ البشير الابراهيمى شارحا بواعثه على هذه الرحلة ٠

« ٠٠٠ وفى عام ١٩٥١ ميلادية رحلت الى الشرق بتكليف من جمعيتى (يقصد جمعية العلماء) وكان الباعث على هذه الرحلة أمرين :

الاول : السعى لدى الحكومات العربية لتقبل لنا بعثات من ابناء الجزائر ٠

الثانى : مخاطبة حكومات العرب والمسلمين فى اعانتنا ماليا حتى تستطيع الجمعية ان تواصل أعمالها بقوة لان الميدان اتسع امامها ، والشعب الجزائرى محدود القوة المالية ، فاذا لم يعنا اخواننا فربما تنتكس حركتنا ٠ وهذا ما ينتظره الاستعمار لنا (٣) هذه هي الاسباب التى ذكرها الشيخ البشير الابراهيمى ويمكننا نحن ان نضيف الى الامرين السابقين أمرا **ثالثا** لم يتناوله فى النص المذكور مع انه لا يقل أهمية عنهما الا وهو الدعاية للقضية الجزائرية ٠

وشرح ظروف الكفاح الجزائرى الى قادة الحكومات العربية والاسلامية التى زارها وتعريف الرأى العام العربىوالاسلامى بمختلف جوانب كفاح الشعب الجزائرى ضد الاستعمار الفرنسى وما يقاسيه من عدوان صارخ على مقدساته الاسلامية ولغته العربية وكرامته وسيادته الوطنية ٠

وقد نجح الشيخ البشير الابراهيمى نجاحا كبيرا فى هذه النقطة الاخيرة شاهدنا نحن كما شاهد

2) انظر نبذة عن دوافع واسباب هجرته من الجزائر ال المدينة المنورة 1911 بقلمه فى مجلة مجمع اللغة العربية عدد 21 القاهرة سنة 1966 ص 137 ـ 138

3) المرجع السابق ص 154

جميع الجزائريين الذين زاروا المشرق العربى أو عاشوا فيه بعض الوقت قبل سفر الشيخ البشير وبعده آثار ونتائج هذا النجاح لدى الرأى العام العربى الذى أصبح ملما الماما كافيا بجوانب الكفاح الجزائرى العادل فى مختلف مراحله ٠

« قلة المام اخواننا الشرقيين بأوضاع القضية الجزائرية »

ولكى يعرف القارىء جهود الشيخ البشير الابراهيمى فى التعريف بالقضية الجزائرية خلال عام ١٩٥١ والاعوام التالية له حتى قيام ثورة الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤ بعدة سنوات ينبغى أن نذكر له نبذة عن ضآلة المام اخواننا المشارقة بقضايا وكفاح ابناء المغرب العربى بصفة عامة والجزائريين منهم بصفة خاصة ٠

فقد صدمت انا صدمة عنيفة عندما وصلت الى القاهرة فى نوفمبر ١٩٥١ بقلة معلومات الناس عن الجزائر الى حد يكاد أن يكون شاملا لكل شىء فى الجزائر ، فقد كنا نسأل مثلا هل الجزائر فى جنوب الجزيرة العربية ؟ أو فى اندونيسيا ؟ أو فى الحجاز ؟ الى غير ذلك من الاسئلة التى كانت تدل على قلة المام فادح بالمبادىء الاولية الجغرافية ـ مع اننا نحن كنا نعرف عن اخواننا فى البلاد العربية قبل ان نسافر اليها الشىء الكثير ٠ عن شخصياتهم ، ومنظماتهم، وهيآتهم العلمية ، والادبية والسياسية ، وقد دفعنى الفضول الى الاطلاع على كتب التاريخ والجغرافيا التى كانت تدرس حتى بداية الخمسينات فى المدارس المصرية والبلدان العربية الاخرى التى أمكننى الاطلاع عليها ـ فى المرحلة الثانوية من التعليم حتى اعرف أسباب عدم الالمام البادى حتى على المتعلمين فى الجامعات فيما يتصل بقضايا وظروف اقطار المغرب العربى ، فوجدت الحديث مثلا عن اقطار المغرب العربى وخاصة الجزائر لا يتعدى بضعة أسطر فى كتب التاريخ ، واقل من ذلك فى كتب الجغرافيا التى تصف الجزائر بانها « مستعمرة فرنسية دينها الاسلام ، وقد الحقتها فرنسا بها » ولا تكاد تزيد عن ذلك شيئا آخر هذا بينما تتناول كتب التاريخ المذكورة « الثورة الفرنسية » بتفصيل واف وهى ـ الثورة الفرنسية ـ تحتل فى كتب التاريخ للمدارس العربية الثانوية مكان الصدارة كما تدرس جغرافية فرنسا السياسية وأقاليمها دراسة وافية فى كتب الجغرافيا ٠ ولم يتغير هذا الوضع الا بعد قيام الثورة المصرية فى ٢٣ يوليو (جويلية) ١٩٥٢ ببضع سنوات حيث أصبح التركيز فى مادة التاريخ فى المرحلة الثانوية على التاريخ العربى لجميع اقطار الامة العربية ، كما تحول التركيز فى كتب الجغرافيا على دراسة البلدان العربية ومن بينها اقطار المغرب العربى دراسة تفصيلية متعمقة ٠

« نجاح الدعاية الفرنسية فى تضليل الرأى العام العربى »

والواقع أن الدعاية الفرنسية فى المشرق العربى قبل الخمسينات قد نجحت فى تضليل الرأى العام العربى الى حد كبير فيما يتصل بأقطار المغرب العربى وبالخصوص الجزائر التى حاولت اقناع الناس بانها قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من بلادها ، وقد كان بعض المثقفين ينخدع بهذا الزعم ببساطة ، ويبدو هذا فى مؤلفاتهم التى تتناول الجزائر ٠

واذكر حادثة طريفة حصلت لي مع احد الاساتذة الكبار الذين كنا ندرس عليهم فى الجامعة ـ وعلى فكرة هذا الاستاذ كان فى السنوات الاخيرة يدرس مادة الادب العربى الحديث فى احدى الجامعات الجزائرية ـ وكنا فى رحلة علمية لزيارة الآثار الفرعونية الموجودة فى الاقصر واسوان وكان هو

مشرفا على الرحلة وذلك خلال العام الدراسى ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ وكان يعقد لنا مناقشات علمية وادبية فى أوقات فراغنا من الرحلة ، وقد جاء فى احدى المرات ذكر الجزائر ، فقال عنها ما معناه « ان الجزائر انتهت لقد أصبحت فرنسية وقد نجحت فرنسا فى فرنستها » ولما تدخلت فى المناقشة لمحاولة تصحيح معلوماته !!! رد على مستشهدا بواقعة حصلت له اثناء زياراته الى فرنسا قبل الحرب العالمية الثانية حيث كان يدرس فى بريطانيا ملخصها : « انه التقى باحد الجزائريين المجندين فى الجيش الفرنسى فى القطار ودارت بينهما مناقشة كان هو يتحدث فيها باللغة العربية وكان المجند الجزائرى يرد عليه باللغة الفرنسية ـ وقد قاده الاستنتاج من هذه الواقعة الفردية الى الحكم على الشعب الجزائرى برمته بانه نسى لغته وعروبته وأصبح فرنسيا » · وقد اجبته «بان الحكم على شعب كامل منخلالتصرفات أو سلوك فرد واحد أو حتى مجموعة افراد من ابنائه هو حكم بعيد عن الحقيقة والواقع بعد السماء عن الارض » ولكنه لم يقتنع بكلامى ، ولا شك انه قد غير حكمه عن الجزائر الآن خصوصا بعد زيارته لها واشتغاله بالتدريس فى أحدى جامعاتها التى انشاتها الثورة بعد الاستقلال · فى موطن رائد النهضة الجزائرية الحديثة « الامام ابن باديس » ·

« شوقى وعروبة الجزائر !!! »

وقد ذكرتنى هذه الواقعة من استاذنا الفاضل بواقعة اخرى تشبهها تمام الشبه سجلها امام النهضة الجزائرية الحديثة المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس فى مجلة الشهاب ١٩٣٤ عن الشاعر احمد شوقى الذى زار الجزائر العاصمة فى أواخر القرن الماضى عندما كان يدرس الحقوق فى احدى الجامعات الفرنسية للاستشفاء من المرض ، ومكث بها اربعين يوما · وعندما غادرها قال عنها : « لا عيب فيها سوى انها مسخت مسخا فقد عهدت مساح الاحذية يستنكف النطق بالعربية واذا خاطبته بها لا يجيبك الا بالفرنسية » وقد تالم ابن باديس الما شديدا لزعم شوقى هذا حيث حكم من خلال تصرفات فرد واحد على عروبة وقومية شعب كامل حكما متسرعا بعيدا عن الحقيقة والواقع ·

وقد سجل ابن باديس اله هذا فى خطبةله بمناسبة الاحتفال بتابين الشاعرين : شوقى وحافظ فى نادى الترقى فى شهر فبراير ١٩٣٤ قال ابن باديس : « ··· أما شوقى فقد قدر له ان يزور الجزائر فى شبابه ، وينزل بعاصمتنا أربعين يوما للاستشفاء ويقول عنها « ولا عيب فيها سوى انها قد مسخت مسخا ، فقد عهدت مساح الاحذية فيها يستنكف النطق بالعربية واذا خاطبته بها لا يجيبك الا بالفرنسية » ، يقول الشيخ باديس « فاعجبوا لاستدلال على حالة امة بمساح الاحذية منها ولا يجمل بى أن أزيد فى موقفى هنا على هذا الا ان فقيدنا العزيز لو راى من عالم الغيب حفلنا هذا لكان له فى الجزائر راى آخر ،ولعلم ان الامة التى صبغها الاسلام وهو صبغة الله ، وانجبتها العرب وهى امة التاريخ ، وانبتتها الجزائر ، وهى العاتية على الرومان والفاندال ، ـ لا تستطيع ولن تستطيع ان تمسخها الايام ، ونوائب الايام (٤) » ·

وكنا فوق هذا نسال هل عندكم مدارس ؟ هل عندكم ترامواى ؟ هل عندكم طرق ؟ الى غير ذلك من الاسئلة السانجة التى تدل على قلة الالمام بالمعارف الاولية عن الجزائر · هذه هى حالة الجزائر فى

4) مجلة الشهاب ج 4 م 10 ص 146 عدد مارس 1934

المشرق العربى قبل عام ١٩٥٢ فما هو حالها بعد ذلك ؟

« مكانة الجزائر فى المشرق العربى بعد رحلة الشيخ البشير الابراهيمى »

أما بعد قدوم الشيخ البشير الابراهيمى الى المشرق العربى فى عام ١٩٥٢ واتصاله بمختلف الهيئات والمنظمات والشخصيات العربية والاسلامية فى القاهرة · وبغداد ، ودمشق ، والكويت ، والحجاز ، فقد تبدل الوضع المذكور كثيرا ، وقد ساعد على ذلك قيام الثورة المصرية فى صيف عام ١٩٥٢ – وأنا هنا لا أريد أن أغمط من نشاط بعض الجزائريين الذين سبقوا الشيخ الى المشرق العربى وكانوا معتمدين من قبل بعض المنظمات الوطنية الجزائرية من أجل التعريف بالقضية الجزائرية فقد بذلوا جهودا مشكورة فى هذا الميدان – ولكننى أسجل ما شاهدته ولاحظته بنفسى فى الفترة الممتدة من عام ١٩٥١ حتى قيام ثورة الفاتح نوفمبر ١٩٥٤ بعدة سنوات · فقد نشط الشيخ البشير الابراهيمى بعد قدومه الى القاهرة فى مارس ١٩٥٢ مباشرة فى الاتصال بمختلف الهيات والشخصيات وكان لبعضهم سابق معرفة به قبل قدومه الى الشرق كما نشط فى عقد المؤتمرات الصحفية ، والقاء المحاضرات العامة عن الجزائر وقضايا كفاحها الوطنى والقومى ، وتسجيل الاحاديث الاذاعية فى اذاعة صوت العرب بعد انشائها عقب قيام الثورة المصرية فى عام ١٩٥٢ ، وفى كتابة المقالات فى المجلات الفكرية المعتبرة كمجلة « الرسالة » للمرحوم الزيات ، ومجلة «المسلمون» التى كان يرأس تحريرها الكاتب الاسلامى سعيد رمضان ، وغيرهما من المجلات الاخرى فى مصر وخارجها · ولم تمض سنوات قلائل حتى اصبحت الجزائر العربية المسلمة على كل لسان فى الاوساط الفكرية القيادية وصارت محل عنايتهم واهتماماتهم كمااصبحت من اهتمامات وسائل الاعلام المختلفة من صحافة واذاعة وسينما · وغيرها ·

« عوامل نجاح الابراهيمى فى التعريف بالقضية الجزائرية »

ولعل من العوامل الهامة التى ساعدت الشيخ على النجاح فى شرح القضية الجزائرية للراى العام العربى وللمسؤولين العرب فى كل من مصر ، والعراق ، وسوريا ، والكويت ، والحجاز وهى البلاد التى زارها قبل ان يستقر فى القاهرة يعود الى : غزارة علمه ، وبلاغة قلمه ، وقوة حجته ، وفصاحة لسانه ، ولباقته فى الحديث الى مستمعيه مهما كانت درجاتهم الثقافية والاجتماعية · ولعل العامل الاهم فى هذا النجاح هو موهبته الخطابية الفذة ، فقد كان خطيبا بارعا كما هو معروف عنه فى الجزائر ، يهز المنابر هزا ، ويستولى على عقول وعواطف مستمعيه ، ويقنعهم بسهولة بعدالة القضية التى يدافع عنها وهى هنا قضية الشعب الجزائرى السياسية ، وقضية الشخصية العربية الاسلامية لهذا الشعب العربى المسلم · وحقه فى النصرة على اخوانه العرب ، ومكانة الجزائر فى عالم العربية والاسلام – كما كان يردد الشيخ فى خطبه واحاديثه وقد أصبح المثقفون بعد فترة وجيزة من مكوث الشيخ فى المشرق يلقبونه بامام المغرب العربى تارة ، وبعلامة المغرب العربى تارة أخرى ، وكان هو لا يرتاح كثيرا لهذه الالقاب التى يولع بها اخواننا المشارقة ولعا كبيرا ·

واذكر انه كان ذات مرة مدعوا للخطابة فى مهرجان كبير اقيم فى مركز الشبان المسلمين بالقاهرة

عن القضية الجـــزائرية . وقد قام بتقديمه الى الحاضرين المرحوم الدكتـور منصور فهمى فقال من جملة ما قال عند تقديمه : اقدم اليـكم « علامة ـ بالشدة ـ المغرب العربى محمد البشير الابراهيمى » ولما شرع الشيخ فى القاء خطابه الذى اثار حماسا كبيرا فى القاعة وقابله الجمهور بالتصفيق والهتاف بحياة الجزائر العربية المسلمة . واصل الشـيخ كلامه فقال « لست علامة المغرب العربى ولكننى علامة ـ بدون شدة ـ المغرب العربى وهنا أشار الى عمامته الجزائرية التى على راسه ، كما أشار الى القشابية التلمسانية التى كان يلبسها ثم اضاف : وانا علامة ـ بدون شدة ـ رفع لا علامة خفض » وهنـا دوت القاعة من جديد بالتصفيق الحاد المتواصل .

ولم يمض وقت طويل حتى أصبح يحتـل مكانة رفيعة فى المجتمع وصار لا يقام مؤتمر او مهرجـان او اجتماع ذو اهمية الا ويدعى اليه اما كمحاضـر أو خطيب . واما للاسترشاد برأيه فيما يعرض فيه من مسائل وموضوعات .

« تاسيس ندوة الاصفيـاء »

وقد اسس بعد قدومه الى الشرق بقليل مع جماعة من الادباء والمفكرين العرب أمثال المرحوم أحمـد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة « وكامل كيلانى الاديب المعروف ، وعلى الحومانى الشاعر اللبنانى المقيم بالقاهرة ، ومفيد الشوباشى الكاتب والناقد ، والحاج أمين الحسينى ، والشيخ عبد اللطيف دراز وكيل جامع الازهر ، والعقيـد « عبد الله التل » والدكتور « على عبد الواحد وافى » وغيـرهم من رجالات الفكر والقلم ممن لم نذكر اسماءهم « ندوة » ادبية اجتماعية ، فلسفية ، دينية ، أطلقوا عليها اسم « ندوة الاصفياء » على غرار « جمعية اخوان الصفاء » المشهورة فى تاريخ الفلسفةالاسلامية وكانوا يعقدون اجتماعهم مرة كل أسبوع فى منزل أحد اعضـاء الندوة بالليل يطرحون فيه موضوعا من الموضوعات التى تهم الفكر الاسلامى أو قضايا ومشاكل الوطن العربى ، والعالم الاسلامى ، فيلقى فيه أحد أعضـاء النـدوة بحثا مفصلا ثم بعد انتهائه منه يتناوله الاعضاء بالمناقشة والتعليق العميقين ، وقد تطول هذه المناقشات حتى منتصف الليل .

وقد تمكنت من حضور عدد من هذه النـدوات صحبة الشيخ البشير الابراهيمى فوجـدتها ملتقى فكريا رفيعا للغاية ، فى شتى مجـالات الفكر ، ولا غرابة فى ذلك فاعضاؤها كلهم ممن لهم قدم راسخة فى مجال من مجالات الثقافة أو العلم أو الادب أو الفـن .

وقد نشر المرحوم الشاعر على الحومانى عضو الندوة وسكرتيرها كتابا تحت عنوان « الاصفياء » (٥) جمع فيه عددا من موضوعات النـدوة ومن بينها موضوع للشيخ البشير الابراهيمى بعنوان « مشكلة العروبة فى الجزائر » .

« الشيخ البشير والبعثات العلمية الجزائرية الى الشرق العربى » :

ولم يكن هذا النشاط السياسى ، والاجتماعى ، والثقافى ، الذى انغمس فيه الشيخ البشـير منذ وصوله الى الشرق العـربى بصارف له عن المهمة الاساسية التى غادر الجزائر منأجلها الا وهىالعمل على فتح ابواب معاهد التعليم المختلفة فى وجـه الشباب الجزائرى المحروم من العلم والمعرفة باللغة القومية فى بلاده وقد كانت اول بعثة ارسلتها جمعية العلماء الى معاهد الشرق العـربى توجهت الى

٥) نشر دار مصر للطباعة القاهرة سنة 1955 فى حوال 500 صفحة

القــــــاهرة فى نـوفمبر ١٩٥١ قبل أن يســـاهر هو اليها فى شهر مارس ١٩٥٢ وضمت هذه البعثة ١٦ طالبا فى البداية ثم ازداد عدد افرادها بعــــد وصوله الى القاهرة الى ٢٥ طالبا وطالبة واحدة (٦)

وكانت بعثات جمعية العلماء فى البداية قاصرة على مصر وحدها حيث تمكنت جمعية العلماء بواسطة مكتبها بالقاهرة من الحصول على عدد من المنــح من الازهر ووزارة المعارف المصرية لابناء الجــزائر خلال عام ١٩٥١ والاعوام التالية له ٠ وبعد رحلة الشيخ البشير الى الشرق العربى تمكن من الحصول على منح أخرى للطلبة الجـــــزائريين فى كل من العراق (٧) وسوريا (٨) ، والكويت (٩) ، ثم المملكة العربية السعودية ، بعد قيام الثورة الجزائرية سنة ١٩٥٤ ٠

وكان المركز الرئيسى الذى يشرف منه الشـــيخ البشير الابراهيمى علىهذه البعثاتويصرف شؤونها يوجد مقره فىالقاهرة حيث يقيم هو فى معظم أوقات العام ، ولكنه كان يعين نائبا عنه خارج مصـــــر من ابناء البلدان التى توجد فيها البعثة للاشراف عــلى أفرادها من الناحية الاخلاقية والاجتماعية ٠

وكان بين وقت وآخر يقوم بزيارات للعــــراق ، وسوريا ، والكويت ، كي يتفقد بنفسه أحوال أعضاء البعثات ويتصل بالمسؤولين عن التربية والتعليم فى البلدان التى يزورهابقصد الحصول على منح جديدة للطلبة الجزائريين الذينتوفدهم الجمعية الى الشرق العربى من أجلالدراسة ويغتنم زياراته لتفقدالبعثات فيلقى على أعضائها المحاضـــــرات التوجيهية ، والارشادات العلمية والتربوية ٠

أما أعضاء بعثة الجمعية بالقاهرة فقد كان يجتمع بنا مرة كل أسبوع فى مركز الجمعية الموجود بشارع شريف بالقاهرة ٠

« عناية الابراهيمى بتكوين الشـــباب الجزائرى خلقيا وعلميا » :

أمران كان المرحومالشيخ البشير الابراهيمىيركز عليهما كثيرا فى تربية الشباب وتكوينهم واعدادهم لمواجهة أعباء الحياة العامة بكل ابعادها ــ الفردية والاجتماعية ، والوطنية هذان الامران هما :

أولا ــ الاخلاق ٠

ثانيا : العلم بمعناه الواسع ــ أي علم الدين ، وعلم الدنيا معا ، فقد كان رجلا متنورا متفتح الذهن والفكر لمتطلبات عصــــره ، يعيش همومه ، وينفعل بأحــــداثه وتطوراته ٠ ولذلك كان رحمه الله يحثنا كثيرا على القراءة والمطالعة فى كل علم وكل فن ، وعدم الاقتصار على فن واحد ، واختصاص واحــد فقط فطالب العلم فى رأيه مثل النحلة ــ ترتشف من رحيق جميع الازهار كي تنتج عسلا مصفى وكذلك طالب العلم يجب ألا يكون أفقه محدودا بنوع واحد من القراءة حتىيكون ابن عصره فى الثقافة والمعرفة

---

6) اعضاء البعثة الاولى لجمعية العلماء بمعاهد مصر هم : حسب تاريخ وصولهم الى القاهرة ــ تركى رابح ــ سعدى عثمان ــ سعد الدين نويوات ــ البشير كعبيس ــ يحيى خليفة ــ حسن محفوف التارزى الشرقى ــ المدنى بورزق ــ ارزقى صالحى محمد شيوخ ــ المبروك بن سعد ــ عيسى بوضياف ــ المنور مروش ــ محمد كسورى ــ احمد الدخيل ــ محمد الطاهر زعرورى ــ عبد الحميد بوذن ــ المدنى حواس ــ محمد التواتى ــ رشيد نجار ــ محمد الهادى حمدادو ــ محيى الدين عميمور ــ جمال الدين بغدادى ــ الخضر صالحى ــ زوجة الخضر صالحى . انظر البصائر عدد 242 ــ السنة السادسة 13 مارس 1954

7) اعضاء بعثة جمعية العلماء الاولى فى العراق ضمت احد عشر طالبا هم : مسعود محمد العباسى ــ المولود شرحبيل ــ رابح منصر ــ دودو ابو العيد ــ زروق موساوى ــ بشير كاشا ــ عبد المجيد بوذراع ــ جمعى المشرى ــ الاخضر بوطمين ــ عبد العزيز خليفة ــ عبد القادر قريصات ــ انظر البصائر عدد 262 السنة السادسة 12 مارس 1954

والفكر · وهذا لا يناقض التخصص في نوع معين من الدراسات العلمية ـ وقد كان هو يقرأ في سائر فروع العلوم الانسانية · ولم تنحصر قراءاته كمعظم علماء الدين الاسلامي امثاله على الفقهيات وما يتصل بها من حديث ،وتفسير ، وسير وأدب ، وشيء قليل من التاريخ الاسلامي العام ·

كنت معه في عدة مرات عندما كانت تهدى اليه الكتب ـ وكثيرا ما كانت تهدى اليه ـ من معارفه الكثيرين في القاهرة وانحاء العالم العربي الاخرى انه لا يقل سروره وفرحته بالكتاب الجديد يهدى اليه مهما كان الموضوع الذي يعالجه ، ويقرأه بنفس العناية التي يقرأ بها كتابا آخر في السيرة النبوية ، أو التشريع الاسلامي ، أو الادب العربي ، أوالفلسفة والاجتماع ·

اذكر انه عندما كان يجتمع بنا صباح يوم الجمعة من كل اسبوع في مركز جمعية العلماء بالقاهرة أن أحاديثه الينا كانت في معظمها تدور حول شيئين اثنين :

أولا ـ الثقافة العربية المحاربة من طرف فرنسا في الجزائر · وواجبنا نحو احيائها وبعثها للوجود بعد انتهاء دراستنا ·

ثانيا ـ الوطن الجزائري وما يعانيه من الاستعمار الفرنسي ، في لغته ، ودينه ، وسيادته الوطنية · وواجبنا نحن في العمل على تحريره من الاستعمار والنهوض به في شتى الميادين ·

وقد كان كثير التذكير لنا بالاعباء التي تنتظرنا في الوطن بعد عودتنا اليه · وكان يقول لنا ما معناه « انكم لن تستطيعوا ان تنفعوا وطنكم وأمتكم الا اذا ملكتم سلاحين هامين بدونهما لن تفلحوا في الحياة ، ولن يستفيد منكم وطنكم شيئا هاما ·

١ ـ الاخلاق القوية المتينة ·

٢ ـ العلم القوي المتين أيضا ·

وكان يحذرنا كثيرا من اللفظية ، والسطحية ، في الدراسة والتحصيل ، ويطلب الينا العمق في الفهم ، لكل ما نقرأ ، والنقد الموضوعي لكل ما نطالع ، ووجوب عرض افكار وآراء مؤلف الكتاب الذي نقرأه على عقولنا لغربلتها قبل التسليم بها · كما كان يحثنا على ان تكون المكتبات هي مكاننا المفضل للقراءة ، والبحث ، والمطالعة ، والتحصيل · وزيادة المعارف ·

وقد لاحظت ان الشيخ البشير كان عندما يتحدث الينا عن الاخلاق والعلم تكون لغته حارة نابعة من أعماق وجدانه ، تفيض بالحب والايمان والقوة في كل جملة ، وكل عبارة من كلامه ، مما يدل على ايمانه العميق بدور الاخلاق والعلم في نهضة الشعب وتحريره وبنائه على اسس سليمة ، اسمع اليه وهو يتحدث في التقرير الادبي في مؤتمر جمعية العلماء في اكتوبر ١٩٥١ عن دور المدرسة التي تقوم جمعية العلماء بتشييدها في الجزائر في النهضة القومية الوطنية يقول : « ··· فالمدرسة هي جنة الدنيا ، والسجن هو نارها ·· والامة التي لا تبني المدارس، تبنى لها السجون ، والامة التي لا تصنع الحياة · يصنع لها الموت ، والامة التي لا تعمل لنفسها ما ينفعها ويسعدها ، يعمل لها غيرها ما يضرها ويشقيها ··· والامة التي لا تغضب للعز الذاهب ،

8) اعضاء بعثة جمعية العلماء الاولى في سوريا : ضمت هذه البعثة عشرة طلاب هم : بلقاسم النعيمي ـ عبد السلام العربي ـ علي الرياحي ـ عبد الرحمن شطيطح ـ العربي طرقان ـ مرتضى يقاش ـ عبد الرحمن زناقي ـ حنفي بن عيسى ـ محمد خمار ـ بنعبد الله ولد عوالي ـ جريدة البصائر المرجع السابق

9) اعضاء بعثة جمعية العلماء الاولى للكويت : ضمت هذه البعثة اربعة عشر طالبا هم : محمد شريف سيسبان ـ صديق قشي ـ الجيلاني حماني ـ خريبط محمد ناصري ـ عبد الرحمن الازعر ـ أيوب الربيعي ـ حسن ونوس ـ صالح تلايلية ـ الهاشمي قدوري ـ الاخضر ادريس ـ محمد الصالح باوية ـ محمد العمري ـ محمد الشريف جواد ـ عبد العزيز سعد ـ / البصائر / المرجع السابق .

ترضى بالذل الجليب ، والامة التي تتخذ الخلاف مركبا ، يغرقها في اللجة ، والامة التي لا تكرم شبابها بالعلم والتثقيف ، مضيعة لرأس مالها ، والامة التي لا تجعل الاخلاق ملاكها ، أمة تتعجل هلاكها ، والامة التي تلد لغيرها ، أمة تلد العبيد لا أمة تلد الاحرار الصناديد ، والامة التي تعتمد في حياتها على غيرها طفيلية على موائد الحياة ، حقيقة بالقهر والنهر ، وقصم الظهر ـ ثم يقول : والحياة بلا علم متاع مستعار ، والوطن بلا علم عورة مكشوفة ، ونهب مقسم ، سنة من سنن الله ، وكسنته في تكوير الليل على النهار · ثم يضيف « وان المدرسة هي طريق الحياة ، وطريق النجاة ، وطريق السعادة ، وان الوطن أمانة الاسلام في اعناقنا ، ووديعة العرب في ذممنا ، فمن بعض حقه علينا ان نحفظ دينه من الضياع ، وان نحفظ لسانه من الانحراف ، وان لا سبيل الى ذلك الا بالمدرسة التي تبنيها الامة بمالها ، وتحوطها برعايتها ، وتجعلها حصونا تقي ابناءها الانحلال الديني ، والانهيار الخلقي ، وتحفظهم من ترف الغنى ، وذل الفقر ، وتربيهم على الرجولة والقوة ، وتوحيد النزعات ، وتصحيح الفطرة ،وتقويم الالسنة ، وتمتين الارادات والعزائم ، وتغرس الفضيلة في نفوسهم وتصلح فيهم ما افسده المنزل ، والشارع ، وتروضهم على حب الوطن ، وبنائه طبقا عن طبق » (١٠) ··

وقد كان كثيرا ما يكرر على مسامعنا ان حياة طالب العلم مقسمة الى قسمين : حياة علمية وحياة عملية ، وكلتا الحياتين تتصلان ببعضهما أوثق الاتصال ، فاذا كانت حياة الطالب العلمية قوية ومتينة ، ومبنية على اسس سليمة ، كانت حياته العملية في ميدان الخدمة الوطنية العامة كذلك والعكس صحيح · وقد عبر عن هذه الفكرة تعبيرا بليغا في احدى افتتاحيات البصائر التي كتبها في عام ١٩٤٧ تحت عنوان « الى ابنائي الطلبة المهاجرين في سبيل العلم » نقتطف منها الفقرات التالية لانها توضح هذه الفكرة توضيحا دقيقا يقول :

« يا ابناءنا ان الحياة قسمان : حياة علمية ، وحياة عملية ، وان الثانية منهما تنبىء عن الاولى قوة وضعفا وانتاجا وعقما ، وانكم لاتكونون اقوياء في العمل ، الا اذا كنتم اقوياء في العلم ، ولا تكونون اقوياء في العلم ، الا اذا انقطعتم له ، ووقفتم عليه الوقت كله ··· ثم يضيف ··· « انتم اليوم جنود العلم ، فاستعدوا لتكونوا غدا جنود العمل ، فان الوطن يرجو ان يبني بكم جيلا قوى الاسر ، شديد العزائم ، سديد الآراء ، متين العلم ، متماسك الاجزاء ، يدفع عنه هذه الفوضى السائدة في الآراء ، وهذا الفتور البادي على الاعمال وهذا الخمول المخيم على الافكار (١١) » ·

« نجاح جهود الابراهيمي في تكوين البعثات العلمية لجمعية العلماء » !

وقد أثمرت جهود الشيخ البشير الابراهيمي التي بذلها في تكوين البعثات العلمية لجمعية العلماء التي عمل بكل جهوده على فتح أبواب معاهد العلم في وجهها في مختلف البلدان العربية ، ورعاها ووجهها أثناء دراستها توجيها وطنيا سديدا حيث نجح ما يقرب من ٩٠٪ من افرادها في دراساتهم الثانوية والجامعية ، وعندما نشبت ثورة الفاتح من نوفمبر سنة ١٩٥٤ كانوا من جنودها وساهم عدد كبير من افرادها بفكرهم وثقافتهم في مختلف أجهزة الثورة ، وهم اليوم بعد الاستقلال يساهمون بفكرهم وثقافتهم في معركة البناء والتشييد الوطني · ونشاطهم يغطي اهم المجالات الوطنية ، كالاعلام ،والثقافة ، والتربية والتعليم ، والعدل والدبلوماسية ، والتدريس في الجامعات الوطنية الى غير ذلك من الميادين ·

10) جريدة البصائر ـ عدد ـ 172 ـ السنة الرابعة 19 اكتوبر 1951 ص 3
11) جريدة البصائر ـ عدد 9 السنة الاولى ـ سلسلة ثانية ـ 13 اكتوبر 1947 ص 1

ولا شك ان الفضل فى تكوين هذه النخبة الممتازة من الشباب الجزائرى تكوينا عربيا واسلاميا ووطنيا انما يعود الى الشيخ البشير الابراهيمى ورفاقه من رجال الحركة الاصلاحية فى الجزائر الذين اعدوا هذا الجيل الذى نتحدث عنه الآن واجيالا أخرى عديدة سابقة عليه فى ظروف كانت من أصعب واشد الظروف التى مرت بها الجزائر فى عهد الاحتلال الفرنسى • اعدوه من المراحل الابتدائية وواصلوا جهودهم فى اعداده حتىحصل البعض منه على أعلى الشهادات الجامعية فى مختلف الفروع العلمية • وبذلك أدوا للوطنوالشخصية الجزائرية خدمات جلى

« انتخاب الشيخ البشير عضوا فى مجمع اللغة العربية » :

وما دمنا نتحدث عن نشاط الشيخ البشير الابراهيمى فى الشرق العربى فيحسن بنا ان نشير فى ختام هذه الكلمة الى انه قد عرضت عليه عدة مناصبهامة فى مصر منها علىسبيل المثال « مشيخة جامع الازهر الشريف » ولكنه رفضها جميعا لانها تتعارض مع أهداف رحلته من الجزائر الى الشرق العربى ، ولم يقبل منها الا منصبا واحدا فقط لانه منصب علمى يتفق مع مكانته العلميةواللغوية ، وهو منصب عضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذى كان يعتز به اعتزازا كبيرا ، والمجمع المذكور كما هو معلوم يجمع زبدة رجال الفكر والعلم والثقافة فى الوطن العربى •

وقد انتخبه اعضاء المجمع بالاجماع كعضو مراسل للمجمع فى عام ١٩٥٤ ، وقد قام بتقديم مذكرة ترشيحه عضوا مراسلا للمجمع السادة : دكتور منصور فهمى ، ودكتور عبد الوهاب عزام ودكتور احمد امين ، والاستاذ احمد حسنالزيات ، وذلك « اعترافا بغزارة علمه ، وسعة حفظه ودقة فهمه لآداب العرب ، بجميع فنونها من شعر ، ونثر ، وأمثال ، وايام وانساب ، وتاريخ (١) » وقد استمر عضوا مراسلا حتى عام ١٩٦١ حيث تمتعيينه عضوا كامل العضوية فى مجمع اللغةالعربية ممثلا للجزائر بالمجمع المذكور ضمن أحد عشر عضوا عينوا من مختلف الاقطار العربية فى مجمع اللغة العربية فى ذلك العام (١٩٦١) وقد ناب عن الاعضاء الجدد فى الكلمة التىالقاها فىجلسة افتتاح الدورة الثامنة والعشرين من نفس العام للمجمع وقد قابله اعضاء المجمع بالترحيب الكبير ، وصفقوا له طويلا عندما قام يلقى كلمته باسم هؤلاء الاعضاء •

« الحنين الى الوطن » :

أصبح الشيخ بعد ان طالت غربته عن الوطن ـ وفيه الاهل والاولاد والاصدقاء ـ شديد الحنين اليه، كثير الذكر له ، وكنا عندما نجتمع به أحيانا يكثر علينا من القاء الشعر الذى يتحدث عن الحنين الى الوطن والاهل ، وقد يتذكر امامنا اصدقاءه ورفقاءه فى جمعية العلماء ، ورحلاته عبر انحاء الوطن ، ويفيض علينا فى الحديث عن خصائص وعادات كل ناحية ورجالها حديث العارف الخبير ، وكان كثيرا ما يتمنى ان تطول به الحياة حتى يعود الى أرض الوطن الذى احبه كثيرا ، وافنى زهرة شبابه فى خدمته ، وخدمة أجياله ، وفى بعض الاحيان يتوجه الى الله امامنا ويطلب منه ان يلقاه اجله فى الجزائر لا فى غيرها من البلدان الاخرى ، وقد عبر عن هذه الامنية فى افتتاحيةهامة بعث بها الىجريدة البصائر من القاهرة فى عام ١٩٥٣ تحت عنوان « تحية غائب كالآيب » ختمها بقوله :

« خطت الاقدار فى صحيفتى ان افتح عينى عليك وأنت موثقة ، فهل فى غيب الاقدار أن أغمض عينى فيك وأنت مطلقة ؟ وكتبت الاقدار علي أن لا أملك من ارضك شبرا • فهل تكتب لي أن أحوز فى ثراك قبرا ؟» وقد استجاب الله لدعائه فامد فى أجله حتى رأى وطنه الغالى حرا طليقا وقد عاد اليه فى أواخر سنة ١٩٦٢ بعد انتصار الثورة ورحيل الاستعمار من الجزائر وعاش فيه ثلاث سنوات التقى فيها برفاق جهاده واجتمع فيها بالاهل والولد ، واتصل به تلامذته الكثيرون من جميع جهات الوطن قبل ان يتوفاه الله اليه فى ١٩ مايو ١٩٦٥ « وهكذا يموت العظماء فلا يندثر منهم الا العنصر الترابى الذى يرجع الى أصله ، وتبقى معانيهم الحية فى الارض قوة تحرك ، ورابطة تجمع ، ونورا يهدى ، وعطرا ينعش » رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الاسلام والعروبة والوطن خيرا كثيرا • »

(12) جريدة البصائر ـ عدد 262 ـ السنة السادسة ـ 12 مارس 1954 ص 1

العربي التبسي

والنهضة العلميّة بالجزائر

أحمد بن ذياب



لا اعرف ـ بعد ابن باديس والميلي ـ مدرسا اجاد وافاد اكثر مما اجاد وافاد الشهيد العظيم الاستاذ العربى التبسى .

ولا اعرف رجلا احب تلاميذه الحب كله ، واخلص لهم الاخلاص جميعه ، وخلطهم بنفسه كانهم منه ، وكانه منهم ، مثلما عرفت الاستاذ العربى التبسى .

ولا اعرف رجلا يحدثك فتحس فى حديثه كيانه العام يتحدث اليك ، ووجوده الشامل يخاطبك ، ووجدانه العاطفى ، واحساسه الشاعر ، وعقله الواعى متآلفة ، متكافلة تناجيك ، حتى لكان الرجل فرقة من جنود الله هبت مسرعة اليك لتهديك الصراط السوى ، او لتنجيك من ويلات العواصف الهوج ، او تاخذ بيدك كيلا تتخطفك شياطين الظلمات فى البحر اللجى مثلما عهدت وعرفت فى الشيخ العربى .

تلك هي الملامح الاولى التي يمكن أن نهتدي من خلالها الى روح ذلك الرجل الذي أمضى نحوا من ثلاثين سنة ؛ ينشر العلم ، ويبث الاصلاح ، ويدعو الى النضال الجاد المستميت ؛ لا يخاف في الله لومة لائم ، ولا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، واعلاء كلمته ، وخدمة العروبة والاسلام في الوطن الجزائري الحبيب .

عرف التعليم المدرسي كفاءة الشيخ العربي - اول ما عرفها - في مدينة « سيق » حيث استدعي الى تادية واجبه هنالك - في أخريات العقد الثالث من هذا القرن - فقام بالمهمة خير قيام ، وخلت مساعيه هنالك آثارا حميدة مشكورة ، وكون له تلاميذ ما يزالون يعملون في الحقل العلمي أو الاجتماعي ، وهم يحملون له أطيب الذكريات ، ويقدرون فيه الرجل المعلم ، أو المعلم الرجل الذي عرف كيف يأخذ بأيديهم الى النور ، ويعترفون له بالفضل الجم ، والايادي البيضاء ، على انه الى جانب التعليم المدرسي صاحب رسالة ، وحامل أمانة في التعليم المسجدي مما أحيا العهد السلفي الاول ، وذكر بأولئك الفطاحل الصناديد من أمثال الابي شارح صحيح مسلم ، والقاضي عياض ، في تشقيق فن التحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبيين سننه ، والعربي التبسي هو الجزائري الذي اشتهر - في هذا العصر - بانه يحفظ أكثر من عشرة آلاف حديث من خيار الاحاديث الصحيحة أو الحسنة أو المستحسنة من كلام سيد الاولين والآخرين صلى الله عليه وسلم .

كما انه في الدروس التي تتصل بالقرآن وتفسير محكم آياته ، وتأويل المتشابهات منه ، عالم فحل ، ومجتهد له آراؤه الساطعة ، وتخريجاته القيمة ، ونظرياته العبقرية .

أما الفقه في الحلال والحرام - وما اتصل بهما - فحدث عن البحر ولا حرج - كما يقول المثل العربي -

من سيق الى تبسة

ومن سيق الى تبسة حيث عمل ما استطاع مستعينا بمكانته من قومه في مطلع العقد الرابع ، وكانت شهرته قد طارت في الآفاق ، وخبرته بمجتمعه قد توسعت أرجاؤها ، وايمانه بمستقبله في وطنه - أو مستقبل وطنه به - قد ظهرت معالمه الاولى فأسس مدرسة ، وبنى الى جوارها مسجدا جامعا ، واصبح يعمل ليل نهار ؛ يربي الآباء في المسجد ، ويكون الابناء في المدرسة ، ويكون - ببث ذاك - في كل منزل نقاش حول ما تلقاه الاب ، وما تعلمه الابن فيعطي الكبير للصغير - ويتلقى منه في الوقت نفسه - وظل العربي التبسي في تبسة وضواحيها أكثر من مرب حكيم ، وأكبر من عالم اجتماعي ينشد الاصلاح ، وأعظم من زعيم روحي خلاق . ولم يكن النشاط الفائض في ذلك الرجل ليقصر جهوده على المسجد والمدرسة ؛ دون الاهتمام بالنادي ، وما تجيش به رحابه من نفوس شابة ، وعقول فتية ، ومدارك حية متطلعة الى تفهم حقائق القومية الجزائرية الخاصة ومنابع نهضة العروبة عامة ، فكان له في تبسة الاثر العظيم الخالد مما رفع تبسة وضواحيها الى مصاف معاقل العروبة والاسلام في هذه الديار

وطارت تبسة بفضل بنيها الميامين من خريجي

مدرسة الشيخ العربى موزعة فى الوطن الجزائرى كله اعمالا ناجحة ، وأفكارا نيرة وعقولا واعيـــة وآمالا واسعة،ونبوغا خلاقا ، وعبقريات جريئة هنا وهناك.

ومن الانصاف ـ هنا ـ أن نقول : ان أهم ميزة للمدرسة التبسية هذا التشبع بالروح الوطنية ، والاعتداد بالنفس ، والثقة بالكفاءة ، وهى صفـات قلما توجد متكاملة مثلما توجد فى تلاميذ ابن باديس وتلاميذ الشيخ مبارك ، وتلاميذ العربى التبسى دون أن نغمط خصائص المدارس الاخرى ، أو ننقصها حقها من التجلة والاحتـــرام .

جهود الشيخ العربى فى جمعية العلماء :

وتتصل الايام متلاحقة ، وتتواصل الجهـــود متساندة ، وتؤسس جمعية العلماء ويكون المرحوم الشهيد الشيخ العربى من أركانها الشديدة ، أو من المؤسسين الاولين ، ويبقى وفيا لمبادئها الوفاء العملى الافضل ؛ يخرج فى وفودها العظيمة للوعظ والارشاد ، وتأسيس مدارس العلم ، ومساجد العبادة والاصـــلاح ، ونوادى الادب والفـــن ، ويكتب فى جرائدها ، ويشارك فى مخططاتها ، ويصدر فتاويه الصريحة الخطيرة فى الشؤون التى تتصل أحيـانا بالحكومة الاستعمارية فلا يبالى العواقب ، ولا يخشى فى الله سيف ظلام غشوم ولا غضب سلطان جائر .

وتاتى الحرب العالمية ، ويجبر على الاقامة فى تبسة ، ويتعرض الكثير من أبنائه الروحيين واخوانه المخلصين ، وتلاميذه الاوفياء للسجن والنفـــى ، والحجز الاجبارى ، وتتوقف الحركة الجماعية لجمعية العلماء ، ثم يستشهد المرحوم ابن باديس فى حين ان الابراهيـــمى يعانى المنفى والمرض والمضايقات الوحشية فى الصحراء الباردة بمدينة «آفلو» ويخشى أن تتعطل أهم رسالة للشيـــخ ابن باديـــس ، وهى تفرغه لتعليم أبناء الوطن ، من شرقه الى غربــه ، ومن شماله الى جنوبه فى «الجامع الاخضر» و «سيدى قموش» وهى المحاولة التى كانت ترمى الى أن تكون الجزائر كشقيقتيها تونس والمغرب الاقصى ، ذات معهد علمى معمور ، مثل الزيتونة والقرويين ، وقــد سار ابن باديس فعلا ـ فى هذا الميدان ـ أشواطا بعيدة ، فاذا استشهد ابن باديس وهو يؤدى واجبه العلمى ، ورسالته الاصلاحية ، أو مات ميتة الرجال الابطال واقفين مع الحق ناصرين للمبادى السامية ، عاملين مخلصين غير وكلين ولا متخاذلين واحتاجت الامة الى من ينوب منابه فى تادية رسالة الجـامع الاخضر وسيدى قموش فان الاقرب والاشد اتصالا به هو تلميذه وصفيه المرحوم الشيخ مبـــارك الميلى ، ولكنه ماكاد ينتهى عام 1940 الدراسى حتى تبين أن المرض العضال الذى كان يعانى منه الشيخ مبارك يجعل قيامه بما كان يقوم به ابن باديـــس مستحيلا ، أو فى حكم المستحيل فمن الذى ترشحه الامة للقيام مقام ابن باديس ؟

تبسة تتحـول الى قبلة للعلـــم :

تحولت الانظار الى الشيخ العربى وانصاره من تلاميذه ، ولم يكن فى الامكان أن يفر الشيخ العربى عن مشاريعه فى تبسة ، ولم يكن شعبها ليستطيـــع الاستغناء عنه ، ولم تكن ظروف الحرب نفسهـــا لتساعد على انتقاله الى قسنطينة ـ رغم أن فرنســا قد غلبت على أمرها ، واصبحت خاضعة ، تحت حكم

«الماريشال بيتان» الى ضغط «المحور» وقطبه المانيا النـــازية ـ

وهكذا تحولت تبسة بفضل وجود الشيخ العربي فيها الى « قبلة ثانية » لطلاب العلم ، وعشاق الادب ورواد الاصلاح الديني الحنيف ، وأعلن في الجزائر ان تبسة ومدرستها ، وجامعها ، ورحابها ، هـــي قسنطينة أمس من حيث العلم ، وان الشيخ العربي هو خليفة ابن باديس في هذا الميدان .

وقام بالمهمة ، وبرهن على أنه خير خلف لخير سلف ، فازدادت الجزائر به خبرة ، وازداد هـــو خبرة بأبنائها ، وخرج الشيخ العربي عن النطـــاق الخاص في تعليم أبناء تبسة وضواحيها الى النطاق العام ؛ لتقبل أبناء الجزائر من مختلف مدنه وقراه الذين اموه من كل حدب وصوب ؛ يفدون عليـــه عطاشا يريدون الري العقلي والادبي والخلقي فيبل غلتهم ويشفي ظمأهم : يتعلمون منه العلم ، ويقتبسون من سيرته الخلق ، ويقلدونه في الوطنية الـــتي تستوعب القيم العالية ، والشيم الكريمة ، ويـــأتي اليهم ذووهم للزيارة ، أو للاستطلاع ، أو للعيـــادة فيستقبلهم الشيخ العربي ، فيزودهم بنصائحه ، ويحل مشاكلهم بآرائه ، ويصحح دينهم بفتاويه .

فاذا انتهت السنة الدراسية ، أو حان موعد عطلة موسمية زود تلاميذه بما شاءت له تجاربه في الحقل العملي لصالح الوطن ، واقنعهم بما يجب أن يبثـــوه من عوامل التوعية في قراهم ومداشرهم ، وأرشدهم الى الطرائق المثلى التي يمكن ان تعود بالنفع العاجل والتمهيد للآجل ، من صالحات الاعمال ، وطيبـــات الاقوال .

وتمضي الايام وهو يؤدي رسالته العلميـــــة والتعليمية والاصلاحية صلبا في الحق ، قويا في العزيمة ، عنـــودا في مقاومة الطغيان الاستعماري ، لكنه شفوق على أبنائه وتلاميذه ، رؤوف باخوانـــه ومعاونيه ، حدب على مصالح أمته ووطنه ، وثـــوق بدينه وربه ، وأن العاقبة للمتقـــين .

مكيـــدة الثامن مـــاي 1945 :

وتأتي مكيدة الثامن من ماي 1945 فيكون نصيبه السجن المضيق ، والاستنطاق العنيف ، والنـــكال الشديد ، ويحفظه الله من شر أعدائه وكيـــــد الظالمين الماكرين مصداقا لقوله تعالى في الآيـــة الكريمة « ولا يحيق المكر السيىء الا بأهله » .

وتأتي سنة 1946 فيكون ما سماه الاستعمـــــار «بالعفو العام» بالنسبة للابرياء الذين كان ظلمهـــم فزج بهم في سجونه أو أبعدهم في معتقلاته ومنافيه وكان الواجب أن يحرق ـ أو يمزق ـ أولئك المجرمين الحقيقيين مدبري المكيدة من أمثال الظالم العنصري الحقود ـ كاربونال ـ عامل عمالة قسنطينة يومئذ وشريكه المجرم السفاح ـ لاشيارى ـ رئيس دائرة قالمة ، ومن لف لفهما من الطغاة الجناة في سطيف وخراطة وعموشة ، أولئك الذين ستظـــــل أرواح الشهداء الخمسة والاربعين الفا تطاردهم أحيـــاء وامـــــواتا .

اما الذي لا شك فيه أن تلك المجازر قـــــد اثرت في الشيخ العربي وصحبه أيما تأثير ، ونالت من قلبه العطوف الشفوق ، ولكنها لم تنل من ايمانه ولم تقلل من حزمه ، ولم تفل من حدة لسانه في التنديد بأعمال الاستعمار ، وطغيان أساطينـــه ،

وما يتجرءون عليه من اقتراف الفظائع ، ويرتكبونه من حماقات فى اختراع الفواجع .

وتتهيأ الفرصة لجمعية العلماء فتجدد نفسها فى خريف سنة 1946 فيكون الشيخ العربى هو الرئيس الثانى لها ، ويكون مؤتمر المعلمين على هامشها فيشرف عليه ويسيره ويساهم فى توجيهه بمناقشاتـــه الهادفة دفاعا عن القرآن وحظه من الوقت فى المدرسة الحديثة ، وتخصيص رجال مقتدرين لتعليمه ، حتى تكون منه الخلق القويم للتلميذ ، ونوسع من تراثه اللغوى بمفرداته ، ونعوده محاكاة القوة فى أسلوبه، ونمكنه من فهم أسرار فصاحته وبلاغته ، وسلطان اعجازه فيكون له أثره ، وتتكون « النواة الاولى » للمدرسة الموحدة ، قوية من خلال ذلك المؤتمر ، وتنفتح ابواب الخير أمام الامة مبشرة بالمستقبل السعيد بفضل توحيد البرامج ، وتقريب المشارب ، وتلاقح الافكار ، وتعيين مفتشين ، وخلق ما يشبه ان يكون «اكاديمية» حرة للتعليم العربى القـــومى بهذه الربوع فتاخذ تؤدى رسالتها ، وتعطى ثمراتها اليانعة ، وتمهد للثورة المتوقعة ــ فى الفرصـــة المنـــاسبة ــ .

الشيخ العـربى وادارة المعهـد :

وفى ربيع سنة 1947 تنهض الامة بتأسيس معهد ابن باديس تحت اشراف جمعية العلماء ، أو تؤسسه جمعية العلماء بمعونة الامة ويكون كل من اســم عبد الحميد بن باديس ، وموقعه بقسنطينة ، وانتخاب الشيخ العربى لادارته من بين المبشرات بنجاحه ، وفى هذه المرة يغلب الشيخ العربى على أمره ، أو يبلغ به ايمانه بالمصلحة العليا ، أن يقبل فيغـادر تبسة ، وقد أصبح جنوده فيها قادة أكفاء ، ومربيـن نصحاء ، ومديرين مقتدرين ، وتكشف الايام منــه فى المعهد عن رجل آخر فى سير النهضة العـام ، ونشاط الامة الدائب ، وتسيير أكبر مؤسسة علمية ثانوية للامة الجزائرية .

وقد كان أبناء الامة ــ قبل المعهد ــ لا يستطيعون أن يستكملوا تعلمهم الثانوى الا بضروب من الاغتراب الشاق الى تونس ، أو العالم العربى شرقا ، أو الى القرويين بفاس غربا .

ونجح الاستاذ العربى التبسى فى ادارة المعهـد نجاحا منقطع النظير يشهد له بذلك ما سجلـــه الاستاذ العلامة محمد البشير الابراهيمى فى مقال قيم نشرته «البصـــائر» فى عددها الصادر فى 26 يولية 1948 ــ وهو عدد خاص بنشاطات المعهـــد ونظمه ــ جاء فيه ما يلى :

« والاستاذ التبسى ــ كما شهد الاختبار ، وصدقت التجربة ــ مدير بارع ومرب كامل خرجته الكليتان: الزيتونة والازهر فى العلم ، وخرجه القرآن والسيرة النبوية فى التدين الصحيح ، والاخلاق المتينـــة ، وأعانه ذكاؤه والمعيته على فهم النفوس ، وأعانته عفته ونزاهته على التزام الصـــدق ، والتصلب فى الحق ، وان أغضب جميع الناس ، والزمته وطنيته الصادقة بالذوبان فى الامة والانقطاع لخدمتهـــا بأنفع الاعمال ، وأعانه بيانه ويقينه على نصر الحق بالحجة الناهضة ، ومقارعة الاستعمار فى جميــع مظاهره **فجاءتنا هذه العوامل مجتمعة برجل منه يملأ جوامع الدين ، ومجـامع العلم ، ومحـافل الادب ،**

ومجالس الجمعيات ونوادي السياسة ومكاتب الادارات ومعاهد التربية » .

تلك هي شهادة المرحوم **البشير الابراهيمي** في صفيه وعضده الايمن ، وخليفته في رئاسة جمعية العلماء من حيث المكانة العلمية والمنزلة الادبية الممتازة ، ومن حيث الرجولة العاملة ، والمؤهلات الموهوبة والمكتسبة ، أما حين يتحدث عنه في الجانب العلمي فانه يقول :

« والاستاذ التبسي يتساهل في حقوقه الادبية الى درجة التنازل والتضييع ولا يتنازل – أو يتساهل – في فتيل من النظام ، أو الوقت ، أو الاخلاق ، أو الحدود المرسومة» . (نفس عدد البصائر المذكور) (1)

أيها القراء الكرام ، ان رجلا تكون هذه هي الصفات التي يتحلى بها ، وتلك هي المكانة العلمية التي يتبوؤها ، وذلك هو النشاط الدائب الذي لازمه طيلة ثلاثين سنة لا يستطيع أي أحد ان يقدر مدى ما أمكن أن يتخرج على يديه من رجال ويتفتح بفضل توجيهاته من عبقريات .

مسؤوليات جديدة :

ويغادر **محمد البشير الابراهيمي** هذه الديار في الاشهر الاولى من سنة 1952 الى فرنسا أولا ، ثم الى الشرق ثانيا فتصبح رئاسة جمعية العلماء ملقاة كلها على كاهله بما فيها من مشاكل ، ويتبعها من مسؤوليات ، ويؤمل معها من خير للامة ، فينوء بكل ذلك في سعة أفق ، وضلاعة تحمل ، ويقين ايمان ، وعزيمة صبر ، ويمضي قدما بمشاريعها كلها جياشة حية ، وعاملة مثمرة ، ونضالية دائبة .

وتاتي قضية تكوين الجبهة – جبهة التحرير الوطني استعدادا للثورة فتكون له المواقف المشرفة والمساعي الحميدة ، ويعلن في ربيع سنة 1954 في مقال رنان « بأن كل مطالب جمعية العلماء حول حرية التعليم العربي ، وحرية المساجد بما لها من أوقاف ، وحول حرية القول وحرية الصحافة ، وحول القضاء الاسلامي وما ينبغي أن يكون عليه من علم ، وصلوحية ، وتوثيق ، وتعديل وجرح واصلاح قانون وغيرها من مشمولات الشخصية الاسلامية للجزائري لم تعد مطالب جمعية العلماء ، وانما أصبحت جزءا من قضية الامة الجزائرية ، عامة ، ولم يعد للجمعية أي حق في التفاهم مع فرنسا ، أو ممثليها في الجزائر الا بالقدر الذي تتكلم فيه مع من يتكلم باسم الجزائر فيما تريد لها من حق في الاستقلال والحرية وتقرير المصير » .

موقفه من الثورة المباركة :

وذهب في خريف تلك السنة لاداء فريضة الحج الى بيت الله الحرام.فقضاها ليعود من هناك فيخبرنا عما راى وسمع وتناول من موضوعات الساعة سواء مع أبناء الجزائر في الشرق العربي ، أو مع زعماء العرب ورؤسائه انفسهم ، ونقل الينا في جملة ما نقل : «ان القوم يرون وجوب الخيار بين اثنين : اما الثورة والكفاح المسلح واما الاعلان – مع

1) البصائر عدد 26 يوليه سنة 1948 كما سبقت الاشارة اليه

الاستعمار ـ بأن الجزائر «غربية» ليست عربية ولا اسلامية» لان العروبة يأبى لها شممها الخنوع ، ويستكنف بنوها من الخضوع . والحياة عندهم تقول «النار ولا العار» ولان الاسلام تنص آياته الكريمة بالبلاغة الصارخة في سورة النساء « **ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا**» وعليه فالثورة هي الحل الوحيد الذي لا اختيار للجزائر في غيرها»

ثم يمضي فيقول «« وعما قريب ستتمخض الأيام عن مولود جديد »»

وما يكاد يطلع فجر غرة نوفمبر من سنة 1954 حتى ظهر المولود المبارك وهلل كل جزائري صميم للثورة المندلعة . وتمضي الجزائر قدما في نضالها البطولي المجيد ، والشيخ العربي لا يفتر عن الدعوة العلنية لحق الثوار على الشعب . وما يجب أن يكون عليه من يقظة وحزم وتحمل .

ولعل من حق التاريخ أن أسجل هنا أن آخر لقاء لي به كان خلال عطلة يناير سنة 1957 . وكان مدعوا وبعض اخوانه وتلاميذه الى تناول الغداء بحي الابيار في الجزائر . وكان الداعي أسرة تنتسب «لاولاد رداج» ويومها تعرض لقضية الثورة فيجمهور الحاضرين فقال ما معناه :

« انقلوا عني ، وبلغوا كل من لقيتم ممن تعرفون أن كل «هجرة» من الوطن الى خارجه تعتبر مروقا من الدين . وخيانة للوطن ؛ ما لم تكن «في مهمة كلفت بها «جبهة التحرير» .

وكل من خالف يعتبر من مشمولات الآية الكريمة التي جاء فيها « **ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير** » .

وبكلمة موجزة أقول : ان حق المرحوم الشهيد العربي التبسي الذي اغتيل ليلة الرابع من شهر افريل سنة 1957 ، على المثقفين الجزائريين عامة وتلاميذه واخوانه خاصة حق عظيم ، وان مآثره لاكثر من ان يحيط بها قلم كاتب ـ مهما كانت مكانته ـ لذلك نسال الله جميعا أن يقيض له أقلاما متينة سيالة تتناول حياته في مختلف مراحلها ، ونشاطاته في ميادين العلم والعمل ، وصراحته في الحق ، وجراته على مقاومة الاستعمار ، ثم ما كان منه من مواقف جليلة حازمة لصالح الثورة ، وصالح الجزائر ، وصالح العروبة ، وصالح الاسلام .

تغمده الله برحمته ورضوانه ، وشكر له مساعيه العظيمة ، وجازاه بها احسن الجزاء واكرمه واوفاه .

• أضواء على تاريخ الجزائر فى العهد التركي •

من خلال مخطوط

الثغر الجمانى فى ابتسام الثغر الوهرانى

• المهدي البوعبدلي

هذا التاليف الذى نقدمه اليوم للقراء هو من التآليف النادرة القيمة التى تميط اللثام عن جوانب كثيرة من **تاريخ الجزائر فى العهد التركى الذى مازال يكتنفه الغموض .**

اعتنى كثير من الباحثين بدراسة هذه الفترة من تاريخ الجزائر الا ان جلهم اعتمدوا على ما كتبه المستشرقون أو ترجموه من المصادر العربية .

ان أكثر المستشرقين اهتماما بتاريخ العهد التركى هم الاسبان اذ خصصوا مئات التآليف لهذا العهد ومازالت خزائن الوثائق فى اسبانيا مملوءة بها وقد نشر الكاتب الاسبانى رودريقيز ماران (1) RODRIGUEZ MARIN فهرسا لهذه الوثائق يحتوى على 900 تسعمائة صفحة .

(1)Rodriguez Marin : Guia historica y descriptiva de los (1) archives, bibliotéchas y muscos arqucologicos de Espana : archios historicos Madrid (surprenta de la Bovista de archios 1916 nº 827 p.

كما اعتنى كثير من المؤرخين والرحالين والتجار والقسيسين من مختلف الاجناس بتدوين مذكرات انطباعاتهم للمدة التي أقاموها بالجزائر . ثم ظهرت بعد ذلك تآليف أخرى خصوصا بعد الاحتلال الفرنسي ـ 1830 ـ جل اصحابها من الفرنسيين اعتنوا بالمصادر العربية فترجموا معظمها أو لخصوه وساعدهم على مهمتهم استحواذهم على كثير من بقايا التراث فدرسوها في المؤتمرات العلمية بعد أن حققوها ونشروا نتائج بحوثهم في سجلات تلك المؤتمرات ، وفي المجلات الخاصة لهذ النوع من الدراسات . كالمجلة الافريقية التي كانت تصدر بالجزائر . والمجلة الاسيوية التي تصدر بباريز فاحيوا فيها كثيرا من الآثار التاريخية التي اكتشفوها في بعض الخزائن العامة والخاصة وبعثوها من مرقدها .

هذا واننا وان كنا نعترف بالفضل لبعض هؤلاء الكتاب على ما بذلوه من جهود في سبيل المحافظة على تراثنا وأحيائه . وعلى ما استفدناه من بحوثهم ، فاننا نلاحظ . انه ان كان الهدف للكثير منهم البحث العلمي النزيه . فان الآخرين شوهوا الحقائق بعضهم جهلا والبعض الآخر عمدا ، جريا على ما كانت تتطلبه المصالح الاستعمارية . او التعصب العقائدي . وقد وصل الكثير منهم الى أهدافهم حيث بذروا الشك في عقول كثير من المواطنين . ولقنوا حقائق تاريخية، اقل ما يقال فيها انها مشوهة . ولهذا فنحن في أشد الحاجة الى اعادة النظر في البحث عن ماضينا . والى معرفتنا ، والى معرفتنا بقيمنا الحقيقية . والاعتناء بدراسة هذا الماضي دراسة علمية دقيقة . مجردة عن الاغراض والارتجال . وهذا يتوقف قبل كل شيء على جمع الوثائق المختلفة لذلك العهد . ودرسها من جديد ، وتقديمها للقراء حتى يتسنى للخلف أن يعرفوا حقائق ماضي البلاد بصورة واضحة وان يطلعوا على المشاكل التي واجهت السلف وتغلب عليها أو تغلبت عليه . ولهذا يشترط في الباحث أن يتحرى الصدق في النقل . وان لا يتسرع بالتصرف في النصوص او بالحكم على الاحداث حسبما تمليه عليه الاهواء او التيارات الفكرية . فيؤول النصوص ، أو يلفق منها ما يؤيد به رأيه . أو مذهبه في الظروف التي فيها . اذ لا تخلو من تيارات أو مذاهب تجتاح المرة بعد المرة البلاد ، فيندفع الرأي العام على غير هدى وروية . ثم لا تلبث ان تهدأ فورتها . فتخبو وتنطفي. ولهذا قيل ان المؤرخ ينبغي له أن يكون أمينا كالفنان المصور . كما يشترط في الباحث أن لا يحكم على احداث الماضي بمقاييس ومناظر العصر الحاضر . فمثلا ان الوطنية الضيقة الحدود . كانت مجهولة اذ ذاك في كثير من بلاد الاسلام حيث كان المسلم أينما حل فهو في بلاده ووطنه . وبهذه النظرة يمكننا أن نتصور عهد الحروب التي كانت متواصلة بين ملوك بني زيان، ملوك تلمسان . وبين بني مرين . ملوك المغرب . ثم بينهم وبين ملوك بني حفص ملوك تونس ، وكان الجزائريون . كثيرا ما ينتصرون للمرينيين ولبني حفص على ملوك بلادهم بني زيان .

ان أثر الاحتلال الاسباني للجزائر الذي أعقبه الاحتلال التركي . ومقاومة البلاد طيلة قرون . شحذ قرائح الكتاب الجزائريين وجعلهم يهتمون بالاحداث التي اجتازتها البلاد ، فالفوا تآليف كثيرة لها أهمية خصوصا بعد انتصاراتهم على الاسبان . وطردهم

من وهران . التى دام احتلالهم لها ما يقرب من ثلاثة قرون . اذ احتلها الاسبان سنة 914 هـ وأخرجوا منها سنة 1119 هـ ثم استرجعوها سنة 1144 هـ وبقوا بها ربع قرن ، الى ان أخرجوا منها نهائيا سنة 1206 هـ على يد الباى محمد بن عثمان الكبير الكردى - باى الولاية الوهرانية - فعندئذ تسابق الكتاب والشعراء الى تخصيص هذا الفتح بعدة تآليف . كما سبق ان خصص سلفهم للفتح الاول الذى وقع سنة 1119 هـ فى عهد محمد بكداش باشا الجزائر وخليفته مصطفى بوشلاغم باى الولاية الوهرانية اذ خصصوا الفتح الاول بعدة تآليف وملاحم وقصائد وصلنا منها ما جمعه العالم الاديب محمد بن ميمون الجزائرى وسماه : « التحفة المرضية فى الدولة البكداشية فى بلاد الجزائر المحمية » (1) والذى ترجم فيه للباشا الفاتح وكتاب « بهجة الناظر فى اخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين من الاعراب كبنى عامر » للشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفى نصه للمتعاونين مع العدو وبعد ان بين أصول القبائل المتعاونة وفصولها تعرض لحكم الله فيها ثم شرح « أرجوزة الحلفاوى » للرحالة عبد الرحمن الجامعى الفاسى صاحب الرحلة المشهورة الذى ساهم المهنئين للباشا بكداش فى الفتح بقصيدة بليغة ذكرها صاحب « التحفة المرضية » أما الكتاب الذين خصصوا تآليفهم للفتح الثانى والاخير الذى وقع على يد محمد بن عثمان . فهم المؤرخ محمد أبوراس الناصرى فى تاليفه « عجائب الاسفار ولطائف الاخبار » ومحمد المصطفى بن عبد الله بن زرقة الدحاوى فى «الرحلة القمرية فى السيرة المحمدية» وأحمد بن سحنون فى « الثغر الجمانى فى ابتسام الثغر الوهرانى » موضوع مقدمتنا هذه وهو كما ذكرنا من اهم وأنفس ما ألف فى ذلك العهد اذ هو عبارة عن مذكرات دونها مؤلفها الذى كان يعيش فى بلاط الباى وكان ملازما لولده ولى عهده وسنتعرض للحديث عن التاليف بتفصيل فى آخر هذا التقديم .

كانت هذه الحرب المشهورة بحرب الاسبان حربا صليبية تجددت فى شمال المغرب الاقصى حيث هاجم الاسبان والبرتغال شواطىء المغرب . وسقطت بعض مدنه الساحلية كسبتة ، سنة 817 هـ والقصر الصغير سنة 862 هـ ثم تطوان وطنجة ومليلة وبعد سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين بالاندلس سنة 897هـ صفا الجو للاسبان وأدت بهم نشوة الانتصار الى تتبع المسلمين فى عقر دارهم . فكان احتلال وهران سنة 914 هـ بعد احتلال المرسى الكبير ثم احتلال بجاية . فتونس . وطرابلس .

كان ملك اسبانيا اذ ذاك فردينان (FERDINAND) وقد استشاره الصليبيون على شن هذا الهجوم فوافقهم مبدئيا واعتذر لهم على تأخيره للعجز المالى . فتقدم اذ ذاك الكاردينال كسيمنيز (XIMENEZ) أسقف طليطلة وتعهد بتحمل نفقات هذه الحرب بشرط ان يكون ذلك فرضا من الكنيسة . كانت

1) حققها وقدمها الاستاذ محمد بن عبد الكريم الزمورى لنيل شهادة الدراسات العليا بكلية الجزائر منذ سنة .

صلة الكاردينال كسيمنيز هذا وثيقة بالملكة ايزابيل المشهورة بالكاثوليكية زوج الملك فردينان والمتعصبة للحرب الصليبية اذ هي التي تداخلت في الصلح بين قومها والبرتغال فطلبت من البابا الكسندر (ALEXANDRE 6) السادس التدخل في هذا الصلح ليتقاسم فيه الاسبان والبرتغال مناطق النفوذ بينهما فكان الاجتماع المشهور باجتماع طرودزيلا (TRODESILLAS) سنة 1492 م . فخصص البابا للبرتغال مدن شواطىء المحيط الاطلنطي ، والبقية أي شواطيء البحر الابيض للاسبان ، وبعد احتلال شواطيء الجزائر عزز البابا قرار 1492 م بقرار آخر ، أعلن فيه الحرب الصليبية على بلاد المغرب العربي سنة 924 هـ الموافق لـ 1518 م . وأمر ملوك أوربا بعقد مهادنة لمدة خمس سنوات ،تتفرغ فيها اسبانيا لاحتلال ما تبقى من مدن المغرب العربي

كانت بلاد المغرب العربي أثناء هذه الاحداث سيئة جدا ، فعلاوة على عوامل الضعف والانحطاط التي عمت البلاد الاسلامية كلها ابتداء من منتصف القرن الثامن الهجري كما ذكر ذلك المؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون وشاركه في رأيه أستاذه الجزائري محمد المقري التلمساني وان اختلفا في الاسباب فالمقري كان يرى أن النظام (1) الملكي هو من أسباب ذلك التدهور حيث انه مناف للتعاليم الاسلامية المحبذة للشورى وابن خلدون يرى أسبابا أخرى بينها بتفصيل في تاريخه (ديوان العبر) .

نال المغرب العربي حظه من هذا التدهور ولم تتغير حالته طيلة القرن التاسع ويظهر ذلك جليا في ضعف الملوك وتنمر القبائل العربية التي كانت تتمتع بشبه استقلال في اقطاعاتها وكلما أحست بضعف الملوك الا وبالغت في تمردها وتحديها ومطالبها اذ كان لا يهمها الا مصالح القبيلة والعشيرة . فعندما فوجئت الجزائر بالاحتلال الاسباني كانت مجزأة الى نحو خمسة عشر جزءا الكل تهيمن عليه قبيلة عربية أو بربرية . فقبيلتا سويد وبني عامر الشهيرتان كانتا تسيطران على معظم سهول ولاية وهران . وكان آل المقراني يتصرفون في القبائل الصغرى (وادي بجاية) وكانت قاعدة امارتهم قلعة بني عباس ثم حولت الى مجانة والقبائل الكبرى تحت تصرف آل ابن القاضي ومقر امارتهم جبل كوكو ، ومدينة الجزائر وسهول متيجة تحت تصرف قبيلة الثعالبة ورئاستهم اذ ذاك في آل ابن التومي . كما كانت كل من قبائل الذواودة والاحرار وسد ويكش وبني تيقرين تهيمن على ناحية لا تنالها في تصرفاتها أحكام الملوك . وقد تعرض كثير من الفقهاء لحالة بعض هذه القبائل ، خصوصا صاحب « الدرر المكنونة في نوازل مازونة » بذكر كثير من الاسئلة الواردة في حق هذه القبائل وتمردها على الحكام فقال (وسئل الحفيد سيدي محمد العقباني عن هؤلاء الاعراب المتغلبين على البلاد لضعف السلطنة احيانا يكونون خداما للسلطان وتارة يكونون مخالفين على السلطان كما يفعل عرب بلدنا مثل بني عامر وسويد يعمد أحدهم الى تولية قاض في وطنه (أي اقطاعه) بـ لا

1) بحث طريف في الموضوع نشره احمد المقري في ترجمة جده ،نفح الطيب ج 3 ص 147، ـ المطبعة الازهرية 1302 ـ

أمر الامام فيقضى هل تصح توليته وتنفذ احكامه؟الخ

وقال في موضع آخر (... مع أن احكام السلطان أو نائبه لا تنالهم بل ضعف عن مقاومتهم فضلا عن ردعهم بل انما يداريهم بالاعطية والانعام ببعض بلاد رعيته ونصب عمالهم فيها وقطع نظر عمل السلطنة عن النظر فى جبايتها الخ .

هذه فى الجملة حالة بلاد الجزائر اذ ذاك نتجت عن انهيار دولة الموحدين وتفككها فى أوائل القرن السابع اثر ثورة بنى غانية، بقايا اللمتونيين المرابطين ثم دب الخلاف والنزاع فى صفوف ولاة الموحدين أو مشائخهم ـ كما كانوا يدعون حينئذ الذين تسابقوا الى وراثة الدولة المركزية . فكان كل منهم يرى أنه الاحق بوراثة تعاليم الامام المعصوم . فاندلعت الحرب بينهم ، وبقيت طيلة قرون .

كانت دولة بنى زيان فى تلمسان بحكم موقعها الجغرافى بين نارين . تارة تحارب بنى مرين ملوك المغرب . وتارة بنى حفص ملوك تونس . وعلاوة على هذه العوامل كلها طرأ عامل آخر وهو كارثة الاندلس وسقوط مملكة غرناطة ، فلجأ الى الجزائر سيل عرمرم من المهاجرين الاندلسيين فحذروا السكان وأطلعوهم على جرائيم الاسبان وعلى نواياهم نحو البلاد الاسلامية اذ كانوا عازمين ـ لو حققت أمانيهم ـ أن يخلوا بلاد المغرب العربى من سكانها ويعمروها بالمسيحيين .

كان من جملة اللاجئين الى وهران من الاندلسيين الملك السابق لمملكة غرناطة (1) ابو عبد الله الزغل أمير مالقة عم آخر ملوكها المشهور عند الكتاب الاوربيين ببوعبدل وقد انتقل من وهران الى تلمسان حيث دفن بها سنة تسع وتسعين وثمانمائة . وقد عثر على شاهد قبره بتلمسان كتب عليه ما يلي :

قبر سلطان قد مات فى حال انجلائه
بتلمسان غريبا مهملا بين نسائه
بعد ان جاهد فى الله جهد اعتنائه
حكم الدهر عليه قهرا حكم قضائه
وآتاه الله صبرا عند انزوال بلائه
فسقى الله قبره دائما غيث سمائه

اما ابن أخيه الملك المخلوع آخر ملوك غرناطة فانه لجأ الى المغرب وتوفى بمدينة فاس كما ذكر ذلك أحمد المقرى فى « نفح الطيب » وغلط كثير من المؤرخين خصوصا المستشرقين ـ بعد اكتشاف (2) الشاهد المذكور بمدينة تلمسان اثر الاحتلال الفرنسى ـ فحسبوا ان آخر ملوك غرناطة هو دفين تلمسان صاحب الشاهد .

لم يلق الاسبان مقاومة تذكر عند احتلالهم للشواطىء الجزائرية بل الانكى أن بعض امراء تلمسان من بنى زيان تسابقوا للاتصال بهم وعرضوا عليهم خدماتهم . كان كثير من العلماء يتوقعون هجوم

1) ابو عبد الله الزغل هذا هو المشهور بالمجاهد قال المقرى فى نفح الطيب ـ ج 2 ص 614 للطبعة الازهرية بمصر 1302 ـ يذكر حوادث غرناطة لسنة 895 « ولما راى ذلك السلطان ، الزغل وهو عبد الله محمد بن سعد عم سلطان غرناطة بادر بالجواز لبر العدوة فجاز لوهران ثم لتلمسان واستقر بها وبها نسله الى الآن يعرفون ببنى سلطان الاندلس »

2) اكتشفه بروصلار نائب والى بتلمسان ثم والى وهران اثر الاحتلال ، وقد نشر سلسلة مقالات عن الآثار العربية بتلمسان فى المجلة الافريقية

الاسبان على الجزائر بعد سقوط غرناطة واحتلالهم لبعض المدن المغربية فانذروا السكان وحذروهم من الخطر الذى يهدد البلاد ومن هؤلاء العالم الاديب الشيخ محمد التواتى الذى خاطب سكان وهران بقصيدة طويلة نقتطف منها هذه الابيات : قال :

يا اهل وهران انظروا نظر شفقة
لبلدتكم من قبل ان تتردتى
وقبل مجىء المنشآت ببحرها
و اى قلوب عندها مستقرتى
ولا تكلوها غيركم وليت يكن
فما غابت مثل المقيم ببلدة

الى أن يقول :

فلا تهملوا امر الاعادى فانهم
بحال اجتماع واتفاق وشدة
وقد قطعوا قطعا فان ظفروا بكم
فقد ظفروا باهل الجزيرة
ولا يحمى مرساكم ضعاف رجالكم
ولا البلو بل تحميه اهل الجزيرة
فان لهم بالطعن والضرب خبرة
وكم قتلوا بالكفر اكبر فتكة

لما ظهر ضعف ملوك البلاد على المقاومة واتصال بعض الامراء بالعدو اجتمع علماء الدين ونادوا بالجهاد والاعتماد على النفس واحيا. الرباطات وكان عروج واخوته خير الدين والاسكندر يجوبون البحر الابيض المتوسط فينقلون اللاجئين الاندلسيين الى شواطىء البلاد الاسلامية وكانوا كثيرا ما ينزلون ببعض الشواطىء مختفين يتصلون ببعض الشخصيات الدينية فمن جملة من اتصل بعروج من هذه الشخصيات الشيخ أحمد (1) بن يوسف الراشدى دفين مليانة الذى كان من الد أعداء الملوك الزيانيين وحكموا عليه بالاعدام فصادف انه كان بقرية كرشتل (على شواطىء البحر غربى وهران بينها وبين شاطىء ارزيو) وحوله مريدوه فلمحه عروج فقصده وحدثه بواسطة ترجمانه وقد ذكر هذه القصة الشيخ على (2) ابن الحاج موسى فى «ربح التجارة» الذى ذكر فيه ترجمة الشيخ أحمد بن يوسف وكراماته التى منها هذه : وهى أن عروج لما اجتمع بالشيخ قال له : (اننى أنوى أمرا ان سهله الله فلا ننساك» ، والذى يهمنا من هذه الرواية هو ان عروج كان يقصد بعض الشواطىء مختفيا وكان يتصل بمن يتوسم فيهم الفائدة وعلى كل حال فالاتراك لم ينسوا أحمد ابن يوسف فكانوا يعينون على رأس ركب الحج سنويا أحد أولاده . وقد بنوا له ضريحه ومسجده الحاليين بمليانة كما عينوا أحد تلامذته نقيبا لأشراف الجزائر وبقى أولاده يتوارثون هذه الخطة فى عهد الاتراك وهو الشيخ محمد الشريف الزهار صاحب الضريح والمسجد بقصبة الجزائر .

كما اتصل بالاتراك من علماء الجزائر ورؤسائها

1) احمد بن يوسف الراشدى قرا ببجاية عن احمد زروق البرنسى وانتصب للوعظ والارشاد بالراشدية توفى سنة 927 هـ

2) على بن الحاج موسى الجزائرى ـ 1244 هـ 1330 ـ عالم محدث له تاليف سماه « ربح التجارة » فى مناقب الشيخ احمد بن يوسف الراشدى وتوجد منه نسخة فى مكتبة ضريحه بمليانة

الشيخ أحمد بن القاضي الزواوي صاحب جبل كوكو واختلف كثير من المؤرخين في شخصيته وكيفية اتصاله بالاتراك فمنهم من ذهب الى أن ابن القاضي لما رأى خطر الصليبية كاتب الخلافة العثمانية وهي التي أمرت عروج واخوته باجابة رغبته ومنهم من قال بأنه اتصل بهم هو وسالم بن التومي وسهلا عليهم احتلال العاصمة ووقع ذلك بالفعل ولا يبعد أن اتصاله بهم كان من نوع اتصال الشيخ أحمد بن يوسف بهم . أما شخصيته فالحقيقة انه تولى قضاء بجاية – وقد عثرنا على وثيقة تثبت ذلك – وبعد تزعمه لحركة المقاومة اتخذ جبل كوكو مقرا لامارته كما ذهب المؤرخ أبوراس الناصري بأن أبناءه استوطنوا مجاجة – قرب الاصنام – ومنهم الشيخ عبد الرحمن ابن عبد القادر المجاجي صاحب التاليف الشهير في المغارسة ثم ترجم له أي لاحمد (1) بن القاضي الزواوي هذا كثير من المؤرخين وأصحاب السير وبالخصوص ابن عساكر في «دوحة الناشر» (قيل انه من بقايا الحفصيين ببجاية) لما خصه بالترجمة كثير من المستشرقين الا انهم لم يتوصلوا الى نتيجة مقنعة والحقيقة انه بعد احتلال الاتراك لبجاية والعاصمة احتلف معهم ثم صالحهم ثم حاربهم الى أن مات في واقعة بثنية بني عيشة لخبر يطول وخلفه أولاده وأقاربه ومنهم من سمي باسمه وكانوا في حالة حرب وسلم مع الاتراك ومع جيرانهم ومنافسيهم آل المقراني بمجانة والذي يتلخص لنا من هذا هو أن الاتراك لم ينزلوا بالجزائر تلقائيا بل جاءوها كمواطنين مسلمين ليشاركوا في الدفاع عنها وينقذوها من خطر الصليبيين ولهذا لقيهم جل السكان بالتجلة والترحيب اللهم الا بعض أمراء بني زيان وبعض رؤساء القبائل الذين كانوا يعتقدون أن الاتراك يقرونهم على التصرف المطلق في اقطاعاتهم كما كانوا زمن الملوك الضعفاء فتبين لهم أن عروج واخوته جنود جديون يقدرون الظروف الخطيرة التي كانت تجتازها البلاد فصاروا يعاقبون ويردعون كل من لم يتعظ بالاحداث كأمير الجزائر السابق سالم بن التومي الذي قتله عروج بيده وأمراء بني زيان ملوك تلمسان وأحمد بن القاضي الزواوي وقد استغل بعض الكتاب خصوصا الاوربيين قتل عروج لاولئك الامراء الذين رمى بعضهم في صهريج وشبهوه بملوك رومة الذين كانوا يقدمون ضحاياهم الى الوحوش فتفترسها على مرأى من المتفرجين ولنترك هنا الكلمة للمؤرخ أبي رأس ليبين لنا الداعي لقتل عروج أولئك الامراء، وكذلك الظروف والمحل الذي قتل فيه عروج قال أبو رأس في « عجائب الاسفار يصف احتلال خير الدين لتلمسان (.. ولما دخل تلمسان استعمل عليها أخاه عروج ثم بعد

---

1) قالصاحبُ «دوحةالناشر» بعد ما عرفه ولميزل رحمه الله متابدا على سيرته النبوية الى ان كان من امره مع خير الدين التركماني مما هو مشهور وهو كان السبب في دخول التركماني لمدينة الجزائر واستيلائهم عليها وعلى المغرب الاوسط الى الآن . وقتلوه شهيدا رحمه الله في العشرة الثالثة والله اعلم » . قتل في معركة مع الاتراك بثنية بني عائشة سنة 933 هـ الموافق 1527 م

3) صاحب الجلوة هو احمد بن محمد بن علي بن أبي العافية المكناسي المعروف بابن القاضي الزناتي – 960 هـ 1025 م – فلم تكن له صلة بالجزائر ولا بالعهد التركي بل هو مغربي له عدة تاليف

منسرفه بعصب المسعود من ملوك بني زيان وهجموا على عروج فأخرجوه عنهم ثم زحف اليهم بمن معه وكان شديد البأس فدخل تلمسان وقتل سبعة من المترشحين للملك ونحو الستين من الامراء. ولما رأى المسعود ما وقع ذهب الى وهران واستنجد بالملك الاسباني فأرسل معه جنده الى تلمسان يحاصر عروج فلما طال أمر الحصار عليه خرج بمن معه من الجيش والبطانة فلحقوه بجبل بني موسى (1) وقتلوه ومن معه يوم عيد الفطر سنة خمس وثلاثين وتسعمائة .

وقد ذهب كثير من الكتاب الى أن عروج استشهد في « شعبة اللحم » بالمالح - غربي مدينة عين تمشنت - وهو خلاف الواقع وقد أيد ما قاله المؤرخ الشهير بربقجير في بحثه القيم الذي نشره في « المجلة الافريقية » المؤرخة في أكتوبر 1859 تحت عدد الجزء 19 ترجم فيه بعض الوثائق الاسبانية تثبت ان عروج بعد حصار طويل في تلمسان التجأ مع عدد قليل من انصاره الى الانسحاب لبلاد المغرب فلحقته كوكبة من الجيش الاسباني التي كانت تحاصره فالتقى الجمعان ودافع عروج رغم قلة أصحابه دفاع الابطال الى أن توفي بالمكان المذكور في جبل بني يزناسن بالمغرب الشرقي .

هذه حالة بلاد الجزائر ذكرناها مجملة بعد نزول الاتراك بها . أما حالة المغرب فانها كانت لاتختلف عنها بكثير ولنكتب بما وصف به حالة المغرب اذ ذاك العلامة أحمد بن القاضي المشهور بأبي محلي السجلماسي الذي ثار من جهته على الملوك السعديين واحتل سجلماسة ومدينة مراكش ونادى هو الآخر بالجهاد وباحياء الرباطات التي كان دعا اليها قبله علماء آخرون مثل الشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد العياشي السلاوي ، قال ابن القاضي يصف حالة بلاد المغرب الاقصى وتزاحم الامراء على طلب الملك وتهاونهم في الدفاع عن حمى الوطن بل اتصل بعضهم بجيش الاحتلال واعترف لهم بالسيادة على بعض الجهات **المحتلة** كمدينة العرائش .. الخ . قال : (.. وكل من تغلب على جهة قليلة منهم انما يبايعه من لا بال له . أو مكره على بيعته خوفا من ظلمه . فسابت الامة ، وعمت البلية والغمة . وفاض الكفر . وغاض النصر . حتى أخذت السواحل . ولا مغيث لاهلها مع استغاثتهم لجميع القبائل . وعطل فيها الاذان ، وضرب الناقوس في مساجدها وتصبت الصلبان . وعبدت في محارب الله من دونه الاوثان . وكل عالم بزعمه . أو صالح بوهمه أو أمير بدعواه .

انتشرت الرباطات في شواطىء المغرب الاقصى والجزائر ووقع الاتصال بين رجال الرباطات خصوصا بعد اعلان ثورة أحمد بن القاضي أبي محلي فاتصل

1) كان قاتل عروج هو قارصيا فرنند يز دولابلازا - الفارس - وقد قلده الملك شارل الخامس لقب الاشراف بنفسه - المجلة الجزائرية 1873 العدد 17 -

2) عالم مؤلف تولى الفتوى بالجامع الاعظم بالجزائر وتخرج عليه كثيرون من فحول العلماء كيحيى الشاوي وابي مهدي عيسى الثعالبي وسليمان الروداني السنوسي صاحب الفهرس الشهير في العالم الاسلامي توفي سعيد قدورة بالجزائر حوالي 1066 هـ

به وفد من علماء ورؤساء القبائل بالجزائر كان على راسه العلامة الشهير الشيخ سعيد (2) قدورة .

حفظ لنا التاريخ بعض وثائق لهذه الرباطات منها رباط تنس ورباط شواطىء تلمسان فقد عثر على وثيقة مؤرخة سنة 954 هـ بخط الشيخ عبد الرحمن اليعقوبى صاحب المعهد الشهير باسمه الى الآن بنواحى ندرومة عقد هذا العالم مؤتمرا جمع فيه رؤساء قبائل انقاد وبنى سنوس وترارة ومطغره وبعض اعيان تلمسان لاحيا. الرباطات وهذه الوثيقة عبارة عن عرض حال يتعهد فيه سكان القبائل المذكورة بامداد الرباط بالرجال والعتاد والمؤونة الخ وهذا المؤتمر شبيه بمؤتمر الشيخ أبى عبد الله محمد بن أحمد العياشى الزعيم المغربى الذى نادى بالجهاد وقاوم البرتغال وجمع هو الآخر أعيان المغرب وزعماءه فبايعوه وقد بين لنا المؤرخ الناصرى فى كتاب «الاستقصاء» بيانا ضافيا هذا المؤتمر حيث قال : وقدموه ـ أى العياشى ـ على أنفسهم والتزموا طاعته وان أى قبيلة خرجت عن أمره كانوا معه يدا واحدة على مقاتلتها حتى تفىء الى أمر الله فاعطوا بذلك خطوطهم فى ظهير وانهم رضوه وقدموه على أنفسهم ووافق على ذلك قضاة الوقت وفقهاؤه من تامسنا الى تازى وكان الحامل له على طلب ذلك منهم انه بلغه عن بعض طلبة الوقت أنه قال لا يحل الجهاد الا مع الامير ففعل ذلك خروجا عن تلك الدعوى الواهية .

كان خطر الحملة الصليبية فى كل من المغرب والجزائر اللذين تقاعس ملوكهما عن الدفاع سببا فى توحيد صفوف السكان والتفاهم نحو زعمائهم المختارين ولم يكتفوا باختيار الزعماء ومبايعتهم بل صاروا دعاة لجمع كلمة الزعماء انفسهم منذرين لهم بالخطر الذى يهدد البلدين وان الجزائر والمغرب مرتبطان بالاحداث وانه اذا قدر للعدو احتلال احداهما فليتخذها مطية الى احتلال الاخرى والذى يثبت ما ذكرناه بصفة جلية هو كتاب وجهه علماء البلاد الى الزعيم الدينى محمد بن ابى بكر الدلائى الذى كان حاضرا للمؤتمر الذى وقعت فيه مبايعة العياشى الا أن العلائق السرية كانت بينهما غير مرضية فكاتبه الجماعة بكتاب طويل هام فى الموضوع افتتحوه ببعض الابيات ومن جملة ما قالوه فيه من ارتباط البلدين المغرب والجزائر هذا : (والله الله سيدى فى جعل انقاذ هذا المغرب فى صحيفة اعمالكم والاعتناء بتطهيره من نجاسة الكفر من خيار أحوالكم ، وشمروا سيدى عن ساعد الاجتهاد ، وأذنوا فى الناس بالجهاد ، واغتنموا الفرصة فى اوقاتها ، وبادروها قبل فواتها ، مادامت كلمتكما مسموعة ، ـ أى هو والعياشى ـ وآراء الاعيان الى آرائكما مجموعة ، فلو غبتما عنا لعظم الامر وهال ، ووجبت الهجرة والترحال ، ولم يبق فى المغرب مسلم الا وقد دخل للكفر تحت الذمام ، وجعل فى عنقه زمام الدجن وبيس الزمام ، وسلك هذا العدو هذا

القطر الى تلمسان ، وكيف لا وقد رأينا ذلك بالعيان) (1) .

كان لهذه الاتصالات بين نخبة سكان البلدين واحداث الرباطات والاعتماد على النفس بدلا من الاعتماد على الملوك والامراء المتقاعسين ، ثم اتصال خير الدين بالخلافة العثمانية ، وانظوائه تحت لوائها وتعيينه من طرف الخليفة العثمانى باشا على الجزائر كان لهذا كله ، أثره الفعال ، فتوحدت البلاد لاول مرة فى تاريخها ، ونظمت الادارة ، والجيش ، وأحس رؤساء القبائل بتغيير الاحوال ، وان المسيرين للجزائر رجال أكفاء ، اقوياء ، ذوو جد وحزم ، كما كان مصير سالم بن التومى بالعاصمة ، وأحمد بن القاضى وامراء تلمسان من بنى زيان وغيرهم درسا عمليا قاسيا يقرأ له السكان الف حساب ، ومن جهة أخرى فان الهزائم التى تتابعت على الجيش الاسبانى خففت من نشوة انتصاراته الاولى ، فتلاشت أحلامه، وصار رابضا فى مراكزه ، محاصرا فى مراسيه ، قطع عنه التموين برا فى جميع مراسيه ، فصار يستوردها بحرا ، الا ان الاسطول الاسلامى كان بدوره يهيمن على البحر الابيض المتوسط ، وغاراته متواصلة على شواطىء اسبانيا ، وايطاليا ، وغنائمه من أساطيل العدو تعد بالآلاف ، حتى أصبح الملك شارلكان الذى كانت مملكته هو الآخر واسعة الاطراف بالبحر الابيض اذ كانت تضم قسما من ايطاليا وصقلية كان يصعب عليه الانتقال اليها فتولى اذ ذاك تجهيز الاساطيل لغزو العاصمة فجهز أسطولا تحت قيادة « دييقو دوقيرا سنة 922 هـ فقاومه عروج وهزمه ثم أعاد الكرة مرة ثانية وجهز أسطولا تحت قيادة « هيقو دومنكاد » نائب ملك صقلية سنة 925 هـ فلم يفلح وكان سيف لهذا القائد المعجب بنفسه انه كاتب خير الدين قبل المعركة ، آمرا له بالاستسلام والا فسيكون مصيره مصير أخويه عروج والاسكندر المستشهدين بقلعة بنى راشد فأجابه خير الدين بأنه يترك الحكم للسيف وكان السيف فى صالح خير الدين ثم جهز الملك شارلكان أسطولا بنفسه بعد احتلاله لتونس واختار الظروف المناسبة فاغتنم فرصة غياب خير الدين الذى عينه الخليفة قائدا لاسطول الخلافة فهزم شر هزيمة وذلك سنة 948 هـ وقد خصص كثير من المؤلفين مسلمين وغيرهم لهذه الهزائم التآليف العديدة فلا حاجة الى اعادتها وانما لا يفوتنا أن نذكر ان شارلكان فى انسحابه الى بجاية بعد أن أشرف على الهلاك فرأى كثيرا من الاهالى بلباسهم القومى داخل بجاية فامتعض لذلك وسأل عن السبب اذ كان الاسبانيون لا يسمحون للمسلمين حتى المتعاونين معهم بالدخول الى مدنهم المحتلة وان لزم الامر كأصحاب قوافل الحبوب فيغمضون عيونهم فأخبروه ان هؤلاء ليسوا بمسلمين وانما هم اليهود المطرودون من الاندلس وكان ملك بجاية آواهم وأسكنهم فى البلاد ولما كانوا

1) من مخطوط للعالم احمد بن يحيى بن احمد بن سليمان الاشتالى يقول فى عنوانه : (كتبه بعض اعيان المغرب الى الزعيم ابى عبد الله محمد بن أبى بكر الدلاشى

يحسنون اللغة العربية عرضوا خدماتهم على الاسبان ليتجسسوا لهم ويطلعوهم على أحوال البلاد فاستعملوهم لذلك فامرهم شارلكان بطردهم فورا وقال كلمته المشهورة فى وصفهم : «اننا لهذه الصفة الذميمة وهى الخديعة المتاصلة فيهم اطردناهم وقد آواهم هؤلاء الناس وبدلوا خوفهم أمنا فكان الجزاء الخداع . ولم يراعوا فيهم الا ولا ذمة فركنوا اليكم» اخرج شارلكان اليهود بعد أن جردهم من جميع املاكهم وأمر باحراق كتبهم المقدسة زيادة فى النكاية (1) الا أن المعركة الحاسمة التى قلبت الاوضاع وقضت على أحلام اسبانيا هى معركة الكنت دالكادوت (LE CONTE D'ALCADAUTE) والى وهران من سنة 1534 م الى 1558 م عليه كان صديقا حميما للملك شارلكان ورفيقه عند احتلاله لتونس وهجومه على الجزائر وهو أول اسبانى بوهران جمع بين السلطتين المدنية والعسكرية وقد ضاق ذرعا بمرسى مستغانم فحاول مرتين الاستيلاء عليها وذلك فى سنة 949 هـ ثم فى سنة 952 هـ وباء بالفشل وفى المرة الثالثة استعد لها أحسن استعداد فذهب بنفسه لقرطاجنة واختار الجيش الذى كان معظمه من نخبة الفرسان وخانه الحظ فى هذه المرة أيضا وكانت الهزيمة الشنعاء التى مازال الكتاب يخصونها بالتآليف ويتساءلون عن أسبابها وان من حظ التاريخ الجزائرى ان أحد قواد الجيش الجزائرى سجل هذه المعركة التى شارك فيها وخاض غمارها فى ملحمة شعبية خلدت الشاعر المجاهد الذى مازال أهل تلك الناحية يحيوا ذكراه سنويا وينشدون قصائده وفى هذه الاسابيع دشن مسجد بقرب ضريح هذا الشاعر ثم ان هذه الملحمة أو المنظومة تمتاز بخلوها من مبالغات الشعراء حيث أنها تتفق تماما مع أحدث الوثائق الاسبانية المترجمة .

دامت المعركة ثلاثة ايام خسر فيها الاسبان تسعة عشر الف قتيل وأسير من بينهم خمسون ضابطا ومات فى المعركة قائد الحملة الوالى الكنت دالكادوت واننا رأينا أن نقتطف بعض الابيات من هذه المنظومة وان كانت باللغة الدارجة وكان هذا النوع من التقديم لا يسمح بتتبع الاحداث وذكرها بتفصيل رأينا ذلك لنلفت نظر القراء الى الشعر الشعبى فى بلادنا الذى يمتاز بأنه سجل هام لتاريخ البلاد وجغرافيته وان سكان بلادنا رغم الهموم التى اجتازوها والمحاولات التى بذل فيها أصحابها الجهود لقطع صلته بماضيه يبقى محافظا على تراثه مشجعا لهذا النوع من الشعر الذى كان حفاظه ينشدونه فى الولائم والحفلات مبجلين محترمين ولو اندس فيهم بعد الحرب العالمية الاولى دخلاء لم يصونوا أعراضهم الا انهم مع هذا كله لم يعدموا أنصارا ومشجعين ماديا وأدبيا كان لهم الفضل فى هذه البقية تعرض شاعرنا الشيخ الاكحل بن خلوف الشهير بالاخضر وهو دفين مزيلة (شرقى مستغانم بنحو 60 كلم) للمعركة بتفصيل فاوفى لها حقها وبين الطريق التى سلكها باشا الجزائر الامير حسن عند خروجه من العاصمة فى طريقه الى مستغانم ثم

1) فيرو (FERAUD) تاريخ بجاية

وكاهن (CAHEN) اليهود فى افريقية

بين القبائل التى شاركت فى هذه المعركة وانضمت للباشا ومنها قبائل سويد التى انتصر بعض أفرادها الى الاسبان كما سنبين ذلك فى هذه المقدمة ، ثم بين شاعرنا الصبغة الدينية التى اكتستها هذه المعركة وبالتالى ان الانتصار فيها يعد أخذا لثأر غرناطة وانتقاما لها .

قال الشاعر :

يا سايلنى عن طراد الروم
قصة مزغران معلومة
يا سايلنى كيف ذا القصة
ما بين النصرانى وخير الدين

الى أن يقول :

اجتمعوا فى برهم الاقصى
قواوا الجيش وجاوا معتمدين
ترى سفون الروم محترصة
صبحوا فى المنا أعداء الدين
خرجوا لك للبر خرج الشوم
وانجلوا من فوق وجه الما

ويقول :

ارفع راسك ياعلى المفهوم
يا سيد الحسنين و فطيمة
شوف ابلادنا كيف راها اليوم
تسبيها الكفار الظالمة
قصة مزغران معلومة

وهنا يذكر الشاعر الطريق التى مر عليها الجيش الاسبانى بعد خروجه من وهران فى طريقه الى مستغانم فخالف الطريق المعتاد حتى لا يلفت النظر وقصد جبال تاشالة حيث تعود الجيش الاسبانى الخروج اليها للمناورات العسكرية وهذه المكيدة لم تفت عيون الجيش التركى من سكان البلاد الذين كانوا يتتبعون العدو فى حركاته وسكناته فارسلوا من يخبر الباشا حسن بالعاصمة . والى هذا أشار الشاعر بقوله :

اركب فارس اسبق ودنا
بالتعريف ايبشر السلطان
البارح يقول جات الروم
يا فرسانى غاولوا انتما

ثم يذكر كيف استجاب حسن باشا للانذار وجهز جيشه وبعد أن جال الباشا بجنوده فى العاصمة وزار معاعدها وأضرحتها على العادة المتبعة اذ ذاك خرج متوجها الى مستغانم .

ظل يسير بعساكره والقوم
فى وطن متيجة اولج الما
فى أمره جات العرب اطموم
سلطان عادل طاعته الامه
قصة مزغران معلومة
طبله عند الشفا نقر
و اعلامات النصر منشورة
جات اخيول افريقيا تنجر
و افراسين الحرب مذكورة

من لا ضـــره اللـه لا ينضــــر
لو طـاحت الارقــاب منصـــورة
فى زكـار (1) امقيـم كم من يــوم
ليـن جاتـه فيـــادها ورمـــات
اخضا (2) الواد الشـايع المعلــوم
فيـه اضـلان اسـويد ملمـــومة
جـاوا اشيـوخ سـويد للسلطـان
وفيهـم أبـو بكـر و محمـــد
قالـوا للامير لا تليســـان
لا ديـن الا ديـــن محمـــد
استشـــرح سلطـــاننا و ازيـــان
جاتـوا القــوم زاهيـة ترعــد

ثم يذكر القبائل التى أرسلت جيشها للمشاركة فى هذه المعركة فيقول :

من بنى راشد (1) وآل سـويد(2)
وافراسـين النطـح عبد الـواد (3)
يا مغراوة (4) اتحـزموا للكيـــد
منـكم خلقت اسـلاطنـا واجـواد
يا تيجـان الحـرب ليـس بعيـد
من مـات سكن جنـة الميعــــاد

ثم يذكر الشاعر ذعر الجيش الاسبانى وقواده عند ما انبئوا بلحاق جيش الباشا وكيف بــدأت المعركة وقواد جيش العدو الذين ماتوا فى المعركة واحدا واحدا وكثيرا مايذكر جملا ومفردات بالاسبانية على سبيل التهكم والاستهزاء .

قال فى عدد الاسرى والقتلى :

حـزناهم للســـور ذاك اليـــوم
تسمـه آلاف ابقـــات مغنـوســة
من حيـط الدشـرة لحـوض الدوم
عشـره الاف امشـــات محطـــومة

ثم يذكر موت قائد الجيش الكونت دالكادوت فيقـــول :

طـل عـلى الفرطـاس يوم ان مـات
فى المغـرب أهل الخـزى ردمـوه
احلـف لهـم سلطـــاننا باثبـــات
شيب النـار من الثـرى جبـــدوه
احتفظـــوا بالفـــاس والمسحـات
لحقـوا بـه من الثـرى جبـــدوه

ثم يختم قصيدته بقوله :

الاميـر حســن يـــوم مزغـــران
اخلـف الثـار من العـدو تحقيـق

---

1) بنو راشد ويقال لهم اهل الراشدية نواحى معسكر وقلعة بنى راشد ويسمون اليوم بغريس
2) آل سويد هم اهل قبيلة سويد تحدثنا عنها فى هذا التقديم
3) عبد الواد قبيلة صغيرة قرب قلعة بنى راشد ولعلها من بقـايا بنى عبد الواد ملوك تلمسان
4) مغراوة قبيلة عتيدة كانت تحكم اول الفتح الاسلامى ما بين مليانة وتلمسان وكان مقرها شلف وقد حكم بعض امرائها المغــرب وليبيا وقضى على امارتهم الاول بلكين اذ كانوا احلافا لبنى مروان

تـرى البهجـــة روطـة البلـــدان

غـرنـاوط الى امســـات حـريـق

وهنا نلتف نظر القرا، مرة ثانية الى ان الجزائريين لم يهملوا قضية الاندلس بل هذا شاعر له مكانتــه فى البلاد ويمثل بحق رأيها العام الذى لم ينـس مأساة الاندلس ويرى فى هذا الانتصار أخذا لثـارها ومحوا لآثـار عـدوان الاسبان وعلى ذكر مـوقف الجزائريين مع الاندلسيين خصوصا اللاجئين منهم الى شواطىء البلاد فقد وقعت لبعضهم حوادث مؤلمة استغلها كثير من الكتاب وعمموا تهمهم للبلاد كلها فذكروا انمصير اللاجئين الاندلسيين ببعض شواطىء الجزائر كان نصيبهم القتل والنهب وبالفعل وقـع ذلك لبعض اللاجئين سنة 1018 هـ اى بعد سقوط غرناطة بما يزيد على القرن وهو الجلا، الاخير . وقد ذكر ذلك المؤرخ أبوراس الناصرى فى « عجـائب الاسفار » فقال : (.. مات الشيخ محمد اقـــدار التوجينى دفين أرض ميتا (قرب البطحا،) سنـــة خمس وستين والف (1056) لكونه حرض الشـيخ احميدة العبدان يغزو بسويد على هبرة (بــين المحمدية وسيق) لما فعلوه بالمسلمين الخارجـين من غرناطة الى مرسى ارزيو لما غلب عليهم قشتالة حتى انهم كانوا يبقرون بطونهم لما يظنون من ابتلاع نحو جوهر فاتاه احميدة المذكور من الرسو بجنود عظيمة يوم الجمعة ووافق ذلك ختمه صحيـــح البخارى ثم ساروا ولقيتهم جموع هبرة فانهزمـوا وركبت سويد اكتافهم فقتلوهم كيف شاءوا وفى ذلك يقول شاعرهم (1) :

جينــا يا رب بـين النـار والنـــار

بين انصارت دوك وانصارت قدار(2)

ميتــين وعشــرين قعـدت فى مشوار

دوار من المـــلاح ما عـــزى دوار

المـوت من الالاه واسبـابه قـــدار

لا بـد للـحى يتفكـــر الاحـــرار

وفى هذه الرواية ما يكفى لرد جميع التهم التى الصقت بالجزائر منذ قرون ومازال المتاخـــرون يرددونها فى كل مناسبة تدعوهم الى الكتـــابة أو الحديث عن مصير المهاجرين الاندلسيين لشواطىء المغرب . وقد رأينا ان هذا العالم المرابط لنشـر العلم والدين لم يكتف بتغيير المنكر بلسانه وقلبه فقط بل غيره بيده واستعان على ذلك برئيس القبيلة العتيدة . وفى هذه الرواية أيضا ما نستدل به على أن صحيــح البخـارى كان يدرس فى الجزائر فى القرى النائية فضلا عن المدن ، اذ ذهب كثـير من المعاصرين ان طيلة قرون الاحتلال التـــركى لم يكن يدرس بالجزائر الا مختصر خليل . .

ولنرجع الى الحـديث عن واقعة الكادوت فنجـد أن كثيرا من المؤرخين الفرنسيين والاسبانيين اعتنوا بها ومازال الكثير منهم الى زماننا هذا يبحث عـــن أسباب الهزيمة . ومعظم الوثائق الاسبانية المنشورة

1) يقصد بنصارة دوك اسبان وهران الذين كانوا يغزونهم المرة بعد المـرة

2) انصار قدار سويد

تتفق مع أرجوزة شاعرنا سواء فى أيام المعركة وعدد الاسرى والقتلى وموت قائد الحملة ونبشه من التراب بأمر الباشا حسن ثم ارسال جثته الى وهران لولده ففدوها بفداء عظيم ودفنوها بكنيسة سانتدومنيك (Ste DOMINIQUE) ومن هؤلاء المؤرخين الاسبان هايدو (HAIDO) ودييقو سياريز (DIEGO SUAREZ) والمؤرخان الفرنسيان بول ريف (PAUL RUFF) والجنرال ديدى (DIDIER) وقعت هذه المعركة سنة 965 وقد ارخها بعض الادباء الجزائريين فقال :

فتح خير الدين مزغرانا
مرتجيا لفتحه وهرانا
فى يه قعدة زوال الجمعة
سنة هر فصخ فاستمعه
وهذه القصة عند الناس
مشهورة بقصة الفرطاس

والفرطاس هو لقب الكنت الكادوت كما ذكر ذلك الجنرال ديداى (1) أيضا فى تاريخه لوهران قال : « ان المسلمين كانوا يلقبون دالكادوت بالفرطاس » كما ذهب كثير من المؤرخين الاسبانيين منهم دييقو كريزداو (DIEGO CRUZADO) ودييقو سياريز (DIEGO SUAREZ) وبدمور اليس (B DE MORALES) على أن الباشا حسن لو تتبع هجومه بعد هزيمة دالكادوت لاحتل وهران بغاية السهولة (تاريخ الجنرال ديدى)

''La domination espagnole à Oran sous le gouvernement du Conte d'Alcadaute'' Paul Ruff 1534 - 1558 (Paris Leroux 1900)

لم نتعرض لكثير من المعارك التى سبقت هذه خصوصا التى قادها الملك شارلكان اذ تعرض لكثير منها بعض المؤرخين الجزائريين اجمالا وتفصيلا كصاحب « الزهرة (2) النائرة فيما جرى للجزائر حين اغارت عليها الجنود الكافرة » .

والخلاصة ان الاسبانيين ولو دام احتلالهم لوهران ما يقرب من ثلاثة قرون فان هذا الاحتلال وبال عليهم فقد كلفهم مصاريف باهضة وضحايا كما جر عليهم فساد السمعة وتشتيت الشمل وقد أيد هذه النظرية الكتاب الاسبانيون أنفسهم كالوالى فاليجو (VALLEJO) فقد ذكر فى يومياته ان دعوة المحتلين الصليبية كانت تخفى الجشع والطمع وشبه غاراتهم على القرى الآمنة بغارات التتار على بولوندا أو غيرها اذ ذاك من الدويلات الشرقية وان أهم ما كانوا يحصلون عليه فى هذه الغارات اختطاف السكان من رجال ونساء وصبيان ثم الحبوب والانعام فالصبيان كانوا يرسلونهم للتنصير ، وأما الرجال والنساء فكان لقائد الجيش الاعلى بوهران الحق فى اختيار رجل وامراة والباقى يقسم بين الضباط

1) الزهرة النائرة هذه الفها محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الجيلانى بن رقية التلمسانى الفها سنة 1189 الموافق لـ 775 ـ سجل فيها الهجومات التى توالت على الجزائر بعد احتلال الاتراك لهـا وبالخصوص هجوم (DOREILLY) سنة 1189 وذكرها بتفصيل لانه كان شاهد عيان واتم تاليفه 1194 هـ

2) تاريخ الجنرال ديدى عن وهران الجزء السادس طبع بتى وهران 1929

والجنود والموظفين او يباعون فى أسواق اسبانيا باثمان مرتفعة وكانوا فى أول الامر يحاولون تنصير الجميع الا انهم لم ينجحوا وقد أحصى فاليجو ان ثلاثين شخصا كانوا يتنصرون سنوياً الا انهم لم يخلص منهم فى التنصر الا الصبيان .

وقد ذكر الرحالة أبوزيد عبد الرحمن الجامعى الفاسى فى شرحه عى «ارجوزة الحلفاوى» انه لما زار الجزائر حوالى سنة ١١١٩ هـ وشارك وفود المهنئين لفتح وهران على يد بكداش باشا قال : «كنت وفدت على العالم العلامة الراوية النقاد منهل العلم الاصفى ابن عبد الله سيدى محمد المصطفى (١) الرماصى بوجدة يسكن بيوت الشعر قرب غابة فى رأس جبل يأوى اليهم ليلا ويظل بالنهار فى داره ومسجده يطالع كتبه ويقرىء طلبته فسألته عن ذلك فقال : كنا على هذه الحالة على عهد الاسبانيين خوفا منهم فاننا كنا لا نأمن فى الدور من أن يصكونا ليلا فخرجنا لبيوت الشعر ليسهل علينا الفرار لغابة الجبل » .

وكانوا يستعملون بعض المتعاونين معهم لاختطاف الصبيان فيرسلونهم للقرى فى زى التجار الدواسين وبعد الفتح الاول أثيرت هذه القضية وحوكم أصحابها فيمن حوكموا مع المتعاونين وقد افردها العالم الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفى بتاليف خاص سماه « بهجة الناظر فى أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين من الاعراب كبنى عامر » .

ذكر فى هذا الكتاب موبقات هؤلاء المتعاونين ثم تعرض بتفصيل لاصولهم وفصولهم ومواطنهم وحكم الله فيهم ولخص موضوع التاليف فى هذه الجمل (». ان هؤلاء الفرق الثمانية الضالة وهم كرشتل وشافع وحميان وغمرة وقيزة وأولاد عبد الله وأولاد على والونازرة لما اجتمعوا عند الاسبانيين وصاروا على كلمة واحدة فى الدفع والجلب اشتد بهم عضد النصارى وقويت شوكتهم وكثر بأسهم على المسلمين الى أن صار وطن سيرات وملاته من جملة مسارح ومزارع العدو وليس للمسلمين فيه مطمع الا من لاج فى حزبهم وصار من رعيتهم ودخل فى حمايتهم وأدى لهم الجباية وكان معينا لهم على مرادهم وصاروا يتجسسون لهم الاخبار على المسلمين فى السهل والاوعار حتى اذا تعينوا له يصكهم بخيله ورجله وهم معه فيقتل ويأسر ويسبى ويفعل ما أراد الله بفعله واشتد غزوه بهؤلاء الفرق الضالة التى رغبت فى عرضه الفانى رفيق الدين منهم والجانى فانتهكوا حرمة الاسلام غاية الانتهاك ، وصاروا لنقص أهل الاسلام وأعوانه الذين يشن بهم الغارات على الابعدين ، وهذا فعل الاعداء المرتدين حيث جسروا العدو بخيلهم ورجلهم على اقتحام حلل المسلمين ودورهم بكلهم وانتهاك حريمهم وانتهاز

(١) محمد المصطفى فقيه حافظ له حاشية مشهورة على التتائى وهى التى اعتمدها الدردير شارح المختصر وقال ان صاحبها من المحققين فهى تغنينى عن غيرها روى ذلك محمد بن على السنوسى دفين ليبيا كما ذكر الفقيه الحجوى المغربى فى تاليفه - الفكر السامى- وقال ان كثيرا من علماء المغرب اعتمدوا هذه الحاشية كمحمد بن الحسن بنانى كان معهده فى مسقط راسه رماصة

الفرصة فيهم والعجب العظيم منهم انهم مع هـذا التلاعب بالاديان وموالاة الكافرين لهم بالخدمة والنصيحة والمبايعة لهم على الطاعة والاذعان والاعانة لهم فى أمورهم وتقوية سوادهم والاستضاءة بنارهم وموادتهم لهم بالاحسان كانوا يعتقدون انهم على الاسلام وصحيح الايمان وانهم فى رحمة الله خالدون ولم يقرأوا قوله تعالى فى المائدة **ولو كانوا يؤمنون بالله والنبىء وما انزل اليه ما اتخذوهم اولياء ، ولكن كثيرا منهم فاسقون** ... الى أن يقول على هذه الفرق :

« انقسموا على ثلاثة فرق ففرقة منهم لجأت لحصن العدو وصارت معه وتدافع بجهدها عنه والحكم فى هذه الفرقة اباحة مالها ودم رجالها والبالغين من ذراريها لمن ظفر بهم من المسلمين لكونها ردءا . وأما الصغار من الاولاد فلا يقتلون ولا يكونون فيئا للمسلمين . وقد ذهب بعض الونازرة مع الاسبانيين بعد الفتح لعدوتهم واستقر بسبتة فهو بها للآن ، وفرقة منهم لجأت للمسلمين وصارت تقاتل معهم العدو غير انها فى الخفية تعلمه بأحوال المسلمين وتأمره بالثبات وتواعده بالرجوع عنده اذ وجدت السبيل . والحكم فيها انها فرقة الزنادقة يقتل كل من اطلع عليه منها والا فأمره الى الله سبحانه وتعالى . وفرقة منهم تابت لله تعالى وأنابت من موالاة العدو ومواصلاته وتركت الاعانة له ظاهرا وباطنا وندمت على ما بدر منها سابقا والحكم فيها انها واحدة من جماعة المسلمين كثر الله عدد جيش الاسلام ان لم يتقدم منها ما يبيح الدم ، وهذا التفصيل هو المعول عليه فى الشرع لانه عين النازلة ولا تلتفت لمن عمم وقال باباحة المال والدم فى الجميع وهو الفقيه أبو العباس سيدى أحمد الفلالى التلمسانى فى تاريخه » .

وقد تم هذا التأليف سنة ثمان وسبعين ومائة وألف (1178 هـ) كان الشيخ عبد القادر (1) المشرفى هذا من ألمع شخصيات زمانه ومن كبار المجاهدين وكفاه فخرا ان الشيخ مصطفى بن المختار الراشدى جد الامير عبد القادر لما أسس معهده بالقيطنة اختاره للتدريس وبهذا المعهد تعرف به المؤرخ أبوراس وأخذ عنه ، وقد شارك فى حرب الاسبان بوهران على عادة علماء البلاد ـ ان من تأمل وتتبع تراجم علماء ذلك العهد يجد الاكثرية منهم ماتوا استشهادا فى حرب وهران ـ وقد حكى تلميذه أبوراس فى معرض الحديث عن الظروف التى استرجع فيها الاسبان وهران سنة 1144 هـ بعد أن بقيت تحت يد المسلمين 45 سنة قال : « لقد أخبرنى شيخنا الاكمل واستاذنا الامثل خاتمة أهل التحقيق وعمدة أهل التوفيق الشيخ سيدى عبد القادر بن عبد الله المشرفى شرف الله فى الجنان مكانه وكان حاضرا لتلك الواقعة ان الكفرة لما تكامل عسكرهم فى البر وبقى جل مددهم فى البحر لم يعملوا صفا للقتال ولم يطلبوا مجالدة

1) عبد القادر بن عبد الله المشرفى كان يدعى بامام الراشدية توفى بمسقط راسه الكرط ـ قرب معسكر ـ سنة 1192 وهو والد العالم القاضى الطاهر المشرفى وجد ابن عبد الله المشرفى الحافظ الذى تولى الخلافة والقضاء فى عهد الامير عبد القادر

الرجال وانما زحفوا للبلد بجميع الرجالة والفرسان وهم كهيئة الرحى فى الدوران ، بارودهم كرعد متصل ورصاصهم كمطر منهطل لا يستطيع أحد قربهم ولا يكر شجاع نحوهم وان الباى مصطفى – مصطفى بوشلاغم باى وهران وفاتحها مع بكداش باشا سنة 1119 هـ – سقط فى ذلك اليوم عن فرسه لشدة تحريضه على الجهاد وكثرة عدوه » الخ .

هذه فى الجملة حالة البلاد بعد ما استرد الاسبان وهران وهذا لم يمنع الاتراك من التمادى فى توحيد البلاد وحماية الحدود والقضاء على الاقطاع الا انهم ارتطموا بكثير من التمردات والثورات فتارة ينجحون فى القضاء عليها وكثيرا ما كانت تتغلب عليهم الاحداث لاختلاف المسيرين ومن هذه الثورات التى دامت ما يزيد على القرنين ثورة الذواودة شرق الجزائر وثورة سويد غربها المشهورة عند العامة بثورة المحال ، وقد كان من حظ التاريخ الجزائرى أن سجل بعض شعراء البلاد ثورة سويد هذه ، وكان الشاعر سويديا وهو ابن السويكت الشاعر الشعبى فقد سجل عدة معارك خاض غمارها قومه مع الاتراك ، ولما ضعفوا عن المقاومة اختار الكثير منهم الجلاء على الاستسلام ، كانت قبيلة سويد من القبائل العربية التى لعبت أدوارا عظيمة فى تاريخ البلاد ، وقد تحدثنا عن جوانب منها أول هذا التقديم ، ولما احتل الاتراك الجزائر كانت لهم امارة بتنس تمتد من قبر الرومية شرقاً الى مصب نهر شلف غربا – قرب مستغانم – وكان موطنهم ابتداء من القرن السابع الهجرى ما بين العطاف شرقا الى مستغانم غربا وقد شاركوا فى حروب بنى مرين فتارة ينتصرون لهؤلاء وتارة لاولئك وقد ذكر ذلك بتفصيل المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون .

وفى أول عهد الاتراك انتصر بعض رؤسائهم الى الاسبان كما تدل على ذلك بعض الوثائق التاريخية التى عثر عليها الكاتب ايلى دولابريمودى (ELIE D ELA PRIMAUDIE) فى الخزانة الملكية الاسبانية بسمنكا – ضواحى مدريد – ونشرها الكاتب الفرنسى شارل فيرو (CHARLES FERAUD) بالمجلة الافريقية المؤرخة فى سنة 1873 الجزء 17 فمن جملة هذه الرسائل رسالة عربيتها مهلهلة أرسلها بعض رؤساء سويد الى ملك اسبانيا وأخرى الى الكنت دالكادوت والى وهران يطلبون اجرتهم حيث حاربوا فى صفوفهم بأمر رئيسهم احميدة (1) العبد ، ويظهر من هذه الرسائل انهم كانوا متصلين بسالم بن التومى أمير العاصمة قتيل عروج حيث أظهروا تاسفهم على موته .

الا اننا بعد تتبع ودراسة أحداث تلك الفترة تبين لنا أن اصحاب هذه الرسالة لا يمثلون الا أقلية أو لم تطل موالاتهم للاسبان اذ كانت مشاركة افراد القبيلة ورؤسائها لحسن باشا فى حرب مستغانم مشاركة علانية ، ثم ان الكتاب الذين سجلوا الاحداث لم يغفلوا عن القبائل المتعاونة ولم نجد واحدا منهم ذكر هذه القبيلة فى قائمة القبائل المتعاونة كصاحب

1) احميدة العبد من رؤساء قبيلة سويد وهو يطلق على عدة افراد تداولوا رئاسة هذه القبيلة

بهجة الناظر وغيره وهذا لا يمنع أنهم ثاروا على الاتراك وحاربوهم ما يزيد على القرنين . ولما عجزوا اختاروا الجلاء بدلا من الاستسلام . اختلف المؤرخون فى سبب هذا التمرد ولاشك ان رؤسا. هذه القبيلة الذين كان لهم التصرف المطلق فى اقطاعاتهم وكان الملوك كثيرا ما يخضعون لهم رفضوا الخضوع للاتراك وقد لخص أحد شعرائهم سبب هذا التمرد واختيارهم الاستماتة فى المقاومة فى بيتين فقال :

قالوا الترك ندو شلف لا وهمة
قلنا لهم اجدودنا فى السواد
ما نتركوش شلف حتى تطيب الصمة
وما نهدوش العقبة على الاولاد

كانت الحرب بينهم وبين الاتراك فى أول التمرد سجالا وأكثر المعارك كانت فى موطنهم الاصلى شلف . وقد سجل شاعرهم الشعبى ابن السويكت كثيرا من هذه المعارك فذكر منها واحدة قال :

على ارهيو (1) وعلى جديوية (2) كارسين
الترك جوف واسويد جاوا للقبلة
خيمة مع اخبا وبنود متقابلين
من الصبح للمسا كل يوم مقتلة
الترك جاروا واسويد اعقابهم طافحين
والترك شاربين الهبال فى سطلة
الباى قد شور ليهم
و اسويد ليه زادوا حملوا
ارفد اسناجقو و الحقهم
عمدوا للقتال او قتلوا
جا بالعراج بيده بالمستحين
احنا اسويد واهل النقار بالجملة
احنا أهل الشنا واحنا اللى طايغين
احنا أهل الطبل والعلام والصولة
ربعين ياى قبلك قعدت امرشقين
ربعة و العشرين مشاو مقتلة
اداكم الطمع فى امطافل امتمقين
اسويد ما يطيعوا الترك قتالة
الترك لبلبلا ينزادوا
و اسويد ما اعطوا الصفحة
الباى جا لهم بجنوده
طيعوا يا سويد الوكحة
سور الحديد واش ايهدوا
هيهات ما تصيبوا راحة
محمود ليه لفت عوده
و الباى واجبه باقباحه

1) ارهيو هى مدينة وادى ارهيو منتصف الطريق بين غليزان والاصنام
2) جديوة قرنة شهيرة غربى وادى ارهيو بنحو 10 كيلم

السـانجـاق حـم رفـده
و اسـويـنـد لـلبـلاد لا حـا
ظهروا اشوايع اسـويد قعدت متورخـين
ملكـوا الشـرق والغرب تـل والقبلـه
مع الامـير عقبـة جـاوا امجـاهـدين
امنـين كانت النـاس كلهـا جهـالا
جازوا اوجـوزوا في ايامهـم ساعـدين
واجميـع من اقصـد اذى بـلا قلـة
يهـدوا ايبلهـم والمـال للقـاصـديـن
غنيـات والحصـون ينقـادوا شـلا

ذكرنا هذه القصيدة على طولها في هذا التقـديم الذي لم يتعود القراء التطويل فيه اذ على الاكثر يحال فيه القارىء الى المصادر الا اننا ـ خصوصا في بلادنا التي ضاع جل تراثها ـ صرنا من الصعب أن نحصل على هذه المصادر ثم ان الشعر الشعبي كما هـو معروف سجل هام لهذه الاحداث وهو ممتاز حتى عن الكتب التاريخية لذلك العهد حيث أن معظـم المؤرخين الذين وصلتنا آثارهم وانتاجهم كانوا من الموالين للاتراك أو موظفين عندهم وهم بطبيعـة الحال لا يصورون القضايا الا بما يرضى الهيئـات الرسمية فنشر هذه القصائد يلقى أضواء عـلى الاحداث ويصورها تصويرا جليـا .

الــدور الذى لعبـــته الجَــزائر
فى القرن السادس عشر بالبحر المتوسط

عَبد الحميد بن أشنهو

نطرق فى هذا المقال جانبا من تاريخ بلادنا الحافل الذى كثيرا ما بقى مجهــولا على عدد من اخواننا او معروفا على طريق الغير ومحرفا ومزورا الكثير متشبعون باخبار مزيفة بدون آن يشعروا .

فترة من الزمان فى القرن السادس عشر عاشتها بلادنا فى اضطراب وعنف وحروب ، ومع ذلك فى سيطرة وعزة وصيت بعيد وصـــادفت تلك الفترة دخول الاتراك العثمـــانيين لقطرنا فى ظروف غريبة فبسطوا حكمهم عليه وامروا ونهوا ·

نعم لقد حكم الاتراك فى بلادنا لكنهم كانوا يطبقون على اسلافنا الشريعة الاسلامية ويستعملون اللغة العربية فى معاملاتهم واداراتهم مشجعين لها وكان حكامهم غالب الاحيان يتكلمون ويحررون وثائقهم بالعربية ويحمون بيضة الاسلام منتصرين له ومتشبثين بمبادئه الصحيحة ، كما كانوا يعتبرون انفسهم جزائريين يبرمون العهود والاتفاقات باسم الجزائر لا باسم الباب العالى وكانوا ينتصرون لبلدنا . اما مشاوراتهم مع السلاطين العثمانيين فكانت مجرد اجراءات سياسية واعانات عسكرية او علاقات دينية تدخل فى باب اللياقة والادب والطاعة الدينية للخليفة العثمانى والادعية فى الصلوات التى كان حكام الجزائر يؤدونها له مثل ما كانوا يؤدونها من قبلهم لخلفاء الاسلام من الراشدين والامويين والعباسيين والفاطميين والموحدين .

نصب الحكم التركى ابتداء من سنة 1500 اى فى القرن العاشر الهجرى بواسطة رجلين بحارين عاشا فى خمول فى صغر سنهما وخرجا من اسرة يونانية او تركية بسيطة واتيا الى الجزائر بفضل الظروف التى كانت تعيش فيها بلادنا واستقرا بها وحلا وعقدا وحاربا من كان يتعرض لهما فى طريقهما التصاعدى وفرضا انفسهما على اقطار شاسعة واقرا الامن فى افريقيا ووضعا حدا للشقاق وجلسا على كرسى الملك وضربا السكة وحاربا اعداء الاسلام ورفعا رايته عاليا وبسطا سيطرتهما على البحر الابيض المتوسط واجليا الاسبان منه بعد ما كان هؤلاء يرومون نشر المسيحية بالجزائر وتونس .

يزعم الكثير من المؤرخين الافرنج ان تاريخ المغرب العربى انما هو سلسلة حوادث دامية وان بلادنا كانت تعيش فى عزلة عن البلاد الاوروبية المجاورة لها وفى حالة فوضى بينما كانت تلك الاقطار تمتاز على قرلهم بالرقى والحضارة لا علاقة لها بالدول البربريسك ، كما كانوا يسمونها التى كانت تعيش من القرصنة وقطع الطرق .

فاننا نفند كل التفنيد تلك الاقاويل العنصرية التى لا اساس لها من الصحة ويوجد ولله الحمد مؤرخون هم الان بصدد تكذيب زعم هؤلاء المفترئين على الله الكذب .

ان بلادنا كانت دائما وابدا باتصال مع البلاد الاوروبية الجنوبية والاسيوية المجاورة للبحر الابيض المتوسط التى يرتبط تاريخها بتاريخنا ، شاهدت الدور الذى لعبته الدول المسيحية فى سياستها والعكس بالعكس وتدخلات الخليفة العثمانى فى الشؤون الحربية لبلادنا لكى يوحدوا جهودهم ودور الجزائريين فى الحروب البحرية التركية بواسطة سفنهم المظفرة والمحاولات التى قام بها الملوك المسيحيون وفرنسوا الاول وشارل الخامس وملوك صقيلية والبندقية وغيرها فبلادنا، وكذلك ما قام به اسلافنا من تدخلات فى امور الاقطار الاوروبية كل ذلك يجعلنا نقول القول الصحيح المبنى على الادلة القاطعة والتقارير والرسائل الرسمية ، ان البلاد المجاورة للبحر المتوسط سواء كانت اسلامية او مسيحية تداخلت فى ذلك القرن العجيب واثر بعضها فى بعض من حيث الحوادث التى راجت فيها ، الامر الذى جعل الجزائر تلعب فى ذلك الابان دورا هاما على مستوى العالم العربى والاوروبى معا وبعد صيتها ، اصبحت تقوم



الدور الذى لعبته الجزائر فى القرن 16 بالبحر المتوسط

بدور الحاكم بين الملوك وتخوض فى سياستهم وتفرض ارادتها وتحارب العصاة والمتمردين على الملوك انفسهم . لكن تلك الفترة الغريبة من تاريخنا قد حجبتها عمدا السلطات الاستعمارية لكى لا نعرفها نحن حتى نحتج بها ونفخر ونعتز فزورت تاريخنا وافسدته عمداً واظهرت وجها مشوها للجزائر .

حقا كانت الجزائر عند دخول الاتراك العثمانيين فى حالة فوضى ، مقسمة ومجزءة وكان يمارس السلطة فيها الزيانيون فى تلمسان فى آخر ايامهم وابناء عمهم فى تنس واولاد سالم المعاقل بجزائر بنى مزغنة والحفصيون ببجاية واولاد بن جلاب بتوقرت وبعض الاشياخ بالصحراء وفى ذلك التاريخ اخذ الاسبان المسيحيون يطردون المسلمين من ديارهم ويحرقون ويقتلون ويفتكون فى اهل الاندلس الى ان آل الامر الى احتلالهم غرناطة عاصمة بنى الاحمر وخروج اصحابها ولجوئهم الى الجزائر والمغرب وشاهد تاريخ 1492 المشؤوم طرد مآت الالاف من المسلمين. صادف هذا الطرد ظهور عروج وخير الدين اللذين حملا منهم عددا كبيرا فى سفنهما ووضعاهم فى السواحل المغربية من الرباط الى طرابلس بعد ما اخذا معهما فى سفنهما الحربية العدد الكبير كمحاربين هؤلاء الذين اصبحوا من المجاهدين الصناديد فشدوا عضد الاخوين فى السواحل الاوروبية ودوخوا البلاد الاسبانية التى كانوا يعرفونها حق المعرفة دربا درباً وداراً داراً .

واشتدت الحروب البحرية فى ايام الاخوين ، وهى

حروب يطلق عليها لفظ القرصنة . فكانت في الحقيقة من اختراعات الافرنج لا العرب وحتى الكلمة لهم لا يوجد لها مرادف في العربية انما استعربت في القرن التاسع الهجري وكان يسمى من يتعاطاها قرصانا وهم معروفون عند ابن خلدون بغزاة البحر . وقد مهر فيها الاتراك والجزائريون وخصوصا منهم اهل بجايا والجزائر وشرشال ووهران ، وبعد ما طرد الاسبان المسلمين من الاندلس اشتدت تلك الحروب لما كان في قلب اهل الاندلس النازحين من كثرة العداوة للغاصبين الظلام والانتقام منهم واشهار الحروب عليهم لعلهم يسترجعون مساكنهم واموالهم . وكان الاوروبيون يفعلون مثلما يفعل المسلمون بل اكثر . فكانوا يسبون ويقتلون ويفتكون ويسترقون ويبيعون الفيء والاسرى ويرغمون هؤلاء على الاعمال المرهقة وينصرون الرجال والنساء والاطفال اكراها .

وقد قويت شوكة الاسبان بفضل الخيرات التي كانت تتدفق على بلادهم وبفضل السلاح النارى الذى اخترع منذ زمان قليل وسيطرتهم على اميريكا التى اكتشفوها منذ بضع سنوات واخذوا يفكرون فى التوسع في البلاد الاسلامية كلها ومحو الدين ونشر المسيحية . وكان الاتراك ذوى نفوذ وسطوة يقرأ لهما حساب في الشرق الاوسط واسيا الصغرى والبلقان واليونان واوروبا الوسطى . ومنذ صعود شوكتهم اخذت قواتهم تتصادم مع القوات المسيحية في البر والبحر وخصوصا فى البحر المتوسط وكان التنافس العنيف بينهما وتجرى الحروب الشديدة سجالا بينهما .

لقد شاع خبر الاتراك في البحر الابيض المتوسط ابتداء من سنة ١٥٠٣ اذ كانوا يغيرون على شواطيء جنوة وفرنسا واسبانيا وسردينيا ومايورقة ومينورقة واليابسة وفي شرق البحر في فينيسة وصقلية وقبرص وررودس ونابل وكثيرا ما كانوا يتفوقون على اعدائهم وكونوا اسطولا عثمانيا هاما كانوا يغيرون بواسطته على تلك الاقطار بعد ما ظهر الاخوان باربروسة فعملا باسمهما الخاص او باسم بعض الباشوات الاتراك الذين كانوا يعمرون لهما السفن الحربية . وانفرد الاخوان واخذا يجوبان البحار بجنود جزائريين واهل الاندلس وزنوج ومغاربة وتونسيين وكانا يعملان باسم الجزائر التى اتخذاها عاصمة لهما الى ان استشهد عروج في حرب قرب تلمسان ضد الاسبان فورثه اخوه خير الدين الذى استمر في اعماله الحربية البحرية وفاق اخاه فى الشجاعة والعنف والبطش والبطولة و في الفتك با عدائه الاسبان وعلى كل حال كان ذلك رد فعل من المسلمين على تلك الحركة الجديدة من الحروب . وعزم المسيحيون اثر غارات المسلمين البحرية على احتلال المواقع الحيوية والحساسة لافريقيا كي يضعوا حدا لوطاة المسلمين وخصوصا في المراسى وامام المدن الكبرى المغربية . لكن استعد لهم الاخوان اللذان حاولا طردهم منها . فاخرجاهم فعلا من الجزائر وبجاية وعنابة وتونس وطرابلس الا وهران والمرسى الكبير . وتقوت شوكه الجزائر وذاع صيتها في البحر المتوسط واصبحت خطرا على اسبانيا والسواحل الاوروبية فخشيت الكنيسة من سيطرة الاخوين على البحر والقطع على النصارى طرق السفن وامتداد طمعهما على الاندلس والبلاد الاوروبية .



الجزائر فى القرن 16 بالبحر المتوسط

وكان اذ ذاك الامبراطور شارل الخامس المدعو شارل كانت مسيطرا على جل اقطار اوروبا حتى قيل عن ممالكه ان الشمس لم تغرب فى أرضه . ورغم قوتـــه وكثرة جنوده كان يخـــاف من بطش الجزائريين تحت قيادة عروج وخير الدين . فحارب الجزائر مرارا عديدة ونزل بساحلها بفضل الجيوش العرمرمة لاوروبا كلها لكنه كثيرا ما هزم وطرد بعدما كبده الجنود الجزائريون الخسائر الجسيمة وكانت تلك الوقعـــات التاريخية فى سنـــة 1516 و1518 و1525 والهزيمـــة العظمى التى كانت فى الحقيقة مفخرة للجزائر هى تلك الفضيحة التى تكبدها سنة 1541 فى مرسى الجزائر حيث هلك لـــه الالاف من الجنود والخيل وغرقت وسبيت مات السفن • وكانت الواقعة تحت قيادة حسن اغا واشتهرت بها الجزائر فى العالم كله وحاولت الدول الاوروبية والشرقية ربط العلاقات والتحالف مع الجـــزائر . وقد كان نادى السلطان سليمان القانـــونى خير الدين لينظم له الاسطول التركى لما نال من السمعة العظيمة فى الامور البحرية وصناعة الســـفن حيث ان سليمان كان تحت تهديد شارل الخامس الذى حشد قواته المتحالفة من اوروبـــا كلها فبـــادر خير الديـــن الى اسطنبول وقلد خطة وزارة البحر فنظمها وصنع العدد العديد من السفن الحربية بواسطة صنـــاع جزائريين استعان بخبرتهم فى أمور الصناعة البحرية وخرج يغزو مع بحارة جزائريين واتراك . وكان يواجه الاميرال الجنوى الشـــهير آندريا دوريا الذى كان

يحارب باسم شارل الخامس . وتلاقى الرجلان المرات العديدة فى البحر المتوسط وكانت الحــروب بينهما سجالا . لم يكن فى الحقيقة امير للبحر اقرى واشجع من اندريا دوريا من بين المسيحيين ، ولذلك اختاره شارل الخامس وحــده عن خدمــة فرنســوا الاول ليحارب به سفن الجزائر وتركيا . وجرت مصادمات عنيفة بين الاسطولين اشهرها حرب ليبانت العظيمة حيث امتاز المجاهدون الجزائريون ببطولة لا مثيل لها . واذ لاقى الامبراطور قرة لم يستطع تكســيرها اشهر الحرب الصليبية على الجزائر واقسم باليمين المغلظة انه سيدرس الجزائر درسا ويردها رميما مثلما صنع الرومان بقرطاج . والقى يوما بتاجه على الارض واعدا نفسه ان لا يرده على راسه حتى يحتل الجزائر ويدكها دكا ويخربها ويحولها ركاما من الحجارة والتراب لكن لم يجبه الله الى طلبه بل زاد الجزائريين شدة وعنفا ومدوا يد المساعدة لفرنسوا الاول الذى كان متحــالفا مع السلطــان العثمانى سليمان ضد شارل الخامس وشاركت الجزائر فى الحرب وحاصرت جنودها مرسى نيس التى كانت بيد شارل كانت بعد ما عسكر خير الدين بجيوشه فى طولون وبســط حكمه على المرسى والمدينة واخذ يحل ويعقد وينهى ويامر الى حد ان منع من دق الاجراس وامر بالاذان فى اعالى صومعات الكنائس وحاول ان يغير العوائــد الفرنسية ويبدلهــا بأعراف اسلامية . واذ هزمت جيوش الامبراطور توجهت السفن الجزائرية الى الشواطىء الايطالية والاسبانية والجزر الخضراء لمتابعة غزواتها .

ولنقل بهذا الصدد انهلولا الاســطول التــركى والجزائرى اللذان كانا يستعين بهما فرنسوا الاول فى حروبه ضد شارل الخامس لاستولى هذا على فرنسا وحط فرنسوا الاول الى درجة ملك حقير ينحصر ملكه فى بعض الولايات الفرنسية ، وقد اسدى الاتراك والجزائريين معروفا لفرنسا فى ظرف من الزمان يفوق خمسين سنة تقوى خلاله فرنسوا الاول ونظم جيوشه رد بها جيوش عدوه اللدود حتى طعنت فيه الجماهير المسيحية لتحالفه مع اعداء دينه ضد ملك مسيحى .

ان الاسبان كانوا يشكلون خطرا على الجزائر اذ ذاك من الناحية الدينية والاقتصادية لحلولهم فى المراسى الهامة للجزائر وخصاصا منها المرسى الكبير ووهران ، ولو لا ذلك الاحتلال والقلع والحصون المنيعة التى شيدوها فى السواحل الجزائرية لا عاد الجزائريون الاندلس لاهلها وفرضوا فيها قوتهم . وكانت تلك القلع يكاد الاسبان يتوسعون منها الى القطر كله . والدليل هو انهم وصلوا اثناء غاراتهم الى جبال العمور ومن لطف الله الخفى كان شارل الخامس يحارب فى عدة جبهات بفرنســا وايطاليا والفاتيكان وفينيزيا واوروبا الوسطى وضد الاتراك العثمانيين المناهضين الاقوياء الذين احتلوا بلاد المجر وحاصروا فيينة وكادوا يحتلون اوروبا كلها ، كما كان شارل الخامس يواجه الثورات باوروبا التى ظهرت فيها اذ ذاك الديانة الجديدة المنحــدرة من المســيحية وهى البروتيستنيــة . كل ذلــك جعل الامبراطور لم يجب كما كان يريده قواد المرسى الكبير ووهران الى طلباتهم الملحة الاكيدة ليزودهم بالجنود والمؤن والعتاد الحربى ، الامر الذى ارغم الجزائريون

به الاسبان على الانكماش فى مـــراكزهم المحصنة ، لا يخرجون منها الا عند ما يتلقون النجدة والمدد من اسبانيا او ينهبوا من الاهالى المؤن والانعام . زد على ذلك عمليات التمرد التى كان يثيرها الجنود الاسبان المرابطون فى الحصون وكثـــيرا ما كانوا يهــددون رؤســـاءهم بالفرار الى القبائل واعتناق الاســـلام وبقيت الحالة هكذا حتى طرد الاتراك الاسبان نهائيا من قواعدهم .

وقد منح الله تعالى الجزائر فى تلك الفترة رجالا صناديد بحريين وغزاة كرســـوا حيـــاتهم فى خدمة الجزائر والاسلام ضد الاعداء الذين كادوا يحتلون البلاد لو لا بطشهم وتجلدهم . وضـــحوا بالنفس والنفيس وكانوا يقيمون جل اوقاتهم فى البحر فى الحرب ضد العدو خصوصا منه الامبراطور شارل الخامس الذى تكالب على الجزائر اذ كان يعتبرها كقلعة الاسلام المنيعة فى غربى البحر المتوسط بعد قوة العثمانيين وكان لشارل الخامس عدة امراء للبحر من الرجال المشاهير ايضا الذين واجه بهم الابطال الجزائريين منهم بيدرو نفـــارو الذى احتل بجـــاية والجزائر والمرسى الكبير ووهران واندريا دوريا وولده وغيرهما ، ومن جملة الرؤساء الابطال الجزائريين الذين كانوا يجوبون البحر ، فضلا عن خير الدين وعروج ، نشير الى حسن اغا وطرغد وصالح رئيس وسنان رئيس وجلهم كـــانوا مقربين لدى السلطـــان العثمانى مثل طرغد وصـــالح رئيس اللذين كانـــا يقومان بمهمات خطيرة فى خدمة الخليفة العثمانى .

يعتبر طرغد من ابرع تلاميذ خـــير الدين جعله الطموح وعزة النفس والصرامة يبغى الســـلطة والرئاسة . واذ راى فيه خير الدين تلك الخصال اسند اليه رئاسة اســـطول هام وتركـــه يعثى فى سواحل البلاد المسيحية . فدوخ البلاد المجاورة للبحر المتوسط وخصوصا منها اسبانيا وصقلية وايطاليا متخذا جزيرة جربة قاعدة له واشهر حروبه على الاساطيل الاوروبية التى كان يراسها دوريا فتفرغ له هذا وعزم على وضع حد لهجوماته على الجزر الغربية للبحر المتوسط الذى كان يعتبر دوريا نفسه سيدا عليه . فجند كافة امكانياته ليقبض عليه فاسره قرب قرسيقة ، لكن فداه خير الدين بالمـــال ، الامر الذى ندم عليه الاسبان ، وقال هايدو عن سراحه : لقد سرح طرغد بفديه كلفت المسيحية ثمنا غاليا .

وكان طرغد من اعداء دوريا الذى حاصره سنة 1550 فى ميناء مهدية ففكـــر طرغد فى مكيدة لاتخطـــر ببـــال المهندسين الماهرين وهى ان اخرج سفنه كلها على طريق البر بعد ما بسط لها الممر فى الرمل الذى غشاه بالخشب المطلى بالشحم لتنزلق عليه السفن بسهولة ، ثم جرها بالحبال واخرجهـــا بسلامة الى البحر حتى ابحرت . وبينما كان دوريا ينتظر استسلام طرغد اذ راى نفسه محاصرا مطوقا من كل جهة باسطول عدوه فهزمت سفنه ورفع الحصـــار وفر هاربا خجلا مذموما فى اعين جنوده ولم يشاهد فى عمره خديعة فى الحرب مثل تلك .

ولايزال طرغد ينتصر على اعداء المسلمين ومن اشهر الحروب التى انهزم فيها العدو قرب جزيرة جربة ضد فيليب الثانى ولد شارل الخامس سنة 1560 ثم حاصر مالطة حيث جرح واستشهد .

ومن الرؤساء الجزائرين الصناديد اذكر ايضا صالح رئيس الذى رفع راية الجزائر عاليا وكان باى البايات بها اى اميرا سماه السلطان العثمانى الذى كان نوتيا فى يخته الخاص يقوده عند خروج الخليفة وحاشيته الى البحر .

وكان ايضا حسن اغا من الرؤساء الماهرين الذين حاربوا شارل الخامس وولده فيليب الثانى وكان الامبراطور يخشى دائما المصادمة مع السفن الجزائرية تحت قيادة حسن لما كان يعرف فيه من الشجاعة المفرطة والوطاة الشديدة والقوة العتيدة . كانت صلابته وعنفه يضرب بهما المثل ويعرف برباطة الجاش خصوصا فى المواقع الحرجة منها هجوم لماردة الامبراطور على الجزائر سنة 1541 بخمسمائة سفينة لاوروبا كلها ولم يفقد حسن شعوره فى تلك الحالة الخطيرة التى لا نقيسها حتى بهجوم الجيوش الفرنسية على الجزائر سنة 1830 .

كما نذكر بطلا جزائريا آخر وهو سينان باشا الذى اظهر الشجاعة المفرطة والاقدام الهائل فى حرب تونس سنة ١٥٣٥ التى استولى عليها شارل الخامس بجيوش اوروبا المتحالفة .

هؤلاء الرجال وعلى راسهم خير الدين قد اذاقوا الامبراطور وابنه سم الحروب العنيفة ولم يتركوا لهما راحة قط حتى اشتد غيظهما وغيظ قوادهما فاعتراهم الفتور بكثرة الانهزامات التى كبدهم الجزائريون برا وبحرا رغم تفوق قواتهم واحست المسيحية رغم انتصارها فى تونس انها عاجزة بتاتا على القضاء على خير الدين والجزائرين . ففكر الامبراطور عند هذا العجز فى فتح المفاوضات مع خير الدين . وذلك بايعاز من مستشريه ومجلس الكورطيس واراد مع عظامته وانانيته ابرام صلح معه ليريح ويستريح . فوجه فى اواخر سنة 1539 سفيرا من السياسيين الدهاة الى خير الدين الذى كان مرابطا فى كورفو بالجزر اليونانية . فاخذ يتردد طيلة شهور ، وكانت شروط خير الدين شديدة وهى استرجاع المرسى الكبير وواهرن وغيرها من المراسى الجزائرية والتونسية على ان يكف عن محاربة الاسبان وحلفائهم ويكون صديقا لاصدقاء الامبراطور وعدوا لاعدائه وان يزيل كلاهما القرصنة من البحر المتوسط الذى يصبح بحر تجارة هادى وبحر سلم ، الاسفار التجارية فيه للمسلمين والمسيحين بامان وان يطلق سراح الاسرى المسلمين والمسيحيين وان يكف الامبراطور عن اضطهاد اهل الاندلس ووقع الاخذ والرد بين الملكين وكاد الصلح يبرم لو لم يتعرض له السلطان سليمان بايعاز من فرنسوا الاول الذى خشى ان يعقد على حسابه ويصبح منعزلا حتى يرجع عليه الامبراطور وخفقت المفاوضات واستمرت الحروب .

كانت الادارة المركزية للحكومة الجزائرية بمرسى الجزائر التى كانت قبل ظهور عروج وخير الدين عاصمة للشيخ سالم التومى الثعالبى لكنها توسعت فى عهد الاخوين التركيين ونالت شهرة وصيتا واصبحت عاصمة الولاة الاتراك بصفة رسمية لوقوعها عن شاطىء البحر فى وسط المغرب الاوسط ولحصانة المرفا والبلاد المجاورة لها التى تحجبها سلسلة من الجبال الاطلسية والذرى ذات الاراضى الخصبة . وبجوارها العربان والبرابر الشجعان .

وقال هايدو عن مدينة الجزائر :

« مدينة ذات اهمية وهى غنية وذات عمران وصالحة للقرصنة » .

واصبحت الجزائر تنافس تلمسان وبجاية وغيرهما من العواصم الجزائرية . اسس عروج بها دار السلاح وهيا مرفا هاما لارساء سفنه دون غيره واخذ يغير منه على السواحل الاسبانية واول من راى انها حصن منيع لايوجد مثله فى شواطىء البلاد هو عروج لوقوعها فى ارض مرتفعة يسيرة الحماية ومشرفة على البحر ومرفؤها منيع جدا يعسر على العدو الاستيلاء عليه . وقد زادها خير الدين حصانة بتشييد الاسوار العالية ومواصلة الجزيرة التى كانت حصنا للاسبان باليابسة ، الامر الذى زادها مناعة . وكانت المدينة عاصمة لسالم التومى الذى كان اميرا على الجزائر قبل ظهور عروج . فقد وصفها عدة مؤرخين مثل ابن حوقل والبكرى والحسن الوزان والادريسى وكلهم متفقون على غزارة مياهها الغذبة وثروتها الواسعة وطيب الحياة بها وحسن مينائها ونفاد تجارتها مع الخارج واسواقها العامرة . كل ذلك قد اعان على انها لعبت دورا هاما فى وقت الاتراك لا لاجل اتخاذهم اياها كوكر للقرصان فحسب بل لخيراتها الطبيعية التى كانت تجعلها مركز تجارة رابحة . وكانت بها ايضا فى ذلك العهد الزاهر صناعات نافقة تصدر المصنوعات لداخل البلاد ولخارجها . فجعلتها تلك الخيرات المتدفقة تضاهى بها تلمسان وبجاية وشاعت سمعتها واخذت تعمر شيئا فشيئا بالمهاجرين الاندلسيين فى القرن الخامس عشر مع من كان فيها من السكان البربر ايمازيغن والعرب المعاقل الثعالبة وغيرهم واليهود البربر الاهالى الدين كان يسميهم اليهود الاجانب اليهود العرب .

اما المهاجرون من الاندلس فاتوا خصوصا من الجزر الخضراء ميورقة ومينورقة واليابسة ومن الثغور المجاورة للممالك المسيحية لكاستين وليون وارغون .

وكانت التجارة بها بيد المسلمين واليهود وحتى النصارى وخصوصا منهم الفرنسيون .

وزيادة على عدد السكان المشار اليهم اعلاه كان عدد مرتفع من الاسرى المسيحيين يختلف على حسب الحروب البحرية التى كانت تشهر من طرف الرؤساء القراصنة وانتصاراتهم واخبر هايدو باقصى عدد منهم وهو 25000 كانوا يشتغلون بجنات الاعيان الجزائريين . وكان يعيش بالجزائر اوروبيون يشتغلون فى القنصليات من قناصل وكتاب وسماسرة وتجار مقيمين فى المدينة او مشتغلين فى الموانىء الاوروبية كانت لهم دكاكين وفنادق يضعون فيها سلعهم ويتجرون فيها ويشترون الرقيق والسلع الماخوذة فى الحروب . وكانت الحياة فى الجزائر رغدة توجد البضائع بكثرة وبثمن زهيد حيث انها ترد من الخارج اما بصفة شرعية واما انها تاتى من السبى . وكانت الحركة التجارية فى المدينة مهمة ، كان كل صاحب مال يشارك فى تجهيز وتسليح السفن الحربية فيدرله ذلك نفعا له بالعند رجوع السفن مظفرة سالمة غانمة ملآنة سلعا ورقيقا ويباع كل ذلك فى سوق واقعة فى وسط المدينة تسمى « بابيستان » وهى عبارة عن ميدان متسع مسقف مركب من اروقة يختص كل رواق بنوع من البضاعه .

وجل السلع كان يشتريها اليهود وخصوصا منها الذهب والفضة والاحجار الكريمة وانواع الخمور والكحول واللحوم المقددة المحجوزة في السفن الحربية المسيحية ، تلك البضائع التي كان المسلمون يحرمون على انفسهم الخوض فيها .

وكان اليهود ماهرين في التجارة محتكرين جلها فيصدرونها الى البلاد الاوروبية وخصوصا ايطاليا . وكانت لهم مدينة ليفورن تحت سيطرتهم مستحوذين فيها على التجارة والصناعة . فكانوا يسمون يهود قرانة اي اهالي ليفورن او يهود النصارى ، كما كانوا يكنونهم او يهود الافريج .

وكانت لهم في المدينة المذكورة الفنادق والمخازن الهامة التي كانوا يضعون فيها السلع الواردة من الجزائر والمقتنية باثمان زهيدة حيث انهم لا يجدون في البابستان اي منافس من المسلمين فيبيعونها باسعار باهضة في اسواق اوروبا منتهزين الفرص ومحصلين من تلك المعاملات على الارباح المضاعفة وكانت السفن العديده تحت ملكهم الخاص يشحنونها ببضائعهم وبضائع المستاجرين وكانوا يعمرون ايضا السفن الحربية ويسلحونها لاجل تعاطي القرصنة بواسطة رؤساء جزائريين وكانوا محتكرين التجارة الخارجية مع بعض التجار المسلمين والمسيحيين .

كانت تجارة الجزائر مزدهرة في القرن السادس عشر تدر لبيت المال الارباح الهامة بحيث ملات الخزينة بالنقود من الذهب والفضة وكانت الزكوات تدخل بدون صعوبة لبيت المال لكثرة الانعام من الظان والبقر والبعير ولنفوذ السلطة وكات الفلاحة مزدهرة تصدر المنتوجات الفلاحية للخارج من الحبوب والخضر والفواكه والتمور والزيت والعسل والشمع وكانت السفن التجارية ترد على المرسى وتصدر منه الى تونس ومرسيلية ونابل وجنوة وليفورن وحتى الى اسبانيا عند ما كانت الهدنة سائدة بين تلك الدول والى طرابلس والاسكندرية وتركيا وفرنسا والمغرب .

وقد ادركت الجزائر اذ ذاك الاهمية العظمى والسمعة البعيدة التي لم تدركها في اي وقت من قبل وشاع صيتها في البحر المتوسط بحيث كانت الدول تتنافس للتصالح ولربط العلاقات التجارية والاتفاقات الحربية معها . وتحولت تجارة تلمسان والغرب الجزائري الى مرسى الجزائر لخمول تلمسان بسبب استيلاء الاسبان على وهران والمرسى الكبير اللذين بفقدانهما اضمحلت تجارة البلاد الغربية وتحولت الى الشرق وانحطت سلطة الملوك الزيانيين .

واللغات التي كان يتكلم بها الناس بالعاصمة الجديدة هي العربية والبربرية والتركية وبرطانة هي مزيج من الفرنسية والاسبانية والايطالية كما اخبر بذلك الراهب دان وكانوا يسمونها اللغة الافرنجية . LINGA FRACA

ان خروج الجزائريين الى الحروب في البحر والبر تحت قيادة الاتراك كان في الحقيقة ردود فعل المسلمين المغاربة على طرد النصارى اهل الاندلس وعزمهم على احتلال البلاد الافريقية ، وقد اوقفوا مع الاتراك والحق يقال الاسبان وحتى البرتغاليين من الانتشار في افريقيا وارغموهم على المكوث في الشواطىء الى حد انهم لم يستطيعوا التوغل داخل البلاد وحتى انهم كانوا مسيطرين على وهران والمرسى الكبير وغيرهما كانت اقامتهم تقلقها غارات

الجزائريين . وكانت حصـــونهم محمية جدا يلزمهم الدفاع عنها مصاريف طائلة وتجنيد عدد عديد من الجيوش الاسبان والاهالى المدعوين عرب الســـلم

كان الجيش الاسبانى دائما على حذر وبالمرصاد حتى ضاق بهم المقام واضطروا الى مغادرة البلاد الافريقية بفضل الضربات التى كانوا يتلقـــونها من جيوش الجزائر . ولو لا تلك الضربات القاســـية لانتشرت المسيحية بافريقيا اذ اشهر الاسبان على افريقيا حربا صليبية من طراز جديد قليلا ما ينكرها المؤرخون الاجانب لانها كانت ذات صبغة دينية ضد الاســـلام .

اذا امعنا النظر فى حالة الجزائر فى ذلك العصر وجدنا ان تدخل بنيها والاتراك كـــان له تاثير عميق فى توحيد بلادنا التى كانت تسودها الفوضى والتفرقة فوحدوها وجمعوا شملها وازالوا الممالك والطوائف العديدة التى كانت تزاول النفوذ بالجزائر وتفرض الغرائم الثقيلة على الشعب وقـــد اعطـــوا الجزائر الاستقرار اللازم النسبى لذلك العصر سمح فى تضميد جروحها ووضعوا حدا للتقلبات التى كانت تثيرها الحروب المدنية والفتن . كما احبطوا اطماع الاسبان الذين كانوا على وشك السيطرة التامة على الجزائر والبلاد المغربية الاخرى .

وقد اعانوا الملوك السعديين المغاربة على طرد البرتغاليين من الساحل المغربى وكان لهم النصيب فى الهزيمة التاريخية الشنعاء التى كبدتها الجيوش المغربية للقوات البرتغالية بوادى المخازن سنة ١٥٧٨ المدعوة بمعركة الملوك الثلاثة حيث هلك ثلاثـــة ملوك لقد عرقلت والحق يقال الحروب المدنية التى كان شارل الخامس يواجهها باوروبا ، محاولات الاسبان فى الاستيلاء على افريقيا ، كما اخر تعنت فرنسوا الاول ذلك الاحتلال وقد قال عنـــه حاكم وهران الاسبانى فى تقريره للامبراطور المؤرخ فى غشت 1536 : « ان لم تستطع جلالتكم القيام كما ينبغى بالحرب الصليبية المقدسة التى كنت اشهرتهـــا على الكفار (يعنى المسلمين) فكان السبب فى ذلك ملك فرنسا . فاننا نتالم لذلك اذ نعلم اننا كنا نعمل هذه السنة امورا هائلة بافريقيا » .

فعلا كان من حسن حظ افريقيا وحتى تركيا الخلاف الخطير القائم بين الدول الاوروبية رغما عن محاولات الكنيسة فى وضع التوازن بين الملوك . ومن لطف الله الخفى ان نشبت تلك العداوة التى جعلت الاتراك والجزائريين مستريحين نسبيا رغم الضربات التى كان يعطيها الاسبان لافريقيا ليشتت شملها ويفرق بين امرائها ويضرب الواحد بالاخـــر ويزرع الفتنة والتشويش .

نعم لقد امتاز الحكم العثمانى بالجزائر بالشدة والقساوة ماديا وادبيا لكنه رغم ذلك ترك لنا تراثا لا يستهان به فى هذين الميدانين فانه فوق كل شىء رفع عاليا راية الجزائر التى ابعدت الاســـتعمار الاسبانى واحبطت مطامحه وحمت على الاســـلام وآزرت السلطان سليمان القانونى وقضـــت على اساطيل اوروبا المتحالفة لكنها هيات الجو باعمـــال القرصنة للاستعمـــار الثانى العصرى الذى ذاقت بلادنا اكثر من غيرها مرارة سمه وذلك لانك رايت بلادنا قد غلت دون غيرها فى الاعمال الحربية البحرية وجدها فى الحقيقة الاتراك مستعدة لذلك النوع من الحروب لانه شاهد عند اسلافنا بعض الاخلاق المتشابهة باخلاق الاتراك .

الاحتلال الفرنسي للجزائر

ومقاومة الشعب فى الميدان الروحي

المهدي البوعبدلي

كان عهد الاحتلال الفرنسى طيلة مدته سلسلة احداث متتابعة ومجددة للحروب الصليبية ، فكانت غايته افقار البلاد وتجهيلها ، ثم تنصير السكان او ادماجهم فى العنصر الفرنسى .

واننى فى هذا المقال ساتحدث بايجاز عن تاريخ مراحل هذا الاحتفال ، كما أتناول بالدراسة المفصلة مواقف الامة ودفاعها على اهم ما كانت تعتز بـه ، وهو عقيدتها الاسلامية ، ذلك الدفاع الذى ارغم المحتل الغاصب نفسه ، الى الاعتراف بفشله الذريع فى هذا الميدان ، وساقسم حديثى هذا على ثلاثة فصـول :

ـ الفصل الاول : الاحتلال الفرنسى فى اول عهده وما أعقبه من مظالم ، ثم ظهور المقاومة .

ـ الفصل الثانى : افتكاك الاراضى ومحاولة التنصير .

ـ الفصل الثالث : ننهيه الى قيام الحرب العالمية الثانية سنة 1939 م .

لا احدثكم عن الاحتلال وأسبابه ، فمجال هذه المحاضرة الضيق ، لا يسمح لنا بذلك ، وانما نذكر بعض نتائج هذا الاحتلال مباشرة .

ان المعاهدة التى حررها الماريشال دوبورمون قائد الحملة الفرنسية ، ووقع قبولها من حسين داى ، كانت تشتمل على ستة بنود أهمها اثنان :

البند الذى يشمل احترام الداى وأسرته ، والتعهد له بحماية السلطات لشخصه وماله وافراد اسرته، والبند الذى ينص على احترام الدين الاسلامى والمحافظة على حريته ، كما تحترم حرية جميع طبقات السكان وديانتهم وأموالهم ، وقد تعهد دوبورمون بشرفه لهذا الالتزام .

لم يمر على احتلال البلاد الا أسابيع قليلة حتى نقضت هذه المعاهدة ، فأول شىء قام به الجيش الفرنسى هو اسكان الجيش المحتل المرابط بالعاصمة ، وكان عدده يربو على الخمسة عشر الف جندى ، أسكن هذا الجيش بمعظم الدور والمحلات التجارية بل حتى المساجد والقصور .

كان عدد المساجد التى أممت لهذه الغاية أربعين مسجدا ، وعدة معاهد ، معظمها بحومتى باب الوادى وباب عزون . لم يكتف الجيش المحتل بتسخير هذه المساجد والمساكن ، بل شرع فى تهديم البقية ، تحت ستار اصلاح البلدة ، وتوسيع شوارعها فكانت النتيجة الاولى من هذه التصرفات انه لم يمر عام واحد على الاحتلال حتى خربت جل المساكن ، اذ نرى أن الجنرال اعترف فى تقرير رسمى بعثه الى السلطات العليا بباريز ، اعترف بخراب تسع مائة دار فى هذه الفترة ، ومن جهة أخرى ذكر الحاكم المدنى فى بعض تقاريره ما يلى : «اننى لم أجد الا مسكنين عربيين نجيا من التخريب ، انهما كانا مسكنين لضابطين من درجة جنرال ، فلو سكنهما الجند لما بقى منهما شىء ، وللحق الخراب فيهما حتى خشب السقوف ، وكذلك أشجار الحدائق كالزيتون والبرتقال والتين، فان معظمها تلهبه نيران المطابخ .

انه لمنظر محزن هذا الذى نشاهده ، وان هذه الدور التى نشاهد آثارها الدالة على انها كانت جميلة جدا كثيرة ، فاننى حسبت فى مسافة تتراوح بين أربع وخمسمائة خطوة ، نحو العشرين دارا خربت ، ان مساكن بيرمندراس وبير خادم وغيرهما من مساكن الفن كلها لحقها الخراب . اللهم الا دارين أو ثلاثة، لم يبق منها الا بعض السبائك من النحاس والحديد يحملها الجندى عند ما يذهب الى المدينة فيبيعها للتجار اليهود ، الذين يبيعونها بدورهم الى تجار الآثار ، وهم يصدرونها الى مرسيليا أو ليفورن (Livourne) اهـ كلام Pichon

كان معظم المساجد التى هدمت بدعوى تخطيط البلدة وتوسيع شوارعها الضيقة ، ما بين ساحة الشهداء الحالية ، وثانوية الامير عبد القادر (أى سفح ضريح الشيخ عبد الرحمن الثعالبى) .

واذا بقى الى الآن المسجدان الحاليان المالكى والحنفى ، فذلك يرجع الى معجزة ، اذ بذل المخربون

جهودا جبارة لالحاقهما ببقية المساجد المهدومة وهذا تقرير آخر للحاكم المدنى Pichon أرسلـه فى الموضوع الى رئيس الحكومة الفرنسية قال فيه : « اننى بمجرد وصولى وشروعى فى العمل سمعـت بأن اللجنة المكلفة بالمحلات العسكرية لم تهتـم بشىء مثل اهتمامها بالاستيلاء على بقية المساجد . ان كثيرا من المسؤولين هنا لم يبالوا بنظر الحكومة فى الموضوع . فهم يريدون القضاء على بقية المساجد وعلى الدين الاسلامى ، واننى عند ما أجتمع ببعضهم يقابلوننى بالسخرية والتهكم . ويصارحنى بعضهم بأن محاولاتى فى الدفاع عن المساجد وعمارها ستبوء بالفشل . واننى على كل حال لم أبال بحكم هـؤلاء الجهال . بل هناك رؤساء ، هم الذين أهتم بأحكامهم على تصرفاتى . كنت أنتظر الاتصال باللجنة المكلفة باسكان الجيش اذ أراها تؤمم المساكن . وتسكـن فيها الجيش وعند خرابها لم تحاول اصلاحها ، بل كل ما تفعله هو التفتيش من جديد على محلات أخرى صالحة للسكن . وهذا ما لفت نظركم اليه مرارا . وقلت لكم انه ينذر بسراع الخراب الى كامـل المدينة . ان لم يجعل لهذه التصرفات حد ، كمـا أخبركم بأن أعضاء اللجنة يريدون القضاء عـلى المسجدين العظيمين المالكى والحنفى بدعوى انهما اذا تمرد السكان يجدون فيها ملجأين هامين.وتناسوا أن المسجدين يوجدان تحت أفواه ونيران مدافـع القصبة . والبواخر الراسية فى الميناء » الخ . . .

اهـ تقرير Pichon

واننا اذا أحصينا المساجد التى هدمت أو حولت الى كنائس أو مخازن ، لما وسعنا مجال هـذه



المقاومة الروحية والاحتلال

المحاضرة ، وهي بحمد الله مسجلة واحدة واحدة ، ومعظمها كان لها ريع ممتاز ، اذ لم تكن المساجد اذذاك مقصورة على أداء العبادات فقط ، بل كانت معاهد علم فيها حلقات الدروس العلمية ، ثانوية وعالية ، ودروس الوعظ والارشاد والتوجيه للعوام ولم يخل مسجد من كتاتيب قرآنية وخزائن كتب في مختلف الفنون ، وقد كانت مساجد الجـزائـــر ومعاهدها تمتاز بوفرة الريع ، حيث كان الغـزاة يسهمونها حصصا هامة من غنائمهم ، وقد حفـظ لنا التاريخ بعض وثائق أحباس الجامع الاعظـــم بالعاصمة ، فكان ما صرف من الزائد على المصاريف اللازمة فقط ، يقدر بمآت الملايين في العصر الحاضر، اذ لا يخفى على حضراتكم ان التعليم اذذاك بجميع مراحله ابتدائي ، وثانوي ، وعالي ، ودور الكتب ، والمستشفيات ، والتكايا ، التي يلتجىء اليهـــا عابرو السبيل ، والفقراء والمساكين كانت مصاريفها من ريع الاحباس .

هذا فيما يخص المساجد والمعاهد العلمية ، اما القصور ، فكان عددها يربو على الستين ، وقـــد بقيت منها بقية الى يومنا هذا ، تدل على أن ما تبارى فيه كثير من كتاب الجزائر ، وأدبائها في وصفها ، لا مبالغة فيه ، ومازال التاريخ يحتفظ لنا بقطعـــة رائعة نظما ونثرا للاديب الشهير الشيخ سيدى أحمد ابن عمار المستغانمي الاصل الجزائري المنشـــأ والدار ، صاحب الرحلة المشهورة ، وصف بها قصر عبد اللطيف الذى مازال الى يومنا هذا ، كان هـذا القصر في عهد الاستقلال الفرنسي مقرا للفنانيـــن الرسامين ولنكتف بمـا وصف بـه أحد الضبـاط الفرنسيين المشهورين قصرا آخر كان مصيفـــا لحسين داى ،

قال الجنرال لاموريسيير يصف هذا القصر الذى سكنه ما يـلي :

Le pays où nous sommes est délicieux. L'air est embaûmé du parfun des jasmins, des géraniums et des roses. La maison que j'occupe est à 200 pas de la mer. C'est un lieu de plaisance du dernier Dey d'Alger.

Partout des bassins de marbre, des jets d'eau, des fontaines vives.

C'est là au milieu des merveilles de l'art, de la nature et de l'appareil militaire de mon camp que, matin et soir, je prends mon café et fume ma longue pipe.

ان الجزائر كما ذكرنا كانت لا تقل مكانتها في العلم والحضارة عند احتلال الفرنسيين لها ، عـلى بقية عواصم العالم الاسلامي اذذاك ، خلاف ما يتبجح به بعض المغرضين أو الجهال ، وان ما وصفها بـه كثير من العلماء والرحالين مسلمين وغير مسلمـين الذين وردوا عليها في مهمات ديلوماسية او سياحية لدليل على ما ذكرناه .

لم يقتصر نقض المعاهدة على هذا القدر ، بـل عزز بتشجيع التنصير ، فعلاوة على تحويل بعـض المساجد كنائس كجامع كتشاوة وجامع علي بتشنيني وجامع علي خوجة ، فان سلطـات الاحتـلال حكمت بالنفي والابعاد على أعظم شخصية دينية اسلامية ، اذ اتهم الماريشال دوبورمون العلامة الشيخ محمد ابن محمود المشهور بابن العنـابي المفتي الحنـفي، بالعاصمة ، اتهمه بمحاولة التمرد ، والدعوة الى الثورة فحكم عليه بالنفي ، فاختار الاسكندرية ، وأسندت اليه الحكومة المصرية نفس الخطة ، وبقى مفتيـا

بها الى أن توفى ، وقد كان من كبار رواة الحـديث، ومازالت آثاره وبقايا أسرته ، الى يومنا هذا بالقاهرة والاسكنـــدرية .

ثم وقعت واقعة فى عهد الجنرال فوارول الذى خلف الماريشال دوبورمون اهتم لها السكان لاول مرة وأظهروا سخطهم واستياءهم علانية ، وتظاهروا وذلك عند ما حاولوا تنصير امراة مسلمة ، ولمـا احتج القاضى على هذه التصرفات عزل وعينوا آخر خلفه ، وعند تنصيب الخلف اجتمع السكان بالمحكمة وتظاهروا ، ومنعوا التنصيب ، فكان هذا أول انفجار ضد تصرفات الاحتلال من طرف الشعب ، وابتداء من هذه الحادثة ظهرت مقـــاومة الشعب جليـة ، وانقسمت هذه المقاومة الى قسمين : قسم النخبة ، وقسم العامة .

فمقاومة النخبة كان على راسها العالم الشهـير السيد حمدان بن عثمان خوجة ، وكان ميدان عمله الاوساط الباريزية ، أى أوساط الصحفيين ، والكتاب الاحرار ، والنواب الجمهوريين .

أما العامة فكانوا يقومون بالمظاهرات والاحتجاجات الصاخبة ، والشكاوى التى تؤيد رأى النخبة .

والحديث عن هذه المقاومة بتفصيل لا يسعـــه أيضا مجال هذه المحاضرة ، وانما لا يفوتنا ان نذكر ما سجله السيد عثمان خوجة فى تاليفه القيـــم « المـــرآة » LE MIROIRE الذى هو عرض حـال قدمه للجنة البرلمانية التى أرسلت من فرنســا للبحث ، اثر احتجاجات ومساعى حمدان بن عثمان خوجة ورفقائه ، بعد صــدور قرارى الجنـــرال CLAUZEL المؤرخين فى 10 جوان وفى 8 سيبتمبر 1831 .

هذان القراران هما اللذان صادر بهما الجنـرال Clauzel املاك الدولة ، والاملاك الخاصة للاتراك المهاجرين ثم البقية الباقية من الاحباس .

كان لهذين القرارين صدى استياء فى كـــل الاوساط الاسلامية ، اذ هو نقض صريح للمعاهدة، وقد تأثر منه حتى بعض الاحرار الفرنسيين كالمؤرخ الشهير Pellissier de Reynaud صاحب تاريخ حوليات الجزائر (Les Annales Algériennes) قال المؤرخ المذكور : «ان شروط الاستسلام ديست بالاقدام ، وعار على دولة دخلها مائتان والف مليون فـــرنك عار عليها ، أن تجرد عائلات فقيرة من مكاسبهـــا ضد كل القوانين الالهيــة أو الانسانية ، وهذا نص ما ذكره المؤرخ :

«Depuis la prise de la ville d'Alger, beaucoup de maisons particulières étaient occupées militairement, d'autres étaient démolies pour l'élargissement des rues et l'établissement de quelques places publiques.

Par un arrêté du 26 octobre, le Général Clauzel promit des indemnités aux propriétaires dépossédés et y affecta les immeubles du domaine. Cette mesure juste et humaine ne fut pas mise en exécution, un odieux esprit de fiscalité prévalue sur les règles de la justice et de l'honneur.

Une nation dont les revenus s'élevaient à 1 200 millions fit banqueroute à des pauvres familles qu'elle avait dépouillées contre toutes les lois divines et humaines.
toutes les lois divines et humaines».

ذهب حمدان عثمان خوجة الى باريز فى أوائـــل ماى 1833 فالتحـــق ببعض مواطنيه الذين نفـاهم Le Duc ROVIGO منهم بوضربة وأولاد ابن تركية وابراهيم بن مصطفى باشا وكانت الاوساط الباريزية تطلق عليهم اسم L'inteligenta

وبالفعل اتصلت هذه النخبة بالشخصيات الباريزية وأطلعتها على مثالب الحكم العسكرى ، وكانـــت الجريدتان اليوميتان باريز (Le National) الوطـنى، وبريد فرنسا Courrier de France تنشران سلسلة مقالات تبين فيها فضائح العسكريين بالجزائر وهتم لهذه الحملة الصحفية الرأى العام الباريـــــزى الذى أيد مطالب النخبــة فى ارسال لجنـــة بحث برلمانية ، وعينت بالفعل هذه اللجنة فى 7 جوليت 1833 ، كما أيد سكان عاصمة الجزائر مطالب النخبة ووقعوا عرائض وكلوا فيها السيد حمدان بن عثمان خوجة للدفاع عنهم ، والتكلم باسمهم ، وهــذه هى الاسباب التى دعت السيد حمدان خوجة لتاليــف كتابه القيم «المرآة» ، حتى يستعين به أعضاء لجنة البحث البرلمانية ، ذكر فيه بتفصيل حالة البــلاد الجزائرية ، قبل الاحتــلال الفرنسى ، ثم ظــروف الاحتلال ، والمعاهدة المتفق عليها من الجانبـــين الجزائرى والفرنسى ، ثم تعرض للفضائح الـــتى ارتكبها الفرنسيون العسكريون فى مدة الثـــلاث سنوات ، وختمه بقوله : « ان الجيش الفـــرنسى صادر الدور والمنازل وحطمها ، كما أفسد الحدائق وجرد السكان من ممتلكاتهم وأثاث منازلهـم ، ان تصرفاته كانت سببا فى هجرة الاغنياء ، وارجــاع الفقراء الى التسول ، ان شروط المعاهدة نقضـــت فالدين الاسلامى والعوائد الاسلامية لم تحتـــرم ، استولوا على المساجد ، وأمموا الاحباس ، ونبشوا القبور ، ولم يحترموا حتى عظام الاموات . ان نهب الاموال وهدر دماء الرجال وارتكــاب الجنــايات فى الاموال والانفس ، هذه الاعمال هى التى تقع الآن فى الجزائر ، ان النفيان ومصادرة الاموال هما كل حظنا من الدستور ، واننا نعد أنفسنا سعداء ان لم يلحق قرار آخر باستئصال الجزائريين ، ان ممثلى فرنسا مسؤولون عن هذه الاحداث ، فمنذ ثلاث سنـــوات لم يظهر لنا حكام الجزائر الا الغطرسة والانانيـــة والتعامى ، انهم ساعدوا المتملقين من الاهالى واليهود والمسيحـــيـين .

ثم بين بتفصيل جميع ما لحق الجزائر طيلـــة السنوات الثلاث التى أعقبت الاحتلال ، ومن جملة هذه الموبقات اجبار كثير من السكان المسلمين على تطليق زوجاتهم ، ثم ختم تاليفه بعرضه للحل الوحيد للقضية ، وهو الاقتداء بما فعله نابوليون الاول بمصر حيث كون حكومة محلية مصرية ، وصرح حمـدان تصريحه المشهور وهو : «ان الجزائر للجزائريين»

نكتفى بهذا القدر الذى يبين لنا ان الجزائريـين لم يقابلوا الاحتلال الفرنسى كما اتهمهم كثـير من الكتاب من انهم تسابقوا بعد الاحتلال الى التعـاون مع المحتل ، بل قاوموا بكل امكانياتهم وطاقاتهم ، هذا بالنسبة لسكان العاصمة فقط أما خـــارج العاصمة فكانت المقاومة بالسلاح وكانت العاصمة فى شبه حصار والقائمون به هم الزعماء الابطـال، ابن زعمون والسعدى وسيدى على مبارك ، هـــذا علاوة على مقاومة الامير عبد القادر بعد ، وكـــانت مقاومة الشعب الغير المسلحة لها أثر عميق .

الفصـــل الثـــانى :

ان الحديث عن الامير عبد القادر ، ومقاومتـــه طيلة سبعة عشر سنة معروف لدى الجميع ، وقـد قتل بحثا على حد تعبير المعاصرين ، وخصصـــه

الكتاب بالتآليف ولم يوجد فيالجزائر من لم يتصوره اجمالا أو تفصيلا . ولهذا لم نتعرض له في هـذه المحاضرة التي خصصناها للمقاومة في الميدان الروحي .

بمجرد ما أنهت فرنسا الحرب مع الامير عبد القادر ، أعلنت الحرب على القبائل الصغرى بما فيها جبال بابور ، فدامت من سنة 1849 الى 1852 ، ثم أعلنت الحرب على القبائل الكبرى سنة 1853 فدامت الى سنة 1857 وكان أكثر الناس مقاومة أو تحريضا عليها أتباع الطريقة الرحمانية التي كان يتزعمها اذذاك الشيخ محمد المهدي السكلاوي البراتني ، شيخ الزعيم الشهير محمد أمزيان ابن الحداد ، بطل ثـورة 1871 .

لما استولى الفرنسيون على بلاد القبائل هاجر الشيخ المهدي السكلاوي الى الشام على رأس وفد من تلامذته ، وخلف على رأس الطريقة الرحمانية الشيخ محمد أمزيان ابن الحداد . عند ما انتهت المقاومة في بلاد القبائل صادرت الحكومة الفرنسية جميع أراضي المجاهدين وفرضت ضريبة حربية على نحو 45 قرية ، وكان مقدار هذه الضريبة ، يتراوح بين 15 ألف فرنك و 570 الف فرنك للقرية الواحدة وألقى القبض على كثير من الرؤساء من جملتهم المجاهدة الشهيرة السيدة فاطمة ، فقد سجنت بتابلاط في زاوية الشيخ الطاهر بن محيي الدين باشاغا بني سلمان ، برفقة اخوتها : السادة الطاهر ابن أحمد أومزيان ، ومحمد ، والشريف ، وبقية افراد أسرتها ، البالغين ثلاثين نسمة. كان الفرنسيون يسمون هذه المجاهدة بنبية الجرجرة La Prophetesse de Djurdjura ورغم القاء القبض على المجاهدة وسجنها بقشلة عسكرية ، فان الشعب القبائلي بقي وفيا لها وفاء حير عقول قادة الجيش الفرنسي، حيث أحصى بعضهم عدد زوارها في يوم واحد بثلاث مائة بين رجل وامرأة . كانت هذه الزعيمة من تلامذة الشيخ المهدي السكلاوي السابق الذكر.

وعند ما فرضت فرنسا نفوذها على البلاد ، وشرعت في تتبع خطة التوسع ، وتجريد السكان من أراضيهم ، وتغيير القوانين الدينية وفرنستها ، ارتطمت بثورات متكررة ، ففي سنة 1849 وقعت ثورة الشيخ أبي زيان المشهورة في التاريخ بثورة الزعاطشة ثم ثورة بني يمل سنة 1850 ومات أثناءها الجنرال Barral ، عند ما حاول تخطيط وتعبيد الطريق بين سطيف وبجاية ، وثورة ابناء سيدي الشيخ بالجنوب الوهراني سنة 1864 ، وثـورة المقراني وصهره الشيخ ابن الحداد سنة 1871 ، ثم ثـورة بوعمامـة ، وثورة سيدي الازرق بفليتـه ووانشريس ، وثورة مروانة بالاوراس ، وثورة بني شقران ابان الحرب العالمية الاولى ، كل هـذه الثورات كانت تحت قيادة رجال الدين الاسلامي، مما ترك أحد المؤرخين الفرنسيين يصرح بأن الفرنسيين لقوا المقاومة عند السكان العرب والقبائل ، أما الاتراك فان نفوذهم تقلص بمجرد احتلال الجزائر ، والسكان الاصليون من عرب وبربر الذين لـم يخضعهم الاتراك ، هم الذين قاوموا الفرنسيين ، والعجب أن هؤلاء السكان ليست لهم وحدة ، وكانوا دائما يحاربون بعضهم بعضا ، فالرابطة الوحيـدة التي تجمعهم هي الدين .

Les Français ont eu comme adversaires, non les Turcs, dont la puissance s'était effondrée avec la prise d'Alger, mais les Indigènes, Arabes et Kabyles que les Turcs eux-mêmes n'avaient qu'incomplétement soumis.

Ces populations ne formaient pas une masse homogène, mais se partagaient en une multittude de groupement sans cohésion et souvent en lutte les uns contre les autres. Le seul lien qu'il y eut entr'eux la religion.

كان الخلاف اذذاك قويا بين المدنيين والعسكريين الفرنسيين الذين وان كانوا متفقين على اخضاع المسلمين وقهرهم ، الا أنهم اختلفوا في وجهات النظر ، فالمدنيون كانوا يميلون الى نشر الحكم المدني ليستولوا على البقية الباقية من الاراضي التي بقيت تحت تصرف المسلمين . أما العسكريون فكانوا يرون ان بقاءهم حكاما ، يتصرفون كيف شاءوا ، يتمتعون بالجاه والمال ونشوة الحكم ، هو مرتبط ببقاء الاوساط الاسلامية والحكم العسكري.فان دخلهم العمر المدني ضاع لهم الحكم.وكان غلاة المتقفين من رجال الكنيسة والتعليم ، والقانون يدبرون خطط الاندماج والتنصير ، او اخلاء الارض الصالحة من سكانها وابعاد هؤلاء السكان الى الجبال والصحاري .
فعندئذ ظهرت مسغبة سنة 1867 المشهورة عند السكان بعام الشر . فاستغلها بصفة دنيئة الصليبي المشهور الكاردينال Lavigerie الذي عين اذذاك أسقفا على راس كنيسة الجزائر . وكان يتمتع بنفوذ عظيم في الاوساط العسكرية ، واليمينية. وكان من جملة أنصاره الماريشال Niel وزير الحرب بباريز ، و Baroche وزير الاديان .

كان الكاردينال Lavigerie بمجرد توليته على كنيسة الجزائر لم يخف نواياه ضد الاسلام والمسلمين . فاول تقرير أرسله في الموضوع قال فيه :

« ان ادخال الاهالي للديانة المسيحية واجب مقدس ينبغي أن نرقى هذا الشعب . ولنضرب صفحا على غلطات الماضي ، فاول ما يجب علينا معهم هو الحيلولة بينهم وبين القرآن . بدلا من غلطات اخرى كاحياء مملكة عربية . ينبغي لنا على الاقل ان نهتم بالصبيان.فندخل في عقولهم تعاليم جديدة ألا وهي تعاليم الانجيل . فبعد ذلك يمكننا الاختلاط بهم والا فلنبعدهم الى الصحراء . بعيدين عن الشعب المتمدن » .

كان ضحايا هذه المجاعة اى مجاعة 1867 ما يزيد على موت ثلاث مائة الف جزائري . بين الرجال والنساء والصبيان . ثم كان زلزال البليدة ، ووباء الكوليرا . فاستغل الكاردينال هذه الظروف القاسية والتقط نحو 1753 طفلا . تتراوح اعمارهم بين 8و15 سنة وجمع تبرعات من فرنسا ، والجزائر . بدعوى انقاذ هؤلاء الاطفال من المجاعة . فجمع ما يزيد على المليون فرنك فاسس مركز انطلاق التنصير بهذه البلاد . واختار لهذا المركز ناحية بعيدة عن المدن الاسلامية . ناحية اثرت فيها المجاعة كثيرا ، ومات جل سكانها أو جلوا ، اختار الكاردينال لافيجري سهول شلف الشرقية بناحية العطاف . وأسس هناك ضريحا رمزيا لسيبريان (الذي كان يعيش في قرطاجنة واعتنق المسيحية ومات ضحية عقيدته) فسمى ذلك الضريح بضريح Cyprien ثم أسس بقربه مستشفى سماه أيضا باسمه . ومازال الضريح والمستشفى الى يومنا هذا .

وبعد مرور خطر المجاعة ، منع لافيجرى الاتصال بين أولئك الاطفال وما بقى لهم من أسر وقرابة ، ولما تدخلت السلطات وطلبت منه أن لا يحرم هـؤلاء الاطفال من الاتصال بأسرهم ، أجابهم بوقاحة يتبرؤ منها كل دين سماوى ، أجابهم بقوله : « انهـم لى اذ أنا الذى حافظت لهم على حياتهم » :

Ils m'appartiennent, parce que la vie qui les anime encore, c'est moi qui la leur ai conservée. C'est donc la force seule, qui les arrachera de leurs asiles".

أثارت هذه القضية خلافا حادا بين الماريشـال ماكمـاهو Mac Mahon والى الجـزائر اذذاك ، والكاردينال ، ورفعت الى الحكومة بفرنسا ، وكـان الامبراطور نابوليون الثالث على رأس الحكـومة الفرنسية ، فانتصر للوالى الا أن وزير الحـرب الماريشال NIEL شد عضد الكاردينال ، وفى الاخير وجد حل وسط يرضى الجانبين بالنسبة الى نشاط الكاردينال فى ميدان تنصير السكان ، فانهم سوغوا له تأسيس الملاجىء ، وأمروه بالاحتيـاط فى الدعوة الى التنصير ، أما من التقطهم فانه حيل بينهم وبين ذويهم ، وخسروا الجهتين ، فانهـم لم يندمجوا فى الفرنسيين السكان الاصليين اذ كانوا يحملون أسماء غريبة ، وألوانهم من جهة أخرى كانت تحمل الطابع الاهـلى ، بل الكثـير منهـم كانوا موشومين ، ولما سعى نفس الكاردينال وخلفـاؤه من بعده ، أن يمنحوهم أراضى استعمارية تعرض لهم المعمرون ولم يعترفوا بهم كمسيحيين ، وهكذا عاش كثير من هؤلاء التعساء فى تلك الناحية مذبذبـين ، يحملون أسماء Robert بن عبد القادر ، وجوزيف ابن عبد الله ، وقاطعهم السكان المسلمون ، وصاروا يسمونهم بالمطرنـين أى المتجنسين الى أن انقرضوا قبل الحرب العالمية الثانية ، حيث لم تبق منهم الا بقية ضئيلة جلت مع المعمرين اثر استقلال البـلاد سنة 1962 .

اثر هذه المأساة ، عين نابليون لجنة بحث برلمانية وأرسلها الى الجزائر لتبحث فى قضيتى المسغبـة والتنصير تحت رئاسة الماريشال وذلك فى ماى 1869 وكان من جملة من اجتمعت بهم مـن المسلمين الجزائريين ثلاثة أعضاء يمثلون المجالس العمالية لقسنطينة والجزائر ووهران ، وهم السادة محمد المكى بن باديس ممثل قسنطينة ، وحسـن بريهمات ممثل الجزائر ، وأحمد ولد قادى ممثـل وهـران .

كان موقف هؤلاء النواب وبالخصوص العالم الخبير حسن بريهمات موقفا مشرفا ، ضد مطالب المعمرين اذ بينوا للجنة البحث المظالم التى كانت البـلاد مسرحا لها ، وبعد رجوع اللجنة ال باريز اتخـذت الحكومة قرارات وسنت قوانين متضاربة ومتناقضة وأعطت الاوامر لتطبيق القوانين السابقة كقانـون 14 جوليت 1865 المشهور Senatus Consult وقانون 13 ديصمبر 1866 .

كان القانون الاول أى Senatus Consult منـح للجزائريين حق الجنسية الفرنسية ، وفتح لهم باب التجنيس على مصراعيه وهو ينص بأن لكل جزائرى الحق بمجرد تقديمه لطلب الجنسية أن ينال جميع حقوق الرعايا الفرنسيين ، وعندئذ تجرى عليـه الاحكام المدنية ، والسياسية الفرنسية .

Il peut sur sa demande être admis à jouir des droits de citoyen Français, dans ce cas, il est régit par les Lois Civiles et Politiques de la France.

لم ينجح هذا القانون حيث ان الاحصاءات الرسمية أثبتت ان المسلمين الجزائريين لم يتجنس منهم طوال مدة ما بين تاريخ صدور هذا القانون أى سنة 1865 الى 1881 لم يتجنس الا 783 متجنسا ، معظمهم من المجندين والمتفرنسين Jules Ferry

وكذلك لم ينجح قانون 13 ديسمبر 1866 الذى يبيح للجزائريين رفع أحكام القضاة الشرعيين الى المحاكم الفرنسية أو التحاكم لدى المحاكم الفرنسية مباشرة فكان موقف الشعب من جميع هذه القوانين موقف الحذر والرفض .

وفى سنة 1892 عينت لجنة بحث أخرى ، وارسلت الىالجزائر ، وكان معظم أعضائها من اعضاء مجلس الشيوخ الفرنسى ، تحت قيادة الوزير الشهير
فاتصل اعضاؤها بكثير من المسلمين ومنهم الحكيم الدكتور محمد بن العربى العضو بالمجلس البلدى بعاصمة الجزائر والشيخ محمد بن رحال الندرومى الشهير ، فقدما للجنة المطالب التى كانا يريانها مستعجلة ، وهى هامة جدا نسبيا ، حيث كانت تشمل التعليم وتعريبه ، واصلاح القضاء والضرائب ، ثم تكلما على اعانة الفقراء والمساكين، وبينا ان الملجأ الوحيد الذى بقى تحت تصرف المسلمين ، وكان معروفا بالتكية فى عاصمة الجزائر كان دخله السنوى من الاحباس يبلغ مائة وعشرة آلاف فرنك 110,000 وكانعدد الفقراء يبلغ سبعمائة فرد ، وفى سنة 1892 صار ذلك الدخل يبلغ أربعين ألف فرنك فقط ، يستغل نصفه موظفو التكية ، فكأنهم هم المحبس عليهم ، لا المساكين الذين كانوا يبلغون اذذاك خمسة عشر الف نسمة 15,000 تنوب كل واحد منهم 4 فرنكات فى الشهر ، وأظهرا ان الاوقاف بصفة عامة على المشاريع الخيرية قدرت فى العهد التركى بأربعين مليون فرنك ، وكان حظ عاصمة الجزائر منها سبعة ملايين فرنك ، تنفق على 150 مسجدا ، والآن أى فى سنة 1892 وصلت جميع ميزانية الوظائف الدينية والشرعية ستينألف فرنك ولو قدر ريع الاربعين مليون 2،50 فى المائة فقط لكان ذلك الريع مليون فرنك بدلا من ستين الف فرنك ، ثم صرح النائبان المذكوران ان نواب الجزائر كانوا قدموا مطلبا سنة 1868 فى موضوع الاحباس ، وطلبوا محاسبة الدولة على ذلك ،فأجابتهم الدولة الفرنسية بأنها أحالت المسألة الى لجنة مخصصة لتبحث فى القضية ، الا أن هذه اللجنة المخصصة لم تظهر نتيجة أعمالها الى يومنا هذا أى الى سنة 1892 .

ثم أثارا قضية أخرى تتعلق بأحباس المرحوم القينعى التى كانت تقدر اذذاك بمليون فرنك ، وقد اشترط المحبس ان المراقبين على حبسه هما : المفتى والقاضى بالعاصمة ، فاستحوذت الحكومة على ذلك الحبس الخاص وعينت أروبويين نظارا ومراقبين ، بدلا من المفتى والقاضى اللذين اشترطهما المحبس ، ثم تعرض النائبان لقوانين مصادرة الاملاك ، ومنع المسلين من شراء الاراضى الحكومية والقوانين الاستثنائية ، والخدمة العسكرية التى كانت الحكومة الفرنسية تحاول أن تفرض قانون

التجنيد الاجباري . ثم تعرضا للتجنيس وصرحا « بأن حرية التجنيس لا تلائم أصول الشريعة الاسلامية » . وهذا ما ترك Jules Ferry يصرح بعد رجوعه الى فرنسا تصريحه الشهير الذى قال فيه

"Ils ne veulent ni de nos droits politiques, ni de notre instruction, ni de notre service militaire. Ils demandent purement et simplement le maintien de leur statut personnel, avec conservation intacte des prescriptions coraniques".

انهم لم يريدوا أو لم يقبلوا حقوقنا السياسية ، ولا تعليمنا ، ولا خدمتنا العسكرية .

انهم يطلبون المحافظة على أحوالهم الشخصية وتعاليم الدين الاسلامى بتمامها .

وقال عضو آخر من اعضاء هذه اللجنة جوابا لتذمر السكان من منع التعليم بالمساجد والزوايا قال : « بعد توقف ومحاولات اصلاحية باءت بالفشل تاكد لدى السلطات العسكرية . ان هذه المراكز (اى المساجد والزوايا) لا ترجى من تعليمها اية فائدة . بل رات تلك السلطات أنها مراكز تنبثق من تعاليمها العداوة والكراهية لفرنسا ، ولهذا حطمتها الواحدة بعد الاخرى . ومنعت التعليم فيها :

L'autorité militaire fut convaincue qu'on ne tirerait jamais rien de ces foyers de fanatisme anti-Français, elle se mit catégoriquement à détruire l'une après l'autre les zaouias et les Médersas.

ولهذا لم يكن فى كامل التراب الجزائرى سنة 1890 الا المدارس الثلاث الرسمية بالجزائر وقسنطينة وتلمسان بها 82 تلميذا . وفى نفس سنة 1890 تخرج من هذ المدارس المذكورة 14 تلميذا .

وقال عضو آخر من اعضاء هذه اللجنة ان الطرق الدينية تكون هيكلا من رجال الدين . يتطلب من أتباعها الطاعة التامة لشيخ الطريقة . والمعارضة للقوانين الفرنسية ، ولهذا فان الحكومة فرضت فى الميزانية ابتداء من سنة 1892 مائة وعشرين الف فرنك . لتتبع ومراقبة هذه الطرق ونشاطها .

كما وجدنا أثرا آخر فى ميزانية الجزائر لمحاربة هذه الطرق وذلك برفع مرتبات . ورفع عدد الموظفين الدينيين . الا أننا نعلم ان هذه الطريقة اى رفع مرتبات ورفع عدد الموظفين الدينيين لاترجى منها نتيجة ، فكل ما نجنيه هو ان ننال احتراما صوريا من الموظفين الدينيين . الا أن التعصب الدينى فى جوهره يشملهم جميعا :

Aujourd'hui les confréries forment un véritable clergé, qui règlemente les pratiques religieuses exigeant de ses adeptes une obéissance passive dans le but inavoué de résister aux innovations importées par les Français.

Depuis l'année 1892, nous trouvons inscrit au budget un crédit de 120 000 francs, destinés spécialement à la surveillance des confréries. Il serait vraiment utile si les rapports des agents ont pour suite des mesures de rigueur individuelles, contre les Mokadems d'abord puis contre les Khouans que leur turbulence rendrait dangereux.

Un autre moyen de luttes contre les confréries dont nous trouvons également trace au budget, c'est une augmentation de crédits en faveur d'un clergé séculier musulman. Nous avouons n'en pas attendre grand résultat en Algérie. Nous y récolterons peut-être un peu plus de bienveillance apparente, mais aucune considération d'argent ne réussira à entamer le fanatisme de ce clergé qui, au fond, partage absolument, la façon de voir des confréries.

يتبين لنا من هذه الصفحات ان مقاومة الشعب الجزائرى فى الميدان الروحي ، كانت لا تقل عن المقاومة المسلحة طيلة عهد الاحتلال ، خصوصا ان ذلك الزمان لم يكن المواطنون الفرنسيون أنفسهم يحلمون بحرية التفكير أو حرية القول ، وكانت فرنسا أقوى دولة فى العالم ، والقوانين الاستثنائية منتشرة ، حتى أن أقل شيخ بلدة فرنسى يمكنه ان يحكم بالنفى أو السجن على من شاء من المسلمين .

وعلى ذكر هذه المقاومة وشخصية الشيخ محمد ابن رحال الذى كان يمتاز بثقافة متينة اسلامية وفرنسية ، ولعب دورا عظيما فى تلك الفترة ، واستغل علائقه الشخصية مع الشخصيات العلمية الفرنسية الذين كانت تربطه بهم صداقة مثل العالم الشهير الدكتور Gustave Lebon صاحب التاليف الذى يشيد بالحضارة الاسلامية عبر التاريخ ، وغيره من الكتاب ، كان الشيخ ابن رحال لم يقصر دفاعه عن حقوق بلاده ، بل كان يشارك فى المؤتمرات العلمية العالمية ، ويرد على خصوم الاسلام ، وقد حافظ لنا التاريخ على محاضرة قيمة فى الموضوع ، القاها فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى باريز 1897 تحت عنوان «مستقبل الاسلام» نلخص منها بعض الفقرات اذ هى تهم موضوع بحثنا ، وتضفى عليه فى هذه الليلة صبغة دينية ، تتفق مع احياء ليالى رمضان ، اذ لضيق الوقت نختم بهذه الفقرات سمرنا من دون أن نخرج من الموضوع .

استهل الشيخ ابن رحال محاظرته بقوله :

«ان الدين الاسلامى يمتاز عن بقية الاديان السماوية المعاصرة بانه غير معروف .

قليل من الناس اهتموا بالتقرب منه ، ودراسته دراسة عميقة ، وقليل جدا من يتصوره صورة ولو قريبة من الحقيقة ، ويحكمون عليه احكاما مستمدة من غير ما يمليه التعصب والمصالح الاستعمارية ، ولهذا فاننى مغتبط جدا حيث فتحتم بحثا ، لاشك انه يلفت أنظار الباحثين لزيادة الاهتمام به .

ثم ذكر انه حصر موضوع محاضرته فى أربعة مواضع :

- أولا : الاسلام وقيمته كوسيلة حضارية
- ثانيا : قيمة معتنقيه
- ثالثا : سياسة الدول الاسلامية
- رابعا : مواقف الشعوب المتمدنة ازاءه .

وبعد أن يذكر المحاضر بانه يعز عليه ان يطرح السؤال ويجيب عنه كمسلم ، يشعر ويعتز بتعاليم دينه ، التى يجد فيها الرضا والطمأنينة ، تلك الطمأنينة التى لا تترك منفذا للشك ، يستدل المحاضر بأن نفس التاريخ يؤيد نظريته ، فالقرون التى شاهدت منائر الاسلام مرتفعة ، وأنواره منتشرة ، كانت الحضارة الاسلامية بلغت درجة قل ان شاهدتها الامم فى عهود ديانات اخرى وبسببها ، تلك الحضارة التى مازالت آثارها قائمة الى يومنا هذا ، وهى وحدها كفيلة بان تدفع جميع ما يبعث الشك بان الاسلام لم يكن وسيلة حضارية فى المجتمع .

ثم يسترسل المحاضر فى حديثه ، فيقول : بان الدين الاسلامى متمم للديانات التى سبقته ، وهو صلة وصل ، ووسط بين الديانتين اللتين سبقته ، احداهما تشريعية ، والاخرى لاهوتية ، حيث ربطت

مملكة السماء بمملكة الارض ، وجعلت من حياة الفرد المثالية فى هذه الدنيا ضمانا لحياة الجزاء فى الآخرة .

ان جميع تعاليم الدين الاسلامى ، تهتم بحياة الانسان وتكلفه ما يطيقه ويقدر عليه ويرضى ميوله البشرية والروحية ، وتجعل توازنا بين الرخاء والشدة ، العفو ، والعدل ، الواجبات والحقوق :

De l'ensemble il est résulté un tout complet universel et simple, fait à la mesure de l'homme et proportionné à ses facultés, donnant également satisfaction à l'âme et à la raison, alliant dans un équilibre parfait la sévérité et le pardon, la clémence et la justice, le droit et le devoir.

ثم يقول : ان المسلم المتنور لا يشعر أبدا ولا يشك ، انه مكره على حياته الدينية ، ان ضميره وقلبه دائما مطمئنان أمام مشاكل الحياة الدينية :

Opressé ! Non jamais un musulman éclairé n'a ressenti les angoisses de l'incertitude ou du doute. Jamais sa raison, sa conscience ou son cœur ne s'en sont trouvés offusqués par une prescription injustifiée ou incompréhensible.

ثم تعرض للمرأة فقال :

انها تعيش فى دنيا النساء ، فتبقى طاهرة وزوجة محترمة ، وأما مقدسة ، وبمجرد تزوجها تنال حريتها فيمكنها أن تبيع وتشترى ، وتتصرف فى مالها الخاص من دون توقف على موافقة والدها او زوجها ، واذا تأيمت او طلقت يمكنها ان تتزوج من دون توقف على موافقة أى احد ، وفى الطلاق فان حقوقها مساوية لحقوق الزوج ولهذا فاننا لانعجب من أن الاخلاق والعلائق العائلية التى انفكت عراها عند المتمدنين ، بقيت محفوظة فى البلاد الإسلامية :

Quant à la femme Musulmane vivant dans l'unique société des êtres de son sexe, elle demeure une fille pure, une épouse respectable, une mère toujours vénérée. Au reste, une fois mariée, elle est émancipée. Elle peut vendre, acquérir, tester, administrer sa fortune personnelle, sans le secours ni l'autorisation du père ou du mari. Veuve ou divorcée, elle peut se remarier sans le consentement de personne et quand au divorce ses droits sont égaux à ceux du mari.

Dans ces conditions est-il étonnant que les mœurs et les liens de famille si recherchés chez les civilisés, se soient conservés intacts dans le monde musulman ? Faut-il pour le démontrer davantage, étaler la misère morale des non croyants et leurs vaines recherches d'un idéal jamais atteint le vide de leurs thèses philosophiques les milieux échafaudés et le néant de leurs conceptions rationnelles, les plus laborieusement conçues.

ثم تطرق المحاضر الى الحديث عن الصراع الطبقى ، واستغلال الانسان للانسان ، الذى يظن الكثير انه وليد العصر الحاضر فقال :

«ومن جهة أخرى هل نحن فى حاجة الى بيان ان الصراع الطبقى الذى يمزق العالم المتمدن ، مجهول فى بلاد الاسلام ، وقضية التعاون بين رؤوس الاموال واليد العاملة وجدت حلها منذ ثلاثة عشر قرنا ، حيث ان التعاليم الاسلامية حرمت الربا .

هل تتصورون التغير الذى يقع فى اروبا عند ما تقع هذه الثورة ، وهى ان الرأسمالية يتحتم عليها أن لا تقرض المال للعامل ولكن تشترك معه على الربح والخسارة ولا تستغله لكن تعينه بالتوجيه :

Dans un autre ordre d'idées, est-il nécessaire de démontrer que la lutte de classes qui déchire le monde civilisé est inconnue en pays d'Islam et que la question de coopération du capital et du travail a été résolue

il y a treize siècles par cette seule disposition du législateur Musulman : Le Prêt à intérêt est interdit.

Conçoit-on le changement, la révolution féconde et bénie qui se produirait en Europe, le jour, où le capitaliste serait mis dans la nécessité, non de prêter l'argent au travailleur, mais de s'associer avec lui pour les bénéfices comme pour les pertes, non de l'exploiter, mais de le commanditer.

ثم تعرض الى الحديث عن موقف الرسول صلى الله عليه وسلم فى قضية الرق ، الذى اعترف له الدين الاسلامى بالاخوة ، وحرض على معاملته معاملة انسانية ، ورغب فى تحريره وعتقه ، كما ان الاسلام اعترف للمسكين والفقير بحقوقهما ، وجعل لهم نصيبا فى اموال الاغنياء ، بخلاف ما كان يجرى به العمل فى عهد الرومان :

Faut-il vanter la façon dont le Prophète arabe est arrivé à émanciper l'esclavage, à réaliser l'égalité parfaite de tous, et cette fraternité entre Musulmans et entre voisins, oui, entre voisins, qui pour l'Europe restera toujours un vain mot et cette charité qui donne au pauvre une part, un véritable droit sur le patrimoine du riche, et ce désintéressement absolu de la loi romaine laquelle ne pouvait être impartiale puisqu'elle a été faite par le riche contre le pauvre, pour le Patricien contre le Flébein.

ثم يذكر المحاضر انه لم يقصد من بحثه التعمق والتوسع فى البحث ، وكل ما يقوله فى الموضوع، ان الاسلام فى ميدانه السياسى والاجتماعى ، دين ساعد على نشر الحضارة .

ثم انتقل الى الحديث عن المسلم فقال :

اننا نجد ظاهرة الدين الاسلامى الذى انطلق من الصحراء بواسطة رجل امى ، امكنه أن يكيف ويطور عدة اجناس انطووا تحته من مختلف الطبقات والجنسيات ، فمن الاسود البدائى الى الفارسى الآرى ، العريق فى التمدن ، ومن البربرى المقيم الى العربى الظاعن ، ومن الصينى الى الانكليزى والتركى ، أليس هذا بمعجزة ، وهذا كله رغم موقف المسلمين ورفضهم لتغيير احوالهم واتباع التطور :

Si de l'Islam nous passons aux Musulmans, nous constatons ce phénomène étrange d'une religion qui née dans le désert est propagée par un prophète illéttré, s'adapte aisément à toutes les races, à tous les milieux, à tous les climats.

Le nègre primitif et obtus s'en trouve aussi bien que le Persan aryen et raffiné, le Berbère sédentaire et positif, autant que l'arabe nomade et poétique, le Javanais que le Chinois, l'Anglais, oui l'Anglais froid et correct que le Turc pensif et résolu.

N'est-ce point miracle ?

Et celà malgré l'indolence des Musulmans à l'égard de tout prosélytisme et leur refus scrupuleux de modifier en rien leur dogme et son objectif.

ان هذه الديانة المستقلة ، والغير المغرضة ، هذه الديانة صالحة للجنس البشرى كله ، لانها ليس لها كهنوت يمكنه تسخيرها ، بما تمليه عليه المصالح والاهواء ، فانها بقيت ، وستبقى ، محافظة على صفاتها ، ومحاسنها ، ولهذا فان كل قلب دخله الايمان ، الا وحافظ عليه ولم يرض به بديلا .

C'est que, indépendante et désintéressée, cette religion convient au genre humain tout entier ; c'est que n'ayant pas de clergé qui puisse la modifier à sa guise où l'interprêter à son profit, elle conserve et conservera toujours sa pureté originelle et ses vertus. Voilà pourquoi lorsqu'un cœur en est touché, il l'aime de toutes ses forces et ne s'en déprend plus.

ثم تعرض المحاضر الى مواطن الضعف في البلاد الاسلامية فقال :

انها توجد في كثرة الدول والخلاف بينها وذلك ان الخلفاء الراشدين ومن خلفهم من الملوك عندما توسعوا في الفتوحات لم يجعلوا نصب أعينهم اكتساب الامم أو البلدان ، وانما كانت غايتهم نشر الدين الاسلامي ، كما تتطلبه منهم تعاليم الدين ، فلم يكن للديبلوماسية ، ولا للنظر في العواقب التي تترتب على علائق الجزيرة العربية ببقية البلدان المحتلة أهمية ، وكانوا يرون ان العلائق التي تربط المسلم بأخيه ، أقوى من جميع العواطف الوطنية ، فعقبة بن نافع ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد لم يفكروا في العلائق بين الجزيرة العربية والبلدان النائية التي وصلوا اليها في فتوحاتهم ، فان المسلم كيفما كانت جنسيته ، وفي أي مكان وجد ، هو مساو لبقية المسلمين في الحقوق والواجبات ، فلا تمكن معاملته معاملة استثنائية ، بالنسبة الى سكان جزيرة العرب ، وكذلك غير المسلم الذي رضي بان يدفع الجزية ، فهو حر في دينه ، ورؤساؤه الدينيون معترف لهم بالتصرف التام في رعاياهم ، وبهذه المعاملة المرتكزة على الثقة ، عاشت جاليات مسيحية ويهودية ويونانية وارمينية في بلاد الاسلام ، واننا نرى الآن الدولة التركية تقاسي ما تقاسيه من الاهوال اذ استسلمت الى الثقة ، ولم تاخذ حذرها ، فمما لاشك فيه ان هذه الاقليات لم تكن محترمة أومعتبرة كافراد الرعية المسلمين ، الا انهم كانوا يتمتعون بالحرية التامة ، واذا استثنينا بعض المناصب الادارية خصوصا ما يتصل بالحربية ، كان أفراد هذه الاقليات يرتقون الى أعلى المناصب الحكومية ، ففي المغرب ، حتى في عهد بني مرين ، كان اليهود ينالون المناصب الوزارية ، وكانوا يستبدون على المسلمين أنفسهم .

أما الاسرى الغير المعتقين ، والمحررين ، فكانوا يرتقون أيضا الى المناصب الشرفية الراقية .

وهل نجد نفس هذه المعاملة بالبلاد المسيحية بالنسبة الى الاجانب ، حتى في زماننا هذا ، اللهم الا اذا تجنسوا .

ثم يتعرض المحاضر الى الداء العضال الذي كان من أسباب تدهور الحالة بكثير من بلاد الاسلام فقال:

ان الثقة التي وصلت الى حد اللامبالاة بالنسبة الى الرعايا والتشدد الذي وصل الى الاستبداد بالنسبة للمواطنين ، ثم سياسة الملوك التي كانت تخضع للغيرة ، والتحاسد ، حتى كان ذلك التحاسد والغيرة أساسا لمعاملة بعضهم بعضا ، مثل ما نراه اليوم عند الحكومات المسيحية ، مع الفارق ان شعوب الدول الاسلامية في الغالب ، متآخية ، لم تتأثر بالخلافات بين قادتها ، ان عاطفة الوطنية الضيقة لا وجود لها عند المسلمين اللهم الا في بعض البلدان كتركيا وبلاد فارس .

ثم تعرض المحاضر للامراض الداخلية التي تنخر جسم العالم المتمدن ، ومواقف هذا العالم مع المسلمين ، خصوصا ، الدول الاستعمارية كفرنسا وانكلترا وهولاندا ، فتحدث باسهاب عن الاستعمار الفرنسي ، وطرق حكمه ، والخطط التي رسمها غلاة

المعمرين لابادة السكان . وافتكاك أراضيهم ، وتفقيرهم . وتجهيلهم .

ثم ختم بحثه القيم بقوله : « ان القرن العشرين الذى سيشاهد التقدم العلمى والتقنى ، وتقارب البلدان ، مثل الرجاء الصالح مع القاهرة . سيشاهد سياسة فرنسية ـ اسلامية . معتدلة . أو يشاهد الكارثة .

ولهذا أختم حديثى عن الاسلام فى افريقيا وأقول انه ان لم يتمدن على طريق فرنسا ، فانه يتمدن رغم انفها وضدها :

Malheur est que le colon laisse faire intérieurement ravi, et c'est la France qui pâtit dans son objectif Africain. Quand on rêve de s'annexer la moitié d'un continent réduire l'indigène à la misère même par la voie légale,n'est pas une politique, le charger de tous les crimes, n'est ni une ju stification ni une solution.

Nous sommes de ceux qui croient qu'il n'est pas difficile de trouver mieux. Mais il

faut se hâter si l'on veut pas que toute reconciliation devienne impossible.

Le 20e siècle qui verra le cap au Caire et le Transaharien verra nécessairement une politique Franco-Musulmane mieux appropriée ou une catastrophe.

C'est pourquoi, modifiant légèrement ma conclusion pour l'Islam en général je dirai de l'Islam africain-occidental, s'il ne se civilise pas par la France et avec la France, il se civilisera malgré elle et contre elle.

الى هنا ينتهى سمرنا هذه الليلة ، والخلاصة هى انه بفضل مواقف شعبنا . واعتزازه بدينه وقوميته . تجنبنا الاندماج والتفسخ ، اذ لم تستهوه مظاهر الحضارة المزيفة ، ولا الاغراء المادى الذى كان بعض صغار الضباط العسكريين والمعلمين يتهافتون اليه . أمكن للجزائر عشرات السنوات أن تقف صامدة . مقاومة . محافظة على دينها وعاداتها . ولم يمكن للمعمرين الوصول الى اهدافهم وادخال البلبلة فى صفوف شعبنا الا ابتداء من فرض التجنيد الاجبارى . اذ كان الشبان المجندون عند ما يبتعدون عن بيئاتهم ، يسقطون ضحايا للرذائل مثل شرب الخمر والفساد . ثم لحق بهذه الضحايا عند ما فتح باب الهجرة للعمال بعد الحرب العالمية الاولى فالكثير منهم تخلقوا بأخلاق الوسط الذى أجبرتهم الظروف للاندماج فيه . خصوصا من تزوج منهم بالاجنبيات الا اننا بحمد الله نجد فى ديننا حصانة وفى صالح عاداتنا ما يغنينا عن الاندماج فى أمم أخرى بلغت ما بلغت من الرقى ومازال الى الآن كثير من الكتاب الاجانب يعترفون ان الاسلام ماشى الحضارة جنبا لجنب ولم يضق عنها ، ومازال يحمل فى طياته تعاليم ومبادىء تمكنه من الوقوف أمام التيارات الجارفة التى تجتاح العالم سواء فى الميدان الروحى أو الاقتصادى والاجتماعى .

المهدى البوعبدلى

(ألقيت هذه المحاضرة بمركز المحافظة الوطنية لجبهة التحرير بمستغانم فى 25 رمضان 1390 هـ)

النشـاط الثقـافى

اعداد
حكمت ياسين

تم تنظيم مهرجان فنى كبير في مدينة تيمقاد كما هى العادة في كل عام في الفترة ما بين 28 أفريل الى 2 ماى 1972 ، اشتركت فيه بعض الدول الشقيقة والاجنبية الواقعة في حوض البحر االمتوسط ، اذ انه مهرجان سنوى لدو ل البحر الابيض المتوسط وقدمت مختلف الفرق الفنية االمشتركة عدة تمثيليات ومسرحيات وحفـلات غنائية وموسيقية راقصة ، كانت فرقة « الكاف التونسية » اولى الفرق التى ظهرت على خشبة المسرح معلنة بذلك افتتاح الموسم الثقافي ، وفي اليوم الثانى للمهرجان تقدمت فرقة المسرح الوطـنى للرقص الشعبى بمشـاركـة المطربة رابحة عدة رقصات شعبية ناجحة نالت اعجاب الجمهور وتصفيقاته وهتافاته . وفى المساء تقدمت الفرقة الموسيقية الموصيلية بالاشتراك مع الطاهر فرقانى والعفوى عدة مقاطع موسيقية شعبية متنوعة . وفي يـوم الاحد 30 أفريل عاش الجمهور مع فرقة « 71 » لبلدية مالاكوف الفرنسية التى قدمت مسرحية « انتيقون » وهى عبارة عن مسرحية مأساوية تاريخية قديمة ، امتازت بروعة الاداء والاخراج ووضعها في اطارها التاريخي . واشتركت فرقة « عيد الفجر » الاسـبانية للرقص برقصات واغانى مطربة كان لها اثر كبير على الجمهور الذى أبدى انفعاله معها ، وتجاوبه لفنونها بشكل ملحوظ . وفى اليوم ما قبل الاخير أشتركت فرقة المسرح الوطنى الجـزائرى بعـرض مسرحية « ورود حمر لي » التي تم عرضها لاول مرة سنة 1964 واعيد عرضها مرة ثانية سنة 1966 ، وتعتبر من الاعمال الفنية العالمية الضخمة . ..

فكان مهرجان تيمقاد كما يظهر من الفرق الشاركة فيه ، تجمعا فنيا وثقافيا عالميا وهو بالنسبة للجزائر الواجهة الثقافية المطلة على شواطئ البحر الابيض حيث تلتقي فيه فنون وثقافات هذه المنطقة ، وهو فرصة عالمية ثمينة للدعاية والتعريف ببلادنا وفرصة نادرة لاستغلال هذا التجمع الجماهيري من جميع انحاء التراب الوطني لطرح أهم قضايانا الثقافية والثورية ، ورغم أن الدعاية لهذا المهرجان لم تكن على المستوى الواجب ، اذ انها لم تتعد حدود مدينة تيمقاد ، الا أن اقبال الجماهير عليه كان شديدا . وبشكل حماسي ، اذ ان المسرح الروماني الذي يتسع لحوالي ثلاثة الاف متفرج كان يغص بالمتفرجين من كافة انحاء الوطن طوال مدة المهرجان ، كما أن الامطار الغزيرة التي تهاطلت على الممثلين والمتفرجين معا ، والتي كان من المتوقع ان تفشل المهرجان ، لم يكن لها اى تأثير على سير العروض والحفلات الفنية ، ولا على نفوس وحماس المتفرجين .

وتظهر اهمية مهرجان تيمقاد في جميع الميادين السياسية والثقافية والاقتصادية والسياحية ، فالمهرجان يدعو لاشتراك جميع بلدان البحر الابيض ابتداء من بلدان المغرب العربي والمشرق العربي الى الدول الاوروبية ، فهو بذلك احدى الوسائل الرامية لتعزيز فكرة وحدة المغرب العربي والعالم العربي ، ويعمل على دعم الفكرة الدولية القائلة بوجوب جعل البحر الابيض منطقة امن وسلام وذلك عن طريق التبادل الفني والثقافي ومشاهدة التراث الفني لدول المنطقة .

ومن وجهة النظر الثقافية فبالاضافة الى مشاهدة الجمهور الجزائري لفنون وثقافات عدة دول عربية واجنبية ، وقضاء عدة أيام وليالي فنية ساهرة فان المهرجان في نفس الوقت يعتبر فرصة للتعريف بالانتاج الفني والثقافي الجزائري للعالم ، والاطلاع كذلك على الانتاج الفني العالمي ومحاولة الاستفادة من ذلك الانتاج .

أما أرباح المهرجان الاقتصادية فانها لا تخفى على أحد ، اذ أن كثرة عدد المشاركين فيه وما ينفقون من مصاريف ، تعود بالفائدة المادية على المنطقة ، أما المهرجان نفسه فان أرباحه التي بدأت بمبلغ 3 ملايين تضاعفت لتصل 5 ، 1 مليون في العام الماضي مما يؤكد زيادة هذه الارباح في المهرجان الخامس لهذه السنة

واخيرا فانه يمكن أن يكون تمهيدا جيدا لتنشيط حركة السياحة في البلاد باستغلال المناطق الاثرية والطبيعية الخلابة ، وانشاء المركبات السياحية والفنادق والمطاعم السياحية لتسهيل اقامة السواح في الجزائر ، وبهذا يكون مهرجان تيمقاد قد قدم فوائدة جمة للجزائر .

الاسبوع الثقافي الخامس في قسنطينة

بمناسبة الذكرى 32 لوفاة رائد النهضة الجزائرية الحديثة ، وزعيم رجال الاصلاح وجمعية العلماء في الجزائر ، الشيخ عبد الحميد بن باديس نظمت وزارة الثقافة والاعلام — كالعادة — مهرجانا ثقافيا وفنيا لمدة اسبوع في مدينة قسنطينة ابتداء من يوم 16 افريل سنة 1972 ، وقد أشرف الاخ احمد طالب الابراهيمي وزير الثقافة والاعلام وعدد من المسؤولين المدنيين والعسكريين على افتتاح هذا المهرجان الثقافي .

وقامت المجموعات الفنية القسنطينية وفرقة الاذاعة والتلفزيون بتنظيم حفلة فنية ساهرة بقاعة سينما الكوليزي حضرها وزير الثقافة والاعلام قدمت خلالها مجموعة من الفنون الشعبية كالرقصات الفلكلورية والاغاني الاندلسية ، والموسيقى التقليدية ومعارض للصور واللوحات الزيتية والصناعات التقليدية ، وتم القاء قصائد شعرية حماسية تخليدا لذكرى المصلح الكبير ابن باديس ، وقد بذلت بلدية قسنطينة جهودا حميدة لانجاح هذا المهرجان بكثرة الملصقات والاعلانات.

وقد كان قصر الباي الذي تم بناؤه سنة 1826 طوال فترة المهرجان مسرحا لجمع غفير من الزوار قدموا لمشاهدته نفسه ، ومشاهدة ما يجرى بداخله من عروض ومنتوجات وطنية خاصة للصناعات التقليدية كالالبسة والاواني الطينية والنحاسية ، بالاضافة الى معرض الفنان بونورة ، المشهور بتماثيله المختلفة المنحوتة والمحفورة على الاخشاب ، وغيرها من الاعمال الفنية .

وقدمت فرقة المعهد البلدي للموسيقى مسرحية «الفقر والشرف» ، بينما كانت قاعة الكازينو معرضا للوحات الفنية التي انتجها طلاب المعهد البلدي للفنون الجميلة بمدينة قسنطينة والتي كشفت عن المستوى الممتاز للمشاركين.

أما قاعة الكوليزي فقد شهدت عدة حفلات فنية ورقصات متنوعة وعروض مسرحية ، حيث قدمت فرقة الاذاعة والتلفزيون حفلة غنائية بقيادة المطرب عيسى مقلة وبمشاركة مختلف أنواع المطربين بأغانيهم الصحراوية والشعبية والبدوية ، كما اشتركت كل من ثانوية رضا حوحو بمسرحيته « ثمن الحرية » وثانوية ابن باديس بمسرحية « النصر او الاستشهاد » وثانوية حيحي المكي بمسرحية « أشواك السلام » .

ونشير في هذه المناسبة الى أنه قد القيت في المهرجان عدة محاضرات ثقافية هامة كانت أولها محاضرة قيمة حول « الثورة الزراعية » القاها رئيس اللجنة الوطنية للثورة الزراعية السيد محمد عبد العزيز ، برز فيها اساس الثورة الزراعية والتحولات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي ستنجم عنها وأكد على ضرورة العمل الجاد لانجاح هذه الثورة لما لها انعكاسات سعيدة على الطبقات الكادحة .

كما ألقى السيد محمد الميلي مدير الاخبار بوزارة الاعلام محاضرة قيمة حول « الشخصية الوطنية في التاريخ القديم والحديث » ، استعرض فيها تطور الشخصية الوطنية عبر التاريخ ومقاومتها لكل عمليات المسخ التي تعرضت لها في تاريخها الطويل ، ثم ذكر مختلف المراحل التي مرت بها الشخصية الوطنية وأهم سماتها ، ثم أشار الى الشخصية الوطنية من خلال ثورات الجزائر ، واشار في الاخير الى ان هذه الشخصية التي صمدت عبر تاريخها الطويل لا بد وان تصمد اليوم أمام السمات المستوردة والتي لا تتماشى مع الواقع الجزائري .

وقد استهل وزير الاعلام والثقافة هذه المناسبة وعقد سلسلة من الاجتماعات الهادفة مع مسؤولي المنطقة ، تقرر فيها انجاز عدة مشاريع فنية وثقافية هامة ، اذ أنه سيتم انشاء « مركب ثقافي » بمدينة قسنطينة ، وبناء قاعة متعددة الفروع ومكتبتين للكتب ، وستبلغ تكاليف هذا المشروع الضخم 1,300,000 دينار جزائري ، وستقوم وزارة الاعلام والثقافة بتموين المشروع .

ويعتبر مهرجان قسنطينة فرصة ثمينة للمدينة اذ هو تعبير عن تقديرها الكبير لابنها البار الشيخ ابن باديس ، الى جانب كونه فرصة لنشر الثقافة الفنية بأنواعها في المنطقة ، واظهارها لبقية مناطق الوطن ، كما أنه فرصة تلتقي فيه مختلف الفرق الفنية والشخصيات السياسية والعلمية والادباء والشعراء والفنيون ، ويتم بينهم التعارف وتبادل الآراء والافكار التي من شأنها أن تخلق ثقافة وفن أصيلين .

وانتهى مهرجان قسنطينة الخامس بعد أن حقق نجاحا باهرا وادى واجبا وطنيا عظيما .

المهرجان الثقافي الجزائري في المشرق العربي

في اطار التعريف بالفن الجزائري قامت وزارة الثقافة والاعلام ما بين 12 و 25 مارس بتنظيم مهرجان ثقافي في ثلاث بلدان من بلاد المشرق العربي في ، سوريا والعراق والكويت ، وكان المشاركون يمثلون مختلف الميادين الفنية الفلكلورية ، والمجالات الثقافية الفكرية ، اذ اشتركت في احيائه المجموعة الصوتية للموشحات والفرقة الصحراوية والفرقة العصرية ، كما تم عرض أفلام وبرامج تلفزيونية والى جانب هذه المجموعات الفنية اشترك عدد من رجال الفكر والادب الذين أثروا المهرجان بمحاضرات متنوعة قيمة ، تناولت بالبحث والتحليل مواضيع الثقافة الشعبية بالجزائر ، والادب الجزائري المعاصر ، وقد اشترك الرسامون الجزائريون هم الاخرون في هذا المهرجان ، وقاموا بعرض ما أنتجته مواهبهم وخطت ريشهم وأقلامهم من رسومات فنية تعبر عن واقع الوطن وتاريخه النضالي التحرري .

ويكتسي هذا المهرجان اهمية عظيمة وأدى خدمة وطنية كبيرة ، فمن الناحية السياسية والقومية أكد هذا المهرجان على أواصر الاخوة التي تربط بين الشعب العربي الجزائري والشعب العربي في المشرق العربي ، فكان فرصة للقاء الاخوة الاشقاء من الارجاء المتباعدة للوطن العربي ، وكان تعبيرا صادقا عن حسن العلاقات وانسجام الروابط المتينة التي ترجع الى أقدم العصور ، لا سيما منذ الفتح الاسلامي وأكد هذا المهرجان عروبة الجزائر ، وتمسك الشعب الجزائري بعروبته واسلامه . ومن وجهة نظر وطنية ثقافية فان المهرجان أظهر للاخوة المشارقة مدى حرص الجزائر على استرجاع شخصيتها الفكرية والثقافية بعد أن استطاعت أن تسترجع شخصيتها السياسية والوطنية ، اذ أن العرب في المشرق الذين ينظرون للشعب الجزائري نظرة اجلال واحترام ، ويعتبرونه مثلا رائعا للتضحيات والبطولات يتصورون ان هذا الشعب العربي قد سيطرت عليه الثقافة

الفرنسيه والمشمت شخصية العربية الاسلاميه . ولا يتصورون ان هناك ثقافة وفنا عربيان اصيلان في الجزائر العربية التي رزحت تحت نير الاستعمار ما يزيد عن القرن من الزمن ، ذلك انهم لم يسبق لهم ان شاهدوا حفلات فنية جزائرية ، ولم يسمعــوا اراء وافكار جزائرية ، لانه لم يسبق عرض مثل هذه الانتاجات الفنية والفكريـــة والادبية ، فجاء هذا المهرجان ليزيل ذلك الاعتقاد من المنطقـــة ويظهـــر للاخوان في المشـــرق العـــربي ، ان الجزائر العربيـــة فيها من الطاقات والقدرات الفنية والثقافية ما يجعلها جديرة بأن تعد من بين الدول العريقة في الفكر والادب شأنها في ذلك شأن شقيقاتها الدول العربية .

وقد استطاع المشـاركون في هذا المهرجان النجاح التام في أداء رسـالتهم النبيلة ، فأظهروا وجود الفن والثقافة الجزائرية ، وأزالوا ذلك الاعتقـــاد المبنى على التصور فقط ، وقد كان تفاعل الجماهير العربية في قاعـــات الاحتفلات اكبر دليـــل على نجـــاح المهرجان ، اذ لم تكن جماهير المتفرجين تنقطع لحظة عن التعبير عن انفعالها للاعمال الفنية المختلفة التى تدمتهـــا الفرق الفنية الجزائرية ، وقد لاحظ المشـاركون أنفسهم انفعال الجماهير ، وانسجامهم مع الاغاني والمسرحيـــات الجزائرية بما كانوا يبدونه من ترحيب حار وتصفيق حاد ، وهتاف عـــال . ان هذا المهرجان الثقافي الجزائري كان الخطوة الاولى في طريق اقامة مهرجانات ثقافية أخرى في الاعوام القادمة في عواصم البلاد العربية المختلفة ، وكان بداية الطريق لخروج الفن الجزائري بأنواعه من اطاره المحلي الضـــيق لينتشر في وطنه العربي الواســـع . ومما لا شك فيه ان نجاحه لاول مرة يبعث على التفاؤل ، ويشير الى امكانية نجاح المهرجانات اللاحقة لا سيما اذا ما تم تفادي الاخطاء والنواقص التى قد يكن شعربها الفنانون المشتركون ليستطيعوا أداء أعمالهم على خير وجه وأحسن صورة ، ولا ننسي بأن المهرجان كان فرصـــة عزيـــزة لالتقاء الفنانـين الجزائريين بالفنانين العرب في المشرق وكان لهذه اللقاءات اثارها القيمـــة والمفيدة في ميدان الفن والثقافة !

الاسبوع الثقافي الجزائري في باريس

نظمت ودادية الجزائريين بأوروبا مهرجانا فنيا وثقافيا في مدينة باريس وقد أشرف على افتتاحه المسيو جاك دوهاميل وزير الثقافة الفرنسي، والسيد محمد بجاوي سفير الجزائر في فرنســا وذلك يوم 4 أفريـــل 1972 ، وقد تبادل الوزير الفرنسي والسفير الجزائري الكلمات المعبرة عن الترحاب والشكر ، والامل في أن يكون هذا المهرجان فاتحة عهد يسوده الصفاء وحســـن الجوار بين الشعبين الفرنسي والجزائري والتفاؤل في مستقبل الجزائر الثقـــافي والفنى المستمد من ثرواتها الفنيـــة والفلكلورية العريقة ؛ فقد قال الوزير الفرنسي على الخصـــوص بأن ماضي الجزائر حـــافل بالتـــاريخ والامـــال والنجـــاحات الشيء الذى يسمـــح للجزائريين بالافتخـــار بما حـــدث في الجزائر قبل ثلاثة عشر قرنا ، والاهم من هذا هو عدم تمسكهم بالثقافـــة التقليدية وانما يعدون لثقافة عصرية

وبعد الافتتاح شـــاهد المســـؤلان الفرنسي والجزالـــري مع الجمهـــور مسرحية « البوابون » للممثل والمخرج الجزائري رويشد ، وكان الممثلـــون يتكلمون اللغة العربية الفصحى مما زاد في انتبـــاه الجمهور ، ومتـــابعة فصول المسرحية بكل اهتمام ، ورغم حدوث بعض عدم الانسجام اثناء ترجمة بعض العبارات الى اللغة الفرنسية فقد نالت اعجاب الحاضـــرين الذين عبروا عن هذا الاعجاب بالتصفيق الحاد والهتاف المتواصل .

وفي الســاعة 6ر5 مســاء يوم 6 افريل القى الاستاذ عبد المجيد مزيان استاذ علم الاجتماع بجامعة الجزائر محاضرة هامة بعنوان « الثقافة الجزائرية » ؛ قا ل فيها بأن ما قدم حتى الان حول الثقافة الجزائرية يمثل وجها غير حقيقى حو ل الشبيبة والمشاكل التى تعانيها وان هذه الصورة الخاطئة نتيجة لتناسى ماضي الثقافة الجزائرية،وكذلك الى عدم الاهتمام بالحيوية التى تطبع الثقافة في الوقت الحاضر ، وأشـار الى أن مرحلة التحو ل العميق التى تجتازها البلاد حاليا ترتكز على هذا الماضي الذى يحتل مكانته في الثورة الثقافية .

وفي مســاء 7 افريل ألقى السيـــد بلحاج مسؤول في كتابةالدولة للتخطيط محاضرة حول التنميـــة الاقتصـــادية والاجتماعية والثقافة بالجزائر ، فأشـار الى التطور الاقتصادي الكبـــير الذى حدث في الجزائر خلال فترة قصيرة من من الاستقلال وبعد أن أشـار الى أن مشكلة التعريب قد أصبحت حقيقيـــة ملموسة تمنى بأن تكون جزائر 1980 — 1985 بلد 20 مليون نسمة في ذلك الوقت قد قضت على جميع المشـاكل

والفقر والجهل ، وحققت عدالة اجتماعية بمعنى الكلمة .

والى جانب هذه المحاضرات الثقافية والاجتماعية قامت الفرق الفنية الجزائرية باحياء سهرات فنية راقصة من طرف فرقة « الباليه » للمسرح الوطني ، وفرقة الموصلية للاذاعة والتلفزيون عزفت فيها موسيقى كلاسيكية واندلسية عبرت عن أصالة هذا الشعب وارتباطه بالعادات والتقاليد التى اكتسبها من ماضيه الزاخر بالفن والثقافة والفلكلور الشعبي العريق .

واختتم المهرجان يوم 10 افريل بعرض الفيلم الجزائري « ريح الاوراس » وحفلة فنية ساهرة بمشاركه عدد من المطربين مثل الغازى،الشريف خدام ، نورة ، وخليفى‌احمد ، فكانت هذه الحفلة ايذانا باختتام الاسبوع الثقافي الجزائري في باريس ، بعد ان حقق نجاحا باهرا نظرا للعروض الفنية الرائعة التى قدمتها مختلف الفرق الفنية والتى حازت على اعجاب المتفرجين وتقديرهم من خلال التصفيق والهتاف .

وقد كان لهذا المهرجان صدى كبيرا في مختلف الاوساط الفرنسية ، حتى ان الاطراف اليمينية المعروفة بعدائها للجزائر وجدت نفسها مضطرة للثناء على هذا المهرجان ، لانها لم تستطع أن تجد الثغرات لتدخل اليه . وهكذا فقد كتبت جريدة « الفيغارو » مقالا بعنوان « مظاهرة تترتب عليها نتائج سياسية » فقالت : « أردنا أن نقدم الى شعب فرنسا الذى له مكانة خاصة في قلب كل جزائري ، بعض الصور عن الجزائر الموحدة والمتعددة الوجوه وعن ثقافتها العريقة‌والفنية فى‌آن واحد

وقد أشرف الوزير الفرنسي للثقافة على اختتامه متمنيا أن تسمح تظاهرات مسرح شانز اليزي بتدعيم الصداقة وتفاهم افضل بين الشعبين المجاورين لنفس البحر الابيض المتوسط ، ويبدو أن المهرجان حقق هذا الهدف النبيل اذ أننا لاحظنا انتقادات نزيهة للعروض التى قدمت سواء مسرحيات أو باليه ، وقال الوزير الفرنسي بأن الجزائريين بعد عشرة سنوات من معاهدة ايفيان والنتائج الوخيمة التى تلتها والاحداث المؤلمة التى سبقتها ، اتوا الى قلب باريس يقدمون بطريق الغناء والرقص والموسيقى وجها وديا وسلميا .

وقد كان هذا المهرجان فرصة ثمينة سمحت للكثيرين بالتعرف على الخطوات العملاقة التى قطعتها الجزائر في ميدان الفن والثقافة ، كما انه خطوة أولى للنشاطات التى سيتم تنظيمها فيما بعد للمغتربين الجزائريين في ميدان الثقافة، كما انه سيعكس عدة اوجه للنشاط في الجزائر والمجهودات التى تبذل من اجل خلق مجتمع جديد تسوده الرفاهية والمساواة ومحاربة الاستغلال بجميع اشكاله وبناء جزائر عصرية وحديثة .

مهرجان دمشق الاول لسينما الشباب

تم في الفترة ما بين 1 — 8 افريل في دمشق تنظيم مهرجان سينمائى للشباب كان الاول من نوعه ، وقد تميز باثارة العديد من قضايا السينما الحديثة ، ونظرة المخرجين العرب الشباب اليها ، وخضعت هذه القضايا في مجرى نقاشها الى القواعد النقدية التقليدية باستثناء اراء بعض المخرجين الذين تخصصوا في أوروبا فكآن يتمتع بعضهم بحس نقدى سليم . وقد

اشتملت ايام المهرجان السبعة على اربعة عروض لليوم الواحد في الصالة الواحدة ، علما بأنه قد خصصت ثلاث قاعات للعرض ، اى أن مجموع العروض المقدمة في اليوم الواحد كانت اثناعشر عرضا ، كان يتخللها في فترات الاستراحة مناقشات بين المخرجين والنقاد السينمائيين واسئلة للصحفيين ، وتم في هذا المهرجان عرض 30 فيلما وثائقيا تسجيليا و28 فيلما طويلا بينهما فيلمان كوبيان .

اما الدول المشتركة في المهرجان رسميا فهى ست دول عربية هى سوريا العراق ، مصر ، لبنان ، لكويت ، وتونس ، واشتركت ثلاث دول عربية بصفة غير رسمية وهى الجزائر والمغرب وفلسطين .

وكان الفيلم الجزائري مدار حديث متنوع للنقاد والمخرجين الذين اتفقوا على انه يعد في طليعة الافلام العربية تمثيلا واخراجا ، وكانت الافلام التى تم عرضها هى « حسن الطيرو » ، « والخارجون على القانون » و« الجحيم في سن العاشرة » .

وكانت عملية توزيع الجوائز على النحو التالى :

— الجائزة الكبرى للمهرجان نالها الفيلم الروائى الطويل « اغنية على الممر » لعلي عبد الخالق المصري ، وكذلك فيلم « بس يابحر » لخالد صادق الكويتي .

— جائزة الفيلم الروائى المتوسط : « طائر التربة » لجان لطفي السوري .

— جائزة الفيلم الروائى القصير : «اللقاء » لمروان المؤذن السوري .

— جائزة الفيلم الوثائقي القصير :

« محاولة عن وادي الفرات » لعمر أمير الاي السوري ، وكذلك « حصان الطين » لعطيات الابنودى المصرى :

ـ جائزة الفيلم الوثائقي المتوسط : « بالروح .. بالدم » لمصطفى أبو علي الفلسطيني .

ـ جائزة اللجنة « الفهد » لنبيل المالح السوري ، و « شمة . » لاحمد بناني المغربي .

ـ شهادة تقدير : « بعيدا عن الوطن : لقيس الزبيدي السوري ، جائزة النقاد للفيلم الطويل : « مائة وجه ليوم واحد » لكريستيان غازي اللبناني . وللفيلم القصير : « الزيارة لقيس الزبيدي العراقي .

وعلى كل حال فرغم العيوب والنواقص التى ظهرت في المهرجان فانه يعد خطوة حميدة في طريق التقاء الافكار والآراء للمخرجين والنقاد السينمائيين العرب ، والعمل على تطوير الفيلم العربي حتى يرتفع الى مستوى الافلام العالمية ، ونرجو أن يتكرر هذا المهرجان في كل سنة حاملا معه تجديد السينمائيين الشباب العرب .

معرض للرسوم الفنية المصرية في المانيا الديمقراطية

أقامت الفنانة الرسامة المصرية السيدة تحية حليم معرضا للصور واللوحات الفنية في غرف الاكاديمية الفنية في برلين عاصمة المانيا الديمقراطية . والفنانة حليم ولدت في الصعيد المصري سنة 1919 ، وتلقت تعليمها الفني في القاهرة ثم في باريس في اكاديمية جوليا . ورغم تأثرها بالفن الاوروبي في بداية حياتها وابداعاتها الفنية ، الا أنها لم تخضع لها ، ولم تترك لها اثرا في أعمالها الفنية الرائعة التى تصور حياة الريف المصري . لقد عرضت عدة صور ولوحات فنية رائعة للبنات المصريات الريفيات التى تدل ملامح وجوههن، وجمالهن الريفى الساحر على ترابط الفنانة الاصيل بالشعب ، واخلاصها لوطنها الصعيدى الذى ظل طابعه مسيطرا عليها ، وترابط وثيق بالتقاليد الفنية الوطنية . ويظهر من هذه الصور واللوحات بعض التيارات المصرية القديمة في الصور الجدارية والفن القبطي الشعبي ، وقد أسهمت الفنانة في تطوير اسلوبها الخاص والاصيل جدا والمتحرر من كل الميول نحو التأثيرات الشكلية الدارجة ، وقد اشترت بعض المتاحف الحديثة في القاهرة وغيرها من المدن الاجنبية ، وهواة جمع اللوحات الفنية ، عددا كبيرا من رسومها الفنية .

وقد سبق لتحية حليم أن نالت جائزة « جوجنهايم » سنة 1958 ، وميدالية ذهبية من صالون القاهرة سنة 1960 وجائزة الدولة من الطبقة الاولى ، ووسام الطبقة الاولى للفن .

وقد كان هذا المعرض تعبيرا صادقا عن حسن العلاقات السياسية العربية الالمانية، ووسيلة هامة لاخراج الفن العربي من حيزه الضيق الى الافق العالمي الواسع .

بليغ حمدي وصلاح عرام في الجزائر

وصل الى الجزائر الملحن المشهور الموسيقار بليغ حمدي ، والاستاذ صلاح عرام رئيس الفرقة الذهبية ، وذلك للاشتراك في احياء الذكرى العاشرة للاستقلال ، وعيد الشباب الجزائرى ، وينوى أثناء اقامته في الجزائر وضع ألحان مبة للمطربه وردة الجزائريه التى ستشارك في احياء عيد الاستقلال بعد انقطاع عن الغناء دام عشرة سنوات وفي مقابلة تلفزيونية وصحفية عبر الاستاذ بليغ حمدى عن تمنياته في أن يجد الاصوات الجميلة ليضع لها ألحانا جميلة ، وان يستطيع الفن الغنائى في الجزائر أن يخرج عن محليته لينفتح على العالم كله لان الفنان العربي في نظره مطالب بأن يثبت وجوده للعالم ويكون وجهة مشرفة للخارج . وقال في ختام حديثه ان الكلمة التى أقولها هى اننى أتمنى أن أسمع الغناء الجزائري من خلال الاذاعات العربية ، وأن تقوم وزارة الثقافة والاعلام بتسجيل شرائط للاغاني وتهديها للاذاعات العربية وأتمنى أن اشارك ولو فى خطوة واحدة فى الموسيقى الجزائرية .

الثورة الثقافية

للاخ محمد الشريف مساعدية مسؤول التوجيه والارشاد في الحزب

في اطار الاسبوع الثقافي لشبيبة الحزب يوم الجمعة 18 فيفري القى الأخ محمد الشريف مساعدية محاضرة قيمة تناول فيها موضوعا هاما يكثر حوله الجدل والنقاش في الاوساط المثقفة على الخصوص ، وبالاضافة الى شدة حساسية الموضوع فانه يهدف الى تغيير العقلية التى لا تتلاءم ووضع الجزائر الحالي وهو موضوع « الثورة الثقافية » .

وقد قدم المحاضر تحديدا لمفهوم الثورة وحصر المعنى الثقافية تمكن المستمعين من معرفة محتوى الثورة الثقافية ومعانيها وابعادها الحقيقية .

مفهوم الثورة :

قال المحاضر بأن الثورة هي « تغيير جذري للظروف الاجتماعية البالية وهي كل عمل منظم يستهدف ازالة الاوضاع الفاسدة في المجتمع » . وهكذا نستطيع ان نفهم بأن الثورة هي قبل كل شيء وسيلة للوصول الى غاية معينة يطمح لبلوغها المجتمع ، وطموح المجتمع ينعكس بالضرورة في ثقافته على مختلف مستوياتها وأشكالها . ان مفهوم الثورة يرتبط بثلاثة عناصر رئيسية ارتباطا عضويا بحيث انه كلما ذكرت الثورة عدت الى اذهاننا تلك العناصر التي هي « التغيير .. والمقاومة .. والنصر » . وعند ما تعرف الثورة بأنها تغيير فهذا يعني انها لا يمكن أن تستورد ، بل لا بد أن تنبع من روح الشعب يخلقها ويحميها . وطبيعي أن هناك كثيرين يستفيدون من ابقاء الوضع الحالي ويعملون جاهدين على منع احداث اي تغيير وهذا هو عنصر **المقاومة** والصراع الذي لا يستمر حسب الديالكتيكية الهيغلية طويلا بين هذين العنصرين حيث يتم **النصر** للثورة التي قد تلبس ثوبا جديدا . ان الثورة كل لا يتجزأ فالثورة الحقيقية والاصيلة لا تتم في ميدان واحد بل تتعداه لتشمل كل الميادين ومن ثم نجد بلادنا تخوض عدة ثورات : الثورة الزراعية ، الثورة الثقافية ، الثورة الصناعية .

معنى الثقافة :

قدم المحاضر عددا من التعاريف لمعنى الثقافة منها أن الثقافة هي "مجموعة الافكار والمفاهيم والقيم التي تؤثر تأثيرا واضحا في السلوك الفردي والجماعي على السواء . ومن ثم فالثقافة كالكائن الحي تتأثر وتؤثر في البيئة المحيطة بها أي أنها تخضع للظروف التاريخية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية فثقافة اى شعب لاتتشابه مع ثقافة شعب آخر ، بل ان ثقافة الشعب الواحد تتبدل حسب النظام الاجتماعي فمثلا تقتصر ثقافة النظام الاقطاعي على « الخاصة » بينما نجد ثقافة النظام الراسمالي تمجد دور الفرد أو ترفعه الى القمة دون أن تنظر الى العلاقات الاجتماعية السائدة ، أما ثقافة المجتمع الاشتراكي فهي تنزع نحو الروح الجماعية ذات الطابع الجماهيري .

الثورة الثقافية :

بعد توضيح معنى الثورة ومعنى الثقافة نعود الى الثورة الثقافية التي تعني « قلب وتغيير الاوضاع والعادات والتقاليد والهياكل البالية ، وهي تعني تحطيما وهدما وخلقا وابداعا » . وقد ابتدأت هذه الثورة بحركة الاسلام بما جاء به من احداث تغييرات في السلوك والمفاهيم والقيم وبذلك يكون الاسلام اول من حقق ثورة ثقافية معايشة لحياة الفرد وتطلعاته . والثورة الثقافية في بلادنا ابتدأت بالثورة المسلحة ضد الاستعمار ، وكل المنجزات التي حققتها الجزائر من صميم الثورة الثقافية كالاصلاح الزراعي والتسيير الذاتي .

وتعرض المحاضر الى العلاقة بين المثقف الثوري والجماهير فهو مرتبط بها ارتباطا عضويا ومحليا ولايوجد هناك أى حاجز يقف بين المثقف الثوري وجماهيره بل يعتبر هو المعبر الحقيقي عن مشاعر الشعب واحاسيسه بطريقة واضحة متلائمة ، وانهى الاخ مساعدية محاضرته القيمة يقول : « ان الثورة التي لا تنبع من احاسيس الجماهير مهما كانتسليمة من ناحية الفكر ومن ناحية التخطيط الا انها تبقى عاجزة أمام عدم التزام الجماهير بها أى أنها تفقد تربتها الطيبة »

فيلم الفتح

تم في دار الاثار السينمائية الجزائرية عرض فيلم وثائقي متوسط حول الثورة الفلسطينية لمخرج ايطالي ، والفيلم فيه جوانب ايجابية واخرى سلبية . فالفيلم كما يظهر من عنوانه يحمل فكرة ثورية تدور حول الثورة الفلسطينية . بدأ الفيلم بعرض المشكلة الفلسطينية منذ الاحتلال الصهيوني لفلسطين سنة 1948 ، وما نتج عنه من هجرة فلسطينية ، واضطر المهاجرون أن يعيشوا حياة قاسية في الخيام القماشية التي كانت كثيرا ما تعجز عن مقاومة الرياح الشديدة والنوم على الارض والاكتفاء بغطاء خفيف يقي اجسامهم شر البرد القارس في ايام الشتاء الباردة ، وأبرز حياة ابناء اللاجئين الذين تظهر على وجوههم علامات البؤس والشقاء ، ويعانون من آلام الجوع مثلما يعانون من أخطار الامراض ، ويعيشون في حياة الفقر والجهل والمرارة . وقد عرض هذه المناظر بطريقة مؤثرة جدا على عواطف المتفرجين واحاسيسهم حتى أن الاجسام كانت برجفات تهزها ، ورعشات تسري في عروقها ، لفظاعة تلك المناظر المؤلمة التي لا تستطيع نفس بشرية أن تتحمل رؤيتها دون التأثر الحزين ، وابداء العطف الشديد على هؤلاء المنكوبين ، والكره والحقد على

من كانوا سببا في هذه المآسي والآلام البشرية .

وبعد ذلك ينتقل الى حياة الشعب الفلسطيني بعد نكسة سنة 1967 وزيادة تشرده وتجدد حياته القاسية في الخيام ، وانتظار رحمة وكالة الغوث الاممية لتقدم لهم قليلا من الدقيق والسكر ، وكمية ضئيلة من الارز والحبوب والزيت النباتي .

ثم ينتقل المخرج الى تصوير الشعب الفلسطيني بعد بروز الثورة الفلسطينية الى الوجود التي اعادت للشخص الفلسطيني كرامته ، وعملت علي رفع الذل والعار عن جبينه ، وخلقت منه مواطنا جديدا يمسك المحراث باحدى يديه ، والسلاح باليد الاخرى . واصبح ابناء اللاجئين الذين كانوا يتخبطون في الفقر والجهل ، يتمتعون بحقوق التعلم في مدارس الثورة التي جعلت من هذا الكم الضائع أشبالا ثوريين ، ورجالا للمستقبل ، وجيلا لتحرير فلسطين ، وبعثت فيهم الثقة بالنفس ، وخلقت فيهم روح الثورة والوطنية ، حيث ان الاطفال الذين لم يبلغوا سن الاشبال يضعون لانفسهم الدمى على شكل اسلحة ، ويقومون بتنظيم الالعاب ذات الرو ح العسكرية التي تعتمد على التنظيم وتمثل دور الطاعة والقيادة . أما الكبار فأصبح كل منهم يفتخر بفلسطينيته ويثنى على ثورته التي ردت اليه كرامته ، ويبدون استعدادهم لتقديم ابنائهم فدائيين في الثورة لتحرير فلسطين . ثم يصور معركة الكرامة التي كانت نقطة تحول حاسمة في تاريخ الثورة الفلسطينية ، ثم ذهب المخرج في كمرة التصوير الى بعض قواعد الفدائيين في باطن الجبال وتحت الارض والتقى ببعض قادة الثورة العسكريين والسياسيين ، وأعطى لجمهور المتفرجين فرصة لرؤيتهم وسماع ارائهم في التخطيط للثورة ، والاصرار على متابعة الكفاح المسلح حتى النصر النهائي .

وبهذا الصدد فانه لا بد لنا من القول بأن الفيلم لم ينجح النجاح الذى كان متوقعا له ، اذ كان تعوزه الدقة في التصوير والاخراج ، بالاضافة الى مشكلة الصوت التي كانت تسير بطريقة غير مرضية .

فالصور غير واضحة زيادة على أن معظمها صورا ثابتة ولم يظهر المصور براعة في تصوير مناظر الفدائيين اثناء تدريباتهم وعملياتهم العسكرية كالبراعة التي أظهرها اثناء تصوير مشاهد حياة اللاجئين ، اذ ان هذه العمليات مرت ببرودة واضحة لم تبعث الاحساس الشديد كالذى بعثه مشهد اللاجئين في خيامهم . بالاضافة الى أن ترجمة الصوت من العربية الى الايطالية لم يكن دقيقا اذ كان الكلام العربي يقاطع الكلام الايطالي مما كان يحدث ارتباكا في الصوت ، وزاد من المشكلة الترجمة الفورية من الايطالية الى الفرنسية مما احدث ازعاجا للمتفرجين ، وعدم انسجام الصوت والصورة .

غير أن هذه العيوب الفنية لا تقلل من قيمة الفيلم والصورة الحية التي قدمها عن مراحل تشرد الشعب الفلسطيني وتطور حركة المقاومة الفلسطينية ، ووعي الشعب الفلسطيني وتفاعله مع ثورته التي استطاعت ان تخلق في نفس كل صامد في أرضه ولاجىء في خيمته روح الثورة والتضحية في سبيل الوطن .

ويعتبر هذا الفيلم خطوة هامة في طريق النشاط الاعلامي الفلسطيني في أوروبا لمواجهة الاعلام الصهيوني الذى ظل طوال العشرين سنة الماضية يعمل في ميادين واسعة يقدم للشعوب الاوروبية عن قضية الشعب الفلسطيني بينما كان الاعلام العربي غائبا عن المسرح كما انه دليل واضح على بداية تفهم التقدميين والثوريين في العالم للقضية الفلسطينية ، اذ ان القائمين عليه ايطاليون ، وهذا يشير الى وجود كثير من الاوروبيين المتعاطفين مع الشعب الفلسطيني وقضيته . ولا شك في أن هذا الفيلم وما سيتبعه من أفلام ونشاطات ثقافية أخرى ستكون لها آثار واضحة في تغيير الدعايات والاعتقادات الخاطئة السائدة في أوروبا عن قضية فلسطين ، لتصبح معروفة على حقيقتها فتكسب بذلك تأييد العالم وعطفه ووقوفه الى جانبها .

كتب :

٢ ـ هجرة الكفاءات تأليف ولترآدمز.

كتاب بالغ الاهمية يحتوى على عدد من مجموعة بحوث القيت ونوقشت في مؤتمر لوزان في شهر اوت 1967 تدور حول مشكلة هجرة الكفاءات وهى مشكلة تعاني منها ، خصوصا الدول النامية وتعتبر الولايات المتحدة الامريكية أكثر البلاد جذبا لهذه الكفاءات ، تناول فيه تاريخ هجرة الشخصيات العلمية والمفكرين الى البلاد الاجنبية منذ العهد اليوناني حتى وقتنا الحاضر . فأظهر الباحث أن هجرة الكفاءات قديمة قدم العلم نفسه ، فقد كان العلماء يهاجرون من كافة انحاء العالم الى مدينة اثينا لانها كانت مركزا للعلم . ولما أصبحت الاسكندرية

مركز العلم سنــة 300 ق م جــاء اليها مئات الكفاءات فيمختلف المعارف الانسانية ، وقد كان بطليموس هو الذى جذبهم اليها بسبب الذهب الذى اغدقه عليهم ، وفــرص الدراســة والبحث العلمى التى هيأها لهم .

وفي العصور الوسطى حيث بلغ عدد جامعات اوروبا حوالي ثمانين جامعة ، كان الحكام يتنافســون في اجتذاب خــريجي هــذه الجامعــات واساتذتها ، وأوضح مثال على هذا النوع من الهجرات ، ما حدث في باريس سنــة 1228 وعرفت هــذه السنة بسنة « التشرد الكبير » حيث هاجر طلبة واساتذة جامعة باريس الى لندن واسسوا جامعة اكسفورد ، والى غيرها من المدن .

وفيالوقت الحاضر فانالولايات المتحدة الامريكية هي أكثر دول العالم اجتذابا للكفاءات حيث اظهر العالم جيمس بركنز رئيس جامعة كورنيل بأنه قد هاجر الى امريكا 43 الف عالم ومهندس ما بين 1949 — 1961 ، وقالت احــدى الجرائد الامريكية حول هذه الهجرة : « ان الولايات المتحدة الامريكية تقدم باحدى يديها الملايين لهذه البلاد النامية من اجل أن تطور نفسـها ، ولكنها في الوقت نفســه تسلبهــا باليد الاخــرى قادتها القادرين على تطويرها ، فهؤلاء القادة بالنسبة لهذه البلاد أنفــع من الطعام والالات التي تقدمها لها » .

2 — 20 عاما من حربنا مع اسرائيل.
عشرون عاما من حربنا مع اسرائيل تاليف العقيد الركن المتقاعد : صلاح الدين عبد القادر محمد غائر .

نشر مطبعة الشعب — بغداد العراق

— يتناول تطور القضية الفلسطينيــة واحتمال قيام الجولة الرابعــة بين العرب واسرائيل وحتمية قيام هــذه الجولة .

3 — 3200 مجلة وجريدة عربيــة : تأليف عبد الغنى أحمد بيوض ، نشر المكتبة الوطنية بباريس .

يذكر الدوريات العربية المحفوظة حاليا في 20 مكتبة ، وقد صدرت ما بين 1800 — 1965 .

4 — العرب والطب : تأليف أحمــد شوكت الشطي ، نشر وزارة الثقافة دمشق سوريا .

5 — معجــم المصطلحــات العلميــة والهندسية والفنيــة : تأليف أحمــد شفيق الخطيب ، نشر مكتبة لبنان ، معجم جامع لمصطلحات العلوم والتقنية حجم 750 صفحة ، ويحتوى على 60 الف مصطلح في الطيران ، والاحياء ، والهندسـة ، والفلك ، والكيميــاء ، والارصاد الجوية ، والالكترونــات ، والراديــو والفيزيــاء ، والكهرباء ، والجيولوجيا ، والعلوم العسكرية .

6 — « أرتيريا شعبا وكفاحا » تأليف عبد الباري عبد الرزاق نجم ، نشر مطبعة العانى — بغداد — العراق .

هو دراسة وافية عن الثورة الاتيرية وتعريف القارىء العربي بارتيريا وثورتها الشعبية المسلحة .

7 — الى الجنوب نحو الموئل القـديم تأليف الكاتب الزنجي البرت موراي ، وهو لبنة جديدة في حركة الزنوج نحو الحرية ومقاومة جميع أشكال التميز العنصري .

8 — مايكوفسكي شاعر الثورة : تأليف مورشلكي ، لندن ، تناول حياة الشاعر الروسي مايكوفسكي من خلال احاديث بعض اقاربه واصدقائه الذين لازالوا يتمتعون بالحياة .

9 — مملكة سنغاى فى عهد الآسقيين ، تأليف عبد القادر زبادية ، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، وهو اصلا رسالة حصل بها المؤلف على شهادة « الدكتوراة من الدرجة الثالثة » وهو خطوة جديدة في طريق اهتمــام الباحثين الافارقة بحضارات قارتهم ، ومبادرة قيمة لجامعة الجزائر ليكون لها فضل السبق في القيام بمثل هذه البحوث التاريخية .

10 — دور الشعر فى معركة الدعوة الاسلامية ، تأليف عبد الرحمن خليل ابراهيم ، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر .

11 — نهضة الادب العربى المعاصر فى الجزائر 1925 — 1954 ، تأليــف الدكتور عبد الملك مرتاض ، نشــر الشركة الوطنية للنشر والتوزيــع ، الجزائر .

12 — الحسبة المذهبية فى المغــرب العربي نشأتها وتطورهــا ، تحقيــق الاستاذ موسي لقبال ، نشر ش . و . ن . ت . الجزائر .

13 — عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجايــة ، تحقيق رابح بونار ، نشر ش . و . ن . ت . الجزائر .

وكتبت مجلـة تايـم فى عـددها الصادر فى 29 ديسامبر 1971 مقالا صغيرا بعنوان : ساعة الكربون .

يعتبر كثير من علماء الاثــار أن شعوب أوروبا كانت فيما قبل التاريخ كانت شعوبا بدائية متأخرة . والحقيقة أن البقايا الاثرية مثل الاواني الفخارية

نشير الي انه كان يوجد مستوى عالي من الثقافة ، ولكن مثل هذه التركيبات كانت عادة تعزى او ترد الي التأثير الذى جلبه للمنطقة المهاجرون المهرة القادمين من المناطق الاكثر تقدما وحضارة خاصة في منطق الشرق الادنى وقد اولى علماء الآثار هذا الادعاء اهتماما كبيرا ، وبدروا جادين في فحص واختيار مدى صحة هذا الاعتراض المتعلق بانخفاض مستوى الثقافة لدى الاوروبيين القدامى ؟

ويرجع الفضل في معرفة هذه الحقائق وتحقيق مثل هذا الاكتشاف الهام الي التطور الهام الذى طرا لدى المؤرخين في طرق تأريخ مخلفات وبقايا الانسان القديم ، وكان هذا التطور هو استعمال وسيلة حديثة تعتمد علي مادة الكربون 14 بواسطة استعمال ساعة الكربون الذرية ، التي تم اكتشافها علي يد الكيمياني الامريكي الشهير الاستاذ ولارد لبي WILLARD LIBBY منذ عقدين من الزمن ، وسر [illegible] عملها علي أساس « فقدان » مادة الكربون 14 المشعة ، وهو احد نظائر الكربون 12 غير المشع والثابت ، ان كلا نوعى الكربون 14 و 12 توجد في جميع الكائنات الحية (نبات ، حيوان ... الخ) بنسب تبقى ثابتة طيلة حياة العضو او الكائن الحى ، ويزداد فيه بصفة مستمرة من جراء عمليات التجدد والتأيض ، غير انه عند ما يموت الكائن ويتوقف ازدياد المواد المتجددة ، وهكذا فان نسبة الكربون 14 الي الكربون 12 تبدأ بالتغير ، اذ تبقى كمية الكربون 12 ثابة العضو ، بينما يبدأ الكربون 14 المشع بالتناقص ، ويجرى هذا التناقص الاشعاعي بانتظام كما يجرى تيار الرمل في الساعة الرملية .

ولكي يستطيع العلماء حساب عمر مادة قديمة كقطعة خشب أو عظمة من العظام ، او بذرة عثر عليها في اناء صلصالي ، فانهم يلجأون الي قياس نسبة الكربون 14 الي الكربون 12 ، ان هذا الاختراع الفني الحديث اوجد ابتهاجا شديدا ، وفرحا كبيرا لدى علما الآثار ، كما ان صاحبه حصل على جائزة « نوبل » NOBEL ، مكافأة علي هذا الاختراع وقد [illegible] علماء الاثار باستعمالهم هذه الوسيلة الحديثة أن يؤرخوا لبعض الحقائق الفنية العلمية المتعلقة ببعض الانتاجات التي لاتزال تدور حولها استفسارات كثيرة ، وتاكدوا من أنها قدمت دعما شديدا وركيزة قوية لاحدى نظرياتهم المألوفة التي مفادها أنه قد حصل انتشار ثقافي تدريجي من منطقة الشرق المتحضر الي منطقة اوروبا الشديدة التخلف ، ما عدا بعض الاستثناءات القليلة ، وازداد اقتناع علماء الآثار – باستثناء القليل – بفكرة استطارة الحضارة ، ويرجع الفضل في حل هذا المشكل الي التأريخ بواسطة الكربون 14 الذى اخترعه لبي سنة 1950 ، حيث استخلص أن كمية الكربون الكلية الموجودة في العالم الان هي نفسها التي كانت موجودة في العصور السحيقة القدم،مجرى ذلك : ان عملية انتاج الكربون في الجو لا تتوقف ، ما دامت الاشعاعات لم تتوقف عن الاشعاع على سطح الارض تاركة وراءها الحطام الذري .

ولكن بسبب تزايد عدد تواريخ الكربون 14 المدهشة ، فقد بدأ العلماء في جامعة اريزونا ARIZONA ، وبنسلفانيا PENNSYLVANIA ، وكلفورنيا CALIFORNIA بدحض ادعاء أو زعم العالم لبي LIBBY ، وذلك بالرجوع الي بعض الكائنات الحية التي كانت موجودة في عصور ما قبل التاريخ مثل شجر صنوبر في كلفورنيا وشجر السكويا التي كانت قد ابتدأت في النمو منذ اربعة آلاف سنة ، وبالتحليل الدقيق للكربون 14 الموجود في حلقات النمو السنوية في الشجرة ، وجدوا أنه يوجد بالفعل تغيير طفيف ولكنه هام في عملية انتاج النظائر على مر الزمن ، وذلك كنتيجة للتغيرات التى تطرا على انطلاق اشعة كوسموس .

ولقد قام الاستاذ هانس سويس HANS SUESS ، [illegible] الكيمياء في جامعة كلفورنيا باعادة قياس الازمنة الاثرية الناتجة عن التأريخ بواسطة الكربون 14 في جميع انحاء العالم ، ولم تؤثر التقيمات التى قام بها علي التواريخ العامة المتفق عليها بالنسبة لحوادث الشرق الادنى ما عدا بعض الاستثناءات والاختلافات في بعض التواريخ فمثلا اظهرت تواريخ الكربون 14 التي تم اجراؤها بدقة ان النحاسين المهرة كانوا يمارسون اعمالهم في البلقان وربما في بلاد اسبانيا القديمة قبل أن يبدأ الاغريق بالسيطرة على الفنون التعدينية .

وكتبت مقالا بعنوان : **اساليب الطبيعة**

اذ كان هناك بالفعل كائنات حية اخرى تعيش فوق أرض غير هذه التي يعيش عليها الناس في العالم الادمي ، فما هي اشكالها المحتملة ! فبينما يظن بعض العلماء ان اشكال هذه الكائنات لن تشبه اى شكل فوق سطح ارضنا يرى الاستاذ جوزف كروت JOSEPH KRAUT استاذ الكيمياء الحيوية في جامعة

شفورنيا عكس هذا الراي ، فهو يرى ان الحياة السائدة فوق الكواكب في محيطات وبيئات مشابهة لما هو فوق الارض يجب أن تكون ذات أشكال ومشابهة تماما للاشكال التي تعيش فوق الارض ، وقول كروت بأن تخميناته هذه ما هي الا مجرد أوهام ، غير أنه يدعمها ببعض البراهين والايضاحات التجريبية فقد ترأس قبل 15 سنة فريقا من العلماء للبحث حول الابعاد الثلاثة للانزيمات أي البروتينات التي تعمل كوسيط كيماوي في جميع العمليات الكيمياوية الضرورية للحياة وكان موضوع اهتمام هؤلاء العلماء أنزيم يعرف باسم « سوبتلزين » SUBTILISIN يوجد في البكتيريا الارضية العاديه وقد لعلماء بفحص تركيبه المعقد وأثبتوا انه يشبه الى حد كبير انزيما أخر يدعى كيموتربسين CHYMOTRYPSIN وهو أنزيم معروف ومألوف عند جميع الكائنات بما فيها الانسان . ورغم الاختلاف الشديد بين هذين الانزيمين من حيث التركيب الجزيئي والشكل العام فان كلا منهما يحتوي ثلاث مجموعات متشابهة تماما من حامض الامونياك ، وهي التي تشكل ما يسميه كروت « غايات العمل » وبواسطة هذه النقط يتم نقل المحتويات الكيماوية في العمليات الحيوية ، وقد أطلق كروت على هذه الاكتشافات منذ اللحظة الاولى « التطور المتقارب » في ميزان الجزيئات ، وبعبارة أخرى فان الطبيعة اخترعت نفس الاجزاء من العمل الالى الجزيئي لتؤدى وظيفة خاصة في كائنين متباعدين مستقلين ، ويرى كروت أن هذا التقارب في تطور الانزيمين ليس مجرد صدفة . لان النظام العضوي والبناء الرئيسي للحياة (حامض الامونياك والبروتينات) معروفة لدى الجميع على أنها محتويات عامة لدى جميع الكائنات ولهذا فان الاكتشاف الذى حققه كروت يمكن اعتباره أكثر من برهان لما يمكن قبوله على انه حقيقة علمية للحياة وعند عرض نفس المشكلة فان الطبيعة ستقدم نفس الحل .

واخير كتبت موضوعا بعنوان :

الحياة بدون ماء

هل يمكن ان تكون الحياة فوق الكواكب مختلفة عن الحياة فوق الارض اي أنها عالم خال من الماء تماما ! ان التجارب التي أجراها الاستاذان جوستاولن GOSTAWALLIN . ودافيد اركسو DAVID ERICSON من جامعة كولومبيا ترى أن ذلك يمكن ان يكون بالفعل ، بالرغم من أنه بدون الماء فان أي عضو يمكن ان يكون غير معروف كلية ، لقد قام ولن واركسون بخلط الغازات التي تم اكتشافها حديثا في المسافات العليا من الجو كحامض الامونياك ، والميثانول وحامض النمل ، بنسب مختلفة ، وبعد أن خلصا الغازات من الماء وجعلاها نقية تماما ، وعرضاها للأشعة فوق البنفسجية ، وجدا أنها تنتج كميات قليلة من حامض (الامونيك الضروري للحياة ، فقال ولن WALLIN . ان سائل الامونياك ذو الصفات الفيزيائية والكيماوية الشديدة الشبه بصفات وخصائص الماء ، يمكن أن يقوم كوسيط وبديل للماء في حياة لا يوجد فيها ماء .

الاصالة و التقدم

محاضرة الاستاذ جاك بيرك :

استهل الاستاذ محاضرته بالاشارة الى كلمة الاستشراق فقال: انني لست مستشرقا وانما رجل مهتم بالعلوم الانسانية والاجتماعية ، واولى عناية خاصة بمشاكل العالم الشرقي ، واحاول أن أتكلم باللغة العربية التي لا اعتبرها كموضوع للتشبث بالعرب، بل كأداة للتبادل الفكري التلقائي الذى يعبر الىحد كبير عن الانسجام والتوافق الفكري والثقافي .

ما هو التقدم ؟

أشار جاك بيرك الي ان موضوع التقدم يهم كل من الفرد والمجتمع العالم وغير العالم ، ورغم أن بعض المستنيرين من علماء القرن الثامن عشر قد بحثوا فيه الا انهم لم يخوضوا في أعماقه ، والتساؤل عن مضمونه الحقيقي .

منذ زمن طويل تساءل المفكرون عما سموه بالتناقضات الثلاثة : التناقض الاول هو الذى أثاره ماركس وهو التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانسان وهذا موضوع اهتمام الاشتراكية الماركسية . والثاني هو التناقض بين الدول الاستعمارية وغيرها من دول وشعوب العالم ، اذ تأخذ حضارة صناعية تسرع الخطى في سيرها العام لتؤمن الاستغلال .. ثم التناقض بين القوة الصناعية بالذات وكيفيات انتشارها ، وهذا تناقض تام :

ان جميع هذه التناقضات الثلاثة يرجع في نظرنا الي نوع من التناقض بين عاملين هما العامل التكنولوجي من جهة ، والعامل الانساني من جهة ثانية ، فمثلا نلاحظ في التناقض الذى أثاره الماركسيون تناقضا بين الطاقة الصناعية من جهة وبين العامل الاجتماعي من جهة ثانية ، والتناقض الثاني أي تناقض الامبريالية فهو

نفس التناقض بين تكاثف والتقاء الطاقات الصناعية من جهة والمساواة بين الامم وحضارات العالم من جهة ثانية ، حتى أن فساد وتغيير الطبيعة يرجع الي نفس التناقض بين العاملين ، ولنتأكد من ذلك لنطبق هذا الرأي على احدى القرى البدائية البدوية البعيدة عن كل تأثير خارجى ، فنجد أن الحياة الاجتماعية فيها حياة مجتمع متكامل خاليا من تعسف الاتجاهات ، والفعالية التاريخية ، وهذه الحياة البسيطة فيها خليط من الوظائف الاجتماعية كلها . ان هذه القريةالبسيطة سرعان ما تتطور وتتطور من أبعاد الي أبعاد متعددة ، ان هذه القرية تأثرت من الخارج ونمت من الداخل فأخذت كما تقول اللفظة العربية الحكيمة « تتطور » فكلمة تطور استعملت لاول مرة عند ابن خلدون ، فعند ما جاء الفرنسيون الي قرى الاطلس الصحراوي مثلا كانت القرية في أبعاد تكنولوجية وعقائدية وجمالية تتناسب بعضها البعض ، ثم حدث تناقض بين قوة اقليمية وقوة مركزية هي قوة السلطان ، فلا بد أن الشكل التنظيمى كان يناسب بعض الاشكال الاقتصادية والعقائدية وغيرها . ولما جاء الحكم الفرنسي أثر في القرية وظهر نضال أخر ونغيرات أخرى ، ولا شك أيضا أن هناك تغيرا تكنولوجيا كان يناسب النظم الاجتماعية وغيرها ، ولما جاء طور الاستقلال فلا شك أن هناك تغيرات كبيرة ، فالمجتمع يتفتح على العالمية وكذلك يتأثر بتأثيرات مركزية من القوة الوطنية ، ونستطيع أن نستنتج مشكلة نظرية كبيرة بالنسبة للبدان النامية فهي مشكلة «الخصوصية» فمشكلة الخصوصية ترجع الي كيفية التركيب في المجتمع المغلق بين ابعاده ومراحله كما تقول المدرسة البنائية التى ترى ان البناء الاجتماعى هو أهم المظاهر الملموسةللمجتمع ، وامكانيات التطور والتركيب بين الابعاد المختلفة للمجتمع ، فالخاصية هي أن يحتفظ المجتمع بذاتيته مهما تغيرت أحواله وظروفه ، والخصوصية هي أن نحتفظ بشخصيتنا مع التطور الحضاري المفرط ولا يمكن أن تكون كلمة تطور رغما عن خصوصيتنا واصالتنا ، بل العكس هو الصحيح ، فاننا نتطور من أجل وجود خصوصيتنا واصالتنا ، وذلك حتى نكون من بين الدول المتقدمة ، لان التقدم لا يكون جزئيا ، فاما أن يكون أو لا يكون .

